قصص الرحمن
في
ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

مؤسسة الرسالة

قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

الجزء الأول

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك على خاتم أنبيائك الذي أرسلته رحمةً للعالمين. اللَّهمَّ ابعثه المقام المحمود الذي وعدته يا أرحم الراحمين، وبعد:

إن تاريخ الإنسانية ليس هو الحوادث التي جرت عَبْر الزمان الذي عبَر، إنَّما هو تفسير هذه الحوادث، والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان.

ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويُفسِّرها، ويربطها بما قَبلها وما تلاها، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقوّمات النفس البشرية جميعها: روحية وفكرية وحيوية، ومقوّمات الحياة البشرية جميعها: معنوية ومادية. وأن يفتح روحه وفكره وحسّه للحادثة، ويستجيب لوقوعها فى مداركه، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلاَّ بعد تَحرُّج وتمحيص ونقد.

فأمّا إذا تَلَقَّاها بادىء ذي بدء وهو مُعَطِّل الروح أو الفكر أو الحسّ - عن عمد أو غير عمد - فإن هذا التعطيل المُتَعَمَّدأو غير المُتَعَمَّد، يَحرمه استجابة مُعينة للحادثة التاريخية: أي أنّه يحرمه عنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل. ومن ثم يجعل تفسيره لها مُخطئاً يُجانب الحقيقة أو ناقصاً مشوّهاً.

هذه الاستجابة الناقصة المشوّهة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية؛ ذلك أن هناك عنصراً ينقص الطبيعة الغربية - بصفة عامة - لإدراك الحياة الإسلامية.. **هو عنصر الروحية الغيبية** - وبخاصة في العصور الحديثة بعد غَلَبة النظريات المادية، والطريقة التجريبية - على وَجْه أخص -، وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بقصص القرآن، وسلوك الأنبياء والأولياء، وحياة الفترة الأولى من قيام الإسلام وبعثةِ محمد ﷺ، كان نَقْص الاستجابة أكبر في العقلية الغربية الحديثة التي انتشرت في مناهج التربية والفكر والثقافة في ديار الإسلام.

إن الإنسان الذي يَدرس قصص الرَّحمن، وسلوك الأنبياء والأولياء، والتاريخ الإسلامي، الذي يبدأ منذ خَلَق الله آدم عليه السلام كما أنزله الله في القرآن، يجب عليه أن يعيش بعقله وروحه وحسّه في جوّ الإسلام كعقيدة وفكرة ونظام. وفي جو الحياة الإسلامية كقطعة من حياة البشرية الواقعية. وهذه الحياة في هذا الجو ضرورية جداً لِتَفْتَح نوافذ إدراكه جميعاً، لا لِفَهْم تلك الحياة فحسب، بل لإدراكها ككائن حي، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع في جسم هذا الكائن الحي.

وإنّه ليعزّ على الباحث في أي فترة من حياة الإنسانية أن يُدركها إدراكاً حقيقياً وداخلياً، إلاّ أن يتجاوب معها بكل ذاتيته، وأن يعيش في جَوّها بكامل مُؤثّراتها وإيحاءاتها، فليست هذه خصيصة قاصرة على الحياة الإسلامية، وإن كانت أكثر وضوحاً بالقياس إلى الحياة الإسلامية، لأنّ

مقوّمات هذه الحياة تختلف في كثير من أنواعها وماهياتها عن مقوّمات الفترة الحاضرة وبخاصة في ثقافة وفكر وسلوك العالم الغربي الذي امتدت حضارته على سائر أنحاء العالم. وإنَّه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة التاريخ الإسلامي والحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لِروح العقيدة الإسلامية، ولطبيعة فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة، وطريقته في الاستجابة للحياة كلها في ظل تلك العقيدة.

إنَّه لا بد من إدراك البواعث الحقيقية لتصرفات الناس في خلال هذه الحياة التاريخية الإسلامية وعلاقة هذه البواعث بالحوادث، والتطورات، ولا بد من رَبْط هذا كله بطبيعة الفكرة الإسلامية وما فيها من روح لا في شكلها الخارجي وخطواتها العملية فحسب ـ ولكن في تفسيرها للعلاقات الكونية، والعلاقات الإنسانية، والعلاقات الإجتماعية. وفي تصويرها لنظام الحكم وسياسة المال وطرق التشريع، ووسائل التنفيذ.. إلخ. وهي كلها من مقوّمات الحياة وبالتالي من مقوّمات تاريخ الحياة الإنسانية على هذه الأرض[١].

وعلى ضوء إدراك طبيعة العقيدة الإسلامية، وطريقة استجابة المسلمين لها يستطيع الدارس أن يَزِن دوافع الحياة الإسلامية في تلك الفترات التاريخية، والقِيَم الإنسانية الكامنة فيها، وأسباب النصر والهزيمة في كل خطوة، وأن يَتَصَوّر الحياة الظاهرة والباطنة لتلك الجماعات الإنسانية التي حملت دين الله منذ أرسل الله الرسل حتى نشأة الإسلام في أكمل صُوَرِه بدعوة محمد ﷺ، ومن ثم في البلاد التي انساح فيها.

إن الإسلام ـ بخلاف ما يعتقده كثير من المسلمين وبعكس ما يُصوّره أكثر المستشرقين والمؤرخين الغربيين ـ ليس حضارة عهد خاص،

---

(١) في التاريخ: سيد قطب. المسلمون، العدد الأول ص ٥٩.

ولا فن فترة من فترات التاريخ، يُمثله آثار ذلك العهد ومبانيه ويعيش في الأحجار والصور لا في واقع الحياة، وقد فَقَدَ صلاحيته للحياة وأدّى رسالته، كالذي يتحدث عن الحضارة اليونانية والرومية أو الفن التركي والمغولي.

إنَّه دين حيّ ورسالته خالدة، إنَّه حيّ كالحياة نفسها وخالد كخلود الحقائق الطبيعية ونواميس الحياة، إنَّه تقدير العزيز العليم، وصُنع الله الذي أتقن كل شيء، وقد ظهر في شكله النهائي[2] وطَوْره الكامل حين أعلن محمد رسول الله ﷺ يوم عرفة قول الله سبحانه: ﴿**اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ [المائدة: ٣].

اليوم.. الذي نزلت فيه هذه الآية في حجّة الوداع. أكْمَلَ اللّهُ هذا الدين. فما عادت فيه زيادة لمستزيد. وأتمَّ نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل. ورضي لهم «الإسلام» ديناً، فمن لا يرتضيه منهجاً لحياته ـ إذن ـ فإنَّما يرفض ما ارتضاه الله للمؤمنين.

ويقف المؤمن أمام إكمال هذا الدين، يستعرض موكب الإيمان، وموكب الرسالات، وموكب الرسل، منذ فجر البشرية، ومنذ أول رسول ـ آدم عليه السلام ـ إلى هذه الرسالة الأخيرة. رسالة النبي الأُمي إلى البشر أجمعين.. فماذا يرى؟.. يرى هذا الموكب المتطاول المتواصل. موكب الهدى والنور. ويرى معالم الطريق، على طول الطريق. ولكنه يجد كل رسول – قبل خاتم النبيين – إنَّما أُرسل لقومه. ويرى كل رسالة – قبل الرسالة الأخيرة ـ إنَّما جاءت لمرحلة من الزمان.. رسالة خاصة، لمجموعة خاصة، في بيئة خاصة.. ومن ثم كانت تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه؛ مُتكيِّفة بهذه الظروف كلها تدعو إلى إله واحد ـ فهذا هو التوحيد ـ وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد ـ

---

(١) منحى جديد في التاريخ الإسلامي للإمام الندوي، المسلمون، المجلد الخامس ص ١٠.

فهذا هو الدين ـ وكلها تدعو إلى التلقي عن هذا الإلـه الواحد والطاعة لهذا الإلـه الواحد ـ فهذا هو الإسلام ـ ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تُناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف. .

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر؛ أرسل إلى الناس كافة، رسولاً خاتم النبيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة، في زمان خاص، في ظروف خاصة. . رسالة تُخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة؛ لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تَتبدّل ولا تتحوّر ولا ينالها التغيير ﴿فطرة الله التي فَطَر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ [الروم: ٣٠].

وفَصَّل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها، وفي كل جوانب نشاطها؛ وتضع لها المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحوّر بتغير الزمان والمكان وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحوَّر بتغير الزمان والمكان. . وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنسان» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات، لكي تستمر، وتنمو، وتتطور، وتتجدَّد؛ حول هذا المحور وداخل هذا الإطار. . وقال الله سبحانه ـ للذين آمنوا: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم. وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾.

فأعلن لهم إكمال العقيدة، وإكمال الشريعة معاً. . فهذا هو الدين. . ولم يعد للمؤمن أن يَتَصوّر أن بهذا الدين ـ بمعناه هذا ـ نَقْصاً يستدعي الإكمال. ولا قُصوراً يستدعي الإضافة. ولا مَحلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير. . وإلاَّ فما هو بمؤمن؛ وما هو بمقرّ بِصِدْق الله؛ وما هو بمرتضي ما ارتضاه الله للمؤمنين!.

إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن، هي شريعة كل زمان،

لأنها ـ بشهادة الله ـ شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان؛ لا لجماعة من بني الإنسان، في جيل من الأجيال، في مكان من الأمكنة؛ كما كانت تجيء الرسل والرسالات. الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي. والمبادىء الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان؛ دون أن تخرج عليه إلاَّ أن تخرج من إطار الإيمان!.

والله الذي خَلَق «الإنسان» ويعلم من خَلَق؛ هو الذي رضي له هذا الدين؛ المحتوي على هذه الشريعة. فلا يقول: إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم، إلاَّ رجل يزعم لنفسه أنَّه أعلم من الله بحاجات الإنسان؛ وبأطوار الإنسان!

إن هذا الدين يجمع بين الكمال الذي لا انتظار بعده لدين آخر ولا حاجة معه إلى رسالة جديدة، وبين الحيوية التي لا نفاد لها والنشاط الذي لا آخر له، وبذلك استطاع أن يُساير الحياة ويُراقبها في وقت واحد ويُتابعها في صالحها واستقامتها، ويُنكر عليها في انحرافها و زيغها، فلا هو مُساير مائع ككثير من الأديان المحرّفة، ولا هو مُراقب جامد ككثير من الفلسفات النظرية، وذلك مَثَل الدين الكامل ومثل الدين الحي للإنسان الحيّ الذي يشعر بشعوره، ويعترف بحاجاته ويرشده في مشاكله، ويعارضه في اتجاهاته الفاسدة.

ولما كان الدين الإسلامي هو الدين الأخير والدين العالمي، ولما كانت الأُمة الإسلامية هي الأمة الأخيرة التي اختيرت لتبليغ الرسالة السماوية إلى أهل الأرض «إنه لا نبي بعدي ولا أُمة بعدكم» وكتب لها الخلود والإنتشار في الآفاق، كان من الطبيعي أن تمر في رحلتها الطويلة الواسعة بمراحل عصيبة ومواقف دقيقة لا عَهْد للتاريخ بها، وتُبتلى بعصور وأجيال لم تعرفها أُمة قبلها، وأن تُواجه صراعاً في ميدان العقول، والعلم، والحضارة، والإجتماع، والتشريع، لم تُواجهها أُمة في التاريخ،

ولذلك نرى أن الفترة التي مححت هذه الأمة لتوجيه الأمم والوصاية على العالم هي أكثر الفترات التاريخية تقلبات وتطورات، وأكثرها تنوعاً واختلافاً، وينشأ فيها من المشاكل والمسائل الدقيقة ما لم يخطر من أمة على بال، ولم يحلم به جيل من الأجيال، ويُمتحن الذكاء وقوة التشريع والثبات على المبدأ والمحافظة على الروح، والصلاحية للحياة، فالأمة التي تتغلب على هذه المشاكل كلها، وتخرج من هذه المعارك ظافرة منتصرة، هي أمة جديرة بالتحية صالحة للقيادة، ولا يمكن لقوة سياسية أو غارة خارجية أن تقضي على كيانها، وتمحوها من الوجود[1]. كيف استطاعت الأمة الإسلامية أن تُقاوم المؤثرات الخارجية العنيفة والتقلبات التي تكاد تنتهي؟.

كيف استطاعت هذه الأمة أن تقاوم تغيرات الزمان والمكان؟ وقد كان بعضه يكفي للقضاء على ديانة قوية قديمة أو تحريفها على الأقل كما وقع مراراً في تاريخ الأديان؟

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «والجواب، أنها استطاعت ذلك بقوتين:

القوة الأولى، هي الحيوية الكامنة في وضع الإسلام نفسه وصلاحيته للحياة والإرشاد في كل بيئة، وفي كل محيط، وفي كل عهد من عهود التاريخ، فقد حصر الله محمداً ﷺ برسالة وتعاليم كاملة للإنسان صالحة لكل زمان ومكان، تستطيع أن تواجه ما يتحدّد من الشؤون و أطوار الحياة، وتحلّ كل ما يعتري من المشكلات والمعضلات، والدراسة العميقة الشاملة للقرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح ومصادر الإسلام كافلة للإقتناع بما أقول، ولكنه موضوع الفقه الإسلامي والنُّظم الإسلامية.

والقوة الثانية، هو أن الله قد تكفَّل بأن يمنح هذه الأُمة التي قضى

---

(١) المصدر السابق ص ١٠ ـ ١١.

ببقائها وخلودها رجالاً أحياء أقوياء في كل عصر، ينقلون هذه التعاليم الإسلامية إلى الحياة، ويُعيدون إلى هذه لأمة الشباب والنشاط، إن هذا الدين نفسه هو من أقوى العوامل في وجود هؤلاء الأشخاص في كل عصر ومصر، لأنه يُثير في أتباعه ودارسيه كوامن القوة ويبث فيهم الثورة والتمرد على الأوضاع الفاسدة والمجتمع الزائغ والأخلاق المُنحلة والسياسة المستبدة والحكم الجائر والترف المسرف، ويَفرض عليهم إنكار المُنكر، وكلمة حق عند سلطان جائر، ويُحرّم عليهم الاستنامة إلى الأوضاع الفاسدة، والرضا بالحياة الدنيا، وبيع الضمائر، ويهبهم كذلك الأصول والنصوص المتينة الحكيمة التي يَحلّون في ضوئها المشاكل الطريفة والمسائل المعقدة، لذلك نرى أن هذه الأمة لم تعدم في عصر من عصورها مُجَدِّدين في الدين، وأئمة في العلم، وعمالقة في الفكر، وأبطالاً في الجهاد، وأعلاماً في الإصلاح، لا يوجد نظيرهم - لا في الكمية ولا في الكيفية - في أمة من الأمم. ولم يكن ذلك من المصادفات والإتفاقات - والمسلم لا يؤمن بالمصادفات في صُنع الله وسير الكون ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ [الرعد: ٨] - إنّما هو طبيعة هذا الدين وقدرته العجيبة بحياة هذه الأمة وصلاحيتها للبعث الجديد، وإنّما هو لطف الله بهذه الأمة بل بالإنسانية، إذ لو ضاعت هذه الأمة لضاعت أمة السماء ولضاعت الإنسانية، وإنّما هي حراسته الكريمة وحدوده القوية لهذا الدين الذي حرص عليه أن يُرافق الحياة إلى آخر مرحلة من مراحلها ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]؛[1].

إن الإسلام كما عرضه القرآن الكريم هو دين الله الوحيد منذ أول عهد الإنسان بحياته في هذه الأرض، فكلما وحيثما بعث الله تعالى نبياً من أنبيائه، فإنّما بعثه بهذا الدين نفسه، وإن أمم الأرض هي التي ما زالت تُفسد هذا الدين وتُدخل عليه المُنكرات من عند نفسها، فما زال الله

(١) المصدر السابق ص ١١ - ١٢.

سبحانه وتعالى يتدارك هذه المفاسد والمنكرات بالإصلاح، حتى أنزله على أكمل وأصحّ صورة على خاتم أنبيائه ﷺ، وضمِنَ له السلامة من أي مرح أو تحريف أو تغيير إلى يوم القيامة، فهو مُحتفظ به اليوم كل الاحتفاظ في صورة القرآن الكريم، وما هو دين أُمّة خاصة دون سائر أمم الأرض، بل هو دين جميع أبناء البشر قاطبة، جاءت به جميع أنبياء الله تعالى ورسله. فكُلُّ من آمن به فهو مسلم، ومن لم يُؤمن به فليس بمسلم. وهذا الدين لا يُكَذِّبُ نبياً من أنبياء الله تعالى، ولا يكفر بكتاب من كُتبه، ولا يَدّعي لنفسه الفَضْل المطلق على غيره. إنّما دعواه أنّه هو المجموع الموثوق به لتعاليم كل من جاء في هذه الدنيا إلى أُمّة من الأمم من النبيين والرسل؛ والمُهيمن عليها. إن هذه هي دعوة الإسلام كما عرضها القرآن ﴿وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه. تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢]

إن القرآن الكريم هو كتاب هذه الأُمة تحيي ورائدها الناصح فكلما اهتدت بهديه، واستمسكت بعهدها معه، واستمدّت منهج حياتها منه، استعزّت به، واستعلت على جميع مناهج الأرض الجاهلية.

أنى للباطل أن يدخل على هذا الكتاب. وهو صادر من الله الحق. يصدع بالحق. ويتصل بالحق الذي تقوم عليه السموات والأرض؟ أنى يأتيه الباطل وهو عزيز. محفوظ بأمر الله الذي تكفّل بحفظه فقال ﴿وإنا له لحافظون﴾..

والمتدبر لهذا القرآن يجد فيه ذلك الحق الذي نزل به، والذي نزل ليُقِرّه. يجده في روحه ويجده في نصّه. يجده في بساطة ويسر. حقّاً مُطَمْئِناً فِطرياً، يُخاطب أعماق الفطرة، ويَطبعها ويُؤثر فيها التأثير العجيب. فالحكمة ظاهرة في بنائه، وفي توجيهه، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق.

إن الإسلام هو نَسَبٌ عريق للإنسانية، نَسَب ضارب في شعاب

الزمان، والمسلم واحد من ذلك الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى، ومحمد. عليهم الصلاةُ والسلام. ﴿وإن هذه أُمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ [المؤمنون: ٥٢]

إن القرآن الكريم يجمع أسرة النبوة في ندوة واحدة، تتلقى من ربها حديثاً واحداً، ترتبط به أرواحها وقلوبها، وتتصل به طريقها ودعوتها، ويحسّ المسلم الأخير أنه فرع من شجرة وارفة عميقة الجذور، وعضو من أُسرة عريقة قديمة التاريخ.

هذا الموكب الكريم، الممتد في شعاب الزمن من قديم، يواجه - كما يتجلى في ظلال القرآن الكريم - مواقف مُتشابهة، وأزمات مُتشابهة، وتجارب مُتشابهة على تطاول العصور وكرّ الدهور، وتغيُّر المكان، وتعدُّد الأقوام. يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديد والتشريد. لكنه يمضي في طريقه ثابت الخطو، مُطمئن الضمير، واثقاً من نصر الله، مُتعلقاً بالرجاء فيه، مُتوقعاً في كل لحظة وَعْد الله الصادق الأكيد: ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لَتَعُودنّ في مِلّتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ [إبراهيم: ١٣ ـ ١٤]..

إنه وحي واحد، ورسالة واحدة، وعقيدة واحدة. وإنّه كذلك استقبال واحد من البشرية، وتكذيب واحد، واعتراضات واحدة.

إنه موقف واحد، وتجربة واحدة، وتهديد واحد، ويقين واحد، ووعد واحد للموكب الكريم.. وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد. ثم هي بعد ذلك وشيجة واحدة، وشجرة واحدة، وأسرة واحدة، وآلام واحدة، وتجارب واحدة، وهدف في نهاية الأمر واحد، وطريق واصل ممدود

أي شعور بالأنس، والقوة والصبر، والتصميم. توحيه هذه الحقيقة لأصحاب الدعوة إلى الإسلام، السالكين في طريق سار فيها من قبل أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟.

وأي شعور بالكرامة والاعتزاز والاستعلاء على مصاعب الطريق وعثراتها وأشواكها وعقباتها، وصاحب الدعوة يمضي وهو يشعر أن أسلافه في هذا الطريق هم تلك العصبة المختارة من بين البشر أجمعين؟.

إنها حقيقة هذا الدين. ولكن أيّ آثار هائلة عميقة يُنشئها استقرار هذه الحقيقة في نفوس المؤمنين؟.

وهذا ما يَصْنعه هذا القرآن، وهو يتحدث في قَصَصه عن تلك الحقيقة الضخمة ويزرعها في القلوب.

«لقد كان الإسلام من أول عهده هدفاً لهجمات عنيفة قاسية لا تحتملها ديانة من الديانات، هجمت على قلبه و أعصابه لا تعرف الهداوة ولا الرفق ولا ترضى إلاّ بالفناء.

إن الديانات التي فتحت في عصور الدنيا وأخضعت الأمم والحضارات قد ذابت وتحلّلت أمام هجمات أضعف منها بكثير وفقدت شخصيتها وكيانها، ولكن الإسلام بالعكس من ذلك ردَّ هذه الهجمات كلّها وعلى أعقابها وكسرها، وظلّ محتفظاً على قوته وشخصيته وعلى مزاياه وروحه.

لقد كانت الباطنيةبفروعها ومذاهبها المتنوعة خطراً على روح الإسلام النقية وعقائده الصافية الواضحة، تهدد وضع الإسلام الحقيقي، وكذلك كانت الحروب الصليبية، ثم هجوم التتار ـ ذلك الجراد المنتشر ـ صاعقة نزلت على الإسلام والأمة الإسلامية. وكانت جديرة بأن تقضي على الإسلام وتُنحيه من ميدان الحياة ومصاف الأمم الحيّة، فلو كان غير الإسلام من الديانات لفظ نَفَسَه الأخير وأصبح أسطورة من الأساطير»،

فحين اندفعت أرتال المسلمين تحمل راية التوحيد من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وحينما امتدّ الإسلام إلى أوربا فَزِعَ الأوربيون فزعاً شديداً، فها هي رايات التوحيد تدخل إيطاليا وترتفع فوق إسبانيا، ثم تنهض الجموع المُوحِّدة لتعْبرجبال البرانس لتزرع في فرنسا لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله.

لكن العداء اللئيم والحقد الدفين دفع الأوربيين إلى القضاء على الإسلام، فجهزوا الجيوش وانطلقوا نساءً ورجالاً وشيوخاً وملوكاً يحملون الحقد الأسود.. ولكن تصدّعت قواهم وولّوا مُدبرين إلى بلادهم مع هزيمة منكرة علّمتهم أن لا قضاء على المسلمين لأنهم يحملون ديناً له القوة في قلوب المسلمين ما إن تحركه حتى يُصدع الدنيا كلها ويُزَلْزِلها على رؤوس أعداء الله.

وهكذا فقد مُني الإسلام في سيره الطويل بمؤامرات وثورات ومقاومات داخلية وخارجية، فقد كان مراراً عرضة تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين، ودخلت فيه البدع والأخطار العجيبة، وتسربت إليه الوثنية عن طريق الأمم التي كانت تُسلم وعن طريق التقليد والجهل، وفشت فيه الأعمال والتقاليد الجاهلية، ثم مُنِيَ - منذ العهد الأموي - بمدنية جارفة وترف فاحش، وعبدة البطون والشهوات، ثم ابتُلي - في العهد العباسي - بالإلحاد والزندقة والفلسفات العجيبة، إلى غير ذلك مما يحويه تاريخ الإسلام، وقد كانت هذه الهجمات شديدة ودقيقة حتى أصبح كثير من الناس يَشكُّون في قدرة الإسلام على مقاومة هذه الهجمات، وأصبح بعضهم يتوقع نهاية الإسلام بصفته دين من الأديان، ونهاية الأُمة الإسلامية بصفتها أمة ذات عقيدة ورسالة.

ولكن الإسلام أبى أن يستسلم لهذه الهجمات وأن يخضع ويستكين لأعدائه ﴿ويأبى الله إلاَّ أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون﴾ [التوبة: ٣٢]، وأبت روح الإسلام أن تنهزم، وأبى ضمير الأُمة أن يُصالح هذه الفتن وأن

يتفاهم مع أعداء الإسلام والمؤامرين ضده وأن يتنازل عن بعض ثروته، وقام في كل عهد، وفي كل ناحية من نواحي العلم الإسلامي رجال فَضَحوا المُحَرّفين والمُؤامرين، ورفعوا اللثام عن وجه الإسلام، ونفضوا عنه غبار الجهل والضلالات، وأنكروا على البدع والخرافات والأفكار الدخيلة، ودافعوا عن السُنَّة دفعاً قوياً، وردّوا على العقائد الباطلة، وشَنُّوا الحرب على الوثنية وأعمالها وتقاليدها، وحاربوا المادية والترف بكل قوة، ونعوا على المترفين في عصرهم، وجهروا بالحق في وجوه السلاطين الجائرين والملوك المستبدين، ونفخوا في الإسلام روح جديدة، وأنشأوا في المسلمين إيماناً جديداً وثقة جديدة. وقد كان هؤلاء الأفراد نوابغ عصورهم عقلية وعلماً وخُلقاً، وكانوا أصحاب شخصية جذابة، وكفاية فائقة، وكانت عندهم لكل فتنة مُظلمة «يد بيضاء» تُبدد الظلمات وتُنير السبيل.

وقد وَضح من وجود هؤلاء المُصلحين المُجددين للدين الإسلامي، باستمرار لا يحمل على مجرد المصادفات، أن الإسلام هو الدين الذي اختاره الله لتوجيه العالم وإرشاد الإنسانية وقضى بخلوده وبقائه، وأن مهمة الهداية والإرشاد الجليلة التي كان الأنبياء يُبْعَثُون لها في العصور الماضية قد نُقيت على عاتق هذه الأُمة التي تخلف ختم النبين ﷺ في هذه المُهمة وأنه لا يخلو زمان من الأزمان من خُلفائه ودُعاته»[1].

وحينما ارتدت جيوش الصليبيين أمام جيوش التوحيد في القرون الخالية، شَعَر الأوربيون بخيبة شديدة أمام هزائم متلاحقة عَبْر حروب طويلة، لذلك فَكَّروا بكيفية القضاء على المسلمين، يَؤُزّهم على ذلك شريط مُتوهج من البغضاء والحقد، فبحثوا عن سّر هذه القوة التي تحملها قلوب المؤمنين. . . فالحديد والنار قوى واهنة أمام قوى الإيمان التي تعمر قلوب المسلمين.

---

(١) المصدر السابق ص ١٢ ـ ١٤.

لذلك عمد أعداء الإسلام إلى تغيير طريقتهم وذلك بالقضاء على القوة الكامنة في قلوبهم فحين يزحزحوها من القلوب، يصبح المسلمون أشلاءً وركاماً وخيوط عنكبوت، تندفع لترتمي كسيحة لا تقوم ولا تتحرك. ومن أجل هذا الهدف الخبيث اندفع الغزو الثقافي والفكري والتربوي للقضاء على جذور الدين في قلوب المسلمين.

وانطلق أعداء الإسلام لتحقيق هذا الهدف بكل الوسائل والطرق في همة لا تعرف الإغماض، انطلقوا في كل سبيل، في عمل خفي لئيم، وجهد دائب في بصير صامت، فبدأ منذ ذلك الحين غزو العقل المسلم لتغيير تصوّره حتى لا يُفكر بمبادىء دينه في الكتاب والسنّة، إنما يُفكّر بمنطق أعداء الإسلام، فكان التحويل الخطير من الإسلام إلى الجاهلية من النور إلى الظلمات، يتمّ والمسلمون غارقون في لجّة عميقة، فقد ذكر «ألتين لامي» في مقال نشرته مجلة العالم الفرنسي عدد إيلول ١٩٠١ «إن مقاومة الإسلام بالقوة لا تزيده إلا إنتشاراً، فبواسطة الغفلة لهدمه وتقويض بنيانه، هي تربية بنيه في المدارس المسيحية، وإلقاء بذور الشك في نفوسهم من عهد النشأة، تفسد عقائدهم الإسلامية من حيث لا يشعرون، وإن لم يتنصر منهم أحدهم، فإنهم يصيرون لا مسلمين ولا مسيحيين، وأمثال هؤلاء يكونون بلا ارتياب أضرّ على الإسلام ممن لو اعتنقوا المسيحية وتظاهروا بها».

وظلت الليالي والأيام، والناس في بلاد الإسلام مُفتّحة عيونهم نيام، ومع مرور الزمن كما كان، فقد ورثنا نحن أبناء هذا العصر الأخير ميراث النبوة والأنبياء فلم نُفكّر في الاستفادة منه أو الإنتفاع به، أو الكشف عن دُرره وجواهره، ولم نفكر في الأسلوب الذي نعرضه به على أنفسنا وعلى غيرنا عرضاً صحيحاً، يدفع إلى العناية به، ويُلفت الأنظار والنفوس عليه، ويُضاعف إيماننا منه. ولا شك أن ذلك كان أثراً من آثار انصراف عن اعتبار الإسلام نظاماً إجتماعياً كاملاً، يقوم على مخطط

الفطرة الإنسانية واستثارة ما فيها من قوى روحية تتمثل عقائد ثابتة، وخلائق فاضلة. وأفكاراً عالية، وأعمالاً دافعة، تنظم ملكات الفرد، وحياة الأسرة، وطبقات الأمة، وواجبات الدولة، وعوامل الاتصال والأخوة بين العالمين..

كان ذلك أثراً مما وَقَر في صدورنا من تقديس مظاهر الحياة الغربية واعتبارها المثل الأعلى في مناهج الحياة، وطغيان هذه الموجة من موجات التقليد الغربي التي غمرتنا في الفكر والثقافة، وفي التربية والتعليم، وفي نظام الحكم وأساليب السياسة، وفي التشريع والقانون، وفي المنزل والشارع، والمتجر والمصنع، وفي كل أوضاعنا الحيوية والإجتماعية، حتى أصبحت شريعة الإسلام العملية، ونظامه الإجتماعي، أموراً أثرية تاريخية، للنظر والعلم والبحث والمحاضرات، لا للعمل والتطبيق والتنفيذ.

وهكذا ضاق فهم الكثير من أبناء الإسلام للإسلام حتى جعلوه قاصراً على هذه الموروثات من العقائد والآداب العامة، والمعتادات من ضروب العبادات، وحتى هذه البقية لم تسلم من الخرافة في الأولى، ومن الإبتداع في الثانية.

إن هذه الموجة الطاغية تجتاح عقولنا وحياتنا وتفكيرنا منذ ما ينوف عن قرن ونصف. موجة إثر موجة. إثر موجة، تتسرب بخطى وئيدة خفيّة في جوف العظام حتى باتت تجري في عروقنا مجرى الدم، وكان ما نحن عليه الآن!! فلم يسلم الإسلام نفسه من أن يُلصَق به ما ليس منه، ويُنسب إليه ما يُنكره أشدّ الإنكار، وهو بطبيعته التي أظهره الله بها، سَهْل، بسيط، ميسور، لا حَرَج فيه ولا غموض، وإنّما عَقَّدته آراء الناس المُشوشَّة، ولَوَّنتها أفكارهم المُضطربة

لقد كان الرجل من البادية يجلس بين يدي رسول الله ﷺ بضع دقائق أو ساعة من نهار فيقوم مُسلماً أفضل ما يكون المؤمنون إيماناً،

لصَفاء فطرته، وسلامة نفسه، وسهولة الإسلام وبساطته ويُسره، وكان الإسلام حينذاك حياة قلبية تنصبُّ في النفوس، ونوراً ربانياً يُشرق على الأفئدة، وأعمالاً مخلصة يُقْصَد بها وجهُ الله، و تجرداً للحق وفناء في سبيله، تعلو به دعوة الخير وتسود، فتحوّل ذلك كله الآن إلى نظريات في الكتب، وألفاظ على الشفاه، وأعمال بحكم العادة، وتجارة باسم الحق للحصول على مغانم الدنيا. ومُحال أن تنهض على هذه القواعد دعوة أوتحيا أمة أو تقوم دولة!

إن بلاد العالم الإسلامي تُحكم اليوم إذ بقوانين وَضْعية مُستعارة من القوانين الأوروبية لا صِلة لها بالإسلام ولا بهدى القرآن، وإنما أن حكامها يدّعون أنهم يحكمون بالقرآن، وهم عن معاني القرآن بعيدون يحسبون أنه صلاة وصوم وحج، ولا يُدركون أنّه مع ذلك علم وفهم وتربية وأخلاق وجهاد في سبيل الله ومعاملة وتحقيق العدل الإجتماعي، الذي كفله الله للناس على صورة لم يصل إليها الناس في كافة عصورهم، لذلك كانت دعواهم أن دستورهم القرآن من الدعوى التي تضرّ بالإسلام والمسلمين أبلغ الضرر فإنها تكون مقرونة دائماً بجهلهم وفقرهم وتأخرهم وتخلّفهم عن ركب الحياة، فيتخذ الناس من ذلك دليلاً على أن الإسلام غير صالح لهذه الحياة، وما العيب في الإسلام ولكن العيب في القائمين عليه.

وبلاد العالم الإسلامي فشا فيها ما لا يُمكن معه أن يُصدّق أن المتخلفين بها مسلمون، فأكل أموال الناس بالباطل أصبح سجية فيهم: فلا يسأل الإنسان نفسه عن ماله أمِنْ حلال كسبه فيحمد الله أم من حرام جناه فيتوب إليه ويذكر قول الرسول ﷺ «كل لحم نبت من حرام فالنار أَوْلى به»، فالقمار المحرّم أصبح وسيلة من وسائل الكسب التي تتراءى للناس كأنها مشروعة لفَرط ما ألِفوها ولا يبالي الواحد أن يأكل مال أخيه، ولا سأل نفسه عن سبب استحلاله لماله. والرشوة، والاختلاس، وخيانة الأمانة، أصبحت كلها من مقررات الحياة وأنها جزء من مرتبات

الموظفين وعمل العاملين الأمر الذي تسبب عنه تعطيل المصالح العامة والخاصة لعدم ثقة الناس بعضهم ببعض.

وظلم الأغنياء للفقراء وعدم إيفائهم حقوقهم التي أمَر الله، زاد غِنى الأغنياء، وفَقر الفقراء وجهلهم، وأفسد الحياة الإجتماعيه وأخلَّ بتوازنها.

والزنا والفجور. واستهتار الرجال والنساء، وانتهاك الحُرمات، وشرب الخمر، صار كل ذلك شيئاً عادياً يتحدث الناس بحقائقه كأنها من الأمور المباحة، وبالأكاذيب فيه كأنها من دواعي الفخر.

ولا تسأل عن الكذب والنفاق والغيبة والنميمة، وسُخر الناس بعضهم ببعض، والتنابز بالألقاب، واتهام الناس بالباطل. فهل نحن مسلمون؟!!!

هذه النقائص كفيلة بهدم المجتمع. نقرفها كل يوم، ولا نكلف أنفسنا أن نعرضها على كتاب الله حتى نعلم أننا أعرضنا عن هُدى الله تعالى فكان جزاؤنا ضنك المعيشة(١) والشقاء ثمرة الضلال. وما من متاع حرام، إلاّ وله غصة تعقبه وعقابيل تتبعه. والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع المُمرع! والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع. إنّه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه. ضنك الحيرة والقلق والشك. ضنك الحرص والحذر. الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت. ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت..

وهكذا فإن أخطر ما نكبنا به في وَعْثاء هذا التيه هو اضطراب ميزان الفهم والتقدير في أنفس كثير من المسلمين، واختلاط الأمر عليهم كلما

---

(١) «هدى القرآن» للإمام حسن الهضيبي، المسلمون، المجلد الأول، العدد التاسع ص ٨٣٤ ـ ٨٣٥.

دعاهم داع إلى الإسلام الصحيح، وقد تعثرت من جراء ذلك محاولات كثيرة للإصلاح لقيت العَنَتَ من المسلمين قبل غير المسلمين، وقاست المرّ في الوصول إلى قلوب المسلمين وعقولهم، ولم تكن العقبة الأولى في طريقها إلاَّ الحدود العجيبة التي قامت في أذهان كثير من الناس بين معاني الإسلام.

إن طبيعة الدعوة إلى الله - سبحانه - على مدار التاريخ البشري تستهدف الإسلام.. إسلام العبد لرب العباد، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، بإخراجهم من سلطان العباد وحاكميتهم وشرائعهم وقِيَمِهم وتقاليدهم إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة..

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله، وتحكيم شريعته في حياة الناس. فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين. فإن العبد الذي يتوجّه لله بالاعتقاد في أُلوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر. بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله.. ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صُنع غير الله. ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره. إن هذا العبد يُزاول الشرك في أخصّ حقيقته، ويُخالف عن شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله في أخصّ حقيقتها.. وهذا ما يَغفُل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتمييع.. وإننا لَنَبخَس القرآن قدره. إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت. . إنّما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة ومواجهة للواقع المنحرف دائماً وردّه إلى صراط الله المستقيم.. وإن معظم الطواغيت اليوم في الجاهليات الحديثة لا يستطيع أن يتبجح تبجُّح

الشيوعيين الملحدين فينفي وجود الله جملة، وينكر الدين علانية. إنما يلجأون إلى الأسلوب الخبيث الماكر يقولون إنهم يحترمون الدين، ويزعمون أن ما يشرعونه للناس له أصل من هذا الدين. إنه أسلوب الأم وأخبث من أسلوب الشيوعيين الملحدين، إنه يخدر العاطفة الدينية الغامضة التي لا تزال تعيش في قرارات النفوس وإن لم تكن هي الإسلام، فالإسلام منهج واضح عملي واقعي. ليس هذه العاطفة المبهمة الغامضة، ويفرغ الطاقة الفطرية الدينية في قوالب جاهلية لا إسلامية وهذه أخبث الكيد وألأم الأساليب. ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر لأن جهود الشياطين في زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية قد آتت ثمارها مع الأسف فجعلت مسألة الحاكمية والشريعة تتزحزح عن مكان العقيدة، وتنفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي. ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية أو لاستنكار انحلال أخلاقي، أو لمخالفة من المخالفات القانونية، ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية والشريعة وموقعهما من العقيدة الإسلامية، يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية، ولا يستنكرون المنكر الأكبر، وهو قيام الحياة في غير التوحيد أي على غير إفراد الله سبحانه بالحاكمية...

هذه هي الحقيقة التي زُحزح مفهوم «الدين» في نفوس أهل الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة بشتى الأساليب الجهنمية الخبيثة حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين - ودَعْك من أعدائه والمستهترين الذين لا يحفلونه - أن تُصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية مُنفصلة عن قضية العقيدة. لا تجيش لها نفوسهم، كما تجيش للعقيدة. ولا يعدون المروق منها مروقاً من الدين. كالذي يَمرق من عقيدة أو عبادة. وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة. إنَّما الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة قروناً طويلة حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة حتى في حسّ أشدّ

المتحمسين لهذا الدين وهي هي القضية التي احتشد لها كثير من آيات القرآن..

وهكذا أنشبت الجاهلية أظفارها في المجتمعات الإسلامية، وكان من أشدّ ما أصاب هذه المجتمعات فتكاً بالعاطفة الدينية المتبقية في حياة الناس هو نشوء الترف في المجتمعات الإسلامية، ونشأت طبقة المترفين بأخلاقهم ونفسيتهم، وكثرت الأموال وأدوات الترف، واشتدت الإغراءات المادية وفعلت فعلها في المجتمع حتى أشرف الايمان والعمل الصالح - وبهما نمتاز هذه الأمة عن غيرها من الأمم، وفيهما سرّ قوتها وانتصارها وهما تراث السوء - على الضياع والتلف، وأصبحت هذه الأمة تتقدم بخطى واسعة إلى إنهيار في الأخلاق والروح، وخمود في العاطفة والشعور الإيماني، وضعف في صلتها بالله؛ وهذا كله نذيراً لكارثة كبرى تضاف إلى النكبات والمآسي والمصائب التي ترزخ تحت ثقلها المجتمعات الإسلامية.. هذا نذيراً لكارثة طاقة طاغية حارقة، كارثة أُصيبت بها الأمم من قبل، وهي الإفلاس في الإيمان والروح والأخلاق والفضائل كلها، وهي خسرة لا تُعَوَّض، ولا بقاء لأمة - ذات رسالة وعقيلة - بعد ذلك.

وبعد، فإن كل ما في الأرض الآن يدعو المسلمين ويهيب بهم أن ينهضوا بصدق وخلاص، وعزيمة حادة، وإيمان عميق، ليؤدُّوا دور الإسلام في قيادة البشرية كما أدّى المسلمون دورهم الأول.

إن الضعف ليس عذراً، ولا يُعفي عن الحركة الجادة في تغيير وتبديل الأوضاع والحياة. إن الضعف السامي كثيراً ما أثّر في مجرى الحياة ما لم تُؤثر القوى السافلة، وقديماً أثّر اليونان في الرومان وهم مغلوبون لهم، وأثّر المسيحيون المستضعفون المضطهدون في الرومان الجبابرة، حتى تحولت الدولة الرومانية إلى دولة مسيحية، وأثّر المسلمون المقهورون في التتار القاهرين حتى حوّلوهم إلى معسكرهم فصاروا من خيار أجناد الإسلام..

ولهذا المعنى يُعلن الله تعالى إرادته في الإدالة للضعف السامي من القوة الغاشمة دائماً، ويجعل ذلك سُنَّة من سنن الوجود، وقانونا من قوانين الحياة فيقول: ﴿ونُريد أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفُوا في الأرض ونجعلهم الوارثين﴾ [القصص: ٥]، ذلك لأن القوة الغشمة دائماً تحمل أربابها على الطغيان والبطش، ونسيان الأوضاع التي خلق الله تعالى الحياة على معاييرها، حتى لتحمل على نسيان يد الله، والعمى عن رؤيتها، بل تحمل على محاربتها والجرأة عليها.. وعندما يصل مدُّ الطغيان إلى غايته هذه، يمكر الله به ويديل منه﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾ [الفتح: ٤، ٧].

أمّ الضعف السامي فيجعل المُستضعفين محل الانفعال بالحوادث وتلقيها بتذوق كامل لها، وإدراك حقيقي لآثارها. وهذا الإنفعال والتذوق والإدراك الحقيقي للأمور، هو العامل الذي يُنتج صحة الأحكام؛ ولذلك كان المستضعفون ذوو العقائد الصلحة أصح من الأقوياء المتسلطين الغاشمين رأياً، وأسلم قلوباً، وأعرف بشؤون الخلافة على الأرض، ووراثة مقاليدها؛ فعلى هذا ينبغي للمسلمين المُسْتَضْعَفِين أن ينفذوا إلى أعدائهم من ثغرات ضعفهم التي هي في الوقت نفسه مظاهر كبرياء هؤلاء الأعداء المتكبرين، وأن يحملوهم بمختلف الوسائل على رؤية ما عندهم من الحقائق والآراء الصالحة.

وأُولى هذه الوسائل أن يُمَثّل المسلمون حقائق الإسلام ومعانيه في سلوكهم وتصرفاتهم وشرائع حياتهم، حتى يكونوا إعلاناً مُجسّماً لما يدعون الناس إليه، فالإيمان هو كما وصفه رسول الله ﷺ: «ما وَقَر في القلب وصّدقه العمل».

إن هذا الايمان بالله، وإن هذه الصلة الحية القوية بالقرآن التي عُرفت بها هذه الأمة، وسحقت بها الأمم وأخضعت بها العالم، وإن هذه المظاهر الإيمانية التي تقرأ أمثالها الرائعة في تاريخ العهد النبوي والخلافة

الراشدة من إنابة صادقة إلى الله وثقة به وتفان في سبيله، وعزوف عن الشهوات، واستهانة بزخارف الحياة، وشوق إلى الشهادة، وحنين إلى الجنة، وخشوع في الصلاة، ولذة في الدعاء، وعطف ومواساة، وزهد وايثار، إلى غير ذلك مما هو نتيجة الإيمان القوي العميق، إنَّما كان فيض النبوة، وتأثير الشخصية النبوية التي سعِد بها العالم، فإذا تجردت الأمة من هذه الثروة الإيمانية التي ورثتها من رسالات الأنبياء، ومنحتها النبوة الأخيرة وشخصية الرسول العظيمة، فقد تجردت من كل شيء، وأفلست إفلاساً تاماً، ولا مطمع في إيجاد هذا الإيمان، وإعادة هذه الثروة بعد انقطعت النبوة، أمّا تجديد هذا الإيمان وتقويته قبل أن يزول، والمحافظة على هذه الثروة والزيادة فيها قبل أن تضيع، فممكنة وميسورة. إذا قام لذلك رجال أكفاء، وجاهدوا في سبيل الله حق الجهد

«إن الأديان لا تعيش ولا تزدهر، ولا تعود إلى نشاطها وشبابها بعد إضمحلالها وضعفها، ولا تنسجم مع المجتمع المعاصر، ولا تتلاءم مع روح العصر إلاّ عن طريق الرجال والنوابغ الذين يظهرون فيها حيناً بعد حين، يملكون الإيمان القوي الجديد، وسُمُوّاً روحياً لا يشاركهم فيه عامة الناس، ونزاهة ممتازة عن الأغراض، وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في المبادىء والعقائد وفي سبيل الدعوة، ومُستوى عقلياً وعلمياً أرقى من الكثير، ينفخون في أمتهم روحاً جديدة، وينشئون في أتباع دينهم إيماناً جديداً وثقة جديدة، ويُلهبون نفوسهم بحماسة دينية جديدة.

إنَّ مطالبَ الحياة وتكاليفها مُتجددة، وإغراءات المادية قوية جديدة دائماً. وشجرة المادية لا تَذوي ولا يعروها الذبول، وهي خضراء لا تنقطع أثمارها. وللمادية ـ مع أنها غنية بسحرها على النفوس وإغرائها للطبائع عن الديانة والترغيب ـ في كل عصر دعاة مُتحمسون ورجال مُخلصون. فإذا أصاب الدعوة الدينية الوَهَن، وإذا أصيب أهل دين بِضعف في العقيدة، أو ضعف في الخُلق، أو ضعف في الدعوة، لم

يستطيعوا أن يقوموا المادية الفتية، والدعوات المعارضة القوية، إن الأصنام ـ باختلاف أنواعها ـ لا تزال مُحتنلة للحياة، وإن اللاّت ومَناة ـ وهما رمزان للوثنية والهوى ـ لا تزالان في شبابهما وجدّتهما كما يقول العلامة الكبير محمد إقبال، فلا يظن الداعي أنّه قد انتهت مهمته، ولا يمكن مقاومة المادية الفتاة، ولا يمكن سحب اللاّة ومَناة عن الحياة إلاّ بالدين القوي والإيمان الجديد والدعوة المتحمسة، والعلم الراسخ والعقل الواسع.

«من الحقائق التاريخية أن تاريخ الإصلاح والتجديد متصل في الإسلام، والمستقصي لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلمة في جهود الإصلاح والتجديد، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل، ويرفع صوت الحق، ويتحدّى القوى الظالمة، أو عناصر الفساد، ويفتح نوافذ جديدة في التفكير. والدارس لهذا التاريخ، والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي، وخبَتْ مصابيح الإصلاح، وخفتت أصوات الحق، ومات الضمير الإسلامي، وتبلّد الشعور، وأضرب الفكر الإسلامي عن العمل.

«إن هذه الثغرات، التي نشعر بها في دراستنا العابرة للتاريخ الإسلامي وفي نظرتنا العجلى في كتبه، مردّها إلى منهاج التأليف الذي اتخذه المؤرخون للإسلام قديماً وحديثاً ودرجت عليه الأجيال. إن النقص ـ ومعذرتي إلى المؤلفين الذين أدين لهم في معلوماتي ومحاضراتي ويدين لهم كل مؤلف ودارس ـ في التأليف ليس في التاريخ، أو بكلمة أخرى إن المسؤلية على المؤرخين والمؤلفين لا على المُجدِّدين والمصلحين الذين ظهروا حيناً بعد حين، وحفظوا على الإسلام جدّته وشبابه، وقضوا على كثير من الفتن والبدع والمؤامرات والتحريفات حتى أصبحت مطمورة في ركام الماضي، لا يهتدي إليها أحد في هذا العصر إلاّ بعد بحث وعناء، وكثير من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها إلاّ

بشق الأنفس وإجهاد العقل والعين، وقد كان بعض هذه المذاهب وبعض الحركات تتمتع بحماية البلاط وتستند إلى الملك والسلطان والمال والجاه، وقد كنت في عصرها صاحبة حَوْل وطَوْل، ولكنها طويت - بفضل جهود هؤلاء المصلحين المخلصين - في صحائف الماضي، وأصبحت موضوع علماء الآثار لا محل لها إلاّ في المتاحف والصحائف.

إن هذا النقص في التأليف الذي صرّحت به مع الإعتذار، جعل كثيراً من الناس يعتقدون أن تاريخ الإصلاح والكفاح في الإسلام متقطع يحتوي على ثغرات واسعة وفترات طويلة، لا ترى فيها إلاَّ المندفعين مع لتيار، المُستسلمين للفساد، وأقزاماً في العقل والتفكير والعلم والانتاج لقد كان يظهر «عملاق» أو نابغة أو عبقري بعد عصر طويل، وقد تخلو قرون ومئات سنين عن عظيم يستحق أن يسمى عملاقاً أو عبقرياً أو مجدداً في العلم والدين.

إن هذه العقيدة الخاطئة التي لم تقم إلاَّ على الدراسة القاصرة المستعجلة للتاريخ وعلى منهاج التأليف الذي اتخذه مع الأسف أكثر المؤرخين، وهو تأليف التاريخ الذي يدور حول الملوك وحاشيتهم، وحول الحوادث التي لها إتصال بالسياسة والحكم، قد تنتهي ببعض الشباب المتحمسين وببعض رجال الدعوة إلى سوء الظن بالإسلام وضعف انتاجه. إنها نتيجة خَطِرة تُضعف الثقة بالإسلام، وتُضعف العاطفة والإرادة للكفاح في هذا العصر، فإن القوة الباطنة التي تدفع إلى الكفاح والعمل لَدَعْوَة لا تنبع إلاَّ من الثقة بالماضي، وبأن هنالك رصيداً من الجهاد والاخلاص وسنداً من الكفاح والنجاح.

ولو اتسعت الدراسة وشملت المصادر المهجورة[1] وتخصص لهذا

(١) والذنب ليس على المؤرخين فقط، إن الذنب على من يقتصر على كتب التاريخ «الرسمي» والمصطلح، ولا يتعدى هذه الكتب إلى الكتب التي لا تحمل اسم التاريخ ولا توجد في ركن التاريخ في مكتبة ولكنها مادة واسعة للتاريخ، ومصدر قيّم من مصادر التاريخ، هي =

الموضوع باحث واسع الفكر، صبور على المطالعة، دقيق في الملاحظة، استطاع أن ينتج تاريخاً متصلاً شاملاً للإصلاح والتجديد والتفكير الجديد في الإسلام، يدل على أن الإصلاح والكفاح مترافقان لهذه الأمة لا يختلفان عنها.

«ثم الجناية الثانية التي يرتكبها بعض المتحمسين والمؤلفين والناقدين في هذا العصر أنَّهم يكوّنون في ذهنهم صورة خاصة للمجدّد أو المصلح، ثم يلتمسونها في تاريخ الإسلام ومجموع صور الأعلام، فإذا لم يجدوا هذه الصورة الحبيبة في التاريخ الإسلامي أو في عصر من العصور تدمّروا وأنكروا، وكثير منهم عندهم مقاييس خاصة وهي مقاييس عصرية يقيسون بها «العظيم» أو «الداعي» أو «المصلح» أو «المفكر» في كل زمن وفي كل بيئة، فإذا لم تنطبق هذه المقاييس ـ التي هي مقاييس العصر ـ على رجل مهما كان عظيماً ومُهمّاً كان قديماً ومهما كانت خدمته للإسلام عظيمة، ومهما كان مخلصاً ومهما نجح في مهمته التي تكفّلها أو أسندت إليه، أسقطوه أو بخسوا حقه ولم يعدوه من المصلحين. وبعضهم يلتزم مقياساً واحداً، مقياس الإبداع في الأفكار

كتب الأدب وكتب الدين، والكتب التي دوّن فيها بعض العظماء اعترافاتهم وسجلوا حوادث حياتهم وتجاربهم، والكتب التي حفظ فيها بعض التلاميذ وأصحاب الشيوخ كلمات شيوخهم أو مواعظهم، أو ما دار في مجلسهم من حديث أو حوار، ومجاميع الرسائل والخطب التي تدلّ على روح أصحابها وفكرتهم، أو الكتب التي أُلفت في الحسبة، وفي انتقاد المجتمع وإنكار البدع والمنكرات..

ويجب على الدارس أن لا يقتصر على بعض النقول، وأن لا يقتضب العبارات المنقولة من كتب هذه الشخصيات العظيمة، ولا يضنّ بالألفاظ والكلمات، وأن لا يمرّ بها وبمؤلفاتها ومنتجاتها مَرّاً سريعاً في دراسته التاريخية، بل يجب أن يعيش في كتبها ومؤلفاتها وأفكارها مدة، ويتذوق أدبها وفكرتها، ويتنسم طيبها، ويحاول أن ينتقل من جوه إلى جو هؤلاء الرجال، ومن عصره إلى عصرهم، حتى يعرفهم على حقيقتهم ويصوّرهم في حقيقتهم، ويشعر القارىء أنه انتقل إلى عصرهم، وعرفهم معرفة شخصية، وعاش معهم مدة من الزمان.

مثلاً، أو فتح باب الاجتهاد مثلاً، أو الكفاح لإقامة الحكم الإسلامي أو معارضة الدولة القائمة في عصره مثلاً، فإذا لم يُحقق هذه الشريطة لم يكن رجل عصره ولم يستحق أن يدخل في صف المصلحين.

إن هذه المقاييس وإن هذه المعايير لها قيمة عظيمة، ولا ننكر أهميتها ومكانتها في الإصلاح، ولكن الذي أريد أن أقول: إن الزمان والبيئة عنصر هامة في حياة الرجل، فلا يجوز أن ننقل رجلاً من عصره ونتنقل به إلى عصرنا ونطبق عليه مقاييس هذا العصر، ثم نحكم عليه بالفشل والإخفاق، أو الضعف والعجز، ونسلبه محاسن نفسه ونحرمه من كل مأثرة وكل عظمة، لأنه لم يُحقق شرطاً من شروطنا، ولم يكن «المثل الكامل» في الإصلاح المنشود والتجديد المطلوب.

إن الإسلام دين حيّ خالد، وهذه الثروة العظيمة التي انتقلت إلينا من أسلافنا ووصلت إلى أيدينا اليوم: تراث العلم الواسع، والعقيدة المحفوظة، والإيمان القوي، والسنة الخالصة، والأخلاق المستقيمة، وثروة الفقه والتشريع الزاخرة، والأدب الإسلامي الرائع، مجموعة فيها نصيب لكل من ساهم فيها بإقامة حكم على منهاج الخلافة الراشدة، ومحاربة الجاهلية والمادية، وبالدعوة إلى الله وإلى دار السلام، وإحياء ما دُرِسَ من الخصائص الإسلامية، وبث الروح الإيمانية في هذه الأمة، ولكل من أوْجَد الثقة بالدين ومصادره وتعبيراته، وردّ هجمات الفلسفات الأجنبية، ولكل من دفع عن الفكرة الإسلامية الأصيلة وعصم هذه الأمة من فتنة هدّدت الإسلام، ولكل من حَفِظَ على هذه الأمة دينها ومصادره، وقدم بتدوين جديد للحديث والفقة أو فتح باب الاجتهاد، ومنح هذه الأمة ثروة واسعة من التشريع وقانوناً منظماً للحياة والمجتمع، ولكل من حاسَبَ المجتمع في عصره وأنكر انحرافه عن مُثل الإسلام ونُظمه ودعاه إلى الإسلام الصحيح، ولمن سَلَكَ سبيل الإقناع العلمي في العصر الذي كثرت فيه الشكوك واضطربت العقائد وَوَضَع لعصره كلاماً جديداً، ولكل

من خلف الأنبياء في الدعوة والتذكير، والإنذار والتبشير، وحرك الإيمان في النفوس، وقام في وجه المادية الجارفة في عصره فحدّ من تأثيرها وأنقذ جيلاً كثيراً من الاندفاع والغرق فيها، ولكل من حفظ هذه الأمة وقوتها السياسية من الانهيار ومن أن تكون فريسة لغارات الأجنبية، ولمن أخضع بدعوته الحكيمة الرفيقة عدواً لم تعمل فيه السيوف، ولم تقاومه الجنود وحطّم معالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، فسخّره أصحاب الدعوة بقوتهم الروحية وإيمانهم القوي للإسلام وجعلوه من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، ولمن أخضعَ بأدبه القوي وشعره البليغ عقولاً لم تخضعها المباحث العلمية والفلسفات المدنية، إلى غير ذلك، ولكلٍّ فضل، وما التاريخ إلا تأدية الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل والاعتراف بالفضل، وقد قام كل واحد منهم بدوره وساهم بقسطه، القسط المطلوب منه، وكلٌّ كان مرابطاً على ثغر من ثغور الإسلام، وكلٌّ كان سهماً مصيباً في كنانة الإسلام، ولولا هذه الجهود المخلصة، ولولا هذه الأقساط التي قد لا تُرى إلا بمكبّرة التاريخ، لما وصلت إلينا هذه المجموعة التي نعتز بها ونستند إليها ونقتبس منها النور سليمة موفورة نتباهى بها على الأمم والديانات»(١)

إن الإسلام وإن كان مُؤسَّساً على عقائد ثابتة وحقائق خالدة، فإنه زاخر بالحياة، حافل بالنشاط، له من الحيوية مَعين لا ينضب، ومادة لا تنفد، صالح لكل زمان ومكان، وعنده لكل طور جديد من أطوار الحياة ولكل جيل حديث من أجيال البشرية، ولكل عهد مستأنف من عهود التاريخ ولكل مجتمع عصري من مجتمعات البشر، مَدَد لا يقصر عن الحاجة ولا يتأخر عن الأوان. فنحن أمة الإسلام عندنا مكنون ثمين غائب

---

(١) أبو الحسن الندوي. «منحى جديد في التاريخ الإسلامي»، المسلمون، المجلد الخامس ص ٢٠ ـ ٢٥ بتصرف، وقد نشر البحث في كتاب. «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» انظر ص ١١ ـ ٢٦ من المجلد الأول.

في تاريخنا وتراثنا العريق، فَلْنَتَقَصّ هذه الكنوز بعقل وهِمّة وجَدّ ويقظة و بَصَر وإدراك، وبأَنَفَة من قبول الذّل والعار والمهانة.

ولنصبر على لأْوَاء الطريق وَمَشَقّتها ولا نجزع، ولنكن رابطي الجأش لا تستحوذ علينا المخاوف والرهبة. ولنستمع لنصيحة الإمام الحسن البصري رضي الله عنه: «إنَّ من يُخَوِّفُك حتى تلْقَى الأمْن، أشفق عليك مِمَّن يُؤَمِّنُك حتى تلقى الخوف».

يجب على أهل الإسلام ودعاة الإيمان وحملة القرآن ألا يغفلوا عن التاريخ، فإذا نحن أغفلناه ولم نتبين خطوطه بوضوح جَليّ، وفقه مُدرك لحركته، فكأنّما أغفلنا الحقيقة كلها، وأسقطناها إسقاطاً من عقولنا وتفكيرنا وحياتنا، وضربنا في تِيه طويل، ظلمات بعضها فوق بعض، حتى غدا المسلمون في تَخَبُّط مريح، فلاهم يُبصرون الحق، ولا هم يَتَبَيّنون الطريق.. وصار المعروف والخير مُنكراً، وانتصب المنكر والشرّ لتراه القلوب الرائغة معروفاً، وأصبح أهل الحق مطارَدِين في بلاد الإسلام كلها، وأطبقت الظُلمة، والناس في ضلال بعيد، لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى، وهم يحثُّون الخُطى وراء كل ناعق يقودهم في سراب ضائع إلى الهلاك والبوار، يعيشون في ظلام قاتم لا يتَلَمَّسون نوراً في ليل أسود قد طالت ساعاته، فقد تجاوزوا الحقيقة كثيراً. فهم في فساد غليظ، وخَلْط غالب، فقد أغفلوا جوهر الإسلام وطمسوه طمساً، وصار الإسلام بين ذويه أطلالاً خَرِبَة، وصوامع مُهدّمة، وأشباحاً لا روح فيها ولا حياة، ورموزاً لا تبعث على فَهْم أو تمييز.

لقد وصل المسلمون إلى حال زرية وهاوية سحيقة وذُلّ بائس.. وهل الإسلام إلَّا العزة والكرامة والإباء؟؟.. فإذا ما انعدمت تعاليم الإسلام وانهارت قِيَم الدين في نفوس أصحابه، فهل من المستطاع إذاً أن نقول أن الإسلام مازال بخير، أو أن نقول أنه لم يبق منه غير القشور والأسماء المجردة؟! لقد طَمَّ الخَطْب، وطغى الهوى واستحكم على

القلوب، فإذا لم نهبّ، أهدرن كل شيء، فكان ذلك خيانة للأمانة التي حملتها أمة خاتم الأنبياء.. رسالة السماء وتراث الأنبياء.

كان على الغافين أن يتنبّهوا، وعلى الغارقين في نوم الغفلة أن يهبّوا، كي يُلبّوا داعي الله ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم﴾[الأنفال: ٢٤].

استجيبوا لنداء الله.. استجيبوا إلى كتاب الله حتى تعلو بإيمانكم وترتفعوا إلى مستوى الأمانة.. إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة وبكل معاني الحياة..

إن الله يدعو المؤمنين إلى القرآن. إلى العقيدة التي تُحيي القلوب والعقول. وتطلقها من الخضوع المذلّ للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله والمذلّة للعبيد وللشهوات سواء.

إنه يدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم وشريعتهم، والثقة بدينهم وربهم.. يدعوهم للجهاد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا.

وحَسْبُنا أن الإسلام يعتمد على خلوده، ونضارة رسالته، وتجدّد دعوته على كتاب الله ـ سبحانه ـ مُعجزة الدهر، وصوت الحق المبين. فهو باقٍ محفوظ لا يندثر ولا يتبدّل. ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف، وهو يقود المسلمين إلى الحق برعاية الله وحفظه، إن كانوا يريدون الحق..

إن هذا القرآن ما مَسّ قلباً غابت عنه الحركة، إلاّ نَبَضَ بالحياة، وتلك قُدرة قادرة، ومُعجزة ساحرة، كسائر مُعجزات الحياة، فالشأن في كتاب الله وسرّه العجيب في القلوب هو الشأن في خَلْق الله جميعاً. وهو مثل صُنع الله في كل شيء وصُنع الناس. إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات. فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما

يصوغونه منها لبنة أو آجرة، أو آنية أو اسطوانة، أو هيكل أو جهاز كائناً في دقته ما يكون. ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة. حياة نابضة خافقة تنطوي على ذلك السرّ الإلهي المعجز سرّ الحياة. ذلك السرّ الذي لا يستطيعه بشر، ولا يعرف سرّه بشر. وهكذا القرآن.. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاماً وأوزاناً، ويجعل منها القرآن قرآناً وفرقاناً، والفرق بين صُنع البشر وصُنع الله من هذه الحروف والكلمات، هو الفرق مابين الجَسَد الخامد والروح النابض. هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة!

وهذا القرآن هو كتاب الله، كتاب هذه الدعوة. هو النور وهو الروح، وهو الدستور والمنهج، وهو الذي يستمد منه الدعاة والمصلحون والمسلمون منهج الحياة وزاد الطريق. هذا القرآن الذي إذا دخل إلى القلب الميت أحياه، وإذا لا مَسَ النفس الإنسانية الساهية الغافلة أيقظها. ولو أن عشرات ومئات الملايين من الذين يَدَّعون الإسلام تَيَقَّظ فَهْم معنى الحياة التي يقذف بها القرآن في نفوس أتباعه، هل كانت حالهم تظل على ماهي عليه الآن من ضعف وذلّ واستكانة وتشريد واستخفاف بهذا الدين وأهله...!

لا بد أن يهبّ الدعاة والمصلحون. يجب على هذه الشخصيات العظيمة التي اختارها الله لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة بعد خاتم النبيين ﷺ أن تُعيد الحياة والشباب إلى الدعوة الرشيدة، وأن توجد في المسلمين الثقة بدينهم، وتنفض عنهم غبار السنين الماضية وركام المادية والإلحاد والفساد..

يجب على رجال الدعوة والإصلاح أن يعرضوا الإسلام في صورته الصادقة، ويدعوا إلى أصل الدين وحقيقته دعوة قوية، ويحاربوا المادية والترف الذي ابْتُلي به أتباع هذا الدين، ويوجدوا بإيمانهم القوي

وبروحانيتهم الصادقة وبجهادهم المتواصل روحاً جديدة في هذه الأمة وثقة جديدة بدينهم.

إن هذا القرآن يعرض قصص الأنبياء، وسلوك هؤلاء الأصفياء في الدعوة، كما يقص سيرة الأولياء، وسبيل المؤمنين، وهذا كله يكون قبساً يُضيء للسائرين دَرْبَ الحق، ونوراً يهتدي به المؤمنون في تيه الجاهلية وظلام المادية القاتم. هذا القرآن العظيم بجملته دعوة للجماعة الإسلامية في كل زمان ومكان كي تُحقق في ذاتها حقيقة إيمانها. هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله، فلا تَضِنّ عليها بشيء، ولا تحتجز دونها شيئاً، لا الأرواح ولا الأموال، ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور. وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربّانية بينما تعيش على الأرض. موازينها هي موازين الله، والقيم التي تعتزّ بها وتُسابق إليها هي القيم التي تثقل في هذه الموازين. كما أنها هي الحقيقة التي تُشعر القلوب بحقيقة الله، فتخشع لذكره، وترتجف وتفرّ من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه.

لقد حاول أعداء الذين قروناً عبر قرون أن يسحقوا الإسلام ويبيدوا أهله في كل زمان وفي كل مكان منذ أن أخذت الغفلة مكاناً في بلاد الإسلام، ويأخذ التأمُّل مكانه في تفكير كل مسلم غيور وهو ينظر في واقع المسلمين، ويسمع بأسىً حوادث تقتيلهم، وسفح دمائهم، وتشريدهم، هنا وهناك، ويعود التأمّل من جولته في هذا العالم الظالم الآثم الذي يُلاحق طيف المسلم وظلّه في كل مكان. يعود التأمّل مُنَكّساً جناحيه، يُبلِّل الدمعُ ألوانه، حزيناً، قد تعبت روحه في متاهات الشرّ والباطل التي أطبقت على هذه الأرض.. هاهو ذا يرسم صور المأساة المؤلمة. مصائب مُنكرة قد بعثرت الفكر والعقل، فشلّت خيوطه وقطّعت خطوطه قوافل المسلمين الحيارى في عتمة هذا الظلام الأسود.

ويجلس المؤمن دامعَ القلب، مُهيّج الشّجَن، بين أمل مُشْرق في الله

رغم كل هذه المحن والبلايا المتدفقة في ضباب كثيف، وحسرة موجعة تُراوده أشباحها في ملايين المسلمين..

إن الحسرة لا تُغني، وإن تمطّت النفس وقالت ومن أنا حتى أحملُ رسالة الإسلام!! وهنا ينطق القلب بلغة الحق ولسان اليقين: هل من مفر؟! أين المفرّ.. ؟! إلى ربّك يومئذ المستقر. ﴿وقفوهم إنَّهم مسؤولون﴾ هل في كتاب الله آية واحدة أيها المسلم تعفيك من المسؤولية وتجعلها في عنق صاحب فضيلة أو صاحب سيادة؟! أليس هكذا بدأ الدين منذ عَرَفَتْه البشرية على هذه الأرض وجاء به أنبياء الله ورسُله: نوح وهود وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟.

أليس هكذا بدأ خاتم النبيين محمد ﷺ دعوته بقلّة من الرجال والنساء، وتُؤْذَى أشدّ الأذى حتى أذِنَ الله بالفتح والنصر، وكان ما كان؟ وهو طريق كل نبي ورسول في دعوته ورسالته..

إن بذرة الإيمان التي جَهِد أعداء الإسلام أن يدفنوها في ظُلمات الأرض وقَبْر التراب، فهل تراها ماتَتْ وغَشَّاها البلى؟.. وهل انطفأت نيران حياتها؟ مع طول بقائها في ظلمات الأرض؟.. كلا.. لقد ألقت عن كاهلها ثقل الموت، واستعادت حياتها من جديد، وتوشحت بأجمل الأبراد، وأحلى الأثواب، فقامت دعوة الإيمان هنا وهناك

علينا أن نَتَلَمَّس النور من ربّ العالمين، ونمضي على سنّة الله في الدعوة، وبين أيدينا القرآن الكريم، ميراث النبوة والأنبياء المذخور، ونسير وراء الخطوات التي رَسَمها الله في كتابه، ثم نسترشد أعلام الإيمان، ومعالم المجاهدين الذين ضربوا أروع أمثلة عرفتها البشرية في تحقيق الإيمان في نفوسهم، وفي البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم، في خلوص نادر، وتَجَرُّد كامل، وانطلاق من أوهاق الأرض ومُعوّقات الطريق إلى الله..

وهذا الكتاب قد استوحيتُ فصوله من كُتب وأقوال العلماء العاملين المجاهدين، وكتاب «في ظلال القرآن» المستوحى من القرآن الكريم ومن توجيهاته الأساسية التي حولت سير تاريخ الإنسانية، وإن هذه التوجيهات باقية تنتظر لتمتش في نفوس صفوة من الناس لتسير حيث يشاء الله.

نحن في هذا الكتاب مع أحداث سيرة الأنبياء في المجتمع الإنساني، مع كل جماعة مؤمنة نشأت على الإسلام، عبْر الأيام، حيث سنرى كيف تُربّى وتُقوّم، وتُعدّ للنهوض بحمل الرسالة والخلافة في الأرض، فَيُنشئها الله إنشاءً جديداً من بعْث تصور جديد كامل لهذه الحياة، وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور.

لقد كان أولئك المؤمنون عبْر تاريخ البشرية الذين يُعدّهم الله لهذا الدور العظيم، ناساً من الناس آمنوا بالله حقاً، واكتمل تصوّرهم للعقيدة الربانية، وخلصت نفوسهم لها، ووصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير، وأصبحوا طرفاً من قَدَر الله في الكون، فلا يجدون في قلوبهم شيئاً إلاَّ الله، هذا هو مثل الإسلام الأعلى: علم صحيح، وعمل صادق لوجه الله لا يعرف اليأس ولا الوهن.

إنَّ هذا الدين إن لم تُترجم مبادئه وشرائعه إلى أعمال وسلوك ووقائع، فسيكون إذاً فلسفة مُجردة، وأبحاث عامة، ولن يكون ديناً أبداً بأي حال من الأحوال!.

ونَتَلَمَّس في هذا الكتاب كيف اقتضت تربية النفوس وإعدادها جهوداً ضخمة، وصَبْراً طويلاً، وعلاجاً بطيئاً، في صغار الأمور وكبارها. كانت حركة بناء هائلة هذه التي قام بها الرسل والأنبياء. بناء النفوس التي تنهض برسالة السماء في خلافة الأرض لإقامة المجتمع الإنساني على منهج الله.

كما نشهد في هذا الكتاب صورة موحية من رعاية الله للمؤمنين،

فهو يضع هذه الجماعة المسلمة على عَينه، ويُربيها بمنهجه، ويُشعرها برعايته، ويَبني في ضميرها الشعور الحيّ بوجوده ـ سبحانه ـ معها في أخص خصائصها، وأصغر شؤونها، وأخفى طواياها، وحراسته من كيد أعدائها خفيه وظاهره؛ وأخذَها في حِماه وكنفه، وضمّها إلى لوائه وظلّه.

هذا الكتاب عَرْض لحقيقة الدين، ومفهوم الإسلام الحنيف على المسلمين أنفسهم، عرضاً قرآنياً، عرضاً فطرياً بسيطاً، كما عرضه كتاب الله وسنّة رسوله محمد ﷺ، على النحو الذي عرفه أصحاب النبي ﷺ والتابعون لهم بإحسان، قبل تَبَلْبُل الأفكار، وتفكّك عُرى التقوى، وغَلبة الدنيا، واستبداد الأهواء بالجمعات والأفراد على السواء، ونَبْذ كتاب الله وراء الظهور، وترك العمل به، وإبعاده عن مجال الحياة والتفكير..

إن كتاب الله الهُدَى حقيقته، والهدى طبيعته، والهدى كيانه، والهدى ماهيته. ولكن لمن؟ لمن يكون هذا الكتاب هدى ونوراً ودليلاً ناصحاً مبيناً؟.

هدىً ونوراً لمن فتح مغاليق قلبهِ لتلَقّي الحقيقة، فيدخل النور ويؤدي دوره هناك. لا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء بقلب سليم.. بقلب خالص. ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة أو تستهويه ضلالة..

وبعون الله وفضله قمتُ بترتيب الكتاب وفَهرسَته ليسهل على المؤمنين الوقوف على حقيقة رسالة الإسلام حتى يعلم الجميع أن مسؤولية ماآلت إليه حال المسلمين في ديار الإسلام واقعة على المسلمين جميعاً، لا يُستثنى من ذلك أحد..

إن أصحاب قضية الإسلام والمسلمين هم الذين يحملون القرآن الكريم كتاباً حيّاً يخاطب قلوبهم وعقولهم، وينهضهم إلى إحقاق حقه، وإبطال باطله، في أنفسهم وفي الناس، هم الذين يُثيرهم انتهاك حرمة من

حرمت الإسلام، بل حرماته جميعاً، كما يثيرهم نزع إرث أو غصب مال أو افتئات على حق خاص.

ويتضمن هذا الكتاب المواضيع التالية:

- أولاً: آدم - عليه السلام وفجر البشرية

وتضم هذه الدراسة قسمين:

القسم الأول. المدخل الذي يشمل ثلاثة أبواب

١ - صور من ذاكرة الأيام، ومعالم في فقه التاريخ.

٢ - السنّة الراشدة في مفهوم النبوّة والرسالة الواحدة

٣ - القصة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

القسم الثاني: آدم عليه السلام وبنيه، ويشمل هذا القسم الدراسات التالية:

١ - قصة آدم عليه السلام.

٢ - قصة ابني آدم.

٣ - قصة نوح عليه السلام.

٤ - قصة هود عليه السلام.

٥ - قصة صالح عليه السلام.

- ثانياً: قصة إبراهيم عليه السلام وبنيه، ويشمل هذا المجلد الدراسات التالية:

١ - إبراهيم عليه السلام.

٢ - قصة لوط عليه السلام.

٣ - قصة إسماعيل عليه السلام.

٤ - قصة يوسف عليه السلام.

٥ - قصة شعيب عليه السلام.

- **ثالثاً: قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل، ويشمل هذا المجلد الدراسات التالية:**

١ ـ قصة يعقوب عليه السلام، وبني إسرائيل من قَبل موسى عليه السلام.

٢ ـ قصة موسى عليه السلام، وتضم:

القسم الأول: موسى عليه السلام وفرعون.

القسم الثاني: موسى عليه السلام وبني إسرائيل.

- **رابعاً: قصة بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، وتشمل هذه الدراسة الأقسام التالية:**

١ ـ سنّة الله والتمكين لبني إسرائيل في الأرض.

٢ ـ قصص الإيمان واليقين، والصبر الجميل.

٣ ـ القصة الواضحة في المسيحية الناصعة.

٤ ـ صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل.

٥ ـ من قصص الرحمان.

وبعد، نَسأل المولى جَلَّت قُدرته أن يَنفعنا جميعاً بالقرآن الكريم أَحسن انتفاع، عقيدة، وشريعة، وأخلاقاً، وسُلوكاً، وآداباً، وأن يُعيننا على القيام بحَمل الأمانة وتَبليغ الرسالة، ويمدّنا بحَوْلِه وقُوّته، فهو وَحده المُستعان، وله الحمد والمِنّة، ومنه الجزاء والثواب، وإليه المرجع والمآب، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وإليه أُنيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

آدم ـ عليه السلام ـ وفَجْر البَشَريّة

القسم الأول: المَدْخَل

القسم الثاني: آدم ـ عليه السلام ـ وبنيه

القسم الأول – المدخل

ـ الباب الأول. صور من ذاكرة الأيام. ومعالم في فقه التاريخ.
ـ الباب الثاني: السُّنَّة الراشدة في مفهوم النُّبوَّة والرسالة الواحدة.
ـ سماتها وخصائصها ونظامها ـ
ـ الباب الثالث: القصة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف
ـ خصائصها وأغراضها ـ

الباب الأول

صور من ذاكرة الأيام، ومعالم في فقه التاريخ

صور من ذاكرة الأيام، ومعالم من فقه التاريخ

ميزان العقيدة :

إن الجاهلية ليست فترة من الزمان ؛ ولكنها حالة ووضع يتكرر - في أشكال شتى - على مدار الزمان . فإما ألوهية واحدة تقابلها عبودية شاملة ؛ وتجمع فيها كل ألوان السلطة، وتتجه إليها المشاعر والأفكار، والنوايا والأعمال، والتنظيمات والأوضاع، وتتلقى منها القيم والموازين، والشرائع والقوانين، والتصورات والتوجيهات . . وإما جاهلية - في صورة من الصور - تتمثل فيها عبودية البشر للبشر أو لغيرهم من خلق الله . لا ضابط لها ولا حدود، لأن العقل البشري لا يصلح وحده أن يكون ضابطاً موزوناً ما لم يضبط هو على ميزان العقيدة الصحيحة . فالعقل يتأثر بالهوى كما نشهد في كل حين ؛ ويفقد قدرته على المقاومة في وجه الضغوط المختلفة ما لم يقم إلى جانبه ذلك الضابط الموزون ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعُوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وإننا لنشهد - بعد أربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن بهذا البيان - أنه حيثما انفك رباط القلب البشري بالإله الواحد، تاه في مُنحنيات ودروب لا عداد لها، وخضع لربوبيات شتى، وفقد حريته وكرامته ومقاومته .

لقد كان أكثر من في الأرض حين نزل القرآن - كما هو الحال اليوم بالضبط - من أهل الجاهلية . لم يكونوا يجعلون الله هو الحكم في أمرهم

كله، ولم يكونوا يجعلون شريعة الله التي في كتابه هي قانونهم كله. ولم يكونوا يستمدون تصورا تهم وأفكارهم، ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه.. ومن ثم كانوا - كما هو الحال اليوم - في ضلالة الجاهلية؛ لا يملكون أن يشيروا برأي ولا بقول ولا بحكم يستند على الحق ويستمد منه؛ ولا يقودون من يُطيعهم ويتبعهم إلا إلى الضلال. كانوا - كما هم اليوم - يتركون العمل المستيقن ويتبعون الظن والحدس.. والظن والحدس لا ينتهيان إلا إلى الضلال.

إن كلمة الله هي الصدق **﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم﴾** [الأنعام: ١١٥]..

لقد تمت كلمة الله - سبحانه - في هذا الوجود - صدقاً - فيما قال وقرر - وعدلاً - فيما شرع وحكم - فلم يبق بعد ذلك قول لقائل في عقيدة أو تصور أو أصل أو مبدأ أو قيمة أو ميزان. ولم يبقَ بعد ذلك قول لقائل في شريعة أو حكم، أو عادة أو تقليد ولا مُعقب لحكمه ولا مجير عليه. وهو - سبحانه - يسمع ما يقوله عباده، ويعلم ما وراءه، كما يعلم ما يَصلح لهم، وما يُصلحهم.

إن البشر يتيهون عن الحق ولا يعرفونه أبداً إلا إذا أخذوه من ذلك المصدر الوحيد المستيقن **﴿أفمن يمشي مُكبًّا على وجهه أهدى؟ أم من يمشي على صراط مستقيم؟﴾** [الملك: ٢٢].. والذي يمشي مكباً على وجهه إما أن يكون هو الذي يمشي على وجهه فعلاً لا على رجليه في استقامة كما خلقه الله. وإما أن يكون هو الذي يعثر في طريقه فينكبّ على وجهه، ثم ينهض ليعثر من جديد! وهذه كتلك حال بائسة تعاني المشقة والعسر والتعثر، ولا تنتهي إلى هدى ولا خير ولا وصول! وأين هي حال الذي يمشي مستقيماً سوياً في طريق لا عوج فيه ولا عثرات، وهدفه أمامه واضح مرسوم؟!

إن الحال الأولى هي حال الشقي المنكود الضال عن طريق الله،

لمحروم من هذه، الذي يصْطدم بنواميسه ومخلوقاته، لأنه يعترضها في سيره، ويتخذ له مساراً عبر مسارها، وطريقاً عبر طريقها، فهو أبداً في تعثر، وأبداً في عناء، وأبداً في ضلال.

والحال الثانية هي حال السعيد المجدود المهتدي إلى الله، الممتّع بهذه، الذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحب المعمور، الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء.

إن حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة والقصد. وحياة الكفر هي العسر والتعثر والضلال..

فأيهم أهدى؟ وهل الأمر في حاجة إلى جواب؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب!

فالجاهلية هي الجاهلية مهما كثر أتباعها الضالون: ﴿وإن تطع أكثر مَن في الأرض يضلوك عن سبيل الله. إن يتبعون إلا الظن، وإن هم إلا يخرصون﴾ [الأنعام: ١١٦]، ثم يقرر القرآن الكريم بأن الذي يحكم على العبد بأن هذا مهتد وهذا ضال هو الله وحده. لأن الله وحده هو الذي يعلم حقيقة العبد، وهو الذي يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال ﴿إن ربك هو أعلمُ من يضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ [الأنعام: ١١٧].

فلا بد من قاعدة للحكم على عقائد الناس وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم وشئطهم وأعمالهم. لا بد من قاعدة لتقرير ما هو الحق وما هو الباطل في هذا كله ـ كي لا يكون الأمر في هذه المقومات هو أمر هوى الناس المتقلب واصطلاحهم الذي لا يقوم على علم مستيقن.. ثم لا بد من جهة تضع الموازين لهذه المقومات، ويتلقى منها الناس حكمها على العباد والقيم سواء.

والله سبحانه يقرر أنه هو ـ وحده ـ صاحب الحق في وضع هذا

الميزان. وصاحب الحق في وزن الناس به، وتقرير من هو المهتدي، ومن هو الضال.

إنه ليس هو «المجتمع» هو الذي يصدر هذه الأحكام وفق اصطلاحاته المتقلبة. ليس المجتمع الذي تتغيَّر أشكاله ومقوماته المادية، فتتغير قيمه وأحكامه.. حيث تكون قيم وأخلاق للمجتمع الزراعي، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الصناعي، وحيث تكون هناك قيم وأخلاق للمجتمع الرأسمالي البرجوازي، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الاشتراكي أو الشيوعي.. ثم تختلف موازين الناس وموازين الأعمال وفق مصطلح هذه المجتمعات!

الإسلام لا يعرف هذا الأصل ولا يقره.. الإسلام يعين قيماً ذاتية له يقررها الله - سبحانه - وهذه القيم تثبت مع تغير «أشكال» المجتمعات والمجتمع الذي يخرج عليها له اسمه في المصطلح الإسلامي.. إنه مجتمع غير إسلامي.. مجتمع جاهلي.. مجتمع مُشرك بالله، لأنه يدع لغير الله - من البشر - أن يصطلح على غير ما قرره الله من القيم والموازين والتصورات والأخلاق، والأنظمة والأوضاع.. وهذا هو التقسيم الوحيد الذي يعرفه الإسلام للمجتمعات وللقيم والأخلاق.. إسلامي وغير إسلامي.. إسلامي وجاهلي.. بغض النظر عن الصور والأشكال!!

إن الله - سبحانه - حين خلق هذا الإنسان بعلم فطرته وما جُبلت عليه من نوازع الخير والشر. وطبيعة الحياة على هذه الأرض، وما يختلط فيها من معاني الظلمة والنور. تكفَّل - محض فضله ورحمته - أن يمدّ يده لعباده ولا يتركهم حيارى: ﴿فإما يأتينكم مني هُدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٣٨]. فبعث في الناس من أنفسهم رسلاً، وأنزل عليهم كتباً ترسم للإيمان سبيله وتقيم للحياة الفاضلة موازينها: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ [الحديد: ٢٥]. حتى إذا كان خاتم الرسل محمد - ﷺ - تنزَّل عليه الوحي بالشريعة الخالدة: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما

الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ [الشورى. ٥٢ ـ ٥٣]. ولم ينتقل الرسول ـ ﷺ ـ إلى الرفيق الأعلى حتى بيّن للناس ما نزّل إليهم وتركهم على المحجة البيضاء ولطريق الواضحة، وحتى شهد الله بتمام ذلك كله ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣]. وحتى أشهد الرسول ـ ﷺ ـ ربّه وأصحابه في حجة الوداع على ذلك:

«أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.. فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغت، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً، كتاب الله وسنّة نبيّه... اللهم هل بلغتُ؟ فقال الناس: اللهم نعم! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «اللهم اشهد!».

ومضى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عليين بعد أن بلّغ ما أُرسل به من ربه، وتركه أمانة كاملة في أعناق الذين اتبعوه؛ وقام الخليفة الراشد «أبو بكر الصدّيق» يحملها ويمضي بها، وكانت سيرته في خلافته تقديسه لهذه الأمانة ورعايته لكل معانيها، وقد وقف على مواطىء أقدام النبوة لا يرى في الأرض طريقاً غير طريقها. قام والمسلمون كما يقول عروة بن الزبير كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيّهم ـ ﷺ ـ وردّة من ارتد، وأراد أبو بكر بالرغم من ذلك أن يبعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام تنفيذاً لرغبة رسول الله ـ ﷺ ـ ووصيته، فقام أهل الرأي يقولون: «إن جيش أسامة يضمّ جلّ المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين». فلم يكن من أبي بكر إلا أن قال: «والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننتُ أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ـ ﷺ ـ، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذته». ثم هو ذا رضي الله عنه وأرضاه يواجه المرتدين جميعاً كالأسد الهائج وهو يردد: «أينتقص الدين وأنا حي؟ والله

لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة . . والله لأقاتلهم ما استمسك السيف بيدي. . . ».

وقد شهد التاريخ كيف كانت عاقبة صدق الخليفة الراشد وغيرته على أمانة الله كاملة: جاء في البداية والنهاية:

ش٦ «كان خروج أسامة في ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرّون بحيّ من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء عن قوم إلا وبهم منعة شديدة، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه».

الردّة الكبيرة:

لقد جاء القرآن الكريم والعرب في جاهلية، والدنيا لا تحسّ بهم، وإن أحسّت اعتبرتهم على هامش الحياة، وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية، وهو الذي وجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها به، فلما أن تخلو عنه تنكرتهم الأرض، واستصغرتهم الدنيا، وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين.

ونتطلع إلى المفارقة بين أهل القرآن وحملة هديه ونوره. . . بين الرعيل الأول من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم بأسمائهم فقط. . وإذا المفارقة صارخة، والمسافة شاسعة، والهوة عميقة، والفرق كبير بين السلف والخلف. خلف من بعدهم خلف بعيدون عن الله. بعيدون عن منهجه وحكمه. . أضاعوا شرع الله وانتهكوا حرماته، فتركوا رسالة رسولهم وجحدوها، واتبعوا الشهوات واستغرقوا فيها. فما أشد المفارقة!!، وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء!!.

ولو قدر لأجيال المسلمين المتلاحقة أن تتلقى الإسلام كما تلقاه أبو بكر وأن تغار غيرته على حرمات الله جميعاً، لظل السراج في أيديهم يرسل نوره، ولطلعوا به على هدى مستقيم ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة

لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾ [الجن. ١٦]. ولكن.. ولكنهم طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وعشيتهم عواشي الشهوة والجهل والسياسات، فانطمست المعالم القدسية لدين الله في نفوسهم ورؤوسهم، وباتوا يرثون إسلامهم وراثة من الآباء والأمهات، وباتت ملايين المسلمين تولد مسلمة قضاءً وقدراً، وتبقى مسلمة بشهادات الميلاد، ومما يصل إليها من أمر الإسلام سليماً أو مشوهاً.. أما الإسلام في ذاته: كما أنزله الله وبلّغهُ رسوله وجاهد في سبيله أبو بكر والمؤمنون الصادقون عبر القرون والسنين؛ فإنك لا تجده في واقع المسلمين، بل إنه ليدهشك أن تجد الكتاب والسنّة محفوظين في مكاتب المسلمين، يتغنى بهما ويتبرك بهما، ثم تراهما في العمل يؤخذ منهما ويُترك بالهوى..

يقول العلاّمة الإسلامي الكبير أبو الحسن الندوي: «شهد التاريخ الإسلامي حوادث ردّة عديدة، أبرزها وأعمقها ردّة القبائل العربية على إثر وفاة الرسول، الردّة الكبيرة التي وأدها أبو بكر الصديق في مهدها بإيمانه وعزمه الذي ليس له مثيل في التاريخ. ومنها حركة التنصّر التي انتشرت في إسبانيا على أثر جلاء المسلمين، والتي ظهرت في بعض الأقطار التي استولت عليها الدول الغربية المسيحية، ونشط فيها القسوس و«الإرساليات»؛ ومنها قضايا شاذة، من ارتداد بعض صعاف العقول وصغار النفوس من المسلمين عن دين الإسلام واعتناقهم البرهمية أو الآرية في الهند، ولكنها حوادث نادرة جداً، وفي الحقيقة إن تاريخ الإسلام لا يعرف الردّة العامة أبداً.

وتتسم هذه الحوادث كلها بسمتين: أولاهما المقت الشديد من المسلمين، والثانية الانفصال عن المجتمع الإسلامي، فكان كل من يرتدّ عن دينه يستهدف لسخط المسلمين الشديد، وينفصل عن المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه بطبيعة الحال، وتنقطع بمجرد ارتداده بينه وبين ذوي قرابته الأواصر والأرحام، وكانت الردة انتقالاً من مجتمع إلى مجتمع ومن حياة إلى حياة، وكانت الأسرة تقاطع المرتد وتهجره وتقصيه، فلا

مصاهرة، ولا زواج، ولا إخاء، ولا توارث، وكانت حركات الردة تثير روح المقاومة في المسلمين والمقارنة بين الديانات، والدفاع عن الإسلام، وكل قطر من أقطار المسلمين ظهرت فيه حوادث الردّة تحمّس علماء المسلمين ودعاة الإسلام وحملة الأقلام، واجتاحت المجتمع الإسلامي موجة عنيفة من السخط والاستنكار والقلق، وكانت هذه الحوادث المقيمة المقعدة للمسلمين، وكانت الحديث العام، والشغل الشاغل للعامة فضلاً عن الخاصة وأهل الغيرة الدينية. هذا ما اتسمت به حوادث الردة على ندرتها وشذوذها وعلى عدم تأثيرها في الحياة.

ولكن حرّب العالم الإسلامي في العهد الأخير ردّة اكتسحت عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه، وبذت جميع حركات الردّة التي سبقتها في العنف وفي العموم، وفي العمق وفي القوة، ولم يخلُ منه قطر. وقلما خلت منها أسرة من أسر المسلمين. هي ردّة تلت غزو أوربا للشرق الإسلامي والغزو السياسي والثقافي، وهي أعظم ردّة ظهرت في عالم الإسلام وفي تاريخ الإسلام من عهد الرسول - ﷺ - إلى يومنا هذا!

ماذا تعني الردّة في عرف الإسلام وفي مصطلح الشريعة الإسلامية؟ هي إبدال دين بدين وعقيدة بعقيدة، وإنكار ما جاء به الرسول وتواتر عنه وثبت بالضرورة من دين الإسلام.

وماذا كان يفعل المرتد؟ ينكر رسالة محمد - ﷺ - وينتقل إلى المسيحية أو اليهودية أو الرهمية، أو يلحد في الدين وينكر الرسالات والوحي والمعاد. هذا ما كان يعرفه العالم القديم أو المجتمع القديم من معاني الردّة، وكان كل من يرتدُّ عن دينه يدخل الكنيسة إذا تنصّر أو يدخل الهيكل أو معبد الأصنام إذا اعتنق البرهمية مثلاً، فيعرف ذلك المجتمع، ويصبح شامة بين الناس يُشار إليه بالبنان، وينقطع منه المسلمون الأمل، ولا يكون ارتداده - في غالب الأحوال - سراً من الأسرار.

حملت أوربا إلى الشرق الفلسفة التي قامت على إنكار أسس الدين وإنكار القوة المصرّفة لهذا العالم، القوة الواعية التي أخرجت هذا العالم من

العدم إلى الوجود وبيدها زمام الكون ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤]، وعلى إنكار عالم الغيب والوحي والنبوات وإنكار الشرائع السماوية، وإنكار القيم الروحية والخلقية. منها ما تبحث في علم الحياة والنشوء والارتقاء، ومنها ما تتصل بالأخلاق، ومنها ما تدور حول علم النفس، ومنها ما موضوعها الاقتصاد والسياسة. ومهما اختلفت هذه الفلسفات في أنواعها وأهدافها وأسسها، فإنها جميعاً تلتقي على النظرة المادية المحضة إلى الإنسان وإلى الكون، والتعليل المادي لظواهرهما وأفعالهما.

غزت هذه الفلسفات المجتمع الشرقي الإسلامي وتغلغلت في أحشائه، وكانت أعظم ديانة[1] ظهرت بعد الإسلام في التاريخ، أعظمها انتشاراً وعمقها جذوراً وأقواها سيطرة على العقول والقلوب، وأقبل عليها زهرة البلاد الإسلامية وزبدتها عقلاً وثقافة، وأساغتها وهضمتها ودانت بها - كما يدين المسلم بالإسلام والمسيحي بالمسيحية بكل معنى الكلمة - فهي تستميت في سبيلها وتقدّس شعائرها وتجلّ قادتها ودعاتها، وتدعو إليها في أدبها ومؤلفاتها، وتحتقر كل من يعارضها من الأديان والنظم والعقليات، تؤاخي كل من يدين بها، فأفرادها أمة واحدة وأسرة واحدة.

وما هذه الديانة وإن أبى أصحابها أن يسمُّوها ديانة؟ إنكار لفاطر الكون العليم الخبير الذي قدّر فهدى، وإنكار للمعاد وحشر الأجساد ووجود الجنة

---

(١) إن مفهوم الدين قد غرب وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير إلا العقائد والشعائر، ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، ولقد كان يعني دائماً: العبودية لله وحده، ورفض ما يشرعه غيره ورفض أن يشاركه أحد في الألوهية في الأرض مثل إفراده بالألوهية في السماء وتقرير ربوبيته وحده للناس في حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره. إن هذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة... إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله، فإذا نفي هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين.

انظر البحث الأول من كتاب «طريق الدعوة» - مدلول كلمة الدين، ومفهوم الدين. ص ١٥ - ٢٦.

والنار، والثواب والعقاب، وإنكار النبوات والرسالات، وإنكار الشرائع السماوية والحدود الشرعية، وإنكار أن الرسول الأعظم هو الذي فرض الله طاعته على جميع الخلق وحصر الهداية والسعادة في اتباعه، وأن الإسلام هو الرسالة الأخيرة الخالدة المتكفّلة لجميع السعادات الدنيوية والأخروية ونظام الحياة الأمثل الأفضل، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره ولا يسعد العالم سواه، وإنكار أن الدنيا خُلقت للإنسان وأن الإنسان خُلق لله.

هذه ديانة الطبقة المثقفة الممتازة التي تملك زمام الحياة في أكثر البلدان الإسلامية وإن لم تكن كلها طبقة واحدة في الإيمان بها والتحمس لها، وفيها ولا شك مؤمنون بالله مُتدينون بالإسلام ولكن سمة هذه الطبقة التي تغلب عليها مع الأسف وديانة أكثر أفرادها ورؤسائها هي الديانة المادية وفلسفة الحياة الغربية التي قامت على الإلحاد.

إنها رِدَّة، أعود فأقول، اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وعمت الأسر والبيوتات، والجامعات والكليات والثانويات والمؤسسات، فما من أسرة مثقفة ـ إلا من عصم ربك ـ إلا وفيها من يدين بها أو يُحبُّها أو يُجلُّها، وإذا استنطقته أو خلوت به أو أثرته عرفت أنه لا يؤمن بالله، أو لا يؤمن بالآخرة، أو لا يؤمن بالرسول ـ ﷺ ـ أو لا يؤمن بالقرآن ككتاب معجز خالد ودستور للحياة، وأفضلهم من يقول أنه لا يفكر في مثل هذه المسائل ولا يهتم بها كبير اهتمام.

إنها رِدّة ولكنها لم تُلفت المسلمين، ولم تُشغل خاطرهم، لأن صاحبها لا يدخل كنيسة أو هيكلاً ولا يعلن ردّته وانتقاله من دين إلى دين ولا ينتبه لها المجتمع فلا يحاسبه ولا يعاتبه ولا يفصله بل يظل يعيش فيه ويتمتع بحقوقه وقد يُسيطر عليه؛ إنها قضية العالم الإسلامي الكبرى، إنها مشكلة الأمة الإسلامية الكبرى، رِدّة تنتشر وتغزو المجتمع الإسلامي ثم لا ينتبه لها أحد، ولا يفزع لها العلماء والحكماء..

إنها قضية لا تطلب حرباً ولا تطلب تهييج الرأي العام، ولا تطلب

ثورة، ولا تطلب عنفاً، بل إن العنف يضرها ويُهيجها. والإسلام لا يعرف محاكم لتفتيش. ولا يعرف الاضطهاد، إنها تطلب عزماً وتطلب حكمة وتطلب صبراً واحتمالاً، وتطلب دراسة»[1]

لقد جذبت الحضارة الغربية رجالاً ونساءً مُحْدثين كباراً نشأوا في زماننا، رضعوا من لبان الهوى، ارتبطت ضمائرهم وعقولهم بغير ثقافة الأمة ودين الإسلام، رجال ونساء شربوا الكأس من المستشرقين وغدت علائقهم ممزّقة كل التمزيق بأصول الماضي، فصاروا يكتبون في آداب اللغة وعلومها، والتاريخ، وتفسير القرآن وعلوم الحديث. كتبوا باطلاً كالباطل. وأخذت الأجيال عنهم لكي يلتحقوا بثقافة العصر الذي نعيش فيه، وبمناهجه في التفكير. رجال ونساء لأسمائهم دويٌّ وضخامة، وفي الحقيقة هي طبل فارغ، وزق منفوخ مِلْؤه هواء، ونثروا في تفكير وعقول الأجيال من أوراق المستشرقين ألفاظاً مزخرفة، وكلمات متلألئة، وعناوين جذّابة مثل قولهم: «الجديد والقديم» و «الأصالة والمعاصرة» و «التجديد والتقدّم»، و «الثقافة العالمية» و «الحضارة العالمية» و «التخلف والتحضر» . .

هذه وغيرها كثير جداً، نثروها من أوراق المستشرقين، «ألفاظ وكلمات لها رنين وفتنة ولكنها مَنِيَّة بكل وهم وإبهام، وزهْوٍ مميت فاتك، توغل بنا في طريق المهالك، تستنزل العقل حتى يرتطم في ردغة الخبال»[2].

لقد جاء على المسلمين زمان ـ ما نزال نعانيه ـ ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم. وعن حماية عقيدتهم، وعن حماية نظامهم، وعن حماية أرضهم، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم. وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم! وغيَّر عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم، وأحلوا مكانه

---

(١) ردة جديدة، مجلة المسلمون، المجلد السادس، العدد الخامس ٤١٣ ـ ٤١٧.

(٢) أي صبته المرجه، محمود شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١١٤ وعنه نقلت هذه اللمحات بتصرف.

كل منكر فيهم.. كل منكر من العقائد والتصورات، ومن القيم والموازين، ومن الأخلاق والعادات، ومن الأنظمة والقوانين.. وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقح والتعري من كل خصائص «الإنسان» وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان.. وأحياناً إلى حياة يشمئز منها الحيوان.. ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عنوانات برّاقة من «التقدم» و«التطور» و«العلمانية» و«العلمية» و«الانطلاق» و«تحطيم الأغلال» و«الثورية» و«التجديد» إلى آخر تلك الشعارات والعناوين.. وأصبح «المسلمون» بالأسماء وحدها مسلمين، ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير. وباتوا غثاء كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع، ولا يصلح لشيء إلا أن يكون وقوداً للنار.. وهم وقود هزيل!..

معاول الهدم والتوهين:

وهكذا نرى أن أعداء الأمة الإسلامية لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسلاح فحسب؛ ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسلاح فحسب.. إنما كانوا يحاربونها أولاً في عقيدتها، كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك، ونشر الشبهات وتدبير المناورات! كانوا يعمدون أولاً إلى عقيدتها الإيمانية التي منها انبثق كيانها، ومنها قام وجودها، فيُعْملون فيها معاول الهدم والتوهين. ذلك أنهم كانوا يدركون كما يدركون اليوم تماماً ـ أن هذه الأمة لا تُؤتى إلا من هذا المدخل، ولا تهن إلا إذ وهنت عقيدتها؛ ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئاً وهي ممسكة بعروة الإيمان، مرتكنة إلى ركنه، سائرة على نهجه، حاملة لرايته، ممثلة لحزبه، منتسبة إليه، معتزة بهذا النسب وحده.

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يُلهيها عن عقيدتها الإيمانية، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة.

ويعاني أكثر المسلمين في كل مكان ذروة الاضطراب الفكري، الذي

أدى بهم إلى جهالة أليمة، أخذت بخناق الكثرة الغالبة منهم إلى عبودية للغرب.

معركة رهيبة يعاني الإسلام فيها مؤامرة خبيثة محكمة، وجولتها الحاسمة لن تكون حاسمة إلا حين يستبين المسلمون ملامح المعركة ويميزوا أطرافها.

ولكن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء الدين يضعون للمسلمين المكبَّلة عقولهم بأغلال ثقيلة، يضعون لهم المنهج الإلهي في كفة والتقدم والإبداع في عالم المادة في الكفة الأخرى، ثم يقولون لهم: حذار!!! احذروا! إما المنهج الإلهي في الحياة والبقاء على التخلف والفقر والتخلي عن كل ما أبدعته يد الإنسان في عالم المادة، وإما الأخذ في طريق التقدم وتذوق ثمار المعرفة الإنسانية والتخلي عن منهج الله!!! وهذا خداع لئيم خبيث. فوضع المسألة ليس هكذا أبداً.

إن المنهج الإلهي ليس عدواً للإبداع الإنساني. إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة... ذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض. هذا المقام الذي منحه الله له، وأقدره عليه، ووهبه من الصفات المكونة ما يكافئ الواجب المفروض عليه فيه، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه، ونسّق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليمكنه من الحياة والعمل والإبداع... على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام، والتقيد بشرطه في عقد الخلافة، وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله، فأما أولئك الذين يضعون المنهج الإلهي في كفة، والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى... فهم خبيثو النية، شريرون، يطاردون المسلمين المتعبين الحائرين كلما تعبوا من موقف عبوديتهم الذليل للغرب المستعلي.

لقد مضى القانون الطبيعي في سنَّة من سنن الوجود، أن كل أمة تستعمل ما آتاها الله من قوى الفكر والعقل، وتمضي قدماً في طريق البحث

والتحقيق والاكتشاف تتمتع إلى جانب رقيها الفكري بالرقي المادي أيضاً. وكل أمة تتقاعد عن التسابق في حلبة التفكير والتعمق في العلم تصاب مع انحطاطها العقلي بالتقهقر والاضمحلال المادي كذلك. ثم إنه لما كانت الغلبة[1] نتيجة القوة والمغلوبية عاقبة الضعف، فإن الأمم الضعيفة والمتخلفة من الجهتين المعنوية والمادية كلما تهبط في دركات الضعف والفتور تكون أصلح للعبودية وأكثر استعداداً للمحكومية. وتصبح الأمم القوية بالاعتبارين المادي والمعنوي حاكمة على عقولها وأجسامها.

«لا ريب أن المسلمين يعانون اليوم هذه العبودية المضاعفة. فمن أوطانهم ما قد خيمت عليه العبودية بنوعيها جميعاً. ومنها ما يقل فيه جانب العبودية السياسية ويرجح جانب العبودية المعنوية. ومن سوء الحظ أن ليست لهم على ظهر الأرض اليوم رقعة إسلامية واحدة مستمتعة بتمام الاستقلال من الوجهتين السياسية والمعنوية. وأما البلاد التي قد حصلت لهم فيها الحرية والاستقلال السياسي، فسكانها ليسوا متحررين فيها من ربقة العبودية

---

(١) يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: «إن التحكم والسيادة والغلبة نوعان: أحدهما الغلبة المعنوية والخلقية، والآخر المادية والسياسية. فأما الغلبة من النوع الأول فهي أن تتقدم أمة في قواها الفكرية والعلمية تقدماً يجعل سائر الأمم تؤمن بأفكارها، فتتغلب عقليتها على الأذهان، وتستولي مبادئها ومعتقداتها على المشاعر، حتى تصطبغ العقليات بصبغتها وتكون الحضارة حضارتها والعلوم علومها، والحقيقة ما تقوم به، والحق ما هو عندها والباطل ما تحكم هي عليه بأنه باطل. وأما الغلبة من النوع الآخر فهي أن تبلغ أمة من شدة بأسها ومنعتها ومراسها مبلغاً لا تعود سائر الأمم تستطيع معه أن تحتفظ باستقلالها السياسي إزاءها فتستبد هذه بما تملك الأمم من وسائل الثروة ـ كلها أو جلها ـ وتسيطر ـ أو تكاد ـ على مقاليد حكمها وأمرها.

وكذلك الهزيمة نوعان: أحدهما الهزيمة الفكرية، والآخر السياسية. وقس تعريف هذين على ما سبق من بيان نوعي الغلبة.

وهذان النوعان للغلبة والاستيلاء منفصل بعضهما عن بعض من حيث لا يلزم أن توجد الغلبة المعنوية حيثما كانت الغلبة السياسية، كما لا يلزم أن تكون الغلبة المادية مشفوعة بالغلبة المعنوية في كل حال» (مجلة المسلمون، المجلد الخامس «في عودتنا الفكرية وأسبابها» ص ٥٦٤).

الفكرية، إذ تشهد فيها مكاتبهم ومعاهدهم وبيوتهم وأسواقهم ومجتمعاتهم، وتشهد حتى هيئتهم وبزتهم بأنه قد ستولت عليهم حضارة الغرب، وغلبتهم أفكاره وتمكنت من نفوسهم علومه وآدابه، فهم لا يفكرون إلا بعقول غربية ولا يُبصرون إلا بأعين غربية ولا يسلكون إلا السبل التي قد مضى فيها الغرب، وقد رسخ في نفوسهم - شعروا به أم لم يشعروا - أن الحق هو ما عند أهل الغرب حق، والباطل هو ما يعدونه هم باطلاً. وأن المقياس الصحيح للحق والصدق والآداب والأخلاق والإنسانية والتهذب هو الذي قد قرره الغرب لكل ذلك. فيقيسون بهذا المقياس ما بأيديهم من العقيدة والإيمان ويختبرون ما عندهم من الأفكار والتصورات والمدنية والتهذيب والأخلاق والآداب، فكل ما طابق منها ذلك المقياس اطمأنوا إلى صدقه، وافتخروا بمجيء أمر من أمورهم موافقاً للمعيار الأوربي. وأما ما لم يطابقه منه فيعتقدونه خطأً وباطلاً - بشعور منهم أو عدم شعور - ثم يرفضه المتعسف منهم عنه ويضرب به عرض الحائط، ويقف المقتصد منهم باخعاً نفسه عليه، أو يأتي ليعدلحه مداً وجزراً حتى ينطبق على المعيار الغربي بوجه من الوجوه»[1].

المسلمون بين الحرية والعبودية:

ونقف قليلاً مع الحرية الإنسانية التي لا تتمثل في الأرض لحظة واحدة إلا مع العبودية لله وحده، بمعنى الدينونة له سبحانه. وهي التي تنشر نور التحرر والسلام في الحياة البشرية.

إن الدينونة لله سبحانه تحرر الإنسان من الدينونة لغيره، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وبذلك تحقق للإنسان حريته وكرامته الحقيقية.

هذه الحرية يستحيل ضمانها في ظل أي نظام غير نظام الإسلام،

---

(١) مجلة المسلمون، المجلد الخامس، ص ٥٦٥، أبو الأعلى المودودي

يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية في صورة من صورها الكثيرة، وفي لون من ألوانها العديدة. . سواء عبودية الاعتقاد أو عبودية الشعائر أو عبودية الشرائع، فكلها عبودية، وبعضها مثل بعض، تخضع الرقاب لغير الله بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله. والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين. . لا بد للناس من دينونة.

والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله في كل جانب من جوانب الحياة. . إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط. ومن ثم يفقدون خاصيتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة: ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ [محمد: ١٢]، ولا يخسر الإنسان شيئاً كما يخسر آدميته ويندرج في عالم البهيمة وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣]. وهذه هي الجاهلية المقيتة والعبودية الهابطة. . .

ماذا تصنع الجاهلية بالناس؟ إنها تمسخ فطرتهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم وأفكارهم وأخلاقهم. . ماذا تصنع جاهلية الغرب في عقول المسلمين؟ . إنها تسلخهم من عبوديتهم لله ثم تلبس أرواحهم ثوب العبودية الزاهي بألوان مختلفة. وحيثما تلفت المؤمن يرى صوراً صارخة من العبودية في المجتمعات التي تنسب إلى الإسلام، يرى صوراً عميقة وقاسية. ونضرب مثلاً لهذا تلك العبودية لصانعي المودات والأزياء مثلاً، أي سلطان لهؤلاء على قطيع كبير جداً من المسلمين؟ كل الذين يُسمَّوْن متقدمين ومتحضرين. . إن الزي المفروض من آلهة الأزياء الغربية سواء في الملابس أو العربات أو المباني أو المناظر أو الحفلات. إلخ ليمثل عبودية صارمة لا سبيل لجاهلي أو لجاهلية أن يفلت منها، أو يفكر في الخروج عنها. ولو دان الناس في هذه الجاهلية الحضارية لله بعض ما يدينون لصانعي الأزياء لكانوا عبداً متبتلين! فماذا تكون العبودية إن لم تكن هي

هذه؟ وهذا تكون الحاكمية والربوبية إذ لم تكن هي حاكمية وربوبية صانعي الأزياء أيضاً؟..

ليس هذا إلا مثلاً للعبودية المذلّة للغرب..

ماذا صنع جاهلية الغرب بالمسلمين؟.. إنها تعريهم من اللباس وتعريهم من التقوى والحياء، ثم تدعو هذا رُقيًا وحضارة وتجديداً وتقدُّماً. ثم تُعيِّر الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات بأنهن (رجعيات) (متخلفات) (ريفيات)، حتى وصل الأمر بعدد من العبيد ممن ينتسبون إلى الإسلام أن يُكرهوا زوجاتهم على التبرّج والتزين والخروج بالمظهر اللائق: بزي التحضر، ولباس التمدُّن وزينة الأكابر.

إنه المسخ القبيح الشنيع في التفكير، المسخ في الروح والانتكاس عن الفطرة..

ماذا تقول الجاهلية عن المهتدين بهدي الله؟ إنها تسميهم الضالين.. الأصوليين المتعصبين المتزمتين. المتخلفين الإرهابيين. الخ.

ماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف لحمها؟، وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص؟ إنها تُسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما رجعية وجموداً، وتحاول الجاهلية بكل ما تمكنه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذي تتمرغ فيه، في المستنقع الكريه..

إن الجاهلية هي الجاهلية فلا تتغير إلا الأشكال والظروف، إن المسلمين في مشهد بائس للعبودية، هذه العبودية التي تسلب الإنسان خصائص الإنسان، وتدعه عبداً يلهث، عبداً لما تفرضه عليه أهواء العبيد من أمثاله. هذه الجاهلية التي تجعل العري الحيواني تقدماً ورقياً، والستر الإنساني تأخراً ورجعية. وليس بعد ذلك مسخ لفطرة الإنسان وخصائص الإنسان..

وقد أُقيمت في العالم الإسلامي أصنام من «الوطن» ومن «القوم» ومن

«الجنس» ومن «الطفلة» ومن «الإنتاج» ومن «السياحة» ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب. وتُدق عليها الطبول وتُنصب لها الرايات ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد.. وإلا فالتردد هو الخيانة وهو العار..

وحين يتعارض العرض مع متطلبات هذه الأصنام فإن العرض هو الذي يُضَحَّى به، ويكون هذا هو الشرف الذي يُراق على جوانبه الدم، كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام ومن ورائها أولئك الأرباب الذين يُسَخِّرون هؤلاء العبيد..

ولا عبرة عند العبيد إلا بما تشير إليه الأرباب، فمثلاً السياحة: تقول الأرباب إنها تحتاج إلى العري لأنه قمة الجمال الإنساني، ومن ثم يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه الفكرة في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة.. وتكون الدعوة الميسَّرة للقاء الحب والغرام مع الفتيات هو نشاط سياحي للتمتع بالجمال..

إنها سبيل حادّ جارف للرذيلة والانحطاط الخلقي، إنها تريد إقامة مقاذر إنسانية، يمرُّ به كل من يريد أن يهتك الأعراض في هذا البلد، وينشر الفاحشة والرذيلة. إنها خطة لئيمة لهجوم الذئاب المسعورة على الأعراض المصونة.

هذه صور ولمحات قليلة مما تفعله العبودية للغرب، التي وقع بها العالم الإسلامي، هذه عقيدة الطبقة المثقفة التي تملك زمام الأمور في أكثر البلدان الإسلامية، دينها المادة، وفلسفة الحياة الغربية، التي قامت على الضلال والفساد والإلحاد.

لماذا انتشرت هذه الديانة المادية في الشرق الإسلامي؟ وما السبب لهذه العبودية المطلقة للغرب؟ لماذا استطاعت الديانة المادية الغربية أن تغزو المسلمين في عقر دارهم؟ ولماذا استطاعت أن تسيطر على العقول والنفوس هذه السيطرة القوية؟

إن كل ذلك يتطلب التفكير العميق الدقيق والدراسة الواسعة، وهو موضوع يحتاج التبسط فيه إلى كتاب خاص ولكنا نستطيع أن نختصره ونلم به - إن شاء الله - في البيان التالي: يقول العلامة المودودي: «إن العظمة والاستيلاء المعنوي يقوم بنيانه في الحقيقة على **الاجتهاد والتحقيق العلمي**. فكل أمة تسبق غيرها إليه تتولى قيادة الدنيا وزعامة الأمم، وهي التي تستولي أفكارها على العقول. وأما الأمة التي تتخلف في هذا الطريق فلا تجد من الاتباع والتقليد مناصاً. إذ لا يبقى في أفكارها ومعتقداتها من القوة والأصالة ما يكسبها السيطرة على الأذهان، فيجرفها تيار الأفكار القوية والمعتقدات الراسخة التي تقدمها الأمم المجتهدة والمحققة، وهي تعود في مجابهته كغثاء السيل لا تستطيع أن تدفعه ولا أن تثبت أمامه. فالمسلمون ما داموا يتقدمون في مضمار التحقيق والاجتهاد، بقيت جميع أمم العالم تابعة لهم وسائرة في ركابهم، وما برح الفكر الإسلامي غالباً على فكر النوع الإنساني بأجمعه، وكان ما اتخذه الإسلام من المقاييس للخير والشر والحسن والقبح والصحيح تقرر مقياساً صادقاً لكل تلك الصفات عند جميع أهل الأرض، سواء أشعروا به أم لم يشعروا، وما زالت الدنيا تحاول أن تطبق أفكارها وأعمالها على ذلك المقياس الإسلامي طوعاً وكرهاً»[1].

ففي القرنين الأول والثاني الهجري / السابع والثامن الميلادي كان الإسلام قد ظهر بدينه وثقافته، وغلب على رقعة ممتدة من حدود الصين إلى الهند، إلى أقصى الأندلس، إلى قلب أفريقية، وأنشأ حضارة سليمة متماسكة كاملة، بعد أن ردّ أعداء الدين من النصارى وأخرجهم من الأرض، وحصرهم في الرقعة الشمالية التي فيها الهمج الهامج الذي كان يعيش فيما يعرف اليوم باسم «أوربة»، وظل الصراع مشتعلاً مدة خمسة قرون، بين النصرانية المحصورة في الشمال وبين الإسلام الذي يتاخمها جنوباً ولكن جيوش النصرانية لم تستطع أن تفعل شيئاً يُذكر، مع تطاول الأمر، وتدابر

---

(١) «في غزوتنا الفكرية وأسبابها» محنة المسلمين، لمحمد حسين، ص ٥٦٦

الأمر قادة النصرانية، وهم رهبان الكنيسة وملوك الإقطاع. وداخلتهم الخشية. وحاولوا أن يمضي الأمر إلى زوال النصرانية عن جنوب أوربة، كما زال الإسلام عن الأندلس. فرأوا أن يتجهوا إلى الشمال، ليدخلوا في النصرانية هذا الهمج الهامج الذي لا دين له يجمعه ليكون بعد قليل مدد الجيوش جرّارة تُطلق على ثغور الإسلام وعواصمه في الشام ومصر. انطلق الرهبان يجوبون شمال أوربة ليدخلوا هذا الهمج الهامج في النصرانية، ويُعدُّوهم إعداداً عظيماً لخوض المعركة العظمى بين الإسلام والنصرانية. وكان جزءاً من هذا الإعداد، تشويه «الإسلام» في عيونهم، وأن أهل الإسلام وثنيون، وأن رسول الإسلام كان وكان... فلم يتركوا باباً من الكذب والتمويه والشناعة إلا دخلوه، ليُقرُّوا في قرارة نفوس أتباعهم من الهمج الهامج، ليكون حقاً محضاً، قد نطق به راهب أو ناسك أو قسّيس، فهو مُنزَّه لا ينطق إلا بالحق. فهذا الحق إذن، هو عندهم قسيم الدين الذي آمنوا به واعتنقوه

وجاءت سنة ١٠٩٦ م/ ٤٨٩ هـ وخُيِّشت الجيوش من هذا الهمج من النورمنديين والصقالبة والسكسون، بقيادة الرهبان وملوك الإقطاع، وبدأت «الحروب الصليبية» واكتسحت في طريقها أهل النصرانية وسفحت دماءهم نضاضة، وبدأت تكتسح ثغور الإسلام وعواصمه الشمالية. وتسفح الدماء المسلمة، واستمرَّت قائمة قرنين كاملين. كانت فرصة رائعة، ولكنها انتهت بالإخفاق وباليأس من حرب السلاح في سنة ١٢٩١ م/ ٦٩٠ هـ، بعد أن تركت في أنفس المقاتلين الهمج نصيباً من اليقظة والتنبُّه. باحتكاكهم المستمر بحضارة راقية كانت تفتنهم، وبعث في نفوسهم الشك فيما كانوا قد سمعوه من رهبانهم وملوكهم، ونثير في نفوس العائدين إلى مواطنهم ضروباً مختلفة من القلق، هي على قلتها يُخشى أن تنتشر في جماهير هذه الأمم الجاهلة، فتُضْعِف حميَّتهم ونخوتهم، وكانت حسرة وغُصَّة في قلوب

---

١ الثغور والعواصم هي البلاد المتاخمة لحدود العدو من النصارى وغيرهم

الرهبان والملوك والمثقفين، وحاولوا أن يستنقذوا هذه الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين قائمة راسخة في أنفس الجماهير المتحمسة للدفاع عن نصرانيتها الجديدة. هذه واحدة.

الأمر الثاني: بطل عمل السلاح بالإخفاق واليأس وجمدت الحروب تقريباً بين الإسلام والصليبية نحو قرن ونصف قرن، ثم وقعت الواقعة، اكتُسحت الأرض المسيحية في آسيا، في شمال الشمال، ودخلت برمتها في حوزة الإسلام. وفي يوم الثلاثاء، سنة ٨٥٧ هـ/ ٢٩ مايو ـ أيار ـ سنة ١٤٥٣ م، سقطت القسطنطينية عاصمة المسيحية، ودخلها «محمد الفاتح» بالتكبير والتهليل، وارتفع الأذان في طرف أوربة الشرقي إذن، فقد وقعت الوقعة!! واهتز العالم الأوربي كله هزة عنيفة ممزوجة بالخزي والخوف والرعب والغضب والحقد، ولكن قرار ذلك إصرار مستميت على وضع هذا الخزي. وإماطة هذا الخوف والرعب، وإشعال نيران الغضب والحقد، بحمية تأنف من الاستكانة لذل القهر الذي أحدثه «محمد الفاتح» ورجاله المسلمون الظافرون.

ومن يومئذ، بدأت أوربة تتغيّر، لتخرج من هذا المأزق الضنك، وبهمة لا تفتر ولا تعرف الكلل. بدأ الرهبان وتلاميذهم معركة أخرى أقسى من معارك الحرب، معركة المعرفة والعلم الذي هيأ للمسلمين ما هيّأ من أسباب الظفر والغلبة. لقد علموا أن معركة السلاح لن تُغني عنهم شيئاً، وهذه أمواج المسلمين تتدفق في قلب أوربة غرباً، ويدخل الإسلام سلماً بلا إكراه جماهير غفيرة، كانوا بالأمس نصارى متحمسين في قتال المسلمين، الوثنيين، كما أوهمهم الرهبان، فلم يُغنِ هذا الإيهام عنهم شيئاً.

وهذا المأزق الضنك في حياة المسيحية، له تاريخ قديم سابق لا يمكن إغفاله، بل ينبغي أن يكون واضحاً لنا كل الوضوح. لأن غموضه سبب كبير من أسباب فساد حياتنا الثقافية إلى هذا اليوم. بل إلى هذه الساعة التي تقرأ فيها كلامي. فعند مجيء الإسلام، كان سلطان الكنائس المسيحية مبسوطاً على الشام ومصر وشمال إفريقية، وأرض الأندلس منذ قرون طويلة

سقطت. تقوّض فجأة سلطان المسيحية على هذه الرقعة الواسعة المترامية وزال زوالاً سهلاً، وتقوّض أيضاً سلطانه على نفوس الجماهير الغفيرة من رعاياها. ودخلوا دخولا سهلا يسيراً في الإسلام طوعاً - بلا إكراه - بل أعجب من ذلك أنهم صاروا هم جُند الإسلام وحُماة ثغوره وعواصمه. وقارعوا النصرانية وحصروها في الشمال الأوربي - بل أعجب من ذلك أيضاً، أن دخلوا في العربية دخولا غريباً وصار لسانهم لسانها - بل أعجب من ذلك أيضاً، أن خرج من أصلابهم كثرة كاثرة من العلماء الكبار الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وبالعلم والسيف وصارت دار الإسلام كلها ديار ثقافة وعلم وخلق وحضارة تبهر الأنظار والعقول، في المشرق حيث مقر الخلافة في دمشق وبغداد، وفي المغرب حيث ديار الأندلس . . وكان السؤال في ضمير المسيحية كلها يتردد: كيف حدث هذا؟! ولماذا؟!!

كان جزءاً من جواب هذا السؤال أن جاهدت الدولة البيزنطية في الشمال أن تسترد ما ضاع، وظلت أربعة قرون تحاول أن تعود فتخترق هذا العالم الإسلامي من طرفه الشمالي عند الشام، وذهب جُهدها هدراً، ولم يُغن عنهم السلاح شيئاً، وكل يوم يمرّ، يزداد رعب الرهبان والملوك انبهاراً بالإسلام وخلقه وثقافته وحضارته. ولم ينجُ من هذا الانبهار لا الملوك ولا الرهبان أنفسهم وضاق الأمر. وكاد اليأس يُخامر قلب المسيحية، لا تدري ماذا تفعل أمام تسقط رعاياها في الإسلام، أو في ثقافته وحضارته، طوعاً بلا إكراه ما معنى هذا؟ أيكون معناه أن المسيحية على ما هي عليه غير مقنعة لجماهير الرعايا؟ . .

وانتبه بعض الرهبان والملوك وتبين لعقلاء الرجال في أوربة أثناء احتكاكهم بالعالم الإسلامي أثناء الحروب الصليبية التي استمرت قرنين كاملين واستولى الصليبيون خلالها على جزء من أرض الشام، وأقام بعضهم فيه إقامة دائمة، وأنشأوا ممالك وخالطوا المسلمين مخالطة طويلة، تبين لهؤلاء العقلاء منهم أن سرّ قوة الحضارة الإسلامية هو العلم، علم الدنيا

بعلم الآخرة، فعلم الآخرة وهو الدين، مُقْنِع جماهير البشر، فهم يدخلونه طوعاً واختياراً، وعلم الدنيا كما رأوا، هو الذي مكّن لهذه الحضارة الإسلامية أن تمتلك هذه القوة الهائلة المتماسكة التي شعروا أنها مستعصية على الاختراق، وهذه الأمة الهائلة، التي تعيش فيها دار الإسلام

وبعد واقعة فتح القسطنطينية ودخول الإسلام لهذا الحصن المنيع الشامخ سبحت كتائب الرحمن في قلب أوربة. بيد أن هذه الواقعة الباطشة على عنفها وعلى سرعة ما تلاها من تدفق جيوش المسلمين منساحة في أوربة، لم تفتّ في عضد المتعصبين الأوربيين، بل على العكس، زادتهم إحساساً بالحريق واشتعال حماسة التعصب وتحرُّقاً وحقداً حتى ملأ كل نفس من الخاصة والعامة. وصار همّهم المسلمين. همّاً مؤرِّقاً للعالم والجاهل والصغير والكبير، والذكر والأنثى، وهام الرهبان وغير الرهبان في جنبات أوربة يحرضون رعاياهم على قتال المسلمين، بكل لسان قادر على الإثارة وعلى التشنيع، تشنيع هؤلاء المسلمين. وكلما ازداد المسلمون توغلاً في أرض أوربة المقدسة، ازداد الخوف، وازداد التحريض على البغضاء والحقد، ومع البغضاء المكتومة والتحريض، ازداد التصميم على المقاومة وتمضي الأيام والسنون. وتتطاول، وأوربة تسهر لا تنام إلا على فراش من الرمضاء اللاذعة. لا يقرُّ لجنب ساعةٌ من طمأنينة، يفزِّعه شبح المسلمين، وذكرى قرون طويلة من الإخفاق والمهانة والعار. ولا قرار على دويّ أصوات صارخة تهيب بهم إلى رفع هذا العار، ودفعه عن دينهم وعن أنفسهم وعن أوطانهم بكل سبيل. وكذلك رسخت في العظام الحية، لا في النفوس وحدها ولا في العقول، بغضاء سارية مشتعلة للمسلمين، لا تزداد على الأيام إلا توهُّجاً وانتشاراً، ونزلت من النفوس منزلة «الدين» الراسخ في أعماق الفطرة.

وهذه البغضاء المشتعلة المتقدة في عور العظام هي التي دفعت أوربة دفعاً إلى طلب المخرج من المأزق الضنك، وهي التي أيقظت الهِمَم يقظةً لا تعرف الإغماض. وباليقظة المتوهجة دار الصِّراع في جنبات أوربة بين

جميع القوى التي كانت تحكم جماهير الهمج الهامج ومن قبل هذا الصراع خرجت ضفة إصلاح حتى المسيحية الشمالية، وبدأ نشر التعليم على أوسع نطاق بين جماهير أوربة بعد أن عاد رجال كثيرون منهم كانوا يطلبون العلم والمعرفة في أرض الإسلام»..

بغضاء مشتعلة ولهيب مُكَتَّم:

«وكان جهاد طويل حافل متنوع، وجهاد مرير قاس، في سبيل اليقظة العامة والتثبت والتجمع لإعداد أمة مسيحية قادرة على دفع رُعب «المسلمين»، عن أرض أوربة «المقدسة».

وبدأت اليقظة ذات الهدف الواحد الذي لا يغفل عنه راهب ولا عالم، ولا صغير ولا كبير، ولا عامي ولا متعلم، ولا رجل ولا امرأة. ومع اليقظة تستمر عظم سيل يكتسح أُمية الهمج الهامج ويخرجهم من أغلال الجهالة. ويجعل هذا الهدف الواحد مستقرا في جوف العظم، مع البغضاء والحقد، مع التصميم والإرادة، ومع اليقظة والنشأة. ومضت الليالي والأيام، فما هو إلا قليل حتى كان ما كان...

في دار الإسلام كان المسلمون قد قضى الله قضاءه فيهم، وجرت سنّته تعالى فيهم. فقد أعجبتهم كثرتهم، وغرتهم قوتهم. وتنازعوا فيما بينهم، فضعفت عزيمتهم. وتلهوا بما أُوتوا من زخرف الحياة الدنيا، وارتكب كثير من عامتهم محارم الله، واحتضنوا معاصي قد نُهوا عنها، ونسوا حظا من الحق الذي في أيديهم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتركوا محجة بيضاء لا يضل سالكها، واتبعوا السُّبل فتفرقت بهم عن سبيله سبحانه. فأورثتهم ذنوبهم غفلة سوف تطول بهم حتى يفتحوا أعينهم فجأة على بلاء ماحق حتى كان ما كان...

وفجأة، كما كان اقتحام المسلمين قلب أوربة فجأةً، نهضت الجماهير التي كانت تتبع حركة اليقظة والنشأة في أوربة لأن تؤتي ثمارها، وخرجت أوربة من أصفاد «القرون الوسطى»، ودخلت بعد جهاد طويل [illegible] في

«القرون الحديثة» كما يسمونها. ومع غزّو هذه الحواجز، ظهرت براعم التحرر الشعبية، وبظهورها عصفت ناصرة. زادت الحماسة. وتعالت الهمم. ومُهد الطريق الوعر. ودبت النسوة في حماقير الأوربيين، وتحددت الأهداف والوسائل. وانقضى الطريق اللاحب. ومنذ يومئذ بدأ الميزان يميل، فارتفعت إحدى الكفتين شيئاً ما، وانخفضت الأخرى شيئاً ما. ارتفعت كفة أوربة بهذه اليقظة الهائلة الشاملة التي أحدثتها الهزائم القديمة والحديثة، وانخفضت كفة المسلمين بهذه الغفلة الهائلة التي أحدثتها القرون بالنصر القديم وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية.

وكذلك مال الميزان، وكانت فرحة محسوسة في جانب، وكانت غفلة لا تُحس في جانب. تاريخ طويل مضى وغاب، وتاريخ طويل سوف يأتي، ثم لا يعلم إلا الله متى يكون غيابه..

لقد كان فتح القسطنطينية ذروة صراع الغضب في أوروبة. فقد ازداد اشتعالاً وتوهجاً، وفوق من لهيب البغضاء والحقد العاتي في الحفاظ على الإسلام، فالمسلمون كانوا شبح مخيف يدفع في قلب أوربة، يُلقي ظلّه على كل شيء، ويفزع كل كائن حي أو غير حيّ بالليل والنهار، فصراع الغضب المشتعل بلهيب البغضاء والحقد هو وحده الذي صنع لأوربة كل شيء إلى يومنا هذا.

صنع كل شيء، لأنه هو الذي أدّى بهم إلى يقظة شاملة قامت على الإصرار، وعلى المجاهدة المثابرة على تحصيل العلم وعلى إصلاح خلل الحياة المسيحية، ولكن لم يكن لها يومئذ من سبيل ولا مدد، إلا المدد الكائن في دار الإسلام من العلم الحيّ عند علماء المسلمين، أو العلم المسطّر في كُتب أهل الإسلام. فلم يترددوا، وبالجهاد الخارق، وبالحماسة المتوقّدة، وبالصبر الطويل، انفكت أغلال «القرون الوسطى» بغتةً عن قلب أوربة وانبعثت نهضة «العصور الحديثة» مستمرة إلى هذا اليوم.

من يومئذ، عند بدء أول اليقظة، تحددت أهداف المسيحية الشمالية،

وتحددت وسائلها، لم يغب عن أحد منهم قط أنهم في سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية رابعة، لأنهم كانوا يومئذ يعيشون في ظل شبح مخيف متوغل في أرض أوربة «المقدسة» ببأس شديد وقوة لا تردع، بل هو شبح متحول يطوف أنحاء القارة كلها، لا يطرف فيها جفن حتى يراه ماثلا في عينه آناء الليل وأطراف النهار، «المسلمون المسلمون»!!، وكان التُرْك المسلمون، طلائع عالم إسلامي زاخر هائل مخيف، غير معروف لهم ما في جوفه، مسيطر على رقعة متراحبة ممتدة من الأندلس إلى أطراف تحيط بأرض روسيا، إلى جوف قارة آسية، إلى جوف قارة أفريقية وهم يعلمون الآن علما ليس بالظن، أن السلاح، (وهو يومئذ قريب من قريب) ليس يُغني غناء حاسما، لما رأوا بأعينهم من تجارب. فخبّوا أمره خبيئا إلى أن يحين حينه ويصبح قدرا حاسما. لم يبق لهم إلا سلاح العقل والعلم والتفوق واليقظة والفهم وحسن التدبير، ثم المكر والدهاء والتلبيس والمداهنة، وذلك الاستعداد. لمساورة عالم ضخم مجهول ما في جوفه، ولا قبل لهم بتدفق أمواجه الزاخرة، والتي ظل «الترك» الظافرون طلائعها ظاهرة لهم عيانا في قلب أوربة، وهذه رقعة المسيحية أمام أعينهم تتساقط في الإسلام، مرة أخرى، رقعة مختارة، فتدخل خاشعة بغير تردد في جحافل الإسلام طائعة! يا لها من فجيعة!! ويرتج مع كل فتح رتب المسيحية الأوربية، ويغلي رهبانها ورعاياهم بغضا للإسلام، وحماسة وغضبا للمسيحية، ويرسخ الإصرار في القلوب على دفع غائلة الإسلام، وعلى التماس قهره بكل وسيلة ومن كل سبيل، فتشتد أمانيُّ الاستيلاء على كنوزه الباهرة التي لا تنفد، والتي غالى في تصويرها لهم العائدون من الحروب الصليبية الثمانية (وهي الحملات السبع المعروفة باسم «الحروب الصليبية»)، وصارت أحلاما بهيجة يحلمُ بها كل صغير وكبير، وعالم وجاهل، وراهب ورعية، بل صارت شهوة عارمة تدبّ دبيبا في كل نفس، بل صارت غريزة مستحكمة من غرائز النفس الأوربية.

كان كل مدد اليقظة، كما قدمتُ، مُستجلبا كله من علوم دار الإسلام،

من العلم الحيّ في علمائه، ومن العلم المسطَّر في كتبه، والسبيل إلى ذلك في الأمرين جميعاً كان معرفة لسان العرب. ولن نقصّ عليك التاريخ الطويل، ولكن اعلم أن لسان العرب كان له السيادة المطلقة على العالم، قروناً قبل ذلك طوالاً، وكانت المسيحية الشمالية مجاورة لهذا السلطان المطلق، ومصارعة لأهله صراعاً طويلاً تارة، ومخالطة لهم بالتجارة والرحلة وغيرهما زمناً طويلاً تارة أخرى، ولذلك كان هذا اللسان العربي، معروفاً معرفة جيدة لطوائف من العامة والخاصة في ديار مرتبطة من ناحية، وفي قلب أوربة نفسها لمجاورتها الأندلس. وعند بدء اليقظة في أوربة، فالهمة والإخلاص والعقل أيضاً، كان لا بد أن يزداد عدد الذين يعرفون اللسان العربي[١] وغيره ويجيدونه زيادة وافرة، لحاجتهم يومئذ إلى أن يعتمدوا اعتماداً مباشراً على الاتصال بالعلم الحيّ في علماء الإسلام، لكي يتمكنوا من حل الرموز المغلقة المكتوبة المسطرة في الكتب العربية، ولا سيما كتب الرياضة والنجوم والكيمياء والطب والفلك وسائر علوم الصنعة التي قلّ من يعرفها.

فكان من الأهداف والوسائل، بعثة أعداد كبيرة ممن تعلموا العربية وأجادوها إجادة ما، تخرج لتسيح في أرض الإسلام، وتجمع الكتب شراءً أو سرقة، وتلاقي الخاصة من العلماء، وتخالط العامة من المثقفين والدهماء، وتدوّن في العقول والقراطيس ما عسى أن ينفعهم في فهم هذا العلم الذي استعصى على أوربة المسيحية، واستعلى قروناً طوالاً. يخرجون أفواجاً تتكاثر على الأيام، ويجوبون أرجاء هذا العالم، ويعودون لإتمام عملين عظيمين: إمداد علماء اليقظة بهذه الكنوز النفيسة من الكتب التي حازوها أو سطوا عليها، وإطلاعهم على ما وقفوا عليه فيها، باذلين كل جهد ومعونة في ترجمتها لهم، وفي تفسير رموزها بقدر ما استفادوا من العلم بها. وأيضاً

---

(١) لم يقتصر هؤلاء على تعلم اللسان العربي، بل طفقوا يتعلمون كل لسان كان في دار الإسلام، كالتركي والفارسي وغيرهما من اللغات كانت للمسلمين منطوقة، أو في القراطيس مكتوبة.

إطلاع رُهْبان الكنيسة وملوكها على كل ما علموا من أحوال دار الإسلام، وما رأوا عيانًا فيها، وما لاحظوه مستبصرًا. ولكن أهم ما لاحظوه أو خبروه، هذه الغفلة المطبقة على أرض الإسلام، والتي أورثتهم إياها الاستنامة إلى النصر والمجد القديم، والاغترار بالنصر الحديث بفتح القسطنطينية، ثم سماحة أهل الإسلام عامّتهم وخاصتهم مع مَنْ دينه يخالف دينهم، ولا سيما اليهود والنصارى، لأنهم أهل كتاب وأهل ذمة، ولأنهم ينتسبون إلى الرسولين الكريمين موسى، وعيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ ولأن دين أحدهم لا يُسْلم له حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورُسُله لا يُفرّق بين أحد من رسله ـ سبحانه ـ وأعلموا رهبانهم وملوكهم أن هذا هو الذي يسّر لهم أن يجوبوا في أرض الإسلام غير مروَّعين، ويسّر لهم أن يداهنوا العلماء والعامة وينافقوهم ويخدعوهم بالمكر والمخاتلة أنهم طُلّاب علم لا غير، خالصة قلوبهم لحب العلم والمعرفة، والله عليم بالسرائر.

ومنذ يومئذ نشأت هذه الطبقة من الأوربيين الذين عُرفوا فيما بعد باسم «المستشرقين»، وهم أعظم وأهم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية، لأنهم خدام المسيحية الشمالية، الذين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر، ورضوا لأنفسهم أن يعيشوا مغمورين في حياة لا تموج بالحركة ولمع الصيت الذائع، وحبسوا أنفسهم بين الجدران منحنية ظهورهم على أكداس من الكتب، مكتوبة بلسان غير لسان أممهم التي ينتمون إليها، وفي قلوبهم كل اللهيب المُمِضّ الذي في قلب أوربة، والذي أحدثته فجيعة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام، ولكن لا همَّ لهم ليلاً ولا نهارًا إلا حيازة كنوز علم دار الإسلام بكل سبيل، تتوهّج أفئدتهم نارًا أغلى من كل ما في قلوب رهبان الكنيسة، ولكنهم كانوا متمكنين من القدرة الخارقة أن يخالطوا أهل الإسلام في ديارهم، وعلى وجوههم سيماء البراءة واللين والتواضع وسلامة الطوية والبِشْر. وبفضل هؤلاء المتبتلين المنقطعين عن زخرف الحياة الحديثة وبفضلهم وجدهم وبفضل ملاحظاتهم التي جمعوها من السياحة في دار الإسلام ومن الكتب، وبذلوها لملوك المسيحية الشمالية، نشأت طبقة

الساسة الذين يُعدُّون ما استطاعوا من عُدّة لرد عادية الإسلام ثم قهره في عُقر داره، ولتحقيق الأحلام والأشواق التي كانت تختمر في قلب كل أوربي، أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة في دار الإسلام وما وراء دار الإسلام، وهم الذين عُرفوا فيما بعد باسم رجال «الاستعمار» = وبفضلهم وحدهم أيضاً، وبفضل ملاحظاتهم التي زوّدوا بها رهبان الكنيسة، ثارت حمية الرهبان، ونشأت الطائفة التي نذرت نفسها للجهاد في سبيل المسيحية، وللدخول في قلب العالم الإسلامي لكي تحوّل من تستطيع تحويله عن دينه إلى ملة المسيحية، وأن ينتهي الأمر إلى قهر الإسلام في عقر داره = هكذا ظنوا يومئذ = وهذه الطائفة هي التي عُرفت فيما بعد باسم «رجال التبشير».

فهذه ثلاثة متعاونة متآزرة متظاهرة، وجميعهم يد واحدة، لأنهم إخوة أعيان، أبوهم واحد، وأمهم واحدة، ودينهم واحد، وأهدافهم واحدة: **الاستشراق والاستعمار[١] والتبشير[٢]**.

وننصرف الآن إلى «المستشرق» لعلاقته الحميمة بفساد حياتنا الثقافية والفكرية والاجتماعية، ولأن حاجة «التبشير» و«الاستعمار» إليه حاجة مُلِحّة، وهي إلى اليوم حاجة دائمة، ولا يستغنيان عنه ولا عن نصائحه وإرشاداته وملاحظاته طرفة عين. ومرة أخرى، لا تنس ما حييت أن هذه الثلاثة إخوة أعيان لأب واحد وأم واحدة، لا تفرّق بين أحد منهم.

وهكذا تهاوت في أوربة سدود الجهل، وانبثقت اليقظة، وفُتحت بعض مغاليق خزائن العلم، وتقشعت ظلمة «القرون الوسطى» ولاحت تباشير فجر جديد، واستنارت الطرق، ورحبت على سالكيها كل مغلق للزحف، وبالصبر وبالجهد وبالخبرة وبالعزيمة وبنبذ التواني، صارت أوربة قوة تمدُّها فتوح العلم الجديد مما يزيدها بأساً وصرامة.. ولا أقول شال

---

(١) ذاقت بلاد الإسلام طرفاً من عاديته وتجربته ومعضلته، ولكن من خذلان الله لنا أنّا لم نفهمه فهماً نافذاً شاملاً على الوجه الصحيح.

(٢) انظر تفصيل شأنه في كتاب «أباطيل وأسمار» للأستاذ محمود محمد شاكر

الميزان، بل أقول بطل عمل الميزان، وصار في الأرض عالمان: عالم في دار الإسلام مُفتَّحة عيونهم نيام، يتاخم من أوربة عالماً أيقاظاً عيونهم لا تنام، وقُضي الأمر الذي فيه تستفتيان! وبدأت مرحلة حاسمة في الصراع بين أوربة المسيحية، وبين دار الإسلام التي تحجُبُ عنهم من ورائها عالماً مُبهماً مترامي الأطراف».

فجور وشراهة وغطرسة:

«وكان ما كان... فمع اليقظة ازدادت «الأهداف» وضوحاً وجلاءً، وازدادت «الوسائل» دقة وتحديداً وشمولاً، بعد أن وعظت أوربة التجارب السابقة.

«الأهداف» معروفة، أكبرها شأناً هو اختراق دار الإسلام، ثم تمزيقها من قلبها، ثم الظفر بالكنوز العالية التي كانت، ولم تزل، تراود كل نفس في أوربة بأحلام شرهة مسعورة إلى الغنى والثروة والمتاع، غرست بذورها في أعماق النفوس أحاديث العائدين من حملات الحروب الصليبية القديمة.

أما «الوسائل» فقد وُضعت لها قواعد راسخة تُجنِّبهم أخطاء القرون والسنين السالفة حيث مُنُوا بالإخفاق. كان على رأس هذه القواعد تنحية السلاح جانباً، بعد أن ثبت لهم إخفاقه في اختراق دار الإسلام، لأنه يستثير ما لا يحسبون مغَبَّتَهُ سوء العواقب، وكفى بالتجارب الغابرة واعظاً. فمن يومئذ صارت القاعدة الراسخة في سياسة أوربة هي اجتناب استثارة هذا العالم الضخم المُبْهَم الذي كان «الترك العثمانيون» هم طلائعه المظفرة الناشبة أظافيرها في صميم المسيحية الشمالية في قلب أوربة - ثم العمل الدائب البصير الصامت الذي يُتيح لهم يوماً تقليم هذه الأظافر وخلعها من جذورها = ثم استنفاذ قوته بالمناوشة والمطاولة والمثابرة، وبالدهاء والمكر والسياسة والصبر المتمادي، حتى يأتي عليه يوم لا يملك فيه إلا أن يستكين ويستسلم، وليكن كل ذلك من وراء الغفلة، وبالدهاء والرفق تارة، وبالتمر

والتكثير من الأتباع تارة أخرى... وكذلك كان، وما هو كائن إلى هذه الساعة، ولله الأمر من قبل ومن بعدُ.

وفَضَّت المسيحية الشمالية قيود الحصار عن نفسها، وخرجت جحافلها مكتسحةً دروب البحر والبرّ. انطلقت الأساطيل من شواطئ أوربة مزوّدة بالعدّة والعتاد والرجال الأشداء المغامرين، والعلماء والرهبان، وهدفها أن تطوّق دار الإسلام محيطةً بها من شواطئ المغرب إلى شواطئ الهند. تتحسّس مواطن الضعف في أقاليمها المتطرفة، وانقضّوا على الضعيف والعاجز والغافل، وخادعوا ونافقوا، واستضعفوا وأرهبوا، واستذلوا ونهبوا، وازدادوا شهوة وشراهة وجوعاً إلى الكنوز المخبوءة في قلب دار الإسلام، واستغلوا وسيطروا، ولهيب في القلوب لا تُطفأ ناره.

وفجأةً، وبمعونة البحريين المسلمين العرب، عثر كولمبس (١٤٥١ - ١٥٠٦م / ٨٥٥ - ٩١٢هـ) على أرض الهنود الحمر (أمريكا)، وما هو إلا قليل حتى تدفّق السيل الجارف من أوربة، يجذبه بريق الذهب والغنى، وملأ المغامرون الغلاظ القُساة الأرض البكر، وزحفوا فيها واستباحوها، وسفحوا دماء الملايين سفحاً مُبيراً، غدراً وخسّة، لا يردعهم رادع عن استئصال شأفتهم بقسوة وعنف. وشفى كل أوربي غليلاً كان في قلبه مُعدّاً لدار الإسلام. وانبعثت سفائنهم إلى إفريقية تختطف الآلاف المؤلفة من الآمنين السود مسلمين وغير مسلمين، رجالاً ونساءً وصغاراً، يحملونهم في السفن إلى الأرض الجديدة البعيدة، أرض الهنود الحمر، وتهلك في هذه الرحلات آلاف كثيرة منهم تحت السياط، وتبقى الآلاف قليلة تُلقى على البرّ لتكون تحت أيديهم بهائم مسخرة لعمارة الأرض. وظهر الفساد في البر والبحر، وبلغت أوربة مبلغاً يزيدها فجوراً وشراهة وسفكاً للدماء، وغطرسة فوق ذلك تزداد على الأيام تعالياً في نشوة عارمة، نشوة السكران الثَّمِل إلى جانبها إفاقةٌ من سُكْر!

وصارت أوربة عالماً مخيفاً مرهوب الجانب، وتزداد كل يوم ثقافةً وعلماً، وفهماً ويقظة، وتجربةً وخبرة في كل خير وشر، وتزداد أيضاً نفاقاً

وحشاً ومكراً وغدراً بلا مبين حيث كانوا في أرجاء عالم كانت تحجبه عنهم دار الإسلام قروناً طويلة.

أما دار الإسلام، فعلى الأيام وهنت قوة طليعته المسلمة الناشئة في قلب أوربة، وصارت دار محصورة في الجنوب، بعد أن كانت حاصرة للمسيحية في الشمال. وكذلك بدأت حضارة عتيقة تتضعضع قواها وترث حبالُها، وقامت في الأرض حضارة جديدة غُذيت بالدم المسفوح، ومُرجت ثقافتها بالمكر والغدر والدهاء والخبث، تؤزّها نار أحقاد مكتّمة، ثم صارت لهيباً يؤجُّ أجَّاً = حضارة سوف تطبّق وجه الأرض، وهي بذلك كله حضارة إنسانية عالمية. أليس كذلك؟ ويزيدها إنسانية وعالمية أنها جاءت مُبشرة بدين جديد، عقيدته المادية المبنيّة على البغضاء والحقد والجشع والغدر وسَفْكِ الدماء.

ومع هذه الأساطيل الفاجرة، خرجت من مكامنها أعدادٌ وافرة من رجال يجيدون اللسان العربي والألسنة دار الإسلام الأخرى، ومنهم رهبان وغير رهبان، وركبوا البرّ والبحر، ورحلوا زرافات ووُحداناً في قلب دار الإسلام: على ديار الخلافة في تركية، وعلى الشام، وعلى مصر، وعلى جوف إفريقية وممالكها المسلمة - خرجوا وفي القلوب حميّة الحقد المكتّم، وفي النفوس العزيمة المصمِّمة، وفي العيون اليقظة، وفي العقول النُّهُ والذكاء، وعلى الوجوه البِشْرُ والطلاقة والبراءة، وفي الألسنة الحلاوة والخلابة والمَمَذَقة. ولبسوا للجمهرة المسلمين كل زيّ: زيّ التاجر، وزيّ السائح، وزيّ الصديق الناصح، وزيّ العابد المسلم المتبتل - وتوغلوا يستخرجون كلّ مخبوء كان عنهم من أحوال دار الإسلام، أحوال عامّته وخاصته، وعلمائه وجُهّاله، وحلمائه وسفهائه، وملوكه وسُوقته، وجيوشه ورعيته، وعبادته ولهوه، وقوته وضعفه، وذكائه وغفلته، حتى تدسسوا إلى أخبار النساء في خُدورهن، فلم يتركوا شيئاً إلا خبروه وعجموه، وفتّشوه وسبروه، وذاقوه واستشفوه. ومن هؤلاء، ومن خبرتهم وتجربتهم، خرجت أهم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية وطبقة المستشرقين الكبار، وعلى علمهم

وحروبهم وتجاربهم رسخت دعائم الاستعمار، ورسخت قواعد التبشير

ينبغي أن يكون بيناً لأوربة عند استواء يقظتها، أدركت إدراكاً واضحاً أن الذي بلغته قد ضمن لها التفوق الحاسم، وأنها مقبلة على زحف شامل يحرق قلب دار الإسلام، لا بقعقعة السلاح، بل بوسائل أخر أمضى من وقع السلاح. أدرك ذلك ساستها ورهبانها وعلماؤها وعامة جماهيرها المثقفة وهذا الزحف الصامت المصمم الخفي الوطء، سوف يضم ألوفاً مؤلفة من أشتات الناس، ما بين تاجر وصانع ومغامر ومُدرِّس وسائح ومبشّر وسياسي وراهب وطالب معرفة وأفّاق وصعلوك ومتكسِّب والبنية أن تتكون من هؤلاء الأشتات جاليات كبيرة تقيم في دار الإسلام فتطول عشرتهم أو تقصر، ولكل امرئ منهم اتجاه أو هوى أو أسلوب أو فهم

وقام المستشرقون - وفي صميم قلوبهم أحقاد مكتومة على الإسلام والمسلمين - بهمّة وجِدّ. فكتبوا الآلاف من المقالات، ومئات من الكتب طُبعت ونشرت في أوربة، تناولت كتاباتهم كل شيء يخص أمم دار الإسلام في ماضيها وحاضرها: كتبوا في القرآن، وفي حديث رسول الله ﷺ وسيرته، وفي تفسير القرآن، وفي الفقه، وفي تفاصيل شرائع الإسلام، وفي تاريخ العرب والمسلمين، وفي الأدب، واللغة، والشعر، وفي الفنون والآثار، وفي علم البلدان (الجغرافية)، وفي تراجم رجال الإسلام، وفي الفرق الإسلامية، وفي الفلسفة عند المسلمين، وفي علم الكلام - في كل ما ذكرت وما لم أذكر، كتبوا وألفوا وصنفوا، لكن الهدف واحد لا غير: هو تصوير الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب المسلمين، بصورة مقنعة للقارئ الأوربي، وبأسلوب يدلّه على أن كاتبها قد خبر ودرس وبذل كل جهد في الاستقصاء، وعلى منهج علمي مألوف لكل مثقف أوربي، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه، بعد خبرة طويلة وعرق وجهد وإخلاص، حتى لا يشك قارئ في صدق ما يقرؤه، وأنه هو اللباب المصفى من كل كدر، والمبرأ من كل ريب، وأنه الحق المبين والصراط المستقيم.

كان جوهر الصورة، المبثوث تحت المباحث كلها، هو أن هؤلاء العرب المسلمين هم في الأصل قوم بداة جُهّال لا علمَ لهم ولا كتاب، جياع في صحراء مُجدبة، جاءهم رجلٌ من أنفسهم فادّعى أنه نبي مرسل، ولفّق لهم ديناً من اليهودية والنصرانية، فصدَّقوه بجهلهم وتبعوه، ولم يلبث هؤلاء الجياع أن عاثوا بدينهم هذا في الأرض يفتحونها بسيوفهم. حتى كان ما كان، ودان لهم من غوغاء الأمم من دان، وقامت لهم في الأرض بعد قليل ثقافة وحضارة خليط مسلوب من ثقافات الأمم السالفة كالفرس والهند واليونان وغيرهم. حتى لُغتهم كلها مسروقة وعالةٌ على العبرية والسريانية والآرامية والفارسية والحبشية. ثم كان من تصاريف الأقدار أن يكون علماء هذه الأمة العربية من غير أبناء العرب، (الموالي)، وأن هؤلاء هم الذين جعلوا لهذه الحضارة الإسلامية كُلّها معنىً.

هذا هو جوهر الصورة التي بثّها المستشرقون في كل كتبهم، وعن علوم أهل الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتهم، وأن هذه الحضارة ليس هي إحدى حضارات القرون الوسطى المظلمة التي كان العالم يومئذ غارق فيها، يعْنون عالمهم هم = يجري عليها حكم قرونهم الوسطى!

ونجح «الاستشراق» في تحقيق هدفه كل النجاح، واستطاع أن يُدرج الإسلام وشرائعه وثقافته وحضارته في مستنقع «القرون الوسطى» الذي طمرته «النهضة الحديثة» ووطئه «عصر الإحياء والتنوير» بأقدامه وطأة المتثاقل، وبذلك عصم العقل الأوربي المثقف من أن يزلّ زلّة، فيرى في دين الإسلام أو في ثقافته وحضارته، ما يوجب انبهاره، فقد صوّروا وكتبوا بحديث السفاهة والبذاءة في الطعن في القرآن العظيم وفي رسول الله ـ ﷺ ـ وصحابته...

عبر ما عبر على يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة ٨٥٧ هـ/ ٢٩ مايو ـ أيار ـ سنة ١٤٥٣ بسقوط القسطنطينية حصن المسيحية الشمالية الشامخ المنيع، وعلى تدفق كتائب الإسلام في قلب أوربة الغارقة في حمأة قرونها الوسطى..

عشرون عاماً على وجه أذهلت دار الإسلام عن فجيعتها بسقوط الأندلس كله بعد أربعين سنة في قبضة المسيحية الشمالية يوم سقطت غرناطة آخر حصون الإسلام في الأندلس (٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م) واستأصل المسيحيون التراث الثقافي الإسلامي العظيم في الأندلس، وفي خلال مئة من السنين نُفي المسلمون ونُفوا من بلادهم، أو أُجبروا على أن يتركوا دينهم تحت التهديد بالموت من فرديناند ملك أسبانيا وزوجته إيزابلا. وعشرون عاماً على مكان من توغل محمد الفاتح في قلب أوربة وتساقط رعاياها أرهبهم في الإسلام طواعية واختياراً، ودخولهم بحماسة ويقين في جحفل الإسلام الزاحفة. عشرون ما عشرون، ودخلت دار الإسلام في سنة جديدة أورثتها نشوة النصر المؤزر، ودخلت دولة كبيرة في غيبة خاصة، لتنزع عن عرشها علا، ووقع لسان أربى. فكانت نقطة محسوسة في حدث، وغفوة لا تحس في حدث، وانتقلت الأساطيل الأوربية تطوق دار الإسلام من طرقه البعيدة، وشيئاً فشيئاً فقدت دار الخلافة في القسطنطينية هيبتها وسيطرتها، وصارت لأوربة هيبة مرهوبة وسيطرة..

يومئذ كان قد مضى على فتح القسطنطينية قرنان، مئتا عام... ويومئذ أحس قلبُ دار الإسلام رِكْزاً خفياً فارتجف له سمعُه، سمع نبض أركان دار الخلافة وهي تتقوض، فتوجّس توجُّساً غامضاً لنُذُرٍ مستطرات لا يدري من أين؟ فهبّ من خوف الغفوة الغامرة أشتاتٌ من رجال أيقظتهم هدّة هذا التقوّض، وبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة في غفوتها. رجال عظام أحسّوا بالخطر المُبهم المحدق بأمتهم، فهبّوا بلا تواطؤ بينهم. كانوا رجالاً أيقاظاً متفرقين في جنبات أرض مترامية الأطراف، متباعدة أوطانهم، لا يجمعهم إلا هذا الذي توجّسوه في قرارة أنفسهم مُبهماً من خطر مُحدق. أحسّوا الخطر فراموا إصلاح الخلل الواقع في حياة دار الإسلام: «خلل العقيدة»، و«خلل علوم الدين» و«خلل علوم الحضارة». وبأناة وصبر عملوا وألّفوا وعلّموا تلاميذهم، وبهمّة وجدّ أرادوا أن يُدخلوا الأمة في «عصر النهضة»، نهضة دار الإسلام من اليأس والنوم والجهالة والغفلة عن إرث

أساليبهم العظام. من هؤلاء خمسة من الأعلام أذكرهم محمود شاكر باختصار[1].

١ ـ «البغدادي»، عبد القادر بن عمر، صاحب خزانة الأدب (١٠٣٠ ـ ١٠٩٣ هـ/ ١٦٢٠ ـ ١٦٨٣ م) في مصر.

٢ ـ «الجبرتي الكبير»، حسن بن إبراهيم الجبرتي العقيلي، (١١١٠ ـ ١١٨٨ هـ/ ١٦٩٨ ـ ١٧٧٤ م) في مصر.

٣ ـ «ابن عبد الوهاب»، «محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي» (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ/ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ م) في جزيرة العرب.

٤ ـ «المرتضى الزبيدي»، «محمد بن عبد الرزاق الحسيني» صاحب «تاج العروس» (١١٤٥ ـ ١٢٠٥ هـ/ ١٧٣٢ ـ ١٧٩٠ م) في الهند ومصر.

٥ ـ «الشوكاني»، «محمد بن علي الخولاني الزيدي» (١١٧٣ ـ ١٢٥٠ هـ/ ١٧٦٠ ـ ١٨٣٤ م) في اليمن.

وإذا أمعنت النظر في هذه التواريخ، علمت أن عصر اليقظة عندنا وقع بين منتصف القرن الحادي عشر الهجري إلى منتصف القرن الثاني عشر، ويقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادي إلى أوائل القرن التاسع عشر. تذكر هذا ولا تنسه أبدًا، فهو الذي يكشف لك اسم عن العرب. الفاضح الذي فضحت به حياة الثقافة والفكرية الفاسدة المهلكة

وتتمثل صورة من صور هذه اليقظة بهادئة. صورة واضحة متسقة: صورة للجبرتي الكبير الذي ولّى وجهه شطر العلوم التي كانت زمانًا مستغلقة على أهل زمانه، فجمع كتبها من كل مكان، وحرص على لقاء من يعلم سر ألغازها ورموزها، وقضى في ذلك عشر سنوات (١١٤٤ ـ ١١٥٤ هـ)، حتى ملك ناصية الأمور كلها، في الهندسة والكيمياء والفلك

(١) انظر محمود شاكر، مجلة الهلال، [illegible] سنة ١٩٨٢، فقد ذكر فصلًا عنهم

والصنائع الحضرية كلها، حتى النجارة والخراطة، والحدادة والسَّمكرة والتجليد والنقش والتوريق، وصار بيته زاخراً بكل أداة في صناعة وكل آلة، وصار إماماً عالماً في أكثر الصناعات، ولجأ إليه مهرة الصُّنّاع في كل صنعة يستفيدون من علمه، ومارس كل ذلك بنفسه، وعلَّم وأفاد، حتى علَّم خدمه في بيته، ويقول ابنه عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ[1]: «وحضر عنده طُلاب من الإفرنج وقرأوا عليه علم الهندسة، وذلك في سنة تسع وخمسين (١١٥٩ هـ/ ١٧٤٦ م) وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة، وذهبوا بها إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوة إلى الفعل، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء، وجرّ الأثقال، واستنباط المياه، وغير ذلك».

وهؤلاء «الإفرنج»، هم «المستشرقون» كما قصصت عليك من خبرهم، ومن تصدّيهم للعلم الحيّ عند دار الإسلام، نحو رموز الكتب العربية.

العمل السريع المحكم:

«دوّت أسماء هؤلاء الخمسة في أرجاء دار الإسلام، وأشتات غيرهم، مؤذنة بيقظة جديدة، وإحياء لعلم الأمة ولغتها وثقافتها، واستعادة لسيطرة الأمة على أسباب حضارتها الزاهرة القديمة وإرادة لبعثها بعثاً جديداً.

كما تقدم آنفاً، كان «المستشرقون» منذ نشأة «الاستشراق» = وإلى هذا اليوم = يجوبون دار الإسلام من أطرافها إلى قلبها، يلاقون الخاصة من العلماء، ويخالطون عامة المثقفين والدّهماء، وفي قلوبهم حميّة الحقد المكتّم، وفي النفوس العزيمة المصمِّمة، وفي العيون اليقظة، وفي العقول التنبُّه، وفي الوجوه البِشْر والبراءة، وفي الألسنة الحلاوة والتملُّق، ولبسوا لجمهرة المسلمين كل زيّ، وتوغَّلوا يستخرجون كل مخبوء، وكانت بلادهم

(١) تاريخ الجبرتي ١/٣٩٧.

يومئذ قريبة عهد بعصر النهضة وعصر اليقظة وعصر الإحياء، فهم على تمام معرفة بأسرار اليقظة كيف تبدأ وإلى أين تنتهي، وإدراكًا واضحًا لا لجاجة فيه، أن ما كان يجري في دار الإسلام منذ منتصف القرن الحادي عشر = السابع عشر الميلادي، إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري = الثامن عشر الميلادي، إنما هو يقظة حقيقية، ونهضة كاملة، وإحياء صحيح، منبثق كله من ينبوع صافٍ عتيق، طمست معالمه كرُّ الدهور والقرون، هو جميعه في حوزة دار الإسلام. فوجفت قلوبهم ورجفت من هول ما هم مقبلون عليه، إذا تمَّت لدار الإسلام «اليقظة» واستوت وبلغت أشدها، واستقامت خطواتها على سنن الطريق.

وهبَّ المستشرقون هبَّة الفزع من هذه «اليقظة» فتسارعوا يلتقطون كل صغيرة وكبيرة مما هو جارٍ تحت أعينهم في دار الإسلام، ووضعوه نبأً جليًّا، مشفوعًا بمخاوفهم وملاحظاتهم ونصحهم وإرشادهم، تحت أبصار ملوك المسيحية الشمالية وأمرائها ورؤسائها وقادتها وساستها ورهبانها، وبصَّروهم بالعواقب الوخيمة المخوفة من هذه اليقظة الوليدة التي بدأت تتسع في دار الإسلام. وتناجوا بينهم نجوى طويلة، يقلِّبون النظر في أهدافهم ووسائلهم، وتبيَّنوا الخطر الداهم الذي صار يتهددهم، إذا ما تمت هذه «اليقظة» واشتد عودها، واستقامت خطواتها على الطريق اللاحب.

وبديهية العقل، لم يكن لأوربة يومئذ خيار، طريق واحد لا غير، هو **العمل السريع المحكم**، وهو شلُّ الحركة المحيطة بهذه «اليقظة» الوليدة، ومعاجلتها في مهدها قبل أن يتم تمامها ويستفحل أمرها، وتصبح قوة قادرة على الصراع والحركة والانتشار، فإن تمَّ ذلك، فما هو إلا أن تعود الحرب بين الشمال والجنوب جذعة، وعندئذ لا يضمن أحد مغبَّة الصراع المشتعل بين سلاحين متكافئين، وثقافتين متكاملتين، لا يضمن أحد لأيٍّ الغلب.

«الاستشراق» كما تقدَّم قبلُ هو عين «الاستعمار» التي بها يُبصر ويحدِّق، ويده التي بها يُحسُّ ويبطش، ورجله التي بها يمشي ويتوغَّل، وعقله الذي به يُفكِّر ويستبين، ولولاه لظلَّ في عمايته يتخبَّط. ومن جهل هذا

بيومئذ لعقول ومستمعها أجهل. فلما هزع «الاستشراق» وعت معه كل المسيحية الشمالية ودولها التي كانت أساطيلها تطوق دار الإسلام من أطرافها البعيدة، وتتوغل سيطرتها على سواحلها، منحسبة طريقها إلى قلب هذه الدار المترامية الأطراف، بالدهاء وبالمكر وبالخديعة، وبالتمر أحياناً حين يتطلب الأمرُ التنمُّر والترويع.

كانت دول أوربة كلها في صراع مستميت فيما بينها على نهش أطراف الإسلام، واستنزاف ثروتها وكنوزها وخيراتها بشراهة لا تشبع. وكان أكبر الصراع المتوحش على الطرف البعيد، حيث لا تستطيع طليعة الإسلام في دار الخلافة العثمانية أن تصنع لإنقاذها شيئاً ذا بال، بل هي يومئذ مشغولة أيضاً بالحفاظ على وجودها وهيبتها لا أكثر.

كانت أكبر دولتين يومئذ إنجلترا وفرنسا، وكان السبق لإنجلترا، فأنشأت ما يسمى «شركة الهند الشرقية البريطانية». وهي أول جهاز استعماري قوي وذلك في سنة (١٦٠٠ - ١٨٥٨ م = ١٠٠٩ - ١٢٧٥ هـ) وتبعتها فرنسا فأنشأت جهازها الاستعماري باسم «شركة الهند الشرقية الفرنسية» (١٦٦٤ - ١٧٦٩ م = ١٠٧٥ - ١١٨٣ هـ)، ولا يغررك لفظ «شركة»، فإنه في الحقيقة جيش عرمرم مسلح، مهمته النهب والسلب.

بدأ الصراع بين الشركتين في الهند = أي اللصين = صراعاً مستحراً مستميتاً. وظل محتدماً حتى قضت «الشركة البريطانية» على «الشركة الفرنسية»، وطردتها من الهند كلها سنة ١٧٦١ م/ ١١٧٥ هـ فخرجت هي والإسبان وغيرهم من حلبة الصراع في الهند، واستأثرت إنجلترا بالصيد الغزير.

ففي ذلك الوقت جاءهم النذير، «نذير الاستشراق» للمسيحية الشمالية بالخطر المضلِّل الذي نهدّدهم به «يقظة» دار الإسلام بقيام محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ = ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م)، وظهور الجبرتي الكبير في مصر هو والزبيدي ومن قبله البغدادي وغيرهم من

أعلام اليقظة. . كان تدبير الاستشراق مروِّعاً وحاسماً. إن إنجلترا صاحبة «الشركة الهندية الشرقية البريطانية» فأسرع مستشرقوها سراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية، وبالدهاء والمكر والدسائس في زي الناصح والمعين تدسسوا إلى يقظة ابن عبد الوهاب، يقظة تنقية «الدين» مما تركه عليه من البدع الفاسدة لعقيدة التوحيد - لتتَّخذ عندها يداً وبهذه اليد تسيطر عليها وتحتويها. وأبعدت إنجلترا الرحمة من ناحية أخرى، تؤلِّب عليها من حولها لتطوِّقها تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار، وهذا هو أسلوب بريطانيا حيث حلت من الأرض. وأما فرنسا التي عادت من الهند تلعق جراح هزائمها، فكان وقع التدبير عليها مختلف الأثر، مختلف الأسلوب. في قصة طويلة من تنبُّه «الاستشراق» لما يجري في دار الإسلام.

وقيَّض الله لفرنسا قائداً فذّاً شديد البأس، ضرَّسته الحروب في أوربة حتى أصبح اسمه مثيراً للرعب في القلوب بأنه قائد لا يُقهر، هو الصليبي «نابليون» (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) = (١١٨٣ - ١٢٣٧ هـ). فلما فرغ من حروبه في أوربة منصوراً نصراً مؤزَّراً، أصاخ سمعه لتدبير «الاستشراق» ولنصحه وإرشاده. فقدَّر أن الحين قد حان لكي يكون أول قائد أوربي استطاع بقوته التي لا تُقهر، أن يخترق قلب دار الإسلام من الشمال، وأن يُداهم «اليقظة» التي أقلقت منام «الاستشراق»، وأن يبطش بها في عُقر دارها بطشة جبَّارٍ عاتٍ لا يُبقي على شيء.

وفي أول يوليه - تموز - سنة ١٧٩٨ م = ١٧ من المحرم سنة ١٢١٣ هـ هوى نابليون هُوِيَّ العُقاب على مهد «اليقظة» في الديار المصرية، هوى بجحافله وأساطيله مزوَّدة بكل أداة للحرب جديدة مما تمخَّض عنه علم أوربة يومئذ، مصطحباً معه عشرات من صغار «المستشرقين» وكبارهم، وطائفة من العلماء في كل علم وفن، معهم كل غريبة مما كشف عنه العلم المستحدث. .

وكان ما كان من نار الأحقاد المتوارثة على دار الإسلام، وأترك الجبرتي المؤرخ يصف لك ما حدث في القاهرة في يوم السبت ١٠ جمادى

الأولى سنة ١٢١٣ هـ - ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ م، قال الجبرتي(١): «وبعد هجعة من الليل، دخل الإفرنج المدينة كالسيل، ومرّوا في الأزقة والشوارع، لا يجدون لهم ممانع... ثم دخلوا إلى «الجامع الأزهر» وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا (أي فعلوا) بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته... ونهبوا ما وجدوه من المتاع... ودشتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيها وتغوّطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عرّوه، ومن ثيابه أخرجوه».

وكان ما كان بعد ذلك وقبل ذلك، من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها، بحقد وشراسة.

فمضى نابليون بحملته الصليبية التي غزت مصر، على أكبر قوة مقتدرة في دار الإسلام بعد قوة دار الخلافة، فقضى على بأس المماليك المصرية وشتّتهم ومزّقهم كلّ مُمزّق.

ولم ترحل الحملة الفرنسية عن مصر إلا بعد أن خرّبت عاصمة من أكبر عواصم دار الإسلام وأحسنها. رحلت فلول جيش الفتى السفّاح «بونابرت» عن بلاد واسعة عريضة تركتها بلقعاً تصفر فيه الريح، وانكشفت عن عاصمة عتيقة، تركتها خراباً، كأن خراب شملها، وتدمير لمدينة زاهرة من أروع مدن العالم يومئذ، بعسكرها وبنيانها، أقدم على تدميرها تدميراً كاملاً بربري جاهل مُسْتخف في زيّ متحضّر، وتركها تاريخاً يُروى في وثائق علماء الحملة الفرنسية. ولكنهم لم يرحلوا عن القاهرة المخرّبة، حتى سرق «المستشرقون» المصاحبون للحملة، و«مستشرقون» آخرون من كل جنس، سرقوا كل نفيس من الكتب، وكانت القاهرة يومئذ من أغنى بلاد العالم بالكتب، ودليل سرقتها قائم في جميع مكتبات أوربة. وكان همُّهم الأكبر يومئذ هو السطو على كتب «علوم الحضارة» أولاً، ثم على كتب «التاريخ» ثم على كتب «الآداب» كلها بلا تمييز.

(١) تاريخ الجبرتي ٣: ٢٦، وانظر كتاب «ودخلت الخيل الأزهر» للأستاذ محمد جلال كشك

وكانت الغاية من هذا السطو الجائح على كتب دار الإسلام في القاهرة، هي تجريد دار الإسلام في القاهرة من أسباب «اليقظة» التي جاءت الحملة الفرنسية لوأدها في مهدها، وللقضاء عليها قبل أن تتفاقم. ووفرة هذه الكتب النفيسة في القاهرة يومئذ، هي التي يسّرت الطريق إلى هذه «اليقظة» التي حمل عبء البدء بها «الجبرتي الكبير» وتلامذته، و«الزبيدي» وتلامذتهما. ولكن لا بد للاستشراق وفلول الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملة من أجله، فهو الهدف الأكبر: وأد «اليقظة» في عقر دارها. وبلا شك كانت سنوات الحملة الثلاث، وما أصاب القاهرة فيها من التدمير الشنيع وسفح الدماء، وما عمّ أحياءها من الثورات والفتن الكبار والصغار، ثم قمعها بفجور وشراسة، كان ذلك كله حدثاً متمادياً كافياً أدّى إلى تشتيت شمل تلامذة روّاد «اليقظة» وتفرقهم في الأرض، وضياعهم في الهرج والمرج. بل أنا لا أستبعد عن هؤلاء السفاحين لعنة، أن يكون دهاة «الاستشراق» على علم بأعيانهم وأسمائهم، منذ كان «المستشرقون» يترددون على «الجبرتي» وغيره من العلماء، لا أستبعد أن يكون وكر «الاستشراق» قد أغرى سفهاء السفاحين بتعمُّد قتل بعضهم غيلة وخفية. لا أستبعد، ولا أعلم أي ذلك كان..

ووئدت «اليقظة» أو كادت، وخربت ديارها أو كادت، واستأصلت شأفة أبنائها أو كادت..

إن جهاز «الاستشراق» هو الجهاز المستكنُّ في أحشاء «جهاز الاستعمار» و«جهاز التبشير»، يربأ[1] لهما ويهديهما الطريق، ولولاه لاستبهمت عليهما المسالك وهاما في أودية الضلال. كان هذا الجهاز الخبيث المتخفي في عباءة العلم والبحث، قد اكتسب خبرة واسعة جداً بدار الإسلام وأهلها وسكانها، منذ انساح في قلب دار الإسلام في تركية، وهو يدبُّ مستخفياً في أرجائها، ثم في الشام ومصر وجوف إفريقية وممالكها المسلمة، ومنذ مقامه

(١) يربأ: يرقُب من مكان عالٍ ويتطلّع.

في دار الإسلام في الهند في القرن السابع عشر. كانت خبرة متغلغلة جماهير الأمة مجتمعة، ثم بطوائفها مفترقة، ثم بأفراد رجالها بأعيانهم واحدًا واحدًا، معروف الاسم والمكان والحركة. كانت خبرة بمواطن الضعف والقوة، وبمكامن الهوى المتأصّل الذي يستجيب، والإرادة المُصمِّمة التي تمتنع عن الاستجابة. أي كانت خبرة مدروسة منظمة واضحة المعالم في ذهن «الاستشراق». ومع تطاول السنين عليه، اكتسب لنفسه أعوانًا من اليهود وشذاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام، يستأجرهم لتوسيع رُقعة خبرته تارة، ولبثّ أفكار مدروسة بين جماهير دار الإسلام خاصتهم وعامتهم، وللتحكم في تصريف أمورهم وتسويغ غاياته تارة أخرى = ثم للتمكن من إشعال نار الفتنة حين يقتضي الأمر إحداث فتن تفرّق شمل الناس وتمزقهم وتشغلهم عن الكيد الخفي الذي يُراد بهم. كل هذا يتمّ في هدوء وصبر وتستر، ومن وراء غفلة. غفلة أهل دار الإسلام عن حضور أشباحهم، وعن حقيقة هذه الأشباح الغريبة التي تتجول في الطرقات والشوارع في كل زيّ: زيّ التاجر، وزيّ السائح، وزيّ الباحث المنقب، وزيّ العالم الذي لا يعنيه شيء غير العلم، وزيّ المسلم الذي رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا. وهو يحمل في عقله وقلبه خنجرًا مسمومًا على الإسلام وأهله!!!

ثم انحدروا فأسرع «المستشرقون» إسراعًا حثيثًا إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية. حيث قام «محمد بن عبد الوهاب»، وبالدهاء والمكر والدسائس جاءت في زيّ الناصر والمعين، لتندس إلى يقظة «ابن عبد الوهاب»، لتجد عندها يدًا، وبها تسيطر عليها وتحتويها، ومن وراء ستار كانت تؤلّب تركيا وتؤلّب جيرانه وتخوّفهم، لتطوّق اليقظة تطويقًا يحول بينها وبين الانتشار... وكان ما كان من تشويه هذه اليقظة والقضاء على حركتها

وهكذا بات مكشوفًا كل الانكشاف، أنه لولا خبرة «المستشرقين» الذين كانوا يجوبون دار الإسلام، ويقيمون فيها، فيطيلون الإقامة ثم يمدّون الساسة بالملاحظات، لولاه لظلّ الاستعمار في عمايته يتخبّط. كان

«الاستشراق» هو الذي نعني، حيث نشأت من الأوربيين على اختلاف أجناسهم، ما بين تاجر وصانع ومغامر وسائح ومبشّر وسياسي وراهب وطالب معرفة وأفّاق وصعلوك ومتكسّب ليرتحلوا بصمت حتى، خفيّ الوطء. ولا بد أن يكون على الزمن من هؤلاء الأشتات جاليات كبيرة تقيم في دار الإسلام، وتطاولت السنون حتى استطاع «الاستشراق» أن يكوِّن في قلب دار الإسلام جاليات صغيرة متحيّزة بعضهم ودقّة من شعوب أوربا، عمدتها الرحّالة الذين يحترفون التجارة، ويعرفون العربية وغيرها من لغات دار الإسلام، ويقيمون في دار الإسلام مُدداً طويلة، حتى يألفوا الناسَ ويألفهم الناس. ويتقوّض جدار التوحّش والتخوف والشك في هذه الأشباح الغريبة التي تتحوّل في الطرقات والشوارع آمنة غير مُفزّعة ولا مروّعة.

ومع الأيام كانت الجاليات الصغيرة قد صارت جاليات كبيرة من تجار شعوب أوربة، وتفاقم الأمر وصار لهم اليد الطولى في التجارة حيث نشأت الخانات والقيسريات هنا وهناك، وتولى «الاستشراق» عملاً خبيثاً آخر، كان يُجنِّد في دار الإسلام جنداً من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم، ويُغذيهم بالأحقاد المكتّمة، ويلهب عصبية الثائرة في العظم، ويدربهم على الدهاء والمكر والنفاق في معاشرة أهل دار الإسلام - ويحشد معهم أيضاً طوائف من يهود أوربة ومن اليهود المقيمين في دار الإسلام.

وأخطر ما قام به المستشرقون في دار الإسلام، وأخطر المستشرقين شأناً من لبس منهم زيّ أهل الإسلام، وجاور في المساجد الجامعة، ولازم حضور دروس المشايخ والعلماء، وصلّى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم، وخالط جماهير المسلمين وطلبة العلم مسلماً لا يرتاب فيه أحد. ولا يعرف أحدٌ حقيقته أو أصل بلاده التي جاء منها، وإنما مسلم كسائر المسلمين . .

وكثير من هؤلاء «المستشرقين» مَن أقام في دار الإسلام إقامةً طويلةً متمادية، كالمستشرق الداهية المحنّك المتستر الخفيّ الوطء «فنتور» الذي قضى أربعين سنة يتجوّل في دار الإسلام، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية،

فكان شيطان نابليون ومستشاره وخليله ونجيّه الذي لا يفارقه في الحل والترحال، وكان كما قال الجبرتي المؤرخ «لبيباً متحرياً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطليانية والفرنسي»(١)

وهكذا كان، وفي القرن التاسع عشر نشط «الاستشراق» وأعوانه وحاشيته، نشط نشاطاً سريعاً خفيّ الوطء في ميادين مختلفة في دار الإسلام، بثّ أفكاراً درسوها وأحكموها، وأرادوا أن يشيعوها بين جماهير دار الإسلام، لتتحكّم في تصريف أموره وغاياته، ولتتمكّن من إشعال نيران الفتن حين يرون ذلك مناسباً، ليفرّقوا بهذه الفتن شمل الناس ويمزّقوهم ويشغلوهم عن الكيد الخفي الذي يُراد بهم. وكان ما كان، ومن هذه النيران الفتنة التي أشعلوها فتنة النصارى في بلاد الشام سنة ١٨٦٠ م، التي هيأت كل الظروف لتقدم الجيوش الأوربية فيما بعد إلى هذه البلاد الإسلامية.

ونجح «الاستشراق» وتناصله في إغراء دار الإسلام في استنبول وفي مصر وغيرها لإرسال بعثات كبيرة من شباب الإسلام إلى أوربا لتعرف من الحضارة المتقدمة، هذا كان المظهر البرّاق، ولكن كان الاستشراق يُعد لهم كل شيء ليصنع شباب الإسلام على عينه، ثم بعد سنوات قلائل يعودون إلى بلادهم ليتولوا المناصب والأعمال.

أي صيد سمين تلقفه «المستشرقون» الذين كانوا يصاحبون شباب الإسلام ويوجّهونهم، لم يكن لهؤلاء الشباب مخلص من أحابيلهم ودهائهم ومكرهم ورقّة حاشيتهم ومداهنتهم. فاستغلّوا الشباب أبرع استغلال، وصبّوا في آذانهم، وطرحوا في قرارة قلوبهم معانيَ وأفكاراً قد بيّتوها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمرتها حين تنمو في دخيلة نفس كل منهم، وهم يزيدونهم فتنة بإشهادهم روائع المحافل التي تتألق أنوارها، وتتألّق تحت أنوارها أيضاً مفاتن النساء الكاسيات العاريات، والرجال ذوي الأبّهة يختالون في شمائل

---

(١) تاريخ الجبرتي ٦٨/٣.

الرقعة الأوربية، فزادوهم فتنةً، وزادوا غفلتهم غفلةً، وانتزعوهم انتزاعاً مما كانوا يعيشون فيه، حتى نسوا أنفسهم، وتنكروا لماضيهم القريب وأعرضوا عنه، وسارعوا يسجنون بحيث تهم الجديدة من خطاطيفهم التي تلاحقهم، وعادوا إلى بلادهم بعد سنوات ثمة . جاءوا يُخرجون بلادهم وأهلها من الظلمات إلى النور!! يا للعجب!»[1].

مسيرة الخبث والغدر والكراهية:

لقد أصاب الوهن العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري = التاسع عشر الميلادي في الدعوة والعقيدة والعقلية والعلم، وبدا عليه الإعياء والضعف والشيخوخة، والإسلام لا يعرف الشيخوخة والهرم، إنه جديد كالشمس، وقديم كالشمس، ولكن المسلمين هم الذين شاخوا وضعفوا: فلا سعة في العلم، ولا ابتكار في التفكير والإنتاج، ولا عبقرية في العقل، ولا حماسة في الدعوة، ولا عرضاً جميلاً مؤثراً للإسلام ومبادئه ورسالته، إلا النادر القليل.

ولا صلة بالشباب المثقف وتأثير في عقليتهم وهم أمة الغد والجيل المرتجى، ولا محاولة لإقناعهم بأن الإسلام هو دين الإنسانية والرسالة الخالدة، وأن القرآن هو الكتاب المعجز الخالد الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفد ذخائره ولا تبلى جدَّته، وأن الرسول هو المعجزة الكبرى ورسول الأجيال كلها وإمام العهود كلها، وأن الشريعة الإسلامية هي الآية في التشريع وهي الصالحة المسايرة الحياة وقضاء مآربها الصالحة والإشراف عليها، وأن الإيمان والعقيدة والأخلاق والقيم الروحية هي أساس المدنية الفاضلة والمجتمع الكريم، وأن الحضارة الجديدة لا تملك إلا الوسائل والآلات، وأن تعاليم الأنبياء هي مصدر العقيدة والخُلُق والغايات ولا مطمع في المدنية الصالحة المتزِنة إلا بالجمع بين الوسائل والغايات»[2].

---

(١) الفصول السابقة نقلاً عن محمود شاكر، بتصرف

(٢) المسلمون المجلد السادس ص ٤١٧.

«وبينما كان المسلمون يتقلبون في أعطاف العز والمجد والنعيم الذي ورثوه عن آبائهم، كانت الأمم الغربية تعمل وتسعى وتجتهد... وقد سبق النهضة الغربية تتدفق وتمتد إلى الشرق والغرب، حتى غمرت وجه الأرض في مدة قرن واحد. ولما تنبه هؤلاء الغافلون النائمون من سباتهم الطويل، وفتحوا أعينهم يتثاءبون مدوا نظراً على العالم في أثناء ذلك، رأوا العجب العاجب. رأوا تلقاءهم أوربة المسيحية مدرّعة بالقوتين ـ قوة العلم والسلاح معاً، ومستبدة بالحكم والسيادة في الأرض بالقوتين جميعاً. عند ذلك انبرت من بين المسلمين فئة حملت لواء «النهضة»، وتصدت لصد جنود الغرب ودفع تياره عن بلاد الشرق، ولكنها ما كانت من هاتين القوتين ـ العلم والسلاح ـ على شيء يُذكر، فكانت تفشل وتنهزم في وجهها ـ كما تقدم ـ. وقد هجمت أوربة بفلسفتها التي تعب في تدوينها وتهذيبها كبار الفلاسفة ونوابغ العصر، وصبغوها صبغة علمية فلسفية يُخيَّل إلى الناظر أنها غاية ما يصل إليه التفكير الإنساني، ومنتهى الدراسات والاختبارات ونتائج العقول البشرية وعصارة التأملات، وكان فيها ما يقوم على الاختبار والمشاهدة وتصدقه التجربة، وما يقوم على الافتراض والتحكم والتخيّل والتوهم، وفيها الحق والباطل والعلم والجهل والحقائق.

وسلك السواد الأعظم من الأمة المسلمة المذهب الذي كان مذهب أهل الضعف وأبناء الهون منذ الأزل، وذلك أنه كل ما جاءهم من قبل الغرب من الأفكار والمبادىء والنظريات مدعَّما ببأس الحديد ومعزَّزاً بقوة الحجاج وشواهد العلم ومزخرفاً بفاتن الألوان، أنزله ذوو العقول الفاترة والعقليات المغلوبة هؤلاء منزلة الحقائق التي يجب الإيمان بها. وأما المعتقدات الدينية والمبادىء الخلقية والقوانين المدنية العتيقة التي كانت باقية فيهم على أساس من التقاليد والآثار فحسب، فقد ذهب بها هذا التيار الجديد القوي، واستقر في سويداء قلوبهم ـ من حيث لا يشعرون ـ أن كل ما يأتي من الغرب هو الحق وهو المقياس للصحة والصواب»[1].

---

(١) المسلمون المجلد الخامس ص ٥٦٧.

وأثناء مسيرة الحقد والكراهية ضد ديار الإسلام التقت مخططات الصهيونية العالمية مع أهداف الصليبية العالمية، فقد ساهم يهود أوربة، واليهود الذين كانوا يعيشون في ديار الإسلام - الذين لم يجدوا صدراً حنوناً إلا في العالم الإسلامي المفتوح، الذي ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية - ساهموا في دسّ السم المثلم في عقول المسلمين، كما نشطوا في دفع كل حجر ملتهب أصاب دار الإسلام هنا وهناك.

والصهيونية لم تفتر لحظة واحدة في الكيد للإسلام منذ أن ظهر رسول الحق في المدينة، قاوموه في كل مكان وفي كل زمن مقاومة خفية وظاهرة.

تحركَ اليهود سريعاً في دم «الاستشراق»، تحركوا يؤجّجون نار التعصب المستتر بلهيب الغضب والحقد، وعاثوا بالروح الأوربية فسادا حتى كان لهم ما كان من القيادة المالية والاقتصادية والعلمية والإعلامية، تحركوا بخطى وئيدة خفية في الجسم الأوربي، وتحركوا من خلاله ومعه في تفتيت الدولة العثمانية التي كانت تحمل لواء الخلافة الإسلامية.

ومنذ أن عُقد مؤتمر «بال» في سويسرا عام ١٨٩٧ م برعامة الصحفي اليهودي هرتزل وبعد صدور كتاب «الدولة اليهودية» بقلمه، كان قد فتح مجال جديد للعمل في مواجهة العالم الإسلامي لشقّ الطريق إلى فلسطين لإقامة وطن قومي لليهود فيها من خلال مخطط القوى الاستعمارية التي كانت قد انطلقت منذ عام ١٧٩٨ م إلى مصر تحت اسم «الحملة الفرنسية» ثم إلى الجزائر عام ١٨٣٠ م، ثم إلى تونس عام ١٨٨١ م، ثم إلى مصر مرة أخرى من قبل أنكلترا عام ١٨٨٢ م، وفي هذه المرحلة كان الصراع قوياً بين الاستعماريين الفرنسي والإنجيزي في المنطقة التي تضم الخلافة العثمانية، ولكي تكتمل الصورة فإن هولاندة كانت قد سبقت ذلك بوقت طويل بالاستيلاء على الملايو وجزره وما يطلق عليه الآن اسم أندونيسيا. وكانت إنجلترا قد احتلت الهند، وكانت أجزاء من الخليج قد سقطت في أيدي إسبانيا والبرتغال ثم ورثتها إنجلترا وكان هذا كله جزءاً من مخطط الاستعمار الغربي الحديث الذي تكامل في نهاية الحرب العالمية الأولى بإيقاع الصراع

بين العرب والترك في المنطقة العربية (الحجاز والشام والعراق) وحول فرنسا وإنجلترا بدلاً من الدولة العثمانية في هذه المناطق بعد معركة الدردنيل إنجلترا بقيادة الضابط المعروف لورنس الذي وُصف في يوم من الأيام بأنه مَلِك العرب غير المتوّج.

كان المخطط مُعدًا لأن تُعطى فلسطين في هذا المسرح الذي مُثّلت عليه هذه الرواية كلها للصهيونية العالمية وكان استيلاء إنجلترا على فلسطين عام ١٩١٨ م تمهيد لأن تقع بما فيها بيت المقدس في أيدي اليهود.

ومراجعة الأحداث تُنبىء بهذا التخطيط الواسع البعيد المدى الذي بدأ منذ وقت مبكر يسبق لقاء هرتزل للسلطان عبد الحميد، وهو في حقيقته صراع بين إرادتين: الإرادة الأولى هي إرادة السلطان عبد الحميد الذي تولى سدّة الخلافة في عاصمة دار الإسلام استانبول عام ١٨٦٨، والذي قاد حركة كبرى في سبيل الوحدة في مواجهة الاستعمار تحت اسم الجامعة الإسلامية لتعمل مع جميع المسلمين في العالم خارج نطاق الدولة العثمانية ولتوحد كل القوى والمذاهب والأقطار.

ولا ريب كانت هذه الحركة مضادة لإرادة أخرى كانت تستهدف تمزيق الدولة العثمانية نفسها وليس لتمكينها من أن تجمع إليها أقطار المسلمين الأخرى التي في خارجها، ولذلك كان الصدام عميقاً وكان الصراع شديداً فقد تكاتفت القوى الغربية كلها في سبيل السيطرة على البلاد الإسلامية وتقسيم الأمبراطورية العثمانية بعد أن عمدت إلى إنهاكها سنوات عدة بالحروب والمؤامرات، وحين بانت لمعة سائغة جاء السلطان عبد الحميد ليعقد الخناجر على مقاومة الاستعمار ولذلك كان لا بد من إزاحته. كذلك فإن الصهيونية العالمية كانت ترى أن الدولة العثمانية هي مدخلها إلى فلسطين. وكانت تُعدّ العدّة منذ وقت بعيد في بؤرة خطيرة داخل تركيا هي «سالونيك» التي كانت تتجمع فيها «الدونمة» أولئك الذين دخلوا الإسلام تقية من يهود إسبانيا الذين هاجروا بعد خروج الحكم الإسلامي منها، والذين كانوا قد أنشأوا المحافل الماسونية لإعداد خطة الانقضاض على

الدولة العثمانية، والذين استطاعوا احتواء جماعة «الاتحاد والترقي» والتغلغل فيها والسيطرة عليها، ومن ثم استطاعوا بها إقصاء السلطان عبد الحميد وإسقاط مشروعه، والقيام على الدولة لتمزيقها والقضاء عليها. ولا عجب ففي ظل حكم الاتحاديين بعد إسقاط عبد الحميد منذ عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٨ هزمت الدولة في الحرب العالمية الأولى وسلمت صرابس العرب إلى إيطاليا وفتحت الطريق أمام اليهود إلى فلسطين.

ولنعد إلى حقيقة الصراع بين القوى الإسلامية بقيادة السلطان عبد الحميد وبين قوى الصليبية العالمية الاستعمارية والصهيونية العالمية لنعرف مدى ما حققه إسقاط عبد الحميد تمهيداً لإلغاء الخلافة الإسلامية.

لكي نعرف حقيقة الوحدة الإسلامية الجامعة التي قام بها عبد الحميد يجب أن نتصور بوضوح واقع الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي وقد بلغت الدولة العثمانية أشد مراحل الضعف، وقد تجمعت الدول الغربية على وضع الخطط للانقضاض عليها وتمزيقها وإذلالها. وقد كانت روسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا جميعاً بالإضافة إلى النمسا تشترك في رسم هذه الخطط وفي انتزاع الأجزاء الأوربية من الدولة واسترجاعها والاستعداد لتقسيم الأجزاء العربية في الدولة وهي: الشام والعراق والجزيرة العربية.

وكانت مخططات الصهيونية العالمية تركز تركيزاً شديداً على الدولة العثمانية من أجل الوصول إلى فلسطين وتحقيق حلمها في إقامة هيكل سليمان. فلما وُلي السلطان عبد الحميد الحكم خليفة للمسلمين وسلطان الدولة العثمانية واجه الموقف على نحو يختلف عما واجهه به سلاطين آل عثمان الذين سبقوه وكانت مواجهته جادة حاسمة. كان إحساسه بالمسئولية كبيراً وكان ذكاؤه وسعة فكره وإلمامه بالتيارات المختلفة بالغاً. ومن هنا فقد جرى من الأحداث في طريقها المرسوم شوطاً ثم لم يلبث أن وضع خطته المحكمة التي رأى أنها الطريق الوحيد لمواجهة الغزو الاستعماري الزاحف والذي كان قد تشكل داخل الدولة العثمانية في مؤسستين خطيرتين:

إحداهما المحافل الماسونية في سالونيك وتركيا الفتاة التي سُميت بعد «الاتحاد والترقي»، والتي ضمت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية ومن أصحاب الولاء الفكري الغربي وخاصة الفرنسي، ومن الذين أغروا عن طريق المستشرقين وكتاب الغرب بأنه لا سبيل أمام الدولة العثمانية لكي تصل إلى التحرر والقوة إلا بالتماس مناهج الغرب التماساً كاملاً، وطرح فكرها وأسلوبها ومنهجها الإسلامي القديم والتخلص منه إلى غير رجعة. غير أن هذه الجماعة لم تستطع أن تقف وحدها والتمست العون من المحافل الماسونية ومن ثم احتوتها الحركة الصهيونية وسيطرت عليها ووجّهتها الوجهة التي ارتضتها في القضاء على الدولة العثمانية. وكان السلطان عبد الحميد قد حدَّد هدفه في مواجهة النفوذ الغربي على هذا النحو: إن الوسيلة الأساسية لمواجهة النفوذ الاستعماري هو تجمع المسلمين في كل مكان تحت جناح الخلافة الإسلامية التي تحمل لواءها الدولة العثمانية الجامعة في كيانها بين العرب والترك، ومن هنا فقد كان على السلطان العثماني الذي هو خليفة المسلمين أن ينادي المسلمين في جميع أنحاء الأرض أن يقفوا معه في صف واحد في مواجهة النفوذ الغربي ومن هنا كانت صيحته المعروفة المشهورة التي هزّت الغرب كله «يا مسلمي العالم اتحدوا».

ومن هنا بدأ الخطر الذي واجهته الدول الأوروبية والاستعمار والماسونية والصهيونية العالمية في عنف، وأحدث في التماس كل وسائل التآمر والغدر في سبيل تحطيم الخطة والقضاء على القائم بها. ولكن السلطان عبد الحميد استطاع أن يصمد لذلك وقتاً طويلاً وأنه كان قد بدأ هذه الحركة عام ١٨٧٩ م على وجه التقريب، فقد ظلّ يحمل هذا اللواء في قوة في مواجهة عواصف السياسة الأوروبية ثلاثين عاماً كاملة دون أن يتزلزل أو يضعف.

لم يكن السلطان عبد الحميد يملك من القوة العسكرية ما يستطيع أن يواجه به أوربة والصهيونية العالمية إلا التجمع باسم كلمة «لا إله إلا الله»، وتحت لواء الخلافة قوة عارمة خشيت بأسها أوربة وحسبت لها ألف حساب،

فقد كان المسلمون الموالون للسلطان تحت النفوذ الغربي في عديد من الأقطار التي احتلتها بريطانيا وفرنسا وخاصة قارة الهند يمثلون قوة روحية ذات أهمية خطيرة. ولقد مضى السلطان في تنفيذ مخططه في قوة وسرعة، بحيث شملت الدعوة كل الآفاق الإسلامية ودعت في كل مكان وحملت معها عملاً إيجابياً نافعاً قوامه المدارس والمنشآت في كل صقع من البلاد الإسلامية وكان قد أنشأ مدرسة لدعاة الدين سرعان ما نشروا في كل أطراف العالم الإسلامي إلى الهند والصين وجزائر المحيط ومصر وأفريقية وتركستان وأفغانستان وبلاد العرب، وأطراف المملكة العثمانية. كما عقد مع الأمراء في شتى هذه البقاع مراسلات وعقوداً وعمّق روابط الود والإخاء الإسلامي فيما بينهم ودولة الخلافة.

وأنهى الخلاف الذي أججه الاستعمار بين السُّنة والشيعة أو بين الأتراك والفرس وقد استخدم لذلك العلّامة الكبير جمال الدين الأفغاني، وأجرى صلحاً مع شاه فارس وصفّى أمر الخلافات القديمة كلها.

ولم يتوقف عند هذه الحركة الفكرية وحدها إنما جعلها واجهة لعمله الكبير الذي بناه في بناء القوة الحربية والعسكرية وتقوية جيوشه وأساطيله، فقد استخدم بعثة ألمانية، ولم يلبث أن أنشأ معاهد عسكرية دخلها عدد كبير من الشبان المصاريين من شباب العرب من العراق وسورية ومصر وقد مضت الخطة إلى غايتها المرجوة فاشتد عصب المسلمين بالترابط وتوحّدت فكرتهم بالعمل الجامع، وكان دعاة الفكرة الإسلامية يبشرون بنهضة جديدة قوامها مواجهة الاستعمار الغربي الزاحف والخطر الأوربي القيصري الصهيوني جميعاً، وتركزت الآمال حول السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين، وترابطت الدول الإسلامية وأهلها حول عصمة الخلافة على نحو بلغ غاية القوة (فكانوا يذكرون اسمه في خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعة الروحية وباسم خلافته على المسلمين كافة) وجُلُّهم من رعايا دول أوربة في الهند وجزر الهند الشرقية وشمال أفريقية.

وكان من أكبر أعمال السلطان في هذا الصدد: إنشاء سكة حديد

الحجاز التي تربط بين دمشق والمدينة وكذلك فرعه الذي يربط بين الحجاز وبغداد، وقد وجد هذا العمل تقديراً بالغاً من المسلمين في كل مكان وتبرّعوا له بأكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية. فكان من أخطر المشروعات التي عجّلت بالقضاء على السلطان فقد كان منذراً للغرب بتغيير إسلامي كبير.

وكان من أخطر موقف الحركة الإسلامية الواحدة التي دعا إليها وحمل لواءها عبد الحميد: هو معارضة أهداف الحركة الصهيونية في السيطرة على فلسطين ومواجهتها.

كان اليهود يرون في السلطنة العثمانية شبح محنة خطر على مستقبلهم، فبعد أن عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ م وكانت حركة الوحدة الإسلامية قد استحصدت، كانت وجهة نظر اليهود هي اقتحام فلسطين ولذلك فقد تركزت الخطط حول الدولة العثمانية وحول السلطان عبد الحميد في محاولة لاحتوائه ظنا منهم أنه في ظرف من الضعف وفي حاجة من الاستدانة تجعله يخضع للإغراء، إغراء اليهود بالذهب. وهم من قبل أصحاب العجل الذهبي، وبدأت المحاولات منذ ذلك الوقت واتخذت وسائط كثيرة ووسائل متعددة منها وساطة الأمبرطور غليوم ولقاء اليهود الثلاثة «مزراحي قراصو-جاك-ليون»، ولقاء هرتزل ومعه موشي ليوي حاخام اليهود في الدولة العثمانية، ولقاء السفير اليهودي عوش وهي سابقة على مقابلة اليهود الثلاثة ثم لقاء هرتزل للسلطان ولرجال قصره.

وقد عرض من خلال هذه المقابلات مشروع يرمي إلى تقديم قرض للدولة العثمانية يبلغ خمسون مليوناً من الجنيهات الذهبية، وبناء أسطول كامل للدفاع عن أراضي الدولة العلية، ومليون جنيه لخزانة السلطان الخاصة، وذلك في مقابل السماح لليهود بإنشاء مستعمرة صغيرة لهم قرب القدس ينزل بها أبناء جلدتهم.

وحتى لا نطيل والتفاصيل كلها موجودة والمراجعة ثابتة: نُنوّه بالرد

النهائي للسلطان عبد الحميد: «بلِّغوا الدكتور هرتزل ألا يبذل بعد اليوم شيئاً عن المحاولة في هذا الأمر (الوطن الفلسطيني)، فإني لست مستعداً أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير، فالبلاد ليست ملكي بل هي ملك شعبي الذي روى تربها بدمائه. فليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب، فإن الدولة العلية لا يمكن أن تختبىء وراء حصون بُنيت بأموال أعداء الإسلام.

لست مستعداً لأن أتحمل في التاريخ وصمة بيع بيت المقدس لليهود وخيانة الأمانة التي كلفني المسلمون بحمايتها».

وقد أورد هرتزل في مذكراته التي طُبعت بالألمانية في تل أبيب عام ١٩٢٤ قصة هذه المحاولات وقال بعد فشل المحاولة الأخيرة: «إن السلطان عبد الحميد الشريف لعنه...» وهذا الذي أُخفي عن المسلمين والعرب منذ عام ١٩٠٩ حتى سنوات قريبة عندما ترجمت مذكرات هرتزل.

ومن هنا انطلقت الصحافة الأوروبية وتبعتها الصحافة العربية التي ظهرت في مصر والتي قد حركتها جريحو الإرساليات التبشيرية. من أمثال: سليم سركيس وفارس نمر ويعقوب صروف وفرح أنطون وغيرهم الذين حملوا لواء التشهير بالسلطان ومعارضته وإشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصيته، وتصويره بتلك الصورة الرديئة لحساب الصهيونية العالمية التي انطلقت لإشاعة روح الكراهية والانتقاص للرجل بعد موقفه الحاسم الكريم من مطالبهم، وكان أعظم ما تركز عليه هذه الحملة إثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركة الإسلامية وبين العناصر المختلفة في الدولة العثمانية وخارجها.

وكان أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد في مصر اللورد كرومر الذي حمل على فكرة الجامعة الإسلامية حملة ضارية، ودعا الدول الأوروبية في تحريض سافر إلى التجمع للوقوف في وجه هذه الدعوة وكذلك هاجمها هانوتو الفرنسي واللورد غراي، ووصفوها بأنها «نزعة التعصب

صليبي»، وأنه ليس المقصود منها إلا تحدي قوى الدول العربية المسيحية.

وقد ظل المسلمون والعرب خلال فترة لا تقل عن خمسين عاماً يرمون السلطان عبد الحميد عن قوس واحدة، لأن الاستعمار والصهيونية والصحف العربية التي أصدرها تلاميذ مدارس الإرساليات وخاصة في مصر (المقطم، الأهرام، الهلال، المقتطف، مجلة سركيس) وعشرات من هذه الصحف كانت تصف عبد الحميد بالسلطان الأحمر المستبد. وقد انتقلت هذه العبارات من الصحف إلى كتب التاريخ وكتب تاريخ الأدب العربي. وما من كتاب أرَّخ هذه الفترة إلا احتوى على هذه العبارات التي أصبحت مسلمات بالإضافة إلى تعبير آخر عداه في النفوس الاستشراق وهو «الاستعمار التركي العثماني».

كانت تلك العبارات الشديدة التي وجهها السلطان عبد الحميد إلى هرتزل عام ١٩٠٢ م إيذاناً ببلك الحملة العاتية على السلطان بعد أن تقرر إزاحته. وكانت هذه الحملات التي وُجهت إليه تمهيداً وإعداداً للرأي العام لهذا الغرض. ولقد جرت منذ ذلك الوقت محاولات لاغتياله وإسقاطه حتى وقع ذلك عام ١٩٠٨ م بالانقلاب الذي قام به الاتحاديون بالاشتراك مع الماسونية ممثلة في الدونمة. والدونمة هي القوة اليهودية الكامنة داخل الدولة العثمانية التي اختارت مدينة سالونيك ودخلت الإسلام بعد تاريخ طويل معروف، وهي التي أنشأت المحافل الماسونية في الدولة العثمانية لهذه الغاية، واتصلت بجماعة «الاتحاد والترقي» وحزب «تركيا الفتاة» وأفسحت له في محافلها الفرصة للعمل، وتلاقت الرغبات على التخلص من الوجه الإسلامي لتركيا ومن السلطان عبد الحميد وكان ذلك قد بدأ يأخذ طريقه بقوة منذ أعلن السلطان عبد الحميد دعوته إلى المسلمين. وكانت قوى كثيرة تشارك اليهودية العالمية في هذا الاتجاه، وقد كان السلطان عبد الحميد يعرف هذه القوى التي يواجهها في الداخل. ويعرف المؤامرة التي تُدبر لفكرته وله. وكان يعرف أبعاد المخطط كله: فئة المثقفين الغربيين الذين سيطرت عليهم أفكار الثورة الفرنسية وتتلمذوا على أيدي المستشرقين

من ناحية، وحركة الإرساليات الأجنبية في لبنان وثمارها الممثلة في مصر وسورية والبلاد الإسلامية، تحمل أحقادها على الإسلام والوحدة الإسلامية، والمحافل الماسونية في سالونيك.

وإذا كان السلطان قد عارض مدحت وحزب «تركيا الفتاة» فقد كان عالماً بأنهم واقعون تحت نفوذ الماسونية العالمية أداة الصهيونية العالمية في ذلك الوقت، وأن موقفه دون تمكين اليهود من فلسطين قد حرّض كل هذه القوى وأمدّها بإشارة الانقضاض. إن تصريحات كثيرة للسلطان عبد الحميد تكشف أنه كان عالماً بأهداف الصهيونية في هذا الوقت المبكر، ولذلك فقد كان وقوفه في وجه الاتحاديين و«تركيا الفتاة» وعمله على تحطيم مخططاتهم ليس نابعاً من كراهيته للنهضة للدولة العثمانية ولكنه كان عميقاً في النظرة إلى الأهداف البعيدة لتدمير هذه القوة التي كانت تحمي أمن المسلمين داخل الدولة وخارجها.

ولقد صدقت نظرة السلطان عبد الحميد على الاتحاديين بعد أن دخلوا التجربة فعلاً وسيطروا على الحكم من عام ١٩٠٩ إلى ١٩١٨ وما قاموا به من تسليم كامل للدولة وتبعية كاملة لمخططات الاستعمار والصهيونية مما كشف أصالة عبد الحميد وبُعد نظره، وجلال موقفه الحاسم في وجه النفوذ الاستعماري نفسه بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية. وفي نفس الوقت بمقاومة هذه النزعة التي كانت تحمل مظهراً برّاقاً هو الإصلاح على طريقة الغرب بينما كانت تحمل في أعماقها إيماناً بالفناء في الغرب كله. ولقد خدع المسلمون والعرب بالاتحاديين، وأقاموا الأفراح وسرعان ما اكتشفوا أنهم سلّموا أنفسهم إلى فك الوحش وأنيابه. إن مقدرة عبد الحميد على فهم ما يحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون، ولكنه كان في موقف لا يستطيع معه أن يكشف للمسلمين بالأخطار التي تحيط به. ولقد أكّد كثير من المؤرخين والباحثين في إنصاف: أن السلطان عبد الحميد كان آخر الحصون التي دافع بها الإسلام عن وجوده العالمي، وبعد انهياره تحت مؤامرات الغرب والصهيونية ومن الحق أن يُقال أن الحركة التي حملت لواءها استطا

عند نجحه في تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة كانت اتجاهاً طبيعياً وأملاً يملأ كل النفوس، ولذلك فقد حققت نجاحاً كبيراً، مع الصليبية العالمية والصهيونية العالمية إزعاجاً شديداً مما استدعى العمل من جانبهم لإجهاضه والقضاء على حامل لواء هذه الدعوة أصلاً توطئة للقضاء عليها وتدميرها(١).

الحقد الأسود على الإسلام:

هذه هي الحقيقة التي شوهها الاستشراق في عقول المسلمين، وجنّدوا تلاميذهم وصحف وإرساليات التنصير كما تقدم. هذه هي الحقيقة: الحقد الأسود على الإسلام وتدمير أهله، حتى يبقى من يبقى من المسلمين لا يستطيع على هذه الحقيقة، ويبقى مرتكساً في غفلته وضلاله.

هذه هي الحقيقة في سجل شديد الدلالة. وهو بيان لما نحن عليه، ولما سوف يكون. ويمكن من كل مسلم على ذكر أبداً لا ينساه.

ولقد كان ضرورياً للباحث المنهجي المنصف أن يقف دائماً من تاريخ الدولة العثمانية في العصر الأخير موقف العدل والصدق وأن يفرق بين عهدين: عهد السلطان عبد الحميد الذي انتهى عام ١٩٠٨ م تقريباً، وعهد حكم الاتحاديين الذي بدأ منذ ذلك الوقت وظل مستمراً حتى سلم أمره إلى الكماليين بعد الحرب العالمية الأولى.

فهذه التفرقة واضحة وضرورية جداً بالنسبة لنا في المشرق، ذلك أن سورية ولبنان والعراق قبل ذلك تعيش في هذا الاتجاه المعارض للخلافة والسلطان بينما كانت مصر التي سقطت عنها ولاية الدولة العثمانية وسيطر عليها الاستعمار البريطاني منذ ١٨٨٢ م تؤيد الخلافة والسلطان، ولقد كان لموقف حكومة الاتحاد التركي من أهل سورية ولبنان ومحاكمة رجالهم وتعليقهم على المشانق عام ١٩١٦ أثراً نفسياً بعيداً في نظرتهم الكلية إلى

---

(١) نقلاً عن أنور الجندي. السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية بتصرف

الدولة العثمانية، والحقيقة أنها يجب أن تكون قاصرة على الاتحاديين وحدهم.

ومن هنا وجب التفريق بين مرحلة السلطان عبد الحميد التي انتهت عام ١٩٠٨، وهي فترة كان موقف الدولة العثمانية فيها للعرب والمسلمين موقفاً كريماً، وكانت الحركة الإسلامية بواحدة من أعظم الأعمال. أما الفترة الثانية التي حكم فيها الذين أسقطوا السلطان فإنها تمثل أسود صفحات الحكم التركي ولاء للصهيونية والاستعمار وضربا للوحدة الإسلامية وإعلاء للحركة الطورانية، ومحاولة لتتريك العرب في سورية وتعليق زعمائهم على المشانق. هذه الفترة وحدها هي التي يقف فيها العرب في سورية وغيرها موقف الخصومة بذلك وهي ليست من حساب الدولة الإسلامية العثمانية في الحقيقة»[1]..

وفي نفس الوقت كان الإسلام ينحسر في أوربة الشرقية دون ضجيج ولا همس، يجب أن نعترف بأن الصليبية العالمية نجحت في محو الإسلام من الأندلس بعدما عبثت بمدائن الأندلس وقراه بعد الدين ثمانية قرون طوال.

وقد أغرى هذا النجاح بطلب المزيد، ولولا قوة الأتراك العسكرية في السنين التي تلت هذه الكارثة لتابع القوم زحفهم، وكرروا ما حدث في الأندلس بأقطار أخرى.

فلما ضعف العثمانيون وضاعت هيبتهم الحربية، قرر القوم استئناف عملهم الأول، وبلوغ أهدافهم نفسها، وإن تغيرت بعض الوسائل.

وكان لا بد ـ في نظرهم ـ من محو الإسلام من جنوب أوربة وشرقها، ثم الوثوب على مواطنه الأولى في القارتين القديمتين آسية وأفريقية، لقطع دابره.

وتم لهم ـ بالفعل ـ ما أرادوا، فمحوا الإسلام من جنوب إيطالية، ومن صقلية وكريت.

---

(١) السلطان عبد الحميد والخلافة العثمانية ص ٨٩.

وشرعت الصليبية العالمية في إتمام خطتهم، فأوعزوا إلى دول البلقان والقوقاز أن تقتل الأتراك، وأن تدمر معالم الإسلام في كل بقعة من هذه الأرجاء. ونشبت حرب البلقان عام ١٩١٢ م بين الدولة العثمانية من ناحية ودول البلقان المؤلفة من (اليونان، وبلغاريا، والصرب، والجبل الأسود) من ناحية أخرى، حتى خشيت الدول الأوربية أن تنتهي الحرب بانتصار الدولة العثمانية فأعلنت الدول الأوربية الكبرى قراراً حاسماً بلسان المسيو «بوانكاريه» وزير خارجية فرنسا صرّح فيه نيابة عن تلك الدول أنه لا يسمح للمنتصر في هذه الحرب أن يجني ثمرة انتصاره، أو يضم أي جزء من أراضي خصمه المغلوب إلى بلاده.

ولما انتهت تلك الحرب بتغلب دول البلقان على الدولة العثمانية، فتكت الجيوش الصليبية بالمسلمين نساءً وشيوخاً وأطفالاً في وحشية هائلة

إن أندلساً أخرى كانت تصنع في شرق أوربة وما تزال إرهاصاً للمرحلة التي أشرنا إليها آنفاً.

إن المسلمين في هاتيك البقاع يشبهون غديراً تجمعت فيه المياه، ولكنه انقطع عن ينبوعه، فهو موشك على الجفاف، مع انقطاع المدد ووقدة الجو.

غير أن أعداء الإسلام يخافون أن تمتد حياتهم لأسباب غير منظورة، فهم يستعجلون هلاكهم بالقتل والإفناء قبل أن يطول بهم الأجل!!!

ومن يدري؟ ربما تجددت لهم حياة مع حب العقيدة وقبول التضحية؟

فليفتكوا بهم اليوم قبل الغد.

ووقعت مذابح البلقان الأولى سنة ١٩١٢ م وهلك في أتونها الألوف المؤلفة من النساء والأطفال والشيوخ ـ كما ذكرنا ـ وصكت أسماع العالمين أنباؤها الفظيعة.

أما دول أوربة ـ الصليبية العالمية التي كانت وراءها ـ . . فلا نقول أن

ذلك أرضاهم وحسب أن تقول إن ذلك كان بإشعار منهم وتشجيع ومباركة...

وأما الشرق الإسلامي فقد ضجّ بالبكاء، وترجم «شوقي» عن مشاعره الأسيفة بهذه القصيدة المشهورة:

يا أختَ أندلسٍ عليكِ سلامُ!! هوتِ الخلافةُ عنكِ والإسلامُ!!

وبعد انتهاء حرب البلقان وهزيمة الدولة العثمانية، بدّلت الدول الأوربية الكبرى موقفها تماماً، وأعلنت موافقتها على ضم البلاد العثمانية التي احتلتها دول البلقان إليها. وهي ولايات «الروميلي» جميعاً المؤلفة من (سلانيك، مناستر، قوصوه، يانية، أشقودرة، والروميلي الشرقي)

ولم يبق للدولة العثمانية شيء من أراضيها الشاسعة شرقي أوربة التي كانت الكثرة الساحقة من سكانها مسلمين، بل كان عدد المسلمين فيها حينئذ نحو خمسة عشر مليوناً إلا «أدرنة» التي استرجعها الجيش العثماني قبيل إنهاء تلك الحرب.

ولما ذكّرت الدولة العثمانية حينئذ الدول الأوربية بقرارها المذكور، كان جوابها: «إن ما يأخذه الهلال من الصليب، يجب أن يعود إلى الصليب، أما ما يأخذه الصليب من الهلال فلن يعود إلى الهلال»

وعلى أثر ذلك بعثت الدولة العثمانية بأحد وزرائها، وهو «سليمان البستاني» المسيحي، لمقابلة «بوانكاريه» وتذكيره بتصريحه الرسمي في بداية الحرب.

فلما قابله واسترعى نظره إلى نتائج هذا الموقف وسوء تأثيره على عواطف مئات الملايين من المسلمين الذين تحكم فرنسا جزءاً وافراً منهم أجابه «بوانكاريه»: «مسيو بستاني، إنك مسيحي عاقل وإن هذه الملايين لو اجتمعت كلمتها وانتظم عقدها لحسبت أوربة حسابها، وأما في حالتها الحاضرة فليس لها أي وزن».

وقد تضطر دول الغرب تحت ضغط الوجل من الحروب، والرهبة من دمارها والاتعاظ بما عانت من الآلام، قد تضطر للاحتكام إلى بعض المواثيق الإنسانية والخضوع لمعاهدات عالمية.

ولكن ذلك كله يُنسى إذا كان الأمر متصلاً بالمسلمين، إن منطق الحقد وحده هو الذي يعلو، ولذلك كان السلطان «عبد الحميد» رحمه الله يردد هذه الكلمة في كثير من المناسبات «إن لدى الدول الأوربية ميزانين: أحدهما لجميع شعوب العالم يزن الأمور بالعدل والقسطاس، وأما الآخر فهو بالنسبة لنا نحن المسلمين، وهو ميزان جائر خاسر»(١).

وبعدُ، فما إن سقط السلطان عبد الحميد حتى تحول الأمر في الدولة العثمانية إلى شيء خطير، فقد فُتحت الأبواب لكل الأفكار والدعوات المعارضة للوحدة الإسلامية وللخلافة الإسلامية وللإسلام نفسه، وأُتيحت الفرصة لكل أعداء وخصوم العرب والإسلام، في أن يدبروا كل ما من شأنه أن يحقق للصهيونية العالمية والاستعمار الغربي كل مطامعهم وأهدافهم، وخرجت جمعيات خريجي الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية، لتسيطر على الرأي العام عن طريق الصحافة، وتولت الحكم وزارة في الدولة العثمانية فيها ثلاثة وزراء من اليهود.

ثم انفتح الطريق إلى فلسطين وأُتيح للسماسرة بيع الأراضي العربية بحُرية كاملة. ونشط اليهود والدونمة والمدسوسون من ورائهم للعمل.

وأسفرت عن نفسها. وبدأت الحركة الطورانية تشقّ طريقها في تمزيق وحدة العرب والإسلام، واندفعت «جمعية الاتحاد والترقي» إلى تتريك العناصر الداخلة ضمن الإمبراطورية العثمانية، وكان التركيز على تتريك العرب شديداً.

وكانت أولى خطوات الاتحاديين في الحكم: بناء منهج سياسي فكري

---

(١) مع الله: ص ٣٥٩-٣٦٦ بتصرف.

للدولة العثمانية، مستمد من النظرية العروبية العصبية، وإلغاء المفاهيم الإسلامية وإحلال مفاهيم غربية خالصة بدلاً منها . .

وهكذا فإن كل ما حدث في فترة السنوات العشر السابقة للحرب العالمية الأولى إنما كان تمهيداً لما جاء بعد ذلك في تركيا أو مصر أو سورية ولبنان وفلسطين، وذلك في ضوء التحول الخطير الناتج عن إسقاط الدولة العثمانية. وقد تحقق ذلك بالفعل. نتيجة لدخول الاتحاديين الحرب العالمية في صف الألمان، فكانت هزيمة الألمان في الحرب هزيمة لهم مما أدى إلى السيطرة على تركيا وإذلالها، وفرض نفوذ فكري سياسي غربي عليها حتى ينتهي هذا الوجود الإسلامي المرتبط بالخلافة والوحدة الإسلامية، وحتى لا تكون تركيا مرة أخرى منطلقاً للإسلام إلى أوربة، أو مصدراً للخطر، أو جرثومة لتجمع إسلامي.

نعم كانت فترات السنوات العشر للاتحاديين مقدمة لما بعد ذلك، وتمهيداً للمخطط التغريبي العنيف، الذي نفّذه مصطفى كمال أتاتورك بقوة القانون.

الحملة الصليبية الرابعة:

لقد حققت الصليبية العالمية مآربها فسقطت الدولة العثمانية، وتمزقت وحدة العرب والترك التي هي مظهر وحدة العروبة والإسلام. ثم قام أتاتورك صنيعة أعداء الدين ـ الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ـ فقام بعمل أشد قسوة وخطراً من كل عمل في التاريخ الإسلامي. وهو إلغاء الخلافة الإسلامية وتحويل تركيا من دولة إسلامية تحمل لواء الجامعة الإسلامية والخلافة وقيادة الأمم الإسلامية، إلى دولة قطعت كل صلتها بالإسلام، دولة غربية خالصة تكتب من الشمال إلى اليمين. وتطبق القانون السويسري المسيحي.

لقد كان إسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ من أخطر الأحداث في العالم كله وسيظل من الأعمال الكبرى ضد الإسلام، بعد أن ظلت قائمة أربعة عشر

قرن، وكان هذا العمل من أهم المراحل التي تطلعت إليها الصليبية العالمية في مخططها الحاقد للتخلص الأسود للقضاء على الإسلام وذلك بالتعاون مع الصهيونية العالمية. والخلافة الإسلامية لم تسقط فجأة قلم عندما ألغاها مصطفى أتاتورك عام ١٩٢٤، وإنما كان ذلك آخر خطوة في مؤامرة ضخمة واسعة النطاق امتدت سنوات طويلة. كان مخططاً أعدّته الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، كان قد بدأ في إعداد خفي منذ أكثر من مائة عام على إلغائها، من خلال جماعة الدونمة (اليهود الذين هجروا من الأندلس عام ١٤٩٢ م وأقاموا في سالونيك ودخلوا في الإسلام تقية) التي عملت بالاشتراك مع جماعة الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة والمحافل الماسونية، على تنفيذ هذا المخطط تحت شعار «القضاء على دولة الرجل المريض»، خاصة بعد أن حمل السلطان عبد الحميد لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، بمعنى أن ينضوي تحت لواء الخلافة الإسلامية جميع المسلمين في العالم - وليس فقط العرب والترك.

وهكذا سقطت الخلافة بمؤامرة مشتركة بين يهود الدونمة والاتحاديين الكماليين، والقوى الاستعمارية الغربية وروسيا..

وكان ما كان بعد ذلك للصهيونية العالمية والاستعمار الغربي الصليبي. فقد دفعت الدولة العثمانية إلى أن تكون وقودا في الحرب العالمية الأولى دون داع، حتى ينفصل عنها الحرمين الشريفين، وينفصل عنها بلاد الشام والعراق، وحتى تسلّم فلسطين لليهود

ولكن هذه الحركة كلها هنا وهناك كان يحركها الإنجليز وما هي إلا فترة علتها نشوة كاذبة حتى انطلقت الجيوش البريطانية والفرنسية والإيطالية تحتل ديار الإسلام في آسية وأفريقية تحت شعار «الاستعمار» وبذلك اكتملت الصورة واضحة للجميع. وعاد الصليبيون من جديد، وكانت «الحملة الصليبية الرابعة».

هذا كله - مما مر ومما سيأتي ليس إدراكاً لثأر قديم - كما يزعم

المستعمرون ـ وإنما هو تجديد لعدوان سابق، وتكرير لمآسي سلفت، وتصميم على الإجهار على الإسلام وأهله حتى لا تنبت له زهرة على الأرض.

«وبدا للأعين أن شمس الإسلام غابت وآذنت بمغيب فقد وثب الاستعمار على الأمة المهيضة، واشتبقت لذئاب المتربصة نحو الغنيمة الباردة، فعادت كل دولة من دول أوربة بقطعة من أرض الإسلام، ثم أعلنت في أرجاء الدنيا أن هذه القطعة أمست لها.

وصحا المسلمون من غيبوبتهم، كما يصحو النيام في دار امتد الحريق إلى جميع غرفاتها، فهم في فزعتهم، مُقسّمو الجهود بين استنقاذ للمال والولد، وحصار للنار الممتدة في كل ناحية، ومحاولات للإطفاء أو للنجاة، وهول لا يعرف مداه ولا تدري عقباه»[1].

والموقف الآن بعد الحرب العالمية الأولى كانت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية قد توغلت بعيداً في مخطط الحقد والبغضاء بعد إلغاء الخلافة الإسلامية، وانطلقت الجيوش الصليبية المتعطشة لدماء المسلمين مساحة في قلب دار الإسلام، انطلقت في عصب مُتفجّر، مشحونة نفوس الصليبيين بغضاء جاهلة عاتية عمية مكتسحة، مُدمّرة سفّاحة للدماء.

وكان ما كان في بلاد الشام وكان ما كان في مصر وكان ما كان في العراق. وكان ما كان في أفريقية وفي الصومال وفي نيجيريا والسودان وليبيا وتونس والمغرب والجزائر.. الخ..

انطلقت جحافل الصليبية الأوربية تنشب أظافيرها المسمومة في دار الإسلام كله حتى تخلع الإيمان والتصميم من قلوب المسلمين.

وأقام الاستعمار «إسرائيل» في أرض فلسطين تمهيداً لشطر الكيان الإسلامي كله، في هذا الجزء الحسّاس منه. ثم رأى في مَكْره البغيض أن

---

(١) مع الله ص ٣٥٠.

يُكاثر المسلمين في بلادهم شتات أخرى من أهل الأرض، إذ لم يكف نمو جنسه لهذه المكاثرة.

جاء مثلاً إلى «عدن» وفيها من سكانها الأصلاء نحو سبعين ألف عربي، فاستقدم من «الهندوك» نحو ستين ألفاً قبل ما يربو على ربع قرن

وقد مضى الاستعمار الصليبي في سياسته الماكرة في كثير من بلاد الإسلام، ليصبح أبناء البلد فيها أنفسهم قلّة فيه وبذلك يختل ميزانهم إلى الأبد.

وهذه السياسة أخذت طريقها في البحرين ودول الخليج العربي، كما جُرِّبت بنجاح في «سنغافورة» التي كانت كثرتها من المسلمين. فأصبحت الآن من الصينيين والهنود وغيرهم

ونعرف أن المسلمين في الملايو كانوا لا ينقصون عن ٩٥٪ فأمسوا ـ في ظل الاحتلال الإنجليزي ـ لا يزيدون عن ٦٠٪ .

ونحن نعلم أن «فرنسا» وطّنت أكثر من مليون فرنسي ويهودي في الجزائر. كذلك كانت أغلب الدول الاستعمارية تصنع في الأقطار التي نُكبت بها.

والغرض؟

أن تتحول البقع الحسّاسة في البلاد الإسلامية ـ بعد هجرات متتالية ـ إلى إسرائيل أخرى. فينحسم عرق الإسلام انحساماً لا يُؤذن بعودة.

وقبل ذلك؟

إحداث بلبلة فكرية وروحية شاملة بحيث تحتبس أصوات المسلمين في حلوقهم فلا يجرؤ أحد على النداء بوحدة عاطفية، ولا خلقية(١).

وقامت خلايا الشيطان تعبث في أرواح المسلمين، فقد جُند إبليس،

---

(١) انظر مع الله ص ٣٢٦.

قام خريجو الإرساليات التبشيرية. والمستشرقون المبثُّون في صفوف المسلمين هنا وهناك، قاموا يبثون السموم المهلكة، وينشرون الأحاديث المُفْزعة، فهم يُريدون خيراً للبلاد والعباد.. فالحقيقة الصادقة تقول: «أن لا إمكان للمقاومة في وجه هذا السيل الغربي الذي اكتسح دار الإسلام من أقصاه إلى أقصاه. ما على هؤلاء المسلمين، العباد الضعاف، إلا الاستسلام للواقع الذي كان، ولا قرار لهم بالمقاومة.. هكذا أراد الله، ولو لم يشأ جلّ وعلا لم يكن هذا ليحدث.. لكن هذه هي إرادته ـ سبحانه ـ فَلْنَسْتَسْلِم لقدر الله أمام هذه القوى التي لا تُقاوم، ومتى شاء الله هو الذي يُخرجهم من أرض الإسلام...».

هذه المقولة السامّة هي الحق في ألفاظها، فالمشيئة مشيئة الله سبحانه، والأمر أمره، والله غالب على أمره، ولكن هذا الحق أريد به الباطل، ولله سبحانه أسباب وسُنن يتبعها المؤمن كما بيّن رب العالمين في القرآن الكريم.

هذه المقولة الخبيثة حرّكتها عقول الشياطين وبدأت تغزو فكر المسلمين، كما غزت جيوش الحقد الصليبي والصهيوني أرضهم وديارهم..

وكان هذا الموقف من مواقف البلاء والامتحان العسيرة، فقد ملأت جُنود الأعداء دار الإسلام في كل مدينة وقرية. وانتشرت الحيرة، ونهت الناس من هَول روّع أفئدتهم، ومن كرب شمل حياتهم، فلم ينْجُ بلد من نيران الحقد وبطش الظُلم، فقد أطبقوا على بلاد المسلمين من كل حدب: من البرّ ومن البحر ومن الجوّ، وتوحّد المسلمون بالمأساة، فلم يختلف الشعور بالكرب والألم في قلب مسلم في الجزائر أو في مصر أو في الصومال أو في الهند أو في أي قطر إسلامي آخر، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب لهذه المحنة الطاغية وهذا السيل من الحقد الطامّ، وثقتها بالله وسلوكها في الشدة، وتصوّراتها للقيم والأسباب والنتائج:

كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقاً. كنتُ تنظر الموقف بكل سماته، وكل انفعالاته، وكل خلجاته، وكل حركاته، كنت تنظر فترى أثر الموقف في النفوس، الخوف والكرب والضيق، الظلم والظلام قد خيَّم وغشى كل قلب. وانقطع الأملُ في صبح يتنفس بعد ليل دامس طويل، كنت تنظر في تلك المرحلة - كما تنظر في هذا اليوم - فالمحنة والبلاء لا تزال، ولو اختلفت الصور والأشكال. والأساليب والحيل.

في هذه الظروف - وأمثالها دوماً في كل عصر ومصر - تنطلق سُنّة الله سبحانه، فتُخرج صورة الإيمان الوثيق المطمئن، ينطلق الحق في صورته المشرقة الوضيئة، في مواجهة الليل والهول. ﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وقال الرسول - ﷺ -: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم - أو خالفهم - حتى يأتي أمر الله».

برهان العقيدة:

قام علماء الإسلام في كل بلدة وقرية يدفعون الظلم والظلام، يبثُّون دفء الإيمان في عقيدة الناس، وسقطت الغشاوة عن العيون، وانهار الران عن القلوب، وعلتْ صيحة «الله أكبر» تُؤذِّن برفع الهامات، ولتنافس في طلب الشهادة في سبيل الله.

وبدأ المؤمنون يأخذون طريق الجنة، قاموا يقارعون الاستعمار المُدجَّج بأنواع الأسلحة، يقارعونه بما تيسَّر!! قاموا يتدفعون بشغف وحماس مُثير، قاموا إلى الموت لينالوا الشهادة ومن ثم عِزّ الإسلام، وحماية دار الإسلام، وتطهير أرضه من دَنَس الأعداء الحاقدين.

خرج المؤمنون للتصدي لهذه الكتائب الهمجية التي تسفح الدماء سفحاً، خرجوا لا يخافون حتى من الموت، بل يتطلَّعون إلى الموت في شغف. خرجوا يُريدون أن يموتوا لتعلو كلمة «لا إله إلا الله محمد

رسول الله، وبكشفت محدداً روعة السلاح لرهيب المختزن في معاني الإيمان والاستشهاد. وحيثما تنقلت العيون، ترى المؤمنين الصادقين في كل مدينة من ديار الإسلام، يتسابقون إلى خط النار، ليبنوا ذلك الملاء الفذ في سبيل الله، ويتدفقون في طلب الشهادة.. ثم تسطر في صمت لترى الأرواح الزكية الطاهرة تنظر، فيبهرك ما هو أشد من ذلك كله، ما تراه على وجوههم، في مصارعهم، من ابتسامة ترف بالرضى والسكينة، والسلام العميق، والحق إن كل من يراهم، وهم يخرجون للجهاد في ميدان الشرف، يراهم جمهرة من الدراويش البسطاء لا يصلحون لغير الصلوات الخمس وترتيل القرآن. ولكن كانوا بحق عباد الرحمن استحالوا بالإيمان قوة ماردة تتحدى المعقول!!

لقد تحت نفوسهم نمور بين جنانهم مؤز البركان، وتعدّى أرواحهم عاطفة مشبوبة تهدر في صدورهم ودمائهم، ولو أنك استرقت السمع ساعتئذ لضجّ في أذنيك صدى الله أكبر الذي يعلو في كل شارع، وكل طريق في ديار الإسلام، وهي تحترق بصدورها أزيز الرصاص.

وأيقنت شعوب الإسلام أنه لا يدفع طغيان الاستعمار الرابض على قلوب البلاد إلا بأس الإيمان، ولا يهزم حب الحياة في الطغاة المستعمرين، إلا حب الموت في طلاب الشهادة لله، ولا يقدر على المعتصمين بأسلحة العصر ومذاهب القرن العشرين وما يليه، يفتنون به الشدح، إلا المعتصمين بالمحراب، لا يحفلون في نوره عدوّ الله مهما تلبّس، ويسبقهم من رهبته رُعب يغشى نفس العدو حتى ليحدهم خوفه من سباع الغاب.

هذه هي قصة الصراع مع الاستعمار الصليبي والصهيوني.. قصة الصراع في كل بلاد الإسلام. كان العلماء هم الذين حملوا لواء الشهادة، وانطلقت وراءهم سيول المؤمنين. وسوف تجد برهان العقيدة الذي يملأ قلوبهم، وإن جحدها وطمس معالمها، أولو البأس من الغافلين أو المارقين..

ومضت كتائب الرحمن في عافية من إيمان أرهفته نية الجهاد،

ومصارع الشهداء، وغدر أعداء الله ... ثم العهد المرور على مواصلة السرى لطرد الاستعمار من ديار الإسلام، مهما قسا الليل وبعُدت الشقة وعز الأوفياء. وإنه ليدهشك أن تنظر إلى برهان العقيدة حين يملأ القلوب فتكبُر فلا يكون أمامها إلا «الله أكبر... الله أكبر...». فالمؤمن لا تراه ينطوي بعقيدته انطواء المنقطع عن الناس في صومعة، بل تراه قويا حريئاً شجاعاً في الحق لا يخاف إلا الله ولا يخشى لومة لائم.

واعترت الحملة الصليبية الرابعة - التي تحفّت باسم الاستعمار - دهشة بالغة، وتعلّم المستعمرون في هذه اللحظات درساً بليغاً في القتال، وانكشف لهم محدداً ذلك السلاح الرهيب المختزن في قلوب المؤمنين في دار الإسلام، فقرروا أن يتقربوا إلى شعوب دار الإسلام. وبدأت الأساليب الماكرة الخبيثة، من وعود بالاستقلال وإبرام معاهدات مضحكة مبكية وطالت الأيام والليالي، والاستعمار يتكىء في دست على المستشرقين وخريجي إرساليات التبشير، في إتمام ما جاءت جيوش الصليبية العالمية من أجله، فهو يهدف الاكبر ردّة المسلمين عن دينهم، والقضاء على الثقافة الإسلامية، ونزع جذور العقيدة من القلوب والعقول.

دهاء ومكر وخديعة:

بدأ «الاستشراق» يُثبت أصولاً كان قد بدأها - كما تقدم - من وقت طويل في بنيان الفكر الإنساني في البلاد الإسلامية، وانطلق تلامذته بإرشاد وتوجيه منه في إحداث ثقافة الأمة في ديار الإسلام، وأحدث بذلك صدْعاً متفاقماً أخبث وأعتى مما قام به من الصّدع الذي أحدثه بإزالة «الخلافة الإسلامية»، ووضع «الاستشراق» أسس التفريغ الكامل لطلبة المدارس في ديار الإسلام كلها، أي تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق في دمائها والمرتبط بالإسلام، ومهّد إلى ملئه بماضٍ آخر بائد في القِدَم والغموض، لم يبقَ من ثقافته شيء البتة، ليزاحم هذا الماضي الفارغ بقايا الماضي المتدفق الحيّ الذي يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ، ويجعل أجيال طلبة المدارس في

حيرة مُدمِّرة بين انتماءين: بين الانتماء إلى الثقافة الإسلامية الواضحة في كتب أسلافهم، وبين الانتماء إلى هياكل حنطت مثل الفرعونية في مصر، والفينيقية في سورية، والطورانية في تركية، الخ... هياكل بادت، وبادت ثقافتها ولم يبق منها إلا أطلالاً من الحجارة، مهما بلغت في العظمة والجلال، فهي فارغة من ثقافة حية تتدفق في القلوب والعقول والألسنة، بل هي آثار لا تُغني شيئاً، ولا تؤتي ثمرة.

وأيضاً فإن هذا التفريغ، سوف ينشيء أجيالاً من «تلاميذ المدارس» تنهتك علائقها التي تربطها بثقافتها الإسلامية اجتماعياً وثقافياً ولغوياً، حتى يتمّ تفريغها تفريغاً كاملاً من ماضيهم كله، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم، وإنما هي علوم الغزاة، وفنون الغزاة، وآداب الغزاة، وتواريخ الغزاة، ولغات الغزاة، ومع كل ذلك، فإن هذا القدر من العلوم والفنون والآداب إنما هي قشور ومقتطفات توهم النفوس الظامئة المفرّغة بأنها نالت شيئاً يُذكر، والحقيقة أنها نالت غذاءً تعيش به موتى في صورة أحياء لا غير[1].

وأُرسلت من أجل تثبيت قوام الثقافة والحضارة العربية في دار الإسلام أجيال من «المبعوثين» يعودون من أوربة ليكونوا قادة التحوّل لرتق الفتق عن الثقافة والدين الإسلامي، ويُراد منهم أن يؤسسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحوّل إلى غاية يُراد لنا أن نسعها على تمادي الأيام. وكان الغزاة يقنعون يومئذ من هؤلاء المبعوثين، بأن يعودوا إلى بلادهم بضعة أفكار يرددونها ترديد الشعارات، تتضمن الإعجاب المزهو ببعض مظاهر الحياة الأوربية، مقروناً بنقد بعض مظاهر الحياة في بلادهم. وبأن يكشفوا أمتهم بأن ما أعجبوا به هو سرّ قوة الغزاة وغلبتهم، وأن الذي عندنا هو سر ضعفنا وانهيارنا.

وكان الرأي أن تنشأ أجيال متعاقبة من «تلاميذ المدارس» في بلاد

(١) انظر قصة هذا التفريغ في مقدمة كتاب «المتنبي» للأستاذ محمود محمد شاكر واسمها «لمحة من فساد حياتنا الأدبية».

الإسلام، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحول، عن طريق تفريغهم كاملاً من ماضيهم كُلّه، مع هتك أكثر العلائق التي تربطهم بهذا الماضي اجتماعياً وثقافياً ونفسياً، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون - ولكنْ فنونهم هم، وآدابهم هم، وتواريخهم هم، ولغتهم هم، أعني الغزاة الصليبيين.

وانتشر هذا التحول، ولم يزل إلى يومنا هذا مستمراً على ما أرادوا، بل زاد شناعة وعمقاً في سائر أنحاء العالم الإسلامي بظهور دعوات مختلفة - كما تقدّم - كالدعوة الفرعونية، والفينيقية وأشباه ذلك، في الصحف والكتب المؤلفة، لأن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفق في دمائها والمرتبط بالإسلام، يحتاج إلى ملء بماضٍ آخر يغطي عليه. فجاءوا بماضٍ سحيق مُغرِق في القدم والغموض، ليزاحم قلب ذلك الماضي المتدفق الحي الذي يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصل.

وهكذا كانت هذه الحرب الصليبية الرابعة من الصلف والسكين وسفح دماء المسلمين في كل ديار الإسلام، واستعملت كل الوسائل لإفناء العقيدة وإطفاء نورها. استعملت العصا الغليظة والمكر والخديعة والسطوة. وقد قامت الثورات هنا وهناك باسم العقيدة ونور الإيمان حتى كان الجلاء عن بلاد الإسلام، وتمّ ذلك بعد تقديم مئات الألوف من الشهداء. وقبل أن نمضي تستوقفنا صورة رائعة للجهاد والصمود مثلت أرضها الحمراء ما يربو عن مئة وثلاثين عاماً. صورة الصخرة الراسية التي تحطمت على صلابتها كل الرؤوس الكبيرة التي أرادت أن تنتزع الجزائر من إسلامها ودينها. صورة المليون شهيد. صورة إصرار الشعب المؤمن أن يموت في سبيل الله، ويدافع عن دينه وحريته. فقد خضعت الجزائر أكثر من قرن وربع قرن من الزمن لهيمنة استعمارية صليبية أساسها الاستيطان على أوسع نطاق، فقد قام الفرنسيون خلال تلك الحقبة المتطاولة بإبادة الشعب والمجتمع الإسلامي وتدميرهما تدميراً منظماً. لقد حاول الفرنسيون أن يطبقوا على الجزائريين المسلمين عملية الإبادة التي أبادت مجتمع هنود أمريكا ابتداءً من نهاية القرن الخامس عشر الميلادي..

صورة مضيئة:

وكان ما كان من الإيمان الراسخ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وعَلَتْ كلمة الله أكبر، ونالت الجزائر استقلالها عام ١٩٦٢، وكانت معجزة من معجزات الإسلام، ومفخرة من مفاخر العقيدة.

كان من أروع مشاهد احتفالات استقلال الجزائر، صلاة الجمعة الأولى في المسجد الكبير الذي حوّله الفرنسيون إلى كاتدرائية في عهد الاحتلال، وقد نشرت صحيفة «التيمز» اللندنية صورة لشباب الإسلام فوق قبة المسجد من الخارج وكتبت تحتها: «يرفعون الصليب من فوق قبة الكاتدرائية التي أصبحت مسجداً(١)، وقد بُنيت لتكون مسجداً في القرن السابع عشر!».

وكان خطيب الجمعة هو الشيخ الجليل الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي الذي قال:

«الحمد لله ثم الحمد لله، تعالت أسماؤه وتمت كلمته صدقاً وعدلاً، لا مُبدِّل لكلماته، جعل النصر ينزل من عنده على من يشاء من عباده حين يبتليهم فيعلم المصلح من المفسد، ويعلم صدق يقينهم، وإخلاص نياتهم، وصفاء سرائرهم وطهارة ضمائرهم.

سبحانه وتعالى جعل السيف فرقاناً بين الحق والباطل، وأنتج من المتضادات أضداداً فأخرج القوة من الضعف، وولد الحرية من العبودية، وجعل الموت طريقاً إلى الحياة، وما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقاً، وبايعه عباده المؤمنون الصادقون على الموت فباءوا بالصفقة الرابحة، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

سبحانه تعالى جدّه، تجلّى على بعض عباده بالغضب والسخط فأحال

---

(١) نشرت مجلة المسلمون هذه الصورة نقلاً عن التيمز في المجلد الثامن، العدد الأول ص ٥٨ مع نص خطبة الجمعة.

مساجد التوحيد من أيديهم إلى كنائس للتثليث، نتحنّى برحمته ورضاه على الآخرين فأحال فيهم كنائس التثليث إلى مساجد للتوحيد، وما ظلم الأولين ولا حابى الآخرين، ولكنها سنته في الكون وآياته في الآفاق، ينتعش قوم فيفلحون، ويعرض عنها قوم فيخسرون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله شرع الجهاد في سبيل الله، وقاتل لإعلاء كلمة الله حتى استقام دين الحق في نصابه، وأدبر الباطل على كثرة عدده وأحزابه، وجعل نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة منوطاً بالإيمان والصبر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وكل مُتّبع لهداه داع بدعوته إلى يوم الدين.

ونستنزل من رحمات الله الصيّبة وصلواته الزكية العطرية لشهدائنا الأبرار ما يكون كفاء لبطولتهم في الدفاع عن شرف الحياة وحرمات الدين وعزّة الإسلام وكرامة الإنسان وحقوق الوطن

ونستمدُّ من الله اللطف والإعانة لبقايا الموت وأسرى الفناء ممن ابتلوا في هذه الثورة المباركة بالتعذيب في أبدانهم والتخريب لديارهم والتحيف لأموالهم.

ونسأله تعالى للقائمين بشؤون هذه الأمة ألفة تجمع الشمل، ووحدة تبعث القوة، ورحمة تضمد الجراح، وتعاوناً يثمر المنفعة، وإخلاصاً يهون العسير، وتوفيقاً ييسر السبيل، وتسديداً يقوّم الرأي ويثبّت الأقدام، وحكمة مستمدة من تعاليم الإسلام وروحانية الشرق وأمجاد العرب، وعزيمة تقطع دابر الاستعمار من النفوس كما أن قطعت دابره من الأرض.

ونعوذ بالله ونبرأ إليه من كل داعٍ إلى الفرقة والخلاف، وكل ساعٍ يسعى إلى التفريق والتمزيق، وكل ناعقٍ ينعق بالفتنة والفساد يطوف حوالينا.

ونحيي بالعمران والثمار والغيث المدرار هذه القطعة الغالية من أرض

الإسلام التي سحيف الجزائر، والتي فيها نشتنا وعى حبه ثبتنا، ومن ساتها غُذِّينا، وفي سبيلها أوذينا. . .

يا أتباع محمد ـ عليه السلام ـ هذا هو اليوم الأزهر الأنور، وهذا هو اليوم الأغر المحجل، وهذا هو اليوم المشهود في تاريخكم الإسلامي بهذا الشمال. وهذا اليوم هو الغرة اللائحة في وجه ثورتكم المباركة، وهذا هو التاج المتألق في مفرقها، والصحيفة المذهبة الحواشي والطرر من كتابها.

وهذا المسجد هو حظ الإسلام من مغانم جهادكم، بل هو وديعة التاريخ في ذممكم، أضعتموها بالأمس مقهورين غير معذورين، واسترجعتموها اليوم مشكورين غير مكفورين، وهذه بضاعتكم رُدّت إليكم. أخذها الاستعمار منكم استلابا، وأخذتموه منه غلابا ـ بل هذا بيت التوحيد عاد إلى التوحيد وعاد إليه التوحيد فالتقيتم جميعاً على قدر.

إن هذه المواكب الحاشدة بكم من رجال ونساء يغمرها الفرح ويطفح على وجوهها البِشْر لتجسيمٌ لذلك المعنى الجليل وتعبير فصيح عنه، وهو أن المسجد عاد إلى الساجدين الركع من أمة محمد، وأن كلمة لا إله إلا الله عادت إلى مستقرها منه لأن معناها دام مستقراً في نفوس المؤمنين. فالإيمان الذي تترجم عنه كلمة لا إله إلا الله هو الذي أعاد المسجد إلى أهله وهو الذي أتى بالعجائب وخوارق العادات في هذه الثورة.

يا معشر الجزائريين إذا عدّت الأيام ذوات السمات، والغرر والشيات في تاريخ الجزائر فيكون هذا اليوم أوضحها سمة وأطولها غرة وأثبتها تحجيلا. فاعجبوا لتصاريف الأقدار، فقد كنا نمر على هذه الساحة مُطرقين ونشهد هذا المشهد المحزن مطويين على مضض، يصهر الجوانح، ويسيل العبرات، ونحسّ كأن الأرض تلعننا بما فرطنا في جنب ديننا وبما أضعنا بما كسبت أيدينا من ميراث أسلافنا، فلا نملك إلا الحوقلة والاسترجاع، ثم نرجع إلى مصليات قولية، هي كل ما نملك في ذلك الوقت، ولكنها نُهت

الأذهان وسحلت الأغتصاب، وبدرت بذور الثورة في النفوس . .

أيها المؤمنون. قد يبغي الوحش على الوحش فلا يكون ذلك غريباً لأن البغي مما رُكّب في غرائزه، وقد يبغي الإنسان على الإنسان فلا يكون ذلك عجيباً لأن في الإنسان عرقاً نزّاعاً إلى الحيوانية، وشيطاناً نزّاعاً بالظلم، وطبعاً من الجبلة الأولى ميّالاً إلى الشر، ولكن العجيب الغريب معاً والمؤلم المحزن معاً أن يبغى دين عيسى روح الله وكلمته على دين محمد الذي بشّر به عيسى.

يا معشر المؤمنين إنكم لم تسترجعوا من هذا المسجد سقوفه وأبوابه وحيطانه، ولا فرحتكم باسترجاعه فرحة الصبيان ساعة ثم تنقضي، ولكنكم استرجعتم معناه التي كان يدل عليها المسجد في الإسلام ووظائفه التي كان يؤديها من إقامة شعائر الصلوات والجمع والتلاوة، ودروسه العامة النافعة على اختلاف نواحيها من دينية ودنيوية. فإن المسجد كان يؤدي وظيفة المعهد والمدرسة والجامعة . .

يا معشر الجزائريين إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم ولكنه رضي أن يُطاع فيما دون ذلك»، فهو قد خرج من أرضكم ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم ولم يخرج من ألسنتكم ولم يخرج من قلوب بعضكم فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يُقدَّر بقدرها . . .».

وبعدُ، لقد جرّب أعداء الدين حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم، ووجدوا برهان العقيدة الذي يملأ قلوب المسلمين واجهوا سيلاً جارفاً من أولي البأس الأشداء الذين فتكوا بقواتهم فتكا مروّعاً، ففي الجزائر مثلاً قدرت المصادر الفرنسية خسائرها في الجزائر في الثورة الجزائرية من ١٩٥٤/١١/١ حتى ١٩٦٢/٣/١٩ ما يزيد عن «٩٠٥٠٠٠» بين قتيل وجريح ومفقود[١].

(١) المصدر: كتاب وزير الجيوش رقم/ ٣٧٤٧٠ تاريخ ١٩/١١/١٩٦٦. انظر كتاب الثورة الجزائرية للعماد مصطفى طلاس/ ص ٦٨٤.

الستار الخادع:

كان من ثمرة اليأس من هذا الدين، حين كان أعداؤه يواجهونه وجهاً لوجه، أن عدلت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية عن مواجهة الإسلام بالأساليب القديمة التي لم تؤت ثمارها المرجوة في الإجهاز على الإسلام وعلى هذه العقيدة. فعمدوا إلى طرائق أخبث، وإلى حبائل أمكر، فبعد أن قسّموا عالم الإسلام إلى أقطار لتبديد قواه، لجأوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تتزيا بزيّ الإسلام، وتتمسّح في العقيدة ولا تنكر الدين جملة. ثم هي تحت هذا الستار الخادع، تنفذ جميع مخططات الصليبية العالمية والمشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبروتوكولات صهيون، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل..

إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام، أو على الأقل تعلن احترامها للدين، بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله، وتقصي شريعته عن الحياة، وتُحلّ ما حرّم الله، وتنشر تصورات وقيما مذهبة عن الحياة والأخلاق تدمر التصورات والقيم الإسلامية. وشنّت مكراً خفياً للإجهاز على الإسلام...

«وهكذا انتشر الإلحاد والارتداد في الأوساط الإسلامية من غير أن يتنبه له الآباء والأساتذة والمربون وأهل الغيرة الإسلامية، لأن هؤلاء المرتدين والملحدين لم يقوموا في كنيسة، ولم يدخلوا في معبد، ولم يسجدوا لصنم، ولم يذبحوا لطاغوت، وكان ذلك دليل الارتداد والكفر والزندقة في العهد القديم.

وكان المارقون القدماء يخرجون من المجتمع الإسلامي وينضمّون إلى مجتمع الديانة التي يدينون بها حديثاً، ويُعلنون عقيدتهم وتحوّلهم بصراحة وشجاعة، ويحتملون كل ما يخسرونه في سبيل عقيدتهم الجديدة، ولا يلحّون على البقاء في المجتمع القديم ليحافظوا على ما كانوا يتمتعون به من حقوق وحظوظ، أما الذي يقطع صلته عن دين الإسلام اليوم فلا يريد أن

ينقطع صلته عن المجتمع الإسلامي مع أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع البشري الوحيد الذي يقوم على العقيدة، فلا يتحقق هذا المجتمع من غير عقيدة. ويلحُون على أن يعيشوا في مراكزهم متمتعين بثقة هذا المجتمع، متمتعين بالحقوق التي يخوّلها الإسلام، إن هذا وضع شاذ لم يعرفه التاريخ الإسلامي»[1].

إن هذه الأنظمة والأوضاع تُسلِّط جميع أجهزة التربية والتعليم والتوجيه والثقافة والإعلام لتدمير المبادئ والقيم الأخلاقية الإسلامية، وسحق التصورات والاتجاهات الدينية، وتُنفذ ما نصّت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين، من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع وجعلها فتنة للمجتمع باسم التجديد والتطور والتحضر، ومصلحة العمل والسياحة والإنتاج والدخل القومي، بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف..

لقد انتصب رجال لهذا السيل المدمِّر المفزع الذي شترك في جريمته مثقفون كثيرون، في الأدب، وفي العلم، وفي التاريخ، وفي الفلسفة، وفي الاجتماع، وفي السياسة، وفي الفن كله، وكل منهم كما يقول الدكتور طه حسين «ينفث السمّ ويفسد العقول ويمسخ في نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد»، وقد زاد الأمر، فلم يبق مُقتصراً على التعلم والكتابة، والتأليف والصحافة، بل دخل كل بيت دخولاً مفزعاً عن طريق الإذاعة والتلفزيون، بلا رقيب ولا حسيب!

«إن حياتنا الفكرية والثقافية والاجتماعية قد فَسدت فساداً وبيلاً، وتجددت الأساليب وتنوعت، صاغها غرباء عن ثقافة الإسلام وفكر الإسلام، صاغها ممن ضمائرهم وعقولهم مرتبطة بثقافة الغرب. صاغها غرباء عن المجتمع الإسلامي صياغة مطابقة لمناهج وفلسفة المدنية الغربية، ومبادئها، ونظراتها في كل قضية، واختلط الحابل بالنابل، قل ذلك في الأدب

---

(١) الندوي: ردة جديدة، المسلمون/ المجلد السادس: ٤١٨ - ٤١٩.

والفلسفة والتاريخ والاجتماع وبلغ أو ما شئت، فإنه صدقٌ صادقاً لا يتخلف. فالأديب مصوِّر لقلم غيره، والفيلسوف مفكِّر بعقل سواه، والمؤرخ ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه، والفنان ناقصٌ قلبه ينقض أحسن عن تراث فنه..

ومن الثرثرة والاستخفاف، فحدِّث ولا حرج، فالصبي الكبير يهزُ مزهواً بعظماء الإسلام وكبار رجال الأدب واللغة والتاريخ والفلسفة وعلماء الدين.. يهزأ مزهواً بمعاوية بن أبي سفيان، وأبي حنيفة، والشافعي، وسيبويه، وفلان وفلان، ولو بُعث أحدهم من مرقده، ثم نظر إليه نظرةً دون أن يتكلم، لألجمه العرق، ولصار لسانه مُضغةً لا تتلجلج بين فكَّيه، من الهيبة وحدها، لا من عظمته وعلمه الذي يستخفّ به ويهزأ.

إن الأنظمة والأوضاع التي أقامتها الصليبية العالمية والصهيونية العالمية أقامت رجالاً كثيرين في ديار الإسلام، لا يربطهم في أنفسهم بالماضي الإسلامي إلا اللسان العربي وحده، أما ضمائرهم فمرتبطة بشيء آخر، فكتبوا مقالات، ونشروا كتباً، وألقوا محاضرات في الدين الإسلامي، والتاريخ الإسلامي، والفلسفة والأدب، ونظام الأسرة، وآداب المجتمع، وفنون الأمة، على قلة معرفتهم بما يكتبون أو ينشرون، ولكنها كانت معبّرة عن اتجاه «الاستشراق» لا غير. فكانت كُلّها «سطواً» مجرداً على آراء المستشرقين ومناهجهم في النظر، مبثوثٌ في ثنايا كل ما يكتبون[1].

إنهم يحاولون تغيير طبيعة المجتمعات في بلاد الإسلام - كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين - كوسيلة أخيرة، حتى لا يجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية به، فيحولون المجتمعات إلى فئات فارغة من ثقافتها الإسلامية المجيدة، مشغولة بلقمة العيش لا تجدها إلا بالكدّ والعسر والجهد، ثم تمسخ فطرة هؤلاء الناس وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم، وتُيسِّر وسائل الانحلال الخلقي والتربوي والسلوكي وتدفع الرجال والنساء إليها

---

(١) نقلاً عن محمود شاكر بتصرف.

دفعاً بالعمل والتوجيه حتى لا تستمع إلى هدى، أو تفيء إلى الدين!

إن الجاهلية هي الجاهلية! ونظرة إلى الصحافة والأفلام ومعارض الأزياء، ومسابقات الجمال، والمراقص، والحانات وشواطىء السباحة، ونظرة إلى السعار المجنون للحم العاري، والأوضاع المثيرة، والإيحاءات المريضة، في الأدب والفن وأجهزة الإعلام إلى جانب النظام التربوي والثقافي، وما يكمن وراءه من سعار للمال، ووسائل خسيسة لجمعه وتثميره، وعمليات نصب واحتيال وابتزاز تلبس ثوب القانون... وإلى جانب التدهور الخلقي والانحلال الاجتماعي، الذي أصبح يهدد كل نفس وكل بيت في بلاد الإسلام... نظرة إلى هذا كله تكفي للحكم على المصير البائس الذي تدلف إليه المجتمعات الإسلامية في ظل هذه الجاهلية.

وبعد ذلك نرى المثقفين العبيد بعد تفريغ المجتمع الإسلامي من كل أصول ثقافته التاريخية والدينية، نرى هؤلاء العبيد يقولون: ما للدين والزي؟ ما للدين وملابس النساء؟ ما للدين والتجميل؟

كل ذلك وتزعم هذه الأنظمة والأوضاع أنها مسلمة وتحترم العقيدة. والناس يتوهمون أنهم يعيشون في مجتمع مسلم، وأنهم هم كذلك مسلمون.. أليس الطيبون منهم يصلّون ويصومون؟ أما أن تكون الحاكمية لله وحده، أو تكون للأرباب المتفرقة، فهذا ما قد خدعتهم عنه الصليبية والصهيونية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الإعلام الموجهة، وأفهمتهم أنه لا علاقة له بالدين وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين، وفي دين الله، بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين..

إن الأمم التي عارضت حضارة الغرب وزاحمتها كانت من أنواع ثلاثة: أمم لم تكن لها حضارة مستقلة مختصة بها، وأخرى كانت لها حضارة مخصوصة ولكنها لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تحاول الحفاظ على خصائصها بإزاء حضارة قوية أخرى، وثالثة لم تكن حضارتها تختلف في

مبادئها كثيراً عن هذه الحضارة الطارئة. كل هذه الأمم ذابت بكل سهولة في الحضارة الغربية وصطبغت بصبغتها بدون أن يقع بين هذه وتلك كبير احتكاك.

ولكن المسلمين كانت حالهم غير حال تلك الأمم جميعاً، لأنهم حملوا حضارة مستقلة تامة، ذات دستور واضح مكتمل شامل لجميع شعب الحياة الإنسانية من ناحيتي الفكر والعمل، تختلف اختلافاً كليًّا عن مبادىء الحضارة الغربية.

فكان - بطبيعة الحال - أن جاءت هاتان الحضارتان تتزاحمان في كل طريق وتصطدمان على كل موقف، ولا يزال هذا التصادم قائماً بين القوتين إلى هذا اليوم يُؤثر في كل شعبة من شُعب حياة المسلمين العملية والاعتقادية أسوأ الآثار.

إن الفلسفة والعلوم الطبيعية اللتان نشأتا في أحضانهم لمدنية الغربية، ما زال ولا يزال اتجاههما إلى الدهرية والإباحية والإلحاد وحب المادة، ووجهتها الحياة الدنيا وحدها، ولا تنظر إلى شيء وراءها، ولا تؤمن بالآخرة ولا تحسب حسابها، وترى أن حياة الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده، لا غاية بعدها، ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار، فينفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يُدبِّر أمره، ويحاسبه على عمله، بعد رحلة الأرض المحدودة.

وهكذا تفترق المعايير والأهداف والغايات، وتصوُّر الحياة كلها بين الحضارة والثقافة المادية الغربية وبين الحضارة والثقافة الإسلامية، تفترق اختلافاً بيِّناً واضحاً.

هذه هي جذور القصة التي غفل عنها الناس وهم غرقى في مستنقع تنمو فيه أزهار الشيطان، يسمى: التقدم والتطور، ولنتدبر هذه الحقيقة في المحاولة المستمرة بكل الوسائل إلى تغيير عقول المسلمين ونفوسهم، وكان أمكرها وأدهاها - كما تقدم - بِقدمة أنظمة وأوضاع تتزيا بزي الإسلام وترفع

رائة العقيدة، وذلك لتقوم في حث يلزم بحرب العقيدة، ومناهضة الدين، فكان لهم بذ ضويته في إفساد عقيدة الناس، وأحدثوا صدعاً سيئاً في ثقافة الأمة، ودبّروا كل مكيدة بكل الوسائل لإسقاط هيبة علماء المسلمين، حتى يعزلوا جمهور الأمة عن الدين، ومرّت الأيام والسنون وهذا الصدع يتفاقم، حتى انتهينا إلى ما نحن عليه اليوم، وكان ذلك نصراً مؤزراً، نالـه أعداء الإسلام بدهائهم ومكرهم وثاقب نظرهم. نالوه من وراء عملة المسلمين، ومن وراء الأنظمة والأوضاع التي أسندوا إليها أمور البلاد ومصائرها.

هكذا تمت الغلبة والسيطرة والتمكين لإقصاء دين الله وشريعته عن حياة المسلمين، وانتشرت تصورات وقيم الحياة المادية الغربية، بلا مواجهة ولا قعقعة سلاح، وانفردت الحضارة والثقافة الغربية في العالم كله، بلا قرن يكافئها ويبارزها. وإنما هو الخضوع والاستكانة لا غير.

لم يكن التوجيه والتعليم والتربية التي انتشرت في بلاد الإسلام في المدارس والمعاهد والجامعات والكتب الموجَّهة، والصحف ووسائل الإعلام، نابعة من ثقافة الأمة والإسلام، بل كانت غراساً غريباً يزيدها بُعداً وانقطاعاً عن ثقافة وحضارة الإسلام، ولا تكسبها قوة ووضوحاً، بل تكسب أبناءها تنكراً وإعراضاً واحتقاراً أيضاً لتلك الثقافة الإسلامية التي عاشت بها أمتهم، وكذلك صار أبناء الثقافة الغربية جيلاً عريضاً يكبر مع الأيام، ميْلُه وحُبُّه وإكباره للمصدر الذي صدر عنه ما تعلموه ولم يتعلموا غيره، كما هو في مخطط الاستشراق والاستعمار منذ سنوات طويلة، وطوّروه تطويراً كبيراً عن طريق الأنظمة والأوضاع التي أقاموها.

وإمعاناً في الخداع والتضليل، وإمعاناً من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية في التخفي، فإنها تثير حروباً مصطنعة ـ باردة أو ساخنة ـ وعداوات مصطنعة في شتى الصور، بينها وبين هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها، والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة، تثير هذه الحروب المصطنعة، والعداوات المصطنعة، لتزيد من عمق

الخادعة، ولتبعد الشبهة عن العملاء، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد من تدمير القيم والأخلاق، وسحق العقائد والتصورات وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول.. وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم. وتنفيذ المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين، في غفلة عن الرقباء والعيون، فإذا نبتت نابتة ولم تجز عليها الخدعة، ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف، وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه، ولوصف الكفر بأنه الإسلام، والفسق والفجور والانحلال، بأنه تطور وتقدم وتجدد.. إذ نبتت نابتة كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة، وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة، وسُحقت سحقاً، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صمّاء عمياء.. ذلك بينما الطيبون السُّذج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية، أو طائفية، لا علاقة لها بالمعركة المشبوبة مع هذا الدين، ويروحون يشتغلون في سذاجة بلهاء ـ مَن تأخذه الحمية للدين منهم والأخلاق ـ بالتنبيه إلى مخالفات صغيرة، وإلى منكرات صغيرة، ويحسبون أنهم أدّوا واجبهم كاملاً بهذه الصيحات الخافتة.. بينما الدين كله يُسحق سحقاً، ويُدمَّر من أساسه، وبينما سلطان الله يغتصبه المغتصبون. وبينما الطاغوت ـ الذي أُمروا أن يكفروا به ـ هو الذي يحكم حياة الناس جملة وتفصيلاً..

إن من يمشي في عين مفتوحة في هذه الرحلة الطويلة الشاقة لزحزحة المسلمين عن دينهم وتاريخهم وعقيدتهم، يرى دروباً وعْرةً شائكةً، كلما أوْغل انكشفت عنه غشاوةٌ من العمى. وأحسَّ أنه قد تمَّ تفريغنا تفريغاً يكاد يكون كاملاً من ماضينا كله، من علومه وآدابه وفنونه، وتمَّ أيضاً هتك العلائق بيننا وبينه. وصار ما كان في الماضي متكاملاً متماسكاً، مِزقاً متفرقة مبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى ومن الدلالة، ولأنه غير ممكن أن يظل الفراغ فارغاً أبداً، فقد تمَّ ملْءُ هذا الفراغ بجديد من العلوم والآداب لا

تمت إلى هذا الماضي بسبب، وهو يسلخ الناس من دينها وعقيدتها، وإنما لستقبله استقبال الظمىء المحترق لقطرات من الماء النمير المُثلج

لقد ظهر لكل ذي عين تُبصر وأذن تسمع أن نعيش في عالم مقسم انقساما ساحرا: عالم السيادة والعلو والاستكبار، عالم القوة والغنى، وعالم العبودية والعبيد، عالم الضعف والفقر = أو عالم السادة والعبيد..

ويكشف القرآن بوضوح كامل عما تكنه صدور أعداء الدين من الشر والعداء، وعما تغلي به قلوبهم من الحقد والحسد، وما تكنه نفوسهم من الحقد والبغضاء والكيد للإسلام والمسلمين ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ [البقرة: ٢١٧]

إن الله سبحانه يكشف عمق الشر، والضغينة الغائرة في نفوسهم ومخططاتهم، يكشف الإصرار الخبيث على فتنة المسلمين عن دينهم، بوصفه الهدف الثابت المستقر لأعداء الدين وعملائهم هنا وهناك

ولكن ما كان من أمر المسلمين حتى صارت فجوة عميقة جدا بينهم وبين الدين، وأقامت الأنظمة التي رشحها أعداء الدين في ديار الإسلام، أقاموا حواجز سميكة بين قلوبهم وبين القرآن شريعة الأمة ودستورها، حتى صار يُقرأ كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهوّمة، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية التي تواجه هذه الأمة المسماة بالمسلمين! وكانت النتيجة أن هجر المسلمون القرآن بعد أن تعطلت مسامعهم عن فهمه. وليس ذلك من الهزء بالمسلمين، واطمئنان أعداء الدين إلى أنهم لا ينتفعون من قرآنهم شيئ حتى صاروا لهم آذان لا يسمعون بها، ليس أدل على الهزء والسخرية من أن يذيع هؤلاء الأعداء الحاقدين الماكرين على المسلمين آيات القرآن من إسرائيل ولندن وباريس وواشنطن!!!

إن اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين يفركون أيديهم فرحاً بنجاح الخطة وجواز الخدعة، بعدما يئسوا من هذا الدين أن يقضوا عليه مواجهة بالسلاح، أو بالإلحاد، أو يحولوا الناس عنه باسم التبشير، فترة طويلة من

الزمن وحنكتهم أحياناً وتمرسهم في الحيل الماكرة وملابسات العصر الحديث قد لا يشنون حرباً سافرة مكشوفة على الحق وأهله، بل يكتفون بتشويه الحق وشله ليعين الباطل على هدمه ومحقه، ذلك لأن عداءهم المكشوف في هذا الزمن أصبح مبهماً، وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين الذين يعملون لحسابهم في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان، بل قد يبلغ بهم المكر والحمق أحياناً أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم الذين يسحقون لهم الحق وأهله، ويتظاهرون كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام ليبعدوا الشبهة تماماً عن أشخاص حلفائهم الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة. ولكنهم لا يكفون عن تشويه الإسلام وأهله؛ لأن حقدهم على الإسلام، وعلى كل شبح من بعيد لأي بعث إسلامي أضخم من أن يداوروه ولو للخداع والتمويه.

حقيقة الدين:

إن الإسلام ليس عقيدة فحسب. ولا هو مجموعة من العبادات والمناسك الدينية فقط، ولكنه نظام شامل للحياة ينظم العقائد والعبادات ومبادئ الأخلاق وقوانين المعاملات وسلوك الفرد والجماعة، وكل هذه الفروع متلاحمة يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً حتى تكون كلاً متماسكاً لا يتجزأ.

والإسلام من هذه الناحية يشبه الجسم البشري إلى حد كبير، فالجسم يتكوّن من أعضاء تؤدي وظائفها في تعاون وانسجام، وأنت إذا بترت أطراف إنسان وقطعت لسانه وسملت عينيه وصممت أذنيه ثم بقرت بطنه وأخرجت كبده ورئتيه وطحاله وحطمت جمجمته وقطعت مخّه إلى أجزاء، وأبقيت بعد هذا كله على القلب دون أن تمسُّه بسوء فهل يمكن الزعم حينئذ بأن هذا المخلوق المشوَّه إنسان حيّ؟ فإذا افترضنا أنه ظلّ بعد كل هذا التمثيل البشع ينبض بالحياة فهل يمكنك الجزم بأنه صالح للبقاء؟

هكذا الحال مع الإسلام الحنيف، فالعقائد قلبه النابض، والصورة

التي يرسمها للحياة البشرية والقيم التي يقررها للأشياء تقوم منه مقام «العقل» من الجسم، والقوانين التي وضعها لتنظيم المجتمع والاقتصاد والسياسة هي بمكانة الكبد والطحال وسائر الأعضاء الحيوية من جسم الإنسان، ثم هو يحتاج إلى أن تكون حاسة السمع والبصر لديه سليمة حادة بحيث يمكنها أن تنقل بأمانة صورة صحيحة لما ترى وتسمعه كيما يصدر العقل عليها حكماً صحيحاً صائباً، وإلى لسان صدق أمين يترجم عن الأفكار التي يزدحم بها العقل، وجو نظيف يتنفس فيه وغذاء صحي كامل يمده بأسباب الحياة والبقاء.

ومما لا مشاحة فيه أن أهمية «العقيدة» ومقامها في الإسلام مقام القلب، كما سبق أن قلت، جاءت من حيث أنها تمد الأعضاء والأطراف بنسمة الحياة، فإذا بترت هذه الأعضاء أو عطلت عن أداء وظيفتها فكيف يمكن أن يتاح للقلب أن يظل حيا وعلى فرض أنه يقاوم الموت إلى حين فما تكون قيمة الحياة بالنسبة إليه وما قيمته بالنسبة إليها؟

ولنبدأ الآن بتحليل حالة الإسلام في ديار الإسلام على ضوء هذه الحقائق: إن الشريعة الإسلامية والقوانين المشتقة عنها معطلة، والقوانين التي رسمها الإسلام للأخلاق والسلوك وتنظيم المجتمعات البشرية لا يقوم منها اليوم إلا جزء ضئيل تافه ليس له في حياة الناس أثر. ومناهج الثقافة والتربية تصوغ أجيالنا في قوالب لا إسلامية بحيث تنشأ هذه الأجيال مبتورة الصلة بدينها بصورة جزئية أو كلية.

إن العيون ما زالت تبصر ولكن من زاوية لا يرضى عنها الإسلام، والآذان ما زالت تسمع ولكنها تعكس الصورة والصوت بصورة تتنافى مع الإسلام. والرئتان لم تعودا تستنشقان هواءً نقياً لأن الجو المحيط بها قد تسمم، والجسم لم يعد يتناول غذاءً نقياً طاهراً بعد أن تطرق إلى طعامه سوس الفساد وجراثيم التعفن. والصلوات التي هي في مقام الأطراف مصابة بالشلل بعد أن فقدت صلتها بأركان الإسلام الأخرى، فهل يمكن الزعم بعد هذا بأن الصورة التي نراها اليوم هي صورة للإسلام الصحيح؟ لقد بتر من

أوصاله الكثير، وما بقي منه أصيب بالشلل والعجز، وحتى التي ما زالت تدبُّ فيها الحياة بطيئة فاترة قد غُضَّت عن وظيفتها بسبب ما لحق أخواتها من سكون وهمود.

حتى القلب الذي كان يدفع الحياة دافقة في شرايين هذا الكيان العملاق لتعود إليه بالتالي قوة وعافية، أصابته هو الآخر عدوى الداء، ولا ريب في ذلك، فعندما يضطرب العقل وتفتر الأطراف ويستقر الكبد والطحال والمعدة والرئتان في غير مواضعها الطبيعية، فكيف ينتظر من القلب أن يظلّ صحيحاً معافى؟ إن قوة القلب وصلابته العجيبة هي التي جعلته يُقاوم حتى الآن عوامل الموت والاضمحلال، ليس ذلك فحسب بل أتاحت له أن يسير قُدماً حارّاً وراءه هذه الأشلاء الممزقة والأعضاء المبتورة عبر القرون الأخيرة.

هل يمكن لمثل هذا الإسلام المشوّه أن يجتذب أحداً إليه؟ وهل لديه من القوة ما يجعله قادراً على فرض نفسه على الحياة في الديار التي امتدّ عليها طويلاً؟ هل يستطيع هذا الإسلام وحاله كما بيّنت أن ينقذ بقية أعضائه من غوشي الموت؟ أو أن يُنقذ نفسه من الزوال، وطوفان الكوارث ينتابه من كل جانب؟ وهكذا فإن النتيجة المتوقعة سوف لا تحقق قول الله تعالى ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾ [النصر ٢]. ذلك بأن أفواج التمرد والردّة وشق عصا الطاعة على الإسلام والتنكّر له آخذة في التعاظم والازدياد، وهي على وشك أن تجتاح البقية الباقية من المسلمين أنفسهم، ولا يوجد مكان في ديار الإسلام يعمل فيه النظام الإسلامي بحيث يُتاح للناس أن يشهدوا آثاره العظيمة ونتائجه الباهرة، وأن يعترفوا بقيمته وبالفوائد التي تنجم عن تطبيقه، إنّ الذي يرونه إن هو إلا صورة مشوّهة للإسلام العظيم أخذت مكان الصورة الحقيقية الرائعة.

وبينما يذهب قوم في الطعن في الإسلام صراحة وعلانية يمنعُ الجبن آخرين من إعلان عصيانهم باللسان ولكنهم يطعنونه بأفعالهم طعنات أشد وأقسى، وهناك فريق ثالث قد انحرفت قلوبهم عن الإسلام، ولكن لما كانت

الثورة عليه لم تفضِ إلى الحد الذي يشجعهم على إعلان هذا الانحراف على الناس دونما خوف من النتيجة. فقد حرصوا على المحافظة على نسبتهم إليه ولكن الغدر مُبيَّت هناك في قلوبهم يبدون بدور التمرد على الشريعة من ستر الطبقات حتى إذا أتت ثورتهم المزعومة أكلها وكثر جُندها أسقطوا عن وجوههم القناع ورفعوا أعلامهم النقيصة. وهناك فئة أخرى ليست من الجسارة بحيث تعلن إنكارها وجحودها، ولكنها تهمس في آذان كل من تلقاه بالاندماج في الحضارة الحديثة من أجل التقدم لأن المسلمين قد بلغوا درجة من الجمود والانحطاط تجعلهم لا هم يفيدون الغير ولا يسمحون لهم بالاستفادة من الثمرات التي تقدمها حضارات الأمم الأخرى وثقافاتها. ثم هنالك فئة أخرى ترى أن الحل السليم للمشكلة هو في تحميد هذا الإسلام وحصر سلطانه في محيط العبادات والعقائد ثم تطبيق نظم الحياة والإدارة التي طبّقها غير المسلمين.

وأنا لا أعلم إذا كان هؤلاء يعتقــدون حقيقة بصــواب أفكـارهم ونظرياتهم، أم أنهم يعرفون الحقيقة ولكنهم يخدعون أنفسهم ويخدعـون الناس. ولكن شيئاً هاماً قد غاب عن أبصــارهم على كل حـال، وهو أن المسلمين إذا ما عاشوا في ظل نظام لا يقوم على أساس الإسلام الحنيف فإن معتقداتهم ستتعـرض حتماً لعوامل الفسـاد والضلال، فلا «الإيمان» يستطيع أن يعيش طويلاً في مثل هذه الظروف المعادية له، ولا «العبادات» تستطيع أن تحتفظ بجاذبيتها وسحرها. ناهيك عن أن محيطاً كهذا قمين بألاّ يسمح بتطور النزعة الإسلامية تطوراً يؤدي في النهاية إلى إقامة بنيان الحياة وكيان المجتمع على أسسها، ولنأخذ طفلاً وُلد ونشأ في ظل هذا النظام الذي يترجونه فإنه سائل نفسه لا محالة: ما لهذه المعتقدات التي لا فائدة منها، والطقوس التي لا معنى لها موصولة بحياتي؟ ولماذا يجب عليّ أن أدرس القرآن وأومن به بعد أن انقطعت صلته بواقع الحياة وفقد تأثيره فيها؟ لماذا يجب عليّ أن أومن برجل عاش منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرناً على أنه رسول من عند الله؟ وإذا لم يستطع هذا الرجل أن يحقق لي نفعاً في هذه

الحياة الدنيا فما هو الخير الذي أصيبه إذا متُّ به كرهبون، وما هو الضرر الذي يقع عليّ إذا لم أفعل؟ وما دمت أعيش سعيداً في ظل هذا النظام (الرائع!!) فأي فرق بين أن أصلي وأصوم وبين أن أنزع عن نفسي هذه الأغلال؟ ثم كيف نستفيد هذه الأغلال مع حياة المدنية؟ ولماذا تستمر هذه النغمة النشاز في فساد لحن الحياة التي أحياها؟..

تلك هي النتيجة الطبيعية للأجيال التي نشأت وتنشأ لعزل الدين عن الحياة. وهي نتيجة منطقية مع الأسباب التي مهدت لها إذا ما أصبح العزل تاماً من الناحية النظرية والعملية.

وهكذا فكما أن القلب يصبح وقد شلّه الداء إذا ما فُصل عن الجسد في عملية، فكذلك المعتقدات تفقد أثرها وفعاليتها كذلك عندما تعزل الحياة عن معتقداتها. المعتقدات هي العُقد الشخصية التي تقوم عليها بنية الجماعة الإسلامية. وهي بدورها تتلقى القوة والفاعلية من سيادة المبادئ التي تحميها، وكما سبق أن بيّنت: كلاهما كأعضاء الجسد الواحد لا يستغني أحدهما عن الآخر، وفصل أحدهما عن الآخر يعني الموت والفناء لكليهما معاً، وعلى هذا فإن الظن بإمكان انتعاش المعتقدات الإسلامية في ظل نظام لا يقوم على أساس الإسلام ظن مغلوط، إذ إنه جدير أن نصنع عقلاً وأطرافاً بشرية لحيوان كالغوريلا، ثم نزعم بعد ذلك أن هذا حيوان سوي الخلقة والتركيب.

وأحب أن يكون واضحاً أن الأنظمة والأوضاع الحاضرة التي أنشئت في ديار الإسلام لا يقف تأثيرها المسموم عند شباب الجيل الجديد فحسب، ولكنه يتجاوزهم إلى هؤلاء الذين ما زالوا على قسط من التمسك بتعاليم الإسلام، والذين ظلوا على ولائهم الموروث للعقيدة الإسلامية سواء كانوا من أبناء الجيل القديم أو الجديد. إن الارتباك والتناقض الذي يسود حياة المسلمين في كل الأقطار هو بلاء عام لم ينجُ منه أحد، وكلٌّ ما نال قسطه من البلاء على قدر استعداده للعدوى، حتى علماؤنا وأئمتنا نالهم نصيب من هذا الطوفان الطامي. ولكن جماهير المسلمين المنتشرة في أنحاء الأرض

كثير هم من عناصر الأمة تعرض للخطر، ذلك أنهم - على الرغم من إخلاصهم العجيب للإسلام لم يستفيدوا به إلا بمعنى سلبي فحسب، وهم لا يعرفون الواجبات التي فرضها عليهم هذا الإخلاص. ولا يستطيعون إنقاذ أنفسهم من هذه التيارات المعادية للإسلام والتي تسدّ عليهم كل المسالك وتكاد تأخذهم من أقطارهم، ولهذه الأسباب أصبح هيناً على كل مُضلل هدّام أن يدسّ لهم السُّم في الدسم ويُقنعهم بأن النظريات والمفاهيم الجديدة التي تُقدّم إليهم لا تعارُض بينها وبين الإسلام البتة، وأن اعتناقها والإيمان بها هو الصواب بعينه(1).

وهكذا تُقاد جماهير المسلمين كل يوم إلى ردّة عن الإسلام وإلى عبودية لغير الله سبحانه وتعالى.

الوعد الحق:

لقد بذل أعداء هذا الدين - من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية - رصيدهم من تجارب وسنين عديدة ماكرة خبيثة هيأ لها الاستشراق طويلاً في الكيد للإسلام، وقدروا على أشياء كثيرة: قدروا على الدسّ في سنة رسول الله - ﷺ - وعلى تمزيق الأمة المسلمة. وقدروا على تزوير الأحداث ودسّ الأشخاص في جسم المجتمع المسلم ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون، وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات، والأنظمة والقوانين، قدروا على إنشاء أجيال من تلاميذ المدارس وشباب الأمة لا تربطهم بدينهم وثقافتهم الإسلامية وماضيهم أي رابطة، حتى صاروا هياكل لا تعني شيئاً، ولا تؤتي للأمة الإسلامية ثمرة. قدروا على زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية وصارت مسألة الحاكمية لله تتزحزح عن مكان العقيدة وتنفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي. وقدروا على تقديم عملائهم

(1) نقلاً عن المودودي بتصرف: داء المسلمين ودواؤهم، المسلمون، المجلد الخامس - العدد الأول ص ٥٣.

الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية على مدار القرون، وبخاصة في العصر الحديث.

ولكنهم لم ولن يقدروا على شيء واحد ـ والظروف الظاهرية كلها مهيأة له ـ. لم يستطيعوا ـ بعد هذا كله ـ تبديل نصوص كتاب الله ولا تحريفها، ولم يكونوا في هذا من الزاهدين، فقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال! لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ، الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه، وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم أصبحوا غثاء كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع، فدلَّ هذا مرة أخرى على ربَّانية هذا الكتاب، وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقاً تنزيل من عزيز حكيم: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩] وصدق الله العظيم..

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ مجرد وعد. أما هو اليوم ـ من وراء كل تلك الأحداث الضخام؛ ومن وراء كل تلك القرون الطوال، فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول.

وهناك حقيقة خالدة من وراء هذا الوعد الإلهي. هي أن المسلمين لم يكونوا خلال هذا المكر المستمر الطويل على دين الله، وأهله في تلك القرون الطوال في جهل متصل عن فهم هذا الدين الذي هو دين كل عصر وجيل، وعن فهم القرآن ومصطلحاته وتعبيراته الأساسية، لأن ذلك يُثبت أن هذا الكتاب بقي هذه المدة الطويلة لا يُفهم على حقيقته وأنه بقي مطوياً على غرَّته، وانقطعت الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى ﴿**إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾، والوعد بالحفظ في موضع الامتنان يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق، فلا خير في كتاب يتلى ولا يُعمل به»[1]، وعلى مرِّ الأيام بعث الله سبحانه رجالاً مُتَفَتِّحةً

---

(١) النبوة والأنبياء: ٤٥

قُلوبهم، مُستنيرة بصائرهم، يسَّرَ لهم السبيل، فقاموا بالدعوة الكاملة في وجهها الصحيح.

وعلينا أن نُدرك هذا لندرك تلك النماذج الفريدة في تاريخ العصور التي رفعت راية القرآن فهماً وعملاً، كانت هي التي تُجدِّد الأمل، وتحرس الأمة من القنوط.. وكانوا بهذا نماذج فريدة في تاريخ البشرية.

وهذا الوعد الإلهي هو الذي صاغ تلك النماذج التي لم تنقطع قط في تاريخ الإسلام. وهذا التاريخ يحكي بتفصيل قصة تلك النماذج الكريمة، وحسن بلائها، وجهادها، وثباتها على عهدها مع الله في كل زمان وفي كل مكان.

إن الأمل في الله أكبر، والثقة في هذا الدين أعمق، وأعداء الذين يمكرون والله خير الماكرين، وهو الذي يقول: ﴿وقد مكروا مكرهم، وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال. فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، إن الله عزيز ذو انتقام﴾ [إبراهيم: ٤٧].

إن هذا الوعد الحقّ هو الركيزة الثابتة في حياة المؤمنين، تضطرب الدنيا من حولهم فيثبتون هم على هذه الركيزة، وتتجاذبهم الأحداث والدوافع فيتشبثون هم بالصخرة التي لا تتزعزع، وتتهاوى من حولهم الأسناد فيستندون هم إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول.

إن لله رجالاً لا تخلو منهم الأرض، على الحق ظاهرين، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لا يضرّهم من خذلهم - أو خالفهم - حتى يأتي أمر الله، مُرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدّهم إلى الله، وتمنعهم من السقوط، هؤلاء حملة القرآن، مصابيح النور الذين يُضيئون في الظلام للحيارى الشاردين عن الطريق..

وبعد، فلم تضع الحرب الصليبية أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة، فقد جهدت قوى الصهيونية العالمية والصليبية العالمية لإطفاء نور الحق من القلوب في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال في دار الإسلام

في كل مكان ﴿يريدون ليطفئوا نور الله﴾. وفعلوا ما فعلوا على مر الأيام والسنين - كما تقدم بيانه -. ولكن لم ولن يستطيعوا أبداً. فهم أضعاف المهازيل ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ [الصف: ٨]، ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾ [التوبة: ٣٢] وصدق وعد الله. أتمّ نوره في حياة الرسول - ﷺ - فأقام الجماعة الإسلامية صورة حيّة واقعة من المنهج الإلهي المختار، صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة، تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع، وأتمّ نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتمّ عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه، ويجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يُلقى في النار ولا يعود إلى الكفر. فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء، وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين. وتنبض وتنتفض قائمة - على الرغم من كل ما جرى على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد، وسفح عزير للدماء، وبطش شديد غليظ حقود، لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه. ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد، في أيدي العبيد! وإن خيّل لطغاة الجبابرة. وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد!

إنه الوعد الحق من الله، الدال على سنته التي لا تتبدل، في إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون. وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا، فيدفعهم هذا إلى المضي في الطريق على المشقة واللأواء في الطريق؛ وعلى الكيد والحرب من الكافرين أعداء الدين الذي لا ينقطع إلى يوم الدين...

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة...»(١).

---

(١) أخرجه مسلم

التصادم المخيف:

إن الصهيونية العالمية والصليبية العالمية يوجهون إلى الإسلام والمسلمين جهوداً لا تكل، وحملات لا تنقطع، ويستخدمون في تحريف الدين عن وجهته، وفي تمييع طبيعته، كل الوسائل وكل الأجهزة وكل التجارب..

هم يسحقون سحقاً وحشياً كل طلائع البعث الإسلامي، والحيوية الصلبة الصامدة في كل مكان على وجه الأرض عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها في كل بقاع الأرض، وهم يسلطون المحترفين من علماء هذا الدين عليه يحرفون الكلم عن مواضعه، ويحلون ما حرم الله، ويميعون ما شرعه. ويباركون الفجور والفاحشة، ويرفعون عليها رايات لهذا الدين وعناوينه. إنهم يريدون أن يغيروا طبيعة هذا الدين ومنهجه ليتبنى أنظمة بشرية ومناهج بشرية، وهم يحلقون للمخدوعين في الحضارات المادية، المأخوذين بنظرياتها وأوضاعها، ليحاولوا زحلقة الإسلام في التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع، ورفع شعاراتها، أو الاقتباس من نظرياتها وشرائعها ومناهجها. وهم يصورون الإسلام الذي يحكم الحياة حادثاً تاريخياً مضى، ولا يمكن إعادته. ويشيدون بعظمة هذا الماضي، ليخدروا مشاعر المسلمين، ثم ليقولوا لهم في ظل هذا التخدير: إن الإسلام اليوم يجب أن يعيش في نفوس أهله عقيدة وعبادة، لا شريعة ونظاماً، وحسبه وحسبهم ذلك المجد التاريخي القديم. هذا وإلا فإن على هذا الدين أن يتطوّر فيصبح محكوماً بواقع البشر، يبصم لهم على كل ما يقدمونه له من تصورات وقوانين. وهم يصنعون للأوضاع التي يقيمونها في العالم الذي كان إسلامياً، نظريات تأخذ شكل العقيدة والدين، لتحلّ محل ذلك الدين القديم، وينزلون لها قرآناً يُتلى ويُدَرَّس، ليحلّ محل ذلك القرآن القديم، وهم يحاولون تغيير طبيعة المجتمعات. كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين كوسيلة أخرى، حتى لا يجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية به فيحولون المجتمعات إلى فئات غارقة في الأهواء والشهوات، مجتمعات تائهة،

مجتمعات في حيرة تتخبط على غير هدى..

إن الأمة المسلمة القائمة على الحق التي تهتدي بنور الله ـ وعلى قلة العدد والعدة ـ ما تزال صامدة لعمليات السحق الوحشية في كل مكان. والله غالب على أمره..

هذا بيان تاريخي واضح وإيجاز شديد لما كان حتى الآن، ولكن ملك على ذكر أبداً لا تنساه في كل مكان وزمان، فقد طالت الليالي والأيام حتى كان ما كان..

إن الفساد لم يدخل على ثقافتنا وأخلاقنا وتربيتنا، وفهمنا لديننا، دخولاً يوشك أن يطمس المعالم ويطفىء الأنوار، إلا بعد التصادم الصامت المخيف الذي حدث بيننا وبين الحضارة والثقافة الأوروبية الحاضرة

والثقافة في جوهرها لفظ جامعٌ يُقصد به الدلالة على شيئين أحدهما مبني على الآخر، أي طَوْران متكاملان:

الطور الأول: أصول ثابتة مكتسبة تنغرس في نفس الإنسان منذ مولده ونشأته الأولى حتى يُشارف حدّ الإدراك البيّن، جمعها كل ما يتلقاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلّميه ومؤدّبيه حتى يصبح قادراً على أن يستقل بنفسه وعقله، وخصائص ما يتلقاه الوليد حتى يترعرع أو يُراهق، ثبوتُ دون حفظٍ بل تعجزه، وهذه الأصول ضرورة لازمة لكل حي ناشىء في مجتمع ما، لكي تكون له لغة يُبين بها عن نفسه ومعرفة تتيح له قسطاً من التفكير يُعينه على معاشرة من نشأ بينهم من أهله وعشيرته، وهذا على شدة وضوحه عند النظرة الأولى لأنك لقّنته، لا لأنك فكرت فيه وعمّقت التفكير، هو في حقيقته سرٌّ مُلثّم يُحيّر العقول إدراك دفينه، لأنه مرتبط أشد الارتباط، بل متغلغل في أعماق سرّين عظيمين غامضين هما: سرُّ «النُّطق» وسرّ «العقل» اللذان تميّز بهما الإنسان عن سائر ما حوله من الخلق كله، وتحيّرت عقول البشر في كيف جاءا؟ وكيف يعملان؟ لأن «الإنسان» لم يشهد خلق نفسه حتى يستطيع أن يستدل بما شهد، لكي يصل إلى خبيء هذين السّرين

المُلْغِزين المُسْتَغْلِقين البعيدين، وإن توهَّم أحياناً بالإلف أنهم قريبون وإيضاحه إنه السر الإلهي، وعجيبة من آثار القدرة الخالقة، يرونها فلا يدركونها وهي مشهد عجيب معروض للعيون، وهو مثل صغير من حياة الإنسان، تعجز عنه قوى البشرية ويعجز عنه تصورهم، وهو يقع في كل لحظة من ليل أو نهار. ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ [النحل ٧٨].

إنه غيب من غيب قريب، ولكنه موغل بعيد، ولكن الناس لا يعلمون كيف يتم ذلك، لأن السرَّ هو سرّ الحياة المكنون. والعلم الذي يدّعيه الإنسان ويتطاول به، علم حادث مكسوب. ومولد كل إنسان، كل عالم وكل باحث، ومخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً قريب من قريب! وما كسبه بعد ذلك من علم هبةٌ من الله بالقدر الذي أراده الله للبشر، وجعل فيه كفاية حياتهم على هذا الكوكب، في المحيط المكشوف لهم من هذا الوجود.

والإنسان منذ مولده قد استُودِع فطرة بيضاء نبيلة تغور في أعماقه، تُورِغُه، (أي تُلهمه وتُحركه)، أن يتوجه إلى عبادة ربّ يُدرك إدراكاً مبهماً أنه خالقُه وحافظُه ومُعينه، فهو يبحث بحثاً سريعاً للاستجابة لكل ما يُلبِّي حاجة هذه الفطرة الخفية الكامنة في أغواره، وكل ما يُلبِّي هذه الحاجة، هو الذي هدى الله عباده أن يُسمُّوه «الدين»، ولا سبيل البتة إلى أن يكون شيء من ذلك واضحاً في عقل الإنسان إلا عن طريق «اللغة» لا غير، لأن «العقل» لا يستطيع أن يعمل شيئاً، فيما نعلم، إلا عن طريق «اللغة». فالدين واللغة، منذ النشأة الأولى، متداخلان تداخلاً غير قابل للفصل[١]. ومن أغفل هذه الحقيقة ضلّ الطريق وأوغل في طريق الأوهام. هذا شأن كل البشر على اختلاف مللهم وألوانهم، لا تكاد تجدُ أمّةً من خلق الله ليس لها «دين» بمعناه

---

(١) في الحياة الثقافية «الأدبية» الفاسدة، تروج دعوة خبيثة حمقاء تفصل «اللغة» عن «الدين»، وهذا لا شيء إلا بمعرفة دين، ولا نحن في دين حر تصنعه لأنفسهم، وليست معنى الدين. انظر «أباطيل وأسمار» ص ٥١٣ - ٥٥٢ للأستاذ محمود شاكر.

العام، كتابياً كان، أو وثنياً، أو بِدْعاً، (البِدْعُ: الدين الذي ليس له كتاب أو وثنٌ معبود).

وبذلك، فكل ما يتلقاه الوليد الناشئ في مجتمع ما، من طريق أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه ومؤدِّبيه، من «لغة» و«معرفة» يمتزجُ امتزاجاً واحداً في إناء واحد، ركيزتُه وبؤرتُه وخميرتُه دينُ أبويه ولغتهم، وأسبقهما أثراً هو «الدين». فالوليد في نشأته يكون كلُّ ما هو «لغة» أو «معرفة»، أو «دين» مُتقبَّلاً في نفسه تقبُّل «الدين»، أي يتلقاه بالطاعة والتسليم والاعتقاد الجازم بصحته وسلامته، وهذا بيِّنٌ جداً إذا أنت دقَّقْت النظر في الأسلوب الذي يتلقى به أطفالك عنك ما يسمعونه منك، أو من المعلم في المراحل الأولى من التعليم، ويظلُّ حال الناشئ يتدرج على ذلك، لا يكاد يتقضَّى[٢] شيء من معارفه من شيء حتى يقارب حدَّ الإدراك والإبانة، ولكنه لا يكاد يبلغ هذا الحدَّ حتى تكون لغته ومعارفه جميعاً قد غُمِست في «الدين» وصُبغت به، وعلى قدر شمول «الدين» لشؤون حياة الإنسان، وعلى قدر ما يُحصِّل منه الناشئ، يكون أثره بالغ العمق في لغته التي يُفكر بها، وفي معارفه التي يبني عليها ما يُوجبه عملُ العقل من التفكير والنظر والاستدلال، فهذه هي الأصول الثابتة المكتسبة في زمن النشأة على وجه الاختصار.

الطور الثاني: فروع مشتقة عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأة، وهي تنشق حين يخرج الناشئ من إسار التسخير إلى طلاقة التفكير، وإنما سمَّيتُ «الطور الأول» إسار التسخير، لأنه طورٌ لا يملك لأحد من البشر فيه شأنه في مجتمعه، فإذا بلغ مبلغ الرجال استوتْ مداركُه، وبدأتْ معارفه يتقضَّى[١] بعضها عن بعض، أو يتداخل بعضها في بعض، ويبدأ العقل عمله المُتَثبِّت في الاستقلال بنفسه، ويستبدُّ بتقليب النظر والمباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص، ومعالجة التعبير عن الرأي الذي هو

---

(١) يتقضَّى: أي يتخلص من هذا المضيق

تتيحُ مرونة العقل لعمله، فعندئذ تتكوّن النواة الجديدة لما يمكن أن نُسمّي ثقافة.

وبيِّنٌ أن سبيله إلى تحقيق ذلك هو «اللغة» و«المعارف» الأُولى التي كانت في طورها الأول مصبوغةً بصبغة «الدين» لا محالة، حتى لو استعملها في الخروج على «الدين» الموروث ومناقشته رفضاً أو لبعض تفاصيله، هذه حال نشْء الصغار حتى يبلغوا منزلة الإدراك المستقلِّ المفضي إلى حيِّز الثقافة.

و«الثقافة» كل أمة وكل «لغة» هي حصيلة أبنائها المثقفين قدْر مشترك من أصول وفروع، كلها مغموسٌ في «الدين» المتلقَّى عند النشأة، فهو لذلك صاحب السلطان المُطْلق الخفيِّ على اللغة وعلى النفس وعلى العقل جميعاً. سلطانٌ لا يُنكره إلا من لا يُبالي بالتفكُّر في المنابع الأُولى التي تجعل الإنسان ناطقاً وعاقلاً ومُبيناً عن نفسه، ومستبيناً عن غيره.

فثقافة كُلّ أمة مرآة جامعةٌ في حيِّزها المحدود كلَّ ما تشعَّث وتشتَّت وتباعد من تفاوت كل فرد من أبنائها على اختلاف مقاديرهم ومشاربهم ومذاهبهم ومناحيهم ومخارجهم في الحياة، وجوهرُ هذه المرآة هو «اللغة»، و«الدين»، كما أسلفت، فهما حالان تداخلا غير قابلٍ للفصل البتة.

فباطلٌ كلَّ البطلان أن يكون في هذه الدنيا على ما هي عليه، «ثقافة» يمكن أن تكون «ثقافة عالمية»، أي ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعاً، ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومللهم ونحلهم وأجناسهم وأوطانهم. فهذا تدليس كبير، وإنما يُراد بشيوع هذه المقولة بين الناس والأمم، هدفٌ آخر يعني بفرض سيطرة أمة غالبة على أمم مغلوبة، لتبقى تبعاً لها. فالثقافات متعدِّدة بتعدُّد الملل، ومتميِّزة بتميُّز الملل، ولكل ثقافة أسلوب في التفكير والنظر والاستدلال مُنْتزعٌ من «الدين» الذي تدين به لا محالة. فالثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش، ولكن لا تتداخل تداخلاً يُفضي إلى الامتزاج البتَّة.

ولا بد من التنبيه لشيء مهم جداً، هو أن تفصل فصلاً حاسماً بين ما يُسمى «ثقافة» وبين ما يُسمى «علماً»، (أعني العلوم البحتة)، لأن لكل منهما طبيعة مباينةً للآخر. فالثقافة مقصورةً على أمة واحدة تدين بدين واحد، والعلم مُشاع بين خَلْق الله جميعاً، يشتركون فيه اشتراكاً واحداً مهما اختلفت المِلل والعقائد.

إن بديهية الفطرة في الإنسان تقضي بأن «الأهواء» مرفوضة في كل عمل يستحق أن يوصف بأنه عملٌ شريف أو عمل علمي. وظاهرٌ لك من كل ما بيَّناه في هذا الباب أن «الاستشراق» وعملاءه في ديار الإسلام، من فَرْع رأسه إلى أخمص قدميه، غارقٌ مع رجاله الذين يديرون التوجيه والثقافة في بلاد الإسلام، غارقٌ في «الأهواء»، والحضارة الأوروبية تستقبل «الأهواء» بلا نكير ولا أنفة، بل هي تسوّغ استعمال رذيلة الأهواء في الدنيا وفي الناس بلا حرج، لأنها حضارة قائمة على المنفعة والسلب ونهب الأمم. واصطناعها لكل وسيلة لسلطانها المتحضر!! والدلائل على ذلك لا تخفى على بصير ذي عينين تُبصران. فهي تُسوّغ ذلك في العلم وفي الثقافة وفي السياسة وفي الدين وفي كل شيء، ما دام حائلًا لمنفعة أو دافعاً لمضرّة. بل تسوّغها أيضاً في الدعوى الغريبة العجيبة التي لم يسبق لها مثيلٌ في تاريخ الأمم، دَعْوى أنها «حضارة عالمية» وفحواها أن العالم كُلّه ينبغي أن يخضع لسلطانها وسيطرتها، ويتقبّل برضى غطرستها وغرورها العبي الآخذ الفاتن[1]!.

حديث صادق:

لقد ظهر جلياً ـ فيما سبق بيانه ـ أن الثقافة الغربية ولدت في مهد الحضارة الماديّة، ثم غُذيت بالدم المسفوح، ومُزجت ثقافتها بالبغضاء والكره، فتعالت حقداً، وتأجّجت كبرياءً مقيتاً، ونفثت اللهيب الممضّ من

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: ٤٨، ١٠٣ وما يليه.

سهمها غدراً وخِسّة. أحقاد مكتّمة تعلوها مظاهر خدعة للبراءة الكاذبة والبِشر الفاجر.

إن روح الحضارة والثقافة العربية قد رضعت من لِبان الهوى والضلال. والأهواء هي المحرك والدافع لنبضات هذه الحضارة في كلِّ نفس وحركة، والأهواء هي كالسمّ، تسري في خفاء ودبٍّ، إلا أنها لا تدبّ ولا تأتيك إلا متبرجة في تمام زينتها، مُتَردِّية برداء ساحر، متحلية بجواهر المهارة والحذق، حتى يُتاح لصاحبها أن يقتنص، ويتلعب عندئذ بك وبعقلك ما شاء له التلعب، من حيث يوهمك أنه قد استوعب لك جمع «المادة» ويُهوِّل عليك بتهويل السحرة بما يحشد تحت عينيك ويستكثر، مخفياً عنه بتمويهه من «المادة» ما قد يُبطل ما أراد به سِحْر عينيك واهتبال غفلتك، ثم استلحق عقلك بعقله، إذ أنت مفتون بالزينة المتبرجة وبالحلي النفيسة فأنت هائم معه، مريداً أو غير مريد «في إثر كل قبيح وجْهُهُ حسن» كما يقول المتنبي[١].

والأهواء هي الداء المبير، والشر المستطير، والفساد الأكبر، إن هو ألمَّ بأي عمل إلمامة خفيّة الدبيب بلة الوَطْء لمتثاقل، أحالهُ إلى عملٍ مُسْتَقْذر مسود كريه، حتى ولو جاءك هذا العمل في أحسن ثيابه، وحُلِيِّه وعطوره وتمَّها زينةً، من دقَّة واستيعاب وتمحيص ومهارة وحذق وذكاء، ثم يزداد بشاعة إذا كان دعاة الثقافة الغربية من سَدنة التربية والتعليم في ديار الإسلام مُلِمِّين تمام الإلمام بأسرار تاريخ الإسلام، وأسرار ثقافة الإسلام، لأنهم حينئذٍ منافقون خبيثو النفاق، وخائنون لئيمو الخيانة

ومكرُ المستشرقين وتلاميذهم وخريجو إرساليات التبشير مكرٌ دفينٌ خفي، يَعبثون بعقولنا حتى حَسِبَ الناسُ الشحم فيمن شحمُه ورم كما يقول

---

(١) هو من قوله يذكر أهل العشق:

مما أضرَّ بأهل العشق أنهم ... هوُوا، وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى عيونهم دمعاً، وأنفسهم ... في إثر كل قبيح وجْهُه حسنُ

المتنبي معاتباً سيف الدولة الحمداني:

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ

وقال الشاعر:

يُقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

لقد كانت مهمة الاستشراق والتبشير والاستعمار، أن تُخرج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمة في حياتها. لقد قبضوا من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم والثقافة والتوجيه والإعلام في ديار الإسلام، ونُشرت في تلك الربوع ثقافة الغرب المادية، وفنون وآداب وتاريخ الغرب المستعلي بحضارته غطرسةً وتكبراً وحريّة، حتى صار المسلم لا يرى في الدنيا شيئاً له قيمة إلا المادة والشهوة والهوى.

إن الهوى الذي تمكّن في حياة الأمة، يستكن في أغوار النفس وفي كهوفها حتى يمرق من مكمنه فيستبد بالتسلط على الفكر والعقل. ومحصوله ذلك الذي يتبعُ هواه أنه إنسان فارغ خاوٍ مُكوّنٌ من عظام ولحم كُسيت جلداً، لا أكثر!!!

وينفث القرآن الكريم عن هذه الحالة التي تصل إليها النفس الإنسانية «أرأيت من اتخذ إلهه هواه. أفأنت تكون عليه وكيلا» [الفرقان: ٤٣]

إنها صورة ناطقةٌ ونموذج عميق لحالة نفسية بارزة، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة، والمقاييس المعلومة، والموازين المضبوطة، وتخضع لهواها، وتحكم شهواتها وتتعبّد ذاتها، فلا تحتكم لميزان، ولا تعترف بحدّ، ولا تقتنع بمنطق، متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلهاً يُعبد ويُطاع.

لقد تم في ديار الإسلام إعداد نشء لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، أُخرج المسلم من دين الإسلام طبقاً لما أراده «الاستشراق»، لا يهتم

للعقشم، ويحب الراحة والكسل، ويصرف همّه في دينه وفي الشهوات . .
فإذا تعلّم فلشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوات. وفي سبيل الشهوات يجود بكل شيء.

إن رأس كل ثقافة هو الدين، بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان، أي دين كان ـ أو ما كان في معنى الدين ـ وبقدر شمول هذا الدين لجميع ما يكبح جموح النفس الإنسانية ويحجزها عن أن تزيغ عن الفطرة السوية العادلة ـ وبقدر تغلغله إلى أغوار النفس تغلغلاً يجعل صاحبها قادراً على ضبط الأهواء الجامحة، ومريداً لهذا الضبط بقدر هذا الشمول، وهذا التغلغل في بنيان الإنسان، تكون قوة العواصم التي تعصم صاحبها من كل عبث مدمر.

هذه هي قصة التاريخ بيحر مُتمّ بالحقيقة قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات، والحسرات والآهات، فاقرأ تاريخك بعين إسلامية، بصيرة لا تغفل، لا بعين عربية غريبة، تخالطها نخوة وطنية هذا حديث صادق سجله ذاكرة التاريخ من مفكرة الأيام والسنين، قصة يُبين لك فيها التاريخ ما كان، ولكن مثل هذه القصة على ذكر أبداً لا تنساه في كل زمان وفي كل مكان، فهي قصة تحكي لم كان الآن ما كان. تُفسّر القصة حوادث الأيام في كل حين و... فالحياة الثقافية والفكرية والأدبية والأخلاقية الفاسدة التي سنّ «المستشرقون الكبار» سُننها للمسلمين، والتي نعيش فيها إلى هذا اليوم، فقد نشوا في روح الفكر والثقافة والتوجيه والتربية والسلوك والأدب والأخلاق والدين أفات، وابتلعتها الأجيال المتلاحقة دون تأمّل في أن هذا غريب على فكر الإسلام ويناقض منهج الإسلام وشريعته وعقيدته، فترك المسلمون دينهم وفكرهم وثقافتهم وأخلاقهم وانخرطوا في حضارة زائفة، حضارة مادية، انخرطوا في وَهْم هذه الحضارة التي يلْبسون عليها رداءً شيطانياً فسمّوها «الحضارة العالمية» التي تُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن التخلف والجمود إلى التقدم والتطور .

وحين هبّ المسلمون من رقادهم الطويل وتلفّتوا ذات اليمين وذات

الشمال يتساءلون بينهم كيف حدث هذا للدين؟ كيف حدث هذا للإسلام الذي كانت بعثته زلزالا قوَّض المجتمعات القديمة الواهنة، وخلق منها مجتمعات من صُنع الله، وأزاح عروش الأمبرطوريات الغابرة؟.

كيف مُسخ هذا الدين هذا المَسْخ في وجدان الأمة؟ وآل المسلمون إلى هذا المآل؟ وضاعت عِزّة الإسلام وحرماته هذا الضياع؟. هذه كلها أسئلة الحسرة التي تحيط بنفس المسلم الغيور على دينه وأهله المسلمين. والرسول - ﷺ - يقول: «مَن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»!!.

«يجب أن نواجه الحقيقة بوعي وفقه وشجاعة. إن العالم الإسلامي يعاني اليوم ردّة دينية وفكرية وثقافية جارفة يجب أن تكون موضوع دراسة جميع من يهمهم الإسلام واهتمامهم. إن الطبقة المثقفة في كل قطر إسلامي مضطربة في العقيدة، مُتحللة في الأخلاق، مادية في التفكير، علمانية في السياسة، وإن كثيراً من رجالها - إن خشيت أن أقول أن أكثر رجالها - لا يؤمنون بالإسلام كعقيدة ونظام - والشعوب الإسلامية - وفيها كل خير وكل صلاح وكل استعداد وهي من أصلح الكتل البشرية في العالم - خاضعة لهذه الطبقة بحكم ثقافتها وذكائها ونفوذها وتحكّمها بمقاليد الأمور. وإذا بقي هذا الوضع تسرّب الإلحاد والفساد إلى هذه الشعوب وإلى الطبقات التي تعيش في البادية والقرى وتعمل في المصانع والمزارع، وسارت في طريق اللادينية والزندقة كما وقع في أوروبة، وهذا ما وقع في ديار الإسلام إذا جرت الأمور كما هو مرسوم في مخططات الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، ولم تَحُل إرادة الله القاهرة.

يجب أن نعترف أن العالم الإسلامي الذي تعصَّب به طويلاً، والطبقة المثقفة فيه بصفة خاصة، في حاجة شديدة إلى دعوة إسلامية جديدة، وأن هتاف الدعاة والعاملين فيه وهدفهم اليوم «إلى الإيمان من جديد» لا يكفي، إنه لا بد من تصميم حكيم قبل العمل، لا بد من تفكير هادئ عميق: كيف نردّ الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة وتمسك الزمام إلى الإسلام من جديد؟

وكيف نبعث فيه الإيمان والثقة بالإسلام؟. وكيف نحررها من رق الفلسفات الغربية والحضارة العصرية ونظرياتها اللادينية؟

إن هذه الدعوة - التي أعتقد أنها أفضل دعوة وأفضل جهاد في هذا العصر - في حاجة إلى رجال ينقطعون إليها ويكرّسون عليها علمهم ومواهبهم وكفاءتهم، ولا يطمعون في منصب أو جاه أو وظيفة أو حكومة، ولا يحملون لأحد حقداً أو ترةً، ينفعون ولا ينتفعون، ويُعطون ولا يأخذون، ولا يُزاحمون طبقة في شيء تحرص عليه وتتهالك، حتى لا تكون لها حجة عليهم ولا للشيطان سبيل إليهم، شعارهم الإخلاص والتجرد عن الشهوات والأنانيات والعصبيات»[1].

والاستشراق والاستعمار لا يذمُّ لأنه فعل كل ذلك في ديار الإسلام، لأنه بلا شكّ قد أدّى ما عليه تلبي حددته من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، قد ذلك أحسن أداء وأتمّه، ونصر أهل دينه، وأخلص لهم كل الإخلاص، وكافح في سبيل هدفه بكل سلاح أحد صقله وتقويمه. أما الذي هو حقيقٌ بالذمّ والمعاتبة، فالمسلم الغافل الذي يظن نفسه عاقلاً، والبصير من الذي يظن نفسه بصيراً، ثم لا يكاد عقلُه يُدرك شيئاً هو أبيَن بياناً من البداهة المسلّمة، ولا يكاد بصره يرى ما هو أظهر ظهوراً من الشمس الساطعة.

فما هو في حياتنا الثقافية والتربوية والسلوكية والاجتماعية والإعلامية قد صُنع وصيغ لهدف بعينه، كل ذلك أُعدَّ ليحدث تحوُّلاً اجتماعياً وثقافياً وسلوكياً وأخلاقياً وتربوياً وسياسياً عن الثقافة والتاريخ في الدين الإسلامي.

هذه هي جذور القضية التي غفل عنها الناس يومئذ، ولا تزال حياتنا الثقافية والتربوية اليوم غافلة عنها كلَّ الغفلة، فرجال الثقافة والتربية اليوم هم كما قال المتنبي في ملوك زمانه:

---

(١) الندوي: ردّة جديدة، المسلمون، المجلد السادس ص ٤٢٠.

أرانبُ، غيرَ أنهم ملوكٌ   مُفتّحة عُيونُهمُ نيامُ

والأرنب تنام مفتوحة العين. فربما جاء القنّاص فوجدها كذلك، فيظنّها مستيقظة، وإن كان على علم بحالها أخذها من قريب أخْذاً هيِّناً بلا مؤونة ولا تعب!!

ولنتدبر هذه الحقيقة.. قصة تربية جيل مُفرَّغ من كل أصول ثقافة ودين أمته.. لنتدبَّر هذه الحقيقة بعقل مفتوح وبصيرة نافذة.. نتدبّر ذلك بتدبُّرٍ وأناة، حتى نلمَّ بأطراف البلاء الذي حاق بالأمة الإسلامية، وحتى لا ندخل تحت المعنى الذي قاله أبو عبادة البحتري:

ومن العجائب، أعينٌ مفتوحة   وعقولهن تجول في الأحلام

أحلام «النهضة» و«التجديد» و«الأصالة والمعاصرة» و«الثقافة العالمية» و«النظام العلمي الجديد» و«الحضارة الإنسانية العالمية»، وأحلام أخرى كثيرة لا تنقضي!! أحلام حجبت التدهور الثقافي والتربوي والأخلاقي والاجتماعي للأمة الإسلامية مستمرة متدفقة في هذه الساعة. وعلى مرّ الأيام تزداد المجتمعات الإسلامية تحللاً وتفككاً وحسرة، ولله الأمر من قبل ومن بعد[1]..

دعوة وجهاد:

وليتطلع كل مسلم غيور على دينه في جوهر هذه الحقيقة، فالحجة تطوي بساطها عن كل حيّ، وقد مضت تلك الأيام الغوابر المصبّنة في حياة الإسلام، حتى كان من كان في دار الإسلام، فأهله في حيرة رائعة، وضلالة مُضنية، وشكوك مُمزِّقة، وصاروا على شفا جُرف هارٍ من الهلاك، في خسارة وضياع في الدنيا، حتى سلكوا سبيل الخاسرين الذين خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين..

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٤٣، ٩٤، ٩٥ وما يليه، ٢٢٤.

وبعدُ، نخرج من قول لولا. وخير من ذلك أن نذكر واجبنا، ونعرف مسؤوليتنا، ونعمل ونسعى، ونتجه إلى صناعة تاريخ جديد، تاريخ من المجد كالذي صنعه أجدادنا... المسلمون الأولون.

نحن أمة الإسلام عندنا مكنون ثمين غائب في تاريخنا وتراثنا وثقافتنا، ولننقضّ هذه الكنوز بعقل وهمّة وجدّ ويقظة وبصر وإدراك وبأنفة من قبول الذلّ والعار والمهانة.

ولنصبر على لأواء الطريق ومشقته ولا نجزع، ولنكن رابطي الجأش لا تستحوذ علينا المخاوف والرهبة، ولنستمع لنصيحة الحسن البصري رضي الله عنه: «إن من يخوفك حتى تلقى الأمن، أشفق عليك ممن يؤمّنك حتى تلقى الخوف».

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب:

«لقد وجب الجهاد... بل قد وجب علينا جميعاً، كلٌّ من الناحية التي هو فيها.

وقد يكون الجهاد بالسلاح آخر النواحي التي وجب علينا الجهاد منها، وأما أولها فهو أن نصلح ما بيننا وبين الله، وأن نصلح ما بيننا وبين أنفسنا.

إن للجهاد عدة، وللعدة في الإسلام مقدمات، وأقدس مقدماته ثلاث: النية، والطهارة، والنظام.

كل واحد منا أصبح الآن في جهاد، فالتاجر في حانوته ـ إذا عرف كيف يحسن النية ـ هو عند الله في جهاد، وله مثل أجر المجاهدين.

والموظف وراء مكتبه ـ إذا عرف كيف يحسن النية ـ هو عند الله في جهاد، وله مثل أجر المجاهدين.

والعامل في المصنع الذي يعمل فيه ـ إذا عرف كيف يحسن النية ـ هو عند الله في جهاد، وله مثل أجر المجاهدين.

والذي يدير حركة المصنع بأمواله وتدبيره - إذا عرف كيف يحسن النية - هو عبد الله في جهاد، وله مثل أجر المجاهدين.

والمزارع والفلاح - إذا عرف كيف يحسن النية - هو عبد الله في جهاد، وله مثل أجر المجاهدين.

«النية» أمرها عظيم في الإسلام، لأنها نجوى بين الإنسان وربه، فهي كإبرة الملاح إذ أراد أن يتوجه سفينته إلى جهة يقصدها لا يخالط نفسه فيتوجه إلى غير ما توجهه إليه إبرته المغناطيسية. وما دام الجهاد عبادة، فكما يتوجه المصلي نحو القبلة وهو ينوي الصلاة، فعلى المجاهد أن يتوجه إلى مرضاة الله وهو يلتمس منه المعونة ويستنزل من عنده رغائب النصر ووسائل التوفيق.

والتماس مرضاة الله ركن «الطهارة» للمتعبد بالجهاد، والله لا يرضيه من التاجر وهو يرى بلاده في حالة جهاد مع عدو محتال قوي غادر، أن يلوّث طهارة جهاده بمحاولة الغدر والختل للحصول على الكسب الحرام، وإلا فسدت نيته التي نجى بها الله ليثيبه مثل أجر المجاهدين. ولكن بما حوله من الختل والغدر ليحصل من بني دينه على الكسب الحرام شريكاً للعدو الذي يحاربه بختله وغدره، وبئس أمة تقف موقف الجهاد من عدو محتال غادر ويكون في صفه تجار من أبناء هذه الأمة يحاربونها مع العدو بسلاح الغدر والختل»[1].

وكذلك حال الموظف وراء مكتبه، والعامل في المصنع، والذي يدير حركة المصنع بأمواله وتدبيره، والمزارع والفلاح في أرضه. يقول الرسول - ﷺ -: «كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مسؤول عن رعيته.»[2]

«والتراحم بين الناس هو استدرار لرحمة الله واستمطار للنصر من عنده.

(١) مجلة المسلمون العدد الأول (١٩٥٢) ص ٧٢ - ٧٥ «مقدمات الجهاد»
(٢) متفق عليه

فإذا أحسنا «النية» في النجوى بيننا وبين الله، وإذا «تطهرنا» من الأنانية والحقد والغدر، وكنا أمة متعاونة متراحمة، وإذا سوّينا الصفوف وقام كل منا بالجهاد من ناحيته حيثما كان، فإن الإسلام يضمن لأبنائه أن يكونوا اليوم منصورين ظافرين، كما كانوا في الأمس منصورين ظافرين ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾ [1]» [محمد: ٧]..

هذه أولى خطوات الجهاد في الدعوة إلى الإسلام في دفع الردّة والعبودية التي حلّت بديار الإسلام.

إن القرآن الكريم، يحرض المؤمنين على التجرد لله، والاتجاه إلى نصرة نهجه في الحياة..

وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر؟

إن لله في نفوسهم أن تتجرد له، وألا تشرك به شيئاً، شركاً ظاهراً أو خفياً، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً، وأن يكون الله أحبَّ إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكّمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها، وسرها وعلانيتها، ونشاطها كله وخلجاتها.. فهذا نصر الله في ذوات النفوس.

وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء، فهذا نصر الله في واقع الحياة.

إن الله ـ سبحانه ـ لا يكل الناس إلى فلتات عابرة في تقلبهم في هذه الحياة الدنيا.. إنما إلى سُنَّة ثابتة يمضي بها قدره ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) مجلة المسلمون العدد الأول (١٩٥٢) ص ٧٢ - ٧٥ «مقدمات الجهاد».

إن قدر الله ينفذ ويجري عن طريق حركة الناس وعملهم، وقد جعل - سبحانه - التغيير القدري في حياة البشر مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم، وأوضاعهم التي يحدثونها لأنفسهم، فإنه لا يغير نعمة أو بؤساً، ولا يغير عزاً أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة.. إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم، وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لاحقاً له في الزمان بالقياس إليهم.

وإنها حقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة عظيمة، فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته، أن تترتب هذه المشيئة بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم

والنص القرآني صريح في هذا لا يحتمل التأويل، فيبين فاعلية الإنسان في مصير نفسه وفي مصير الأحداث من حوله، فيبدو عنصراً إيجابياً في صياغة هذا المصير - بإذن الله وقدره الذي يجري من خلال حركته وعمله ونيته وسلوكه - وتنتفي عنه تلك السلبية الذليلة في أنه ضائع خانع مغلوب، ولا يملك إلا الخضوع المطلق لما تفرضه عليه الحتميات الجبرية.

وهكذا أصبح العالم الإسلامي - بعدما غزته أوربة سياسياً وثقافياً - يخضع لعصبيات متعددة ويؤمن بها كقضية علمية وحقيقة مقررة وواقع لا مفرّ منه، وأصبحت شعوبه تندفع اندفاعاً غريباً إلى إحياء هذه العصبيات التي أماتها الإسلام، والتغني بها وإحياء شعائرها - ولو كانت وثنية سافرة. أضف إلى ذلك ما يوجد اليوم من التهور في الحصول على المادة وإيثارها على كل مبدأ وعقيدة، وإيثار الدنيا على الآخرة، والإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى، وما تبع ذلك من التفسخ الخلقي والاستهانة بمحارم الله وشيوع الخمر والفسوق وخاصة في الطبقات «الراقية» حتى تكاد تكون هذه الطبقة نسخة واحدة وصورة واحدة في كل بلد إسلامي - إلا من عصم ربك، وقليل ما

هم ـ والتحرر من قيود الإسلام وفرائضه تحرراً تاماً حتى كأنها لا صلة لها بالإسلام وشريعته، وكأنها شريعة منسوخة وأسطورة خيالية

هذا ـ مع ما قدمت ـ تصوير العالم الإسلامي الديني والاعتقادي والفكري والاجتماعي والتربوي بالإجمال، وهي موجة «جاهلية» تكتسح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه. والجاهلية كل وضع يناقض ويخالف الإسلام، فمن قبل شريعة الله واستسلم لأمره في شؤون حياته كلها فهو في دين الله، ومن نبذ أوامر الله وشريعته عن شؤون حياته ـ في أي صورة من الصور ـ فهو إذن في جاهلية ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ [المائدة: ٥٠].

إن هذه التسمية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم حتى يستطيع أن يهتدي إلى الصراط المستقيم في هذه الردّة الكاسحة، ولا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه، والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة على الأعداء والأصدقاء!

والإسلام يلحّ على هذه التسمية «الجاهلية»، وليس في معجمه تعبير أهول وأفظع منه، فهي تجمع معاني الجهل والضلالة والبُعد عن الحقائق وأنواع الخطر والمضار في الدنيا والآخرة، وأعظم من كل ذلك فإن ذكرها يثير في النفس المقت الشديد.

لقد اكتسحت موجة جاهلية ديار الإسلام، وهي أعظم موجة واجهها العالم الإسلامي، وهي أخبث وأعتى وأشدّ ما واجهه المسلمون عبر القرون الغابرة، «وهي تفوق كل موجة معارضة عرفها التاريخ الإسلامي، سواء في قوتها أو في شمولها أو في تأثيرها في المجتمع الإسلامي، وتمتاز عنها بأن المنتهين لهذه الأخيرة قليل، والذين يتطوعون لمحاربتها، ويُجندون لها قواهم ومواهبهم أقل. فقد حدث الإلحاد وظهرت الزندقة بتأثير الفلسفة اليونانية في العهد القديم فوُجد من حاربها بعقله الكبير وذكائه النادر وعلمه الغزير ودراسته الواسعة وشخصيته القوية، وظهرت الباطنية والملاحدة فوجد

من يحاربها بالعلم والحكمة والبرهان. وبقي الإسلام محتفظاً بسموه العقلي ومكانته العلمية. ترتد عنه كل موجة عاتية، وينحسر عن طوده كل فيضان وكل سيل جارف.

ليست المسألة مسألة انحطاط في الأخلاق، وضعف في العبادات، وترك للشعائر وتقليد للأجانب، وإن كانت مسائل تستحق العناية والاهتمام والجهاد. ولكن مسألة العالم الإسلامي اليوم أعظم وأضخم من كل ذلك. إنها مسألة كفر وإيمان، إنها مسألة ثورة على الإسلام، أو خلع له. إن المعركة قائمة بين الفلسفة الغربية اللادينية وبين الإسلام آخر الرسالات، وبين المادية والشرائع السماوية، ولعلها آخر معركة تقوم بين الدين واللادينية، وإنها تحدد مصير العالم.

إن جهاد اليوم، وإن خلافة النبوّة، وإن أعظم القربات وأفضل العبادات، أن تُقاوَم هذه الموجة اللادينية التي تجتاح العالم الإسلامي وتغزو عقوله ومراكزه، وأن تُعاد الثقة - المفقودة - إلى نفوس الشباب والطبقة المثقفة بمبادىء الإسلام وعقائده وحقائقه ونظمه، وبالرسالة المحمدية، ويُزال القلق الفكري والاضطراب النفسي اللذان يساوران الشباب المثقف، ويقنعوا بالإسلام عقلياً وثقافياً.

لقد مضى علينا ما يزيد عن قرن ونصف وأوروبة تغتصب شبابنا وعقولنا، وتبث في نفوسنا الشك والإلحاد والنفاق وعدم الثقة بالحقائق الإيمانية والغيبية.. حتى فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلامي في الإيمان والعقيدة، وملك زمام الأمور في البلاد الإسلامية جيل لا يؤمن بمبادىء الإسلام وعقيدته ولا يتحمّس لها ولا تربطه بالشعب المسلم المؤمن البريء إلا «القومية الإسلامية» أو المصالح السياسية، وقد تسربت هذه العقلية أو النفسية اللادينية عن طريق الأدب والتربية والثقافة والسياسة والصحافة وبقية وسائل الإعلام إلى الجماهير حتى أصبحت الشعوب

لإسلامية مهددة بلا دينية شعبية عامة، وكاد الإسلام يُقصى من الحياة والمجتمع»[1].

يجب أن نواجه الحقيقة بوعي وصبر وتصميم، إنه الجهاد الأعظم في هذا العصر: الدعوة إلى الإسلام بثقة القرآن وشجاعة المؤمنين، دعوة يقوم بها قدوة صالحة، «فريق يتجرد عن المطامع، يُخلص للدعوة، ويبتعد عن كل ما يوهم بأن همّه الدنيا والمادة والتغلب على الحكومة، لنفسه أو عشيرته أو حزبه، يحلّ عقد النفسية والعقلية التي أحدثتها الثقافة الغربية، أو أحدثها «رجال الدين» أو سوء تفاهم أو قلة الدراسة والابتعاد عن الإسلام ونحوه. وذلك بالمقابلات والصداقات والمحادثات، وبالأدب الإسلامي الصالح المؤثر، وبالربط الشخصية وبالنزاهة وعلو الأخلاق وقوة الشخصية، والزهد في حطام الدنيا والعزوف عن الشهوات، وتمثيل أخلاق الأنبياء وخلفائهم.

إن هذه الدعوة دعوة إلى دين الله، لا لشخص الداعي ولا قومه أو عشيرته أو حزبه، الدعوة بالحكمة. والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه ﴿**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾ [النحل: ١٢٥].

ونظرة في تاريخ هذا الدين تتجلى لك روح الدعوة، فالله تعالى ما أرسل نبياً إلى عباده وآتاه الكتاب والشريعة، إلا آتاه معهما شيئاً سمّاه «الحكمة» ليُعلِّم عباد الله ويجعلهم يتعاونون على بصيرة، قال تباركت أسماؤه: ﴿**فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة**﴾ [النساء: ٥٤]، وقال: ﴿**ويُعلِّمه الكتاب والحكمة**﴾ [آل عمران: ٤٨]، وقال: ﴿**وآتيناه الحكمة**﴾

---

(١) أبو الحسن الندوي: دعوة جديدة، المسلمون، المجلد السادس ص ٥٢٠ - ٥٢٤، بتصرف.

[ص: ٢٠]، وقال: ﴿قد جئتكم بالحكمة﴾ [الزخرف: ٦٣]، وقال: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يُؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فما هذه الحكمة يا ترى؟ نور العلم والبصيرة وملكة التدبُّر والتأمُّل في الكتاب والتفقُّه في الدين ومعرفة أصوله وأسراره، فكلما جاء من الله نبي، أعطى أتباعه هذه الحكمة مع الكتاب وبها ظلُّوا قائمين على الصراط المستقيم، ثم أتى عليهم عصر من الجهل والتقليد الأعمى غابت فيه الحكمة وبقي الكتاب، فظلوا إلى مدة يسلكون الطريق الذي تركهم عليه أسلافهم وما معهم إلا الكتاب وحده، ولكن نشأ فيهم الاستعداد لقبول الضلالات إذ لم يبق لديهم ذلك الشيء الذي يفهمون به الكتاب ويميزون به الضلالة من الهدى، فبذلك أخذت أقدامهم تنحرف شيئاً فشيئاً عن الصراط المستقيم، فاتَّبع بعضهم أهواء نفوسهم، واتَّبع بعضهم الظن والمجازفة، واحتذى بعضهم آثار الأمم الضالة المضلَّة، واتخذ بعضهم أئمة السوء والضلال أرباباً من دون الله، حتى غاب الكتاب مع الحكمة وشُوِّه وجه الدين الذي جاءت به الأنبياء والرسل(١).

إن الدعوة إلى الله بالحكمة ترافقها الموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بالتشهير والتحقير، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

الدعوة بالحكمة والحسنى، فلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح، فالدعوة في سبيل الله، لا في سبيل ذات الداعية أو حزبه أو عشيرته، ونصرة رأي وهزيمة الرأي الآخر!

---

(١) أبو الأعلى المودودي: الإسلام دين العقل والعلم، المسلمون، المجلد السادس ص ٢٤٠.

هذه الدعوة هي التي سرت في العالم في كل حين. هذا هو الطريق الذي حفظ الإسلام في كل عصر، وإليه يرجع الفضل في تغيير النفوس المنحرفة فتغيرت أحوال المسلمين إلى مجد وعز عظيم.

وبفضل هذه الدعوة الحكيمة، وظهور دعاة مخلصين مجددين، وشخصيات ملهمة حكيمة أسلمت لله رب العالمين، وأحسنت فقه الإسلام وفقه الدعوة، سيعود الإسلام أقوى وأفضل، ويتدرج المسلمون في الصلاح والخير إلى مجد جديد.

وإن طبيعة هذه الدعوة تخالف طبيعة السياسة والجمعيات والأحزاب اليوم، وإن كانت لها قدوة ففي سيرة الأنبياء وسيرة خلفائهم كالحسن البصري، وأحمد بن حنبل، وأبي حامد الغزالي، وعبد القادر الجيلي، وابن الجوزي الحنبلي، وابن تيمية، والشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي الهندي[1].

إنها فريضة لا تحتمل التأخير، ولا تأخير يوم واحد. فالعالم الإسلامي يواجه اليوم ردة عنيفة منتشرة في أعز أبنائه وأقوى أجزائه، إنها ثورة على أعز ما يمسكه من عقيدة وخلق وقيم، ولا بقاء للعالم الإسلامي بعد ضياع هذه الثروة التي جمعها الرسول ـ ﷺ ـ وتوارثتها الأجيال وجاهد في سبيلها أبطال الإسلام»[2].

لقد قام هذا العالم الكبير منذ أن هبط آدم ـ عليه السلام ـ ذلك الإنسان الأول، الذي تنتسب البشرية كلها إليه، قام هذا العالم منذ ذلك الحين على أساس العقيدة الواحدة والإيمان العميق، والصلة الروحية، ثم تكاثرت الإنسانية وتوزعت في أرجاء الأرض كلها، فكان الإيمان أوسع عالم

---

(١) الإمام الكبير والداعية الإسلامية الصوفي سنة ١٠٣٤ هـ. انظر حياته في المسلمون المجلد السادس ص ٦٢٤ وبعض علمه ودعوته ودعوة تلاميذه عادت الهند إلى الإسلام أقوى وأفضل مما كانت تترامى عليه من جاهلية برهمية.

(٢) الندوي: ردة جديدة، المسلمون، المجلد السادس ص ٤٢٠.

عرفه التاريخ، إذ كان هذا الإيمان هو الأساس، وهو الموجِّه، وهو الضابط. ثم تنحرف البشرية عن هذا الإيمان شيئاً فشيئاً.. ويتمطى الانحراف مع مرور الأيام، ويقود الناس إلى التوجُّه في تلقي الشرائع والتقاليد والأخلاق التي تحكم حياة الناس من دون الله، وترتكس البشرية إلى جاهلية، وكان قدر الله أن يرسل رُسلاً من البشر ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فهم مصدر الهدى في هذه الأرض. المصدر الواحد الذي يقرر الله ـ سبحانه ـ أنه هو هدى الله، والذي يجب اتباعه، وكانت الرسالات وكانت الرسل على مدى التاريخ الإنساني الطويل.

ألا فلنتَّجه بالدعوة الإسلامية إلى الحيارى التائهين؛ بإخلاص ونزاهة، وتوجُّع وشفقة، وبقوة وثقة وإيمان، وحكمة تملؤها الرحمة، ولننظر إلى أنفسنا كدعاة إلى الحق نقتفي طريق الأنبياء والرسل في دعوتهم، ولنستخدم جذوة الإيمان، هذا النور الإلهي العجيب الذي يقذفه الله ـ سبحانه ـ في قلوب المؤمنين، هذه القوة الجبارة في تغيير مصيرنا ومصير العالم، ولنحتل بفضلها مكان الزعامة والقيادة في ركب الإنسانية ومصاف الأمم بعدما عشنا زمناً طويلاً في مؤخر الركب، وفي صف العبيد والحاشية. ولنتَّجه بهذه الدعوة المقدسة المنصورة التي إما أن تُقبل فترفع وتُؤمّن، وإما تُرفض فتُهلك وتَقْهر. بهذه الدعوة التي أوجب الله على نفسه نصرها ونصر رجالها ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويُثبِّت أقدامكم﴾ [محمد: ٧].

ألا فلنتَّجه بالدعوة الإسلامية إلى النفوس الظامئة لمُتعرِّفة، ولننظر إلى مهمتنا وهي حمل الدعوة وأداء الرسالة، لا إحداث الخير ولا إحداث السوء، ولا تغيير الأحوال، ولا أي شيء.. فهذا من أمر الله.

إن رجال الدعوة وطلائع البعث الإسلامي التي تواجه الجاهلية الشاملة في الأرض كلها، سيُعانون الغربة في هذه الجاهلية والوحشة، كما سيعانون الأذى والمطاردة والسحق والتعذيب والتنكيل.

إن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل، وبوازل تزعزع،

وهي تثبت فلا تضطرب، وتثق بالله رب العالمين فلا ترتاب وتظل مستقيمة موصولة. لذلك لا بد من دراسة «السنّة الراشدة في مفهوم النبوة والرسالة الواحدة»، فنرى فيها الكثير مما يَسّرهُ اللّهُ للقلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق، وأخطار الرحلة لتحزم أمرها وتحتسب وتستقيم ولا ترتاب عندما تدلهم الأفق ويظلم الجوّ وتَتَناوحها عواصف الظُلم والبغي، ورياح الجاهلية الطاغية. فالإيمان قوة دافعة وطاقة مجمعة. فما تكاد تكون حقيقة تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل ولتحقق ذاتها في الواقع ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة، كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها وتدفعها في الطريق. ذلك سرّ قوة العقيدة في النفس، وسرّ قوة النفس في العقيدة، سرّ تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض، وما تزال كل يوم تصنعها، الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الأخرى والكبرى التي لا تفنى، وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان، وقوى المال، وقوى الحديد والنار، وإذا كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن، وما هو الفرد العالي المحدود لدي هزم القوى جميعاً، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف.

إن «السنّة الراشدة في مفهوم النبوة والرسالة الواحدة» تصف تجارب الدعوة في الأرض، وترسم دورات العلاج للدائم الثابت المتكرر للبشرية، وتصور أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل.

هذه التجارب تكشف صور البشرية العنيدة، الضالة، الذاهبة وراء القيادات المُضلّة، المستكبرة عن الحق، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان.

هذه التجارب تعرض صور الجهد المضني، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ لهداية

هذه البشرية الضالة العنيدة للعصبية الجامحة. وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية. ولا مكافأة ولا جُعل يحصلونه على حصول الإيمان!

ألا فلنتحدَّ بهذه الدعوة ولنا أسوة حسنة في رُسل الله، وإنه لينبغي أن تمتلىء القلوب بالثقة بالله حتى تفيض. وتتوكل على الله وحده في وجه الجاهلية المتعالية. وفي وجه الطاغوت المستكبر أيًّا كان..

إن هذا القرآن يقصّ على الناس أكثر الذي هم فيه يختلفون، ففيه الهدى والرحمة، وبين أيدينا أخبار الأنبياء وتاريخ أبطال الإسلام منذ نزول الوحي إلى الأرض حتى الأمس القريب، ولنمضِ في الباب التالي مع «السنة الراشدة في مفهوم النبوة والرسالة الواحدة»

الباب الثاني

السنة الراشدة في مفهوم النبوة والرسالة الواحدة

(سماتها وخصائصها ونظامها)

السنة الراشدة في مفهوم النبوة والرسالة الواحدة

(سماتها وخصائصها ونظامها)

المقياس الثابت المطلق الوحيد:

الحياة في ظلال الإسلام نعمة وسلام، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، وسلام لا يعرفه إلا قلب سَلِم لله، ومن ثم هي طمأنينة وسكينة: طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها ورباطة جأشها في مواجهة الأحداث في رحلة الحياة... إن الرحلة طويلة وشاقة وحافلة بالأخطار، والحاجة إلى السند الذي لا يهن، والحبل الذي لا ينقطع، حاجة ماسة دائمة. والعروة الوثقى هي عروة الإسلام لله والاستسلام والإحسان.

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح، الذي يُقرأ بكل لغة، ويُدرك بكل وسيلة، ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ. والمتحضر ساكن العمائر والقصور، كلٌ يطالعه بقدر إدراكه واستعداده، فيجد فيه زاداً من الحق، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق. وهو قائم مفتوح في كل آن ﴿تبصرة وذكرى لكل عبْد منيب﴾ [ق: ٨]، ولكن علم الحضارة الغربية يطمس هذه التبصرة أو يقطع تلك الوشيجة بين القلب البشري والكون الناطق المبين، لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة «المنهج العلمي»، المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق التي تعيش فيه!.

وطريقة القرآن في بناء العقيدة تتجلى في مخاطبة الفطرة البشرية، وفي تناول الدلائل الإيمانية، وفي التلطف إلى النفوس في بساطة ويُسر،

وهو يتناول أكبر الحقائق في صورها القريبة الميسورة

إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة، قضايا كونية كبرى، يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود. وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوّراً كاملاً لهذا الوجود، كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير، وحياة للأرواح والقلوب، ويقظة في المشاعر والحواس، يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها، ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها!!

إنه لا يكِلُ الناس إلى الحوادث الفذّة الخارقة والمعجزات الخاصّة المعدودة، كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيداً عن أنفسهم، ولا عن مألوف حياتهم، ولا عن الظواهر الكونية الجارية المعروفة لهم. إنه لا يُبعد بهم في فلسفات مُعقّدة، أو مشكلات جدليّة غامضة، أو تجارب علميّة لا يملكها كلّ أحد... لكي يُنشئ في نفوسهم عقيدة، وتصوّراً للكون والحياة قائماً على هذه العقيدة

إنه يقفهم أمام منطق فطرتهم، حين تواجه الكون، فلا تجد مناصاً من الاعتراف بالحقيقة الكامنة فيه وفي فطرة الكون على السواء ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض؟ ليقولُنَّ الله. قل: الحمد لله. بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [لقمان: ٢٥].

وما يملك الإنسان حين يستفتي فطرته ويعود إلى ضميره أن يُنكر هذه الحقيقة الواضحة الناطقة، فهذه السماوات والأرض قائمة، مقدرة أوضاعها وأحجامها وحركاتها وأبعادها، وخواصها وصفاتها، مقدرة تقديراً يبدو فيه القصد، كما يبدو فيه التناسق، وهي قبل ذلك خلائق لا يدّعي أحد أنه خلَقها، ولا يدّعي أحد أن خالقاً آخر غير الله شارك فيها، ولا يمكن أن توجد هكذا بذاتها، ثمّ لا يمكن أن تنتظم وتتّسق وتقوم وتتناسق بدون تدبير، وبدون مدبّر. والقول بأنّها وُجدت وقامت تلقائياً أو فلتةً أو مصادفةً لا يستحقُّ احترام المناقشة، فضلاً على أنّ الفطرة من أعماقها تُنكره وتردّه.

إنّ الناس أنفسهم من صنع الله ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدّقون!﴾ [الواقعة: ٥٧]. وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته، والمعجزة كامنة في كل ما تبدعه يده، وهذا القرآن قرينه. ومن ثمّ يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة في الكون من حولهم، يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم، التي يرونها ولا يحسّون حقيقة الإعجاز فيها؛ لأنهم لطول ألفتهم لها غفلوا عن موضع الإعجاز فيها، يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها، فتطّلع على السرّ الهائل المكنون فيها، سرّ القدرة المبدعة، وسرّ الوحدانيّة المفردة، وسرّ الناموس الأزلي الذي يعمل في كيانهم هم أنفسهم كما يعمل في الكون من حولهم، والذي يحمل دلائل الإيمان، وبراهين العقيدة، فيبثّها في كيانهم، أو يوقظها في فطرتهم بتعبير أدق.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنّه يخاطب الفطرة البشريّة التي هي مصدره(١)، فهو يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادّة لبناء

---

(١) من هذه الآيات ﴿أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون. نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون.

أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكّهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون.

أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون.

أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين. فسبّح باسم ربك العظيم﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٧٤].

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رُفعت. وإلى الجبال كيف نُصبت. وإلى الأرض كيف سُطحت. فذكّر إنما أنت مذكّر..﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢١]..

﴿فلينظر الإنسان ممّ خُلق. خُلق من ماءٍ دافق يخرج من بين الصُّلب والترائب. إنه على رجعه لقادر..﴾ [الطارق: ٥ ـ ٨]..

﴿أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها. رفع سمكها فسوّاها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣]..

أضخم عقيدة دينيّة وأوسع تصوّر كوني.. المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان: النّسل، والزّرع، والماء، والنّار، والموت.. أيُّ إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه؟ أيُّ ساكنِ كهفٍ لم يشهد نشأة حياة جنينية، ونشأة نبتة، ومسقط ماء، وموقد نار، ولحظة وفاة!

كل هذه وأمثالها من مشاهدات البشر المألوفة وغيرها في العالم المغيب المجهول هي: ﴿صُنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ [النحل: ٨٨]..

وهذا الموت الذي ينتهي إليه كلّ حي.. منْ ذا يدعه؟ ﴿نحن قدّرنا بينكم الموت، وما نحن بمسبوقين﴾ [الواقعة: ٦٠]، ما هو الموت؟ وكيف يقع؟ وأي سلطان له لا يقاوَم؟..

إنّه قدر الله الذي يمضي إليه كلّ حيّ، ومن ثمّ لا يفلت منه أحد، ولا يسبقه فيفوته أحد.. وهو حلقة في سلسلة النّشأة التي لا بدّ أنْ تتكامل لعمارة الأرض والخلافة فيها، والله الذي قدّر الموت هو الذي قدّر الحياة. قدّر الموت على أن يُنشيء أمثال مَن يموتون، حتى يأتي الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا..

والموت والحياة من خلْق الله، وهذه الحقيقة البدهية تثير في القلب المفتوح اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء، فليست المسألة مصادفة بلا تدبير، وليست كذلك جزافاً بلا غاية، إنّما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسيّ على الأرض، واستحقاقهم للجزاء على العمل: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [الملك: ٢]..

واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبداً يقظاً حذراً متلفتاً واعياً للصغيرة والكبيرة في النيّة المستترة والعمل الظاهر.

وبعْدُ، فالمنهج الإيماني لا يُنقص شيئاً من ثمار «المنهج العلمي» في إدراك الحقائق المفردة، ولكنّه يزيد عليه ربط هذه الحقائق المفردة بعضها

بعضه، وردّها إلى الحقائق الكبرى، ووصل القلب البشري بها، أي وَصْله بنواميس الكون وحقائق الوجود. وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر النّاس وحياتهم..

إنّ الله في الحقيقة التي يُصوّرها الإسلام لتستقر في القلوب لا يُطارد البشر، ولا يعنتهم، ولا يحب أن يعذّبهم، إنّما يريد لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم، وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم، وأن يحققوا تكريم الله بنفخة روحه في هذا الكيان وتفضيله على كثير من خلقه

إنّه طريق الله ربِّ العالمين، مبدع الكون، وخالق الإنسان، ومُنزّل القرآن ﴿ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا﴾ [النساء: ٥٩]..

ذلك خير لكم وأحسن مآلا: خيرٌ في الدنيا وخيرٌ في الآخرة، وأحسن مآلاً في الدنيا وأحسن مآلا في الآخرة كذلك... فليست المسألة أنّ اتباع المنهج الإسلامي يؤدّي إلى رضاء الله وثواب الآخرة - وهو أمر هائل، عظيم - ولكنّه كذلك يحقّق خير الدنيا وحسن مآل الفرد والجماعة في هذه الحياة القريبة.

إنّ هذا المنهج معناه أن يستمتع «الإنسان» بمزايا منهج يضعه له الله... الله الصانع الحكيم العليم البصير الخبير... منهج بريء من جهل الإنسان، وهوى الإنسان، وضعف الإنسان، وشهوة الإنسان... منهج لا مُحاباة فيه لفرد، ولا لطبقة، ولا لشعب، ولا لجنس، ولا لجيل من البشر على جيل... لأنّ الله ربُّ الجميع، ولا تخالجه - سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً - شهوة المحاباة لفرد، أو طبقة، أو شعب، أو جنس، أو جيل

ومنهج من مزاياه، أنّ صانعه هو صانع هذا الإنسان... الذي يعلم حقيقة فطرته، والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة، كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها؛ ووسائل خطابها وإصلاحها، فلا يخبط - سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً - في تيه التجارب بحثاً عن منهج يوافق، ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية، حين يخبطون هم في التيه بلا دليل! وحسبهم أن

يُجربها في ميدان الإبداع المادي كما يشاءون. فهو منهج فسيحٌ جدُّ فسيح للعقل البشري، وحسبهم كذلك أن يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج، ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتسع فيه العقول.

والمنهج من مزاياه أنَّ صانعه هو صانع هذا الكون، الذي يعيش فيه الإنسان. فهو يضع للإنسان منهجاً تتلاءم قواعده مع نواميس الكون، فلا يروح يُصارع هذه النواميس، بل يروح يتعرَّف إليها، ويصادقها، وينتفع بها. والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه.

والمنهج من مزاياه أنّه ـ في الوقت الذي يهدي فيه الإنسان ويحميه ـ يكرمه ويحترمه ويجعل لعقله مكاناً للعمل في المنهج ـ مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة، ثم الاجتهاد في ردّ ما لم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادئ العامّة للدين ـ ذلك إلى المجال الأصيل الذي يحكمه العقل البشري، ويعمل فيه بسيادته الكاملة: ميدان البحث العلمي في الكون، والإبداع المادي فيه..

إنّ لهذا الكون الذي نعيش فيه، والذي نحن قطعة منه، سُنناً ثابتة يقوم عليها. هذه السنن هي النواميس الكونيّة التي أودعها الله هذا الكون ليسير على وفقها، ويتحرّك بموجبها، ويعمل بمقتضاها.

والإنسان يكتشف عن أطراف من هذه النواميس كلّما ارتقى في سلّم المعرفة. يكشف عنها ـ أو يُكشف له عنها ـ بمقدار إدراكه المحدود، المُعطى له بالقدر الذي يلزمه لنهوضه بمهمّة الخلافة في الأرض، في أمد محدود.

ويعتمد الإنسان في معرفة هذه الأطراف من النواميس الكونيّة على وسيلتين أساسيتين ـ بالقياس إليه ـ هما الملاحظة والتجربة، وهما وسيلتان جزئيتان في طبيعتهما، وغير نهائيتين ولا مُطلقتين في نتائجهما، ولكنّهما تقودان أحياناً إلى أطراف من النواميس الكلّيّة في آماد متطاولة من الزّمان ثمّ يظلّ هذا الكشف جزئياً غير نهائيٍّ ولا مطلق؛ لأنّ سرّ التناسق بين تلك

القوانين كلها، هو سرّ الناموس الذي يُنسّق بين القوانين جميعها. هذا السرّ يظلّ خافيًا، لا تهتدي إليه الملاحظة الجزئيّة النسبيّة، مهما طالت الآماد.

إنّ الزمن ليس هو العنصر النهائي في هذا المجال، إنما هو الحدّ المقدور للإنسان ذاته، يحكم تكوينه، ويحكم دوره في الوجود، وهو دور جزئي ونسبي.

ثمّ تجيء كذلك نسبيّة الزمن الممنوح للجنس البشري كله على وجه الأرض وهو بدوره جزئيّ ومحدود... ومن ثمّ تبقى جميع وسائل المعرفة، وجميع النتائج التي يصل إليها البشر عن طريق هذه الوسائل، محصورة في تلك الدائرة الجزئيّة النسبيّة.

هنا يجيء دور الرسالة. دور الطبيعة الخاصّة التي آتاها الله الاستعداد اللدُنّي للتجاوب في أعماقها ـ بطريقة ما يزال يجهل طبيعتها ـ وإن كنّا ندرك آثارها ـ مع ذلك الناموس الكلي، الذي يقوم عليه الوجود.

هذه الطبيعة الخاصّة هي التي تتلقى الوحي؛ فتطيق تلقيه، لأنّها مُهيأة لاستقباله... إنّها تتلقى الإشارة الإلهية التي يتلقاها هذا الوجود؛ لأنّها مُتصلة اتصالاً مباشرًا بالنّاموس الكوني الذي يصرّف هذا الوجود... كيف تتلقى هذه الإشارة؟ وبأيّ جهاز تستقبلها؟

نحن في حاجة ـ لكي نجيب ـ أن تكون لنا نحن هذه الطبيعة التي يهبها الله للمختارين من عباده! و﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾... وهي أمر عظيم أعظم من كلّ ما يخطر على البال من عظائم الأسرار في هذا الوجود.

كلّ الرسل قد أدركوا حقيقة «التوحيد» وكلّهم بُعثوا بها، ذلك أنّ إيقاع النّاموس الواحد في كيانهم كله، هداهم إلى مصدره الواحد الذي لا يتعدد ـ لا يتعدد وإلا لتعددت النواميس وتعدد إيقاعها الذي يتلقونه ـ وكان هذا الإدراك في فجر البشريّة، قبل أن تنمو المعرفة الخارجيّة، المبنية على الملاحظة والتجربة، وقبل أن تتكشف بعض القوانين الكونيّة، التي تشير إلى

تلك الوحدة، ولكنهم دعوا إلى عبادة الله الواحد. دعوا إلى هذه الحقيقة التي تلقوها وأمروا أن يبلغوها. وكان إدراكهم لها هو المنطق الفطري الناشىء من إيقاع النّاموس الواحد في الفطرة الواصلة، كما كان نهوضهم لتبليغها هو النتيجة الطبيعيّة لإيمانهم المطلق بكونها الحقيقة، وبكونها صادرة إليهم من الله الواحد، الذي لا يمكن - وفق الإيقاع القويّ الصّادق الملزم الذي تلقته فطرتهم - أن يتعدد!

وهذا الإلزام المُلح الذي تستشعره فطرة الرّسل يبدو أحياناً في كلمات الرّسل التي يحكيها عنهم هذا القرآن، أو التي يصفهم بها في بعض الأحيان.

نجده مثلاً في حكاية قول نوح - عليه السّلام - لقومه: ﴿قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنةٍ من ربّي، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله. وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم، ولكني أراكم قوماً تجهلون. ويا قوم مَن ينصرني من الله إن طردتهم؟ أفلا تذكرون؟﴾ [هود: ٢١ - ٣٠]

ونجده في حكاية قول صالح - عليه السّلام -: ﴿قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنةٍ من ربِّي وآتاني منه رحمة، فمن ينصرني من الله إن عصيته؟ فما تزيدونني غير تخسير﴾ [هود: ٦٣]..

ونجده في سيرة إبراهيم - عليه السّلام -: ﴿وحاجّهُ قومه. قال أتحاجُّوني في الله وقد هدان؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربِّي شيئاً. وسع ربِّي كلَّ شيء علماً. أفلا تتذكرون؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً؟ فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون؟﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١].

ونجده في قصّة شعيب - عليه السّلام -: ﴿قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنةٍ من ربِّي ورزقني منه رزقاً حسناً؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما

أنهاكم عنه، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب﴾ [هود: ٨٨].

ونجد في قول يعقوب - عليه السلام - لبنيه: **﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** [يوسف: ٨٦].

وهكذا نجد في أقوال الرسل وأوصافهم أثر ذلك الإيقاع العميق الملح على فطرتهم، والذي تشي كلماتهم بما يجدونه منه في أعماق الضمير!

ويوماً بعد يوم تكشف المعرفة الإنسانية الخارجية ظواهر تشير من بعيد إلى قانون الوحدة في هذا الكون الذي يُسيره الإله الواحد. واطّلع العلماء من البشر على ظاهرة وحدة التكوين ووحدة الحركة في هذا الكون العريض.

ووحدة التكوين ووحدة الحركة في هذا الكون هما الظاهرتان اللتان اهتدى إليهما الإنسان... وهما إشارتان من بعيد إلى قانون الوحدة الشامل الكبير، وقد سبقت إليهما المعرفة البشرية بقدر ما تطيق الملاحظة والتجربة البشرية أن تبلغ. أما الطبائع الخاصة الموهوبة، فقد أدركت القانون الشامل الكبير كله في لمحة، لأنها تتلقى إيقاعه المباشر، وتطيق وحدها تلقيه.

إنهم لم يجمعوا الشواهد والظواهر على ثبات الوحدة عن طريق التجارب العلمية. ولكن لأنهم وُهبوا جهاز استقبال كاملاً مباشراً، استقبلوا إيقاع الناموس الواحد استقبالاً داخلياً مباشراً؛ فأدركوا إدراكاً مباشراً أن الإيقاع الواحد لا بد منبعث عن ناموس واحد، صادر من مصدر واحد، وكان هذا الجهاز اللدني في تلك الطبائع الخاصة الموهوبة أدق وأشمل وأكمل. لأنه أدرك في لمسة واحدة ما وراء وحدة الإيقاع من وحدة المصدر، ووحدة الإرادة والفاعلية في هذا الوجود، فقرّر - في إيمان - وحدة الذات الإلهية **المُصرِّفة لهذا الوجود.**

وما نسوق هذا الكلام لأنّ العلم الحديث يرى أنه قد أدرك ظاهرة أو ظاهرتين من ظواهر الوحدة الكونية، فالعلم يثبت أو ينفي في ميدانه. وكلّ ما

يصل إليه من «الحقائق» نسبيٌّ جزئيٌّ مُقيد؛ فهو لا يملك أن يصل أبداً إلى حقيقة واحدة نهائية مُطلقة، فضلاً على أن نظريات العلم قُلَّب، يُكذِّبُ بعضها بعضاً، ويُعَدِّل بعضها بعضاً.

وما نذكر شيئاً عن وحدة التكوين ووحدة الحركة لنقرن إليهما صدق الاستقبال لوحدة الناموس في حسّ الرُّسل. . كلا. . إنما نقصد إلى أمر آخر، قصدنا إلى تحديد مصدر التلقي المعتمد لتكوين التصوّر الصّادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود.

إنّ الكشف العلمي ربّما يكون قد اهتدى إلى بعض الظواهر الكونيّة المتعلقة بحقيقة الوحدة الكبرى. . هذه الوحدة التي لمست حسّ الرّسل من قبل في محيطها الواسع الشامل المُباشر، والتي أدركتها الفطرة البدنية إدراكاً كاملاً شاملاً مباشراً.

وهذه الفطرة صادقة بذاتها ـ سواء اهتدت نظريات العلم الحديث إلى بعض الظواهر أو لم تهتد ـ فنظريات العلم موضع بحث ومراجعة من العلم ذاته، وهي ليست ثابتة أولاً، ثُمّ إنها ليست نهائية ولا مُطلقة أخيراً، فلا تصلح إذن أن تُقاس بها صحة الرّسالة. فالمقياس لا بدّ أن يكون ثابتاً وأن يكون مطلقاً

ومن هنا فالرّسالة هي المقياس الثابت المطلق للتوحيد

الصراط المستقيم:

وينشأ عن هذه الحقيقة حقيقة أخرى ذات أهمية قصوى

إن هذه الطلائع الخاصّة الموصولة بناموس الوجود صلةً مباشرة، هي التي تملك أن ترسم للبشريّة اتجاهها الشامل، اتجاهها الذي يتّسق مع فطرة الكون وقوانينه الثابتة وناموسه المُطَّرد. هي التي تتلقى مباشرة وحي الله، فلا تخطيء ولا تضل، ولا تكذب ولا تكتم، ولا تحجبها عوامل الزّمان والمكان عن الحقيقة؛ لأنها تتلقى هذه الحقيقة عن الله، الذي لا زمان عنده ولا مكان.

ولقد شاءت الإرادة العليا أن تبعث بالرسل بين الحين والحين، لتصل البشرية بالحقيقة المطلقة، التي ما كانت ملاحظتهم وتجربتهم لتبلغ إلى طرف منها إلا بعد مئات القرون، وما كانت لتبلغ إليها كلها أبداً على مدار القرون، وقيمة هذا الاتصال هي استقامة خطاهم مع خطى الكون، واستقامة حركاتهم مع حركة الكون، واستقامة فطرتهم مع فطرة الكون، ومن ثم كان هنالك مصدر واحد يتلقى منه البشرُ التصوّر الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني. ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني.

ومن هذا التصوّر يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم، الذي يتطابق مع حقيقة تصميم الكون وحقيقة حركته، وحقيقة اتجاهه، ويدخل به الناس في السلم كافّة. السلم مع هذا الكون، والسلم مع فطرتهم وهي من فطرة هذا الكون، والسلم مع بعضهم البعض في سعيهم ونشاطهم ونموّهم ورقيهم المُهيأ لهم في هذه الحياة الدنيا.

مصدر واحد هو مصدر الرّسالات، وما عداه ضلال وباطل، لأنّه لا يتلقى عن ذلك المصدر الوحيد الواصل الموصول.

إنّ وسائل المعرفة الأخرى المتاحة للإنسان، مُعطاةٌ له بقدر، ليكشف بها بعض ظواهر الكون وبعض قوانينه وبعض طاقاته، بالقدر اللازم له في النهوض بعبء الخلافة في الأرض، وتنمية الحياة وتطويرها. وقد يصل في هذا المجال إلى آماد بعيدة جداً. ولكن هذه الآماد لا تبلغ به أبداً إلى محيط الحقيقة المطلقة التي هو في حاجة إليها ليكيّف حياته - لا وفق الأحوال والظروف الطارئة المحددة فحسب، ولكن وفق القوانين الكونيّة الثابتة المُطّردة التي قام عليها الوجود، ووفق الغاية الكبرى للوجود الإنساني كلّه، هذه الغاية التي يراها خالق الإنسان المتعالي عن ملابسات الزّمان والمكان، ولا يراها الإنسان المحدود المتأثر بملابسات الزّمان والمكان.

إنّ الذي يضع خطّة الرّحلة للطّريق كلّه، هو الذي يدرك الطّريق كلّه.

والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطّريق، بل هو محجوب عن اللحظة التّالية، ودونه ودونها سترٌ مُسبل لا يُبيح لبشرٍ أن يطلع وراءه! فأنّى للإنسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول؟!

إنّه إمّا الخبط والضلال والشرود، وإمّا العودة إلى المنهج المُستمد من خالق الوجود؛ منهج الرّسالات، ومنهج الرسل، ومنهج الفطر الموصولة بالوجود وخالق الوجود.

«ويلحّ القرآن الكريم على أنّ الرسل والأنبياء هم الأدلاّء على ذات الله وصفاته الحقيقية، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة التي لا يشوبها جهل ولا ضلال، ولا سوء فهم ولا سوء تعبير، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم، لا يستقلّ بها العقل، ولا يُغني فيها الذكاء، ولا تكفي سلامة الفطرة، وحدّة الذهن، والإعراق في القياس، والغنى في التجارب، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنّة، وهم أهل الصّدق وأهل التجربة، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كُنّا لِنهتدي لولا أن هدانا الله﴾، وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم: ﴿لقد جاءت رُسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف: ٤٣]، فدلَّ على أن الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى وعلم مرضاته وحكامه والعمل بها، وبذلك تمكنوا من الدخول في الجنة والوصول إلى دار النعيم.

وقد ختم الله تعالى سورةً جليلة من سُور القرآن وهي سورة الصافات، ونعى فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء، فقال في آخر السورة: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، والآيات الثلاث حلقات متصلة بعضها ببعض، فلما نزّه الله نفسه العلية بما يتفوّه به المشركون، ذكر المرسلين الذين جاءوا بالتنزيه والتقديس الكاملين، والوصف الصحيح البليغ، وسلّم وأثنى عليهم لأنهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق، وفي الوصف الصحيح الصّادق، وكانت بعثتهم منة

على الخلق، ونعمة على الإنسانيّة، ومن مقتضيات الربوبيّة الرّحيمة الحكيمة، فختم كلّ ذلك بقوله: ﴿والحمد لله ربّ العالمين﴾ [الصافات: ١٨٢]..»[1].

وعلى هذا فمن الواجب أن ننظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن، وبمنظار القرآن، ونستعرض كتاب الله لنعرف مداها وآفاقها الواسعة وأعماقها الغائرة وحدودها العميقة في الحياة الإنسانية، وسيطرتها على العقول والنفوس، والأخلاق والميول، وتأثيرها في تكوين الأُسر وتشكيل المجتمعات، وقيادتها للمدنيّات، بل تأسيسها لحضارة خاصّة مُتميزة في كل شيء، متوازية للجاهلية، مقابلة لها على طول الخط.»[2].

لقد تفرّد الأنبياء بمعرفة ذات الله وصفاته وحكمه ومرضاته، وبخواص العقائد والأعمال والأخلاق، صحيحها وسقيمها، وصالحها وفاسدها، وما تجرّ وتستتبع من سعادة وشقاء في الدنيا، وثواب وعقاب، وجنّة ونار في الآخرة، وخصّهم الله ـ بقدر ما يريد ـ بعلم ما يكون بعد هذه الحياة، وفي ذلك العالم من حشر ونشر، وإنعام وعذاب، ونعيم وجحيم: ﴿**عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً. إلا مَن ارتضى من رسول**﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]..

لقد وقفوا ـ صلى الله عليهم وسلم ـ على جبل النبوّة يشرفون منها ـ بقدر ما يريد الله ـ على عالَم الغيب والشهادة، ويُخبرون بما يهجم على هذه البشرية وعلى هذه المدنيّة في المستقبل القريب والبعيد، وما يكمن لها من خطر وضرر، ثم يُنذرون قومهم شفقةً وإشفاقاً وحُبّاً وإخلاصاً، فإذا نازع منازع هذا الحق الطبيعي العقلي، وهذه البداهة، وشكّ أو شكّك في مركزهم، قالوا في نصيحة وإخلاص وتألُّم وإشفاق: ﴿**قل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّة، إن**

(١) أبو الحسن الندوي «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» ص ١٧ ـ ١٩

(٢) المصدر السابق ص ٧.

هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ [سبأ: ٤٦]. »[1].

هذه دعوة الرسل.. دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق، ومعرفة الافتراء من الصدق، وتقدير الواقع الذي يواجه الناس من غير زيف ولا دَخَل.

إنها دعوة إلى القيام لله رب العالمين.. بعيداً عن الهوى. بعيداً عن المصلحة.. بعيداً عن ملابسات الأرض. بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب، فتبعد به عن الله بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة والمؤثرات الشائعة في الجماعة دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ، الصافي، بعيداً عن الضجيج والخلط واللبس، والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة. والله ـ سبحانه ـ يصطفي من يشاء من عباده لحمل هذه الأمانة العظيمة:

﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً. وآل إبراهيم وآل عمران. على العالمين. ذرية بعضها من بعض. والله سميع عليم﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

وهذه الآية تبين من اصطفاهم الله من عباده واختارهم لحمل الرسالة الواحدة بتبليغ الواحد بعد الآخر هذه الحقيقة، ليكونوا طلائع الموكب الإيماني في شتى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون، فيقرر أنهم ذرية بعضها من بعض، وليس من الضروري أن تكون ذرية النسب ـ وإن كان نسب الجميع يلتقي في آدم ونوح ـ فهي أولاً رابطة الاصطفاء والاختيار الإلهي، ونسب هذه العقيدة الموصول في ذلك الموكب الإيماني الكريم

ويذكر القرآن الكريم الأنبياء والرسل تارة بالاصطفاء والاجتباء، وطوراً بالحب والرضا، وتارة بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية

(١) المصدر السابق ص ١٧.

والعلميّة[1]، كل ذلك يدلّ على أنّهم صفوة الخلق، ونمثل الكامل للإنسانية، وهم أقوى البشر وأجدرهم بحمل رسالات الله، ودعوة الخلق إلى الله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[2] [الأنعام: ١٢٤].

ولقد ذكرت الآية الكريمة ﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً﴾ فردين، وذكرت ﴿آل إبراهيم وآل عمران﴾ أسرتين، إشارة إلى أنّ آدم بشخصه ونوح بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء، فأمّا إبراهيم وآل عمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك ـ على القاعدة التي قرّرها القرآن عن آل إبراهيم: قاعدة أنّ وراثة النبوّة والبركة في بيته ليست وراثة دم، إنّما هي وراثة العقيدة ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهنّ قال: إنّي جاعلك للنّاس إماماً قال: ومن ذريتي؟ قال لا ينالُ عهدي الظّالمين﴾ [البقرة: ١٢٤]..

ويقول الله تعالى: ﴿وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنّ ربك حكيم عليم. ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا

---

(١) يقول عن إبراهيم: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين﴾ [الأنبياء: ٥١]. ويقول: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ [النساء: ١٢٥]، ويقول: ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١١١]، ويقول: ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾ [هود: ٧٥]

ويقول عن إسماعيل: ﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ [مريم: ٥٥]

ويقول عن موسى: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ [طه: ٤١]، ويقول: ﴿وألقيتُ عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾ [طه: ٣٩]، ويقول: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ويقول عن داوود: ﴿واذكر عبدنا داوود ذا الأيد إنه أوّاب﴾ [ص: ١٧]

ويقول عن سليمان: ﴿نعم العبد إنه أوّاب﴾ [ص: ٣٠]، وكذلك يقول عن النبي أيوب [ص: ٤٤].

ويذكر جماعة من الأنبياء المكرمين، فيتحدث عنهم في اختصاص وإيثار، وحبّ وإكرام، وينعتهم بأفضل النعوت: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار، واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨]

هدينا، ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كُلٌ من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكُلاً فضّلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم. ذلك هُدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون. أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٨٢ - ٨٩].

إنّ هذه الآيات تعرض موكب الإيمان الجليل، يقوده ذلك الرهط الكريم من الرّسل، ويعرض السّبق هذا الموكب مُمتداً موصولاً وبخاصّة منذ إبراهيم وبنيه من النبيين، ولا يرعى التسلسل التاريخي في هذا العرض - كما يلاحظ في مواضع أخرى - لأنّ المقصود هو هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخي.

وفي الآيات ذكرٌ لسبعة عشر نبيّاً رسولاً - غير نوح وإبراهيم - وإشارة إلى آخرين ﴿من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾، وذِكْرُ هذا الرهط على هذا النّحو، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة، كله تمهيد للتقريرات التي تليه:

﴿ذلك هدى الله يهدي به مَن يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾..

وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض. فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرّسل، وينحصر المستيقن منه، والذي يجب اتباعه، في هذا المصدر الواحد، الذي يقرّر الله - سبحانه - أنه هو هدى الله، وأنه هو الذي يهدي إليه مَن يختار من عباده..

ولو أنّ هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله، وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة

أو التلقي. فإنّ مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم: أي أن يذهب ضائعاً، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً فتنتفخ ثمّ تموت. وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط!

﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾.

وهذا هو التقرير الثاني. فقرّر في الأول مصدر الهدى، وقصَرَه على هدى الله الذي جاءت به الرّسل، وقرّر في الثاني أنّ الرّسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة، فهؤلاء الرُّسل أنزل الله على بعضهم الكتب كالتوراة مع موسى، والزّبور مع داود، والإنجيل مع عيسى، وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان - وكلهم أوتي السلطان على معنى أنّ ما معه من الدين هو حكم الله، وأنّ الدين الذي جاءوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور.

فما أرسل الله الرّسل إلا ليُطاعوا، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين النّاس بالقسط، كما جاء في الآيات الأخرى وكُلُّهم أوتي الحكمة وأوتي النبوة.. وأولئك هم الذين وَكَّلَهُم الله بدينه، يحملونه إلى النّاس، ويقومون عليه، ويؤمنون به ويحفظونه. فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب **﴿هؤلاء﴾** فإنّ دين الله غنيٌ عنهم، وهؤلاء الرّهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين!.

إنّها حقيقة قديمة امتدت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته؛ ودعوة واحدة حملها رسولٌ بعد رسول؛ وآمن بها ويؤمن من يقسم الله له الهداية؛ بما يعلمه من استحقاقه للهداية!..

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. قل: لا أسألكم عليه أجراً. إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهو التقرير الثالث.. فهؤلاء الرّهط الكرام الذين يقودون موكب

الإيمان، هم الذين هداهم الله، وقد هم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله ـ ﷺ ـ ومن آمن به، فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه، وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه، وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويُبشِّر به.

رحمة واسعة وحكمة عليمة:

إنها سنّة الله في إرسال الرسل جميعاً، من عهد نوح إلى محمد. وكلّهم رُسل أُرسلوا للتبشير والإنذار. اقتضت هذا رحمة الله بعباده، وإقامة الحجة عليهم، وإنذاره لهم قبل يوم الحساب. وكلّهم جاءوا بوحي واحد، لهدف واحد، والتفرقة بينهم تعنت لا يستندُ إلى دليل.

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك. وكلّم الله موسى تكليماً رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرّسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥]..

فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدي واحد للإنذار والتبشير.. موكب واحد يضمّ هذه الصفوة المختارة من بين البشر:

نوح وإبراهيم. وإسماعيل وإسحاق. ويعقوب والأسباط. وعيسى. وأيوب ويونس وهارون وسليمان. وداود. وموسى وغيرهم ممن قصّهم الله على نبيّه ـ ﷺ ـ في القرآن، وممن لم يقصصهم عليه..

موكب من شتى الأقوام والأجناس، وشتى البقاع والأرضين، في شتى الأوان والأزمان، لا يفرقهم نسب ولا جنس، ولا أرض ولا وطن ولا زمن ولا بيئة كلّهم آت من ذلك المصدر الكريم، وكلهم يحمل ذلك النور الهادي،

وكلهم يؤدي الإنذار والتبشير، وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى ذلك النور.. سواء منهم من جاء لعشيرة، أو من جاء لقوم، أو من جاء لمدينة، أو من جاء لقطر.. ثم من جاء للناس أجمعين: محمد رسول الله - ﷺ - خاتم النبيين.

كلهم تلقى الوحي من الله، فما جاء بشيء من عنده، وإذا كان الله قد كلّم موسى تكليماً فهو لون من الوحي لا يعرف أحد كيف كان يتم، لأنّ القرآن - وهو المصدر الوحيد الصحيح الذي لا يرقى الشكّ إلى صحته - لم يقصص لنا في ذلك شيئاً، فلا نعلم إلا أنه كلّمه كلاماً.. ولكن ما طبيعته؟ كيف تمّ؟ بأيّ حاسّة أو قوّة كان موسى يتلقاه؟.. كلّ ذلك غيبٌ من الغيب لم يحدثنا عنه القرآن، وليس وراء القرآن - في هذا الباب - إلا أساطير لا تستند إلى برهان.

وكل الرسل - من قصّ الله على رسوله منهم ومن لم يقصص - اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان؛ وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب.. كل ذلك:

﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾..

ولله الحجة البالغة في الأنفس والآفاق. وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبّرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق. ولكنّه - سبحانه - رحمة منه بعباده، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم - أداة العقل - اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرّسل ﴿مبشرين ومنذرين﴾، يذكّرونهم ويبصّرونهم؛ ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق.

ونقف من هذه اللفتة ﴿لئلا يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل﴾ أمام حشد من الإيحاءات اللطيفة العميقة ونختار منه ثلاثاً على سبيل الاختصار.

نقف منها أولاً: أمام قيمة العقل البشري ووظيفته ودوره في أخطر قضايا «الإنسان». قضية الإيمان بالله؛ التي تقوم عليها حياته في الأرض من حدودها، بكلّ مقوماتها واتجاهاتها وواقعياتها وتصرفاتها، كما يقوم عليها مآله في الآخرة وهي أكبر وأبقى.

لو كان الله ـ سبحانه ـ وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلّها، يعلم أنّ العقل البشري، الذي وهبه للإنسان، هو حسب هذا الإنسان في بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته، في دنياه وآخرته، لوكله إلى هذا العقل وحده، يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، ويرسم لنفسه كذلك المنهج الذي تقوم عليه حياته، فتستقيم على الحق والصواب، ولما أرسل إليه الرّسل على مدى التاريخ، ولما جعل حجته على عباده هي رسالة الرّسل إليهم، وتبليغهم عن ربّهم، ولما جعل حجّة الناس عنده ـ سبحانه ـ هي عدم مجيء الرّسل إليهم:

﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ولكن لمّا علم الله ـ سبحانه ـ أنّ العقل الذي وهبه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى ـ بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط ـ وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة، وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة.

لمّا علم ـ سبحانه ـ هذا شاءت حكمته وشاءت رحمته أن يبعث للناس بالرّسل، وألا يؤاخذ الناس إلا بعد الرّسالة والتبليغ: ﴿وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء: ١٥] وهذه تكاد تكون إحدى البديهيات التي تبرز من هذا النص القرآني.. فإن لم تكن بديهية فهي إحدى المقتضيات الحتمية..

إذن.. ما هي وظيفة هذا العقل البشري؟ وما هو دوره في قضية الإيمان والهدى؟ وفي قضيّة منهج الحياة ونظامه؟.

إنّ دور هذا العقل أن يتلقى عن الرّسالة، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه

عن الرسول. ومهمة الرسول أن يبلغ، ويبين، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الرّكام، وينبه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح، ومنهج النظر الصحيح، وأن يقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العملية، المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة.

وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان، والقبول أو الرفض ـ بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله، وبعد أن يفهم المقصود بها، أي المدلولات اللغوية والاصطلاحية للنص ـ ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها ـ بعد إدراك مدلولها، لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول! أو لا يريد أن يستجيب له ـ ما استحق العقاب من الله على الكفر بعد البيان. فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح، ومتى فهم عنده ما المقصود بها وما المراد منها.

إن هذه الرسالة تخاطب العقل، بمعنى أنها توقظه وتوجهه، وتقيم له منهج النظر الصحيح، لا بمعنى أنه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها، وبقبولها أو رفضها، ومتى ثبت النص كان هو الحكم، وكان على العقل البشري أن يقبله ويطيعه وينفذه، سواء كان مدلوله مألوفاً له أو غريباً عليه...

إن دور العقل ـ في هذا الصدد ـ هو أن يفهم ما الذي يعنيه النص، وما مدلوله الذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح، وعند هذا الحد ينتهي دوره..

إن المدلول الصحيح للنص لا يقبل البطلان أو الرّفض بحكم من هذا العقل، فهذا النص من عند الله، والعقل ليس إلهاً يحكم بالصحة أو البطلان، وبالقبول أو الرّفض لما جاء من عند الله.

وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير. سواء ممن يريدون تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحكم في صحة أو بطلان المقررات الدينية

الصحيحة — أو ممن يريدون إلغاء العقل. وفي دوره في الإيمان والهدى.

والطريق الوسط الصحيح هو الذي بيّناه هنا ... من أنّ الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها، وترسم له المنهج الصحيح للنظر في هذه المقررات، وفي شؤون الحياة كلها. فإذا أدرك مقرراتها — أي إذا فهم مدلول النص — لم يعد أمامه إلا التصديق والطاعة والتنفيذ ... فهي لا تكلف الإنسان العمل بها سواء فهمها أم لم يفهمها، وهي كذلك لا تبيح له مناقشة مقرراتها متى أدرك هذه المقررات، وفق مفهوم نصوصها ... مناقشتها ليقبلها أو يرفضها، ليحكم بصحتها أو خطئها ... وقد علم أنها جاءته من عند الله الذي لا يقص إلا الحق، ولا يأمر إلا بالخير.

والمنهج الصحيح في التلقي عن الله، هو ألا يواجه العقل مقررات الدين الصحيحة — بعد أن يدرك المقصود بها — بمقررات له سابقة عليها، كونها لنفسه من مقولاته «المنطقية»، أو من ملاحظاته المحدودة، أو من تجاربه النّاقصة. إنّما المنهج الصحيح أن يتلقى النصوص الصحيحة، ويُكوِّن منها مقرراته هو!

فهي أصح من مقرراته الذاتية؛ ومنهجها أقوم من منهجه الذاتي — قبل أن يضبط بموازين الفطر الدينية الصحيحة — ومن ثم لا يحاكم العقل مقررات الدين — متى صحّ عنده أنها من الله — إلى أية مقررات أخرى من صنعه الخاص!

.. إن العقل ليس إلهاً، ليحاكم بمقرراته الخاصة مقررات الله

إن له أن يعارض مفهوماً عقليّاً بشريّاً للنص بمفهوم عقليٍّ بشريٍّ آخر له .. هذا مجاله، ولا حرج عليه في هذا ولا حجر ما دام هنالك من الأصول الصحيحة مجال للتأول والأفهام المتعددة، وحرية النظر — على أصوله الصحيحة وبالضوابط التي يقررها الدين نفسه — مكفولة للعقول البشريّة في هذا المجال الواسع.

وليس هنالك من هيئة، ولا سلطة، ولا شخص، يملك الحجر على العقول، في إدراك المقصود بالنص الصحيح وأوجه تطبيقه ـ متى كان قابلا لأوجه الرأي المتعددة، ومتى كان النظر في حدود الضوابط الصحيحة والمنهج الصحيح، المأخوذ من مقررات الدين ـ وهذا كذلك معنى أن هذه الرّسالة تخاطب العقل..

إن الإسلام دين العقل ـ نعم ـ بمعنى أنه يحترم العقل بقضاياه ومقرراته، ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال له فيها إلا الإذعان. ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النّظر ويدعوه إلى تدبُّر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق. ويرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة، وركام الشهوات المعمية للعقل والفطرة، ويخاطب العقل بمعنى أنه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه.. فإذا وصل إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم بها فهو مؤمن، أو عدم التسليم بها فهو كافر.. وليس هو حكماً في صحتها أو بطلانها، وليس هو مأذون في قبولها أو رفضها، كما يقول من يبتغون أن يجعلوا من هذا العقل إلهاً، يقبل من المقررات الدينية الصحيحة ما يقبل، ويرفض منها ما يرفض، ويختار منها ما يشاء، ويترك منها ما يشاء..

فهذا هو الذي يقول الله عنه ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟**﴾ [البقرة: ٨٥] ويرتب عليه صفة الكفر، ويرتب عليه كذلك العذاب: ﴿**فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُردُّون إلى أشد العذاب. وما الله بغافلٍ عما تعملون**﴾ [البقرة: ٨٥].

فإذا قرّر الله ـ سبحانه ـ حقيقة في أمر الكون، أو أمر الإنسان، أو أمر الخلائق الأخرى، أو إذا قرّر أمراً في الفرائض، أو في النواهي.. فهذا الذي قرّره لله واجب القبول والطاعة ممن يبلغ إليه، متى أدرك المدلول المراد منه..

إذ قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حي﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ [النور: ٤٥]، ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخّار. وخلق الجانّ من مارجٍ من نار﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥] إلى آخر ما قال ـ سبحانه ـ عن طبيعة الكون والكائنات والأحياء والأشياء.. فالحق هو ما قال. وليس للعقل أن يقول ـ بعد أن يفهم مدلول النصوص والمقررات التي تشتمل ـ «إنّي لا آخذ هذا في مقرراتي، أو في علمي، أو في تجربتي».. فكلّ ما يبلغه العقل في هذا مُعرض للخطأ والصواب. وما قرّره الله ـ سبحانه ـ لا يحتمل إلا الحق والصواب.

وإذا قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الرِّبا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، ﴿وقرْن في بيوتكن ولا تبرجن تبرُّج الجاهلية الأولى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ﴿وليضربن بخُمرهن على جيوبهن ولا يُبدين زينتهن﴾ [النور: ٣١]، إلى آخر ما قال في شأن منهج الحياة البشرية.

فالحق هو ما قال ـ سبحانه ـ وليس للعقل أن يقول: «ولكنّي أرى المصلحة في كذا وكذا» مما يخالف عن أمر الله، أو فيما لم يأذن به الله ولم يشرعه للنّاس.. فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب، وتدفع إليه الشهوات والنزوات.. وما يقرّره الله ـ سبحانه ـ لا يحتمل إلا الصحة والصلاح..

وما قرره الله ـ سبحانه ـ من العقائد والتصورات، أو من منهج الحياة ونظامها، سواء في موقف العقل إزاءه.. متى صحّ النص، وكان قطعي الدلالة؛ ولم يوقت بوقت.. فليس للعقل أن يقول: «آخذ في العقائد والشعائر التعبدية؛ ولكني أرى أن الزمن قد تغيّر في منهج الحياة ونظامها»..

فلو شاء الله أن يوقت مفعول النصوص لوقته، فما دام النص مطلقاً وثابتاً يستوي زمان نزوله وما بعد الزمان - احترازاً من الجرأة على الله، ورمي علمه بالنقص والقصور - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - إنما يكون الاجتهاد في تطبيق النص العام على الحالة الجزئية. لا في قبول المبدأ العام ورفضه، تحت أي مقولة من مقولات العقل في حين من الأحيان.

وليس في شيء من هذا الذي نقرره انتقاص من قيمة العقل ودوره في الحياة البشرية . . فإن المدى أمامه واسع في تطبيق النصوص على الحالات المتجددة - بعد أن ينضبط هو بمنهج النظر وموازينه المستقاة من دين الله وتعليمه الصحيح - والمدى أمامه أوسع في المعرفة بطبيعة هذا الكون وطاقاته وقواه ومدخراته، وطبيعة الكائنات فيه والأحياء، والانتفاع بما سخر الله من هذا الكون ومن هذه الكائنات والأحياء، وتنمية الحياة وتطويرها وترقيتها - في حدود منهج الله - لا كما تبتغي الشهوات والأهواء التي تُضل العقل وتُغطي الفطرة بالركام.

تبعة عظيمة:

إنّ مصائر البشريّة كلّها في الدّنيا وفي الآخرة سواء، منوطة بالرّسل وبأتباعهم من بعدهم. فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم، ويترتب ثوابهم أو عقابهم . . في الدنيا والآخرة:

﴿لئلا يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل﴾ .

إنّها التبعة العظيمة المُلقاة على الرّسل - صلوات الله عليهم - ومن بعدهم على المؤمنين برسالاتهم - تجاه البشريّة كلّها . . وهي تبعة ثقيلة بمقدار ما هي عظيمة . .

إنه أمر هائل عظيم . . ولكنه كذلك . . ومن ثم كان الرسل - صلوات الله عليهم - يحسون بجسامة ما يكلفون.

وكان الله - سبحانه - يُبصّرهم بحقيقة العبء الذي ينوطه بهم . . وهذا

هو الذي يقول الله عنه لنبيه ﷺ ﴿إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾ [المزمل: ٥] ويعلمه كيف يتهيأ له ويستعد. ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا.. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾ [المزمل: ١ ـ ٥] ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا﴾ [الإنسان: ٢٣ ـ ٢٦].

وهذا هو الذي يُشعر به نبيه ـ ﷺ ـ وهو يأمره أن يقول وأن يستشعر حقيقة ما يقول:

﴿قل: إني لن يجيرني من الله أحد، ولن أجد من دونه ملتحدا. إلا بلاغا من الله ورسالاته﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]. ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا، إلا من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا. ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم. وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨].

إنه الأمر الهائل العظيم. أمر رقاب الناس. أمر حياتهم ومماتهم. أمر سعادتهم وشقائهم. أمر ثوابهم وعقابهم. أمر هذه البشرية، التي إما أن تبلغ إليها الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد في الدنيا والآخرة، وإما أن تبلغ إليها فترفضها وتنبذها فتشقى في الدنيا والآخرة، وإما ألا تبلغ إليها فتكون لها حجة على ربها، وتكون تبعة شقائها في الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف التبليغ فلم يبلغ

فأما رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل.. وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها ـ مع هذا ـ قدوة ممثلة في العمل، وجهادا مضنيا بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق.. سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك، وضلالات تزين، أو كانت قوى طاغية تصد

الناس عن الدعوة وتفتنهم في الدين، كما صنع رسول الله ـ ﷺ ـ خاتم النبيين، بما أنه المبلغ الأخير، وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات.

وتبقى الواجب الثقيل على من بعده ـ على المؤمنين برسالته. فهناك جيل وراء أجيال جاءت وتجيء بعده ـ ﷺ ـ وتبليغ هذه الأجيال منوط بعده بأتباعه.

ولا بد أن نقف وقفة خاشعة أمام جلال الله وعظمته، ممثلة في علمه، وعدله، ورعايته، وفضله، ورحمته، وبره.. بهذا الكائن الإنساني الذي يجحد ويطغى..

نقف أمام عظمة العلم بهذا الكائن، وما أودعه من القوى والطاقات، وما ركب في كينونته من استعدادات الهدى والضلال، وما رتبه على هذا العلم حين لم يكله إلى عقله وحده.. على عظمة هذه الأداة التي وهبها له، وعلى كثرة ما في الأنفس والآفاق من دلائل الهدى وموحيات الإيمان.. فقد علم الله أن هذه الأداة العظيمة تتوشها الشهوات والنزوات، وأن الدلائل المبثوثة في تضاعيف الكون وأطواء النفس قد يحجبها الغرض والهوى، ويحجبها الجهل والقصور...

ومن ثم لم يكل إلى العقل البشري تبعة الهدى والضلال ـ إلا بعد الرسالة والبيان ـ ولم يكل إليه بعد البيان والاهتداء وضع منهج الحياة، إنما وكل إليه تطبيق منهج الحياة الذي يقرره له الله.. ثم ترك له ما وراء ذلك ـ وهو ملك عريض ـ يبدع فيه ما شاء، ويغير فيه ما شاء، ويركب فيه ما شاء، ويحلل فيه ما شاء، منتفعاً بتسخير الله لهذا الملك كله لهذا الإنسان وهو الذي يخطىء عقله ويصيب، وتعثر قدمه وتستقيم على الطريق!

ونقف أمام عظمة العدل الذي يرتب للناس حجة على الله ـ سبحانه ـ لو لم يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، هذا مع احتشاد كتاب الكون المفتوح، وكتاب النفس المكنون بالآيات الشواهد على الخالق، ووحدانيته، وتدبيره وتقديره، وقدرته وعلمه.. ومع امتلاء الفطرة بالأشواق

والهواتف إلى الاتصال ببارئها والإذعان له، والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس.. ومع هذه العقل الذي يملك أن يحصي الشواهد ويستنبط النتائج. ولكن الله - سبحانه - بما يعلم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلها، فتعطلها، أو تفسدها، أو تطمسها، أو تدخل في حكمها الخطأ والشطط. قد أعفى الناس من حجية الكون، وحجية الفطرة، وحجية العقل، ما لم يرسل إليهم الرسل ليستنقذوا هذه الأجهزة كلها مما قد يرين عليها، ويضبطوا بموازين الحق الإلهي الممثل في الرسالة هذه الأجهزة، فتصبح أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي.. وعندئذ فقط يلزمها الإقرار والطاعة والاتباع، أو تسقط حجتها وتستحق العقاب.

ونقف أمام عظمة الرعاية والفضل والرحمة والبر بهذا المخلوق الذي يكرمه الله ويختاره، على ما يعلم به من ضعف ونقص؛ فيكل إليه هذا الملك العريض.. خلافة الأرض.. وهو بالقياس إليه ملك عريض! وإن كان في ملك الله ذرة تمسكها يد الله فلا تضيع في ملكه الكبير!

ثم نتتبع رعايته وفضله ورحمته وبره، ألا تدعه لما أودع في كينونته من فطرة هادية ولكنها تطمس؛ ومن عقل هاد ولكنه يضل؛ بل يتفضل عليه ربه فيرسل إليه الرسل تترى.. وهو يكذب ويعاند ويشرد ويتأبى؛ فلا يأخذه ربه بأخطائه وخطاياه؛ ولا يحبس عنه بره وعطاياه، ولا يحرمه هداه على أيدي رسله الهداة.. ثم لا يأخذه بالعقاب في الدنيا أو في الآخرة حتى تبلغه الرسل؛ فيعرض ويكفر، ويموت وهو كافر لا يتوب ولا ينيب

ومن عجب أن يأتي على هذا الإنسان زمان يزعم لنفسه أنه استغنى عن ربه.. استغنى عن رعايته وفضله ورحمته وبره.. استغنى عن هدايته ودينه ورسله.. استغنى بالأداة التي علم ربه أنها لا تغنيه - ما لم تقوّم بمنهج الله - فلم يكتب عليه عقاباً إلا بعد الرسالة والبيان.. فيتمثل لنا الطفل الذي يحس بعض القوة في ساقيه فيروح يبعد عنه اليد التي تسنده، ليتكفأ ويتعثر! غير أن الطفل في هذا المثال أرشد وأطوع للفطرة، إذ أنه بمحاولة الاستقلال

عن اليد التي تسنده بحيث داعي الفطرة في استحثاث طاقات كامنة في كيانه، وإنماء قدرات ممكنة النماء، وتدريب عضلات وأعصاب تنمو وتقوى بالتدريب..

أما إنسان اليوم الذي يبعد عن يد الله، ويتنكب هداه، فإنّ كينونته ـ بكلّ ما يكمن فيها من قوى ـ يعلم الله أنّها لا تشتمل على قوّة مكنونة تملك الاستغناء عن يد الله وهداه، وقصارى ما في قوّتها أنّها ترشد وتنضبط وتستقيم برسالة الله، وتضل وتختل وتضطرب إذا هي استقلت بنفسها، وتنكبت هداه!

وخطأ وضلال ـ إن لم يكن هو الخداع والتضليل ـ كلّ زعم يقول: إنّ العقول الكبيرة كانت حريّة أن تبلغ بدون الرّسالة ما بلغته بالرّسالة.. فالعقل ينضبط ـ مع الرّسالة ـ بمنهج النظر الصحيح، فإذا أخطأ بعد ذلك في التطبيق كان خطؤه كخطأ السّاعة التي تنضبط، ثمّ تصيبها عوامل الجو والمؤثرات، وطبيعة معدنها الذي يتأثر بهذه المؤثرات. لا كخطأ السّاعة التي لم تنضبط أصلاً، وتركت للفوضى والمصادفة وشتان شتان!

وبما أنّ ما يتمّ بالرّسالة ـ عن طريق العقل نفسه ـ لا يمكن أن يتم بغيرها؛ فلا يغني العقل البشري عنها..

تخبُّطٌ واضطراب في تيهٍ وضلال:

إنّ تاريخ البشريّة لم يسجل أنّ عقلاً واحداً من العقول الكبيرة النّادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العاديّة المتوسطة بالرّسالة.. لا في تصوّر اعتقادي؛ ولا في خلق نفسي، ولا في نظام حياة، ولا في تشريع واحد لهذا النّظام..

إنّ عقول أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعاً.. بل إنّهم ليقولون: إنّ عقل أرسطو هو أكبر عقل عرفته البشريّة ـ بعيداً عن رسالة الله وهداه ـ فإذا نحن راجعنا تصوّره لإلهه ـ كما وصفه ـ رأينا المسافة الهائلة التي تفصله عن تصوّر المسلم العادي لإلهه مُهتدياً بهدي الرّسالة

وقد وصل أخناتون ـ في مصر القديمة ـ إلى عقيدة التوحيد ـ وحتى مع استبعاد تأثره في هذا بإشعاع عقيدة التوحيد في رسالة إبراهيم ورسالة يوسف ـ فإن التحوت والأساطير التي في عقيدة أخناتون تجعل المسافة بينها وبين توحيد المسلم التعددي لآلهة بعيدة بعيدة.

وفي الخلق نجد في الفترة التي هيمن فيها الإسلام في صدر الإسلام نماذج للأوساط ممن رباهم الرسول ـ ﷺ ـ لا تتطاول إليها أعناق الأفذاذ على مدار التاريخ ممن لم تخرجهم رسالة سماوية.

وفي المبادئ والنظم والتشريعات لا نجد أبداً ذلك التناسق والتوازن، مع السمو والرفعة التي نجدها في نظام الإسلام ومبادئه وتشريعاته. ولا نجد أبداً ذلك المجتمع الذي أنشأه الإسلام يتكرر لا في زمانه ولا قبل زمانه ولا بعد زمانه في أرض أخرى، بتوازنه وتناسقه ويسر حياته وتناغمها.

إنه ليس هو المستوى الحضاري المادي هو الذي يكون عليه الحكم. فالحضارة المادية تنمو بنمو وسائلها التي ينشئها «العلم» الصاعد.. ولكن ميزان الحياة في فترة من الفترات هو التناسق والتوازن بين جميع أجزائها وجهاتها وأوضاعها.. هو التوازن الذي ينشئ السعادة والطمأنينة. والذي يطلق الطاقات الإنسانية كلها للعمل دون كبت ودون مغالاة في جانب من جوانبها الكثيرة.. والفترة التي عاشت بالإسلام كاملاً لم تبلغها البشرية ـ بعيداً عن الرسالة ـ في أي عصر.. والخلخلة وعدم الاتزان هما الطابع الدائم للحياة في غير ظل الإسلام. مهما التمعت بعض الجوانب، ومهما تضخمت بعض الجوانب. وإنما تلتمع لتنطفئ جوانب أخرى، وإنما تتضخم على حساب الجوانب الأخرى. والبشرية معها تتأرجح وتحتار وتشقى[1].

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «لقد ضلّ وتعب وجاهد في غير

---

(١) يراجع بتوسع كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة» فصل «تخبط واضطراب».

جهد من أراد معرفة الله تعالى، المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى، وما بينه وبين هذا العالم من صلة، وكيف إحاطته به، وقدرته عليه، ونفوذ أحكامه فيه عن طريق الأنبياء والمرسلين، واعتمد في ذلك على عقله وعلمه وذكائه وإلمامه ببعض العلوم والصنائع، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية، وإنتاجه الضعيف، أو العظيم الضخم في بعض مجالات علمية، وحق عليهم قوله تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تُحاجُّون فيما ليس لكم به علم؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [آل عمران: ٦٦]..

وهذا سرّ ضلال الفلاسفة الإغريقية الإلهية وأقطابهم وأتباعهم، فقد غرّهم ذكاؤهم وعلومهم وأذهانهم وشعورهم بالخصب العلمي، وملاكاتهم العظيمة التي يملكونها، ونبوغهم في علوم الرياضة والهندسة، والإلمام بالفلسفة الطبيعية، والنجوم والفلكيات، فخاضوا في الإلهيات وفي مواضيع الذات والصفات والخلق والإبداع، فجاءوا بالسخافات المضحكة، والسفسطات المتهافتة، والمتناقض المتضاد من الآراء والأقوال، والتحكمات والتخمينات التي صدق حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في وصفها بقوله: (ظلمات فوق ظلمات، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستدلّ على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات، لقيل إنها ترهات لا تفيد غلبات الظنون) [١].

وقال في موضع آخر: «لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم في المعقولات؟!»[٢].

وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه معلقًا على كلام الفلاسفة والحكماء: «ليتأمّل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدّعون من الحذق

(١) تهافت الفلاسفة ص ١١٥.
(٢) المصدر السابق ص ١٢٤.

والحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل، كيف يتكلمون في غاية فلسفتهم بما يشبه كلام المحسن، ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردوداً، والباطل الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً، بكلام فيه تلبيس وتدليس»(1).

وحقّ عليهم قول الله تعالى: ﴿أشهدوا خلقهم؟! ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ [الزخرف: ١٩]، وقوله: ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم. وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ [الكهف: ٥١]..

«وقد كانت الأمم المتمدنة الراقية التي بلغت أوج المدنية والذكاء والإنتاج العلمي في عصرها في حاجة إلى هذا العلم الذي يحمله الأنبياء، وينفردون به بين الخلق، حاجة الغريق إلى قارب النجاة، وحاجة المريض المشرف على الهلاك إلى الدواء الإكسير، وكان أفرادها بالنسبة إلى هذا العلم - مهما علا كعبهم في العلم والمدنية - جهالاً أميين، وفقراء مفلسين، وكانت على خطر - رغم كل فتوحاتها العلمية، وازدهار المدنية - إذا جهلته أو رفضته. وقد وقعت أمم متمدنة راقية عبقرية في العلوم والآداب يضرب بها المثل في الذكاء والعبقرية، فريسة الإنكار والاستكبار، والإعجاب بنفسها، والإدلال بعلومها وصنائعها، ونظرت إلى ما جاء به نبي عصرهم بعين الازدراء والاحتقار، وزهدت فيه واستصغرته. فذهبت ضحية هذا الغرور وهذه السذاجة المستورة بالذكاء، وقصور النظر المتفق حينئذ بعد النظر، والنقد العلمي، فذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خسرا»

«إن الفرق الواضح الهائل بين علم الأنبياء، وبين علوم العلماء والحكماء، إنّما يتجلى بوضوح في قصّة لعلها معروفة، ولكن لعلّ أحداً لم يطبقها على هذا الفرق، ولم يستخرج منها هذه الحكمة الرّائعة، وكم ضاعت أمثال حكيمة وقصص ذات مغزى عميق:

---

(1) منهاج السنة ج ٣ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول في الحاشية ص ٢٧٢

يحكى أن فريقاً من التلاميذ ركبوا سفينة للنزهة في البحر وللوصول إلى البر، وكان في النفس نشاط وفي القلوب سعة. وكان الملاح المجدّف الأميّ خير موضوع للدعابة والتندر، وخير وسيلة للتسلي وترويح النفس، وخاطبه أحد التلاميذ ذات مرة، وقال: «يا عم ماذا درست من العلوم؟» قال: «لا شيء يا عزيزي!» قال: «أما درست علم الطبيعة يا عمي؟» قال: «كلا، ولا سمعت بها». وتكلّم أحد رفاقه، وقال: «ولكنك لا بدّ درست علم الإقليدس والجبر والهندسة؟» قال: «وهذا غريب، وتصدقون أني أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة؟!» وتكلم ثالث من الطلبة فقال: «ولكنك مثلك لا شك درست الجغرافية والتاريخ!» فقال: «وهل هما اسمان لمدينتين أو علمان لشخصين؟!». وهنا لم يمسك الشباب نفوسهم للمرح، وعلا صوتهم بالقهقهة، وقالوا: «ما سنك يا عم؟» قال: «أنا في الأربعين من سني»، قالوا: «لقد ضيّعت نصف عمرك يا عمّ». وسكت الملاح الأميّ على غصص ومضض، وبقي ينتظر دوره ويرقب دوار.

وهاج البحر وماج، وارتفعت الأمواج، وبدأت السفينة تضطرب. والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها، واضطرب الشباب في السفينة، وكانت أول تجربتهم في البحر، وأشرفت السفينة على الغرق، وجاء دور الملاح الأمي فقال في هدوء ووقار: «ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟» وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التي درسوها، من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الأمي الحكيم، ولما انتهوا من عدّ العلوم التي درسوها، قال في وقار تمازجه نشوة الانتصار: «لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة، فهل درستم علم السباحة؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة - لا قدّر الله - كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام؟» قالوا: «لا والله يا عم، هو العلم الوحيد الذي فاتنا دراسته والإلمام به». هنالك ضحك الملاح وقال: «وإذا كنت قد ضيّعتُ نصف عمري فقد أتلفتُم عمركم كلّه، لأنّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان. إنّما كان يُنجدكم العلم الوحيد، علم السّباحة الذي تجهلونه».

هذه قصة الأمم المُتمدنة الرّاقية التي كانت دائرة معارف، أو موسوعة في العلوم والآداب، وكانت زعيمة العالم كله، في كلّ ما أنتجه البشر وتوصّلوا إليه في العلوم والحكمة، واكتشفوه من هذا الكون النواميس والذخائر المودوعة فيه، ولكنها جهلت علم التوحيد الذي يوصل إلى الخالق، ويُعرف به، والذي تنال به النّجاة، وهو سرّ السلام، والعلم المقصود هو الذي يضبط الأعمال والرغبات، ويَقهر النزوات والشهوات، ويُصلح الأخلاق ويُهذب النفوس، ويردع عن الشرّ، ويدفع إلى الخير، ويُلهم خشية الله التي لا صلاح للمجتمع ولا قوام للمدنية بغيرها، ويحمل الإنسان على التجهز للمصير، والاستعداد للآخرة، ويُخفف من غلواء الأنانية وحبّ الذات، والتكالب على حطام الدنيا، ويُلهمه الاقتصاد والسداد، ويمنعه من الجهود في غير جهاد.

وقد حكى الله قصة هذه الأمم التي غلب عليها الغرور والتيه، واستصغرت شأن الأنبياء المبعوثين في عصرها، فقال: ﴿فلما جاءتهم رُسلهم بالبيِّنات فرحوا بما عندهم من العلم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [غافر: ٨٣]. .

إنّ مركز النبوة والأنبياء، وموضع رسالتهم وتعليمهم من مركز الطوائف البشرية والسلالات ومهماتها، كالروح بالنسبة إلى الجسم، وكالعقل بالنسبة إلى العمل، وكالعين بالنسبة إلى الإنسان، ولولاهم لكانت البشرية ـ بعلومها وآدابها ومدنيتها وصنائعها ـ ظلامًا في ظلام في ظلام: ﴿ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ [النور: ٤٠]. .»[١].

سنّة الله:

إنّها سنّة من سنن الله أن يرسل الرّسل، وأن ينزل الله عليهم الكتاب

(١) النبوة والأنبياء: ١٩ ـ ٢٥.

﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء. قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ـ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ـ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم؟ قل: الله. ثم ذرهم في خوضهم يلعبون. وهذا كتاب أنزلناه مبارك مُصدِّق الذي بين يديه. . . ﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢].

لقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج يقولون: إنّ الله لم يرسل رسولاً من البشر، ولم ينزل كتاباً يوحي به إلى بشر. بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود، ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب، ولا أنّ الله نزل التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ إنما هم كانوا يقولون ذلك القول في زحمة العناد واللجاج، ليكذبوا برسالة محمد ـ ﷺ ـ لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولهم: «ما أنزل الله على بشر من شيء»، كما يواجههم بالكتاب الذي جاء به موسى من قبل.

﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء﴾. .

وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم، يقوله أمثالهم في كل زمان؛ ومنهم الذين يقولونه الآن، ممن يزعمون أنّ الأديان من صنع البشر، وأنها تطوّرت وترقت بتطوّر البشر وترقيهم، لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصوّرات البشر أنفسهم، كالوثنيات كلها قديمها وحديثها، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم. ولكنها تظلّ خارج دين الله كله، وبين ديانات جاء بها الرّسل من عند الله، وهي ثابتة على أصولها الأولى، جاء بها كلّ رسول، تقبلها فئة وعتت عنها فئة، ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد، بذات الدين الواحد الموصول.

وهذا القول يقوله ـ قديماً أو حديثاً ـ مَن لا يقدر الله حقّ قدره، ومَن لا يعرف كرم الله وفضله، ورحمته وعدله. .

إنهم يقولون: «إن الله لا يرسل من البشر رسولاً ولو شاء لأنزل ملائكة!» كما كان العرب يقولون.

أو يقولون: «إنّ خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعنى بالإنسان الضئيل، في هذه الذرّة الفلكيّة التي اسمها الأرض! بحيث يرسل له الرّسل؛ وينزل على الرّسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير!» وذلك كما يقول بعض الفلاسفة في القديم والحديث! أو يقولون: «إنّه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل. إنما هي أوهام النّاس أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين!». كما يقول الماديّون المُلحدون!

ولكنّه حين يقدر الله ـ سبحانه ـ قدره الكريم العظيم العادل الرّحيم، العليم الحكيم... لا يدعُ هذا الكائن الإنساني وحده، وهو خالقه، وهو يعلم سرّه وجهره، وضعفه وقوّته، ونقصه وضعفه، وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوّراته وأفكاره، وأقواله وأعماله، وأوضاعه ونظامه، ليرى إن كانت صواباً وصلاحاً، أو كانت خطأً وفساداً.

ويعلم ـ سبحانه ـ أنّ العقل الذي أعطاه له، يتعرض لضغوط كثيرة من شهواته ونزواته ومطامعه ورغباته، فضلاً على أنه موكل بطاقات الأرض التي له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله، وليس موكلاً بتصوّر الوجود تصوّراً مطلقاً، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة. فهذا مجال العقيدة التي تأتي له من الله، فتنشىء له تصوّراً سليماً للوجود والحياة... ومن ثم لا يكله الله إلى هذا العقل وحده، ولا يكله كذلك إلى ما أودع فطرته من معرفة لدنيّة بربّها الحق، وشوق إليه، ولياذ به في الشدائد.

فهذه الفطرة قد تفسد كذلك بسبب ما يقع عليها من ضغوط داخليّة وخارجيّة، وبسبب الإغواء والاستهواء الذي يقوم به شياطين الجنّ والإنس، بكلّ ما يملكون من أجهزة التوجيه والتأثير...

إنّما يكل الله النّاس إلى وحيه ورسله وهُداه وكُتبه، ليردّ فطرتهم إلى

استقامتها وصفائها، وليردّ عقولهم إلى صحتها وسلامتها، وليمحو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها... إنها سُنَّة من سُنن الله أن يرسل الرّسل، فيصطفي من النّاس من يشاء، فيوحي إليه أن أنذر النّاس وهل في ذلك شيء عُجاب؟!

﴿أكان للنّاس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر النّاس، وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم؟ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ [يونس: ٢]..

سؤال استنكاري، يستنكر هذا العجب الذي تلقى به النّاس حقيقة الوحي منذ كانت الرُّسل.

لقد كان السؤال الدائم الذي قوبل به كل رسول: «أبعث الله بشراً رسولاً؟».

ومنبع هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة الإنسان، عدم إدراك النّاس أنفسهم لقيمة الإنسان الذي يمثل فيهم. فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله، وأن يتصل الله به ـ عن طريق الوحي ـ فيكلفه هداية النّاس. إنّهم ينتظرون أن يرسل الله ملكاً أو خلقاً آخر أعلى رتبة من الإنسان عند الله، غير ناظرين إلى تكريم الله لهذا المخلوق. ومن تكريمه أن يكون أهلاً لحمل رسالته؛ وأن يختار من بين أفراده من يتصل بالله هذا الاتصال الخاص.

هذه كانت شبهة الكفار المكذبين على عهد الرسول ـ ﷺ ـ وشبهة أمثالهم في القرون الأولى.

فأمّا في هذا العصر الحديث فيقيم بعض النّاس من أنفسهم لأنفسهم شبهة أخرى لا تقلّ تهافتا عن تلك!.. إنهم يسألون: «كيف يتمّ الاتصال بين بشرٍ ذي طبيعة مادية وبين الله المخالف لطبيعة كلّ شيء ممّا خلق والذي ليس كمثله شيء؟!». وهو سؤال لا يحقّ لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط علماً بحقيقة الله ـ سبحانه ـ وطبيعة ذاته الإلّهية، كما أحاط علما

بكلّ خصائص الإنسان التي أودعها الله إياه، وهو ما لا يدّعيه أحد يحترم عقله، ويعرف حدود هذا العقل، بل يعرف أنّ خصائص الإنسان القابلة للكشف ما يزال يُكشَف منها جديدٌ بعد جديد، ولم يقف العلم بعد حتى يُقال إنه أدرك كلّ الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك، فضلاً على أنه سيبقى وراء إدراك العلم والعقل دائماً آفاق من المجهول بعد آفاق.

ففي الإنسان إذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله، والله أعلمُ حيث يجعل رسالته في الإنسان ذي الطاقة التي تحتمل هذه الرّسالة، وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس، ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرّسالة، ولكن الله الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه عليم بما تنطوي عليه كلّ حبة، وكلّ نبتة، وكلّ مخلوق، وقادر على أن يُطَوِّع الإنسان لهذا الاتصال الخاص بكيفية لا يدركها إلا مَن ذاقها وأوتيها.

لقد عجبوا أن جاءهم رسولٌ منهم ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، فقال الكافرون: هذا شيء عجيب﴾ [ق: ٢] لقد عجبوا، وما في هذا من عجب، بل هو الأمر الطبيعي الذي تتقبله الفطرة السليمة ببساطة وترحيب، الأمر الطبيعي أن يختار الله من الناس واحداً منهم، يحسّ بإحساسهم، ويشعر بشعورهم، ويتكلم بلغتهم، ويشاركهم حياتهم ونشاطهم، ويدرك دوافعهم وجواذبهم، ويعرف طاقاتهم واحتمالهم، فيرسله إليهم لينذرهم ما ينتظرهم إن هم ظلّوا فيما هم فيه، ويعلمهم كيف يتجهون الاتجاه الصحيح، ويحملهم التكاليف التي يفرضها الاتجاه الجديد، وهو معهم أول مَن يحمل هذه التكاليف

وهكذا اقتضت حكمة الله أن يكون الرّسل من البشر، يتلقون الوحي فيدعون به النّاس: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما كانوا خالدين﴾ [الأنبياء: ٧، ٨]..

وما كان الرّسل إلا بشراً من البشر، وما كان الرّسل من قبلُ إلا رجالاً

دون أحد، وما جعل الله لهم أجسادا ثم جعلهم لا يأكلون الطعام، فأَكْلُ الطعام من مقتضيات الجسدية، والجسدية من مقتضيات البشرية وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين.

هذه هي سنّة الله المطّردة فليسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل، إن كانوا هم لا يعلمون.

ولقد جهد ناسٌ من المعاصرين المحْدثين في إثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب، ونحن لا نُقرّ هذا المنهج من أساسه. فللعلم ميدان، هو الميدان الذي يملك أدواته، وللعلم افق هي الآفاق التي يملك أدوات كشفها ومراقبتها.

والعلم لم يدّعِ أنه يعرف شيئا عن حقيقة الرّوح. فهي ليست داخلة في نطاق عمله، لأنها ليست شيئا قابلا للاختبار المادي الذي يملك العلم وسائله. لذلك تجنّب العلم الملتزم للأصول العلميّة أن يبحث في ميدان الروح. أما ما نُسمّى بالعلوم الروحانية، فهي محاولات وراءها الرّيب والشكوك في حقيقتها وفي اهدافها كذلك(١)!

ولا سبيل إلى معرفة شيء يقيني في هذا الميدان إلا ما جاءنا من مصدر يقيني كالقرآن والحديث، وفي الحدود التي جاء فيها بلا زيادة ولا تصرّف ولا قياس، إذ أنّ الزيادة والتصرف والقياس عمليات عقلية، والعقل هنا في غير ميدانه، وليس معه أدواته، لأنه لم يُزوَّد بأدوات العمل في هذا الميدان.

لقد مضت إرادة الله في اختيار الرُّسُلِ من البشر **﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنْذر الناس وبشر الذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق عند ربهم؟..﴾** [يونس: ٢]..

فهذه خلاصة الوحي: إنذار النّاس بعاقبة المخالفة، وتبشير المؤمنين

---

(١) راجع «الروحية الحديثة: حقيقتها وأهدافها» للدكتور محمد محمد حسين.

بعقبى الطاعة. وهذا يتضمن بيان التكليف الواجبة الاتباع، وبيان ما هو الواجبة الاجتناب، فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتهما على وجه الإجمال.

وحكمة الله واضحة في الإيحاء إلى رجل منهم، رجل يعرفهم ويعرفونه، يطمئنون إليه ويأخذون عنه ويعطونه، بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرّج. أمّا حكمته في إرسال الرّسل فهي أوضح ـ وقد تقدّم بيانه ـ والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر، وعقله هو أداته للتمييز. ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائماً كلما غمَّ عليه الأمر، وأحاطت به الشبهات، وجذبته التيارات والشهوات، وأثّرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج، فتتغيّر وتتبدل تقديرات العقل أحياناً من النقيض إلى النقيض. فهو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه، ويثوب على إرشاده، ويرجع إلى الصواب على هداه، وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعة الله.

وهذا يقتضي أن تكون لدين الله حقيقة ثابتة يرجع إليها العقل البشري بمفهوماته كلها، ليعرضها على هذا الميزان الثابت، وهناك يعرف صحيحها من خطئها.

والقول بأن دين الله هو دائماً مفهوم البشر للدين الله، وأنّه من ثمّ متطور في أصوله، يعرّض هذه القاعدة الأساسية في دين الله ـ وهي ثبات حقيقته وميزانه ـ لخطر التمييع والتأرجح والدوران المستمر مع المفهومات البشرية، بحيث لا يبقى هناك ميزان ثابت تعرض عليه المفهومات البشرية.

والمسافة قصيرة بين هذا القول، والقول بأنّ الدين من صنع البشر. فالنتيجة النهائية واحدة، والمزلق خطيرٌ وخطير للغاية، والمنهج بجملته يستوجب الحذر الشديد منه ومن نتائجه القريبة والبعيدة.

ومع وضوح قضية الوحي على هذا النحو، فإنّ الكافرين يستقبلونه كما لو كانت أمراً عجيباً: ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾

ساحر لأنّ ما ينطق به مُعجز. وأولى لهم ـ لو كانوا يتدبرون ـ أن يقولوا: نبي يُوحى إليه لأنّ ما ينطق به مُعجز. فالسّحر لا يتضمن من الحقائق الكونيّة الكبرى ومن منهج العقيدة والحركة، ومن التوجيه والتشريع ما يقوم به مجتمع راقٍ، وما يرتكز عليه نظام متفرد..

ولقد كان يختلط عندهم الوحي بالسّحر، لاختلاط الدين بالسّحر في الوثنيات كلّها. ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله، فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها.

لقد كان الوحي يتنزل على الرّسل الذين كانوا من البشر، ليعيشوا حياة البشر، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم، وسلوكهم العملي نموذجاً حيّاً لما يدعون إليه الناس. فالكلمة الحيّة الواقعية هي التي تؤثّر وتهدي. لأن الناس يرونها متمثّلة في شخص مترجمة إلى حياة.

ولو كان الرّسل من غير البشر لا يأكلون الطعام، ولا يمشون في الأسواق، ولا يعاشرون النساء، ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس، فلا يحسُّون دوافع البشر التي تحركهم، ولا البشر يتأسّون بهم ويقتدون.

وأيما داعية لا يصدق فعلُهُ قولَهُ فإنّ كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب، مهما تكن كلماته بارعة وعبارته بليغة. فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال، ويؤيدها العمل، هي الكلمة المثمرة التي تُحرك الآخرين إلى العمل.

والذين كانوا يقترحون أن يكون الرّسول من الملائكة، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرّسول مُنزّهاً عن انفعالات البشر، كلهم يتعنتون ويغفلون عن هذه الحقيقة، وهي: أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن يحيوها.. لا يمكن أن يحسُّوا بدوافع الجسد ومقتضياته، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص، وأنّ الرّسول يجب أن يحسّ بهذه الدوافع والمشاعر، وأن يزاولها في حياته

الواقعية ليرسم بحياته دستور الحياة العملي لأتباعه من الناس

وهناك اعتبار آخر، وهو أنّ شعور الناس بأنّ الرّسول مثلهم لا يُثير في نفوسهم الرّغبة في تقليده في جزئيات حياته، لأنّه من جنس غير جنسهم، وطبيعته غير طبيعتهم، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية، وحياة الرّسول أسوة دافعة لغيرهم من النّاس

وهذا وذلك فوق ما في ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشري كله، باختيار الرّسل منه، ليتصلوا بالملأ الأعلى ويتلقوا منه.

لذلك كله اقتضت سنّة الله الجارية اختيار الرّسل من البشر، وأجرت عليهم كل ما يجري على البشر من ولادة وموت، ومن عواطف وانفعالات، ومن آلام وآمال، ومن أكل للطعام ومعاشرة للنساء. وجعلت أكبر الرّسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرّسالة الباقية فيهم، أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض، بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة

وبعدُ، فهذا هو الذي يليق بكرم الله وفضله، وبرحمته، وعدله، وحكمته وعلمه، فما كان ليخلق البشر، ثم يتركهم سُدى، ثم يُحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولاً ﴿وما كُنا مُعذّبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء: ١٥]..

فتقدير الله حقّ قدره يقتضي الاعتقاد بأنّه يرسل إلى عباده رُسلاً يستنقذون فطرتهم من الركام، ويستعدون عقولهم على الخلاص من الضغوط، والانطلاق للنظر الخالص والتدبُّر العميق، وأنه أوحى إلى هؤلاء الرّسل منهج الدعوة إلى الله، وأنزل على بعضهم كُتُباً تبقى بعدهم في قومهم إلى حين ـ ككُتب موسى وداود وعيسى ـ أو تبقى إلى آخر الزّمان كهذا القرآن.

مهمّة الرسول وعمله:

يُبين القرآن الكريم وظيفة الرّسول وعمله وموقف النّاس منه، وموقفه

من الناس. ﴿وأرسلناك للناس رسولاً. وكفى بالله شهيداً. من يُطع الرسول فقد أطاع الله. ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ [النساء: ٧٩]. ﴿ما على الرسول إلا البلاغ، والله يعلمُ ما تبدون وما تكتمون﴾ [المائدة: ٩٩]..

إنّ وظيفة الرّسول هي أداء الرّسالة، لا إحداث الخير ولا إحداث السوء. فهذا من أمر الله.

وأمر النّاس مع الرسول ـ ﷺ ـ أنّ من أطاعه فقد أطاع الله، فالرّسل قد أُرسلت لتُطاع ـ بإذن الله ـ لا لمجرد الإبلاغ والإقناع فحسب. ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليُطاع بإذن الله﴾ [النساء: ٦٣] فلا تفرقة بين الله ورسوله، ولا بين قول الله وقول رسوله، ومن تولّى مُعرضاً مُكذباً فأمره إلى الله من ناحية حسابه وجزائه.

ولم يرسل الرسول ـ ﷺ ـ ليجبره على الهدى، ويُكرهه على الدين، وليس مُوكلاً بحفظه من العصيان والضلال. فهذا ليس داخلاً في وظيفة الرسول. ولا داخلاً في قدرة الرّسول ﴿وما نرسل المرسلين إلا مُبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذّبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩].

بهذا البيان القرآني يُصحح تصوّر النّاس عن حقيقة ما يقع لهم فكلّه لا ينشأ ولا يتحقق إلا بإرادة الله وقدره، وما يصيبهم فهو من عند الله، لأنه لا يُنشئ شيئاً ولا يُحدثه ولا يخلقه ويوجده إلا الله.

والرسول وظيفته الأولى والأخيرة أنه رسول، لا يُنشئ ولا يُحدث ولا يخلق، ولا يشارك الله تعالى في خاصية الألوهية هذه: وهي الخلق والإنشاء والإحداث. وهو يبلّغ ما جاء به من عند الله، فطاعته فيما يأمر به إذن هي طاعة الله، وليس هناك طريق آخر لطاعة الله غير طاعة الرّسول. والرّسول ليس مُكلّفاً أن يُحدث الهدى للمعرضين المتولين، ولا أن يحفظهم من الإعراض والتولي، بعد البلاغ والبيان.

إنّ النبوّة هي مقام بشري في أُفق مرسوم محدود من الله ربّ العالمين ﴿ما كان لبشر أن يُؤتيه اللّهُ الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً. أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ [آل عمران ٧٨ ـ ٨٠].

إنّ النبي يوقن أنه عبد، وأنّ لله وحده هو الربّ، الذي يتجه إليه العبد بعبوديتهم وبعباداتهم، فما يكن أن يدّعي لنفسه صفة الألوهية التي تقتضي من الناس العبودية، فما يقول نبيٌّ للناس ﴿كونوا عباداً لي من دون الله﴾ ولكن يقول لهم ﴿كونوا ربانيين﴾.. منتسبين إلى الربّ، عباداً له وعبيداً، وتوجهوا إليه وحده بالعبادة، وخذوا عنه وحده منهج حياتكم، حتى تخلصوا له وحده فتكونوا ﴿ربانيين﴾. كونوا ﴿ربانيين﴾ بحكم علمكم للكتاب وتدارسكم له. فهذا مقتضى العلم بالكتاب ودراسته.

والنبي لا يأمر الناس أبداً أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، فالنبيّ لا يأمر الناس بالكفر بعد أن يُسلموا لله ويستسلموا لألوهيته، وقد جاء ليهديهم إلى الله لا ليضلهم، وليعيدهم إلى الإسلام لا ليكفرهم!

هذا هو منطق النبوة ووظيفة الرسول. ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليّ أنما إلهكم إلهٌ واحد﴾ [الكهف ١١٠].

وترسم هذه الآية أعلى أفق للبشرية ـ وهو أفق الرسالة الكاملة الشاملة، وإذا هو قريب محدود بالقياس إلى الأفق الأعلى الذي تتقاصر دونه الأبصار، وتنحسر دونه الأنظار..

إنه أفق الألوهية الأسمى.. فأين هنا أفق النبوة؟، وهي ـ على كل حال ـ آفاق بشرية؟..

.. بشرٌ يتلقى من ذلك الأفق الأسمى، بشرٌ يستمدّ من ذلك المعين الذي لا ينضب، بشرٌ لا يتجاوز الهدى الذي يتلقاه من مولاه، بشرٌ يتعلّم فيُعلّم.. فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى، فليتمتع

مما يتعلم من الرّسول الذي يتلقى، وليأخذ بالوسيلة التي لا وسيلة سواها: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربّه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠].

هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير.

والله يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين، وتعطيل المعوقين، ومعاجزة المعجزين، يحفظها كذلك من كيد الشيطان، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أُمنيات الرّسل النابعة من طبيعتهم البشريّة، وهم معصومون من الشيطان ولكنّهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانيّ تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها، وإزالة العقبات من طريقها، فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمانيهم هذه فيحوّل الدعوة عن أصولها وعن موازينها.. فيُبطل كيد الشيطان، ويصون دعوته، ويُبيّن للرّسل أصولها وموازينها، فيحكم آياته، ويُزيل كلّ شبهة في قيم الدعوة ووسائلها:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ اللهُ ما يُلقي الشيطان، ثم يُحكم الله اياته، والله عليم حكيم. ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

إنّ الرّسل عندما يُكلّفون حمل الرسالة إلى الناس، يكون أحبّ شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة، وأن يُدركوا الخير الذي جاءوهم به من عند الله فيتبعوه.. ولكنّ العقبات في طريق الدعوات كثيرة، والرّسل بشر محدودو الأجل، وهم يحسّون هذا ويعلمونه، فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق... يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعزّ على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتاً لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة!

ويودُّون مثلاً لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة!

ويودُّون ويودُّون. من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها.. ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

فالكسب الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم.. هو أن تمضي على تلك الأصول وفق تلك الموازين. ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق.

فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يُثني هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف. وتبقى مُثُل الدعوة سليمة لا تخدش، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء.

ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات، فرصة للكيد للدعوة، وتحويلها عن قواعدها، وإلقاء الشبهات حولها في النفوس.. ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويبيّن الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات، ويكلّف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل، وعمّا يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة، كما حدث في بعض تصرفات الرسول ـ ﷺ ـ وفي بعض اتجاهاته، مما بيّن الله فيه بياناً في القرآن..

بذلك يبطل الله كيد الشيطان، ويحكم الله آياته. فلا تبقى هناك شبهة في الوجه الصواب.

وفي حياة النبي ـ ﷺ ـ وفي تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أمثلة من هذا، تغنينا عن تأويل الكلام.

ويُبيّن القرآن الكريم وظيفة الرّسل الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق،

وإن هم إلا مُبلِّغين، مُبشرين ومُنْذرين، ثم يكون من أمر الناس ما يكون، وفق ما يتخذونه لأنفسهم من موقف يترتب عليها الجزاء الأخير.

﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩]..

لقد كان هذا الدين يُعدّ البشرية للرشد العقلي، ويؤهّلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان استخداماً كاملاً في إدراك الحق الذي تبث آياته في صفحات الوجود، وفي أطوار الحياة، وفي أسرار الخلق. والذي جاء هذا القرآن لكشفه وتجليته وتوجيه الإدراك البشري إليه..

وكان هذا كله يقتضي الانتقال بالبشرية من عهد الخوارق الحسية، التي تلوي الأعناق وتجبر المنكرين على الإذعان، أمام القهر بالخارقة المادية المشهودة للعيان؛ إلى توجيه الإدراك البشري لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية في الوجود كله. وهي في ذاتها خوارق معجزة. ولكنها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود، ويتألف منها قوامه، وإلى مخاطبة هذا الإدراك بكتاب من عند الله باهر، معجز في تعبيره ومعجز في منهجه، ومعجز في الكيان الاجتماعي العضوي الحركي الذي يرمي إلى إنشائه على غير مثال، والذي لم يلحق به من بعده أي مثال.

وقد اقتضى هذا الأمر تربية طويلة. وتوجيهاً طويلاً، حتى يألف الإدراك البشري هذا اللون من النقلة. وهذا المدى من الرقي؛ وحتى يتجه الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشري، في ظل التوجيه الرباني، والضبط القرآني، والتربية النبوية.. قراءة هذا السفر قراءة غيبية واقعية إيجابية في آن واحد، بعيدة عن منهج التصورات الذهنية التجريدية التي كانت سائدة في قسم من الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي، وعن منهج التصورات الحسية المادية التي كانت سائدة في قسم من تلك الفلسفة وفي

بعض الفلسفة الهندية والمصرية والبوذية والمجوسية كذلك، مع الخروج من الحسية الساذجة التي كانت سائدة في العقائد الجاهلية العربية!

وجانب من تلك التربية وهذا التوجيه يتمثل في بيان وظيفة الرسول، وحقيقة دوره في الرسالة؛ فالرسول بشر، يرسله الله ليبشر وينذر، وهنا تنتهي وظيفته، وتبدأ استجابة البشر، ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة، وينتهي الأمر بالجزاء الإلهي وفق هذه الاستجابة: فمن آمن وعمل صالحاً يتمثل فيه الإيمان، فلا خوف عليه مما سيأتي ولا هو يحزن على ما أسلف، فهناك المغفرة على ما أسلف، والثواب على ما أصلح. ومن كذب بآيات الله التي جاءه بها الرسول، والتي نبه إليها في صفحات هذا الوجود، يمسه العذاب بسبب كفره، الذي يعبر عنه هنا بقوله: «بما كانوا يفسقون» حيث يعبر القرآن غالباً عن الشرك والكفر بالظلم والفسق في معظم المواضع.

تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض. وبيان محكم عن الرسول ووظيفته وحدود عمله في هذا الدين.

تصور يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها، ويرد إلى مشيئة الله وقدره الأمر كله، ويجعل للإنسان ـ من خلال ذلك ـ حرية تحمله تبعة هذا الاتجاه، ويبين مصائر الطائعين له والعصاة بياناً حاسماً. وينفي كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله، مما كان سائداً في الجاهليات. وبذلك يفيء بالبشرية إلى عهد الرشد العقلي، دون أن يضرب بها في تيه الفلسفات الذهنية، والجدل اللاهوتي، الذي استنفد طاقة الإدراك البشري أجيالاً بعد أجيال!!!

إن القصص القرآني مرتبط بموضوعه الأصيل، وهو تجريد القلب لعبادة الله، وتخليصه من جميع العوائق، ووصله بالسماء بالإيمان أولاً واليقين، ثم برفع الحواجز والشواغل التي تحول دون الرؤية والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم.

إن مجرد وجود الرسول بين القوم، يدعوهم بلغة السماء، ويخاطبهم بكلام الله، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم نعمة فوق التصور، حتى بالنسبة لمن كانوا يعيشون فيها. فهذه الفترة ـ فترة الوحي وحياة الرسول ـ فترة عجيبة حقا. ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم...﴾ [الحديد: ٧]

إن الله ـ جل جلاله ـ يخاطب هذا البشر من صنع يديه، على لسان عبده ـ ﷺ ـ وفي رحمة عظيمة ندية يقول لهم: خذوا هذا ودعوا ذاك! ها هو ذا طريقي فاسلكوه! لقد تعثرت خطاكم فهاكم حبلي. لقد أخطأتم وأثمتم فتوبوا وها هو ذا بابي مفتوح، تعالوا ولا تشردوا بعيدا. ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء.

إن الله هو الذي يقول، يقول لهؤلاء المخاطبين، وهم يحسون معه، يحسون أنه معهم حقيقة وواقعا. أنه يسمع إلى شكواهم في جنح الليل ويستجيب لهم، وأنه يرعاهم في كل خطوة يخطونها.

إن الأمر فوق ما يطيق الذي لم يعش هذه الفترة أن يتصور، ولكن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات عاشوها فعلا... ثم احتاجوا إلى مثل هذا العلاج ومثل هذه اللمسات، ومثل هذا التذكير... وهو فضل من الله ورحمة فوق فضله ذاك ورحمته، يدركهما ويسعد بهما من لم تقدر له الحياة في هذه الفترة العجيبة:

ورد في صحيح البخاري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوما لأصحابه: «أي المؤمنين أعجب إليكم؟» قالوا: «الملائكة». قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا: «فالأنبياء». قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟» قالوا: «فنحن». قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها».

وصدق رسول الله ﷺ إنه لأمر متفاوت. وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشيء هائل، هائل. عجيب عجيب. وهو يعجب: «وما لهم لا يؤمنون؟!».

ولقد مضت الرّسالات واحدة إثر واحدة، تأخذ بيد البشريّة وتمضي بها صعداً في الطريق على هدى وعلى نور، والبشريّة تشرد من هنا وتشرد من هناك، وتحيد عن النهج، وتغفل حداء الرائد، وتنحرف فترة ريثما يبعث إليها رائد جديد...

وفي كلّ مرّة تنكشف لها الحقيقة الواحدة في صور مُترقية، تناسب تجاربها المُتجددة حتّى إذا كانت الرّسالة الأخيرة كان عهد الرشد العقلي قد أشرق، فجاءت الرّسالة الأخيرة تخاطب العقل البشري بكليات الحقيقة كلها، ليتابع البشريّة خطواتها في ظلّ تلك الخطوط النهائية العريضة، وكانت خطوط الحقيقة الكبرى من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى رسالة جديدة

وحدة العقيدة ووحدة الرسالة :

إنّ القرآن يعرض خط سير الرسالة، وتاريخ هذه العقيدة الكامنة في مسيرة الرّكب البشري :

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إنّ الله قويّ عزيز.﴾ [الحديد ٢٥]

فالرّسالة واحدة في جوهرها، جاء بها الرّسل ومعهم البيّنات عليها، وبعضهم جاء بالمعجزات الخوارق، وبعضهم نزل عليه كتاب، والنص يقول: ﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ بوصفهم وحدة، وبوصف الكتاب وحدة كذلك، إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها

﴿والميزان﴾ .. مع الكتاب. فكلّ الرّسالات جاءت لتقرّ في الأرض وفي حياة النّاس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشريّة، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرّجال، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع، ميزاناً لا يحابي أحداً لأنه

يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله ربّ الجميع.

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والمحنة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف، ومصطخب المنافسة وحبّ الذات.

فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾.

فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته، لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء!

لقد جاء هذا الدين ليقيم قاعدة «شهادة أن لا إله إلا الله» التي جاء بها كل نبي إلى قومه على مدار التاريخ البشري - كما يقرر القرآن الكريم - وشهادة أن لا إله إلا الله ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا لله في حياة البشر، كما أن له الحاكمية العليا في نظام الكون سواء، فهو - سبحانه وتعالى - المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره، وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته..

إنّ القضية الأساسية في دين الله منذ خلق الله الإنسان هي قضية الألوهية والعبودية، وتجلية حقيقتهما، ومقتضيات هذه الحقيقة في حياة الناس.

إنّ هذه القضية الكبرى هي قضية القرآن كله، فهي تستحق أن يُرسل الله من أجلها رُسله جميعاً، وأن ينزل بها كتبه جميعاً ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحي إليه أن لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥].

إنّ حياة البشر في الأرض لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة في اعتقادهم وتصوّرهم، واستقامت كذلك في حياتهم وواقعهم.

ها نحن أولاء في قصص الرحمن نلتقي بموكب الإيمان، يرفع أعلامَهُ

رُسُلُ الله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم ـ بتوجيه الله وتعليمه ـ إنقاذ الركب البشري من الهاوية التي يقوده إليها الشيطان، وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كل زمان. كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال، وبين الحق والباطل، وبين الرّسل الكرام وشياطين الجن والإنس. ثمّ نشهد مصرع المكذبين في نهاية كل مرحلة. ونجاة المؤمنين، بعد الإنذار والتذكير.

إنّ القصص القرآني يعرض سير الرّكب البشري منذ النشأة الأولى، ويعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب، واستنقاذه كلّما ضلّ تماماً عن معالم الطريق، وقاده الشيطان كبة إلى المهلكة ليسلمه في نهايتها إلى الجحيم.

إنّ البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحّدة. ثمّ تنحرف إلى جاهلية ضالّة مشركة ـ بفعل العوامل المشتبكة المعقدة في تركيب الإنسان ذاته، وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها ـ وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرد، فيهلك من يهلك، وينجو من ينجو. والذين ينجون هم الذين ثابوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة، هم الذين علموا أن لهم إلهاً واحداً، واستسلموا بكينونتهم إلى هذا الإله الواحد، هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.

فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله، ويتعاقب بها الرّسل جميعاً على مدار التاريخ.. فكلّ رسول يجيء إنّما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها، فنسوها وضلوا عنها، وأشركوا مع الله آلهة أخرى ـ على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة ـ وعلى أساسها تدور المعركة بين الحقّ والباطل.. وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجي المؤمنين..

والقرآن يوحد الألفاظ التي عبّر بها جميع الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ مع اختلاف لغاتهم.. يوحد حكاية ما قالوه، ويوحد ترجمته في

نص واحد: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره﴾. وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية - على مدار التاريخ - حتى في صورتها اللفظية، لأن هذه العبارة دقيقة في التعبير عن حقيقة العقيدة، ولأن عرضها في القرآن بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويراً حسياً.. ولهذا كله دلالته في تقرير المنهج القرآني عن تاريخ العقيدة..

وفي ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج «الأديان المقارنة» مع المنهج القرآني.. يتبين أنه لم يكن هناك تدرّج ولا «تطوّر» في مفهوم العقيدة الأساسي، الذي جاءت به الرّسل كلّها من عند الله، وأن الذين يتحدثون عن «تطور» المعتقدات وتدرجها، ويدمجون العقيدة الربّانية في هذا «التدرج» و«التطور» يقولون غير ما يقوله الله سبحانه!

فهذه العقيدة - كما نرى في القرآن الكريم - جاءت دائما بحقيقة واحدة، وحُكيت العبارة عنها في ألفاظ بعينها:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره﴾.

وهذا الإله الذي دعا الرّسل كلّهم إليه هو «ربّ العالمين».. الذي يحاسب الناس في يوم عظيم.. فلم يكن هنالك رسول من عند الله دعا إلى ربّ قبيلة، أو ربّ أمّة، أو ربّ جنس.. كما أنه لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعدده.. وكذلك لم يكن رسول من عند الله دعا إلى عبادة طوطمية، أو نجمية، أو «أرواحية» أو صنمية!

ولم يكن هناك دين من عند الله ليس فيه عالم آخر.. كما يزعم من يسمونهم «علماء الأديان» وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة، ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هي الديانات التي عرفتها البشرية في هذه الأزمان، دون غيرها.

لقد جاءت الرسل - رسولا بعد رسول - بالتوحيد الخالص، وبربوبية ربّ العالمين، وبالحساب في يوم الدين.. ولكن الانحرافات في خط الاعتقاد، مع الجاهليّات الطّارئة بعد كلّ رسالة، بفعل العوامل المعقدة

المتمثلة في تكوين الإنسان ذاته وفي العوامل التي تتعامل معه. هذه الانحرافات تمثلت في صور شتى من المعتقدات الجاهلية. وهي هذه التي يدرسها «علماء الأديان» ثمّ يزعمون أنّها الخط الصاعد في تدرّج الديانات وتطوّرها.

وعلى أية حال فهذا هو قول الله ـ سبحانه ـ وهو أحقّ أن يُتّبع، وبخاصّة ممّن يكتبون عن هذا الموضوع في صدد عرض العقيدة الإسلاميّة، أو صدد الدفاع عنها، أمّا الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، فهم وما هم فيه والله يقصُّ الحقّ وهو خير الفاصلين..

إنّ كلّ رسول من الرّسل ـ صلوات الله عليهم جميعاً ـ قد جاء إلى قومه، بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم الذي سبقه

فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لربّ العالمين ـ كما كانت عقيدة آدم وزوجته ـ ثمّ انحرفوا بفعل العوامل التي أسلفنا ـ حتّى إذا جاء نوح ـ عليه السّلام ـ دعاهم إلى توحيد ربّ العالمين مرّة أُخرى، ثمّ جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون، وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لربّ العالمين ـ كما علّمهم نوح ـ وبذراريهم، حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم.. حتّى إذا جاء هود أُهلك المكذبون بالرّيح العقيم.. ثمّ تكررت القصّة.. وهكذا.

ولقد أُرسل كلّ رسول من هؤلاء إلى قومه، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾..

وقال كل رسول لقومه: ﴿إنّي لكم ناصح أمين﴾، مُعبراً عن ثقل التبعة، وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة، ورغبته في هداية قومه، وهو منهم وهم منه ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليُبيّن لهم﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عـزيـز عليـه مـا عَنِتم حـريصٌ عليكم بـالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨]..

وفي كلّ مرّة وقف «الملأ» من علّية القوم وكبرائهم في وجه كلمة الحق هذه ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ [الحجر: ١٠ - ١١]..

هكذا وجه الكبراء ما جاءهم به رسلهم: بالتكذيب والسخرية، فهؤلاء المكذبون دائماً في عنادهم الذميم..

وعلى هذا النحو يجري هذا التكذيب في قلوبهم التي لا تتدبر ولا تحسن الاستقبال.. لأن هذه القلوب لا تحسن أن تتلقاه، سواء في هذا الجيل أم في الأجيال الحالية أم في الأجيال اللاحقة، فالمكذبون أمة واحدة، من طينة واحدة: ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خلت سُنَّة الأولين﴾ [الحجر. ١١ - ١٢].

وليس الذي ينقصهم هو تواتر دلائل الإيمان، فهم معاندون ومكابرون، مهما تأتهم من آية بيّنة، فهم في عنادهم ومكابرتهم سادرون؛ فقد رفضوا الاستسلام لله ربّ العالمين، وأبوا أن تكون العبودية والدينونة لله وحده، وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها وقام عليها دين الله كله.

ويرسم القرآن الكريم نموذجاً باهراً للمكابرة المرذولة والعند المغيظ في مواجهة دعوة الرسل إلى الله ربّ العالمين: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون. لقالوا إنّما سُكّرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون﴾ [الحجر: ١٣]..

ويكفي تصورهم يصعدون في السماء من باب يُفتح لهم فيها. يصعدون بأجسامهم، ويرون الباب المفتوح أمامهم. ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها. ثمّ هم بعد ذلك يكابرون فيقولون: لا. لا.. ليست هذه حقيقة.. إنّما أحد سكّر أبصارنا وخدّرها فهي لا ترى إنّما تتخيل: ﴿إنّما سُكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾.

سكّر أبصارنا مُسكّر وسحرنا ساحر، فكلّ ما نراه ونحسّه وما نتحركه تهيؤات مسكّر مسحورا!

يكشف تصورهم على هذا النحو لنموذج المكابرة السمجة وتجنّي العناد المزري، ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء، ويثبت أن ليس الذي ينقصهم هو دلائل الإيمان، وليس الذي يمنعهم أنّ الملائكة لا تنزل، فصعودهم هُم أشدّ دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة، إنما هم قوم مكابرون، مكابرون بلا حياء وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف، إنه نموذج بشري للمكابرة والاستغلاق والانطماس يرسمه التعبير، مثيراً لشعور الاشمئزاز والتحقير..

وهذا النموذج ليس محلياً ولا وقتياً، ولا هو وليد بيئة مُعينة في زمان معين. إنّه نموذج للإنسان حين تفسد فطرته، وتستغلق بصيرته، وتتعطل في كيانه أجهزة الاستقبال والتلقي، وينقطع عن الوجود الحيّ من حوله، وعن إيقاعاته وإيحاءاته. وهنا يصدع كلّ رسول بالحقّ في وجه هذا الطاغوت. ثمّ ينقسم قومه إلى أُمّتين مُتفاصلتين على أساس العقيدة، وتبتُّ وشيجة القوميّة ووشيجة القرابة العائليّة، لتقوم وشيجة العقيدة وحدها، وإذا «القوم» الواحد، أُمّتان منفصلتان لا قُربى بينهما ولا علاقة! وعندئذ يجيء الفتح ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة، ويأخذ المكذبين المستكبرين ويُنجي الطائعين المستسلمين.

وما جرت سنّة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أُمّتين على أساس العقيدة، وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم لله وحده، وقبل أن يثبتوا في وجه الطاغوت بإيمانهم، وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم.. وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ.

إنّ استعراض القرآن الكريم لقصص الرّسل إنّما هو لتقرير الكلمة الواحدة التي جاء بها الجميع، والاستقبال الواحد الذي لقوه، ومن ثمّ لتميّز والمُفاصلة بين المؤمنينْ والكافرين..

وعلى هذا الأساس بدأ القرآن بذكر نوح ـ عليه السّلام ـ الذي واجه ذراري من أولاد آدم قد طُمست قلوبهم بعد أن اجتالتهم الشياطين من

الإسلام، بدأ القرآن بذكر نوح ليحدّد نقطة البدء، وينتهي بعيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ ليحدّد النقطة الأخيرة قبل الرسالة، ويدلّ هذا الاستعراض على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية:

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره أفلا تتقون؟ فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم، ولو شاء الله لأنزل ملائكة، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين. إن هو إلا رجل به جنّة، فتربصوا به حتى حين. قال ربِّ انصرني بما كذبون﴾ [المؤمنون: ٢٢ ـ ٢٦]..

﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً أن اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيرُه أفلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذّبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون. أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون. إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين. إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين. قال ربِّ انصرني بما كذّبون قال عمّا قليل ليُصْبِحُنَّ نادمين. فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غُثاءً فبُعْداً للقوم الظالمين

ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون.

ثم أرسلنا رُسُلنا تترا كل ما جاء أمةً رسولُها كذّبوه، فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبُعداً لقوم لا يؤمنون.

ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين. فقالوا أنؤمن لبشرين مِثلنا وقومُهما لنا عابدون. فكذّبوهما فكانوا من المُهلكين.

ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون وجعلنا ابنَ مريم وأمَّهُ آيةً وآويناهما إلى رَبوة ذات قرار ومعين.

يا أيها الرُّسُل كُلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم. وإنَّ هذه أُمّتُكم أمةً واحدة وأنا ربُّكم فاتقون﴾ [المؤمنون. ٣٠ ـ ٥٢].

هكذا في إجمال، تُلخص الآيات القرآنية تاريخ الدعوة، وتُقرِّر سنّة الله الجارية، في الأمد الطويل بين نوح وهود في أول السلسلة، وموسى وعيسى في آخرها.. كل قرن يستوفي أجله ويمضي ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ وكلهم يكذبون ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾ وكلما كذّب المكذبون أخذتهم سنّة الله ﴿فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾. وبقيت العبرة ماثلة في مصارعهم لمن يعتبرون ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ تتناقلها القرون.

هكذا يُلخّص القرآن الكريم قصّة الرّسل والرّسالات ﴿تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ [البقرة: ٢٥٣].

هذه الآية أفردت جماعة الرّسل وميّزتها من بين الناس، كما أنها تقرّر أنّ الله فضّل بعض الرّسل على بعض، وتذكر بعض أمارات التفضيل، ثمّ تشير إلى اختلاف الذين جاءوا من بعدهم من الأجيال المتعاقبة ـ من بعد ما جاءتهم البينات ـ وإلى اقتتالهم بسبب هذا الاختلاف، كما تقرّر أنّ بعضهم آمن وبعضهم كفر، وأنّ الله قد قدر أن يقع بينهم القتال لدفع الكفر بالإيمان، ودفع الشر بالخير، وهذه الحقائق الكثيرة التي تشير إليها هذه الآية تمثل قصّة الرّسالة وتاريخها الطويل.

والتفضيل هنا قد يتعلق بالمحيط المقدر للرّسول، والذي تشمله دعوته ونشاطه، كأن يكون رسول قبيلة، أو رسول أمة، أو رسول جيل، أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال، كذلك يتعلّق بالمزايا التي يوهبها لشخصه أو

لأمته. كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية.

وقد ذكرت الآية الكريمة هنا مثلين في موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وأشارت إشارة عامة إلى من سواهما.

كذلك إن هذه الآية التي تلخص تاريخ الرسالة تشتمل على إيحاء قوي واضح. ﴿تلك الرسل﴾. لم يقل هؤلاء الرسل، إنما استعمل لحديث عنهم بهذا التعبير الخاص الذي يوحي أنهم جماعة خاصة. ذات طبيعة خاصة، وإن كانوا بشراً من البشر..

ولم يذكر النص هنا محمداً ـ ﷺ ـ لأن الخطاب موجه إليه، كما جاء في الآية التي سبقتها في سياق سورة البقرة: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين. تلك الرسل.. الخ﴾. فالسياق سياق إخبار له عن غيره من الرسل.

وحين ننظر إلى مقامات الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من أية ناحية نجد محمداً ـ ﷺ ـ في القمة العليا. وسواء نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها، أو من ناحية محيطها وامتدادها، فإن النتيجة لا تتغير. ومن ثم كان هو خاتم الرسل، وكانت رسالته خاتمة الرسالات، ومن ثم انقطع الوحي بعده، وارتسمت للبشرية في رسالته تلك الوحدة الكبرى، وأعلن المنهج الواسع الشامل الذي يسع نشاط البشرية المقبل في إطاره، ولم تعد إلا التفصيلات والتفسيرات التي يستقل بها العقل البشري ـ في حدود المنهج الرباني ـ ولا تستدعي رسالة إلهية جديدة.

وهكذا وضح بجلاء أن دعوة الله التي حملها نوح ـ عليه السلام ـ والرسل بعده حتى وصلت إلى خاتم النبيين محمد ـ ﷺ ـ لهي دعوة واحدة من عند إله واحد، ذات هدف واحد، هو رد البشرية الضالة إلى ربها، وهدايتها إلى طريقه، وتربيتها بمنهاجه، وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات: كلهم أمة واحدة، تعبد إلهاً واحداً، وإن البشرية

في جميع أجيالها صنفان اثنان: صنف المؤمنين وهم حزب الله، وصنف المشاقين لله وهم حزب الشيطان، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان، وكلّ جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة في تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون.

هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم عليها الإسلام، والتي تقررها هذه الآية من القرآن:

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ـ إلا الذين ظلموا منهم ـ وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم، وإلٰهنا وإلٰهكم واحد، ونحن له مسلمون..﴾ [العنكبوت: ٤٦].

هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب، أو جنس، أو وطن، أو تبادل أو تجارة، ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله، ممثلة في عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان، وتختفي فيها القوميات والأوطان ويتلاشى فيها الزمان والمكان، ولا تبقى إلا العروة الوثقى في الخالق الديّان.

ومن ثم ينهى المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى، لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله، الموافقة لما قبلها من الدعوات، المكملة لها وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر.. **﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾**.. فانحرفوا عن التوحيد الذي هو قاعدة العقيدة الباقية، وأشركوا بالله وأخلّوا بمنهجه في الحياة. فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة، وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت له دولة في المدينة.

وإنّ بعضهم ليفتري على رسول الله ـ ﷺ ـ أنّه حاسن أهل الكتاب وهو في مكة مطارد من المشركين، فلما أن صارت له قوة في المدينة حاربهم، مخالفاً كلّ ما قاله وهو في مكة! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكي عليه.

فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم، ولم ينحرف عن دين الله، وعن التوحيد الخالص الذي جاءت به جميع الرسالات:

﴿وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم. وإلٓهنا وإلٓهكم واحد، ونحن له مسلمون﴾ [العنكبوت: ٤٦]. .

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق والنزاع، والجدل والنقاش، وكلّهم يؤمنون بإلٓه واحد، والمسلمون يؤمنون بما أُنزل إليهم وما نزل إلى من قبلهم، وهو في صميمه واحد، والمنهج الإلهي متصل الحلقات.

سُنّة ماضية:

تلك سنّة الله في اختيار الرسل إلى الناس، ومنه سنّته في إنجائهم ومن معهم، وإهلاك المسرفين الضالين المكذبين ﴿ثم صدقناهم الوعد، فأنجيناهم ومن نشاء، وأهلكنا المسرفين﴾ [الأنبياء: ٩]

فهي كذلك سنّة جارية كسنّة اختيارهم، وقد وعد الله النجاة لرسله والمؤمنين معهم إيماناً حقيقياً يصدقه العمل، فصدقهم وعده، وأهلك الذين كانوا يسرفون عليهم، ويتجاوزون الحدّ معهم.

ويعرض القرآن الكريم صفحات من كتاب التاريخ البشري تنطق بمآل المكذبين الذين كذّبوا الرسل، فحقّ عليهم وعيد الله الذي لا مفرَّ منه ولا محيد: ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود، وعاد وفرعون وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقومُ تُبّع. كُلٌّ كذَّب الرسل فحقَّ وعيد. .﴾ [ق: ١٢ - ١٤]. .

والرسّ: البئر المطوية غير المبنية والأيكة: الشجر الملتف الكثيف. وأصحاب الأيكة هم - في الغالب - قوم شعيب. أما أصحاب الرسّ فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة. وكذلك قوم تُبّع. وتُبّع لقب لملوك حمْيَر باليمن. وبقية الأقوام المشار إليهم معروفون لقارىء القرآن.

وواضح أن الغرض من هذه الإشارة السريعة ليس تفصيل من هذه الأقوام ولكنه إيقاع على الشعوب بمصارع الغابرين حين كذبوا الرسل.

ولذي بعث النظر هو النص على أن كُلاًّ منهم كذَّب الرسل. ﴿كُلٌّ كذَّب الرسل فحقَّ وعيدِ﴾..

وهي لفتة مقصودة لتقرير وحدة العقيدة ووحدة الرسالة، فكُلّ من كذَّب برسول فقد كذَّب بالرسل أجمعين، لأنه كذَّب بالرسالة الواحدة التي جاء بها الرسل أجمعون.

والرسل إخوة وأمة واحدة وشجرة ضاربة الجذور في أعماق الزمان. وكل فرع من تلك الشجرة تلخيص لخصائصها، وصورة منها ومن يمسّ منها فرعاً فقد مسّ الأصل وسائر الفروع. ﴿فحق وعيد﴾ ونالهم ما يعرف السامعون.

وبَعْدُ، حين يعرض القرآن الكريم سلسلة الرسالات، يتوجه بالخطاب إلى أمة الرسل؛ وكأنما هم مجتمعون في صعيد واحد. في وقت واحد، فهذه الفوارق الزمانية والمكانية لا اعتبار لها أمام وحدة الحقيقة التي تربط بينهم جميعاً، ثم يتوجّه القرآن بنداء للرسل ليمارسوا طبيعتهم البشرية التي ينكرها عليهم الغافلون: ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ [المؤمنون ٥١]. فالأكل من مقتضيات البشرية عامة، أما الأكل من الطيبات خاصة فهو الذي يرفع هذه البشرية ويُزكّيها ويصلها بالملأ الأعلى.

وليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته. إنما المطلوب أن يرتقي بهذه البشرية إلى أفقها الكريم الوضيء، الذي أراده الله لها، وجعل الأنبياء رُوّاداً لهذا الأفق ومثلاً أعلى.

وتتلاشى آماد الزمان، وأبعاد المكان، أمام وحدة الحقيقة التي جاء بها الرسل. ووحدة الطبيعة التي تُميّزهم. ووحدة الخالق الذي أرسلهم.

ووحدة الاتجاه الذي يتجهونه أجمعين ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون﴾ [المؤمنون: ٥٢]..

إن هذه أمتكم أمة الأنبياء. أمة واحدة. تدين بعقيدة واحدة. وتنهج نهجاً واحداً. هو الاتجاه إلى الله. أمة واحدة في الأرض، وربٌّ واحد في السماء. لا إله غيره ولا معبود إلا إياه. ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٩٢]..

أمة واحدة وفق سنة واحدة، تشهد بالإرادة الواحدة في الأرض والسماء...

ويشير القرآن بوضوح إلى سُنّة ماضية في دعوة رسله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جُندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات: ٧١ - ٧٢]..

ولقد وقع وعد الله، وكلمة الله قائمة. ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض؛ وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار. وذهبت سطوتهم ودولتهم؛ وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل. تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وتُكيف تصوراتهم وأفهامهم. وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض. وكل المحاولات التي بُذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل. باءت بالفشل حتى في الأرض التي انبعثت منها. وحقت كلمة الله لعباده المرسلين. إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون.

هذه بصفة عامة. وهي ظاهرة ملحوظة. في جميع بقاع الأرض. في جميع العصور.

وهي كذلك متحققة في كل دعوة لله، يخلص فيها الجند، ويتجرد لها الدعاة. إنها غالبة منصورة مهما وُضعت في سبيلها العوائق، وقامت في

طريقها العراقيل، ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار، وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة، وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها، ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله. والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه. الوعد بالنصر والغلبة والتمكين.

هذا الوعد سنّة من سنن الله الكونية. سنّة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء.. ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء. ولقد تبطىء آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة. ولكنها لا تخلف أبداً ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنّة في صورة جديدة إلا بعد حين!

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله، ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى. فيكون ما يريده الله. ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون.. ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة؛ وأن يقاتلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة. وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام. وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام.

ولقد يُهزم جنود الله في معركة من المعارك، وتدور عليهم الدائرة، ويقسو عليهم الابتلاء؛ لأن الله يعدهم للنصر في معركة أكبر، ولأن الله يهيىء الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع، وفي خط أطول، وفي أثر أدوم.

لقد سبقت كلمة الله، ومضت إرادته بوعده، وثبتت سُنّته لا تتخلف ولا تحيد.

حسرة:

وفي معرض سيرة الرسل في مسيرة حياة البشرية يظهر العناد واللجاج الأحمق، يظهر جهل العباد بقدر الله سبحانه رب العباد، تظهر المكابرة السمجة في مواجهة الحجة الدامغة، يظهر ركام الشهوات التي تطمس وتحجب الفطرة الإنسانية عن دلائل الهدى وموجبات الإيمان.

إنها لصورة بائسة تدعو إلى حسرة دائمة:

﴿يا حسرة على العباد! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون؟ وإن كل لمّا جميع لدينا محضرون﴾ [يس: ٣٠-٣٢]..

والحسرة انفعال نفسي على حال مؤسفة لا يملك الإنسان شيئا حيالها، سوى أن يتحسّر ويتألم نفسه والله سبحانه وتعالى لا يتحسر على العباد. ولكنه يُقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين! فهي حالة بائسة مُؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شرّ وخيم وبلاء عظيم!

يا حسرة على العباد تُتاح لهم فرصة النجاة فيُعْرِضون عنها، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا يتعظون بها، ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين، ولكنهم يتجاوزون أبواب الرحمة ويُسيئون الأدب مع الله.

ولقد كان في هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون، على مدار السنين وتطاول القرون.. لقد كان في هذا عظة لمَن يتدبر. ولكن العباد البائسين لا يتدبرون. وهم صائرون إلى ذات المصير. فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف؟!

إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه، ويحاول أن يتوقاه قدر ما يستطيع. فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع، ثم يسير مندفعاً في ذات الطريق؟ والغرور يُملي له ويخدعه عن رؤية المصير

المطروق! وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عُمي لا يبصرون!

وإذا كان الهالكون الذاهبون لا يرجعون إلى خلفائهم المتأخرين، فإنهم ليسوا بمتروكين ولا مفلتين من حساب الله بعد حين..

﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾.

ميثاق رهيب جليل:

إن الإيمان بكتب الله ورسله بدون تفرقة بين أحَدٍ من رُسله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الإيمان بالله في الصورة التي يرسمها الإسلام. فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله، وصدق كل الرسل الذين يبعثهم الله، ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم، وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم.. ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرقُ بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [البقرة: ٢٨٥] ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم. فكلهم جاء من عند الله بالإسلام في صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين أرسل إليهم، حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد ـ ﷺ ـ فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد، لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة.

ويقرر القرآن وحدة الجهة التي تتنزّل منها الكتب على الرسل: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزّل عليك الكتاب بالحق مُصدّقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾ [آل عمران: ٢، ٣]..

فالله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، هو الذي نزّل هذا القرآن على رسوله محمد ـ ﷺ ـ كما أنه أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من قبل. وإذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الألوهية والعبودية. إنما هناك إله

والله يُنزِّل الكتب على المختارين من عباده. وهؤلاء عبيد يتلقون. وهم عبيد لله ولو كانوا أنبياء مرسلين.

ويصور القرآن حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات، على عهد من الله وميثاق، يبني عليه فسوق من يتولى عن اتباع آخر الرسالات؛ وشروده عن عهد الله وناموس الكون كله على الإطلاق.

﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين: لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مُصدِّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه. قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا: أقررنا. قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً، وإليه يُرجعون؟﴾ [آل عمران: ٨٠ - ٨٢].

لقد أخذ الله - سبحانه - موثقاً رهيباً جليلاً كان هو شاهده وأشهد عليه رسله. موثقاً على كل رسول. أنه مهما آتاه من كتاب وحكمة، ثم جاء رسول بعده مصدق لما معه، أن يؤمن به وينصره، ويتبع دينه. وجعل هذا عهداً بينه وبين كل رسول.

والتعبير القرآني يطوي الأزمنة المتتابعة بين الرسل، ويجمعهم كلهم في مشهد. والله الجليل الكبير يُخاطبهم جملة: هل أقرُّوا هذا الميثاق وأخذوا عليه عهد الله الثقيل:

﴿قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟﴾.

وهم يُجيبون:

﴿قالوا: أقررنا﴾..

فيشهد الجليل على هذا الميثاق ويُشهدهم عليه:

﴿قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾..

هذا المشهد الهائل الجليل، يرسمه التعبير، فيَجِف له القلب ويجب؛

وهو يتمثل المشهد بحضرة البارىء الجليل، والرسل مجتمعين .

وفي ظل هذا المشهد يبدو لموكب الكريم متصلاً متساندا مستسلماً للتوجيه العلوي، ممثلاً للحقيقة الواحدة التي شاء الله - سبحانه - أن تقوم عليها الحياة البشرية، ولا تنحرف، ولا تتعدد، ولا تتعارض، ولا تتصادم . . إنما ينتدب لها المختار من عباد الله؛ ثم يسلمها إلى المختار بعده، ويسلم نفسه معها لأخيه اللاحق به .

فما للنبي في نفسه من شيء، وما له في هذه المهمة من أرب شخصي، ولا مجد ذاتي . إنما هو عبد مُصطفى، ومُبلّغ مختار . والله - سبحانه - هو الذي ينقل خطى هذه الدعوة بين أجيال البشر، ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء .

ويخلص دين الله - بهذا العهد وبهذا التصور - من عصبية الذاتية عصبية الرسول لشخصه . وعصبيته لقومه . وعصبية أتباعه لنحلتهم . وعصبيتهم لأنفسهم . وعصبيتهم لقوميتهم . . ويخلص الأمر كله لله في هذا الدين الواحد، الذي تتابع به وتوالى ذلك الموكب السني الكريم .

وفي ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتحدثون من أهل الكتاب عن الإيمان بالرسول الأخير - ﷺ - ونصرته وتأييده، تمسكاً بديانتهم - لا بحقيقتها فحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته، ولكن باسمها تعصباً لأنفسهم في صورة التعصب لها! - مع أن رسلهم الذين حملوا إليهم هذه الديانات قد قطعوا على أنفسهم عهداً ثقيلاً غليظاً مع ربهم في مشهد مرهوب جليل . .

في ظل هذه الحقيقة يبدو أولئك الذين يتخلفون فسقة عن تعليم أنبيائهم . فسقة عن عهد الله معهم . فسقة كذلك عن نظام الكون كله المستسلم لبارئه، الخاضع لناموسه، المدبَّر بأمره ومشيئته . .

إن دين الله واحد، جاءت به الرسل جميعاً، وتعاقدت عليه الرسل جميعاً . وعهد الله واحد أخذه على كل رسول . والإيمان بالدين الجديد

واتباع رسوله، ونصرة منهجه على كل منهج، هو الوفاء بهذا العهد. فمن تولى عن الإسلام فقد تولى عن دين الله كله.

ولقد كانت الأمة المسلمة ـ المسلمة حقاً لا جغرافية ولا تاريخاً! ـ هي الأمة المدركة لحقيقة العهد بين الله ورسله. وحقيقة دين الله الواحد ومنهجه، وحقيقة الموكب النبي الكريم الذي حمل هذا المنهج وبلّغه. فإن الله يأمر نبيه ـ ﷺ ـ أن يعلن هذه الحقيقة كلها، ويعلن إيمان أمته بجميع الرسالات. واحترامها لجميع الرسل، ومعرفتها بطبيعة دين الله، الذي لا يقبل الله من الناس سواه:

﴿قل: آمنا بالله، وما أنزل علينا، وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب والأسباط(1). وما أُوتي موسى وعيسى، وما أُوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون. ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [آل عمران: ٨٣].

هذا هو الإسلام في سعته وشموله لكل الرسالات قبله. وفي ولائه لكافة الرسل حملته، وفي توحيده لدين الله كله، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده.

إن التوحيد المطلق لله ـ سبحانه ـ يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس.

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله؛ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله؛ ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض؛ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين آمنوا بالله

---

(١) الأسباط: هم أحفاد يعقوب ـ عليه السلام ـ وهم أبناء الإثني عشر سبطاً التي يتألف منها شعب إسرائيل.

ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم؛ وكان الله غفورا رحيما﴾ [النساء: ١٥١ ـ ١٥٢].

لقد كان اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم، وينكرون رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ، ورسالة محمد ﷺ. كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى ـ فضلاً عن تأليهه ـ وينكرون رسالة محمد ﷺ كذلك.

وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء؛ ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسله، بدون تفريق بين الله ورسله، وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعاً. وبهذا الشمول كان الإسلام هو «الدين» الذي لا يقبل الله من الناس غيره، لأنه هو الذي يتفق مع وحدانية الله، ومقتضيات هذه الوحدانية.

إن التوحيد المطلق لله ـ سبحانه ـ يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر. وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس. وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية. فدين الله للبشر ومنهجه للناس، هو هو لا يتغير في أساسه كما أنه لا يتغير في مصدره.

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ. والإيمان بالله يسلم بوحدانيته ـ سبحانه ـ ووحدانيته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس ليقوم حياتهم كلها ـ كوحدة ـ على منهجه. وتقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده ـ لا من عند أنفسهم ولا في معزل عن إرادته ووحيه ـ ووحدة الموقف تجاههم جميعاً .. ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة إلا بالكفر المطلق؛ وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض! وكان جزاؤهم عند الله أن أعد لهم العذاب المهين أجمعين. ﴿أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ ..

أما «المسلمون» فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله جميعاً؛ بلا تفرقة. فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام؛

وكل الديانات السماوية عندهم حق - ما لم يقع فيها التحريف فلا تكون عندئذ من دين الله، وإن بقي فيها جانب لم يُحرّف، إذ أن الدين وحدة - وهم يتصورون الأمر - كما هو في حقيقته - إلها واحداً، ارتضى للناس ديناً واحداً، ووضع لحياتهم منهجاً واحداً، وأرسل رسله إلى الناس بهذا الدين الواحد وهذا المنهج الواحد.

وموكب الإيمان - في حسهم - موصول، يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً - ونسبهم هم إلى هذا الموكب لموصول عريق، وهم حملة هذه الأمانة الكبرى، وهم ورثة هذا الخير الموصول على طول الطريق المبارك لا تفرقة ولا عزلة ولا انفصام. وإليهم وحدهم تنتهي ميراث الدين الحق. وليس وراء ما عندهم إلا الباطل والضلال.

سمات النبوة وخصائص دعوة الأنبياء:

نحن مع قافلة الهدى وحملة نور الله سبحانه ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم، وممن حملنا مع نوح، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل، وممن هدينا واجتبينا. إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبُكيًّا..﴾ [مريم: ٥٨]..

والقرآن يقف في هذا الاستعراض عند المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية «من ذرية آدم»، «وممّن حملنا مع نوح»، «ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل». فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل من بعده، وإبراهيم يشمل فرعي النبوة الكبيرين: ويعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل. وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين.

نحن مع موكب الإيمان.. هذه أعلامه.. وهذه معالم طريقه. وهو يواجه البشرية في رحلتها الطويلة على هذا الكوكب الأرضي.. يواجهها كلما التوت بها الطريق، وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم، وكلما

تفرقت بنا السُّبل ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إنه صراط واحد ـ صراط الله ـ والرسل والأنبياء هم الأدلاء وحدهم على صراط الله المستقيم، وهذه سبيل واحدة تؤدي إلى الله ... أن يفرد الناسُ الله ـ سبحانه ـ بالربوبية، ويدينوا له وحده بالعبودية، وأن يعلموا أن الحاكمية لله وحده، وأن يدينوا لهذه الحاكمية في حياتهم الواقعية..

هذا هو صراط الله، وهذا هو سبيله ... وليس وراءه إلا السُّبُل التي تتفرق بمَن يسلكونها عن سبيله..

ذلك هو الهدى ﴿قل إنّ الهدى هُدى الله﴾ [البقرة: ١٢٠].

ذلك هدى الله .. هذه هي الحقيقة الكبيرة في التاريخ البشري على هذه الأرض .. حقيقة أن هذه العقيدة هي الهدى ومن اتبعها فقد اهتدى، ومن أعرض عنها فهو لا يهتدي، الذي كان أصمّ وأعمى، فلم يتذكر أو يخشى، وهو في ظلمات الهوى قد هوى، وقد خاب من كذّب الرسل وأبى..

إنّ ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ وممن هدى الله واجتبى من الصالحين من ذرياتهم ـ صفتهم البارزة ﴿إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبُكيّاً﴾ فهم [illegible] شديدة الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته، ولا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرّون سُجّداً وبُكيّاً..

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «ليس الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ مصادر المعرفة الصحيحة والعلم اليقين فحسب، بل هم الذين يمنحون الأجيال البشرية ثروة أخرى كذلك، يرجع إليها الفضل في صلاح البشرية كلها، وفي ازدهار المدنية كلها، وهي قوة كراهة الشر وحب الخير، والتمرد على قوى الشر ونوازعه والاندفاع إلى الخير والجهاد في سبيله. هذه القوة التي كانت العامل الأساسي الأكبر في كل ما قام به البشر من مآثر

معمولات، ولم تزل الوسائل والمبادئ مؤسسات خاضعة دائماً للإرادة الإنسانية ونزعة القوي. إن الشأن كل الشأن في أن يريد الإنسان، وإن الخير كل الخير في أن يريد الإنسان الخير، وكان منبع هذا الخير دائماً تعاليم الأنبياء وتعاليمهم، هم الذين كانوا - في كل عصر من عصور بعثتهم - يبعثون في أمتهم وفي جيلهم عاطفة حب الخير وكراهة الشر، والانتصار للحق ومحاربة الباطل والفساد. وكانت كلما ضعفت هذه العاطفة وتحولت الطبيعة الإنسانية إلى طبيعة بهيمية أو سبعية - كما نشاهد في الأمم التي قص الله علينا قصتها في القرآن - فانتشلوها وحولوها إلى طبيعة إنسانية كريمة رقيقة، ووجد - بتعليمهم المتصل وجهادهم المتواصل وبسبب بذلهم أنفسهم ولذاتهم وتضحيتهم بأرواحهم ومهجهم وشرفهم - في هذه الأمم المتمردة والسباع الضارية، رجالٌ تعطرت بهم مجالس الدنيا، وتحقق بهم تاريخ الإنسانية، وتنافس الملائكة في السمو وعلو المدارك، فعاشت بهم الإنسانية، وقام العدل، وانتصف الضعيف من القوي، ورعى الذئب الغنم، وانتشرت الرحمة، وفشت المحبة، ونفقت سوق الخير، وقامت سوق الجنة، وهبت نسائم الإيمان. وتحررت النفوس من ربقة الهوى والشهوات، وانجذبت القلوب إلى الخير انجذاب الحديد إلى المغناطيس.

إن المدنية لا تدين لأي طبقة من طوائف البشر كما تدين لهذه الطائفة الرسل، إنها تدين لها في حياتها وبقائها، وفي شرفها وكرامتها وفي اعتدالها واستقامتها. فلولاهم - صلى الله عليهم وسلم - لغرقت سفينة الإنسانية بما فيها من علوم وتراث حضاري وفلسفة وحكمة، ولتحولت الأجيال البشرية إلى قطعان من السائمة أو الوحوش لا تعرف ربًا، ولا تعرف دينًا ولا خلقًا، ولا تعرف رحمة ولا محبة، ولا تعرف معنى أسمى وغاية أعلى من العلف والرتع، ومن الماء والكلأ. إن كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الإنسانية الكريمة، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة، والأخلاق العالية الفاضلة والعقيدة الصحيحة النافعة، ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد، إنما يرجع فضله وينتهي تاريخه إلى وحي السماء، وتعليمات الأنبياء

وتبليغهم ودعوتهم وجهادهم. وإلى أصحابهم وتابعيهم بإحسان، وما زال العالم ولا يزال يأكل من رفدهم، ويمشي في ضوئهم، ويعيش في البناء المحكم الذي بنوه»[1].

لقد طغت مفاهيم خاطئة استولت على العقول والنفوس، دسّها أعداء الدين حول خصائص النبوة، «وقد بدأ بعض الكتّاب الإسلاميين في العصر الأخير يخضعون في قليل أو كثير لهذه المفاهيم والظلال، ويفسرون دعوة الأنبياء والرسل وأعمالهم بمصطلحات سياسية واجتماعية حديثة، مما يحول بين أهل العصر وبين فهم منصب النبوة على حقيقته، أو طبيعة الأنبياء وطبيعة رسالتهم التي يكلفون بها، ومناهج عملهم، ويمنع من الاقتداء بهم والتشبّع بروحهم، ويتجه بالفكر على درب قَلَّ ما يقال فيه أنه غير درب النبوة وشاكلتها.

ولذلك اشتدت الحاجة إلى دراسة القرآن في هذا الموضوع دراسة عميقة حرّة، مجردة عن التأثيرات الخارجية والثقافات الأجنبية، مجردة كذلك عن ما قد تهواه قلوب وتطمح إليه نفوس. وقد يكون مما يُستحسن ولا يُستهجن، وقد يكون شيئاً طبيعياً، ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء لكل ما يُستحسن، مجردة عن كل تقييد وعن كل تطبيق، فالعصور تتبدل ومناهج الفكر تتبدل، وقيم الأشياء ودرجاتها تتغير وتتبدل، وترتفع وتنخفض، وما حدث في عصر من نظرية أو مصطلح لا يجوز أن يُسلط على عصر سابق أو جيل سابق، فضلاً عن القرآن الذي هو كتاب سماوي خالد، فإنه لا يخضع لفلسفة فكرية أو سياسية، وعلوم الإنسان ونظرياته كثيب مهيل من رمل ينتثر وينبسط، وينضوي ويمتد، لا يصلح عليه البناء، ولا يجوز أن ينزل إليه القرآن من منزلته العالية السماوية، ومن أساسه المحكم الأبدي».

وإن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء، أن العلم الذي ينشرونه بين

(١) النبوة والأنبياء: ٢٩ ـ ٣١.

الناس. والعقيدة التي يدعون إليها، والدعوة التي يقومون بها. لا تنبع من ذكائهم. ولا حيلتهم، أو تألمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه، أو من شعورهم الدقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفياض، أو تجربتهم الواسعة الحكيمة. لا شيء من ذلك. إنما مصدره الوحي والرسالة التي يضطلعون لها. ويكرمون بها، فلا يُقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء، أو المصلحين وحسب أصناف القادة الذين حرّبتهم البشرية وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل، والذين هم نتيجة بيئتهم، وغرس حكمتهم، وصدى محيطهم، ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى؛ والقول الفصل في ذلك قول القرآن على لسان سيد الرسل ﷺ: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به. فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون؟﴾ [يونس: ١٦]..

وقول الله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: ٥٢]

وقال: ﴿وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين﴾ [القصص: ٨٦].

وقوله تعالى ذكره في نفي حضور الرسول عن البيئة التي حدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التي يحكيها لقومه: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ [القصص: ٤٦]..

ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل، وعن مصدرها ومصدرهم: ﴿يُنزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ [النحل: ٢]

(١) المصدر السابق: ٣٤.

فلذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع، وشاء المجتمع، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحى﴾ [النجم: ٣، ٤].

ولا يستطيع أن يُحدث تغييراً أو تبديلاً أو تحويراً أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله، وقد قال الله لرسوله: ﴿قل: ما يكون لي أن أُبدِّله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يُوحى إليّ. إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ [يونس: ١٥].

ونفى الله عنه المُداهنة وعصمه عنها فقال: ﴿ودُّوا لو تُدهن فَيُدهنون﴾ [القلم: ٩]..

وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزي إذا تجنّى على الله أو قال ما لم يقله، أو زاد أو نقص شيئاً من وَحْيه وكلامه فقال: ﴿تنزيل من رب العالمين. ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة: ٤٣ - ٤٧].

وقد أمره بتبليغ الرسالة بنَصِّها وفَصِّها، وبرمَّتها وجملتها، فقال: ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلَّغتَ رسالته، والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ [المائدة: ٦٧]..

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية بين الأنبياء - صلوات الله عليهم - وبين القادة والزعماء، والذين تكون رسالتهم وكفاحهم وَحْيَ بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم، واستجابة للقلق الذي يساور المجتمع. ويساور النفوس الواعية. والذين يُلاحظون دائماً البيئة والمجتمع والظروف والأحوال، ويراعون المصلحة والسياسة، ويخضعون لها في كثير من الأحوال، فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون مع الأحزاب ويتبادلون معها

المنافع، ومبدأ كثير منهم الذي يأخذون به: «در مع الدهر كيف كان»[1].

١ ـ الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء وفي التشريع.

«وليس معنى ذلك أن الأنبياء لا يرعون الحكمة والمصلحة مطلقاً، ولا يراعون طبائع الناس واستعدادهم ولا يتحرون لدعوتهم المكان الصالح والزمان الصالح، ونشاط النفوس، وإقبال القلوب، ولا يراعون التدريج والتيسير، كلا! إن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة الدين السمحة، وحكمة الله البالغة، وفطرة الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار، وشهدت به الحوادث وزخر به التشريع وسيرة الرسول، وقد قال القرآن: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال: ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة؟ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: ٧٨]..

وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير، وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ لمعاذ وأُبَيّ لما بعثهما إلى اليمن: «يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، بَشِّرا ولا تُنفِّرا»[2]، وقال لأصحابه: «إنما بُعثتم مُبشرين ولم تُبعثوا معسرين»[3].

وقد كان يُرجىء تطبيق شيء فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظم وأهم منها، فقال لعائشة رضي الله عنها: «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام»[4].

---

(١) المصدر السابق: ٣٥ ـ ٣٧.
(٢) صحيح البخاري ج ٢ ص ٢٢.
(٣) صحيح البخاري ج ١ ص ٢٥.
(٤) صحيح البخاري ج ١ ص ٢١٥.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان النبي - ﷺ - يتخولنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا»[1].

وعن جابر بن عبد الله: «كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي - ﷺ - ثم يرجع فيؤم قومه، فصلى العشاء فقرأ بالبقرة، فانصرف الرجل، فكان معاذ ينال منه، فبلغ النبي - ﷺ - فقال: «فتّان فتّان فتّان» ثلاث مرات[2].

وعن ابن مسعود قال: قال رجل يا رسول الله: إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله - ﷺ - ما رأيته غضب في موعظة كان أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال: «يا أيها الناس إن منكم منفرين، فمن أمَّ منكم الناس فليتجوَّز، فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة»[3]. والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تُحصى[4]، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته - ﷺ - معروف في سيرة الأنبياء السابقين، للحكمة التي وصفهم الله بها. ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ [ص: ٢٠]، و ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾ [الأنعام: ٨٩]..

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس، إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية. وما ليس من العقائد والمبادئ، والدين في شيء، أما ما كان من العقائد والمبادئ والفرائض والنصوص، وما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله، فالأنبياء - عليهم السلام -

---

(١) صحيح البخاري.
(٢) صحيح البخاري.
(٣) صحيح البخاري.
(٤) اقرأ الفصل النفيس باب التيسير في حجة الله البالغة للشيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ج ١.

على اختلاف عصورهم ـ أصلب فيه من الحديد، وأثبت عليه من الجبال، لا يعرضون تنزلاً ولا هوادة، ولا يرضون مساومة.

٢ ـ إخلاص الدين لله وإفراد العبادة لربِّ العالمين:

«والسمة الثانية هي أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كل زمن وفي كل بيئة هو تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده، وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده، وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم، الممثَّلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام، والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية: «أن الله قد خَلع عليهم لباس الشرف والتألُّه، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً، ويقلده تدبير تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام»[(١)].

وكل من له صلة بالقرآن ـ وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ـ يعرف اضطراراً أو بداهة أن القضاء على هذه الوثنية والإنكار عليها، ومحاربتها، وإنقاذ الناس من براثنها، كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء، وأساس دعوتهم، ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم»[(٢)].

«وقد سمّى القرآن عبادة الأوثان: الشرك الأكبر والرجس وقول الزور، وشنّع عليهم التشنيع الأعظم، فقال: **﴿ذلك ومَن يُعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه، وأُحلَّت لكم الأنعام إلا ما يُتلى عليكم، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به، ومَن يُشرك بالله**

---

(١) التعبير منقول من حجة الله البالغة للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي.

(٢) انظر النبوة والأنبياء: ٤٠ ـ ٤٢.

فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]..

«إن هذه الوثنية والشرك بمعنى التألُّه لغير الله، وعبادة المتذلل له بالسجود والدعاء والاستغاثة والنذر والذبح له، هي الجاهلية الخالدة العالمية التي هي من أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته، وهي باقية مع البشر في جميع مراحل حياته وتطوراته، وهي التي تُثير غضب الله وغيرته، وتحول بين العبد وتقدمه الروحي والخلقي والمدني، وتهبطه من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾ [التين: ٤، ٥]، تُهبطه من درجة مسجود للملائكة إلى درجة ساجد للضعيف من المخلوقات، والخسيس من الموجودات، إنها هي الجاهلية التي تمحق القوى وتقتل المواهب، وتقضي على الاعتماد على الله، والاعتداد بالنفس والثقة بها، وتُصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير، العليم القدير، الجواد الوهّاب، الغفور الودود، والاستفادة من صفاته التي لا تُحدّ، وخزائنه التي لا تنفد، إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير، العاجز الحقير، الذي لا يملك شيئاً ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مُسمّى، ذلكم الله ربُّكم له الملك، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير[1]، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم، ويوم القيامة يكفرون بشرككم، ولا يُنبئك مثل خبير. يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٥].

هذه الوثنية ـ في دائرة ما بعد الطبيعة ـ بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة، كانت موضوع جهاد الأنبياء في كل عصورهم، وفي جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم، وهو الذي أثار غضب أهل الجاهلية فقالوا: ﴿أجعل الآلهة

---

(١) والقطمير: غلاف النواة.

إلهاً واحداً، إن هذا لشيء يُراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾ [ص: ٥ ـ ٧]..

ومما لا يشك فيه عاقل درس تاريخ العصر النبوي واطلع على أخبار صحابة الرسول ـ ﷺ ـ أن الصحابة لم يكونوا يفهمون من آيات القرآن حول دعوة النبوة إلا هذه الوثنية السافرة، وعبادة الأصنام والأوثان، وتقديس أشخاص الصالحين أو الموجودين، والسجود لهم، والدعاء منهم، والذبح والنذر لهم، والحفاوة بأسمائهم، والتقرب إلى الله بعبادتهم، والاعتماد على شفاعتهم المطلقة التي لا تُرد، وطلب النفع والضر، وكشف الكربة منهم، ولا يفهمون من معنى الإله، والربّ، والعبادة، والدين، إلا هذه المفاهيم الدينية، وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم، ومناهج كلامهم لا يختلف فيه إثنان.

ولا يزال هذا هو المركز الأساسي في الدعوات الدينية وحركات الإصلاح إلى يوم القيامة، وهو تراث النبوة الخالدة وشعار جميع الدُّعاة إلى الله، وجميع المصلحين المجددين. ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ [الزخرف: ٢٨]..

أما مظاهر الجاهلية الأخرى كالطاعة لغير الله، والتحاكم إلى غير الله، وقبول التشريع غير الإلهي، وتسليم حكومة لا تقوم على النيابة عن الله، وعلى أحكامه، فكل ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ويأتي بعده، ولا يجوز أن يُقلل من شأن هذا الشرك الجلي المتقدم ذكره وأهميته وأن يوضع في الهامش من منهاج دعوة أو جهاد، أو يساوي بينه وبين معاني الطاعة، والحكم السياسية ويحكم عليها حكماً واحداً، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التي ولّى عصرها وانقضى دورها، فإن هذه إساءة إلى دعوة الأنبياء وجهودهم، وشك في خلود القرآن، وأنه هو الكتاب الأخير الدائم؛ وشكّ في أن منهاج النبوة هو المنهج الصحيح الذي

ارتضاه الله تعالى، والذي كُتب له من النجاح والتوفيق والإنتاج والإثمار ما لم يكتب لأي منهاج من مناهج الإصلاح».

وصية..

«وإنني لأوصي دعاة المسلمين، وأخص شباب الجامعات الذين سيتخرجون دعاة مصلحين وكُتّاباً ومؤلفين، وقادة موجهين، وصية هي عصارة تجارب ودراسات طويلة، ولسوف يعرفون قيمتها وأهميتها بعد التجربة الطويلة: إياكم أن تُعطي كتاباتكم وعرضكم للإسلام وحقائقه ومبادئه فكرة أن المسلمين ظلوا هذه القرون الطول في جهل متصل عن فهم هذا الدين، الذي هو دين كل عصر وجيل، وعن فهم القرآن ومصطلحاته وتعبيراته الأساسية، لأن ذلك يُثبت أن هذا الكتاب بقي هذه المدة الطويلة لا يُفهم على حقيقته وأنه بقي مطوياً على عزّته، وانقطعت الاستفادة بعد نزوله بمدة قصيرة، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]، والوعد بالحفظ في موضع الامتنان يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق، فلا خير في كتاب يبقى ولا يُعمل به، وقد قال لرسوله: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه﴾ [القيمة: ١٧ ـ ١٩]. وهذا الأسلوب من التفكير الذي قد يتجه إليه بعض الكتّاب والمفكرين في هذا العصر يرمي هذه الأمة الخالدة الولود بالعقم والجدب الفكري الدائم؛ والشجرة التي بقيت أفضل مدة حياتها لا تعطي ثمارها، غير جديرة بالاعتماد والاعتناء، ولا يُرجى منها الخير.

وذلك لا شك نتيجة ما نالته لمعاني السياسة والمؤسسات السياسية والتنظيمات في عصرنا من الأهمية بتأثير النظم والثقافات الحديثة..

وكل مَن يسعى لمجد المسلمين ويطمح إلى سؤددهم وصلاح أحوالهم، ويريد أن يسود النظام الإسلامي، ويقوم الحكم الإسلامي في جميع أقطار المسلمين قد يقع في هذا التفريط والإفراط ـ ولا شك أنها غايات سامية يجب أن يُجند لها المسلمون والدعاة والمفكرون منهم بصفة

خاصة مواهبهم وطاقاتهم وأفلامهم، ولكن يجب عليهم كذلك أن لا يُخضعوا القرآن لهذه الغاية والنصوص الداعية إلى هذه الغايات، الحاثّة عليها الموجهة لها، وافرة كثيرة لا يحتاج معها إلى هذا التأويل»[1].

٣ ـ عقيدة الآخرة والاهتمام بها:

«والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعارها هو التشديد على جانب الآخرة واللّهج بها أو الإشادة بذكرها، والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقط الأساسية في دعوتهم. ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دائماً نصب أعينهم، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقائها، فهم إلى الجنة في حنين شديد ومن جهنم في فزع كبير، وهو شيء طبعي قد ملك عليهم مشاعرهم واستولى على فكرهم، وحسبنا أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم، وقد جاشت نفسه وفاضت عواطفه حين ذكر الآخرة وتمثّل هولها وفزعها ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ربّ هبْ لي حُكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدْق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبي إنه كان من الضالين. ولا تخزني يوم يُبعثون. يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وأُزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين﴾ [الشعراء: ٨٢ ـ ٩١].

وكذلك ننظر إليها يوسف العزيز وهو في أوج أبّهته وسيادته، له الكلمة النافذة والأمر المطاع في مصر ـ أرقى مملكة وأخصب بلاد في ذلك العصر ـ وقد أقرّ الله عينه من أبيه الكبير وأسرته العزيزة، وأقرّ عينهم بما رأوه من إقبال الدنيا على يوسف، وقد كان في ذلك ما يُرضي الطموح ويُزهي عالي الهمة بعيد النظر، ولكن فكرة الآخرة وحسن الختام هي التي تسيطر على يوسف، وتجعله لا يحسب لهذه العظمة حساباً كبيراً، فيقول شاكراً داعياً، راضياً

---

(١) النبوة والأنبياء: ٤٤ ـ ٤٦.

وجلاً: ﴿ربِّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض، أنت وليّي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [يوسف: ١٠١]»(١).

إن الحياة ـ في التصور الإسلامي الذي أقام الأنبياء دعائمه في الوجدان الإنساني ـ ليست هي الفترة القصيرة التي تُمثل عمر الفرد، وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تُمثّل عمر الأمة من الناس، كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا.

إن الحياة في دعوة الأنبياء لا تنتهي في هذه الفترة المحدودة المشهودة ـ فترة الحياة الدنيا ـ إنما تمتد لتشمل الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله؛ والتي تُعدّ فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار!

إن قضية الحياة الآخرة قاعدة أساسية في الوجود الإنساني، قاعدة قامت عليها دعوة الأنبياء والرسل في كل زمان وكل بيئة ومكان.

وفي كل جزئية في دعوة الرسل منظور فيها إلى حقيقة الحياة الآخرة، وما تُنشئه في التصور من سعة وسمو وارتفاع، وما تُنشئه في الخُلق من رفعة وتطهّر وسماحة وما تنشئه في الحق وتحرّج وتقوى، وما تُنشئه في النشاط الإنساني من تسديد وثقة وتصميم.

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين في الآخرة، ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في رسالة الله إلى الإنسانية على حقيقة الآخرة.

لقد وقفَتْ البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً معارضاً لدعوة الأنبياء، فلقد عجبوا من الرسالة ذاتها، وعجبوا ـ بصفة خاصة ـ من أمر البعث الذي حدّثهم عنه الرسول. وقفوا موقفاً عجباً من

---

(١) المصدر السابق: ٤٧ ـ ٤٨.

قضية الدار الآخرة، على بساطتها وضرورتها ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، فقال الكافرون: هذا شيء عجيب أإذا متنا وكنا تراباً؟ ذلك رجع بعيد﴾ [ق: ٢، ٣]..

فقضية البعث قاعدة أساسية في عقيدة الأنبياء ودعوتهم. قاعدة تقوم عليها العقيدة ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة، ولكن البشرية التي قاومت دعوة الرسل نظرت إلى قضية الآخرة من جانب ساذج شديد السذاجة، بعيد كل البعد عن إدراك حقيقة الحياة والموت، وعن إدراك أي طرف من حقيقة قدرة الله. فكان أعجب ما تدهش له أن يبنئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور. ﴿وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون؟ لقد وُعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ [النمل: ٦٧، ٦٨]..

وفيم العجب؟ وهم قد خُلقوا ابتداء؟ إنهم لا ينظرون هذه النظرة لعجيبة الواقعة وعجيبة خلقهم الأول. ولو قد نظروها وتدبروها ما عجبوا أي عجب لخلق جديد. ولكنهم ضالون لا يهتدون.

وإنكار الذين كفروا بالآخرة ناشئ من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره. فحكمة الله لا تترك الناس سُدى، يُحسن منهم من يُحسن ويُسيء منهم من يُسيء، ثم لا يلقى المحسن إحسانه، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته..

والمسلم مطلوب منه أن يقوم على الحق ليدفع الباطل، وأن ينهض بالخير ليقضي على الشر، وأن يجعل نشاطه كله في الأرض عبادة لله، بالتوجه في هذا النشاط كله لله. ولا بد من جزاء على العمل. وهذا الجزاء قد لا يتم في رحلة الأرض. فيؤجَّل للحساب الختامي بعد نهاية الرحلة كلها.

فلا بد إذن من عالم آخر، ولا بد إذن من بعث للحساب في العالم الآخر.. وحين ينهار أساس الآخرة في النفس ينهار معه كل تصور لحقيقة

لوجود الإنسان على هذه الأرض، وحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها، ولا تستقيم هذه النفس على طريق الله أبداً، لذلك كان الإيمان بالآخرة وتمثل ما فيها ـ من سعادة دائمة أو شقاء دائم، وما أعدَّ الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من ثواب، وللكفار العصاة من عقاب ـ هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم وبذل نصحهم، وهو الذي يُقلقهم ويكدّر صفو عيشهم، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقرّ لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد، ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم وإنذارهم، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم. فيقول القرآن عن نوح، وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين. أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم**﴾ [هود: ٢٥، ٢٦]، ويقول عن هود، وقد بُعث في قوم تهيأت لهم أسباب العيش، وتوسعت لهم الدنيا وطابت بهم الحياة ﴿**واتقوا الذي أمدَّكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون. إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٥]، ويقول عن شعيب وقد بُعث في قوم لان لهم العيش، وانتشر في أرضهم الخصب: ﴿**إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط**﴾ [(١)] [هود: ٨٤].

وقد تعدَّت عقيدة الآخرة ـ بقوة تأثير الرسل ـ إلى أتباعهم والمؤمنين بهم، وتجلّى لهم قصر مدى هذه الحياة وتفاهتها، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها، وأنها الجدّ الذي يجاهد في سبيله المجاهدون، ويسعى له العاملون، ويتنافس فيه المتنافسون، فقال مؤمن آل فرعون: ﴿**يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار. مَن عمل سيئةً فلا يُجزى إلا مثلها، ومَن عَمِل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة، يرزقون فيها بغير حساب**﴾ [غافر: ٣٩، ٤٠].

---

(١) في روح المعاني: «فالمراد عذاب يوم القيامة، أو عذاب الاستئصال في الدنيا».

وقال سَحَرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى لَمَّا أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم وما أدراكم ما؟: تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، والتصليب في جذوع النخل. ﴿قالوا: لن نُؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقضِ ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنَّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى. إنه مَن يأتِ ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى. ومَن يأته مؤمناً قد عمِلَ الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك جزاء مَن تزكّى﴾ [طه. ٧٢ ـ ٧٦].

والأنبياء يبعدون كل البعد عن أن يُطمِعوا أُمتهم في مُلك أو سيادة أو منفعة دنيوية، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم أو مكافأة لقبول دعوتهم، بل بالعكس من ذلك، يُنكرون على حبّ العلو والاستعلاء، والاستيلاء على الناس بدافع حبِّ الجاه والطموح الفردي أو القومي، وقد جاء في القرآن: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فساداً. والعاقبة للمتقين﴾ [القصص: ٨٣]. إنما يُطمِعونهم في رحمة الله، ويُخوفونهم من عذابه، ويجعلون مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة، إنما يذكرون أن هذا الإيمان والطاعة والاستغفار يجلب رحمة الله ويستدر الرزق، وينزل الأمطار ويدفع ما هم فيه من جدب وضيق، فيقول نوح: ﴿فقلتُ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً ويُمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢]، ويقول هود: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، يُرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾ [هود: ٥٢].

وهذه طبيعة الإيمان والاستغفار وسجيتهما التي لا تتخلف عنهما، كطبائع الأشياء، وخواص الأدوية، ونواميس الفطرة.

مَبدأ ومنهاج..

ولم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة، وإيثارها على الدنيا، والاستهانة

شيمتها ومتاعها، دعوة للنفس فقط، ودعوتهم لأمتهم فقط، بل كان ذلك مبدأً ومنهاج لحياتهم، وكانوا من أول المؤمنين بها، السائرين عليها في حياتهم وحواصهم وعشيرتهم، وقد قال شعيب مُعبِّراً عن جماعته كلهم: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ [هود: ٨٨]، فكانوا زاهدين في الدنيا، مُقبلين على الآخرة، قد زهدوا في المناصب الكبيرة، والمراكز الخطيرة، وضَحُّوا بها في سبيل دعوتهم، وفوّتوا الفرص، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر في الحياة ورغد المضمون، وكانوا من «اللامعين» في المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أُسرتهم، وصلاتهم بالبلاط أو الأسرة الحاكمة، وعن ذلك عبَّر قوم صالح، إذ قالوا: ﴿يا صالح قد كنتَ فينا مرجواً﴾ [هود: ٦٢]. .

وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأُسرتهم. وقد قيل لسيد الرسل - ﷺ -: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تُردن الحياة الدنيا وزينتها، فتعالين أمتعكن وأُسرحكن سراحاً جميلاً، وإن كنتن تُردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، وكان من تأثير صحبته أن أزواجه رضي الله عنهن كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضيق مع الرسول، على الرخاء ورغد العيش مع غيره، ومعيشة النبي - ﷺ - وحياته وحياة أهل بيته معروفة في التاريخ، معروفة في السيرة النبوية، تثير العجب، وتسحر النفوس، وتملأ القلوب عظمة ومهابة، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة مناراً عالياً من نور، وكان شعارهم الدائم: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»(١) ودعاؤها المقبول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»(١).

عقيدة وإيمان. . .

ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة، أو الإشادة بها «كضرورة

---

(١) صحيح البخاري.

خلقية، أو كحاجة إصلاحية، لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة، فضلاً عن المجتمع الإسلامي، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً، والفرق بينهما أن الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمان ووجدان، وشعور وعاطفة، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره وتفكيره وتصرفاته، والثاني اعتراف وتقرير، وقانون مرسوم، وأن الأولين يتكلمون (عن الآخرة) باندفاع والتذاذ، ويدعون إليها بحماسة وقوة، والآخرون يتكلمون عنه بقدر الضرورة الخلقية، والحاجة الاجتماعية، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي؛ وشتان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية»[1].

٤ ـ تشديد على الإيمان بالغيب:

ومن سمات دعوة الأنبياء وصُحفهم، ومن ملامحها البارزة، أنها تُشدِّد على الإيمان بالغيب[2]، وتجعله شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين، وشعاراً للمهتدين، وعلامةً للمتقين. فقال جلّ جلاله: **﴿ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه. هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾** [البقرة: ١ ـ ٥]، وتُطالب به في قوة وشدة، وتطلب من الذين يؤمنون بالله ويدخلون في الإسلام ـ هو دين جميع الأنبياء ـ أن يُصدِّقوا بصفات الله العلية، وقدرته الواسعة، وأفعاله العجيبة التي تتحدى العقل الضعيف،

---

(١) النبوة والأنبياء: ٤٨ ـ ٥٢.

(٢) قال العلامة أبو السعود في تفسيره: «الغيب هو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يُدرك بواحد منها ابتداء بطريق البداهة، وهو قسمان: قسم لا دليل عليه، وهو الذي أريد بقوله سبحانه وتعالى **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾**، وقسم نصب عليه دليل، كالصانع وصفاته، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع واليوم الآخر، وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء».

والعلم المحدود والتجارب القاصرة أحياناً، ويُصدّقوا بكل ما جاء عن الرسل، وذُكر في الكتب السماوية، مما لم يُجرِّبه البشر، ولم يُصدقه الحسّ، ولم تألفه العقول، اعتماداً على إخبار الرسل وحده، وصدقهم في ما يروونه وينسبونه إلى الله. وعتماداً على أن الله على كل شيء قدير، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وهو الخلّاق المبدع، فعّال لما يُريد، لا يحتاج إلى الأسباب التي خلقها، ولا يتقيد بسننه التي سنّها، لقد خلق الأسباب، وسُنن الكون، ولكنه لا يزال خالقها ومالكها والمتصرف فيها، والحاكم عليها، وأنه لم يفلت منه زمامها، وهي لم تستقل بوجودها وإرادتها، ولم يتوقف أمره على مقدمات ووسائل. ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: ٤٠]»[1].

إن حقيقة الغيب من «مقومات التصور الإسلامي» الأساسية، لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية، والإيمان بالغيب قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية.

والإيمان بالله ـ سبحانه ـ هو إيمان بالغيب. فذات الله ـ سبحانه ـ غيب بالقياس إلى البشر؛ فإذا آمنوا به فإنما يؤمنون بغيب، يجدون آثار فعله، ولا يدركون ذاته، ولا كيفيات أفعاله ﴿وهو على كل شيء قدير﴾.. إجمالاً بلا حَدّ ولا قيد.

فالمشيئة مُطْلَقَة تمضي بغير حدٍّ ولا قيد. وتتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء. وكل قيد يتصوره العقل البشري بمنطقه هو لهذه المشيئة من أي نوع وأي لون هو تصور باطل، ناشىء من طبيعة العقل البشري المحدود! واختيار المشيئة لنواميس وسنن لهذا الوجود داخل في حقيقة انطلاقها بلا قيود وعلى حدود. فهي تختار هذه النواميس والسنن اختياراً طليقاً، وتعملها في الكون غير مقيدة بها بعد إعمالها، ولا محصورة في نطاقها. والاختيار دائم ومطرد وراء هذه السنن والنواميس..

(١) النبوة والأنبياء: ٥٣، ٥٤.

والقرآن يُولي هذه الحقيقة عناية كبيرة، فيقصّ عليها في كل مناسبة مما يفيد طلاقة المشيئة من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هي. لتبقى هذه الحقيقة واضحة، ويبقى تصورها غير مشوب. فقد وعد الله أهل الجنة بالخلود فيها وأهل النار كذلك. وهذا الوعد صادر من المشيئة. ولكنه أعفى المشيئة طليقة خارج نطاق هذا الوعد ذاته وهو من عملها واختيارها. فقال عن هؤلاء وهؤلاء: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك.﴾ [هود: ١٠٧، ١٠٨]. وهكذا في كل موضع وردت فيه مثل هذه المناسبة. ولا مجال لمنطق العقل البشري ولا لمقرراته في هذا المجال. وعليه أن يأخذ مقرراته كلها من هذا القرآن، لا من مَعين آخر غير القرآن!

ومن ثم يتمثل للقلب البشري من خلال هذه الآية سلطان الله المطلق في مُلكه الذي لا شريك له فيه. وهي حقيقة ضخمة تملأ الكيان البشري وتفيض..

«وقد زخرت الكتب السماوية، وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله وبالمعجزات والخوارق التي لا يُصدّقها ولا يسيغها ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب، الإيمان بقدرة الله المطلقة، ومشيئته القاهرة والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها. أما الإيمان الذي لم يقم إلا على الحسّ والتجربة، والمألوف من الحوادث، ومطابقة العقل الظاهر، والعلم المدون في الكتب، فإنه إما يرفض أن يقبله ويصدّق به، أو يتعثر ويتلجلج في قبوله والتصديق به، أو يؤوله تأويلاً يتفق مع ما ألفه ولذلك قال: ﴿بل ادّارك علمهم في الآخرة، بل هم في شك منها، بل هم منها عمون﴾ [النمل: ٦٦].

وقد ذكر القرآن الفرق بين الفريقين: فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل، وشَرَح صدره للإسلام، وفريق ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله، وصوّر هذا الفرق تصويراً دقيقاً فقال: ﴿فمَن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومَن يُرد أن يُضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً، كأنما يَصّعد في

السماء. كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ [الأنعام: ١٢٥]..

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يُقبل ولا يُصدّق إلا بالإيمان بالغيب، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه، وأخبار الرسل وما أجرى على أيديهم من المعجزات، ومن أظهر لهم من الآيات، ما لا يُطيقه ولا يُسيغه إلا الإيمان بالغيب، وما لا يقبل التعليل العقلي، ولا التطبيق نواميس الطبيعة إلا بتكلف شديد مضحك، وخروج عن قوانين اللغة العربية، وجراءة على الله، وتجنٍّ على اللغة وأبنائها، ووقاحة شديدة، كانفلاق البحر لموسى وقومه، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى، وارتفاع الجبل كالظلة على طائفة من بني إسرائيل، وحياتها بعد موتها، ومسخ فريق منهم قردة خاسئين، وحياة المقتول الذي جُهل قاتله، بضرب جزء من البقرة المذبوحة، وتحوُّل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ومنطق الطير الذي علّمه سليمان، وفهمه لحديث النمل، ومطوعة الرياح له، وسيرها به غدوّها شهر ورواحها شهر، وانتقال عرش مملكة سبأ في طرفة عين، وقصة ذي النون، وخروجه من بطن الحوت، وولادة عيسى الخارقة للعادة، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، وإسراء الرسول - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومنه إلى السماء[1]، إلى غير ذلك مما زخر به القرآن والصحف السماوية، ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كل شيء»[2].

إن العقلية الإسلامية عقلية (غيبية علمية) لأن «الغيبية» هي «العلمية» بشهادة «العلم» والواقع.. أما التنكر للغيب فهو «الجهلية» التي يتعالم أصحابها وهم بهذه الجهالة!

---

(١) كل ذلك جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة وقد فصّلت ذلك في هذا الكتاب في قصص الرحمن في سياق متتابع.

(٢) النبوة والأنبياء: ٥٤ - ٥٦

وإن العقلية الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله، وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل، والتي تُمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض، والتعامل معها على قواعد ثابتة.. فلا يفوت المسلم «العلم» البشري في مجاله، ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة الواقعة، وهي أن هناك غيباً لا يُطلع الله عليه أحداً، إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء.

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها «الفرد» فيتجاوز مرتبة «الحيوان» الذي لا يُدرك إلا ما تُدركه حواسه، إلى مرتبة «الإنسان» الذي يُدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس - أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس - وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المطلقة في كيان هذا الوجود، والحقيقة العظمى التي تسيّر هذا الوجود بمشيئتها المطلقة.

إن هناك حقيقة واحدة مستيقنة في هذا الوجود هي حقيقة الغيب. وإن هناك حتمية واحدة هي وقوع ما يقضي به الله ويجري به قدره. وقدر الله غيب لا يعلمه إلا هو. «ذلك لأن الإيمان الذي يقوم على الحس والتجربة، ويسير مع المألوف المعروف، ويتقيد بالسنن الكونية، والنواميس الطبعية، والحوادث التاريخية، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل، والحواس الخمسة، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات، إنما هو إيمان مُقيَّد مغلول، وإيمان محدود مشروط، لا يصلح للاعتماد، ولا يساير الأديان، ولا يتفق مع دعوة الأنبياء وما يطلبونه من تصديق مطلق، وثقة دائمة، وسرعة في الانقياد والطاعة، وتفان في الجهاد والتضحية، ولا يصلح في الحقيقة لأن يُسمَّى إيماناً، إنما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق، وطاعة للحواس والتجارب، ولا فضل فيه، ولا يختص بالدين؛ فكل عاقل في حياته يؤمن بتجاربه ونتائج استقرائه. وما تؤدي إليه حواسه، ويرشد إليه عقله.

وصاحب هذا الإيمان «الطبيعي» في عناء وبلاء مع الكتب السماوية، والأديان الإلهية، وفي صراع دائم مع روح الديانات ومطالبها وهو كما قال أحد العارفين[1]: «رجل خشبة لا تطاوع صاحبها في سرعة المشي، ورفع الخطى بحرية، وكثرة العقبات والانحناءات» وهو إما يلجأ إلى التحريف أو التأويل البعيد، وإما يضطر إلى الإنكار والإلحاد، بناءً على الفجوة الواسعة بين هذا العلم الحديث، والحقائق التي جاءت بها الرسل، ونطقت بها الكتب، وبين ما آمن به من المحسوسات والماديات والأصول التي هي مبنية على استقراء محدود، فقال تعالى: ﴿بل كذَّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويلُه﴾ [يونس: ٣٩].

أما المؤمن بالغيب، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرة، المصدّق للرسل في كل ما جاءوا به، وما نطقوا به، وأخبروا عن الله، فهو في راحة وهدوء وانسجام ووئام مع روح هذه الديانات واتجاهها، جاهد وفكّر مرة ثم استراح، جاهد وفكّر في الإيمان بالله وصدق الرسول وعصمته في ما يقول: ﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحى﴾ [النجم: ٣، ٤]، ثم آمن واطمأن وصدّق بكل ما جاء به الرسول، وصحّ به النقل في سهولة ويسر، كأنه كان منه على ميعاد، وكان له على أتمّ الاستعداد.

وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين، نفسية المؤمن الذي أخضع عقله لتصحيح من المنقول، والثابت عن الرسول، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يُخضع الكتاب وما جاء به الرسل، لعقله العاجز وعلمه القاصر، ويسلط عليه التأويل البعيد فقال: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات، هنّ أمّ الكتاب وأُخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به، كُلٌّ من عند ربنا وما يذكّر إلا أولو الألباب، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهَبْ لنا من لدنك رحمة إنك أنت

(١) هو الشيخ جلال الدين الرومي صاحب المثنوي المشهور

الوهّاب﴾ [آل عمران: ٧، ٨]. وذكر نفسية الرجل الذي تعوَّد أن لا يُؤمن، وأن لا يدين وأن لا يعيش إلا على المألوف المعروف الموافق لعقله - الظاهر السطحي - وشهواته ومصالحه فقال. ﴿ومن الناس مَن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه. خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين﴾ [الحج: ١١].

إن أدبنا الإسلامي - مع الأسف - ونظامنا التعليمي الديني، وأسلوب الدعوة، قد قصَّر تقصيراً كبيراً في الدعوة إلى الإيمان بالغيب بإيمان وحماسة، وتساهل في دعمه وتغذيته والإلحاح عليه. وقد اتجه بعض كتابنا المعاصرين - مع ما لهم من فضل في عرض محاسن الإسلام وتقريبه إلى الأذهان - إلى صياغة عقلية جديدة للدين، يتفق معها مع العلم الحديث والعقلية الجديدة، فجنى ذلك - إلى حدٍّ ومن غير إرادة - على روح الإيمان بالغيب، واعتاد الشباب الإسلامي المثقف أن لا ينشط إلا للمألوف المتكرر في الحياة الطبيعية، أما ما شذَّ عنه، وخرج عليه، واحتاج في تصديقه إلى إيمان أعمق وأوسع، واعتماد على صدق المُخْبر. فإنه لا يقبله إلا على مَضض وجهد، ولا ينشط له، ولا يُرحّب به، ويرى في ذلك منافاة لما سَمِعَ وآمن به من أن الإسلام هو دين العقل ودين العلم، ولا شك أن الإسلام كذلك. ولا شك أن صحيح المنقول لا يناقض صريح المعقول، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن العقل الإنساني طبقات ومستويات، فعقل البدوي يُنكر ما زخرت به العواصم والمدن الكبيرة في عصرنا من عجائب المصنوعات، ومرافق المدنية، وعقل العامي يُنكر ما وَصل إليه الإنسان في العصر الحديث من الاختراع والاكتشاف، ومن تسخير الطاقات النووية والأقمار الصناعية، وهكذا، ثم إن أعلى ما يتصور من العقل النابغ، له حدود يقف عندها، ورسالة يقتصر على أدائها، ولا يُكلف فوق طاقته، يعجبني في ذلك كلمة لنابغة العرب، بل لنابغة الدنيا في فلسفة التاريخ وعلوم العمران، العلاّمة ابن خلدون، قال رحمه الله: «ولا تثق بما يزعم

لك الفكر من أنه مُقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفِّه رأيه في ذلك. واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه، ألا ترى الأصمّ كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات. وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات، ولولا ما يردّهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم، ولو سُئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه مُنْكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية. فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة، وخلْق الله أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك. والله من ورائهم محيط. فاتَّهم إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يُدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدّى طوره حتى يكون له أن يُحيط بالله وصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه»[1].

(١) مقدمة ابن خلدون، علم الكلام، ص ٣٦٤، ٣٦٥، طبعة التقدم، النبوة والأنبياء ٥٦ - ٦٠.

٥ ـ البُعد عن التكلُّف والتصنُّع والاعتماد على الفطرة السليمة

ومن سمات النبوة وخصائص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ البُعد عن التصنع والتكلف في حياتهم وسلوكهم بصفة عامة، وفي دعوتهم وكلامهم وحججهم بصفة خاصة. وقد كان قول آخر الرسل ـ ﷺ ـ ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ [ص: ٨٦، ١١] تصويراً لحال جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين ـ ﷺ ـ فهم دائماً يخاطبون الفطرة السليمة، والعقل العام، بأسلوب فطري غير ذي عوج، لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر، وعلم دقيق وألمعية نادرة ودراسة واسعة للعلوم، وإحاطة بالمصطلحات العلمية، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات، وعلوم الطبيعة، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص، ويتمتع به الجهلاء كما يتمتع به العلماء، كلٌّ على قدر فهمه وطاقته»

فدعوة الرسول، الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجراً وهو الداعية السليم الفطرة، الذي ينطق بلسانه، لا يتكلف ولا يتصنع، ولا يأمر إلا بما يوحي منطق الفطرة القريب. «ويطابق حال الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة الثقافة العالية. ولا يسألون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيغه كل واحد ويحتاج إليه، وقد أجاد شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الإشارة إلى هذه النكتة في كتابه الفريد «حجة الله البالغة» يقول رحمه الله:

«ومن سيرتهم ـ الأنبياء ـ أن لا يُكلِّموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خُلقوا عليها، وعلومهم التي هي حاصلة عند غيرهم بأصل الخلقة، وذلك لأن نوع الإنسان حيث ما وُجد فله في أصل الخلقة حدّ من الإدراك، زائد على إدراك سائر الحيوانات. . . ، وله علوم لا يخرج إليها إلا بخرق العادة المستمرة كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء، أو برياضيات شاقة تهييء نفسه لإدراك ما لم يكن عنده بحساب، أو ممارسة قواعد الحكمة والكلام وأصول الفقه ونحوها مدة طويلة.

«والأنبياء لم يُخاطبوا الناس إلا على منهاج إدراكهم الساذج المودوع فيهم بأصل الخلقة، ولم يلتفتوا إلى ما يكون نادر الأسباب قلما يتفق وجودها. فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجلّيات والمشاهدات، ولا بالبراهين والقياسات، ولا أن يعرفوه مُنزّهاً عن جميع الجهات. فإن ذلك كالمُمتنع، بالإضافة إلى من لم يشتغل بالرياضيات، ولم يخالط المعقوليين مدة طويلة، ولم يرشدوهم إلى طرق الاستنباط والاستدلالات، ووجوه الاستحسانات، والفرق بين الأشباه والنظائر بمقدمات دقيقة المأخذ، وسائر ما يتطاول به أصحاب الرأي على أهل الحديث».

«ومن سيرتهم أن لا يشتغلوا بما يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة. كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف والهالة وعجائب النبات والحيوان، ومقادير سير الشمس والقمر وأسباب الحوادث اليومية وقصص الأنبياء والملوك ونحوها، اللهم إلا كلمات يسيرة ألفتها أسماعهم، وقبلتها عقولهم يُؤتى بها في التذكير بآلاء الله والتذكير بأيام الله، على سبيل الاستطراد، بكلام إجمالي يتسامح في مثله بإيراد الاستعارات والمجازات».

«ولهذا الأصل لما سألوا النبي ـ ﷺ ـ عن علة نقصان القمر وزيادته، أعرض الله تعالى عن ذلك إلى بيان فوائد الشهور، فقال: ﴿يسألونك عن الأهلة(١) قل هي مواقيت للناس والحج﴾ [البقرة: ١٨٩]، ونرى كثيراً

---

(١) تقول بعض الروايات: إن النبي ـ ﷺ ـ سُئل عن الأهلة: ما شأنها؟ ما بال القمر يبدو هلالاً، ثم يكبر حتى يستدير بدراً، ثم يأخذ في التناقص حتى يرتد هلالاً، ثم يختفي ليظهر هلالاً من جديد؟

وتقول بعض الروايات: إنهم قالوا: يا رسول الله لم خُلقت الأهلة؟ وقد يكون هذا السؤال في صيغته الأخيرة أقرب إلى طبيعة الجواب. فقال الله لنبيه ـ ﷺ ـ ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ مواقيت للناس في حلهم وحرامهم، وفي صومهم وفطرهم، وفي نكاحهم وطلاقهم وعدتهم، وفي معاملاتهم وتجاراتهم وديونهم، وفي أمر دنياهم وأمور دينهم على السواء.

وسواء كان هذا الجواب رداً على السؤال الأول أو على السؤال في الرواية الثانية، فهو في كلتا الحالتين اتجه إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري، ويحدثهم عن -

بوظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم. ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم، وهي داخلة في مدلول السؤال ما بال القمر يبدو هلالاً ثم ... كذلك لم يحدثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية أو في حركة الأجرام السماوية، وهي داخلة في مضمون السؤال الذي سألوه عن الأهلة؟ فما هو الإيحاء الذي يحمله هذا الاتجاه في الإجابة؟

لقد كان القرآن بصدد إنشاء تصور خاص، ونظام خاص، ومجتمع خاص. كان بصدد إنشاء أمة جديدة في الأرض، ذات دور خاص في قيادة البشرية، لتنشئ نموذجاً معيناً من المجتمعات غير مسبوق، ولتعيش حياة نموذجية خاصة غير مسبوقة، ولتقر قواعد هذه الحياة في الأرض، وتقود إليها الناس.

والإجابة بالعلوم البحتة عن هذا السؤال ربما كانت تمنح السائلين علماً نظرياً في الفلك، إن هم استطاعوا بصعوبة أن يفهموه بما لديهم من معلومات قليلة في ذلك الحين، ولا يستوعبون هذا العلم، ولقد كان ذلك مشكوكاً فيه كل الشك، لأن العلم النظري من هذا النوع في حاجة إلى مقدمات طويلة، لم تكن متاحة للبشرية في ذلك الزمان بعد...

من هنا عدل عن الإجابة التي لم تتهيأ لها البشرية، ولا تفيدها كثيراً في مهمتها الأولى في حدود الفترة من أجلها ... محالها على البحث هو القرآن. إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية. ولم يجئ ليكون كتاب علم فلكي أو كيمياوي أو طبي كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم!

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله. إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية. وإن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه. وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته. ومن بينها طاقته العقلية، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة، وإطلاق المجال لها لتعمل بالبحث العلمي في الحدود المتاحة للإنسان وبالتجريب والتطبيق، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال.

إن مادة القرآن وكل الكتب السماوية التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته: تصوره واعتقاده ومشاعره ومفهوماته، وسلوكه وأعماله، وروابطه وعلاقاته.. أما العلوم المادية، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه، فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته بما أنها أساس خلافته في الأرض، وبما أنه مهيأ لها بطبيعة تكوينه. والقرآن يصحح له فطرته كي لا تنحرف ولا تفسد، ويصحح له النظام الذي يعيش فيه كي يسمح له باستخدام طاقاته الموهوبة؛ ويزوده بالتصور العام لطبيعة الكون وارتباطه =

بخالقه، وتناسق تكوينه، وطبيعة العلاقة بين أجزائه ـ وهو أي الإنسان أحد أجزائه ـ ثم يدع له أن يعمل في إدراك الجزئيات والانتفاع بها في خلافته.. ولا يعطيه تفصيلات لأن معرفة هذه التفصيلات جزء من عمله الذاتي.

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها.. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه!

إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها.. لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها.. والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان. والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره. كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه.. وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب، ويخطئ ويصيب، في مجال العلم والبحث والتجريب.. وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح.

كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحيانا عن الكون في طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه.. لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن، بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما يسميه «حقائق علمية» مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة. أما ما يصل إليه البحث الإنساني ـ أيا كانت الأدوات المتاحة له ـ فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها.. فمن الخطأ المنهجي ـ بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته ـ أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية. وهي كل ما يصل إليه العلم البشري! هذا بالقياس إلى «الحقائق العلمية». والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى «علمية».. ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية، وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره، وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها.. فهذه كلها ليست «حقائق علمية» حتى بالقياس الإنساني.. وإنما هي نظريات وفروض. كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية. إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدرا أكبر من الظواهر، أو يفسر تلك الظواهر تفسيرا أدق! ومن ثم فهي قابلة دائما للتغيير والتعديل والنقص والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأسا على عقب. بظهور أداة كشف -

من الدس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون أو غيرها من الأسباب، فحملوا كلام الرسل على غير محمله والله أعلم»(١).

وقال في ضمن بيان أسباب التيسير في هذا الكتاب:

«ومنها أن الشرع لم يُخاطبهم إلا على ميزان العقل المودع في أصل خلقتهم قبل أن يتعانوا دقائق الحكمة والكلام والأصول. فأثبت لنفسه جهة فقال ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] وقال النبي ـ ﷺ ـ لامرأة سوداء: أين الله؟ فأشارت إلى السماء، فقال: هي مؤمنة! ولم يكلفهم في معرفة استقبال القبلة وأوقات الصلاة والأعياد وحفظ مسائل الهيئة والهندسة. وأشار بقوله «ما بين المشرق والمغرب» إذ استقبل الكعبة إلى وجه المسألة، وقال: «الحج يوم تحجون والفطر يوم تفطرون» والله أعلم»(٢).

وكذلك قال قبله حجة الإسلام الغزالي وهو يذكر فضل أسلوب القرآن على علم الكلام، والفرق بينهما، قال رحمه الله: «فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويتضرر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع، والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً»(٣).

وقد قال الإمام الرازي ـ كما ينقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كثيراً في كتبه ـ «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا

= جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة!

(انظر في ظلال القرآن المجلد الأول ص ١٨٢ ـ ١٨٤).

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ٨٦، طبع المنيرية ـ القاهرة.

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ص ١١٣.

(٣) إلجام العوام عن علم الكلام: المطبعة الميمنية ص ٢٠.

ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[1].

«وقد أفضتُ في هذا الموضوع لبُعْد الطبائع والعقول في هذا العصر عن فهم طبيعة وسمات ومنهج الأنبياء وسيرتهم في الدعوة والبيان، وفي حياتهم الخاصة وفي حياتهم مع الناس. وطغت الأساليب الصناعية والمناهج الكلامية وأساليب الدعوة والتنظيم الحديثة حتى صار الناس في غفلة بل واستهانة لطريق الأنبياء وسيرتهم والتوى عليهم فهْم القرآن ولم يستطيعوا تذوق أسلوبه الحكيم ولجأوا إلى تأويلات وتكلفات. ولا تزال سيرة الأنبياء في الدعوة هي السيرة المثالية، ولا يزال أسلوب القرآن هو الأسلوب الفطري البليغ الحكيم الذي يُقنع العقول ويفتح القلوب في كل عصر، ويجد فيه كل جيل وكل طبقة البيان الوافي والدواء الشافي ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾. . »[2].

يخاطب أعماق الفطرة، ويطلعها ويؤثر فيها التأثير العجيب.. والحكمة ظاهرة في بيانه، وفي توجيهه، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق.

دعوة الأنبياء بين الإرادة الإلٰهية والأسباب المادية:

إن الله ـ سبحانه ـ هو صاحب السلطان القدير والمشيئة المطلقة، في الخلْق والإبداع والتغيير والتبديل، عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم ذلك الغيب المحجوب، كما يعلم هذا الكون المشهود، وأنه لا سلطان إلا سلطانه، ولا إرادة إلا إرادته، والذي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد، ولا يندّ عنه شأن من شؤونهم، يُصرف أمور الكون الذي خلقه، وأمور العباد الذين يملك ناصية أمورهم، يُصرف ذلك كله بالحكمة والخبرة.. فأولى

(١) كتاب النبوات لابن تيمية ص ١٤٧، ١٤٨

(٢) النبوة والأنبياء للندوي ٦٠ ـ ٦٤

للناس أن يستسلموا إلى توجيهه وشرعه الذي أنزله على رسله، ويسعدوا بآثار حكمته وخبرته. ويفيئوا إلى هُداه وحده، ويخرجوا من التيه والحيرة، إلى ظلال الحكمة والخبرة، وإلى كنف الهدى والبصيرة. فكل ما أنزله على رُسله هو هدى ورحمة للمؤمنين. هدى يقيهم من الضلال، ويُعيِّن الطريق، ويصلهم بالسنن الكونية الكبرى التي لا تختلف ولا تحيد. ورحمة. يرحمهم من الشك والقلق والحيرة والتخبط بين المناهج والطريقات التي لا تثبت على حال، ويصلهم بالله يطمئنون إلى جواره ويسكنون إلى كنفه. ويعيشون في سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم، وينتهون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل

والمنهج القرآني منهج فريد في إعادة إنشاء النفوس، وتركيبها وفق سنن الفطرة الخالصة. حيث تجدها مُتَّسقة مع الكون الذي تعيش فيه، مُتمشية مع السُّنن التي تحكم هذا الكون. في يسر وسماحة..

وقد جعل الله انتصار الحق سُنَّة كونية كخلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار سنّة لا تتخلف.. قد تبطيء.. تبطيء لحكمة يعلمها الله، وتتحقق بها غايات يُقدرها الله. ولكن السُّنة ماضية. وعد الله لا يُخلف الله وعده. ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه. ولوعد الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر.

وإن القارىء للقرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي حفظ تاريخ الأنبياء وحوادث حياتهم وأخبار دعوتهم ـ يلاحظ باستمرار ووضوح، أن الأنبياء بُعثُوا دائماً في بيئة مظلمة حدقة، معارضة لدعوتهم، ثائرة عليها. وبُعثوا في ضعف شديد وفقر تام في الأسباب. وكان كل ما يعتز به الناس من مال ومُلك وشيع وأنصار والأسباب المادية في جانب أعدائهم وفي كفّتهم، وتحت تصرفهم. ولم تكن في جانب الأنبياء وكفّتهم إلا الإيمان الذي لا يرقى إليه شك، والإخلاص الكامل الذي لا يشوبه طمع ولا نفاق، واعتماد على الله والابتهال إليه، والاطراح على عتبة عبوديته، والعمل الصالح، والتقوى، وحسن

النيرة، والأخلاق الفاضلة، وزيادة إلى كل ذلك ـ وزيادة لا يُستهان بقيمتها ـ الدعوة الإيمانية الصحيحة التي تكفّل الله بنصرها فقال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورُسلي. إن الله قوي عزيز﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جُندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]»(١).

هذه سنّة ثابتة ووعد إلهي.. هذه هي الحقيقة في كل دعوة لله، يتجرد فيها العباد لرب العباد، ويخلص فيها المؤمنون قلوبهم لله رب العالمين. إنها غالبة منصورة بإذن الله ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقها. ولكن سُنّة الله الثابتة ووعده القاطع مرهونة بتقدير العليم الخبير يُحققها حين يشاء(٢)..

«ويبدو لقارىء القرآن أن ما حكاه الله تعالى من قصص الأنبياء والرسل وأخبار دعوتهم، وما لقيته من معارضات ومحاربات ومؤامرات، وتألّب القوم عليهم، وتآمرهم بها، ورميهم عن قوس واحدة، والحروب الشعواء التي كانت تقع دائماً بين ضعيف فقير أعزل، وبين جماعة غنية قوية قاهرة، تملك جميع الأسباب، أو ملك مستبد طاغية، ثم النتيجة واحدة دائماً، وهي انتصار الدعوة النبوية وأصحابها، على ضعفهم وفقرهم، وهلاك الأغنياء الأقوياء والملوك الجبابرة رغم قوتهم وبطشهم، أو خضوعهم لهذه الدعوة أو قبولهم لها، يبدو لقارىء القرآن أنه شيء مقصود ليس من المصادفات ـ وقدرة الله المحيطة الشاملة لا تعرف المصادفات ولا تعرف البخت والاتفاق، التي هي منطق الضعفاء الجهلاء ـ وأنه شيء مُطّرد مستمر، وأنه دعوة إلى الإيمان بالقدرة الكاملة التي خلقت الأسباب ولا تزال تملكها وتُصرّفها كيف تشاء، وتُشغلها متى تشاء، وتُعطلها متى تشاء، وأنها لم تعطل ولم تضعف بعد أن

(١) النبوة والأنبياء ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) انظر طريق الدعوة في ظلال القرآن، فصل النصر، ص ٣٥٦ ـ ٣٦١.

خذلتها. ولم تتخلَّ عنها بعد أن ملكتها من أرادت، وأنها ليست في الخلق والإبداع والنصر والغلبة في حاجة إلى الأسباب. إنه دعوة إلى الإيمان بقوة الحق وصلاحيته للبقاء، وبضعف الباطل وسخافته وتهيؤه للانكسار والاندحار: ﴿قل جاء الحق وما يُبدئ الباطل وما يُعيد﴾ [سبأ: ٤٩]، ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. ولكم الويل مما تصفون﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿فأما الزبدُ فيذهب جفاءاً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال﴾ [الرعد: ١٧][1].

لقد جاء الأنبياء بالحق من ربهم. الحق القوي الذي يقذف به الله. فمن ذا الذي يقف للحق الذي يقذف به الله؟ إن الناموس المقرر والسنّة المطردة في هذا الوجود ألا يكون هناك لهو. إنما يكون هناك حق، ويكون هناك حق، فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض، وقد تقرر مصير الباطل فهو إلى زوال..

ولكن الباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً ولكنه بعدُ زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه. والحق يظل هادئاً ساكناً. وربما حسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقي. ولقد يُخيل للناس أحياناً أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير. وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشاً كأنه غالب، ويبدو فيها الحق مُنزوياً كأنه مغلوب. وإن هي إلا فترة من الزمان، يمدّ الله فيها ما يشاء، للفتنة والابتلاء. ثم تجري السنّة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء الأرض والسماء، وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء.

«وهذا النمط من القصص القرآنية دعوة إلى التوكل على الله تعالى ونصره، وإن اختلف الزمان والمكان، والاعتماد على الدعوة وحسن السيرة والعمل الصالح، وإن اكفهرّ الجوّ وقسا الزمان، وأن معجزات النصر

---

(١) النبوة والأنبياء ٨٦ ـ ٨٧.

وعجائب القدرة الإلهية تتكرر، فإذا ذكر القران ما أكرم الله به الرسل من النصر والفتح المبين، وقبول الدعاء والغلبة على الأعداء ذكر ما يُشجع أتباعهم والحاملين لدعوتهم على هذه التجربة، ويُطمعهم في رحمة الله، يقول بعدما ذكر ما أكرم الله به نبيّه أيوب: ﴿رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ [الأنبياء: ٨٤]، ويقول عن يونس: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك نُنجي المؤمنين﴾ [الأنبياء: ٨٨]، ويقول ﴿سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ [ص: ١٢٠، ١٢١]، ويقول: ﴿سلام على ال ياسين، إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ [ص: ١٣٠، ١٣١]، ويقول بعدما ذكر قصة لوط: ﴿نعمة من عندنا كذلك نجزي مَن شكر﴾ [القمر: ٣٥]، ولذلك لم تكن هذه القصص التي تُكوّن جزءاً كبيراً من القران فُكاهة وتسلية أو مادة معلومات تاريخية، إنما هي موعظة وذكرى وحثّ، ودعوة وإرشاد وتوجيه وتقوية وتشجيع: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وكُلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ [هود: ١٢٠]..

إن في هذه القصص لعبرة تلفت القلوب إلى سُنّة الله الخالدة، وقوة الله العظيمة، وحكمته فيما يشاء..

لقد كانت هذه سُنّة الله مع جميع أنبيائه، فنوح يقول له قومه: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ [الشعراء: ١١١]، ويقول متهلاً إلى الله مستغيثاً على ضعفه: ﴿إني مغلوب فانتصر﴾ [القمر: ١٠]، ولوط يقول لقومه: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ [هود: ٨٠]، وشعيب يقول له قومه: ﴿ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً. ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾ [هود: ٩١]، وفرعون يقول عن نفسه وعن موسى في صراحة ووقاحة: ﴿ونادى فرعون في قومه قال: يا قوم: أليس لي

مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تُبصرون. أم أنا خير من هذا الذي مهين ولا يكاد يبين. فلولا أُلقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣]. .

أما أُممهم التي تُعتز إليها فقد كانت ذات البطر أو الحول وذات العدة والعتاد، وذات الزروع والضروع. وقد مرَّ قول هود ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٤]. وقول صالح لقومه: ﴿أتتركون في ما ههنا آمنين، في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩]، وقول شعيب لقومه: ﴿إني أراكم بخير﴾ [هود: ٨٤]. ولكن ماذا كانت النتيجة؟. .

وإنها مجموعة في قوله تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نُمكن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ [الأنعام: ٦]. .

وأما قصة إبراهيم المكررة في القرآن فهي أعظم تحدٍّ لتأثير الأسباب واستقلالها. وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها وأصحابها، وأعظم دليل على ضعفها وعدم غنائها عن أربابها. وكان يُسجل انتصاراً حديداً للإيمان على الشك، والروح على المادة، والتوحيد على نظم الشرك، وقد عاش طوال حياته ثائراً على ما حوله من القوة والسلطان وعبادة المادة والنعمة. والآلهة الزائفة، والقوى المخيفة. وكانت حياة إبراهيم دعوة إلى التوحيد النقي الخالص، وتحقيق لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء. وأنه يخلق الأشياء من عدم، وأنه يخلق الأسباب ويملكها. ويفصل الأسباب عن المسببات، وينتزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها، ويستخرج منها أضدادها ويُسخرها لما يشاء ومتى يشاء. .

لقد كانت حياة إبراهيم، تحدياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره

وعبادة الأسباب، واتخاذها أرباباً من دون الله، ومثلاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة، وأن إرادته فوق كل شيء، أشعل الناس له النيران وقالوا: ﴿حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾، وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها، إنما هي طبيعة مودعة أمانة فيها، إذا أراد أطلق لها العنان، وإذا أراد أمسك الزمام، وحوّلها إلى برد وسلام؛ فخاض فيها مؤمناً مطمئناً واثقاً، وهكذا كان: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠]، وهكذا كانت سُنّة الله معه[١] يُخضع له الأسباب، ويخلق له ما تحار فيه الألباب..»[٢].

«وتلي قصة إبراهيم قصة موسى في تحديها الصارخ للعقل المادي الذي ينظر إلى الأسباب والحوادث كقوانين أبدية جامدة طبعية لا سلطان عليها لأحد، وقوى قاهرة تحكم ولا يُحكم عليها، وجاءت محنةً وبلاءً للذين ضاق تفكيرهم وكَلَّت أبصارهم عن أن تنظر إلى ما هو وراء الأسباب وإلى من هو فوق الأسباب».

«يولد موسى في مصر في بيئة قاتمة خانقة. قد أطبقت على بني إسرائيل كل الانطباق، وسدّت في وجوههم المنافذ والأبواب. حضر شقي ومستقبل مظلم، قلة عدد، وفقر وسائل، وذلة نفوس، وعدو قاهر، وسحرة ظالمة، لا قوة تدافع ولا دولة تحمي. أمة مصيرها معلوم محتوم. قد خُلقت للشقاء والفناء».

وتمضي قصة موسى وحياته على عين الله، ويهلك فرعون وقومه الكبراء الأقوياء الأغنياء، ويملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء، ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمّت

---

(١) نظر تفصيل قصة إبراهيم في المجلد الثاني من هذا الكتاب

(٢) نظر مجلة المسلمون، العددان ٧، ٨ سنة ١٣٨١ هـ، ص ١٨٠، ١٨١ للأستاذ أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء ٩٠ ـ ٩٣.

كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ [الأعراف: ١٣٧]..

«ما هي القوة التي قهر بها موسى أعظم قوة في عصره ومصره؟ وما سرّ انتصار بني إسرائيل على أعدائهم؟ وما سلاحهم الذي واجهوا به العدو القاهر الكاسر وأخضعوا به المحيط الخانق الثائر؟».

اقرأ قصة موسى في هذا الكتاب ـ كما وردت في القرآن ـ تر أن السلاح الذي واجه به موسى فرعون وقومه وانتصر به بنو إسرائيل وتبوؤا الإمامة والزعامة في مصر وحولها هو «الإيمان» و«الطاعة» و«الدعوة إلى الله»، ويتجلى هذا الإيمان وهذه الطاعة والدعوة في تضاعيف القصة ومطاويها..».

«ولا طاعة أعظم من طاعة موسى وانقياده واستسلامه للأمر الإلهي، يؤمر بالتوجُّه إلى أعظم ملوك عصره ـ وهو الثائر الموتور، وهو شديد البطش عظيم السلطان ـ فيقال وقد جاء يبحث عن قبس من النار: **﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾** [النازعات: ١٧]. ويتوجّه إلى بلاط جبّار يدّعي الربوبية فيدعوه إلى الله الواحد القهّار، ويستمر في دعوته وجهاده، وفي وعظه وإرشاده حتى يفتح الله بينه وبين قومه بالحق وهو خير الفاتحين»

«وتجلّى الإيمان في أبرز مظاهره لما رأى موسى أمامه البحر المائج ومن ورائه العدو الهائج. فلا مُتقدَّم ولا مُتأخَّر. وهو وقومه بين طبقتي الرحى. وينديه بنو إسرائيل في جزع وفي فزع **﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾** [الشعراء: ٦١]، ولكنه ثابت الجأش، قوي الإيمان، يعرف أن الله ناصر عَبْده ومُنجز وعْده، يقول في صرامة وثقة: **﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾** [الشعراء: ٦٢]..

لقد كان الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله. القوة التي واجَهَ بها موسى «مشاكل» عصره وقهر بها أعظم أمبراطورية على وجه الأرض، أرقاها مدنية،

وأوسعهم مملكة، وأغناهم لساناً، وأعظمهم جبروتاً»[1]

«ولا تقلّ قصة يوسف في الغرابة ومخالفتها للمألوف المعروف من جريان الحوادث على النسق الطبيعي الخاضعة لقانون العلة والمعلول والسبب والمسبب. فقد اجتمع له من حسد الإخوة وكيدهم له، والبقاء في غيابت الجب مدة من الزمان، والتقاط السيارة له، والرق، ما هو كفيل بالتعرض للهلاك والإذلال والخمول. ولكنه يخرج من كل هذا سليماً معافى، ويعيش، ويجتمع له من الوقوع في امتحان شديد، في العفة والنزاهة والوفاء والشرف. ويعتصم، مع توفر الدواعي القوية والمغريات القاهرة، والإغراء -من شباب وجمال وطلب وإلحاح شديد من جانب، له الفضل وله السلطان وله الاستيلاء- ، لالتصاق التهمة الشنيعة به، والدخول في السجن في تهمة خلقية... وكان فرداً من شعب ينظر إليه المصريون باحتقار واستخفاف كبير، وكان الإسرائيلي آخر من يُفكّر فيه لشرف أو حكومة في مصر، كل ذلك كفيل بإخمال ذكره، وحرمانه من كل ثقة وتكريم، ولكن عكس ذلك يقع بين سمْع الناس وبصرهم، ويتربّع يوسف على أريكة مصر، ويتقلّد مفاتيحها وزمام الأمور فيها ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نُصيب برحمتنا من نشاء، ولا نضيع أجر المحسنين﴾ [يوسف: ٥٦]

عمل وتوجيه وإرشاد:

لقد كانت هذه القصص النبيلة القوية الصادقة مصدر القوة ورباطة الجأش، والأمل المشرق الوطيد، والثقة القوية بالنجاح والفوز والفلاح والانتصار على المعارضين للدعاة والعاملين الذين يعملون على نهج النبوة وعلى طريق الأنبياء: ﴿وكلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نُثبِّتُ به فؤادك، وجاءك في هذه الحق، وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ [هود: ١٢٠]»[2]

---

(١) أبو الحسن الندوي: ثورة في التفكير، المسلمون، المجلد السادس ص ٨٣٠-٨٣٤

(٢) انظر النبوة والأنبياء: ٩٥-١٠٠.

وهكذا كان محمد - ﷺ - نبيٌّ يرشده الوحي، يؤمن بقوة الله، ويؤمن بنصر الله فكان ﴿داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وإن هذا المنهج النبوي من التفكير والعمل هو الذي غيَّر مجرى التاريخ وأتى بالمعجزات وأدهش العقول، وحيَّر الألباب.

«لو كان الرسول الأعظم محمد بن عبد الله - ﷺ - كزعيم عربي - يفكر تفكير الزعماء ويستعرض «الإمكانيات» والوسائل التي كانت تملكها قريش، ولو أنه نظر إلى الأمبراطوريتين العظيمتين اللتين تتوزعان العالم المتمدن المعمور، الأمبراطورية الرومية والأمبراطورية الفارسية، وما تتمتعان به من حول وطول، وقد عرف قوتهما وسعة مملكتهما - وهو الفقيه الواعي - لما جاز له في شريعة العقل - أن يتوجه بدعوته إلى الإنسانية جميعاً، ويكتب إلى سيِّدي العالم المعاصر ورئيسي الامبراطوريتين الغربية والشرقية يدعوهما إلى الإسلام، ولبقي الوضع الذي كان يسود من قرون. فمتى تملك هذه الحفنة البشرية التي آمنت به القوة التي تضارع قوة الأمبراطوريتين بل تفوقهما حتى تهزمهما وتدحرهما؟ وإلى متى كان يجب عليه أن ينتظر؟ وماذا كان مصير العالم ومصير الإنسانية لو اتجه هذا الاتجاه وفكَّر هذا التفكير؟ لقد شقيت الإنسانية إذن شقاءً طويلاً. وتأخر أو توقف طلوع الصبح الصادق، ولكان للإنسانية تاريخ غير هذا التاريخ.

ولكنه - ﷺ - نبيٌّ يُؤمر فيعمل، ويتلقى التوجيه والإرشاد من السماء فَيُنفِّذ، ولكنه مؤمن، يؤمن بقوة الله، ويؤمن بنصره، ويؤمن بأن الضعيف مع نصره قوي، والقوي بخذلانه ضعيف، ويؤمن بقوله تعالى ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمَن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ويؤمن بقوله ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ويؤمن بمواعيد الله على النصر والإيمان والعمل الصالح والتوحيد والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله..

ثم يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي بعد هذا العرض الإيماني: «إنني

لست ممن يدعو إلى رفض الأسباب والتوكل السلبي، ولست ممن يعيش في عالم الخيال والأحلام، ولست ممن ينكر الحاجة إلى الاستعداد وممن لم يقرأ قوله تعالى ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقد لمتُ العالم الإسلامي ومن تزعمه من الشعوب والدول لوماً شديداً في كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» على التقصير في الاستعداد الحربي والصناعي والتخلف عن أوربا في ذلك، واعتبرت ذلك سبباً من أسباب شقاء الإنسانية وتجاه العالم من الرشاد إلى الضلال، ومن البناء والازدهار إلى الهدم والدمار.

ولكني أُعارض هذا التفكير الذي تسلَّط على عقلية العالم الإسلامي في العهد الأخير، وهو النظر إلى الأمم الإسلامية ـ في مختلف أنحاء العالم ـ ككتل بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الأخرى التي لا رسالة لها في العالم، ولا دعوة لها للأمم، توزن في ميزان «الإمكانيات» والوسائل والاستعداد المادي، وتُقوَّم بما تملكه من ثروة وذخائر، والتناسي أو الإعراض عن قوتها الكبرى «الإيمان والطاعة والدعوة إلى الله»[1].

وإن هذه القصص لم تكن مصدر القوة والعبرة للأجيال بعد الأجيال إلا بهذا الأسلوب الإيماني القوي، وإلا إن كانت دليلاً على أن دعوة الأنبياء هي التي يُكتب لها الانتصار والازدهار، وإن الصفات والسيرة والأخلاق التي يرضاها الله هي التي تُقدر لها الفوز والفلاح، مهما عارضتها الأسباب وتتابعت ضدها القوى وتداعى عليها الأعداء، ومهما ضعف أصحاب هذه الدعوة النبوية والسيرة المرضية ماديًا ﴿**قد كان لكم آية في فئتين التقتا، فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره مَن يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾ [آل عمران: ١٣].

إن سيرة الأنبياء التي حكاها الله تعالى في كتابه، في إجمال تارة وفي تفصيل أخرى، وذكرها مراراً وتكراراً، تجمع بينها نقطة لا تختلف، وهي

---

(١) مجلة المسلمون، المجلد السادس، ص ٨٣٤ ـ ٨٣٦.

انتصار دعوتهم على جميع المعارضات وفوزهم على أعدائهم: إما بإيمان هؤلاء الأعداء، وقبولهم للدعوة وإخلاصهم لها وتفانيهم في سبيلها؛ وإما بهلاكهم ودمارهم: ﴿فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا، والحمد لله ربِّ العالمين﴾ [الأنعام: ٤٥].

وهذه منزلة هذه الدعوة عند الله، التي تتوقف عليها سعادة الإنسانية ونجاتها، يخرق الله لها أحيانًا نواميس الفطرة وكثيرًا من القوانين الطبيعية ويحدث ما لا يخطر على بال، أما المصالح أو القومية أو حبّ العلو والسيادة والطموح والكبرياء، والزعامات الزائفة التي لا تبني خيرًا، ولا تهدم شرًّا، وليس للإسلام والإنسانية فيها مصلحة، وليس لها مع قوى الشر ولا مع الفساد والكفر والفسوق نزاع، إنما تسعى وتناضل لأن يكون كل هذا الفساد وكل هذه المعاصي تحت سيطرتها وإشرافها، وفي ولايتها وحضانتها، وأن يعود نفعها إليها، فلا قيمة لها عند الله، ولا تعدل عنده جناح بعوضة، ولا يبالي الله في أي واد هلكت، وأي عدو تسلط عليها، ومتى تفاجئها الموت، أو ثورة عارمة جارفة لا ترحم ولا ترثي، وأزمات ومشكلات لا أول لها ولا آخر.

إن التفكير السائد ـ مع الأسف ـ اليوم في الشعوب الإسلامية، وفي أنحاء العالم الإسلامي، والمنطق المعقول الذي خضعت له جميع الطبقات وآمنت به إيمانًا راسخًا، هو أن الميزان الفاصل هو القوة المادية مع كل سيرة وخلق، ومع كل عقيدة ومنهج للحياة، وأصبح من عقيدة العاملين ـ وحتى دعاة الدين ـ وهتافهم: «المادة قبل كل شيء». وهذا المبدأ هو الذي تنقضه وتُبطله سيرة الأنبياء والمرسلين، وما جرى لهم من الحوادث، وما ظهر على أيديهم من العجائب والمعجزات، وما أكرمهم الله به من النصر والفتح المبين، وما فعل بأعدائهم»(1).

---

(1) النبوة والأنبياء: ١٠٠ ـ ١٠٢.

«منذ قرون طويلة بدأنا ـ معشر المسلمين ـ ننظر إلى أنفسنا كمجموعة بشرية موزعة في العالم، منتشرة في البلاد، ذات قوميات مختلفة، ولغات متنوعة، وثقافات محلية، محاطة بظروف وأجواء خاصة، ذات طاقات و«إمكانيات» محدودة، تجمع بين فروعها المختلفة وأُسَرِها المتشتتة «وحدتان» اثنتان لا ثالثة لهما. «العقيدة» و«الخضوع للغرب والانحصار عليه في المعيشة والسياسة».

ومنذ مدة طويلة بدأنا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا في خارطة العالم بهذه الطاقات و«الإمكانيات» وبما نملكه من الوسائل، والمواد الخام، وحاصلات البلاد، ومنتجاتها، وعدد النفوس، والقوة الحربية، فنرى كفّتنا راجحة في إقليم، طائشة في آخر، راجحة في حين، طائشة في حين آخر

ومنذ مدة طويلة آمنّا بسيادة الغرب وقيادته، وأنها أمر مُقرّر، وواقع ليس منه مفرّ، وآمنّا بأنه وضع لا يقبل التحوّل ولا التطور، وتجدّد المثل القديم وأصبح عقيدة شائعة «إذا قيل لك إن التتر انهزموا فلا تُصدّق»[1]

وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة. وإذا فكّرنا في ذلك ـ على حين غفلة من العلم والدراسة والكياسة ـ استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا وسهمنا من المخترعات الحربية والطاقات الذرية، فيستولي علينا اليأس والتشاؤم، وآمنّا بأننا لم نُخلق إلا للخضوع والخنوع، ونعيش على هامش الحياة، وعيالاً على الغرب، مرتبطين معقودي النواصي بقطار الغرب..

هكذا يفكر العرب، وهكذا يفكر المسلمون في باكستان، وفي أندونيسيا، وفي تركيا.. هذا هو التفكير «السليم» وهذا هو المنطق

(١) كان ذلك مثلاً شائعاً في المجتمع الإسلامي في القرن السابع الهجري عند غزو التتار للعالم الإسلامي وإخضاعه من أقصاه إلى أقصاه.

«السديد» كما يسميه الناس، وهذا هو الاستنتاج العلمي المبني على الدراسة والإيمان بقوة الأسباب وطبيعة الأشياء.

ولكن هناك فئات لا تقبل هذا التفكير، ولا تؤمن بهذا المنطق، بل تثور على هذا المنهج الفكري، ثورة قوية عارمة. إن لها منهجاً ـ في التفكير وفي العمل ـ مختصاً بها. وإلى هذا المنهج يرجع الفضل في أقصى الثورات وأصلحها وأقواها في التاريخ، وفي تغير الأوضاع في العالم تغيراً مدهشاً، وفي سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل، وصلاح المجتمع البشري بعد الفساد الشامل.

ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج، ولا مستقبل للأمم ـ التي تؤمن بالمبادئ وتحتضن الدعوات ـ إلا في هذا المنهج.

ولنفهم هذا المنهج وقوته وفضله ونتائجه الباهرة للعقول، نرجع قليلاً إلى الماضي ونستوحي الصحف الصادقة»(1).

إن ما قصّ الله علينا من سيرة الأنبياء ومصير أعدائهم في القرآن، وما ورد فيه من أمثلة رائعة تعرض هذا التفكير على الخط المستقيم، وتبين لنا بوضوح أن سرّ انتصارهم، والسلاح الذي واجهوا به أعداءهم وانتصرت به جماعتهم الصغيرة المستضعفة، ونالت الإمامة والزعامة في العالم، هو: «الإيمان» و«الطاعة» و«الدعوة إلى الله». ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ [السجدة: ٢٤]. ﴿**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قِبْلة، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين**﴾ [يونس: ٨٧]. ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ [سورة محمد: ٧]. ﴿**فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم**﴾ [محمد: ٣٥]..

«هذه رسالة هذه القصص الحكيمة البليغة الصادقة وهذا هو الدرس

(١) مجلة المسلمون، المجلد السادس ٨٢٩ ـ ٨٣١.

الحكيم الذي تُلقيه علينا حياة الأنبياء وسيرتهم القصصة. وهذا هو المنهج الرشيد الذي سار عليه الأنبياء من غير استثناء وسجّله عنهم القرآن. ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج. ولا مستقبل للأمم التي تؤمن بالعقيدة إلا في هذا الطريق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل»(١).

هذا هو الحق الذي لا يلابسه باطل ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ [النحل: ٩]، فثمة الطريق إلى الله الذي سار عليه رُسله. وهو طريق قاصد مستقيم لا يلتوي ولا يتجاوز الغاية. وثمة طرق أخرى لا توصل ولا تهدي. فأما الطريق إلى الله فقد كتب على نفسه كشفها وبيانها على لسان رُسله وعلى سيرة أنبيائه.

هذا هو السبيل القاصد. الطريق المستقيم الذي لا يلتوي كأنه يقصد قصداً إلى غايته فلا يحيد عنها. فالحق الذي يلوذ به المؤمنون يستند إلى الحق الكامن في فطرة الوجود وطبيعته، فيؤلف قوة هائلة. لا يقف لها الباطل، الذي لا جذور له في بنية الكون. وإنما هو كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار وكالزبد يذهب جفاء، إذ لا أصالة له في بناء الكون.. كالحق وهذه حقيقة ضخمة. ومؤثر كذلك عميق..

إن المؤمن الذي يشعر أن الحق الذي معه - هو شخصياً وفي حدود ذاته - إنما يتصل بالحق الكبير في كيان هذا الوجود ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ [الحج: ٦]، فيتصل الحق الكبير الذي في الوجود بالحق المطلق في الله سبحانه..

إن المؤمن الذي يشعر بهذه الحقيقة على هذا النحو الهائل، لا يرى في الباطل - مهما تضخم وانتفخ وطغى وتجبّر وقدرَ على الأذى المقدّر - إلا فقاعة طارئة على هذا الوجود، لا جذور لها ولا مدد، تنطفىء من قريب، وتذهب كأن لم تكن في هذا الوجود.

---

(١) النبوة والأنبياء: ١٠٢ - ١٠٤.

ولكن كيف يتوجّه الناس بعيداً عن الحق وهو واضح بيّن تراه العيون؟ ﴿فذلكم الله ربُّكم الحق﴾ [يونس: ٣٢].

والحق واحد لا يتعدد، ومن تجاوزه فقد وقع على الباطل، وقد ضلَّ التقدير ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ فأنّى تُصرفون﴾ [يونس: ٣٢].

وإنه لعجيب أن يصرف الناس عن إدراك هذه الحقيقة ويتوجهون بعيداً بعيداً عن الحق إلى الإفك ويضلون!!!

وبعد، نقف بقلوب مفتوحة، وأرواح مشدودة، ونُردد مع رسول الله - ﷺ - قوله العظيم: «اللهم لك الحمد، أنت قيِّم السماوات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، لك مُلك السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحقّ ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، ومحمد حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

البشرية بين الهُدى والرَّدَى:

لقد خلق الله الإنسان وأودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠] ليختار أيهما شاء، «ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين. والنجد الطريق المرتفع. وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء، وأن تخلقه بهذا الازدواج لحكمة الله في الخلق، وإعطاء كل شيء خلقه، وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود.

---

(١) رواه الشيخان.

إن هذا الكائن الإنساني مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر. كما أنه قادر على التوجُّه إلى الخير والشر سواء، وأن هذه القدرة كامنة في كيانه وفي صميمه في صورة استعداد. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتُوجهها. ولكنها لا تخلقها خلْقاً. لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً، فقد جاء «الإنسان» هذه الدنيا متحلياً بفطرة عالية، مُستحقٌ أن ينال الحسنى عند الله إن اختار الخير على الشر مُستعيناً بما فيه من قوة الفهم والإدراك، أو ينال العقاب إن خرج على فطرته وآثر الشرّ على الخير.

ولكن مما لا ريب فيه في الوقت نفسه أن الفطرة الإنسانية، مع انطوائها على تلك الفضيلة، لا تخلو من نقص وضعف من نواح أخرى، ومن ثم لم يترك الله تعالى أمر هداية الإنسان وضلاله في هذه الدنيا على فطرته وحدها ولم يعتبرها كافية لمجازاته يوم القيامة، بل أرسل إليه أنبياءه ورسله تباعاً ليُبيِّنوا له مقتضيات فطرته، ويُتمُّوا حُجة الله على خلقه ﴿رُسلاً مبشرين ومُنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [النساء: ١٦٥].

من أجل ذلك بعث الله تعالى هداته وأنبياءه في كل أمة من أمم الأرض، ولما أراد سبحانه وتعالى أن يُتمّ حجته على خلْقه ولا يُبقي عندهم أي عذر يحتجون به لبقائهم على الضلال، أرسل هؤلاء الرسل والأنبياء من البشر أنفسهم، لتتضح الأمور للبشر بالبشر أنفسهم فلا يبقى لهم مجال للحجة التي تتبادر إلى الذهن حين يُطالَبون بأن يتخذوا عِلْم غير البشر وعَملهم أُسوة لهم وحجة عليهم. وكذلك ما أرسل الله تعالى في قوم نبياً إلا من أنفسهم على قاعدة معروفة عامة لا نكاد نستثني منها إلا أمثلة قليلة جداً. وذلك أيضاً لئلا تكون الشعوبية عرقلة في سبيل إقبال الناس على الحق وقبولهم إياه.

وكذلك ما بلّغت رُسل الله أقوامهم رسالته إلا بألسنتهم أنفسهم حتى يتجلى لهم الحق جلاءً تاماً. وكذلك كانت اللغة التي كان يستعملها هؤلاء الرسل للدعوة والبلاغ في مُنتهى السهولة والوضوح وأقرب ما تكون لفهم الناس وأحبّ إلى قلوبهم. ثم إن هؤلاء الرسل لم يكتفوا بدعوة الناس إلى الحق مرة، بل جعلوا هذه الدعوة غاية وقفوا لها حياتهم. وكانوا هم أسبق الناس إلى العمل بما يدعونهم إليه، وكان أتباعهم وأصحابهم يقتدون به اقتداءً شاملاً في مختلف مظاهر حياتهم...»[1]

ولكن الإنسانية في تاريخها الطويل كانت وما تزال «موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء، أو تجربة المُحترفين والمُحترفين من المُشرعين والحكماء، وقد عثر بأبناء جسمهم وعقليتهم ومدنيتهم عبث الوليد بجسب القرطاس[2] يطويه، وينشره، ويمدّه، ويكوّره، ويُمزّقه إذا شاء. ويحرقه إذا شاء، وهانت عليهم الحياة الإنسانية وطاقاتها، ومكانتها ومواهبها، وما أودع الله فيه من طبيعة الطاعة والتقليد والتفاني والاعتماد على القادة، فلم يتقوا الله فيه، ولم يُراعوا فيها حقّ ولا حرمة، ولا إلاّ ولا ذِمّة، واتخذوها مطيّة لشهواتهم ونزعاتهم، وقنطرة إلى سيادتهم ورياستهم وتحقيق أغراضهم. وقد جرّ عليها جهل هؤلاء القادة حيث وعدم اعتصامهم من الخطأ والضلال، وسوء الفهم وسوء التعبير أحياناً، والشهوات التي ركبوا عليها، والنزعات والأنانية - الفردية والقومية - والعصبية الجنسية والوطنية، قد جرّ كل ذلك على الإنسانية البائسة شقاءً طويلاً، وويلاً عظيماً، وأفقد الثقة بقيادتهم، وشكك تشكيكاً كبيراً في إخلاصهم، وصحة معلوماتهم، وحسن قصدهم، وسعادة الإنسانية تحت قيادتهم وإشرافهم، والتاريخ الإنساني مليء بهذه المآسي والمهازل، والمضحكات المبكيات، ولا تزال شعوب كثيرة في الشرق والغرب تحت رحمة هؤلاء القادة الأغمار العابثين، يلعبون بها، ويتداولونها

---

(١) «إلى هذه الدعوة» للأستاذ أمين أحسن الإصلاحي، المسلمون، المجلد الخامس، ٤٠٦-٤٠٧.

كالكرة، ويُجرون عليها عمليات وتجارب جديدة كثيرة، يعترفون بخطئها وإخفاقها بعد قليل، وقد يفتضحون ويُزيح عنهم الستار من يتسلَّم القيادة منهم ويخلفهم. وقد يُسجل عليهم ذلك التاريخ، وتشعر به الأجيال الآتية.

وشرّ هذه التجارب المُخفقة، والنتائج الخاطئة ما كان في باب العقيدة والإيمانيات التي يتوقف عليها المصير، وتتوقف عليها السعادة في الدنيا، والنجاة في الآخرة، والتي تُشكِّل الأخلاق الصحيحة، وتُكوِّن المدنية الصالحة، والعبادات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربِّه، والشرائع التي تُنظِّم حياته، فالعثرة في ذلك لا تُقال، والكسر في ذلك لا يُجبر، فمسّت الحاجة إلى قادة أمناء معصومين من الضلال والأوهام والأخطاء، مُبرَّئين من كل طمع ومساومة، وطلب مكافأة ومقابل وربح مادي، لا تتغلب عليهم الشهوات، ولا تُؤثر فيهم النزعات، لا يصدرون عن آرائهم ومعلوماتهم الناقصة، وتجاربهم القاصرة ومصالحهم الخاصة. وإذا صدر منهم خطأ في الاجتهاد والتقدير نبّههم الله إلى ذلك فلم يمكثوا عليه ولم يتمادوا فيه

ولذلك نقرأ في سورة الشعراء، أن كل نبي بُعث على أمة يُؤكد لهم أمانته وإخلاصه، واقرؤوا معي الآيات التالية:

- ﴿كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربِّ العالمين﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١٠٩].

- ﴿كذبت عاد المرسلين. إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربِّ العالمين﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٧].

- ﴿كذّبت ثمود المرسلين. إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني

---

(١) مأخوذ من شعر البحتري في قوله:

إن الخطوب طوينني ونشرنني   عبث الوليد بجانب القرطاس

لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾ [الشعراء: ١٤١ - ١٤٥]

- ﴿كذبت قوم لوط المرسلين. إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٤]

- ﴿كذّب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾ [الشعراء: ١٧٦ - ١٨٠].

هذه الوحدة التي تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين في أُمم مختلفة، وفي عصور مختلفة، ذات معنى عميق: وهو أن الأمانة وهي الكلمة الجامعة من معاني الصدق وصحة التلقي من فوق، التلقي من الله تعليم الحكيم، وصحة الإلقاء إلى أسفل، إلى الأمة التي بُعث فيها النبي، هو **الركن الأساسي في مفهوم النبوة والرسالة ونظامها**. ولا أجْمع لهذه المعاني ولا أبلغ من كلمة: «الأمانة» - في لغة العرب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يوصف بها الرسول العربي - ﷺ - قبل البعثة وألهمت أهل مكة الأميين أن يُلقّبوه بالصادق الأمين.

وكذلك الإخلاص والنزاهة، والبُعد عن كل طمع، والزهد في كل منفعة شخصية، أو منفعة ترجع إلى الأسرة والعشيرة والأولاد، وقد اتفقت الفِطَر السليمة والعقول المستقيمة على حبّ هذا الداعية المخلص، الناصح الأمين، ولذلك قال صالح في أسف واستغراب: ﴿... **يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم ولكن لا تحبون الناصحين**﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقال الموجِّه الكريم الذي جاء من أقصى المدينة يسعى: ﴿**يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون**﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وهذا هو المعنى الذي أكّده موسى - عليه السلام - لفرعون فقال:

﴿.. يا فرعون إني رسول ربِّ العالمين. حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببيِّنة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥].

وقد كان في هذه «العصمة» والأمانة والنزاهة، التي تصف بها الأنبياء ضمان لسلامة أتباعهم وأمتهم في العقائد والشرائع، وأمان مما استهدفت له الأمم والأجيال البشرية الماضية من الوقوع في المهالك، والتورط في الشبهات، والحيرة في أمر هؤلاء القادة ونتيجة أتباعهم»[١]

حقيقة العصمة:

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة»، وهو يذكر ما يجب أن يتصف به هداة السُّبل ومقيموا الملل - يعني الأنبياء - سلام الله عليهم، يقول رحمه الله:

«ثم لا بد له - لهذا العَلَم - أن يُثبت على رؤوس الأشهاد، أنه عالم بالسنَّة الراشدة، وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والضلال، ومن أن يُدرك حصة من الإصلاح ويترك حصة أخرى لا بد منها، وذلك ينحصر في وجهين:

إما أن يكون راوياً عن رجل قبله انقطع عنده الكلام لكونهم مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتج عليهم ويُفحمهم أن يكون هو الذي انقطع عنده الكلام وأجمعوا عليه، وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الإجماع، يكون فيهم، أو تكون الرواية محفوظة عندهم، وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذه السنن منها ووجوه منافعها، وعلمه الآثام ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان ولا بالعقل المتصرف في المعاش ولا بالحسّ، بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان، فكما أن الجوع والعطش

---

(١) النبوة والأنبياء ص ٦٥ - ٦٩.

وتأثير الهواء المُسخّن والمُبرِّد لا يدرك إلا بالوجدان. فكذلك معرفة ملاءمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق إليه إلا الذوق السليم. وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه إنما يكون لخلق الله علماً ضرورياً فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمُبصر عند الإبصار، فإنه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن تكون عينه مؤوفة وأن يكون الإبصار على خلاف الواقع وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغوية. فإن العربي مثلاً لا يشك أن الماء موضوع لهذا العنصر، ولفظ الأرض لذلك، مع أنه لم يقم له على ذلك برهان، وليس بينهما ملازمة عقلية. ومع ذلك فإنه يخلق فيه علم ضروري، وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبلية، يكون بها تلقي العلم الوجداني على سنن الصواب دائماً، وأن يتتابع الوجدان ويتكرر تجربة صدق وجدانه، وعند الناس[1] إنما يكون بأن يصحح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن ما يدعو إليه حق. وأن سيرته صالحة بعيدة عنها الكذب. وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات، حتى لا يَشُكُّوا أن له في التدبير العالي منزلة عظيمة وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة؛ وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله، ولا يباشر المعصية، ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيماً، وتُصيِّره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم والماء الزلال عند العطشان، فهذا كله لا يتحقق انصباغ أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى مَن يعتقدون فيه هذه الأمور، أصابوا أم أخطأوا والله أعلم»[2].

إن هذه الجماعة التي هذا شأنها في العصمة وصحة العلم. وهذه منزلتها من الأمانة والإخلاص والنزاهة، وقد أفرغها الله في قالب من الاعتدال والسداد، وربّاها فأحسن تربيتها، وأدّبها فأحسنَ تأديبها: ﴿ولِتُصنع

---

(١) أي كونه مأموناً من الخطأ عند الناس؛ يكون إذا صح عندهم أن ما يدعو إليه حق الخ.
(٢) حجة الله البالغة «باب الحاجة إلى هداة السبل ومقيمي الملل» ج ١ ص ٨٣، ٨٤.

على عيني﴾ [طه: ٢٩]، ﴿أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ [ص: ٤٦، ٤٧]. وهي الجديرة الحليقة ـ بحكم العقل والذوق والمنطق ـ بالطاعة والاقتداء والتقليد والاتباع. ولذلك قال الله تعالى بعدما ذكر جماعة من أنبيائه المكرمين، وذكر ما أكرمهم به من الهداية والصلاح والفضل على العالمين، والاجتباء والكتاب والحكم والنبوة ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠].

لقد أحاطت العناية الإلهية والقبول الرحماني نفوس الأنبياء، والحياة التي كانوا يعيشونها، وشملت أخلاقهم وعاداتهم وسُنَنهم وطرق معيشتهم، واختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة، وأخلاقهم من بين أخلاق الناس، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التي تعوّدها الناس، حتى إذا سلكوا شُعباً ووادياً وسلك الناس شُعباً ووادياً، كان شُعبهم وواديهم أحبّ إلى الله من شُعب الناس وواديهم، ونفذت فيهم وفي كل ما اختاروه وأصبح لهم شعاراً وبهم خاصاً محبة الله ورضاه، حتى أصبح تقليدهم واتباعهم واتخاذ شاراتهم وشعائرهم والتخلق بأخلاقهم، والتشبُّه بهم، أقوى الأسباب وأقرب الطرق، وأيسرها يجلب محبة الله. وصار من اتبعهم وتشبَّه بهم من المحبوبين، فضلاً عن أن يكون من المُحبين، لأن المُتشبِّه بالحبيب حبيب، وبالبغيض بغيض، وأصبح ذلك أصلاً من الأصول، والقانون الذي لا يتبدل ولا يتغير على مرّ الزمان، واختلاف المكان، وأصبحت الدعوة إليه عامة وعلانية، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين ـ ﷺ ـ: ﴿قل إن كنتم تُحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ [آل عمران: ٣١]..»(١).

وهذه الآية الكريمة تمثل أكبر الخطوط العريضة الأساسية في خط سير دعوة الأنبياء، وتُقرر في كلمات قصيرة حقيقة الإيمان، وحقيقة الدين في

(١) النبوة والأنبياء: ٦٩ ـ ٧٣.

جلاء لا يحتمل الشبهات، «وبالعكس من ذلك كان الميل إلى الظالمين والكفار، وإيثار طريقتهم والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله، والبعد عنه» قال تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون﴾ [هود: ١١٣]. والله سبحانه يخاطب عباده المؤمنين: لا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا. إلى الجبارين الطغاة الظالمين، أصحاب القوة في الأرض، الذين يقهرون العباد بقوتهم ويُعبّدونهم لغير الله من العبيد. لا تركنوا إليهم فإن ركونكم إليهم يعني إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذي يزاولونه، ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير.

الحضارة الربَّانية:

وإن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب، ولم يحملوا ديناً جديداً ـ هو الإسلام ـ فحسب، بل كانوا مؤسّسي حضارة ومدنية وعِشرة واجتماع وأسلوب من الحياة جديد خاص، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية، ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى، الحضارات التي تُسمى الحضارات الجاهلية، امتيازاً في الأساس وفي الروح وفي الأشكال والتفاصيل.

وكان إبراهيم الخليل الحنيف ـ ﷺ ـ إمام هذه الحضارة الحنيفية، المُؤسَّسة على توحيد الله تعالى والإيمان به وذكره، المُؤسَّسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم، المُؤسَّسة على الحياء والأدب مع الله، والإنابة والرحمة، ورقّة العاطفة، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة: ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾ [هود: ٧٥] و﴿إن إبراهيم لأوّاه حليم﴾ [التوبة: ١١٤]، وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة، وكان رسول الله محمد ـ ﷺ ـ وهو حفيده مُجدِّد هذه الحضارة ومُتممها، وهو الذي بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود، وأرسى قواعدها، وشدّ بنيانها، وجعلها خالدة باقية، عالمية.

إن هذه الحضارة الربانية لا تعرف الوثنية والشرك ولا تسمح به في لون من الألوان، في أي مكان وزمان. فكان أعظم دعاء إبراهيم وأكبر همه ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان. واجتنبوا قول الزور. حنفاء لله غير مشركين به﴾ [الحج: ٣١، ٣٢]

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات، والتكالب على حطام الدنيا، والتناحر على جيف المادة. والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب. إنها دعوة لم تزل عقيدتها. ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ [القصص: ٨٣]». القلوب مُعلّقة بتلك الدار، السامقة عُلوًّا، البعيدة الأفق.. فلا يقوم في نفوس أهل هذه العقيدة حظر الاستعلاء على أحد من خلق الله، فكُلّهم عبيد لربّ واحد، هو ربّ العالمين..

«إنها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان. والتمييز بين الألوان والأوطان. فالناسُ كلهم من آدم، وآدم من تراب. لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣]».

والله ـ سبحانه ـ يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها، ليردّها إلى أصل واحد، وإلى ميزان واحد، هو الذي تقوم به الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق..

يا أيها الناس. يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرقون شعوباً وقبائل. إنكم من أصل واحد. فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً.

يا أيها الناس. والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم.. من ذكر

وأنثى. . وهو يُطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل. إنها ليست التناحر والخصام. إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوُّع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس لِلَّون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله. إنما هنالك ميزان واحد تَتَحدَّد به القيم، ويُعرف به فضل الناس: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. . والكريم حقاً هو الكريم عند الله. وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين: ﴿إن الله عليم خبير﴾. .

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس. ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخَلْقهم من أصل واحد. كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله. وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت. وكلها من الجاهلية وإليها، تَتَزيَّا بشتى الأزياء، وتُسمى بشتى الأسماء. وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة: راية الله. . لا راية الوطنية. ولا راية القومية. ولا راية البيت. ولا راية الجنس. فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليس مِنَّا مَن دعا إلى عصبية وليس مِنَّا مَن

قتل عمى عصبية وليس منّا من مات على عصبية»[١].

وقال ـ ﷺ ـ لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين: «دعوها فإنها مُنتنة»[٢].

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، المجتمع الإنساني العالمي، الذي تحاول البشرية في خيالها المُحَلِّق أن تُحقق لونا من ألوانه فتخفق، لأنها لا تسلك إليه الطريق الوحيد الواصل المستقيم.. الطريق إلى الله.. ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة.. راية الله..

إن الحضارة الربانية «تُعرف في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها، وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله، والحياء والتواضع، وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة والجهاد لله، وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية، والخدمة على الاستخدام، تُعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة، وإنقاذها من براثن الجاهلية، والدعوات الطاغية، وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية وخيراتها المُنتشرة الباقية.

إنها حضارة عُجنت مع اسم الله ومراقبته، وصُبغت بصبغة الله وقامت على أساس الإيمان، فلا يمكن تجريدها عن الطابع الديني واللون الرباني والروح الإيماني»[٣].

وعلى هذا يدعو القرآن إلى اتباع الأنبياء والأخذ بسيرتهم، والسير على منهجهم العام في الحياة، والتَشَبُّه بهم ما أمكن فيقول: ﴿لقد كان لكم

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله.

(٣) رسالة «ملة إبراهيم وحضارة الإسلام» للأستاذ الندوي ص ١٣ ـ ١٥.

في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]. ويأمر المسلمين بأن يدعوا ربهم ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]..

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. وفّقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل، ووفّقنا للاستقامة عليه بعد معرفته..

والمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته. والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين. وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه. فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين.. وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذي ينسّق بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى رب العالمين

ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾..

فهو طريق الذين قسم لهم نعمته. لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه. والذين ضلُّوا عن الحق فلم يهتدوا أصلاً إليه.. إنه صراط السعداء المُهتدين الواصلين..

«ولا شك أن في مقدمة هؤلاء المُنعم عليهم وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلين، وجعل الرسول ﷺ هذا الدعاء في صُلب الصلاة، وكلما كان الإنسان أتبع لِسُنَنه، وأكثر تخلّقاً بأخلاقه وأشبه به هدياً ودلاً وسمتاً كان أقرب إلى الله وأعلى منزلة عنده.

والقرآن يطلب للأنبياء الإجلال المُنبعث من القلب، والتوقير، والتبجيل العميق، والحب العاطفي، ولا يكتفي بالطاعة المجردة من كل عاطفة وحبّ وإجلال، كطاعة الرعية والسوقة للملوك وكثير من قادة الجنود

وزعماء الأحزاب ولا يكتفي بدفع لضرائب وتنفيذ الأحكام فقال سبحانه: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتُعَزِّروه﴾ [الفتح: ٩]. وقال: ﴿فالذين آمنوا به وعَزَّروه﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ولذلك أمر بكل ما يحفظ لهم حرمتهم واحترامهم، ونهى عن كل ما يحطّ مكانتهم ويجرح كرامتهم، ويهون شأنهم، ويفقد مهابتهم، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى. لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ [الحجرات: ٢، ٣][(١)].

إنها دعوة للمؤمنين ليُوقروا النبي الذي دعاهم إلى الإيمان والهدى.. لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم.. ليحذروا هذا المزلق الذي قد ينتهي بهم إلى هبوط أعمالهم وهم غير شاعرين ولا عالمين، ليتقوه!

وقال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ [النور: ٦٣]. فالله سبحانه وتعالى يدعو إلى ضرورة توقير الرسول ـ ﷺ ـ في كل الأحوال. فلا يُدعى باسمه: يا محمد، أو كنيته: يا أبا القاسم، كما يدعو المسلمون بعضهم بعضاً. إنما يُدعى بتشريف الله له وتكريمه: يا نبي الله. يا رسول الله..

فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير للأنبياء جميعاً ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ فهم ينابيع الهدى وأئمة التقوى وخيرة خلق الله الذين اصطفاهم وفضّلهم على العالمين بشرف النبوة والرسالة ﴿لا نُفرق بين أحد من رسله﴾.

---

(١) النبوة والأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩.

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا تخيّروا بين الأنبياء»[1].

قال الحافظ في «الفتح»[2]: قال العلماء في نهيه ـ ﷺ ـ عن التفضيل بين الأنبياء: إنما نهى عن ذلك من يقوله برأيه لا من يقوله بدليل، أو من يقول بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو المراد: لا تفضلوا جميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة، فالإمام مثلاً إذا قلنا إنه أفضل من المؤذن لا يستلزم نقص فضيلة المؤذن بالنسبة للأذان، وقيل: النهي عن التفضيل إنما هو في حق النبوة نفسها، كقوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحَد من رُسله﴾ ولم يَنه عن تفضيل بعض الذوات على بعض، بقوله: ﴿تلك الرسل فضَّلنا بعضهم على بعض﴾.

وقال الحليمي: الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي مجادلة أهل الكتاب، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة، لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يُؤمن أن يُخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر، فيفضي إلى الكفر، فأما إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان، فلا يدخل في النهي.

«وقد جاءت النصوص الصريحة الكثيرة، تطلب حبّ الرسول وإيثاره على النفس والأهل والولد؛ فقد جاء في الصحيحين: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»، وكذلك: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان. من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما» الحديث.

لأن الطاعة الكاملة المخلصة والتحلق بأخلاق الرسول، والانصباغ

---

(1) أخرجه البخاري (٦٤٣٨) و (٢٤١٢) وأحمد ٣/١، ٣٣، وابن حبان بإسناد صحيح والنص له انظر الإحسان (٦٢٣٧).

(2) الفتح ٦/٤٤٦.

بصبغته، لا يتأتى إلا بهذا الإجلال المنبعث من أعماق القلب، والحب العميق الذي يملك على الإنسان مشاعره، ويستولي على قلبه.

وما ضعف العالم الإسلامي في العمل بالشريعة اليوم والتكاسل في الطاعات، والابتعاد عن كل ما يشق على النفس، وما تهاون كثير من طبقة العلماء والمثقفين الثقافة الدينية الواسعة بالسُّنن وهدي الرسول إلا لضعف هذا الإجلال الذي اهتمّ به القرآن كثيراً، وضعف عاطفة الحبّ أو فقدانها؛ العاطفة التي كانت ولا تزال مصدر قوة لا نظير لها، ومردّ عجائب ومعجزات في التاريخ، وهو فراغ لا يُملأ بأكبر مقدار من العقل والعزم والنظام، وخسارة لا تُعوّض بشيء.

«وإن مصير الأمم التي يُبعث فيها هؤلاء الأنبياء مربوط باتّباعهم والانقياد لهم، والاجتماع تحت رايتهم، والتمسك بأهدابهم والسير في ركبهم بعزّ عزيز وذلّ ذليل، فلا تفلح أمة مهما أُوتيت من الحول والطول والذكاء والوسائل ومهما تقدّم الزمان وتقدمت الحضارة وتنوعت الفلسفات وتغيرت الأحوال إلا باتباع هذا النبي، والحبّ له والانتصار لدعوته، رَضِيَتْ بذلك أم أبَتْ، وكل أمة تحاول أن تنال العزة والسؤدد والكرامة والقوة الحقيقية من غير هذا الطريق، مُعتمدة على سياستها الحكيمة، أو الانضمام إلى معسكر من المعسكرات القوية فلن يكون ذلك، وليس عاقبتها إلا الذلّ والهوان والإخفاق الذريع، والانشقاق الداخلي، والخيبة عاجلاً أو آجلاً.

والعالم الإسلامي بصفة عامة، والعالم العربي بصفة خاصة، خير شاهد على ذلك، فقد كبر على هذين العالَمَيْن في الزمن الأخير اتباع الرسول النبي الأمي ـ ﷺ ـ وثَقُل عليهما إيثار ما أمر به وطلبه، على ما تأمر به نفوس القادة والزعماء، واستنكفا عن الانتساب إليه والافتخار به والظهور في مظهر دينه أمام الأمم والحكومات، وآمَنا بضرورة التنصُّل عن دينه وأحكامه وحضارته، ومن أكثر أقطارهما بالقومية والوطنية والاشتراكية والفلسفات الحديثة وإلى الآن لم يقضيا وطراً ولم يهزما عدواً. وهذا هو

العالم العربي ـ ولا معذرة وعلى استعفاء ـ موزع على نفسه، لم يستطع أن يحل مشكلة فلسطين في هذه المدة الطويلة ويستعد المقدسات، ولم يحتل المكان اللائق به في زعامة العالم الإسلامي أو قيادة العالم الإنساني، وفي كل يوم مشكلة طريفة وقضية جديدة.

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال لأصحابه العرب في الشام، وهم كبار الصحابة وقدة الفتح الإسلامي، وقد عيّروه ببعض صنيعه الذي لا يتفق مع رئيس حكومة كبيرة: «إنكم كنتم أذلّ الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزّ بغيره يُذلكم الله»(١).

منهج الله القويم القديم:

ومن خلال استعراض كل حلقة من حلقات الدعوة الإلهية إلى البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها، وتأصّل جذورها. كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله. وذلك من خلال دعوات الأنبياء والرسل لأقوامهم.

ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس المسلمين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم، وحقيقة نسبهم العريق! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية. وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة والقيام عليها. وهي **منهج الله القويم القديم**.

وإن الإنسان ليأخذه الدهش والعجب، كما تغمره الروعة والخشوع، وهو يستعرض ذلك الجهد الموصول من الرسل ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ لهداية البشرية الضالة المعاندة، ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحداً بعد واحد لهذه البشرية المُعرضة العنيدة.

وقد يعن للإنسان أن يسأل: ترى تساوي الحصيلة هذا الجهد

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٠، النبوة والأنبياء: ٨٠ ـ ٨٤.

الطويل، وتلك التضحيات النبيلة، من لدن نوح ـ عليه السلام ـ إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام؟

ترى هل تساوي هذا الجهد الشاق، الذي استغرق عمراً طويلاً بالغ الطول، لم يكتف الناس فيه بالإعراض عن الرسل ودعوتهم، بل أتبعوهم بالسخرية والاتهام وهم يتلقون كل ذلك بالصبر والحسنى، والأدب الجميل والبيان المنير.

تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ، من مطلع البشرية، وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنقطع على مدار التاريخ. من رسل يُستهزأ بهم، ويُحرقون بالنار، ويُنشرون بالمنشار، أو يهجرون الأهل والديار.

حتى تجيء الرسالة الأخيرة، فيجهد فيها محمد ـ ﷺ ـ ذلك الجهد المشهود المعروف، هو والمؤمنون معه، ثم تتوالى الجهود المضنية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل؟

ترى تساوي الحصيلة كل هذه الجهود، وكل هذه التضحيات، وكل هذا الجهد الطويل الشاق؟ ثم . . ترى هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله، المتمثلة في استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل تترى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار، من هذا الخلق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان؟!

والجواب بعد التدبر: أن نعم . . وبلا جدال . . !

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد، وكل هذا الصبر، وكل هذه المشقة، وكل هذه التضحيات النبيلة المُطَّردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل!

ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته؛ بل أكبر من الأرض وما عليها؛ بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن

تكون فيه هنأة ضائعة لا تكاد تحسّ أو تُرى!

وقد شاءت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنساني بخصائص معينة، تجعل استقرار هذه الحقيقة في ضميره وفي نظام حياته موكولاً إلى الجهد الإنساني ذاته، بعون الله وتوفيقه. ولسنا نعلم لِمَ خلق الله هذا الكائن بهذه الخصائص، ووكله إلى إدراكه وجهده وإرادته في تحقيق حقيقة الإيمان في ذاته وفي نظام حياته، ولم يجبله على الإيمان والطاعة لا يعرف غيرهما كالملائكة. أو يمحضه للشر والمعصية لا يعرف غيرهما كإبليس.

لسنا نعلم سرّ هذا. ولكننا نؤمن بأن هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله في خلق هذا الكائن بهذه الخصائص!

وإذن فلا بد من جهد بشري لإقرار حقيقة الإيمان في عالم الإنسان. هذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل، وثلة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون، اختارهم لإقرار هذه الحقيقة في الأرض، لأنها تساوي كل ما يبذلون فيها من جهود مضنية مريرة، وتضحيات شاقة نبيلة.

إن استقرار هذه الحقيقة في قلب معناه أن ينطوي هذا القلب على قبس من نور الله، وأن يكون مستودعاً لسرّ من أسراره، وأن يكون أداة من أدوات قدره النافذ في هذا الوجود. وهذه حقيقة لا مجرد تصوير وتقريب.. وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه، ومن كل هذا الكون الكبير!

كما أن استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر - أو جماعة منهم - معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية، وارتفاعها إلى المستوى الذي يؤهلها لهذا الاتصال. معناه اتصال الفناء بالبقاء، والجزء بالكل، والمحدود الناقص بالكمال المطلق... وهي حصيلة تربى على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوماً أو بعض يوم في عمر البشرية الطويل. لأن تحققها - ولو في هذه الصورة - يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل

النور في صورة عملية واقعية، تحدهد شيئاً إليها طوال الأجيال!

وقد أثبت الواقع التاريخي المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ إلى الآفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغتها باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها. وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة. وأن الفترات التي استقرت فيها هذه الحقيقة في الأرض، وتسلّم أهلها قيادة البشرية كانت قمة في تاريخ الإنسان سامقة. بل كانت حلماً أكبر من الخيال، ولكنه مُتمثّل في واقع بحياة الناس

وما يمكن أن ترتقي البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل، سواء جاءت مُجملة كما هي في الرسالات الأولى، أو مفصّلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة.

والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله، هو هذا الذي أثبته الواقع التاريخي من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان في حياتها ما لم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر لا علم، ولا فلسفة، ولا فن، ولا نظام من النظم وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله؛ بل انحدرت قيمها وموازينها وإنسانيتها، كما غرقت في الشقاء النفسي والحيرة الفكرية والأمراض العصبية، على الرغم من تقدمها الحضاري في سائر الميادين، وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع العقلي، وأسباب السعادة المادية بجملتها. ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبداً ولم يرتفع تصورها للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة الإيمانية، ولم تتوثق صلتها بالوجود قط كما توثقت في ظل هذه العقيدة، ولم تشعر بكرامة «النفس الإنسانية» قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك

الحقيقة. والدراسة الواعية للتصور الإسلامي لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني تنتهي حتماً إلى هذه النتيجة.

وهذا كله يستحق - بدون تردد - كل ما يبذله المؤمنون من جهود مُضنية، ومن تضحيات نبيلة، لإقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض. وإقامة قلوب تنطوي على قبس من نور الله، وتتصل بروح الله. وإقامة حياة إنسانية يتمثل فيها منهج الله لحياة، وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم، كما يرتفع فيها واقع حياتهم إلى ذلك المستوى الرفيع، الذي شهدته البشرية واقعاً في فترة من فترات التاريخ.

وستُعْرِض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم الكرام. وستذهب مع القيادات الضالة المضللة المُمعنة في الضلال. وستُعذّب الدعاة إلى الحق أنواعاً مختلفة من العذاب، وتُنكل بهم ألواناً شتى من النكال كما ألقت إبراهيم في النار، ونشرت غيره بالمنشار، وسخرت واستهزأت بالرسل والأنبياء على مدار التاريخ. ولكن الدعوة إلى الله لا بد أن تمضي في طريقها كما أراد الله. لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة، ولو صغرت فانحصرت في قلب واحد ينطوي على قبس من نور الله، ويتصل بروح الله!

إن هذا الموكب المتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه أزكى السلام - لينبىء عن استقرار إرادة الله على اطراد الدعوة إلى حقيقة الإيمان الكبيرة، وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحصيلة. وأقل نسبة لهذه الحصيلة هي أن تستقر حقيقة الإيمان في قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت في سبيلها ولا ينكصون عنها. وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون من جواذبها، ويتجردون من رقتها. وهذا وحده كسب كبير. أكبر من الجهد المرير. كسب للدعاة. وكسب للإنسانية التي تُشَرَّف بهذا الصنف منها وتُكرَّم. وتستحق أن يُسْجِد الله الملائكة لهذا الكائن، الذي

يفسد في الأرض ويسفك الدماء. ولكنه يتهيأ ـ بجهده هو ومحاولته وتصحيته ـ لاستقبال قبس من نور الله. كما يتهيأ لأن ينهض ـ وهو الضعيف العاجز ـ بتحقيق قدر الله في الأرض، وتحقيق منهجه في الحياة، ويبلغ من الطلاقة والتحرر الروحي أن يضحي بالحياة، ويحتمل من المشقة ما هو أكبر من ضيع الحياة، ينجو بعقيدته وينهض بواجبه في محاولة إقرارها في حياة الآخرين، وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع. وحين يتحقق لروح الإنسان هذا القدر من التحرر والانطلاق، يهون الجهد، وتهون المشقة، وتهون التضحية، ويتوارى هذا كله، لتبرز تلك الحصيلة الضخمة التي ترجح الأرض والسماء في ميزان الله...

تذكير...

ويهتف القرآن الكريم بالناس أن ينظروا في علاقتهم بالله، وفي أنفسهم ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧].

والناس في حاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة في معرض دعوتهم إلى الهدى، ومحاولة إخراجهم مما هم فيه من الظلمات إلى نور الله وهداه. في حاجة إلى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء المحتاجون إلى الله. وأن الله غني عنهم كل الغنى. وأنهم حين يدعون إلى الإيمان بالله وعبادته وحمده على آلائه فإن الله غني عن عبادتهم وحمدهم[1]، وهو المحمود بذاته

---

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «... يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» رواه مسلم (٢٥٧٧)، وأحمد ٥/١٥٤ و١٦٠، ١٧٧. انظر تتمة تخريج الحديث في جامع العلوم والحكم ٢/٣٢ ـ الحديث الرابع والعشرون.

إن جميع الخلق كلهم من صنع الله، ولو كانوا على صفة أتقى خلقه من البر =

وأنهم لا يعجزون الله ولا يعزّون عليه فهو إن شاء أن يذهب بهم ويأتي بخلق جديد من جنسهم أو من جنس آخر يخلفهم في الأرض، فإن ذلك عليه يسير.

والناس في حاجة أن يُذكَّروا بهذه الحقيقة، لئلا يركبهم الغرور وهم يرون أن الله - جل وعلا - يعنى بهم، ويرسل إليهم الرسل، ويجاهد الرسل أن يردوهم عن الضلالة إلى الهدى، ويُخرجوهم من الظلمات إلى النور فيركبهم الغرور فيظنون أنهم شيء عظيم على الله! وأن هُداهم وعبادتهم تزيد شيئاً في ملكه تعالى[1] والله هو الغني الحميد.

التقوى، لم يزد ذلك ملكه شيئاً، ولا قدر جناح بعوضة، ولو كانوا على صفة أنقص خلقه من الفجور، لم ينقص ذلك من مُلكه شيئاً، فدل على أن مُلكه - سبحانه - كامل على أي وجه كان لا يزداد ولا يكمل بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي ولا يتأثر به شيء (جامع العلوم والحكم ٢/ ٤٧).

إن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله. فصاحب السلطان الحقيقي في هذا الكون هو سبحانه. وأما الذين يتكبرون وشأنهم مثل كالهباءة التائهة في مُلك الله أو أقل..

وبقدر ما يقرر الإسلام كرامة الإنسان على الله وتكريمه على كل ما في الأرض، وكل من في الكون، بقدر ما يقرر هوانه على الله حين يكفر به، ويعتو ويتجبر، ويدعي خصائص الألوهية بغير حق. فهذه وتلك في التصور الإسلامي، هي حقيقة الأمر والواقع كذلك: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً. ولله ما في السموات والأرض وكفى بالله وكيلاً. إن يشأ يُذهبكم أيها الناس ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾ [النساء: ١٣١ - ١٣٣]

وكذلك الله عز وجل حاكياً عن موسى: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ [إبراهيم: ٨].

هذه هي خلاصة التصور الإسلامي في الرسل والرسالات: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضلّ عليها﴾ [يونس: ١٠٨]، ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضلّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء: ١٥]

هذه هي الكلمة الأخيرة في سنة الله الماضية. ولكل إنسان أن يختار لنفسه فهذا هو الحق قد جاءه من رب العالمين على لسان رسله الكرام

وإن الله سبحانه يمنح العباد من رعايته، ويفيض عليهم من رحمته، ويغمرهم بسابغ فضله ـ بإرسال رسُله إليهم، واحتمال هؤلاء لرسل ما يحتملون من إعراضهم وإيذائهم، وثباتهم على الدعوة إلى الله بعد الإعراض والإيذاء..

إن الله سبحانه إنما يعامل عباده هكذا رحمةً منه وفضلاً وكرماً ومنّاً. لأن هذه صفاته المتعلقة بذاته. لا لأن هؤلاء العباد يزيدون في ملكه شيئاً بهداهم، أو ينقصون من ملكه شيئاً بعماهم. ولا لأن هؤلاء العباد مخلوقات نادرة عزيزة صعبة الإعادة أو الاستبدال. فيغتفر لهم ما يقع منهم لأنهم صنف لا يُعاد ولا يُستبدل.

وإن الإنسان ليدهش ويحار في فضل الله ومنّه وكرمه، حين يرى هذا الإنسان الصغير الجاهل القاصر، الضعيف العاجز، ينال من عناية الله ورعايته كل هذا القدر الهائل!

والإنسان ساكن صغير من سكان هذه الأرض. والأرض تابع صغير من توابع الشمس. والشمس نجم مما لا عدّ له ولا حصر من النجوم. والنجوم إن هي إلا نقط صغيرة ـ على ضخامتها الهائلة ـ متناثرة في فضاء الكون الذي لا يعلم الناس حدوده. وهذا الفضاء الذي تتناثر فيه تلك النجوم كالنقط التائهة إن هو إلا بعض خلق الله!

ثم ينال الإنسان من الله كل هذه الرعاية.. يُنشئه، ويستخلفه في الأرض، ويهبه كل أدوات الخلافة ـ سواء في تكوينه وتركيبه أو تسخير القوى والطاقات الكونية اللازمة له في خلافته ـ ويَضلّ هذا المخلوق ويتبجّح حتى لَيُشرك بربه أو يُنكره. فيرسل الله إليه الرسل، رسولاً بعد رسول، ويُنزّل على الرسل الكتب والخوارق. ويطّرد فضل الله حتى لينزل في كتابه الأخير للبشر قصصاً يُحدّث بها الناس. ويقصّ عليهم ما وقع لأسلافهم، ويُحدثهم عن ذوات أنفسهم، ويكشف لهم عما فيها من قوى وطاقات، ومن عجز وضعف، ثم إنه ـ سبحانه ـ لَيُحدّث عن فلان وفلان بالذات، فيقول لهذا:

ـت فعلت وأنت تركت. ويقول لذاك: هذا حلاً لمشكلتك. وهذا خلاصاً من ضيقتك!

كل ذلك، وهذا الإنسان هو الساكن الصغير من سكان هذه الأرض، التابعة الصغيرة من توابع الشمس. التائهة في هذا الوجود الكبير حتى ما تكاد تحسّ! والله - سبحانه - هو فاطر السماوات والأرض، وخالق هذا الوجود بما فيه ومن فيه بكلمة - بمجرد توجُّه الإرادة - وهو قادر على أن يخلق مثله بكلمة وبمجرد توجُّه الإرادة..

والناس خُلقاء أن يُدركوا هذه الحقيقة ليدركوا مدى فضل الله ورعايته ورحمته. وليستحيوا أن يستجيبوا للفضل الخالص والرعاية المجردة والرحمة الفائضة بالإعراض والجحود والنكران.

فهي من هذه الناحية لمسة وجدانية موحية، إلى جانب أنها حقيقة صادقة واقعة - والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر، لأن الحقيقة حين تجلى تفعل في النفس، ولأنه هو الحق وبالحق نزل. فلا يتحدث إلا بالحق، ولا يقنع إلا بالحق، ولا يعرض إلا الحق، ولا يشير بغير الحق..

إن الذي يتنكب طريق الهدى ومنهج الله القويم، لن يضرّ الله شيئاً، إنما الإنسان هو الخاسر. فالله غني عن الناس وعن إيمانهم - ولكنه - رحمة منه بالعباد - شرع لهم هذا المنهج لسعادتهم هم، ولخيرهم هم. وما يتنكبه متنكب حتى يلاقي جراءه من الشقوة والحيرة في ذات نفسه وفيمن حوله. وحتى يفسد النظام وتفسد الحياة ويفسد الخلق، وتعوجّ الأمور كلها، ويذوق الناس وبَال أمرهم في تنكبهم للمنهج الوحيد الذي تستقيم في ظله الحياة، وتستقيم في ظله النفوس، وتجد الفطرة في ظله السلام مع ذاتها، والسلام مع الكون الذي تعيش فيه.

والعباد - مهازيل مهما بلغوا من القوة والبطش ﴿لن يضروا الله شيئاً﴾ [آل عمران: ١٧٦]، والأمر في هذا لا يحتاج إلى بيان، فهؤلاء ﴿الذين

اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم﴾ [آل عمران: ١٧٧].

إن الذين يتنكبون طريق الله، ويسارعون في الكفر إنما يحاربون الله، وهم أضعف من أن يضروا الله شيئاً. وهم إذن لن يضروا دعوته، مهما سارعوا في الكفر، ونحوا في الطغيان، وتعلنوا في الجبروت، ومهما أصابوا أولياء الله بالأذى. فهذا يكون العبيد، وكيدهم وخداعهم وأذاهم الصغير..

والمعركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية بين دعاة الحق وأهل الباطل ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [المائدة: ١١، التوبة: ٥١].

وقوة الله وحدها هي الغالبة ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٢١]. وما عدا ولاية الله وقوته فهو واهن ضئيل هزيل، مهما علا واستطال، ومهما تجبّر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل...

وهو وحده ـ سبحانه ـ العزيز القادر الحكيم المدبّر لهذا الوجود. والعبيد المحاربين لا يعلمون أن إرادة الله ماضية وأن أمره هو الذي يكون، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ [البقرة: ١٠٢]

حقٌّ وجدٌ

إن العقيدة واحدة وإن تعدّد الرسل على مدار الزمان ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد اقتضت مشيئة الله ـ كما تقدّم ـ أن يكون الرسل كلهم من البشر ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ [يوسف: ١٠٩، النحل: ٤٣].

إن القرآن يستعرض أمة الرسل الواحدة استعراضاً يطول بعض الشيء عند عرض حلقة من قصة إبراهيم، ونوح، وموسى، وداود، وسليمان.. ويقصر عند الإشارة إلى قصص إسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وإلياس، واليسع..

وفي الاستعراض القرآني تتجلى المعاني التي يهدف إليها في سياق عرضه في سور القرآن في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات.

إن هذه الرسالة حقّ وجدّ. كما أن هذا الكون حقّ وجدّ. فلا مجال للّهو في استقباله، ولا مجال لطلب الآيات الخارقة، وآيات الله في الكون وشأن الكون كله توحي بأنه الخالق القادر الواحد، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد.

لقد مضى الرسل - صلوات الله عليهم - أمة واحدة، ذات كلمة واحدة، وعقيدة واحدة، ووجهة واحدة. فإذا الناس من بعدهم أحزاب متنازعة لا تلتقي على منهج ولا طريق ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزب بما لديهم فرحون. فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾ [المؤمنون: ٥٢، ٥٣].

ويُخرج التعبير القرآني المبدع هذا التنازع في صورة حسّية عنيفة. لقد تنازعوا الأمر حتى مزّقوه بينهم مزقاً، وقطعوه في أيديهم قطعاً. ثم مضى كل حزب بالمزقة التي خرجت في يده. مضى فرحاً لا يفكر في شيء، ولا يلتفت إلى شيء! مضى وأغلق على حسّه جميع المنافذ التي تأتيه منها أية نسمة ضيقة، أو يدخل إليه منها أي شعاع مضيء! وعاش الجميع في هذه الغمرة مذهولين مشغولين بما هم فيه، مغمورين لا تنفذ إليهم نسمة مُحيية ولا شعاع منير.

ثم شاءت رحمة الله أن يُرسل خاتم النبيين محمد - ﷺ - رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى هدى الله ونوره، وكانت هذه الرسالة الأخيرة سُنّة من سنن الله أن يُرسل الرسل. وأن يُنزل عليهم الكتب. وهذا الكتاب الجديد،

الذي يُنكرون تنزيله، هو كتاب مبارك وصدق الله.. فإنه والله لمبارك..

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ...﴾ [الأنعام: ٩٢]..

فهو يُصدِّق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عند الله - في صورتها التي لم تُحرَّف لا فيما حرَّفته المجامع وقالت إنه من عند الله - هو يُصدِّقها لأنها جاءت بالحق الذي جاء به في أصول العقيدة. أما الشرائع فقد جعل لكل أمة شرعةً ومنهاجاً، في حدود العقيدة الكبرى في الله

والذين يكتبون عن الإسلام فيقولون إنه أول دين جاء بالعقيدة الكاملة في توحيد الله؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة في حقيقة الرسالة والرسول؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة في الآخرة والحساب والجزاء .. وهم يقصدون الثناء على الإسلام!..

هؤلاء لا يقرأون القرآن! ولو قرأوه لسمعوا الله تعالى يُقرر أن جميع رسله - صلوات الله عليهم وسلامه - جاءوا بالتوحيد المطلق الخالص الذي لا ظل فيه للشرك في صورة من صوره. وأنهم جميعاً جاءوا بالحقيقة الرسول، وبشريته وأنه لا يملك لهم ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا يعلم غيباً، ولا يبسط أو يقبض رزقاً .. وأنهم جميعاً أنذروا قومهم بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء .. وما سائر حقائق العقيدة الإسلامية الأساسية جاء بها كل رسول .. وصدّق الكتاب الأخير ما جاءت به الكتب قبله

إنما تلك الأقوال أثر من آثار الثقافة الأوروبية التي تزعم أن أصول العقيدة - بما فيها العقائد السماوية - قد تطورت وترقت، بتطور الأقوام وترقيها! وما يمكن أن يدافع عن الإسلام بهدم أصوله التي يقررها القرآن! فليحذر الكُتّاب والقارئون هذا المرتقى الخطير!!!

ويُشير القرآن إلى ميثاق الله مع النبيين عامة، ومع النبي - ﷺ - وأولي العزم من الرسل خاصة، في حمل أمانة هذا المنهج، والاستقامة عليه.

وتبعة للناس، وتنتفي عنه في الأمم التي أرسل إليها، وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم، بعد انقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه:

﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً. ليسأل الصادقين عن صدقهم، وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً﴾ [الأحزاب: ٧، ٨]

إنه ميثاق واحد ممتد من لدن نوح - عليه السلام - إلى خاتم النبيين محمد - ﷺ - ميثاق واحد، ومنهج واحد، وأمانة واحدة يتسلمها كل منهم حتى يسلمها.

وقد عمم النص أولاً ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾. ثم خصص صاحب القرآن الكريم وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين ﴿ومنك﴾ ثم عاد إلى أولي العزم من الرسل، وهم أصحاب أكبر الرسالات - قبل الرسالة الأخيرة - ﴿ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾

وإنه لميثاق غليظ متين ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده، ليتلقوا وحيه، ويبلغوا عنه، ويقوموا على منهجه في أمانة واستقامة. فهو حق وجدّ ﴿وسوف تُسألون﴾ [الزخرف: ٤٤].

وهكذا يربط القرآن الكريم بين الحق في الدعوة، والحق الواحد في نظام الكون، وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود، وبين وحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة، ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها.

وإنها لتبعة ضخمة حملتها أمة محمد خاتم النبيين - ﷺ - الأمة التي اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة، اختارها لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة. ولكن من يسمّون مسلمين هُمْ مُعرضون عن الهدى، والموقف خطير، وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته. لاهيةً قلوبهم عن الحق المبين، نفوسهم فارغة لا تعرف الجدّ. ولا هم يتأملون هذا الحق

في جدّ، ولا هم يتدبرون. ولا هم يتمكرون، لقد استرخوا عن حمل الأمانة، وفقدوا الشعور بقيمة هذا الحق المقدس، واتجهوا إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال، فلا تصلح للنهوض بعبء، ولا الاضطلاع بواجب، ولا القيام بتكليف، وتخلوا عن الأمانة.. ﴿وسوف تُسألون﴾.. فلا حجة لأحد، وسوف تُسألون عن هذا كله يوم القيامة ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ [الصافات: ٢٤].

وينقل القرآن القلوب إلى ساحة الآخرة ﴿فلنسألنّ الذين أُرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين. فلنقُصنّ عليهم بعلم. وما كنا غائبين﴾ [الأعراف: ٦]

فهو السؤال الدقيق الوافي، يشمل المُرسل إليهم ويشمل المُرسلين. وتعرض فيه القصة كلها على الملأ الحاشد، وتفصل فيه الخفايا والدقائق! يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون ويسأل الرسل فيجيبون ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شيء أحصاه الله ونسوه! يقصه عليهم - سبحانه - بعلم فقد كان حاضراً كل شيء، وما كان - سبحانه - غائباً عن كل شيء.. وهي لمسة عميقة التأثير والتذكير والتحذير!

إنه أمر عظيم ورهيب ﴿وإذا الرسل أُقّتت. لأي يوم أُجّلت؟ ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل؟ ويل يومئذ للمكذبين﴾ [المرسلات ١١ - ١٥]..

دعوة الله في الأرض طوال الأجيال.. فالرسل قد أُقّتت لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك، لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم الذي يرجح السموات والأرض والجبال. للفصل في جميع القضايا المعلّقة في الحياة الأرضية. والقضاء بحكم الله فيها، وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيال والقرون.

إنه لا مجال هنا للمغالطة ﴿والوزن يومئذ الحق. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ [الأعراف: ٨]، لا مجال للمغالطة في الوزن؛ ولا التيسير في الحكم، ولا الجدل الذي يذهب بصحة الأحكام والموازين..

فمن ثقلت موازينه في ميزان الله الذي يزن بالحق فحاز الفلاح وأي فلاح بعد النجاة من النار، والعودة إلى الجنة، في نهاية الرحلة المديدة، وفي ختام المطاف الطويل؟

﴿ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ [الأعراف: ٩].

فقد خفّت في ميزان الله الذي لا يظلم ولا يُخطىء. وقد خسروا أنفسهم. فماذا يكسبون بعد؟ إن المرء ليحاول أن يجمع لنفسه. فإذا خسر ذات نفسه فما الذي يبقى له؟

لقد خسروا أنفسهم بكفرهم بآيات الله ورسله **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾**.

وهكذا لا مفر من التعبير المصور في مواجهة الهول وجلال الحافل في مجلس الفصل بمحضر الرسل، وهم يتلقون الحساب الأخير في الموعد المضروب لهم. هذا الإنسان في هذا الأوان له طعمه وله وزنه وله وقعه المُزَلْزِل الرهيب.

وبعد، هناك فئة خيّرة من عباد الرحمن، على استقامة، تؤمن بالمنهج الإلهي، تحمل الأمانة، أقدامها في الأرض، وقلوبها مُعلَّقة بربِّ العالمين، تستمد منه العون والتثبيت، والنور الذي يُضيء ظلام الطريق.

ها هم أولاء ماضون في قوة جادّة شاعرة، ماضون مهما لاقوا ويلاقون من عنت وبطش وجبروت الطغاة الشاردين عن الصراط المستقيم.. **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألَّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون﴾** [فصلت: ٣٠، ٣١]..

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم

يحزنون. أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤]..

ويستجيش القرآن القلوب، ويلوح للأرواح بالمتاع الحبيب. متاع الصحبة في الآخرة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

﴿ومَن يطع الله والرسول، فأولئك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً! .﴾ [النساء. ٦٩].

إنها اللمسة التي تستجيش مشاعر كل قلب. فيه ذرة من خير، وفيه ذرة من صلاح وفيه أثارة من التطلع إلى مقام كريم في صحبة كريمة، في جوار الله الكريم.. وهذه الصحبة لهذا الرهط العلوي.. إنما هي من فضل الله. فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها.. إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم ﴿ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليماً﴾.

إن الروح لترف وهي تتشوق إلى هذه الصحبة في الآخرة، فهذا الأمر عظيم الجليل يشعل القلوب والأرواح في أمل وطمأنينة

الباب الثالث

القصة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

(خصائصها وأغراضها)

القصة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف
(خصائصها وأغراضها)

عرف العرب القصّة منذ نشأتهم في أقدم العصور، والتراث العربي حفل بالأشكال القصصية المختلفة[1] الكثيرة، التي تدل بوضوح كامل على بروز العصر القصصي في الأدب العربي[2].

وعلى عادة المستشرقين في نفي كل شيء علمي عن الحضارة العربية والإسلامية، أشاعوا أنّ العربية لم تقدم ظاهرة أدبية تستحق التقدير، وأنها عاريةٌ عن أي فضل أو قيمة، وأنها خاويةٌ من الفن القصصي[3].

---

(١) انظر محمود تيمور «القصص في أدب العرب ماضيه وحاضره» ص ٢٤، ٢٥.

(٢) انظر موسى خليل سليمان «الأدب القصصي عند العرب» ص ١٥

(٣) وقد نشر هذا البهتان المبين. المستشرق الفرنسي «أرنست رينان» في كتابه «تاريخ اللغات السامية» ص ٥٤٠، ط: بولاق وكذلك أنكر المستشرق «ديبور» على العرب قدرتهم على القصّة. انظر كتابه «تاريخ الفلسفة في الإسلام» ترجمة وتعليق عبد الهادي أبو ريده - القاهرة ١٩٣٨ [القصص في الحديث النبوي ص ٤١].

وقد شهد على تذوق العرب للقصّة بعض المستشرقين في آرائهم المُنصفة من مثل كارل بروكلمان الذي يقول في حديثه عن أوّلية النثر «لم يكن الشاعر وحده هو الذي تهفو إليه الأعين عند عرب الجاهلية، بل كان القاصّ يتبوّأ أيضاً مقاماً هاماً إلى جانب الشاعر في سمر الليل، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة، وفي مجالس أهل القرى والحضر» تاريخ الأدب العربي ١/١٢٨ دار المعارف ط ثالثة، ١٩٦٢

وقد سلك كثير من الباحثين العرب الذين يطيرون بعيني المستشرقين هذا الطريق في هذا الافتراء، وكان هدف «الاستشراق» «تفريغ» التراث العربي من كيان ووجدان الأمة. ومن ثم رميه بالنقص، وأنه عالة على غيره من فكر الأمم الأخرى وحضارتهم..

لقد جاء القرآن الكريم حافلاً بألوان متعددة من القصة، ومن المعروف البدهي أن القرآن قد جاء على طريقة العرب في التعبير، فقد نزل على النبيّ محمد - ﷺ - بلسان عربي مبين ﴿لسانُ الذين يُلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ [النحل: ١٠٣]، ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. نحن نَقصُّ عليك أحسنَ القَصَص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ [يوسف: ٣].

«والحديث النبويّ الشريف، وهو في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم في البيان العربي، جاء زاخراً بالنصوص القصصيّة مما تمتلئ به كتب الحديث النبوية...»(١)

و«القصّة في القرآن ليست عملاً فنياً مُستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه - كما هو الشأن في القصّة الفنيّة الحرّة، التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد - إنّما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل.

والقرآن كتاب دعوة دينيّة قبل كل شيء؛ والقصّة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها، شأنها في ذلك شأن مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يُفصلها والأمثال التي يضربها ... إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات..»(٢).

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٢٠.

(٢) التصوير الفني في القرآن ص ١١٩.

إنّ القرآن لا يقصّ قصّة إلا ليواجه بها حالة. ولا يقرّر حقيقة إلا ليُغيّر بها باطلاً... إنّه يتحرك حركة واقعية في وسط واقعي حي. إنّه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد، ولا يقصّ قصصه لمجرد المتاع الفني!

«لقد خضعت القصّة القرآنيّة في موضوعها، وفي طريقة عرضها، وإدارة حوادثها، لمقتضى الأغراض الدينيّة، وظهرت آثار هذا الخضوع في سمات مُعيّنة سنعرض لها بعد قليل، ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني، ووفاءها بهذا الغرض تمام الوفاء، لم يمنع بروز الخصائص الفنيّة في عرضها، ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير، وهي التصوير.. فالتعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني، فيما يعرضه من الصور والمشاهد. بل إنّه ليجعل الجمال الفني أداةً مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسّة الوجدان الدينيّة، بلغة الجمال الفنيّة، وإدراك الجمال الفنّي الرفيع يشي بحسن الاستعداد لتلقي التأثير الديني، حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع، مستوى التعبير عن العقيدة، وحين تصفو النفس لتلقي رسالة الجمال التي تَبلغ في العقيدة حدَّ الكمال..»[1].

يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يُساق القصص من أجلها هي التي تُحدد مساق القصّة، والحلقة التي تُعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تُؤدَّى بها، تنسيقاً للجوّ الرّوحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتُحقق غايتها النفسيّة، وتُلقي إيقاعها المطلوب.

ويحسب أُناس أنّ هنالك تكراراً في القصص القرآني، لأنّ القصّة الواحدة قد يتكرّر عرضُها في سور شتّى، ولكنّ النّظرة الفاحصة تؤكد أنّه

---

(١) المصدر السابق.

ما من قصّة، أو حلقة من قصّة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يُساق، وطريقة الأداء في السِّياق، وأنّه حيثما تكرّرت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار[١].

ويزيغ أُناس فيزعمون أنّ هنالك خَلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصد به إلى مجرد الفن - بمعنى التزويق الذي لا يتقيد بواقع - ولكنّ الحق الذي يلمسه كلّ مَن ينظر في هذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة، هو أنّ لمناسبة الموضوعيّة هي التي تُحدِّد القدر الذي يُعرض من القصّة في كلّ موضع، كما تحدِّد طريقة العرض وخصائص الأداء.

والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ، وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجوّ والسِّياق، وتحقّق الجمال الفني الصّادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع لعرض، وقوّة الحق، وجمال الأداء[٢].

وقصص الأنبياء في القرآن يُمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطّويل. ويعرض قصّة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل؛ كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هذه النخبة المختارة من البشر، وطبيعة تصوّرهم للعلاقة بينهم وبين ربّهم الذي خصّهم بهذا الفضل العظيم. وتَتَبُّع هذا الموكب الكريم في طريقه اللاحب يفيض على القلب رضىً ونوراً وشفافية؛ ويُشعره بنفاسة هذا العنصر العزيز - عنصر الإيمان - وأصالته في الوجود، كذلك يكشف عن حقيقة التصوّر

---

(١) انظر الدراسة القيّمة التي قدّمها الأستاذ الدكتور الشيخ فضل عباس حول هذا الموضوع وأصدرها كتاباً سمّاه: القصص القرآني.

(٢) يراجع بتوسُّع فصل «القصّة في القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن».

الإيماني ويُميزه في لحسّ من سنر النصورت الدّخيلة.

ومن ثمّ كان القصص شطراً كبيراً من كتاب الدعوة الكريم الذي يكد يتسرّب إلى جميع الأغراض القرآنية. فإثبات الوحي والرّسالة، وإثبات وحدانية الله، وتوحّد الأديان في أساسها، والإنذار والتبشير، ومظاهر القدرة الإلهية، وعاقبة الخير والشر والصبر والجزع، والشكر والبطر.. وكثير غيرها من الأغراض الدينية، والمرامي الخلقية، قد تناولته القصّة، وكانت أداةً له وسبيلاً إليه.

فإذا نحن استعرضنا هنا أعراض القصّة القرآنية، فإنّما نثبت أهم هذه الأغراض وأوضحها، ونترك تتبعها للبحث التفصيلي لكلّ قصة في هذا الكتاب:

١ ـ «كان من أغراض القصّة إثبات الوحي والرسالة، فمحمد ـ ﷺ ـ لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولا عُرف عنه أنّه يجلس إلى أحبار اليهود والنّصارى؛ ثُمّ جاءت هذه القصص في القرآن ـ وبعضها جاء في دقّةٍ وإسهابٍ كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى عليهم السلام، فورودها في القرآن اتخذ دليلاً على وحي يُوحى... والقرآن ينصُّ على هذا الغَرَض نصّاً في مقدمات بعض القصص أو في أعقابها.

جاء في أول سورة «يوسف»: **﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. نحن نقصُّ عليك أحسنَ القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنتَ من قبله لمن الغافلين﴾**.

وجاء في سورة «القصص» قبل عرض قصّة موسى: **﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾**. وبعد انتهائها: **﴿وما كنتَ بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمرَ، وما كنتَ من الشاهدين، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاوَلَ عليهم العُمر، وما كنتَ ثاوياً في أهل مَدْين تتلو عليهم آياتنا، ولكنا كُنّا مرسلين. وما كنتَ بجانب الطور إذ نادينا، ولكن**

رحمةً من ربك، لِتُنْذِرَ قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قبلك لعلهم يتذكرون﴾.

وجاء في سورة «آل عمران» في مبدء عَرْضه لقصّة مريم: ﴿ذلك من أنباء الغيب نُوحيه إليك، وما كنتَ لديهم إذ يُلْقون أقلامَهم أيُّهم يكفلُ مريم، وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾.

وجاء في سورة «ص» قبل عرض قصّة آدم: ﴿قُل هو نبؤ عظيم. أنتم عنه معرضون. ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون. إن يُوحى إليَّ إلا أنما أنا نذير مُبين. إذ قال ربُّك للملائكة إني خالقٌ بشراً من طين...﴾.

وجاء في سورة «هود» بعد قصّة نوح: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾.

٢ ـ وكان من أغراض القصّة بيان أنّ الدين كله من عند الله، من عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد ﷺ. وأنّ المؤمنين كلهم أُمّة واحدة، والله الواحد ربّ الجميع؛ وكثيراً ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة في صورة واحدة، معروضة بطريقة خاصّة، لتؤيد هذه الحقيقة ولما كان هذا غَرضاً أساسياً في الدعوة، وفي بناء التصوّر الإسلامي فقد تكرَّر مجيء هذه القصص، على هذا النحو، مع اختلاف في التعبير لتثبيت هذه الحقيقة وتوكيدها في النفوس.

نضرب لذلك مثلاً ما جاء في سورة الأنبياء: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين. الذين يَخْشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون. وهذا ذِكرٌ مباركٌ أنزلناه أفأنتم له مُنكرون؟»

﴿ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَه من قبلُ وكُنّا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفون؟ قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ إلى قوله: ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ

نافلةً وكُلاً جعلنا صالحين، وجعلناهم أئمةً يَهدون بأمرنا، وأوحينا إليهم فِعْلَ الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكانوا لنا عابدين﴾.

﴿ولوطاً آتيناه حُكماً وعلماً، ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فسقين، وأدخلناه في رحمتنا، إنه من الصالحين﴾.

﴿ونوحاً إذ نادى من قبلُ، فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم..﴾.

﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث، إذ نفشت فيه غنم القوم، وكُنّا لحكمهم شاهدين﴾

﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضرُّ وأنت أرحمُ الراحمين. فاستجبنا له، فكشفنا ما به من ضُرٍّ. وآتيناه أهله، ومثلهم معهم. رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين﴾.

﴿وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفل كُلٌّ من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا إنهم مَنَ الصالحين﴾.

﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً. فظنَّ أن لن نقدرَ عليه، فنادى في الظلمات: أن لا إلَه إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين فاستجبنا له. ونجيناه من الغم. وكذلك نُنجي المؤمنين﴾.

﴿وزكريا إذ نادى ربه: ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له، ووهبنا له يحيى، وأصلحنا له زوجَه. إنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغباً ورَهَباً، وكانوا لنا خاشعين﴾

﴿والتي أحصنت فَرْجها، فنفخنا فيها من رُوحنا. وجعلناها وابنها آيةً للعالمين﴾.

﴿إن هذه أمتكم. أمةً واحدة، وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء.

٤٧ ـ ٩٢]. وهذا هو الغرض الأصيل، من هذا الاستعراض الطويل؛ وغيره من الأغراض الأخرى يأتي عرضاً وفي ثناياه.(١)

٣ ـ وكان من أغراض القصة بيان أن الدين كلّه موحّد الأساس ـ فضلاً على أنه من عند الله واحد ـ وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة كذلك، مكررة فيها العقيدة الأساسيّة، وهي الإيمان بالله الواحد على نحو ما جاء في سورة «الأعراف»:

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال: يا قومِ اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره.. الخ﴾.

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً. قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره... الخ﴾.

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال. يا قومِ اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره... الخ﴾.

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره... الخ﴾.

فهذا التوحيد لأساس العقيدة، يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان، وترد قصصهم مجتمعةً في هذا السياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص.

٤ ـ وكان من أغراض القصّة بيان أنّ وسائل الأنبياء في الدعوة موحّدة، وأنّ استقبال قومهم لهم متشابه ـ فضلاً على أنّ الدين من عند إلّه واحد، وأنّه قائمٌ على أساس واحد ـ وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعةً أيضاً مكررة فيها طريقة الدعوة، على نحو ما جاء في سورة هود [الآية ٢٥ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ إلى الآية ٦٨].

٥ ـ وكان من أغراض القصّة بيان الأصل المشترك بين دين محمد

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٢١ ـ ١٢٣.

ودين إبراهيم بصفة خاصة، ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة؛ وإبراز أن هذا الاتصال أشدّ من الاتصال العام بين جميع الأديان، فتكررت الإشارة إلى هذا في قصص إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى: ١٨]، ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى. ألّا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٣٨]، ﴿إن أولى الناس بإبراهيمَ للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا﴾ [آل عمران: ٦٨]. ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾ [الحج: ٧٨]. ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وهدى وموعظةً للمتقين...﴾ إلى أن يقول: ﴿وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومُهيمناً عليه﴾ [المائدة: ٤٦ ـ ٤٨].

٦ ـ وكان من أغراض القصّة بيان أنّ الله ينصر أنبياءه في النهاية ويُهلك المكذبين، وذلك تثبيتاً لمحمد ـ ﷺ ـ وتأثيراً في نفوس مَن يدعوهم إلى الإيمان: ﴿وكُلّاً نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك. وجاءك في هذه الحق وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾ [هود: ١٢٠] وتبعاً لهذا الغرض كانت ترد قصص الأنبياء مجتمعة، مختومة بمصارع مَن كذّبوهم، ويتكرر بهذا عرض القصص كما جاء في سورة «العنكبوت»: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فَلَبِثَ فيهم ألفَ سنة ـ إلا خمسين عاماً ـ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، فأنجيناه وأصحاب السفينة، وجعلناها آية للعالمين﴾.

﴿وإبراهيم إذ قال لقومه: اعبدوا الله واتقوه، ذلك خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون...﴾ إلى أن يقول: ﴿فما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا: اقتلوه أو حرّقوه. فأنجاه الله من النار. إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾... الخ.

﴿ولوطاً إذ قال لقومه. إنكم لتأتون الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحدٍ

من العالمين. . ﴾ إلى أن يقول: ﴿إنا مُنزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يَفسقون، ولقد تركنا منها آيةً بينةً لقوم يعقلون﴾.

﴿وإلى مَدْيَن أخاهم شُعيباً فقال: يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر، ولا تَعْثوا في الأرض مُفسدين. فكذّبوه فأخذتهم الرجفةُ، فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾.

﴿وعاداً وثمودَ ـ وقد تبيَّن لكم من مساكنهم ـ وزَيَّن لهم الشيطان أعمالهم، فصدّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾.

﴿وقارونَ وفرعونَ وهامانَ. ولقد جاءهم موسى بالبينات، فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾

﴿فَكُلاًّ أخذنا بذنبه فمنهم مَن أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم مَن اخذته الصيحةُ، ومنهم مَن خسفنا به الأرضَ، ومنهم مَن أغرقنا. وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وتلك هي النهاية الواحدة للمكذبين.

٧ ـ وكان من أغراض القصّة تصديق التبشير والتحذير، وعرض نموذج واقع من هذا التصديق، كالذي جاء في سورة الحجر:

﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم. . .﴾.

فتصديقاً لهذا وذلك، جاءت القصص على النحو التالي:

﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم، إذ دخلوا عليه، فقالوا: سلاماً. قال: إنا منكم وَجِلُون. قالوا: لا تَوْجَل. إنا نبشرك بغلام عليم﴾. . . الخ وفي هذه القصة تبدو «الرحمة».

ثم: ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون. قال إنكم قومٌ مُنكرون. . قالوا: بل جئناك بما كانوا فيه يَمترون، وآتيناك بالحق وإنا لصادقون.

فَأَسْرِ بأهلك بقطع من الليل، واتّبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحدٌ، وامضوا حيث تُؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمرَ: أن دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصبحين...﴾ وفي هذه القصّة تبدو «الرحمة» في جانب لوط، ويبدو «العذاب الأليم» في جانب قومه المهلكين

ثُمَّ: ﴿ولقد كذّبَ أصحابُ الحجر المرسلين، وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها مُعرضين، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين، فأخذتهم الصيحةُ مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾. وفي هذه القصة يبدو «العذاب الأليم» للمكذبين.

وهكذا يصدق الأنباء، ويبدو صدقه في هذا القصص الواقع. بهذا الترتيب.

٨ ـ وكان من أغراض القصّة بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه، كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى، ويكون إبرازها هو الغرض الأول، وما سواه يأتي في هذا الموضع عرضاً.

٩ ـ وكان من أغراض القصّة، تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصّة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كلّ هاجسة في النفس تدعو إلى الشرّ، وإسنادها إلى هذا العدوّ الذي لا يريد بالنّاس الخير!

ولما كان هذا موضوعاً خالداً، فقد تكررت قصّة آدم في مواضع شتى.

١٠ ـ وكان للقصّة أغراض أخرى متفرقة منها:

ـ بيان قدرة الله على الخوارق: كقصّة خلق آدم. وقصّة مولد

عيسى وقصّة إبراهيم والطير الذي آبَ إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً، وقصّة ﴿الذي مَرّ على قرية وهي خاوية على عروشها﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وقد أحياهُ الله بعد موته مئة عام.

- وبيان عاقبة الطّيبة والصّلاح، وعاقبة الشرّ والإفساد، كقصّة ابني آدم، وقصّة صاحب الجنتين، وقصص بني إسرائيل بعد عصيانهم، وقصّة سد مأرب، وقصّة أصحاب الأخدود.

- وبين الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة لعجلة، والحكمة الإلهية البعيدة الغيبية، كقصة موسى مع ﴿عبد من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلّمناه من لدُنّا علماً﴾ [الكهف: ٦٥]، إلى آخر هذه الأعراض التي سيقت لها القصص فتفي بمغزاها[1].

إنّ طريقة القرآن العامة في إيراد القصص لتقرير حقائق مُعينة يريد إيضاحها، وغالباً ما تكون هذه الحقائق هي موضوع السورة التي يرد فيها القصص؛ فيُساق القصص بالقدر وبالأسلوب الذي يركز هذه الحقائق ويبرزها ويحييها فما من شكّ أنّ للقصص طريقته الخاصّة في عرض الحقائق، وإدخالها إلى القلوب، في صورة حيّة، عميقة الإيقاع، بتمثيل هذه الحقائق في صورتها الواقعية وهي تجري في الحياة البشرية، وهذا أوقع في النّفس من مجرد عرض الحقائق عرضاً تجريدياً، حتى إذا انتهى القصص جاء التعقيب متضمناً وممحصاً للحقائق التي أرادها، معتمداً على وقائع القصص في تقرير الحقائق التي يُقررها.

ثُمّ نعيش مع القصّة النبويّة، نعيش مع قلب محمد - ﷺ - مكشوفة عنه الحُجب، مُزاحة عنه الأستار، يتلقّى من الملأ الأعلى ﴿وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وَحْيٌ يُوحى﴾ [النجم: ٣، ٤]، فهو - ﷺ - مُبلّغ بالحقّ عن الحق، غير واهم ولا مُفتر ولا مُبتدع. ولا ناطق عن الهوى

---

(١) المصدر السابق ١٢٠ - ١٢٨.

فيما يُبلغ من الرسالة، إن هو إلا وحيٌ يوحى، وهو يُبلغ ما يُوحى إليه صادقاً أميناً، اتصل دينه بالحقيقة اتصالاً مباشراً، فهو يقصُّ ما أُوحي إليه.

وقد سلك الرسول ـ ﷺ ـ نهج القرآن الكريم «وترسّم خطاه في توظيف القصّة من أجل نشر الوعي وتعميق مبادئ الإسلام في النفوس. حيث نجد الرّسول ـ ﷺ ـ يتخذ من القصّة أسلوباً مهماً من أساليب الدعوة، لحمّلها قيم الإسلام ومعانيه، ويُربّي عليها الصحابة من رجال الإسلام الأول، ويُوجّههم من خلالها إلى استلهام هذا الدين عقيدةً في الفكر والتصوُّر وطريقةً في السلوك وواقع الحياة، وفوق ذلك كان الرّسول ـ ﷺ ـ يتلقى من الصحابة وغيرهم[1] بأن يقصّ عليهم الرّسول ـ ﷺ ـ فهو أيضاً باستخدامه القصّة في دعوته يستجيب لمناخ بيئي يطلب القصّة ويرغب الاستماع إليها، وهذا الإقبال عنصر حيوي أعطى القصّة أهميّة بالغة في نظر الرّسول المعلم ـ ﷺ ـ مما جعله يستعمل القصّة في حديثه إلى المسلمين من صحابته الكرام على نطاق واسع جداً، وفي شتّى الموضوعات»[2].

«ومما يعكس اهتمام الرّسول ـ ﷺ ـ بالقصّة في تعليم الصحابة وتربيتهم، أنّه كان يُكرّر القصّة الواحدة أكثر من مرّة وفي أكثر من مجلس، وربّما كان السبب في ذلك هو تجدُّد الوافدين على مجلسه ـ ﷺ ـ من المسلمين حديثاً أو من الصحابة الذين كانوا يتعاقبون في الاستماع إليه، إذ كانوا يتناوبون في التلقي عنه، حيث يذهب بعضهم

(١) كان المشركون يطلبون من الرسول ـ ﷺ ـ أن يقص عليهم بعض الأخبار الماضية لتعجيزه أو بيان صدق نبوته كما يُوحي لهم بذلك أهل الكتاب فكان ـ ﷺ ـ يقص عليهم القرآن، كما كان يقص أحياناً بعض قصص القرآن، انظر «جامع البيان» للطبري ص ١٦١ ـ ١٩٢، مصطفى البابي الحلبي، ط الثانية، القاهرة ١٩٧٣.

(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٦٦.

إلى الاشتغال بما يصلحُ معاشهم بينما يبقى بعض، يأخذ عن الرّسول ـ ﷺ[1] ـ وربّما كان السبب أيضاً ما كان يحرص عليه الرّسول ـ ﷺ ـ من تقرير ما تهدف إليه القصّة من غايات وما تتحدث عنه من موضوعات في نفوس المستمعين. وظاهرة تكرار القصّة الواحدة في أكثر من مناسبة، تؤكدها وتنص بها عدّة نصوص في كُتُبْ الحديث..»[2].

«وقد اشتملت أُمّهات كُتب الحديث المعتمدة، والتي أجمعت عليها الأمّة الإسلامية بالقبول، ووصفوها بالصحة والتوثيق، اشتملت على نصوص قصصية كثيرة جدّاً، وهي نصوص تتفاوت طولاً وقصراً..

وقد فطن العلماء المحدثون، ومؤلفو كتب الحديث إلى هذه النصوص التي تتميز بشكلها القصصي، وفرقوا بينها وبين غيرها من الأحاديث الشريفة، ويرشدنا إلى هذا التنبّه والتميّز ما نجده من أنماط مثبتة في مصادر الحديث، نلاحظ أنّهم يستعملونها في الدلالة على الأحاديث ذات الطابع القصصي فقط، ومن أمثلة ذلك عند البخاري قوله: «باب قصّة الحبش وقول النبي ـ ﷺ ـ يا بني أرفدة» وقوله: «باب قصة غزوة بدر» وقوله: «باب قصّة عكل وعرينة».. وقوله: «باب قصة يأجوج ومأجوج» إلى غير ذلك[3] كما نجد مثل ذلك عند الإمام مسلم كقوله: «باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام» إلى غير

---

(١) كما كان يفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع صاحبه حيث اتفق على أن يذهب أحدهما إلى مجلس الرسول ـ ﷺ ـ مرة، ويذهب الآخر مرة أخرى، ويخبر كل منهما صاحبه بما لم يحضره من حديث رسول الله ـ ﷺ ـ البخاري ١/ ٣٣ (باب التناوب في العلم)

(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٦٨.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٦٦، ٧٩، ٢٣٤، ٥/ ٩، ٦٥، ٩٣، ١٦٤، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٦/ ٤٩، ٨٩.

ذلك[١]. وحين نصل إلى الترمذي في سننه نجده أكثر إطلاقاً لهذا اللفظ، وغالباً ما يقول: «وفي الحديث قصة» إلى غير ذلك[٣]. ونجد أبا داود يشارك الترمذي أيضاً في كثرة استعماله للفظ «قصة» وإطلاقها[٣] على بعض النصوص القصصية[٤]....».

وقد تناولت القصة النبوية موضوعات هامة وجوانب بارزة من قيم الإسلام ومبادئه كانت قبساً من ظلال القرآن، ومَغنماً ميسراً مما عَلّم الرحمان الذي خلق هذا الإنسان.

ونمضي مع تفصيل قصص الرّحمٰن في ظلال القرآن نستلهم المعالم المضيئة في الطريق اللاحب، ونتعلم من هذه النماذج كيف كانت تتلقى أوامر الله عز وجل، وكيف نستقبل سنّة الله التي لا تتخلف. وإذا طال الطريق نستوحي القوة و نستمد من هذه المعالم العظيمة ونعلم أن هذا هو الطريق..

---

(١) ٢٢٩٩/٤ من صحيح مسلم وانظر فيه أيضاً أرقام لصفحات من كتاب القصص في الحديث النبوي ص ٧٣.

(٢) انظر القصص في الحديث النبوي ص ٧٣.

(٣) المصدر السابق ص ٧٤.

(٤) المصدر السابق.

القسم الثاني

آدم عليه السلام وبنيه

المحتوى	ص

قصص الرَّحمٰن في ظلال القرآن

آدم عليه السلام وبنيه

تقديم

إنَّ قصة آدم هي القضية الأولى في حياة الإنسانية، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية. وهي قصّة البشرية، وقضية العقيدة في هذا الوجود

إنَّها قصّة الإنسان. الإنسان بما أنه إنسان. الإنسان في كل زمان وفي كل مكان!

إنَّها قصّة الإنسان التي لا تتغير. لأنَّها قصّة وجوده في هذا الكون وقصّة مصيره. قصة علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الأحياء. وقصّة علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء.. وهي القضية الأساسية في الحياة، لأنَّها قضية الوجود والإنسان! إنَّ قصّة آدم تفسّر للإنسان سرّ وجوده ووجود هذا الكون من حوله.. فهي تقول له: من هو؟ ومن أين جاء؛ وكيف جاء؛ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟ مَن الذي جاء به من العدم والمجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به وما مصيره هناك؟ إنَّ قصّة آدم تعالج قضية العقيدة الأساسية.. قضية الألوهية والعبودية.. تعالجها بتعريف العبد بربّ العباد. فهي تطوّف القلب البشري بالآماد والآفاق البعيدة في فجر الإنسان الأول.. ثمَّ تمضي تحدد مسيره في هذه الحياة، ثمَّ ترسم مصيره الختامي في الآخرة.. إنَّها قصّة البشرية الكبرى: قصة الفطرة الأولى قصّة الهدى والضلال وعواملهما الأصيلة. قصة آدم مِمَّ خُلِق؟ وماذا صاحَب خلقه وتلاه؟

ولقد ذُكرت قصّة آدم في بضع سور[1] في القرآن الكريم. ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص، في معرض خاص، في جوّ خاص. ومن ثمّ اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع، واختلفت طريقة الأداء، واختلفت الظلال، واختلف الإيقاع مع المشاركة في بعض المقدّمات والتعقيبات بقدر الاشتراك في الأهداف.

تشابهت مقدّمات القصّة في عرضها في سور متعددة، في الإشارة إلى التمكين للإنسان في الأرض وإلى استخلافه فيها. ولكنّ السياق الذي وردت فيه القصة في كل سورة كان مختلف الوجهة والعرض..

في سورة (صٓ) التي نزلت في مكّة في عنفوان خصومة قريش للنبيّ ﷺ حينما عجبوا أن جاءهم نذير منهم، وعجبوا أن جعل الآلهة إلهاً واحداً.. في هذه السورة التي نزلت لتقرير قضية التوحيد، والوحي، وقضية الجزاء في الآخرة. في هذه السورة استعرض القرآن الكريم قصّة آدم دليلاً على الوحي بما دار في الملأ الأعلى ذات يوم. ومما تقرر يوم ذاك من الحساب على الهدى والضلال في يوم الحساب. كما تضمّنت القصّة في سورة (ص) لوناً من الحسد في نفس الشيطان هو الذي أرداه وطرده من رحمة الله، حينما استكبر على آدم فضل الله الذي أعطاه، كذلك تصور المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم، والتي لا يهدأ أوارها ولا تضع أوزارها. والتي يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم في حبائله، لإيرادهم النار معه، انتقاماً من أبيهم آدم، وقد كان طرده بسببه، وهي معركة معروفة الأهداف. ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوّهم القديم!

وفي سورة الأعراف التي نزلت في مكّة في مواجهة الجاهلية المتمثّلة

---

(١) وهي حسب ترتيب النزول التي رجّحه كثير من العلماء والذي اختاره صاحب الإتقان رحمه الله تعالى سورة (ص) ٧١ ـ ٩٥، الأعراف: ١١ ـ ٢٣، طه ١١٥ ـ ١٢٤، الإسراء: ٦١ ـ ٦٥، الحجر: ٢٨ ـ ٤٤، الكهف: ٥٠، البقرة: ٣٠ ـ ٣٨.

المستكبرة. في هذه السورة عالج القرآن الكريم موضوع العقيدة. عرضه في مجال التاريخ البشري. في مجال رحلة البشرية كلها ممتدة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها. وهذه السورة الجليلة لا تعرض قصة هذه العقيدة في التاريخ البشري، ولا تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها الأولى إلى عودتها الأخيرة. مجرد عرض في أسلوب قصصي. إنما هي تعرضها في صورة معركة مع الجاهلية. لقد كانت نقطة التركيز في قصة آدم في السياق هي الرحلة الطويلة من الجنة وإليها؛ وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها. حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى. ففريق منهم يعودون إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه. وفريق ينتكس إلى النار لأنه تبع خطوات الشيطان العدو اللدود. ومن ثمَّ عرض السياق حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره وطلبه من الله أن ينظره إلى يوم البعث. ليغوي أبناء آدم الذي من أجله طُرد. ثمَّ إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلَّا شجرة واحدة، هي رمز المحظور الذي تُبتلى به الإرادة والطاعة. ثمَّ وسوسة الشيطان لهما بتوسّع وتفصيل، وأكلهما من الشجرة وظهور سوآتهما لهما، وعتاب الله لآدم وزوجه، وإهباطهم إلى الأرض جميعاً للعمل في أرض المعركة الكبرى. ثمَّ تابع السياق الرحلة كلها حتى يعود الجميع كرة أخرى. وعرضهم في الساحة الكبرى مع التفصيل والحوار. ثمَّ تنتهي فريق إلى الجنة وفريق إلى النار.

أمَّا في سورة (طه) المكّية التي تدور حول الدعوة والتذكرة ووظيفة الرسول، وبمناسبة حرص الرسول ﷺ على أن يردد ما يُوحى إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان، يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله. وينتهي بإعلان العداوة بينه وبين إبليس، حيث تعرض قصة آدم سريعة قصيرة، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته. وهدايته له. وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار. وعاقبة من يتذكّرون عهد الله ومن

يعرضون عنه من ولد آدم. ويرسم هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التي بدأت في الملأ الأعلى، ثمَّ تنتهي إلى هناك مرة أخرى. وهكذا تُحيط بالقصة مشاهد القيامة، وكأنما هي تكملة لما كان في أول الأمر في الملأ الأعلى من قصة آدم. حيث يعود الطائعون إلى الجنة، ويذهب العُصاة إلى النار تصديقاً لما قيل لأبيهم آدم، وهو يهبط إلى الأرض بعدما كان!

وفي سورة الإسراء وردت قصة آدم في سياق فتنة الناس، ولذلك كان الإسهاب فيها في واقعة حسد إبليس وعدائه لآدم وذرِّيته.

لقد كفَّ الله الناس عن الرسول ﷺ وعصمه منهم. وأراه الرؤيا الصادقة في الإسراء لتكون ابتلاء للناس. ولم يتَّخذ منها خارقة كخوارق الرسالات من قبل. وخوَّفهم الشجرة الملعونة في القرآن ـ شجرة الزقُّوم ـ التي رآها في أصل الجحيم، فلم يزدهم التخويف إلَّا طغياناً. وإذن فما كانت الخوارق إلَّا لتزيدهم طغياناً.

وفي هذا الموضع من السياق تجيء قصة إبليس مع آدم، وإذن الله لإبليس في ذرية آدم إلَّا الصالحين من عباده فقد عصمهم من سلطانه وإغوائه. فتكشف القصة عن أسباب الغواية الأصيلة التي تقود الناس إلى الكفر والطغيان، وتبعدهم عن تدبُّر الآيات.

وفي سورة الحجر فإنَّ نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم، وسر الهدى والضلال، وعواملهما الأصيلة في كيان الإنسان. ومن ثمَّ نصَّ ابتداءً على خلق الله آدم من صلصال من حمإٍ مسنون، ونَفْخهُ فيه من روحه المشرق الكريم. وخلق الشيطان من قبل من نار السموم. ثمَّ عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافاً من السجود لبشر من صلصال من حمإٍ مسنون. وطَرْدَهُ ولَعْنَهُ. وطلبه الإنظار إلى يوم البعث وإجابته. وزاد أنَّ إبليس قرَّر على نفسه أن ليس له سلطان على عباده المخلصين. إنَّما

سلطانه على الَّذين يدينون له ولا يدينون لله، وانتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء في غير حوار ولا عرض ولا تفصيل. تبعاً لنقطة التركيز في السياق، وقد استوفيت ببيان عنصريّ الإنسان، وبيان محال سلطة الشيطان.

أمَّا في سورة الكهف فقد كان المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر. وتصحيح القيم بميزان العقيدة، وقد وردت الإشارة إلى قصة آدم وإبليس تتوسط عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة. وكانت هذه الإشارة في السياق إلى ما كان من إبليس يوم أُمِرَ بالسجود لآدم ففسَقَ عن أمر ربِّه للتعجيب من أبناء آدم الذين يتَّخذون الشياطين أولياء، وقد علموا أنَّهم لهم أعداء، وبذلك ينتهون إلى العذاب في يوم الحساب

وقد ذكرت القصة في هذه السورة في آية واحدة، ومع كونها آية واحدة فإنَّها لا تخلو من جديد ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس كان من الجنِّ ففسق عن أمر ربِّه أفتتَّخذونه وذرِّيته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بدلاً﴾ «وقد برز في هذه الآية الكريمة أنَّ إبليس من الجن: وهي الآية الأولى التي يُصرِّح فيها بذلك، وإنَّ لإبليس ذرِّية، وإنَّه فَسَقَ عن أمر ربِّه بعد أن لم يكن كذلك. هذه اللقطة في الآية الكريمة كانت آخر الحديث عن قصة آدم في العهد المكي»[1].

وفي العهد المدني نجد الحديث القرآني عن قصّة آدم في سورة واحدة فحسب هي سورة البقرة التي تحدّث عمَّا أكرم الله به هذا الإنسان من خاصية العلم. وفي سورة البقرة كانت نقطة التركيز في السياق هي استخلاف آدم في الأرض التي خلق الله للناس ما فيها جميعاً. ومن ثمَّ عَرَض من القصّة أسرار هذا الاستخلاف الذي عجبت له الملائكة لما خفي عليهم سرّه.. ثمَّ عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره.

---

(١) القصص القرآني: ٥٢.

وسكنى آدم وزوجه الجنة. وإزلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها. ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها، بعد تزويدهما بهذه التجربة القاسية، واستغفارهما وتوبة الله عليهما.

لقد خلق الله سبحانه هذا الكون الفسيح قبل خلق الإنسان ووجوده.. كان هذا الكون وعاش أحقاباً طويلة قبل أن يوجد الإنسان بأدهار وأزمان طوال. ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شيء يسمّى «الإنسان».. حتى انبثق هذا الخلق من إرادة الله فكان!

﴿وإذ قال ربُّك للملائكة: إنِّي جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠].

وإذ قال ربك للملائكة.. متى قال؟ وأين قال؟ ليس لدينا نص بجيب.. وليس لنا من سبيل إلى ذلك الغيب إلا بنص.. وكل ما عدا ذلك ضرب في التِّيه بلا دليل.

إنِّي جاعل في الأرض خليفة.. إنها المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتُطلق فيها يده، وتَكِل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات. وتسخير هذا كله ـ بإذن الله ـ في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه

وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية.

وإذن فهناك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض ـ وتحكم الكون كله ـ والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك؛ وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة! وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان، في نظام

الوجود على هذه الأرض الفسيحة. وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم.

هذا كله بعض إيحاء التعبير العلوي الجميل: ﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾.. حين نتملاّه اليوم بالحسّ اليقظ والبصيرة المفتوحة، ورؤية ما تمّ في الأرض على يد هذا الكائن المستخلف في هذا المُلك العريض!

وإذا كان الله سبحانه قد شاءت إرادته أن يكون الإنسان خليفته في هذه الأرض، فإنّه عزّ وجلّ قد بَرَأَهُ وقدره على وفق ما تُؤدّى به هذه الخلافة أفضل أداء.

فقد خلق هذا الإنسان وسوّاه، وكمل صنعته، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه لأداء وظيفته، فهداه إلى ما خلقه لأجله؛ وقدّر له ما يصلحه مدة بقائه، وهداه إليه أيضاً..

«وإذا كان الله سبحانه يقرن لنا في قصة تكوين الإنسان بين خلافته في هذه الأرض، وبين الآفاق التي قدُّر له أن يتّصل بها، فإنّ بين تلك الآفاق وتلك الخلافة علاقة أوجبت ذكرهما في معرض «التصميم» الذي سوّى عليه الإنسان.. وإذا كان الله عزّ شأنه قد أمدّ الإنسان بطاقات من المواهب وآفاق من المدارك، فإنّ ذلك هو مقتضى «التصميم» الذي تعدّدت آفاقه، وتنوّعت جوانبه، وأريد به للإنسان أن يواجه كل أفق بما يلائمه من الخصائص التي يصلح بها أمر الخلافة.

فليس في مواهب المرء شيء يزيد مثقال ذرة أو ينقص عن مقتضيات الوفاء بحقوق تلك الخلافة؛ فإذا هو أدّى الذي عليه، ونهض بحق ما ألقي إليه، وتعرّض لكل أفق بحسبه، وأعطاه من نفسه كل حقه، فقد أنصف نفسه، وكان هذا ما أراد الله له من كرامة.. وإذا أرادها مأكلة وشهوة وملهاة، أو اتصل بأفق دون سواه، وعطّل بعض مواهبه دون بعض، فقد أغلق من

نوافذ نفسه، وغيَّر خَلْق الله فيه، وتسلخ عمَّا أراد له سبحانه من كرامة..»(1).

وهكذا خُلق الإنسان لمهمة يؤدِّيها في هذا الكون؛ وقد نصَّ سبحانه على هذه المهمة وأوضحها بجلاء حين قال: **﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾** فكان من مقتضى حكمة الله أن يسوِّي هذا الكائن على المثال الذي يتكافأ مع تلك الخلافة وتؤدَّى به مطالبها.

لقد خاطب الله سبحانه الملائكة. **﴿إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾**..

وهنا هتفت هذه المخلوقات اللطيفة المؤنسة الطائعة تكلمت أُذِنَ لها الخالق بها: **﴿قالوا. أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفكُ الدماء، ونحن نسبِّحُ بحمدك ونُقَدِّس لك؟﴾**..

ويوحي قول الملائكة هذا بصه كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة في الأرض، أو من إلهام البصيرة، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق، أو من مقتضيات حياته على الأرض؛ وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنَّه سيفسد في الأرض، وأنَّه سيسفك الدماء.. ثمَّ هم - بفطرة الملائكة البريئة التي لا تتصور إلَّا الخير المطلق، وإلَّا السلام الشامل - يرون التسبيح بحمده والتقديس له، هو وحده الغاية المطلقة للوجود، وهو وحده العلَّة الأولى للخلق. وهو متحقق بوجودهم هم، يسبحون بحمد الله ويقدِّسون له، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته!

لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا، في بناء هذه الأرض وعمارتها، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها، على يد خليفة الله في أرضه. هذا الذي قد يفسد أحياناً، وقد يسفك الدماء أحياناً، ليتم من وراء هذا الشرّ الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل. خير النمو الدائم، والرقي الدائم. خير

(1) آدم: 45.

الحركة الهادمة البانية. حير المحاولة التي لا تكف، والتطلّع الذي لا يقف، والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير. عندئذٍ جاءهم القرار من العليم بكل شيء، والخبير بمصائر الأمور. ﴿قال: إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾.. أجابهم الله بما اطمأنّت له قلوبهم. إنِّي أعرف من حكمة استخلافه ما لا تدركون، فسأخلق ما أشاء، وأستخلف من أريد.

التكوين الإنساني:

حينما أراد الله سبحانه أن تعمر الأرض بهذا الجنس البشري اتّجهت إرادته إلى خلق آدم عليه السّلام[1]، ذلك الإنسان الأول أبو البشر، وأخبر الملائكة بذلك. والملائكة هم عباد الله المكرمون الذين يعيشون في الملأ الأعلى، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ثمّ أمرهم إذا ما تمّ

---

(١) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً، فلمّا خلقه، قال: اذهب، فسلّم على أولئك النفر ـ وهم من الملائكة جلوس ـ فاستمع ما يحيّونك، فإنّها تحيّتك وتحية ذرّيتك، قال: فذهب، فقال: السّلام عليكم، فردّوا: وعليك السّلام ورحمة الله، قال: فكل من يدخل الجنّة على صورة آدم طوله ستّون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» [أخرجه البخاري ٣٣٢٦ و ٦٢٢٧، ومسلم ٢٨٤١، وأخرجه أحمد ٢/ ٣١٥ وابن حبّان بنظر الإحسان ٦١٦٢].
قال أبو حاتم: «معنى الخبر بقوله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته» إبانة فضل آدم على سائر الخلق، و «الهاء» راجعة إلى آدم، والفائدة من رجوع «الهاء» إلى آدم دون إضافتها إلى البارىء جلّ وعلا ـ جلّ ربنا وتعالى عن أن يُشبَّه بشيء من المخلوقين ـ أنّه جلّ وعلا جعل سبب الخلق الذي هو المتحرك النامي بذاته اجتماع الذكر والأنثى، ثمّ زوال الماء عن قرار الذكر إلى رحم الأنثى، ثمّ تغيُّر ذلك إلى العلقة بعد مدة، ثمّ إلى المضغة، ثمّ إلى الصورة، ثمّ إلى الوقت الممدود فيه، ثمّ الخروج من قراره، ثمّ الرّضاع، ثمّ الفطام، ثمّ المراتب الأخر إلى حلول المنيّة به. هذا وصف المتحرك النامي بذاته من خلقه، وخلق الله جلّ وعلا آدم على صورته التي خلقه عليها وطوله ستون ذراعاً من غير أن تكون تقدمة اجتماع الذكر والأنثى، أو زوال الماء، أو قراره، أو تغيير الماء علقة، أو مضغة، أو تجسيمه بعده، فأبان الله بهذا فضله على سائر من ذكرنا من خلقه بأنه لم يكن نطفة فعلقة، ولا علقة فمضغة، ولا مضغة فرضيعاً فعظيماً، ولا فطيماً فشاباً كما كانت هذه حال غيره».

خلق آدم ونفخت فيه من روحي أن يقوموا بواجب التحية والتكريم نحوه، إظهاراً لفضل هذا الجنس وكرامته، وتقديراً لمنزلته ومكانته..

﴿إذ قال ربُّك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طين. فإذا سوَّيتُه ونفختُ فيه من روحي فَقَعُوا له ساجدين﴾ [صَ: ٧١ ـ ٧٢] ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من صَلْصالٍ من حمإٍ مسنون. فإذا سوَّيتُه ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلُّهم أجمعون. إلاَّ إبليس أبىٰ أن يكون مع السَّاجدين. قال: يا إبليسُ مالكَ ألَّا تكون مع السَّاجدين. قال: لم أكن لأسْجُد لبشر خلقته من صلصال من حمَإٍ مسنون..﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٣٣].

وما ندري نحن كيف قال الله أو كيف يقول للملائكة. وما ندري كذلك كيف يتلقّى الملائكة عن الله ولا ندري عن كنههم إلاَّ ما بلغنا من صفاتهم في كتاب الله. ولا حاجة بنا إلى الخوض في شيء من هذا الذي لا طائل وراء الخوض فيه. إنّما نمضي إلى معرىٰ القصة ودلالتها كما يقصّها القرآن.

لقد خلق الله هذا الكائن البشري من الطين. كما أنَّ سائر الأحياء في الأرض خلقت من طين. فمن الطين كل عناصرها. فيما عدا سرّ الحياة الذي لا يدري أحد من أين جاء ولا كيف جاء. ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشري فيما عدا ذلك السرّ. وفيما عدا تلك النفخة العلوية التي جعلت منه إنساناً. من الطين كل عناصر جسده. فهو من أمّه الأرض. ومن عناصرها تكوّن. وهو يستحيل إلى تلك العناصر حينما يفارقه ذلك السرّ الإلـهي المجهول؛ وتفارقه معه آثار تلك النفخة العلوية التي حددت خط سيره في الحياة.

وأمّا خلق الإنسان من طين ومن صلصال من حمإٍ مسنون[1] والنفخ فيه

(١) الحمأ: الطين الأسود. المسنون: المصوَّر.

من روح الله فكيف كان؟ فهو كذلك مما لا ندري كيفيته، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال.

وقد يُقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الأخرى في هذه القضية ﴿هو الّذي خلقكم من طين. ثمّ قضى أجلاً. وأجلٌ مُسمًّى عنده..﴾ [الأنعام: ٢]، ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿والله خلقكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ جعلكم أزواجاً﴾ [فاطر: ١١]، ﴿هو الّذي خلقكم من تراب من نطفة ثمّ من علقة..﴾ [غافر: ٦٧]، وبخاصة قوله سبحانه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ [المؤمنون: ١٢]، وقوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من ماء مهين﴾. وقوله: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين. ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ [السجدة: ٧ ـ ٨] إنّ أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض، ومن عناصره الرئيسية التي تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي وتركيب الأحياء أجمعين. وأن هناك أطواراً بين الطين والإنسان تشير إليها كلمة «سلالة». وإلى هنا وتنتهي دلالة النصوص، فكل زيادة تحمل عليها ضرب من التمحل ليس القرآن في حاجة إليه. وللبحث العلمي أن يمضي في طريقه بوسائله الميسرة له، فيصل إلى ما يصل إليه من فروض ونظريات، يحقق منها ما يجد إلى تحقيقه سبيلاً مضموناً، ويُبدِّل منها ما لا يثبت على البحث والتمحيص. غير متعارض في أيّة نتيجة يحققها مع الحقيقة الأوّلية التي تضمّنها القرآن؛ وهو ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء في تركيبهما على وجه اليقين.

فأمّا كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أُفق الحياة العضوية أوّلاً، وإلى أُفق الحياة الإنسانية أخيراً؟ فهما السر الذي يعجز عن تعليله البشر أجمعون.. فهو لمسة الخالق.. اللمسة الإلهية للوجود الإنساني ولكل المخلوقات.. لمسة النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم

إلى نور الحياة البهيج. إنَّ الله سبحانه هو الصانع العظيم ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ [النمل: ٨٨].

سبحانه! يتجلّى إتقان صنعته في كل شيء في هذا الوجود. فلا فلتة ولا مصادفة، ولا ثغرة ولا نقص، ولا تفاوت ولا نسيان. ويتدبر المتدبر آثار الصنعة المعجزة.. وهذا الإنسان من صنع هذا الخالق العظيم سبحانه..

ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم، ومنطقهم، وإدراكهم، فيوجه قلوبهم إلى تدبّر المشهود المعهود لهم. وهو يقع في كل لحظة، ويمر بهم في كل برهة، حيث يولد الإنسان هنا وهناك. وعلامة الصنعة واحدة، واضحة هنا وهناك!

إنَّ دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يُمني رحمَ امرأة. ثمَّ ينقطع عمله وعملها. وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهين تعمل وحدها في خلقه وتنميته، وبناء هيكله، ونفخ الروح فيه، ومنذ اللحظة الأولى وفي كل لحظة تالية تتم المعجزة، وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلَّا الله. والتي لا يدري البشر كنهها وطبيعتها؛ كما لا يعرفون كيف تقع. بله أن يشاركوا فيها!

وهذا القدر من التأمّل يدركه كل إنسان. وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثّر بها. ولكن قصّة هذه الخلية الواحدة منذ أن تُمنى، إلى أن تصير خلقاً، قصة أغرب من الخيال. قصة لا يصدقها العقل لولا أنها تقع فعلاً، ويشهد وقوعها كل إنسان! هذه الخلية الواحدة تبدأ في الانقسام والتكاثر، فإذا هي بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا. كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن خصائص المجموعات الأخرى؛ لأنها مكلفة أن تنشىء جانباً خاصاً من المخلوق البشري! فهذه خلايا عظام. وهذه خلايا عضلات. وهذه خلايا جلد. وهذه خلايا أعصاب.. ثمَّ.. هذه خلايا لعمل عين.. وهذه خلايا لعمل لسان، وهذه

خلايا لعمل أذن. وهذه خلايا لعمل غدد.. وهي أكثر تخصصاً من المجموعات السابقة. وكل منها تعرف مكان عملها، فلا تخطىء خلايا العين مثلاً، فتطلع في البطن أو في القدم. مع أنها لو أخذت أخذاً صناعياً فزرعت في البطن مثلاً صنعت هناك عيناً! ولكن هي بإلهامها لا تخطىء فتذهب إلى البطن لتصنع عين هناك! ولا تذهب خلايا الأذن إلى القدم لتصنع أذناً هناك!. إنها كلها تعمل وتنشىء هذا الكيان البشري في أحسن تقويم تحت عين الخالق، حيث لا عمل للإنسان في هذا المجال.

إنه السر المعجز في كل شيء، وهذا ذاته السرّ المعجز الذي خلق كل شيء..

فما هؤلاء الناس؟ ما هم؟ من أين جاؤوا؟ وكيف كانوا؟ وفي أي الأطوار مرّوا؟

والإنسان ابن هذه الأرض. من ترابها نشأ، ومن ترابها تكوّن، ومن ترابها عاش. وما في جسمه من عنصر إلا له نظيره في عناصر أُمّه الأرض. اللّهمّ إلّا ذلك السرّ اللطيف الذي أودعه الله إيّاه ونفخه فيه من روحه؛ وبه افترق عن عناصر ذلك التراب. ولكنّه أصلاً من التراب عنصراً وهيكلاً وغذاءً. وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب.

ولكن أين التراب وأين الإنسان؟ أين تلك الذرات الأوّلية الساذجة من ذلك الخلق السوي المركب، الفاعل المستجيب، المؤثر المتأثر، الذي يضع قدميه على الأرض ويرف بقلبه إلى السماء؛ ويخلق بفكره فيما وراء المادة كلها ومنها ذلك التراب.. إنها نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة المعجزة التي أنشأت ذلك الخلق من تراب. ويقف الفكر الواعي خاشعاً أمام آثار القدرة القادرة مرات ومرات..

وما يزال سر الحياة في الخلية الأولى خافياً لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه. فأمّا سر الحياة الإنسانية العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقات

متميزة على الخلائق الحيوانية جميعاً، تفوق حاسماً وفصلاً منذ بدء ظهور الإنسان. فأمّا هذا السرّ فما تزال النظريات تخبط حوله ولا تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته، كما أنها لا تملك أن تثبت الصلة المباشرة بينه وبين أي كائن قبله، ممّا يزعم بعضها أنّ الإنسان «تطوّر» عنه. كما أنّها لا تملك نفي الاحتمال الآخر: وهو نشأة الأجناس منفصلة منذ البدء - وإن كان بعضها أرقى من بعض - ثمّ نشأة هذا الإنسان متفرّداً منذ البدء أيضاً. والقرآن الكريم يفسّر لنا ذلك التفرّد، بهذا التعبير المجمل الواضح البسيط: ﴿فإذا سوّيته ونفختُ فيه من روحي..﴾ [الحجر: ٢٩، وص: ٧٢].

فهي روح الله ﴿ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه﴾ [السجدة: ٩] - تنقل هذا التكوين العضوي الوضيع إلى ذلك الأفق الإنساني الكريم، منذ بدء التكوين، وتجعله ذلك الخلق المتفرّد الذي توكل إليه الخلافة في الأرض بحكم تفرّد خصائصه منذ بدء التكوين.

كيف؟

ومتى كان في نطاق هذا المخلوق الإنسي أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم؟

وهنا نصل إلى الأرض الصلبة التي نستوي عليها مطمئنين.. ﴿ويسألونك عن الروح. قل: الروح من أمر ربّي. وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل. ولكن فيه توجيهاً لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي محاله الذي يدركه. فلا جدوى من الخبط في التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنّه لا يملك وسائل إدراكه.

معنى الروح :

لقد نفخ الله من روحه في هذا الكائن البشري[1]، لأنَّ إرادته اقتضت أن يكون خليفة في الأرض، وأن يتسلّم مقاليد هذا الكوكب في الحدود التي قدرها له - حدود العمارة ومقتضياتها من قوى وطاقات. . **﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾** [هود: ٦١]. وقد سخَّر الخالق العظيم للإنسان ما في السموات والأرض، من قوى وطاقات ممَّا يصلح له ويدخل في دائرة خلافته **﴿وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾** [الجاثية: ١٣].

إنَّ هذا المخلوق الصغير. . الإنسان . . يحظى من رعاية الله - سبحانه - بالقسط الوافر، الذي يتيح له أن يسخّر الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتّى الوجوه - وذلك بالاهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلهي الذي يحكمها، والذي تسير وفقه ولا تعصاه! ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة؛ بل ما استطاع أن يعيش معها؛ وهو هذا القزم الصغير، وهي هذه المردة الجبارة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام.

وكل شيء في هذا الوجود من الله وإليه، وهو منشئه ومدبّره؛ وهو مسخّره أو مسلّطه. وهذا المخلوق الصغير. . الإنسان. . مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية - يسخر بها قوى في هذا الكون وطاقات تفوق قوته وطاقته بما لا يُقاس! وكل ذلك من فضل الله عليه.

---

(١) عن أوس بن أوس - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصَّعقة، فأكثروا عليَّ من الصَّلاة فيه، فإنَّ صلاتكم معروضةٌ عليَّ». قالوا: وكيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أرِمْتَ؟ فقال: إنَّ الله جلَّ وعلا حرَّم على الأرض أن تأكل أجسامنا»

أخرجه أحمد وابن حبان، وإسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح. انظر: تخريجه في الإحسان رقم ٩١٠.

وفي كل ذلك آيات لمن يفكر ويتدبّر، ويتبع بقلبه وعقله لمسات اليد الصانعة المدبّرة المصرّفة لهذه القوى والطاقات.

والفكر الإنساني لا يكون صحيحاً وعميقاً وشاملاً، إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التي يكشف سرّها، إلى مصدر هذه القوى والطاقات؛ وإلى النواميس التي تحكمها؛ وإلى الصلة بين هذه النواميس وفطرة الإنسان التي فطرها الله. هذه الصلة التي تيسر للإنسان الاتصال بها وإدراكها. ولولاها ما اتصل ولا أدرك. ولا عرف ولا تمكن. ولا سخّر ولا انتفع بشيء من هذه القوى والطاقات.. لقد نفخ الله من روحه في هذا الكائن البشري، فأودعه القدرة على الارتقاء في المعرفة ومن يومها وهو يرتقي كلّما اتصل بمصدر تلك النفخة. واستمدّ من هذا المصدر في استقامة. فأمّا حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوي فإنّ تيارات المعرفة في كيانه وفي حياته لا تتناسق، ولا تتّجه الاتجاه المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام؛ وتصبح هذه التيارات المتعارضة خطراً على سلامة اتجاهه. إن لم تقده إلى نكسة في خصائصه الإنسانية، تهبط به في سلم الارتقاء الحقيقي ولو تضخّمت علومه وتجاربه في جانب من جوانب الحياة وما كان لهذا الكائن الصغير الحجم المحدود القوة، القصير الأجل، المحدود المعرفة.. ما كان له أن ينال شيئاً من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة وإلّا فمن هو؟ إنّه ذلك الخلق الصغير الضئيل الهزيل الذي يحيا على هذا الكوكب الأرضي مع ملايين الأنواع والأجناس من الأحياء. وما الكوكب الأرضي إلّا تابع صغير من توابع أحد النجوم. ومن هذه النجوم ملايين الملايين في ذلك الفضاء الذي لا يدري إلّا الله مداه.. فماذا يبلغ هذا الإنسان حتى يُسخر له ما في السموات وما في الأرض؟!

ولكنّها تلك الهبة الإلهية العظيمة ﴿ونفختُ فيه من روحي﴾ [الحجر: ٢٩]؛ على أن يكون مفهوماً أنّ الله سبحانه إذ أسند النفخ إلى ذاته العليّة فقالت ﴿ونفختُ﴾ لا يريد أنّ له نفخاً على مثال ما يجري منا، فهو

سبحانه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] فقد تفرّد الله دون خلقه جميعاً. والفطرة تؤمن بهذا بداهة. فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه. فليعتقد كل إنسان أنَّ النفخ حصل، وليحبس نفسه تصور الهيئة التي جرى عليها، فهي من الغيب الإلهي، فكل ما خطر ببالك فالله بخلافه.

﴿ونفخت فيه من روحي﴾.. وليس المراد بهذه النفخة الربانية هو إجراء الحياة الحيوانية في بدن آدم عليه السَّلام؛ لأنَّ الروح لم تذكر في القرآن بهذا المعنى قط.. ذلك أنَّ الحياة الحيوانية أمر مشترك بين الإنسان والحيوان، فليس من جلالة الشأن ما يستحق أن تسجد له الملائكة حين يجري في بدن آدم، فهو سبحانه قد أمر الملائكة بالسجود: ﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾. هذا وقد ورد في الحديث الصحيح عن الشفاعة يوم القيامة قول رسول الله ﷺ: «.. فيأتون آدم فيقولون. أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك الملائكة، وعلّمك كل شيء..»(١) فلو كان الذي نفخ في آدم هو الحياة الحيوانية المشتركة بين الإنسان والحيوان لما رآها المؤمنون خصوصية ترشحه لمقام الشفاعة في يوم النشور.

والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه، وسرّ من أسرار القدسية أودعه هذا المخلوق البشري. وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود. والإنسان لا يدبّر هذا الكون فطاقته ليست شاملة، إنّما وُهِبَ منها بقدر محيطه وبقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه، في حدود علمه القليل.

---

(١) رواه أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبّان في صحيحه وقال: قال إسحاق ـ يعني ابن إبراهيم ـ هذا من أشرف الحديث. انظر: فصل الشفاعة في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن» ص ٢٤٥.

ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع؛ ولكنه وقف حسيراً أمام ذلك السر اللطيف ـ الروح ـ لا يدري ما هو، ولا كيف جاء، ولا كيف يذهب، ولا أين كان ولا أين يكون؛ إلا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل الكريم.

إنَّ الإنسان ليس هو هذا الهيكل المادي بلحمه ودمه وعظمه وعصبه وما تُنتج هذه الأخلاط والأجهزة من تطوّرات فيزيولوجية.. إنَّ لهذا الإنسان حقيقته الروحية ولطيفته الربّانية التي أودعها الله فيه، والتي تحمل هذا الهيكل وهو لها كالغلاف، وعنها يكون الوجدان والإرادة والإدراك، وهي العقل أحياناً والنفس أحياناً والروح أحياناً أخرى، وهي سر الإنسانية، ومناط التكليف والجزاء في الدنيا والآخرة: ﴿إنَّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ [الإنسان: ٢].

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج، لا عبثاً ولا جزافاً ولا تسلية، ولكنه خُلق ليُبْتلى ويُمتحن ويُختبر. والله سبحانه يعلم ما هو؟ وما اختباره؟ وما ثمرة اختباره؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود، وأن تترتب عليه آثاره المقدّرة في كيان الوجود، وأن تتبعه آثاره المقدرة، ويُجزى وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه.

ومن ثمَّ جعله سميعاً بصيراً. أي زوّده بوسائل الإدراك، ليستطيع التلقّي والاستجابة. وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار. ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار..

وإذن فإنَّ إرادة الله في خلق الإنسان وفي امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التي قدّرها، وهي خلقته من نطفة أمشاج.. كانت وراءها حكمة. وكان وراءها قصد. ولم تكن فلتة.. كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره. ومن ثمَّ وُهِبَ الاستعداد للتلقّي والاستجابة، والمعرفة والاختبار.. وكان كل شيء في خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه في الحياة.. بمقدار!

ثمَّ روَّده إلى جانب المعرفة بالقدرة على اختيار الطريق، وبيَّن له الطريق الواصل ثمَّ تركه ليختاره، أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لا تؤدي إلى الله ﴿إنَّا هديناه السَّبيل: إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً﴾ [الإنسان: ٣]

وهكذا ندرك من الواقع الفعلي للإنسان في هذه الأرض أنَّه مُمَيَّز بسرٍّ عظيم، في إدراكه وصفاته، جعله سيِّد هذه الأرض المتصرف فيها ـ بإذن الله ـ ﴿ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرِّ والبحر. ورزقناهم من الطيِّبات، وفضَّلناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]. لقد كرَّم الله الإنسان على كثير من خلقه بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان!

ويشعر الإنسان بجدِّية الأمر ودقَّته بعد هذه اللمسات. ويدرك أنَّه مخلوق لغاية. وأنَّه مشدود إلى محور. وأنَّه مزوَّد بالمعرفة فمحاسب عليها. وأنَّه هنا ليُبتلى ويجتاز الابتلاء. فهو في فترة امتحان يقضيها على الأرض، لا في فترة لعب ولهو وإهمال! ويخرج من هذه الآية الكريمة: ﴿ونفختُ فيه من روحي﴾ بذلك الرصيد من التأمُّلات الرقيقة العميقة، كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعة والجدّ والوقار في تصوّر هذه الحياة.. ﴿إنِّي جاعل في الأرض خليفة﴾، وفي الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء! وتغيِّر هذه المعرفة بوظيفته من نظرته إلى غاية وجوده، ومن شعوره بحقيقة وجوده، ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام.

لقد قال الله للملائكة: ﴿إنِّي خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون. فإذا سوَّيتهُ ونفختُ فيه من روحي فَقَعُوا له ساجدين﴾.

وقد كان ما قاله الله. فقوله ـ تعالى ـ إرادة. وتوجه الإرادة ينشىء الخلق المراد. ولا نملك أن نسأل كيف تلبَّست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني. فالجدل على هذا النحو عبث عقلي. بل عبث

بالعقل ذاته، وخروج به عن الدائرة التي يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم.

وكل ما ثار من الجدل حول هذا الموضوع وكل ما يثور إن هو إلاّ جهل بطبيعة العقل البشري وخصائصه وحدوده، واقحام له في غير ميدانه، ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان، وهو سفه في إنفاق الطاقة العقلية، وخطأ في المنهج من الأساس. إنه يقول: كيف يتلبّس الخالد بالفاني، وكيف يتلبّس الأزلي بالحادث؟ ثم ينكر أو يثبت ويعلل! بينما العقل الإنساني ليس مدعوّاً أصلاً للفصل في الموضوع. لأنّ الله يقول: إنّ هذا قد كان، ولا يقول: كيف كان. فالأمر إذن ثبت ولا يملك العقل البشري أن ينفيه. وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده - غير التسليم بالنص - لأنه لا يملك وسائل الحكم. فهو حادث والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في ذاته، ولا على الأزلي في حلقه للحادث. وتسليم العقل ابتداء بهذه البديهية أو القضية - وهي أنّ الحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في أيّة صورة من صوره. يكفي ليكف العقل عن إنفاق طاقته سفهاً في غير مجاله المأمون.

طرف من ذلك السرّ العظيم:

وبعد أن خلق الله سبحانه آدم عليه السّلام فسوّاه، فأكمل صنعته، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه لوظيفته، وهداه إلى ما خلقه لأجله، وألهمه غاية وجوده، ﴿وعلَّم آدم الأسماء كلَّها﴾. ﴿ثمَّ عرضهم على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك لا عِلْم لنا إلّا ما علَّمتنا. إنَّك أنت العليم الحكيم. قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم. فلمَّا أنبأهم بأسمائهم، قال: ألم أقل لكم: إنّي أعلمُ غيب السَّماوات والأرض، وأعلمُ ما تُبدون وما كنتم تكتمون﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

ها نحن أولاء - بعين البصيرة في ومضات الاستشراف - نشهد ما شهده

الملائكة في الملأ الأعلى. ها نحن أولاء نشهد طرفاً من ذلك السرّ الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلّمه مقاليد الخلافة. سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات. سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها ـ وهي ألفاظ منطوقة ـ رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة. وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض. ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى، لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات، والمشقّة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه.. الشأن شأن نخلة فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلّا باستحضار جسم النخلة! الشأن شأن جبل فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلّا بالذهاب إلى الجبل! الشأن شأن فرد من الناس فلاسبيل إلى التفاهم عليه إلّا بتحضير هذا الفرد من الناس.

إنّها مشقّة هائلة لا تتصور معها حياة! وإنّ الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات..

والله سبحانه لمّا خلق آدم كانت الأرض حافلة بأصناف النبت والطير والدواب، ولم يأمره سبحانه بالهبوط إليها إلّا بعد أن علّمه القدرة على معرفتها وخواصها وسرّ تذليلها والانتفاع بها، وبثّ في آدم سر الاهتداء إلى خصائص الأشياء ووسائل الاستفادة منها، وما لها من قوانين النفع والضر. قال الإمام الزمخشري في تفسيره: «أي وعلّمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية».

يقول البهي الخولي: «وآدم عليه السّلام إنّما تعلّم حقائق الأشياء، وسنن الله التي تحكمها وتضبط خيرها وشرّها، وتنظم نفعها وضرّها، وليس المراد بالتعليم أنّه سبحانه أعطاه دروساً في الكيمياء والطبيعة والفلك والطب ونحوها ممّا يضع في يده أزمة قوانين هذا الكون الأرضي؛ إنّما المراد أنه بثّ

فيه من أسرار الفهم والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن.

والتعليم هنا مسند إلى الله سبحانه. وحين نعود إلى معاني التعليم التي أسندها الله إلى ذاته مباشرة - أي بدون وساطة مَلَك أو وحي - نراها كلهافي القرآن الكريم دالة على ما وَهَبَ الله سبحانه من استعداد فطري للإدراك والفهم والإلهام والمعرفة. وقد يكون هذا الاستعداد الفطري عاماً شاملاً جميع أفراد النوع الإنساني كما في قوله سبحانه: ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق: ٥]، وقوله: ﴿خلق الإنسان عَلَّمه البيان﴾ [الرَّحمن: ٤]: أي أودع فيه سر النطق والتعبير عمَّا يجول في نفسه من المعاني»[1].

وهكذا يبرز مصدر التعليم. إنّ مصدره هو الله. منه يستمد الإنسان كل ما علم، وكل ما يعلم وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود، ومن أسرار هذه الحياة، ومن أسرار نفسه فهو من هناك. من ذلك المصدر الواحد، الذي ليس هناك سواه.

إنّنا نرى الإنسان ينطق ويعبّر ويبيّن، ويتفاهم، ويتجاوب مع الآخرين. فننسى بطول الإلفة عظمة هذه الهبة. وضخامة هذه الخارقة، وهذه المنحة العجيبة، والصفة الإنسانية الكبرى. ألا إنَّ البيان، والنطق، والتعبير، لسر عجيب أودعه الله سبحانه في هذا الإنسان! وقد يكون هذا الاستعداد الفطري هبة خاصة لفرد معين أراد سبحانه أن يميزه به، ويجعله خصوصية له...

ولقد كان يوسف عليه السَّلام ذا بصيرة ملهمة. وملكة مرنة في تأويل الأحلام، فمَّ فسَّر لصاحبيه في السجن ما رأى كل منهما من رؤيا قال: ﴿ذلكما ممَّا علَّمني ربِّي﴾ [يوسف: ٣٧]: أي بعض ما وَهَبَ لي من استعداد للعلم والفهم، وهو عليه السَّلام إنَّما يرجع في ذلك إلى قول الله

(١) آدم: ١٢٣.

عنه: ﴿ولمّا بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً﴾ [يوسف: ٢٢] ومن البديهي أنّ ذلك لم يكن دروساً أُلقيت عليه؛ إنّما هو نور قذف في فطرته جعل له هذا الاستعداد الخاص الذي عبّر عنه في أُخريات حياته بقوله: ﴿ربِّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث. ﴾ [يوسف: ١٠١].

«وواضح أنّ التعليم في حالتيه العامة والخاصة، مراد به سرّ المواهب التي جهز بها المرء ليدرك أسرار ما يتصل به، ويعلم حقائق ما حوله من الأشياء؛ فإذا فسّرنا قوله سبحانه: ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾ بما فسّرناه به، فليس هو مذهباً لنا في الفهم، ولا رأياً نبتكره، إنّما هو نهج القرآن، وعين المفهوم من كلامه سبحانه كلما أسند التعليم مباشرة إلى ذاته الشريفة

على أنّ الواقع من أحوال بني آدم في هذه الأرض يؤيد هذا الرأي؛ فقد ورثوا عن أبيهم هذا الاستعداد على مدى العصور، وظلوا به يكتشفون من أسرار هذا الكون وقوانين طبيعته ما يمكن لهم من السيطرة وتوسيع دائرة الإنتاج والعمارة..

وانفردوا بذلك فلم يشركهم فيه حيوان ولا ملك. أمّا الحيوان فلم يكن لهم إلّا دابة ذلولاً مسخرة؛ وأمّا الملائكة فلم يكن لهم من غناء في هذا المضمار إلّا أن قالوا: ﴿سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا إنّك أنت العزيز الحكيم﴾..»[1].

فالملائكة لا حاجة لهم بهذه الخاصية، لأنّها لا ضرورة لها في وظيفتهم. ومن ثمّ لم توهب لهم. فلمّا علّم الله آدم هذا السرّ، وعرض عليهم لم يعرفوا الأسماء. لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخوص.. ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها، ثمّ عرضهم على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾..

---

(١) المصدر السابق، ١٢٤ ـ ١٢٥.

وجهر الملائكة أمام هذا العجز بتسبيح ربهم، والاعتراف بعجزهم، والإقرار بحدود علمهم، وهو ما علمهم. وعرف آدم. ثم كان هذا التعقيب الذي يردهم إلى إدراك حكمة العليم الحكيم: ﴿قالوا: سبحانك لا عِلْمَ لنا إلاّ ما علَّمتنا. إنَّك أنت العليم الحكيم. قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم. فلمَّا أنبأهم بأسمائهم، قال: ألَمْ أقل لكم: إنِّي أعلمُ غيب السَّماوات والأرض. وأعلمُ ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٣].

ذلك هو السرّ الذي يستفتح به آدم أُفق هذا الكون الأرضي ليؤدي فيه مراسم الخلافة على ما رسم له الله سبحانه. ﴿وعَلَّم آدم الأسماء كلها﴾..

جلال التكريم في المشهد العظيم :

لقد خلق الله آدم في أحسن تقويم. وهو سبحانه أحسن كل شيء خَلَقَه، ولكنَّه خَصَّص الإنسان بحسن التركيب، وحسن التقويم وحسن التعديل، وحسن الصورة.. وهذا يشعر الإنسان بكرامته على الله، وبفضل الله عليه في تحسين صورته: صورته الخلقية وصورته الشعورية. فالإنسان هو أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكوينه الجثماني؛ كما أنَّه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة. ومن ثمَّ وكلت إليه خلافة الأرض، وأُقيم في هذا الملك العريض بالقياس إليه!

وفي ظل العناية والرعاية الإلهية للإنسان وتفوّق تكوينه وتصويره. بدأت قصة البشرية بأحداثها المثيرة. بدأت بإعلان ميلاد الإنسان في احتفال مهيب، في رحاب الملأ الأعلى.. يعلنه الملك العزيز الجليل؛ زيادة في الحفاوة والتكريم. وتحتشد له الملائكة - وفي زمرتهم وإن لم يكن منهم إبليس - وتشهده السَّماوات والأرض؛ وما خلق الله من شيء.. إنَّه أمر هائل عظيم في تاريخ هذا الوجود: ﴿ولقد خلقناكم، ثمَّ صوَّرناكم، ثمَّ قلنا

للملائكة اسجدوا لآدم. فسجدوا إلاَّ إبليس لمْ يكن من السَّاجدين. قال: ما منعك ألَّا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خيرٌ منه، خلقتني من نار وخلقته من طين.. ﴾ [الأعراف: ١١، ١٢] هذا هو المشهد الكريم في التكريم لآدم عليه السَّلام. وهو مشهد مثير. ومشهد خطير

إنَّ الخلق قد يكون معناه: الإنشاء. والتصوير قد يكون معناه: إعطاء الصورة والخصائص.. وهي مرتبتان في النشأة لا مرحلتان.. فإنَّ «ثمَّ» قد لا تكون لترتيب الزمني، ولكن للترقي المعنوي والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود. فالوجود يكون للمادة الخاصة؛ ولكن التصوير - بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص - يكون درجة أرقى من درجات الوجود. فكأنَّه قال: إنَّنا لم نمنحكم مجرد الوجود ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية. وذلك كقوله تعالى: ﴿الَّذي أعطى كل شيء خلقه ثمَّ هدى﴾ [طه: ٥٠].

فإنَّ كل شيء أُعطي خصائصه ووظائفه وهُدي إلى أدائها عند خلقه. ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق وإعطاء الخصائص والوظائف والهداية إلى أدائها. والمعنى لا يختلف إذا كان معنى ﴿هدى﴾.. هداه إلى ربه. فإنَّه هدي إلى ربه عند خلقه. وكذلك آدم صور وأعطي خصائصه الإنسانية عند خلقه. ﴿وثمَّ﴾ لترقِّي في الرتبة، لا للتراخي في الزمن، كما يرجح. وعلى أيَّة حال فإنَّ مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السَّلام، وفي نشأة الجنس البشري، ترجح أنَّ إعطاء هذا الكائن هذه الخصائص ونموّها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية. ولم يكن ترقِّياً في «وجود» الإنسان. من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان كما تقول الداروينية.

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً - بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء - هو مجرد نظرية «ظنّية» وليست «يقينية» لأنَّ تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلاَّ ظناً! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها. وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها!

على أنه ـ على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور ـ ليس هناك ما يمنع من وجود « أنواع » من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض؛ بفعل الظروف السائدة في الأرض، ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة حياتها، ثمَّ انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة. ولكن هذا لا « يحتم » أن يكون بعضها « متطوراً » من بعض.. وحفريات دارون ومن بعده لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا.. لا تستطيع أن تثبت ـ في يقين مقطوع به ـ أنَّ هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من ناحية الزمنية ـ وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها ـ ولكنها فقط تثبت أنَّ هناك نوعاً أرقى من النوع الذي قبله زمنياً.. وهذا يمكن تعليله كما قلنا: بأنَّ الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع. فلمَّا تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر فنشأ. ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشاً من قبل في الظروف الأخرى فانقرض.

وعندئذٍ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة، في الزمن الذي عَلِم الله أنَّ ظروف الأرض تسمح بالحياة والنموّ والترقّي لهذا النوع. وهذا ما ترجحه النصوص القرآنية في نشأة البشرية.

وتفرُّد « الإنسان » من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية. هذا التفرّد الذي اضطرَّ الداروينيون المحدثون ـ وفيهم الملاحدة بالله كلية ـ للاعتراف به، دليل مرجح على تفرّد النشأة الإنسانية، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي[1]!

لقد تقدم أنَّ الله سبحانه أعلن أمام الملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ

---

(١) يراجع بتوسع فصل «حقيقة الحياة» وفصل «حقيقة الإنسان» في القسم الثاني من «خصائص التصور الإسلامي ومقوّماته».

خليفة﴾ وكلمة الخلافة كلمة ضخمة ذات إيحاءات. فأوّل إيحاءاتها: أنّ هذا الكائن العظيم متفرد في خلق الله أجمعين، كائن عظيم القدر ذو أهمية بارزة في الحياة فهو خليفة الله خليفة لخالق لمبدع المسيطر على قوى الكون ولا بد للخليفة أن يكون مزوّد بأدوات الخلافة وإلّا فلا معنى لخلافته ولا قيمة.

ولا بد كذلك أن يكون فيه قبس ممّن منحه الخلافة وإلّا فما هو مستحق أن يكون له خليفة ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان، تثبت تلك الحقيقة في تفرد هذا الكائن في خلق الله أجمعين. وهي هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال. ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل، ولكن التصميم مُميَّز. وهو في ذاته جميل وكامل الصنعة، ووافٍ بكل الوظائف والخصائص التي يتفوق بها الإنسان في الأرض على سائر الأحياء..

ولا بد أن يكون دوره في الحياة أكبر وأخطر من دور غيره من الكائنات وإلّا فلا معنى لإفراده وحده بالخلافة دون بقية الكائنات.

فهذا المخلوق تحتفل به السموات والأرض ويتولّى الله سبحانه بنفسه إعلان مقدمه على الملأ الأعلى. والملائكة يفزعون للنبأ ويهتزّون ويراجعون ربهم، ويطلبون مزيداً من المعرفة عن حكمة خلق الإنسان واستخلافه، وهم الذين لا يراجعونه في أمر قط. ثمّ يسجد الملائكة لمعجزة خلق الإنسان، وزيادة في إبراز أهميته، وتوكيداً لتفرّد هذه المعجزة بين المعجزات. وهكذا أعلن الله بذاته العليّة الجليلة ميلاد هذا الكائن الإنسي؛ في حفلٍ حافل من الأعلىٰ الأعلى: **﴿ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. فسجدوا. إلّا إبليس لم يكن من السّاجدين﴾** [الأعراف: ١١].

ويقف القلب خاشعاً يتملّىٰ نداوة هذا التكريم في هذا الاحتفال المهيب في هذا المشهد العجيب. فماذا يبلغ هذا الإنسان لتسجد له

ملائكة الرَّحمن؛ إلَّا بهذا السرِّ اللطيف العظيم؟ ﴿ونفختُ فيه من روحي﴾ إنه بهذا السر كريم كريم. فإذا تخلّى عنه أو انفصم منه ارتدَّ إلى أصله الزهيد.. من طين؟

إنَّ هذا المخلوق الإنساني ينسى نفسه في أحيان كثيرة، لينسى أنه كائن صغير ضعيف، يستمد القوة لا من ذاته. ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول. من الله. فينقطع اتصاله هذا ثم يروح ينتفخ، ويتورم، ويتشامخ، ويتعالى يحيث في صدره الكبر. يستمده من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر، ثمَّ سلط على الإنسان فأتاه من قبله!

ولو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود. ولو عرف دوره فأتقنه ولم يحاول أن يتجاوزه ولو اطمأنَّ إلى أنه كائن ممَّا لا يحصي عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق الوجود. وفق تقديره الذي لا يعلمه إلا هو، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته في كيان هذا الوجود. لو أدرك هذا كله لاطمأنَّ واستراح، ولتطامن كذلك وتواضع، وعاش في سلام مع نفسه ومع الكون حوله. وفي استسلام لله وإسلام.

لقد كرَّم الله الإنسان لهذه الخاصية الروحية ورقّاه ورفعه على خلقه أجمعين وقال لملائكته: ﴿فإذا سوَّيتُهُ ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [ص: ٧٢]، ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ [طه: ١١٦، الإسراء: ٦١، البقرة: ٣٤] إنَّه التكريم في أعلى صوره، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وُهِب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة. لقد وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق.. إنَّ ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة.. إنَّ هذا كله بعض أسرار تكريمه.

والملائكة خلق آخر من خلق الله لهم خصائصهم ووظائفهم؛ لا نعلم

عنهم إلّا ما أبان الله من أمرهم[1]، وقد استجاب الملائكة لأمر ربهم كما هي فطرتهم: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ [ص. ٧٣، الحجر: ٣٠].

لقد سجد الملائكة امتثالاً للأمر لعلوي الجليل «فسجودهم في الحقيقة إنّما هو طاعة لله عزّ وجلّ، لا لآدم عليه السّلام، فهم لما أُمروا بالسجود، لم يكن في ذلك غضّ عليهم، ولا نقصٌ، فكانت طاعة العبد لربّه سبحانه وتعالى، لم يَضُرّه ما كان هناك من الوسائط والأسباب»[2].

سجد الملائكة الكرام كلهم أجمعون..

كيف؟ أين؟ ومتى؟ كل أولئك غيب من غيب الله. ومعرفته لا تزيد في مغزى القصة شيئاً. هذ المغزى الذي يبرز في تقدير قيمة هذا المخلوق من الطين؛ بعدما ارتفع عن أصله بتلك النفخة من روح الله العظيم.

وفي معنى السجود لآدم يقول البهيّ الخولي: «وأول ذكر للملائكة في قصة الكريمة أنهم أول من اتصل بأبي البشر عليه السّلام إذ سجدوا له بأمر الله عزّ وجلّ عندما نفخ فيه سبحانه من روحه.

ومن البديهي أنّ هذا السجود لم يكن سجود عبادة ونسك، فإنّ ذلك لا يكون لغير الله. إنّما هو سجود تحية وتكريم ومؤانسة، وليس ضرورياً أن يكون سجوداً وضعوا له الجباه على الأرض كما نفعل في سجودنا لله عزّ وجلّ، فللسجود هيئات كثيرة تتنوع بتنوع أصناف الخلائق؛ والله سبحانه يقول في ذلك: ﴿والنّجم والشجر يسجدان﴾ [الرّحمن: ٦]. ويقول على لسان يوسف لأبيه: ﴿إنّي رأيتُ أَحَدَ عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتُهم لي ساجدين﴾ [يوسف: ٤]، ويقول: ﴿ولله يسجد ما في السّماوات

---

(١) انظر الظلال ـ الجزء السابع، ص ١٠٤١ ـ ١٠٤٤.
(٢) شرح مختصر الروضة ٣/١٧٨.

وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ [النحل: ٤٩]..

ومن البديهي أنّ سجود الدواب ليس كسجود الملائكة؛ وسجودهما ليس كسجود الكواكب والشمس والقمر؛ وسجود هؤلاء جميعاً ليس كسجود الشجر والزرع الصغير، وهكذا. ـ ذلك إلى أنَّ من معاني السجود في اللغة التطامن والتواضع؛ ويقول صاحب المصباح: «وسجد البعير: خفض رأسه عند ركوبه.. وكل شيء ذل فقد سجد.» فإذا كان في سجود الملائكة معنى الذل، فليس هو ذلّ العبودية، ولا الذلّ المضيع لكرامة؛ إنّما هو ذل التطامن والمودة الذي ترى شيئاً منه في قوله تعالى في حق الوالدين: ﴿واخفض لهما جناح الذلّ من الرَّحمة﴾ [الإسراء: ٢٣]، وتراه فيما يتبادله رحماء المؤمنين بينهم من انكسار الأخ لأخيه المؤمن الذي عبَّر عنه الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿أذلّة على المؤمنين، أعزَّة على الكافرين﴾ [المائدة: ٥٤]»(١).

فسجود الملائكة فيه معنى التحية، والاحترام، والمودة، وخفض الجناح، والإقرار بالفضل والتكريم. قال القرطبي في الجامع: «وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض، ولكنَّه مبقى على أصل اللغة. فهو من التذلّل والانقياد. أي خضعوا لآدم، وأقرّوا له بالفضل»(٢).

الشيطان بين العلو والاستكبار والكفر والفسوق والعصيان:

لقد أمر الله ـ سبحانه ـ بتكريم آدم فقال: ﴿فإذا سوَّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلُّهم أجمعون. إلاَّ إبليس استكبر وكان من الكافرين. قال: يا إبليس ما منعك أن تسجدَ لما خلقتُ

---

(١) آدم: ٧٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ١، ص ٢٩٣.

بيديَّ أستكبرت أم كنت من العالين. ﴾ [صٓ: ٧٢ ـ ٧٥].

سجد الملائكة امتثالاً لأمر الله وشعوراً بحكمته فيما يراه ﴿ . فسجدوا إلَّا إبليس لم يكن من السَّاجدين﴾ [الأعراف: ١١]، ﴿فسجدوا إلَّا إبليس كان من الجنِّ ففسقَ عن أمر ربِّه﴾ [الكهف: ٥٠].

لقد علا إبليس واستكبر أن يسجد لآدم. ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلَّا إبليس أبى أن يكون مع السَّاجدين﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] هنا تتبدّى خليقة الشر مجسمة: عصيان الجليل سبحانه! والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله والعزة بالإثم والاستغلاق عن الفهم ﴿فسجدوا إلَّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ [البقرة: ٣٤].

فهل كان إبليس من الملائكة؟

ويوحي سياق القصة في الآيات المتقدمة أنَّ إبليس لم يكن من جنس الملائكة، إنما كان معهم، فلو كان منهم ما عصى. وصفتهم الأولى ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [التحريم: ٦]، فإبليس خلق غير الملائكة لقوله تعالى كما تقدم. ﴿فسجدوا إلَّا إبليس كان من الجنِّ ففسق عن أمر ربِّه﴾. والجن خلق غير الملائكة لهم خصائصهم ووظائفهم، لا نعلم عنه إلَّا ما بيَّنه الله من أمره[1]. والله خلق الجن من مارج من نار[2]. وهذا يجزم بأنَّه ليس من الملائكة.

وقد ورد في القرآن الكريم كما سيأتي بيانه أنَّ إبليس خلق من نار. والملائكة من نور[3]. وهم لا يعصون الله ما أمرهم. وهو أبىٰ وعصىٰ.

---

(١) انظر الظلال، الجزء الثامن ١٢٠٨ ـ ١٢٠٩.

(٢) سورة الرحمن: الآية ١٥.

(٣) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم ممَّا وُصف لكم» [أخرجه مسلم (٢٩٩٦)، وابن حبَّان بإسناد صحيح، وأحمد ٦/١٥٣ و ١٦٨، والسيوطي في الدر المنثور ٧/٦٩٥. انظر الإحسان رقم (٦١٥٥)].

فهو من غير الملائكة قطعاً. وإن كان قد أُمِرَ بالسجود لآدم في زمرة الملائكة. في ذلك الحفل العظيم الذي أعلن فيه الملك الجليل، ميلاد هذا الكائن الفريد.. وقد كان مع الملائكة وكان مأموراً بالسجود. ولم يُخص بالذكر الصريح عند الأمر إهمالاً لشأنه بسبب ما كان من عصيانه. فليس هو من الملائكة بيقين. أما الاستثناء الوارد في الآيات التي وردت في أمر الله الملائكة بالسجود ـ ﴿وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبىٰ﴾ [طه: ١١٦]. ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس أبىٰ أن يكون مع السَّاجدين﴾ [الحجر: ٣١] ـ فليس على وجهه.

والاستثناء في هذا الموضع لا يدل على أنَّه من جنس الملائكة، فكونه معهم يجيز هذا الاستثناء كما تقول: جاء بنو فلان إلاَّ أحمد. وليس منهم إنَّما هو عشيرهم وهو معهم في كل مكان أو ملابسة. وأمَّا أنَّ الأمر المذكور للملائكة ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة﴾.. فكيف شمل إبليس؟ فإنَّ صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده في سياق القصة، وقد ذكر في القرآن صريحاً ﴿قال ما مَنَعَكَ ألاَّ تسجد إذ أمَرْتُكَ؟﴾ [الأعراف: ١٢] وقول الله هذا قاطع في أنَّ الأمر قد صَدر له. وليس من الضروري أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة. فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم في ملابسة ما. وقد يصدر إليه منفرداً ولا يذكر تهويناً لشأنه وإظهاراً للملائكة في الموقف. ولكن المقطوع به من النصوص القرآنية ومن دلالة تصرفه أنَّه ليس من الملائكة.

وعلى أيَّة حال فنحن نتعامل هنا مع مُسلَّمات غيبية لا نملك تصور ماهيتها ولا كيفياتها في غير حدود النصوص. لأنَّ العقل لا سبيل له في هذا المجال بحال من الأحوال.

وبعد.. فأمَّا الملائكة ـ وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ـ فقد سجدوا مطيعين منفِّذين لأمر الله. لا يتردَّدون ولا يستكبرون ولا يفكِّرون في معصية لأي سبب ولأي تصور ولأي

تفكير هذه طبيعتهم، وهذه خصائصهم، وهذه وظيفتهم.. وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنساني على الله، كما تتمثل الطاعة المطلقة في ذلك الخلق المسمّىٰ بالملائكة من عباد الله.

وأمّا إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله سبحانه ـ وعصاه. وسنعلم: ما الذي حاك في صدره، وما التصوّر الذي سيطر عليه فمنعه من طاعة ربه. وهو يعرف أنّه ربه وخالقه، ومالك أمره وأمر الوجود كله؛ لا يشك في شيء من هذا كله!

وكذلك نشهد في المشهد العظيم للاحتفاء بميلاد آدم ثلاثة نماذج من خلق الله. نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق. ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت.. وطبيعة ثالثة هي الطبيعة البشرية. وسنعلم خصائصها وصفاتها المزدوجة فيما سيجيء.

فأمّا الطبيعة الأولىٰ فهي خالصة لله، وقد انتهىٰ دورها في هذا الموقف بهذا التسليم المطلق. وأمّا الطبيعتان الأخريان فسنعرف كيف تتجهان.

الرد القبيح المتكبر المغرور:

لقد وجّه الله سبحانه أمره بالسجود لآدم وكان إبليس مأموراً بهذا لكنه استكبر وكان من الكافرين، فوبّخه ربه ﴿قال: ما منَعَكَ ألّا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خيرٌ منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين﴾ [الأعراف ١٢] لقد جعل إبليس له رأياً مع النص. وجعل لنفسه حقاً في أن يحكم نفسه وفق ما يرىٰ هو من سبب وعلة مع وجود الأمر.. وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر، ويبطل التفكر، وتتعين الطاعة، ويتحتّم التنفيذ. وهذا إبليس ـ لعنه الله ـ لم يكن ينقصه أن يعلم أنَّ الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلّا بإذنه وقدره. ولكنَّه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم

ينفذه.. بمنطق من عند نفسه: ﴿قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ . إنَّه الكِبَرِ والحسد. . ﴿قال يَـٰا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديّ؟ أستكبرتَ؟ أم كنتَ من العالين؟ قال: أنا خيرٌ منه. خلقتني من نار، وخلقته من طين﴾ [صٓ: ٧٥، ٧٦]

ما مَنَعَكَ أن تسجد لما خلقتُ بيديّ؟ والله خالق كل شيء. فلا بد أن تكون هناك خصوصية في خلق هذا الإنسان تستحق هذا التنويه. هي خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية. أستكبرت؟ عن أمري. أم كنتَ من العالين؟ الذين لا يخضعون؟

وقال إبليس ما قال: أنا خير منه. .

إنَّه الحسد ينضح من هذا الرد. والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين في آدم، والذي يستحق هذا التكريم. وهو الرد القبيح الذي يصدر عن الطبيعة التي تجردت من الخير كله في هذا الموقف المشهود ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس قال أأسجدُ لمن خلقتَ طيناً؟﴾ [الإسراء: ٦١] .

إنه حسد إبليس لآدم يجعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله في هذا الطين. ﴿قال يَـٰا إبليس مالَكَ ألاّ تكون مع السَّاجدين؟ قال: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون﴾ [الحجر: ٣٠] .

وقد ذكر القرآن الكريم فيما تقدم اختلاف أصل الخلق بين الإنسان وبين إبليس الذي هو من الجن فقال سبحانه وتعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السَّموم﴾ [الرَّحمن. ١٤، ١٥] .

ويقرر قول الله اختلاف الطبيعتين بين الصلصال ـ وهو الطين اليابس الذي يصلصل عند نقره، المتخذ من الطين الرطب الآسن ـ والنار

الموسومة بأنها شعواء سامة.. نار السموم.

وقد ذكر القرآن أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله، أمّا طبيعة الشيطان فقد خلقت من نار السموم. لقد كان خلق الشيطان ـ من قبل ـ من نار السموم. فهو سابق إذن للإنسان في الخلق. هذا ما نعلمه من آيات القرآن المتقدمة. أمّا كيف هو وكيف كان خلقه. فذلك شأن آخر. ليس لنا أن نخوض فيه. إنما ندرك من صفاته التأثير في عناصر الطين بحكم أنه من النار. والأذى والمسارعة فيه بحكم أنه نار السموم. ثمّ تنكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار. وهي ليست بعيدة في التصور عن طبيعة النار! وقد ظهر هذا العلو في الرد القبيح ﴿قال أأسجدُ لمن خلقتَ طيناً﴾ [الإسراء: ٦١]، ﴿قال: لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون﴾ [الحجر: ٣٣]، ﴿قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [الأعراف: ١٢] قال الحسن البصري وابن سيرين رحمهما الله: إنّ إبليس قد قارن بين نفسه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم، فامتنع عن السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود.

ويعلق ابن كثير على ذلك فيقول: إنّ هذا قياس فاسد، لأنّ القياس لا يتأتى مع وجود النص وهو أمر الله له بالسجود لآدم. ثمّ إنه قياس فاسد في ذاته إذ أنّ الطين خير وأنفع من النار(١) لأنّ الطين فيه الرزانة والحلم

(١) يقول ابن قيم الجوزية في بيان خطأ إبليس في دعواه أنه خير من آدم عليه السلام، وتعليله بأنه من نار وآدم خلق من طين: واعلم أن هذه التي ذكرها إبليس إنما ذكرها على سبيل التعنت وإلا فامتناعه عن السجود لآدم إنما كان عن كبر وكفر ومجرد إباء وحسد. ومع ذلك فما أبداه من الشبهة فهو داحض لأنه رتب على ذلك أنه خير من آدم لكونه خلق من نار وآدم خلق من طين ورتب على هذا أنه لا يحسن منه الخضوع لمن دونه ومن هو خير منه. وهذا باطل من وجوه:
- الأول: أنّ النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.
- الثاني: أنّ النار طبعها الخفة والطيش والحدة، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.
=

- الثالث: أنَّ التراب يتكوَّن فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم وآلات معايشهم ومساكنهم، والنار لا يكون فيها شيء من ذلك.
- الرابع: أنَّ التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتَّة ولا عمَّا يتكون فيه ومنه. والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقاً وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور فلا يدعوه إليها ضرورة.
- الخامس: أنَّ التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه فمن بركته يؤدِّي إليك ما استودعته فيه إليك مضاعفاً ولو استودعته النار لخانتك وأكلته. ولم تبق ولم تذر.
- السادس: أنَّ النار لا تقوم بنفسها بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملاً لها والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها لغناه وافتقارها.
- السابع: أنَّ النار مفتقرة إلى التراب وليس التراب مفتقراً إليها فإنَّ المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلَّا مكوَّناً من التراب فهي الفقيرة إلى التراب وهو الغني عنها.
- الثامن: أنَّ المادة الإبليسية هي المارج من النار وهو ضعيف تتلاعب به الأهوية فيميل معها كيف مالت ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره. ولمَّا كانت المادة الآدمية هي التراب وهو قوي لا يذهب مع الهواء أينما ذهب قهر هواه وأسره ورجع إلى ربه فاجتباه واصطفاه. وكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضاً سريع الزوال فزال وكان الثبات والرزانة أصلاً له فعاد إليه. وكان إبليس بالعكس من ذلك، فعاد كل منهما إلى أصله وعنصره، آدم إلى أصله الطيب الشريف واللعين إلى أصله الردي.
- التاسع: إنَّ النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع فالشرّ كامن فيها لا يصدها عنه إلَّا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل. وأما التراب فالخير والبركة كامن فيه كلما أثير وقلِّب ظهرت بركته وخيره وثمرته. فأين أحدهما من الآخر.
- العاشر: إنَّ الله تعالى أكثر ذكرها في كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها وأنّه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً للأحياء والأموات. ودعا عباده إلى التفكر فيها والنظر في آياتها وعجائبها وما أودع فيها. ولم يذكر النار إلَّا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلَّا في موضع أو موضعين ذكرها فيه بأنَّها تذكرة ومتاع للمقوين. تذكرة بنار الآخرة ومتاع لبعض أفراد الناس وهم المقوون النازلون بالقوى وهي الأرض الخالية إذا نزلها المسافر يمتع بالنار في منزله. فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن.
- الحادي عشر: أنَّ الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصاً وأخبر أنَّه بارك فيها عموماً فقال تعالى: ﴿أئنَّكم لتكفرون بالَّذي خلق الأرض في يومين﴾. إلى أن قال: ﴿وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها﴾ [فصّلت: ٩]. فهذه بركة عامة وأمَّا البركة الخاصة ببعضها فكقوله تعالى: ﴿ونجّينا لوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها﴾

والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفّة والسرعة والإحراق.

ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال، ثمّ من النفخة العلوية التي فرقت بينه وبين سائر الأحياء؛ ومنحته خصائصه الإنسانية، التي أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحيّة، فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه!

هذه النفخة التي تصله بالملأ الأعلىٰ، وتجعله أهلاً للاتصال بالله، وللتلقّي عنه؛ ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات

- وأمّا النار فلم يجر الله جعل فيها بركة أصلاً بل المشهور أنّها مذهبة للبركات ماحقة لها. فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وضع فيه، إلى مزيل البركة وماحقها
- الثاني عشر: أنّ الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ويسبّح له فيها بالغدوّ والآصال عموماً. وبيته الحرام الذي جعله قياماً للناس مباركاً وهدىً للعالمين خصوصاً فلو لم يكن في الأرض إلاّ بيته الحرام لكفاها ذلك شرفاً وفخراً على النار
- الثالث عشر: إنّ الله تعالىٰ أودع الأرض من المعادن والأنهار والعيون والثمرات والحبوب والأقوات. وأصناف الحيوانات وأمتعتها والجنان والرياض والمراكب البهيّة والصور البهيجة ما لم يودع في النار شيئاً منه. فأي روضة وجدت في النار، أو جنّة، أو معدن أو صورة، أو عين جارية، أو نهر مطرداً أو ثمرة لذيذة.
- الرابع عشر: إنّ غاية النار أنّها وضعت خادمة لما في الأرض. فالنار إنّما محل الخادم لهذه الأشياء فهي تابعة لها خادمة فقط إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه
- الخامس عشر: أنّ اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته رأىٰ صورة الطين تراباً ممتزجاً بماء فاحتقره، ولم يعلم أنّ الطين مركّب من أصلين: الماء الذي جعل الله تعالىٰ منه كل شيء حياً، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم هذا، ولم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأىٰ أنّه خير من النار وأفضل. ثمّ لو سلم بطريق الفرض الباطل أنّ النار خير من الطين لم يلزم من ذلك أن يكون المخلوق منها خيراً من الطين فإنّ القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممّن خلقه من المادة الفاضلة فالاعتبار بكمال النهاية لا بنقص المادة فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة والله أعلم.

والحواس، إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول. والتي تمنحه ذلك السر الخفي الذي يسرب به وراء الزمن والمكان، ووراء طاقة العضلات والحواس، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة في بعض الأحيان.

ذلك كله مع ثقلة الطين في طبعه، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات. ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات. هذا مع أن هذا الكائن « مركب » من هذين الأفقين اللذين لا ينفصلان فيه. طبيعته طبيعة « المركب » لا طبيعة « المخلوط » أو « الممزوج ! » .

ولا بد من ملاحظة هذه الحقيقة ودقة تصورها كلما تحدثنا عن تركيب الإنسان من الطين ومن النفخة العلوية التي جعلت منه هذا المخلوق الفريد التكوين . إنه لا انفصال بين هذين الأفقين في تكوينه، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر في حالة واحدة من حالاته. إنه لا يكون طيناً خالصاً في لحظة، ولا يكون روحاً خالصاً في لحظة، ولا يتصرف تصرفاً واحداً إلا بحكم تركيبه الذي لا يقع فيه الانفصال!

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذي يطلب إليه أن يبلغه، وهو الكمال البشري المقدر له فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون ملكاً أو ليكون حيواناً. وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان والارتفاع الذي يخل بالتوازن المطلق نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه الأصيلة، والحكمة التي من أجلها خلق على هذا النحو الخاص .

والذي يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية هو كالذي يحاول أن يعطل

طاقاته الروحية الطليقة. كلاهما يخرج على سواء فطرته؛ ويريد من نفسه ما لم يرده الخالق له. وكلاهما يدمر نفسه بتدمير ذلك المركب في كيانه الأصيل. وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير.

من أجل هذا أنكر الرسول ﷺ على من أراد أن يترهبن فلا يقرب النساء، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام. أنكر عليهم كما ورد في حديث عائشة - رضي الله عنها - وقال: «فمن رغب عن سنّتي فليس منّي».

وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أسس تكوينه ذاك؛ وأقام له عليها نظاماً شرعياً لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر. إنما قصارى هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات، لتعمل جميعها في غير طغيان ولا ضعف، ولا اعتداء من إحداها على الأخرى. فكل اعتداء يقابله تعطيل. وكل طغيان يقابله تدمير. والإنسان حفيظ على خصائص فطرته ومسؤول عنها أمام الله. والنظام الذي يقيمه الإسلام للناس حفيظ على هذه الخصائص التي لم يهبها الله جزافاً للإنسان.

والذي يريد قتل النوازع الفطرية الحيوانية في الإنسان يدمّر كيانه المتفرد. ومثله الذي يريد قتل النوازع الفطرية الخاصة بالإنسان دون الحيوان من الاعتقاد في الله والإيمان بالغيب الذي هو من خصائص الإنسان. والذي يسلب الناس عقائدهم يدمر كينونتهم البشرية، كالذي يسلب الناس طعامهم وشرابهم ومطالبهم الحيوية سواء. كلاهما عدو « للإنسان » يجب أن يطارده كما يطارد الشيطان!

إنّ الإنسان حيوان وزيادة. فله مثل مطالب الحيوان، وله ما يقابل هذه الزيادة. وليست هذه المطالب دون هذه هي « المطالب الأساسية » كما يزعم أعداء الإنسان من أصحاب المذاهب المادية « العلمية ».

هذه بعض الخواطر التي تطلقها في النفس حقيقة تكوين الإنسان،

كما يقررها القرآن، نمر بها سراعاً في هذا الموقف الذي أعلن فيه إبليس ردّه القبيح عُلوّاً واستكباراً على الإنسان في أصله من طين، راجين أن نعود إليها ببعض التعقيبات في نهايتها..

وبعد فقد صرحت طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان في ذلك المخلوق من نار السموم ﴿قال: يَا إبليس مالَكَ ألَّا تكون مع السَّاجدين؟ قال: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون﴾. وذكر إبليس الصلصال والحمأ، ولم يذكر النفخة العلوية التي تلابس هذا الطين وتشمخ برأسه المغرور يقول: إنَّه ليس من شأنه في عظمته أن يسجد لبشر خلقه من صلصال من حمإٍ مسنون!

تبجح نكير وتصميم خبيث

هنا صدر الأمر الإلهي العلي بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح: ﴿قال: فاخرج منها فإنَّك رجيم وإنَّ عليك لعنتي إلىٰ يوم الدِّين﴾ [صٓ: ٧٧، ٧٨].

ولا نملك أن نحدد عائد الضمير في قوله «منها» فهل هي الجنة؟ أم هل هي رحمة الله.. هذه وذلك جائز. ولا محل للجدل الكثير فإنَّما هو الطرد واللعنة والغضب جزاء التمرد والتجرّؤ على أمر الله الكريم. فكان الجزاء العاجل الذي تلقاه إبليس لتوه ﴿قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنَّك من الصَّاغرين﴾ [الأعراف: ١٣].

إنَّ علمه بالله لم ينفعه، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه.. وكذلك كل من يتلقىٰ أمر الله؛ ثمَّ يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه، وحاكمية في قضية قضىٰ الله فيها من قبل؛ يرد بها

قضاء الله في هذه القضية. إنّه الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد. فإبليس لم يكن ينقصه العلم، ولم يكن ينقصه الاعتقاد!

لقد طرد من الجنّة، وطرد من رحمة الله، وحقّت عليه اللعنة، وكتب عليه الصغار ﴿قال: فاخرج منها فإنّك رجيم وإنّ عليك اللّعنة إلىٰ يوم الدِّين﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥].

وكان ما ينبغي أن يكون جزاء العصيان والشرود.

عندئذٍ تتبدّىٰ خليقة الحقد وخبيئة الشر ﴿قال: ربِّ فأنظرني إلىٰ يوم يُبعثون﴾ [صٓ: ٧٩، الحجر: ٣٦].

لقد تحوّل الحسد إلى حقد. وإلى تصميم على الانتقام في نفس إبليس. ﴿قال: أنظرني إلى يوم يُبعثون﴾ [الأعراف: ١٤].

والشرير المغرور العنيد لا ينسى أنّ آدم هو سبب الطرد والغضب؛ ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم. ثمّ يؤدّي وظيفته وفق طبيعة الشر التي تمحّضت فيه. فهو الإصرار المطلق على الشر، والتصميم المطلق على الغواية.. وبذلك تتكشّف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى.. شرٌّ ليس عرضاً ولا وقتياً. إنّما هو الشرُّ الأصيل العامد القاصد العنيد. لقد طلب النظرة إلى يوم البعث، لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفّر عن إثمه الجسيم. ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده. يربط لعنة الله بآدم، ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح نكير!

وهكذا يتبدّىٰ الشرّ الأصيل القاصد العنيد.. ثمّ هو التصوير المشخص للمعاني العقلية والحركات النفسية، في مشاهد شاخصة حية. لقد سأل إبليس ربّه أن ينظره إلى يوم البعث. وهويعلم أنّ هذا الذي يطلبه لا يقع إلاّ بإرادة الله وقدره.

واقتضت مشيئة الله للحكمة المقدّرة في علمه أن يجيبه إلى ما

طلب، وأن يمنحه الفرصة لتي أراد ﴿قال: فإنَّك من المنظرين إلىٰ يوم الوقت المعلوم﴾ [ص: ٨٠، ٨١، الحجر: ٣٧، ٣٨].

وهكذا أجابه الله إلى طلبه في الإنظار: ﴿قال: إنَّك من المنظرين﴾ [الأعراف: ١٥]، ولكن إلى ﴿يوم الوقت المعلوم﴾ وقد وردت الروايات أنها يوم النفخة الأولىٰ التي يصعق فيها من في السماوات والأرض - إلَّا من شاء الله - لا يوم يبعثون وهنا يعلن إبليس في تبجح خبيث - وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل - أنَّه سيرد على تقدير الله له الغواية وإبرائها به، بسبب معصيته وتبجحه، بأن يغوي ذلك المخلوق الذي كرَّمه الله، والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده! ويجسم هذا الإغواء بقوله الذي حكاه القرآن عنه ﴿قال: فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم ثمَّ لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ [الأعراف ١٦ - ١٧].

إنَّه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم، يصدّ عنه كل من يهمّ باختياره - والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حسّاً، فالله سبحانه جلَّ عن التحيز، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدّي إلى رضى الله - وأنه سيأتي البشر من كل جهة ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم﴾.. للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة.

وهو مشهد حي شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدائبة لإغوائهم، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه اللَّهمَّ إلَّا القليل الذي يفلت ويستجيب: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾.

ويجيء ذكر الشكر في هذا المقام لبيان السبب في قلة الشكر؛ وكشف الدافع الخفي، من حيلولة إبليس دونه، وقعوده على الطريق إليه ليستيقظ البشر العدو الكامن الذي يدفعهم عن الهدىٰ؛ وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التي لا تجعل أكثرهم شاكرين!

لقد كشف الشيطان عن هدفه الذي ينفق فيه جهده ﴿قال فبعزتك لأغوينَّهم أجمعين. إلاَّ عبادك منهم المخلصين﴾ [صَ: ٨٢، ٨٣]

وبهذا تحدد منهجه وتحدد طريقه. إنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع الآدميين. لا يستثني إلاَّ من ليس له عليهم سلطان. لا تطوعاً منه ولكن عجزاً عن بلوغ غايته فيهم! وبهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده، والعاصم الذي يحول بينهم وبينه. إنه عبادة الله التي تخلصهم لله. هذا هو طوق النجاة. وحبل الحياة! . وكان هذا وفق إرادة الله وتقديره في الردى والنجاة. وبهذا لتبجح الخبيث يعرض إبليس بضعف هذا المخلوق واستعداده للغواية فيقول في تكبر مقيت أنه مترصد لغوايتهم، وجاهدٌ في إضلالهم ﴿قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليَّ لئن أخَّرتني لأحتنكنَّ[1] ذريته إلاَّ قليلاً﴾ [الإسراء: ٦٢]

أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ؟ أترى هذا المخلوق الذي جعلته أكرم مني عندك؟ لئن أخرتني إلى يوم القيامة. فلأستولين عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم

ويغفل إبليس عن استعداد الإنسان للخير والهداية استعداده للشر والغواية. عن حالته التي يكون فيها متصلاً بالله فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية، ويغفل عن أن هذه هي مزية هذا المخلوق التي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلاَّ طريقاً واحداً تسلكه بلا إرادة. فالإرادة هي سر هذا المخلوق العجيب .

ويحدد إبليس ساحة المعركة ﴿قال رَبِّ بما أغويتني لأُزيِّنَنَّ لهم في الأرض. ولأغوينَّهم أجمعين. إلاَّ عبادك منهم المخلصين﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

---

(١) لأحتنكنَّ ذريته: أي لأستأصلنّهم بالإغواء.

وبذلك حدد الشيطان المكان. إنَّها الأرض ﴿لأُزيِّنَنَّ لهم في الأرض﴾..

وحدَّد عدته فيها أنه التزيين. تزيين القبيح وتجميله، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه. وهكذا لا يجترح الإنسان الشرّ إلاَّ وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمله، وتظهره في غير حقيقته وردائه. فليفطن الناس إلى عدة الشيطان، وليحذروا كل ما وجدوا في أمر تزييناً، وكلَّما وجدوا من نفوسهم إليه اشتهاءً، ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك. إلاَّ أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته، فليس للشيطان - بشرطه هو - على عباد الله المخلصين من سبيل: ﴿ولأُغوينَّهم أجمعين إلاَّ عبادك منهم المخلصين﴾.

والله يستخلص لنفسه من عبده من يخلص نفسه لله، ويجرّدها له وحده، ويعبده كأنَّه يراه. وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان.

هذا الشرط الذي قرره إبليس - اللعين - قرره وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه، لأنه سنّة الله أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه، وأن يحميه ويرعاه. ومن ثمّ كان الجواب: ﴿وهـٰذا صراط عليَّ مستقيم. إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاَّ من اتَّبعك من الغاوين﴾ [الحجر: ٤١، ٤٢]

هذا صراط. هذا ناموس. هذه سنَّة، وهي السنَّة التي ارتضتها الارادة قانوناً وحكماً في الهدى والضلال ﴿إنَّ عبادي﴾ المخلصين لي ليس لك عليهم سلطان، ولا لك فيهم تأثير، ولا تملك أن تزين لهم لأنك عنهم محصور، ولأنَّهم منك في حِمىً، ولأنَّ مداخلك إلى نفوسهم مغلقة، وهم يعلقون أبصارهم بالله، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله. إنَّما سلطانك على من اتَّبعك من الغاوين الضالِّين فهو استثناء مقطوع لأنَّ الغاوين ليسوا جزءاً من عباد الله المخلَصين

إنَّ الشيطان لا يتلقَّف إلاَّ الشاردين كما يتلقَّف الذئب الشاردة من

القطيع. فأمّا من يخلصون أنفسهم لله، فالله لا يتركهم للضياع. ورحمة الله أوسع ولو تخلّفوا فإنّهم يثوبون من قريب.

لقد أُجيب إبليس إلى ملتمسه. لأنَّ مشيئة الله سبحانه ـ اقتضت أن يترك الكائن البشري يشق طريقه، بما ركب في فطرته من استعداد للخير والشر؛ وبما وهبه من عقل مرجح؛ وبما أمدَّه من التذكير والتحذير على أيدي الرسل؛ ومن الضبط والتقويم بهذا الدين. كما اقتضت أن يتلقّى الهداية والغواية؛ وأن يصطرع في كيانه الخير والشر؛ وأن ينتهي إلى إحدى النهايتين، فتحق عليه سنة الله وتتحقق مشيئته بالابتلاء، سواء اهتدى أو ضلّ، فعلى سنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة، تحقق الهدى والضلال. وتشاء إرادة الله أن يطلق لرسول الشر والغواية الزمام، يحاول محاولته مع بني الإنسان ﴿قال: اذهب فمن تبعك منهم فإنَّ جهنَّم جزاؤكم جزاءً موفوراً﴾ [الإسراء: ٦٣].

لقد أعلن سبحانه إرادته. وحدَّد المنهج والطريق: ﴿قال: **فالحق. والحق أقول. لأملأنَّ جهنَّم منك وممَّن تبعك منهم أجمعين**﴾ [ص: ٨٥]. والله يقول الحق دائماً. ومنه هذا الوعد الصادق ﴿**لأملأنَّ جهنَّم منك وممَّن تبعك منهم أجمعين**﴾..

وهي المعركة إذن بين الشيطان وأبناء آدم، يخوضونها على علم. والعاقبة مكشوفة لهم في وعد الله الصادق الواضح المبين. وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم بعد هذا البيان. وقد شاءت رحمة الله ألاّ يدعهم جاهلين ولا غافلين. فأرسل إليهم المنذرين. فأمّا العاقبة، عاقبة الغاوين، فهي معلنة في الساحة منذ البدء ﴿**وإنَّ جهنَّم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾ [الحجر: ٤٣ ـ ٤٤].

فهؤلاء الغاوون صنوف ودرجات. والغواية ألوان وأشكال. ولكل باب منهم جزء مقسوم، بحسب ما يكونون وما يعملون

عدّة إبليس ووسائله في الغواية والاستيلاء على القلوب والعقول:

طرد الله إبليس من رحمته، ومدّ له في أمله، وقال له: امض لسبيلك الذي اخترته، وسر في طريق الشر الذي أردته. اذهب فحاول محاولتك. اذهب مأذوناً في إغواء بني آدم. فهم مزودون بالعقل والإرادة. يملكون أن يتبعوك أو يعرضوا عنك ﴿فمن تبعك منهم﴾ مُغلّباً جانب الغواية في نفسه على جانب الهداية، مُعرِضاً عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان، غافلاً عن آيات الله في الكون، وآيات الله المصاحبة للرسالات، ﴿فإنّ جهنّم جزاؤكم﴾ أنت وتابعوك ﴿جزاءً موفوراً﴾

﴿واستَفْزِزْ[1] من استطعت منهم بصوتك وأجلبْ[2] عليهم بخيْلك ورَجِلِك...﴾ [الإسراء: ٦٤].

وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول. فهي المعركة الصاخبة، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات. يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة. فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل، وأحاطت بهم الرجال!

﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾.. وهذه الشركة تتمثل في أوهام الوثنية الجاهلية، إذ كانوا يجعلون في أموالهم نصيباً للآلهة المدّعاة ـ فهي

---

(١) استفزّه: استخفه، والفز: الخفيف.
(٢) وأجلب: من الجلبة وهي الصياح.

للشيطان ـ وفي أموالهم نذوراً للآلهة أو عبيداً لها ـ فهي للشيطان ـ كعبد اللاّة وعبد مناة. وأحياناً كانوا يجعلونها للشيطان رأساً كعبد الحرث!

كما تتمثل في كل مال يجبى من حرام، أو يتصرف فيه بغير حق، أو ينفق في إثم. وفي كل ولد يجيء من حرام. ففيه شركة الشيطان. والتعبير يصور في عمومه شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة!

والشيطان مأذون في أن يستخدم وسائله كلها. ومنها الوعود المغرية الخادعة: ﴿وعدهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً﴾ كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص. والوعد بالغنى من الأسباب الحرام. والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة... ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة. وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة. فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة، ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة!

إنّ الشيطان يعدهم الأماني البعيدة والمواعيد الكاذبة ليخرج الإنسان من النور إلى الظلمات، ومن الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى العصيان ـ يعدهم ويمنيهم ليخرجهم من دائرة الإيمان والمغفرة إلى الضلال البعيد في تلبيس دنيء خسيس.. والقرآن الكريم يصف بعض أوهام الجاهلية العربية في شركها وأساطيرها حول اتخاذ الله بنات ـ هنّ الملائكة ـ وحول عبادتهم للشيطان ـ وقد عبدوه كما عبدوا الملائكة وتماثيلها الأصنام ـ كما يصف بعض شعائرهم في تقطيع أو تشقيق آذان الأنعام المنذورة للآلهة! وفي تغييرهم خلق الله. والشرك بالله... وهو مخالف للفطرة التي فطر الله الناس عليها:

﴿إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً، وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً،

لعنه الله، وقال: لأتَّخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً، ولأضلنَّهم، ولأمنِّينَّهم، ولآمرنَّهم فليُبتِّكن آذان الأنعام، ولآمرنَّهم فليُغيِّرُنَّ خلق الله. ومن يتخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً. يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠]

لقد كان العرب - في جاهليتهم - يزعمون أنَّ الملائكة بنات الله. ثمَّ يتخذون لهذه الملائكة تماثيل يسمونها أسماء الإناث: «اللات، والعزّى، ومناة» وأمثالها ثمَّ يعبدون هذه الأصنام - بوصفها تماثيل لبنات الله - يتقرّبون بها إلى الله زلفى.. كان هذا على الأقل في مبدأ الأمر.. ثمُّ ينسون أصل الأسطورة، ويعبدون الأصنام ذاتها.

كذلك كان بعضهم يعبد الشيطان نصاً.. قال الكلبي: كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن..

على أنَّ النص هنا أوسع مدلولاً، فهم في شركهم كله إنَّما يدعون الشيطان، ويستمدون منه. هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم؛ والذي لعنه الله، بسبب معصيته وعدائه للبشر. والذي بلغ من حقده بعد طرده ولعنه، أن يأخذ من الله - سبحانه - إذناً بأن يغوي من البشر كل من لا يلتجأ إلى حمىْ الله..

إنهم يدعون الشيطان - عدوهم القديم - ويستوحونه ويستمدون منه الضلال. ذلك الشيطان الذي لعنه الله؛ والذي صرّح بنيته في إضلال فريق من أبناء آدم، وتمنيتهم بالأُمنيات الكاذبة في طريق الغواية، من لذة كاذبة، وسعادة موهومة، ونجاة من الجزاء في نهاية المطاف! كما صرّح بنيته في أن يدفع بهم إلى أفعال قبيحة، وشعائر سخيفة، من نسج الأساطير. كتمزيق آذان بعض الأنعام، ليصبح ركوبها بعد ذلك حراماً، أو أكلها حراماً - دون أن يحرمها الله - ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير شكلها في الحيوان أو الإنسان، كخصاء الرقيق، ووشم الجلود.. وما إليها من التغيير والتشويه الذي حرّمه الإسلام.

وشعور الإنسان بأن الشيطان ـ عدوه القديم ـ هو الذي يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية، يثير في نفسه ـ على الأقل ـ الحذر من الفخ الذي ينصبه العدو. وقد جعل الإسلام المعركة الرئيسية بين الإنسان والشيطان. ووجّه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذي يبثه في الأرض؛ والوقوف تحت راية الله وحزبه، في مواجهة الشيطان وحزبه. وهي معركة دائمة لا تضع أوزارها. لأن الشيطان لا يملّ هذه الحرب التي أعلنها منذ لعنه الله وطرده. والمؤمن لا يغفل عنه، ولا ينسحب منها. وهو يعلم أنه إمّا أن يكون ولياً لله، وإمّا أن يكون ولياً للشيطان. وليس هناك وسط.. **والشيطان يتمثّل في نفسه وما يبثه في النفس من شهوات ونزوات؛ ويتمثل** في أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة. والمسلم يكافحه في **ذات نفسه**، كما يكافحه في أتباعه.. معركة واحدة متصلة طوال الحياة.

ومن يجعل الله مولاه فهو ناج غانم. ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك.. **﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾**..

ويصور السياق القرآني عمل الشيطان مع أوليائه، في مثل حالة الاستهواء. **﴿يعدهم ويمنّيهم، وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً﴾**. إنها حالة استهواء معينة هي التي تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد، إلى الكفر والشرك. ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة في طريقها، ولكان **الإيمان هو هادي الفطرة وحاديها.**

وإنها حالة استهواء معينة هي التي يُزين فيها الشيطان للإنسان سوء عمله، فيراه حسناً! **﴿أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً..؟ فإنّ الله يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾** [فاطر: ٨].

ويصور القرآن طبيعة الغواية، وحقيقة عمل الشيطان، والباب الذي يفتح فيجيء منه الشر كله؛ ويمتد منه طريق الضلال الذي لا يرجع منه

سالك متى أبعدت فيه خطاه: ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا..؟﴾.

هذا هو مفتاح الشر كله.. أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسناً. أن يعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها. ألّا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه، لأنه واثق من أنه لا يخطىء! متأكد أنه دائماً على صواب! معجب بكل ما يصدر منه! مفتون بكل ما يتعلق بذاته. لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء، ولا أن يحاسبها على أمر. وبطبيعة الحال لا يطيق أن يراجعه أحد في عمل يعمله أو في رأي يراه. لأنه حسن في عين نفسه. مزين لنفسه وحسه. لا مجال فيه للنقد، ولا موضع فيه للنقصان! هذا هو البلاء الذي يصبه الشيطان على الإنسان، وهذا هو المقود الذي يقوده منه إلى الضلال. فإلى البوار!

إنّ الذي يكتب الله له الهدى والخير يضع في قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب. فلا يأمن مكر الله. ولا يأمن تقلب القلب. ولا يأمن الخطأ والزلل. ولا يأمن النقص والعجز. فهو دائم التفتيش في عمله. دائم الحساب لنفسه. دائم الحذر من الشيطان. دائم التطلع لعون الله.

وهذا هو مفرق الطريق بين الهدى والضلال. وبين الفلاح والبوار.

إنّها حقيقة نفسية دقيقة عميقة يصورها القرآن في كلمات معدودة ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾.

إنه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير. ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين. هو هذا الغرور. هو هذا الستار الذي يعمي قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق. ولا يحسن عملاً لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء. ولا يصلح خطأ لأنه واثق أنه لا يخطىء! ولا يصلح فساداً لأنه مستيقن أنه لا يفسد! ولا يقف عند حد لأنه يحسب أن كل خطوة من خطواته إصلاح! إنه باب الشر. ونافذة السوء. ومفتاح الضلال الأخير.

ويدع السؤال بلا جواب.. ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه

حسناً؟» إنه تشمل كل حوب - كل يقين - فهذا يرجى له صلاح ومتاب؟ أفهذا كمن يحاسب نفسه ويراقب ربه؟ أفهذا يستوي مع المتواضعين الأتقياء؟» إلى آخر صور الإجابة على مثل هذا السؤال، وهو أسلوب كثير التردد في القرآن.

وتجيب الآية بأخذ هذه الأجوبة من بعيد: ﴿فإنَّ الله يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء...﴾..

وكأنما يقول: إنّ مثل هذا قد كتب الله عليه الضلالة، مستحقاً لها بما زين له الشيطان من سوء عمله. وبما فتح عليه هذا الباب الذي لا يعود منه ضال.

فإنَّ الله يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، بما تقتضيه طبيعة الضلال في ذلك وطبيعة الهدى في هذا: طبيعة الضلال برؤية العمل حسناً وهو سوء، وطبيعة الهدى بالتفتيش والحذر والمحاسبة والتقوى... وهو مفرق الطريق الحاسم بين الهدى والضلال. ثمّ يمضي القرآن في الموازنة بين حال الفريقين: ﴿أفمن كان على بيِّنة من ربّه، كمن زُيِّن له سوء عمله، واتَّبعوا أهواءهم﴾ [محمَّد: ١٤].

فهو فارق أصيل في الحالة التي عليها الفريقان. وفي المنهج والسلوك سواء. فالَّذين آمنوا على بيِّنة من ربِّهم. رأوا الحق وعرفوه، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه، وهم على يقين ممَّا يتلقون غير مخدوعين. ولا مضللين. والضالون الهالكون زُيِّن لهم سوء عملهم، فرأوه حسناً وهو سيِّء، ولم يروا ولم يستيقنوا، ﴿واتَّبعوا أهواءهم﴾ بلا ضابط يرجعون إليه، ولا أصل يقيسون عليه، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل.

أهؤلاء كهؤلاء؟ إنَّهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً. فلا يمكن أن يتفقوا ميزاناً ولا جزاءً ولا مصيراً!

إنه دأب الشر يفتحه قرناء سوء من الجن والإنس على المستكبرين: ﴿وقيّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم. وحقّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس. إنهم كانوا خاسرين﴾ [فصّلت: ٢٥].

هؤلاء قرناء السوء يزينون السوء لمن فسدت قلوبهم. ويسوقون بهم إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران. وحقّت عليهم كلمة العذاب.. وقرناء السوء يوسوسون لهم. ويزينون لهم كل ما حولهم من السوء، ويُحسّنون لهم أعمالهم فلا يشعرون بما فيها من قبح. وأشد ما يصيب الإنسان أن يفقد إحساسه بقبح فعله وانحرافه، وأن يرى كل شيء من شخصه حسناً ومن فعله! فهذه هي المهلكة وهذا هو المنحدر الذي ينتهي دائماً بالبوار

هذا هو مفتاح الضلال الذي يحركه الشيطان في القلوب المنتكسة فيصور لهم بوسوسته أنّهم على صواب، وأنّ عملهم وتدبيرهم حسن وجميل ثمّ ﴿يعدهم ويُمنّيهم، وما يعدهم الشيطان إلاّ غرورا﴾

ويعد الشيطان الإنسان ـ بعد أن زيَّن له سوء عمله فرآه حسناً ـ يعده الكسب والسعادة في طريق المعصية. فيعدو معه في الطريق! ويمنّيه النجاة من عاقبة ما يعمل فيمضي في طريقه إلى المهلكة!

لقد زين لهذا الإنسان الضال هذه الحياة الدنيا، بأعراضها الزهيدة، واهتماماتها الصغيرة، زيِّن له. فوقف عندها لا يتجاوزها، ولا يمدّ بصره إلى شيء وراءها؛ ولا يعرف قيماً أُخرى غير قيمها. والذي يقف عند حدود هذه الحياة الدنيا لا يمكن أن يسمو تصوره إلى تلك الاهتمامات الرفيعة التي يحفل بها المؤمن، ويمد إليها بصره في آفاقها البعيدة.. إنّ المؤمن قد يحتقر أعراض الحياة كلها. لا لأنّه أصغر منها همة أو أضعف منها طاقة، ولا لأنّه سلبي لا ينمي الحياة ولا يرقيها.. ولكن لأنّه ينظر إليها من علٍ ـ مع قيامه بالخلافة فيها، وإنشائه للعمران والحضارة، وعنايته بالنماء والإكثار ـ

فيشد من حياته ما هو أكبر من هذه الأعراض وأغلى. يشد منها أن يقر في الأرض مهمحاً، وأن يقود البشرية، إلى ما هو أرفع وأكمل. وأن يركز راية الله فوق هامات الأرض والناس، ليتطلع إليه البشر في مكانها الرفيع، ويمدوا بأبصارهم وراء الواقع الزهيد المحدود، الذي يحيا له من لم يهبه الإيمان رفعة الهدف، وضخامة الاهتمام، وشمول النظرة.

﴿يعدهم ويمنّيهم﴾.. يعدهم الشيطان بدوامة الحياة؛ يعدهم بطول الأجل والأمل يلهي والمطامع تعز، والعمر يمضي والفرصة تضيع، يضلهم في متاهة الأمس والغرور، يبوح لهم ويشغلهم بالأطماع، ويُمني لهم فيحسبون أنّ أجلهم ممدود وأنهم محصلون ما يطمعون لا يردّهم عنه رادّ، ولا يمنعهم منه مانع، ولم يبق وراءهم حسيب. وأنهم ماضون في لهفة مما ينالون ممّا يطمعون.

وهكذا يفسد الشيطان مقاييس الإنسان الذي زيّن له سوء عمله، يفسد مقاييسه كلها، ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها، وينتهي من ثمّ إلى شر مصير، فتأتيه الموت الذي يقطع كل شك. وينهي كل ريب، وينفصل في الأمر بلا مردّ، ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة..

والشيطان ينشىء في تزيينه لهذا الإنسان كل دوافع السوء، ويزعزع اليقين في النفس الإنسانية فيما عند الله ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ [البقرة: ٢٦٧].

إنّه الشيطان الذي يثير في القلوب ما يثير.. الشيطان يخوفكم الفقر، فيثير في نفوسكم الحرص والشح والتكالب. والشيطان يأمركم بالفحشاء ـ والفحشاء كل معصية تفحش أي تتجاوز الحد، وإن كانت قد غلبت على نوع معين من المعاصي ولكنها شاملة. وخوف الفقر كان يدعو القوم في جاهليتهم لوأد البنات وهو فاحشة؛ والحرص على جمع الثروة كان يؤدي

بعضهم إلى أرذل الذنب وهو فاحشة .. على أن خوف الفقر بسبب الإنفاق في سبيل الله في ذاته فاحشة.

وهناك حقيقة نلم بها قبل مغادرة هذه اللمسة الموحية في قوله تعالى ﴿الشَّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم. يؤتي الحكمة من يشاء ... ﴾.

إنَّ أمام الإنسان طريقين اثنين لا ثالث لهما: طريق الله. وطريق الشيطان. أن يستمع إلى وعد الله أو أن يستمع إلى وعد الشيطان، ومن لا يسير في طريق الله ويسمع وعده فهو سائر في طريق الشيطان ومتَّبع وعده.. ليس هناك إلاَّ منهج واحد هو الحق .. المنهج الذي شرعه الله.. فهو ما عداه للشيطان ومن الشيطان.

هذه الحقيقة يقررها القرآن الكريم ويكررها ويؤكدها بكل مؤكد. كي لا تبقى حجة لمن يريد أن ينحرف عن منهج الله ثم يدعي الهدى والصواب في أي باب. ليست هناك شبهة ولا غشاوة .. لله .. أو للشيطان. منهج الله أو منهج الشيطان. طريق الله أو طريق الشيطان .. ولمن شاء أن يختار.. لا شبهة ولا غبش ولا غشاوة .. وإنما هو الهدى أو الضلال. وهو الحق واحد لا يتعدد.. فماذا بعد الحق إلاَّ الضلال؟!.. ﴿وما يعدهم الشيطان إلاَّ غروراً﴾..

وحين يرتسم المشهد على هذا النحو، والعدو القديم يفتل الحبال، ويضع الفخ، ويستدرج الفريسة، لا تبقى إلاَّ الجبلاَّت المركوسة المطموسة هي التي ستظل سادرة لا تستيقظ، ولا تتلفت ولا تحاول أن تعرف إلى أي طريق تساق، وإلى آية هوة تُستهوى!

وبعد.. فقد قال الله لإبليس: اذهب مأذوناً في إغواء من يجنحون إليك. ولكن هناك مَن لا سلطان لك عليهم، لأنُّهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك!

﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان. وكفى بربِّك وكيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥].

فمتى اتصل القلب بالله، واتجه إليه بالعبادة. متى ارتبط بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها. متى أيقظ في روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت.. فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله. وهذا الروح المشرق بنور الإيمان. وكفى بالله وكيلاً يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان.

وانطلق الشيطان ينفذ وعيده، ويستذل عبيده، ولكنه لا يجرؤ على عباد الرَّحمٰن، فما له عليهم من سلطان..

ذلك ما يُبيته الشيطان لناس من شر وأذى. ثمَّ يوجد في الناس من يتَّبعون هذا الشَّيطان، ويستمعون إليه، ويعرضون عن نداء الله وهدايته، فما أعجب أن يتولّى أناس من بني آدم إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان بين آدم وإبليس: ﴿وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتَّخذونه وذريَّته أولياء من دوني، وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

وهذه الإشارة إلى تلك القصة القديمة تجيء هنا للتعجيب من أبناء آدم الذين يتخذون ذرية إبليس، أولياء من دون الله بعد ذلك العداء القديم.

واتِّخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل في تلبية دواعي المعصية والتولِّي عن دواعي الطاعة.

ولماذا يتولّون أعداءهم هؤلاء، وليس لديهم لبني آدم إلاَّ الغواية والشر المستطير ﴿ومن يتَّخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾.

وبعد هذه اللمسات الموقظة التي تفعل فعلها في النفوس، وتصور حقيقة المعركة، وحقيقة الموقف، يجيء التعقيب ببيان العاقبة في نهاية المطاف: عاقبة من يستهويهم الشيطان، ويصدق عليهم ظنه، وينفذ فيهم ما

صرّح به من نيته الشريرة. وعاقبة من يفلتون من حبائله، لأنهم آمنوا بالله حقاً والمؤمنون بالله حقاً في نجوة من هذا الشيطان لأنه ـ لعنه الله عليه ـ وهو يستأذن في إغواء الضالّين، لم يُؤذن له في المساس بعباد الله المخلصين فهو إزاءهم ضعيف ضعيف، كلما شددت قبضتهم على حبل الله المتين: ﴿ومن يتخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً. يعدهم ويمنّيهم، وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً. أولئك مأواهم جهنّم، ولا يجدون عنها محيصاً. والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات سندخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار. خالدين فيها أبداً، وعد الله حقّاً، ومن أصدق من الله قيلاً؟﴾ [النساء: ١١٩ ـ ١٢٢].

فهي جهنّم ولا محيص عنها لأولياء الشيطان. وهي جنّات الخلد لا خروج منها لأولياء الله. وعد الله ﴿ومن أصدق من الله قيلاً؟﴾ والصدق المطلق في قول الله هنا؛ يقابل الغرور الخادع، والأماني الكاذبة في قول الشيطان هناك! وشتان بين من يثق بوعد الله، ومن يثق بتغرير الشيطان!

ويعلن الله طرد إبليس طرداً لا معقّب عليه. طرده مذموماً مقهوراً، وإبعاده بملء جهنّم منه وممّن يتبعه من البشر ويضل معه: ﴿قال: اخرج منها مذؤوماً مدحوراً. لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنّم منكم أجمعين﴾ [الأعراف: ١٨].

ومن يتبعه من البشر قد يتبعه في معرفته بالله واعتقاده بألوهيته، ثمّ رفض حاكمية الله وقضائه، وادعاء أنّ له الحق في إعادة النظر في أوامر الله، وفي تحكيم منطقه هو في تنفيذها أو عدم تنفيذها.. كما أنّه قد يتبعه ليُضلّه عن الاهتداء إلى الله أصلاً.. وهذا وذاك كلاهما اتباع للشيطان؛ جزاؤه جهنّم مع الشيطان!

لقد جعل الله سبحانه ـ لإبليس وقبيله فرصة الإغواء. وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقاً للابتلاء، الذي قضت مشيئته أن تأخذ به هذا

الكائن؛ وتجعله به خلقاً متفرداً في خصائصه. لا هو ملك ولا هو شيطان، لأنّ له دوراً خراً في هذا الكون، ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان.

وهكذا وضَّح القرآن الكريم كيف يسلك الشيطان طريقه إلى النفوس وكيف تغلب خصائص الطين في الإنسان على خصائص النفخة. فأمّا من يتصل بالله ويحتفظ بنفخة روحه فلا سلطان عليه للشيطان.

والآن انكشف ميدان المعركة الخالدة. المعركة بين خليفة الشر في إبليس، وخليفة الله في الأرض. المعركة الخالدة في ضمير الإنسان المعركة التي ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربه، وينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهوته، ويبعد عن ربه..

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، قال: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطّاً، فقال: «هذا سبيل الله» ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثمَّ قال «وهذه سُبل، على كلِّ سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه» ثمّ قرأ: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السُّبل فتفرَّق بكم عن سبيله﴾[1] [الأنعام: ١٥٣].

إنّه صراط واحد ـ صراط الله ـ وسبيل واحدة تؤدّي إلى الله.. أن يطيعوا الله سبحانه وأن يدينوا لحاكميته في حياتهم كلها.. هذا هو صراط الله، وهذا هو سبيله.. وليس وراءه إلّا السبل التي تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله.. يقودهم شيطان..

تذكير وتوكيد:

إنّ قصة البشرية الكبرى دلالتها واضحة على تكوين هذا الخلق المسمّى بالإنسان. فهو تكوين خاص متفرد، يزيد على مجرد التركيب العضوي الحيوي، الذي يشترك فيه مع بقية الأحياء. وأيّاً كانت نشأة الحياة،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، وإسناده حسن. انظر تخريجه في الإحسان رقم (٦) و (٧).

ونشأة الأحياء؛ فإنَّ الخلق الإنساني يتفرد بخصية أخرى هي التي ورد بها النص القرآني.. خصية الروح الإلهي المودع فيه.. وهي الخاصية التي تجعل من هذا الإنسان إنساناً، يتفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى. وهي قطعاً ليست مجرد الحياة. فهو يشترك في «الحياة» مع سائر الأحياء. ولكنها خاصية الروح الزائد عن مجرد الحياة.

هذه الخاصية ـ كما يلهم النص القرآني ـ لم تجيء للإنسان بعد مراحل أو أطوار من نشأته ـ كما تزعم الداروينية ـ ولكنها جاءت مصاحبة لخلقه ونشأته. فلم يجيء على هذا الكائن الإنساني زمن كان فيه مجرد حيّ من الأحياء ـ بلا روح إنساني خاص ـ ثمَّ دخلته هذه الروح، فصار بها هو هذا الإنسان!

ولقد اضطرّت الداروينية الحديثة ـ على يد جوليان هاكسلي ـ أن تعترف بشطر من هذه الحقيقة الكبيرة، وهي تقرر «تفرد الإنسان» من الناحية الحيوية والوظيفية ومن ثمَّ تفرده من الناحية العقلية، وما نشأ عن ذلك كله من تفرّده من الناحية الحضارية..

ولكنها ظلّت تزعم أنَّ هذا الإنسان المتفرد متطور عن حيوان!

والتوفيق عسير بين ما انتهت إليه الداروينية الحديثة من تفرد الإنسان، وبين القاعدة التي تقوم عليها الداروينية ـ قاعدة التطور المطلق وتطور الإنسان عن الحيوان ـ ولكنَّ الداروينيين ومن والاهم لا يزالون مصرّين على ذلك الاندفاع ـ غير العلمي ـ الذي صبغوه بصبغة العلم، في دفعة الانسلاخ من كل مقررات الكنيسة! والذي شجع اليهود على نشره وتمكينه وتثبيته، وإضفاء الصبغة «العلمية» عليه لغرض في نفوسهم، ونغاية في مخططاتهم[1]!

---

(١) يراجع فصل «اليهود الثلاثة» في كتاب: «التطور والثبات في الحياة البشرية» لمؤلفه محمّد قطب

هذه النشأة المتفردة للإنسان، باحتوائها على هذه الخاصية المميزة للوجود الإنساني المستقل — خاصية النفخة من روح الله — تجعل النظرة إلى هذا الإنسان وإلى مطالبه الأساسية، تختلف اختلافاً أصيلاً عن نظرة المذاهب المادية، بكل إفرازاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وكل إفرازاتها في التصورات والقيم التي ينبغي أن تسود الحياة الإنسانية.

إن الزعم بأن الإنسان مجرد حيوان متطور عن حيوان! هي التي جعلت الإعلان الماركسي يذكر أن مطالب الإنسان هي الطعام والشراب والمسكن والجنس! فهذه فعلاً هي مطالب الحيوان الأساسية! ولا يكون الإنسان في وضع أحقر مما يكون وفق هذه النظرة! ومن ثمّ تهدر كل حقوقه المترتبة على تفرّده عن الحيوان بخصائصه الإنسانية. فتهدر حقوقه في الاعتقاد الديني. وتهدر حقوقه في حرية التفكير والرأي. وتهدر حقوقه في اختيار نوع العمل، ومكان الإقامة. وتهدر حقوقه في نقد النظام السائد وفلسفته الفكرية والمذهبية. بل تهدر حقوقه في نقد تصرفات « الحزب » ومن هم أقل من الحزب من الحكام المتسلّطين في تلك الأنظمة البغيضة. التي تحشر الأناسي حشراً، وتسوقهم سوقاً، لأن هؤلاء « الأناسيّ » وفق الفلسفة المادية ليسوا سوى نوع من الحيوان تطور عن حيوان! ثمّ يسمّى ذلك النكد كله « الاشتراكية العلمية »!

فأمّا النظرة الإسلامية إلى « الإنسان » - وهي تقوم على أساس تفرده بخصائصه الإنسانية إلى جانب ما يشترك فيه الحيوان من التكوين العضوي - فإنّها منذ اللحظة الأولى تعتبر أنّ مطالب الإنسان الأساسية مختلفة وزائدة عن مطالب الحيوان الأساسية. فليس الطعام والشراب والمسكن والجنس هي كل مطالبه الأساسية. وليس ما وراءها من مطالب العقل والروح مطالب ثانوية!.. إن العقيدة وحرية التفكير والإرادة والاختيار هي مطالب أساسية كالطعام والشراب والمسكن والجنس.. بل هي أعلى منها في الاعتبار؛ لأنّها هي المطالب الزائدة في الانسان على الحيوان. أي المطالب المتعلقة

بخصائصه التي تقرر إنسانيته! والتي بإهدارها تهدر آدميته!

ومن ثمَّ لا يجوز أن تهدر في النظام الإسلامي حرية الاعتقاد والتفكير والاختيار في سبيل « الإنتاج » وتوفير الطعام والشراب والمسكن والجنس للآدميين! كما لا يجوز أن تهدر القيم الأخلاقية - كما يقررها الله للإنسان لا كما يقررها العرف والبيئة والاقتصاد - في سبيل توفير تلك المطالب الحيوانية.

إنهما نظرتان مختلفتان من الأساس في تقييم « الإنسان » و « مطالبه الأساسية » .. ومن ثمَّ لا يمكن الجمع بينهما في نظام واحد على الإطلاق! فإمَّا الإسلام، وإمَّا المذاهب المادية بكل ما تفرزه من إفرازات نكدة .. بما فيها ما يسمونه هناك « الاشتراكية العلمية » فإن هو إلاَّ إفراز خبيث من إفرازات المادية الحقيرة المحتقرة للإنسان الذي كرَّمه الله. والمعركة الخالدة بين الشيطان والإنسان في هذه الأرض ترتكز ابتداءً إلى استدراج الشيطان للإنسان بعيداً عن منهج الله؛ والتزيين له فيما عداه. استدراجه إلى الخروج من عبادة الله - أي الدينونة له في كل ما شرع من عقيدة وتصور، وشعيرة ونسك، وشريعة ونظام - فأمَّا الذين يدينون له وحده - أي يعبدونه وحده - فليس للشيطان عليهم من سلطان ﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ..

ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنَّة التي وعد بها المتَّقون؛ وبين الاتجاه إلى جهنَّم التي وعد بها الغاوون، هو الدينونة لله وحده - التي يعبر عنها في القرآن دائماً بالعبادة - أو اتباع تزيين الشيطان بالخروج على هذه الدينونة.

والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود الله سبحانه، ولا صفاته .. أي إنه لم يكن يلحد في الله من ناحية العقيدة! إنما الذي فعله هو الخروج على الدينونة لله . وهذا ما أورده جهنَّم هو ومن اتَّبعه من الغاوين

إنَّ الدينونة لله وحده هي مناط الإسلام. فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير الله في حكم من الأحكام. وسواء كان هذا الحكم خاصاً بالاعتقاد والتصور. أو خاصاً بالشعائر والمناسك. أو خاصاً بالشرائع والقوانين. أو خاصاً بالقيم والموازين.. فهو سواء.. الدينونة فيه لله هي الإسلام. والدينونة فيه لغير الله هي الجاهلية الذاهبة مع الشيطان. ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة؛ واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع. فالدينونة لله كلٌ لا يتجزأ. وهي العبادة لله في معناها اللغوي وفي معناها الاصطلاحي على السواء. وعليها تدور المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان!

بدء المعركة الخالدة :

أذاق الله إبليس بأسه وسلبه نعمته وطرده من الجنَّة هذه الطردة مذؤوماً مدحوراً.. ويلتفت الله سبحانه ـ بعد طرد إبليس ـ إلى آدم وزوجه فقال تبارك وتعالى. ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنَّة﴾ [الأعراف: ١٩].

وهنا فقط نعرف أنَّ له زوجاً من جنسه. ولا ندري كيف جاءت. فالنصوص القرآنية لا تتحدث عن هذا الغيب بشيء. ولكنَّا نقرأ في كتاب الله ﴿خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها﴾ [النساء: ١].

وهذه النفس الواحدة ـ بلا نزاع ـ هي آدم عليه السَّلام.. وخلْق الزوجة من بدنه وانفصالها منه سر إلهي وغيب لا يعلمه إلَّا الله[1]، والذي

---

(١) يقول البهي الخولي في هذا الموضوع: «وخلق الزوجة من بدنه وانفصالها منه أمر يطرب له العلم، فإنَّ صغار الطلاب في المدارس يعلمون من دراساتهم أنَّ «الأميبة» تتكاثر عن طريق تضخمها وانفصال جزء من جسمها يكون من دوره «أميبة» جديدة تتكاثر بنفس الطريقة... ومن جراثيم الأمراض ـ كميكروب الملاريا ـ ما يتكاثر بطريق الانقسام، ثمَّ هو نفسه يتحول في حال معينة إلى التكاثر بطريق التولد الذي يحدث بين ذكر وأنثى.» [آدم ص ١٣٨ وما يليه].

يعيشا ويمكن الجزم بأنه هو وحسب أن الله خلق له زوجاً من جنسه(١)، فصارا زوجين اثنين؛ والسنة التي نعلمها عن خلق الله هي الزوجية ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ [الذاريات: ٤٩]

وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض - وربما في هذا الكون إذ إن التعبير لا يخصص الأرض - قاعدة الزوجية في الخلق. وهي ظاهرة في الأحياء. ولكن كلمة «شيء» تشمل غير الأحياء أيضاً. والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية. فهي سنة جارية وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة. وإذا سرنا مع هذه السنة فإن لنا أن نرجح أن خلق حواء لم يمكث طويلاً بعد خلق آدم، وأنه تم على نفس الطريقة التي تم بها خلق آدم وصنوانه ﴿خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها﴾.

إن هذه الإشارة القرآنية التي تنص إلى أنه من النفس الواحدة ﴿خلق منها زوجها﴾.. كانت كفيلة - لو أدركتها البشرية - أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة التي تردت فيها، وهي تتصور في المرأة شتى التصورات السخيفة، وتراها منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء» متفق عليه.

ومعنى «خلقت من ضلع» كما هنا على التمثيل كما هو مصرح به في رواية ثانية للصحيحين «المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت وفيها عوج»، لا أن المرأة خلقت من ضلع آدم كما يدعيه بعضهم، وليس في السنة الصحيحة شيء من ذلك، وإنما هو منقول عن الإصحاح الثاني من سفر التكوين، وتأويل قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾، وهو كقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾ وقوله: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ وقوله: ﴿فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾..

وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً، خلقها لتكون له زوجاً، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء. فلا فارق في الأصل والفطرة. إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة..

ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً، جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان، تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له. فلمّا أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى، وأطلقت للمرأة العنان. ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وأنهما ليسا فردين متماثلين. إنما هما زوجان متكاملان. وحين آن لآدم عليه السلام أن يزاول اختصاص بشريته وأن يتحول إلى فوق غرائزه! كان أول غريزة تودي إليه «غريزة الزوج»، وذلك قوله سبحانه: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً﴾ [البقرة: ٣٥]. وعلماء النفس يتكلمون عن «الغريزة الجنسية» وعن «غريزة الوالدية»، ولكن ما جاء في القرآن أعمق وأصدق وأشمل: «فالزوج» ضرورة فطرية أعمق ممّا يتصوره الناظر إلى الوالدية، وشهوة الحس: هو نظام أزلي ينتظم به شمل كل ما نرى، ويصلح عليه وجوده، وتخرج به ثماره ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾

ولا يعلم أحد إلاَّ هو سبحانه مدى سعة نطاق «الكلية» التي تضمنها قوله ﴿كل شيء﴾. فنظام «الزوج» ليس دائرة ضيقة، ولا أفقاً محصوراً مقصوراً على الإنسان والحيوان والنبات؛ بل هو سنة كونية دقيقة وواسعة المدى، وفطرة أزلية لا ينتظم شمل الشيء إلاّ إذا اتخذت مكانها الطبيعي في وجوده.. فهناك حنين أزلي، ونزوع فطري يتجاذب به «أزواج» النوع الواحد بعضها إلى بعض، فلا يسعد شوق أحدهما إلى الآخر، ولا يسكن قلبه ويكمل أمره ويخرج ثمره إلاّ أن يلتقي على السنة التي قررها الله سبحانه لإفراد نوعهما.

«وقد خلق الله حواء لآدم. وما كان سبحانه ليخلقها له إلاّ لأن خَلْقَها

تكملة لنظام وجوده، وسدّاً لفراغ نصبي في جبلته، أو لتكون هي الطرف الآخر الذي يكمل به نسقه المعنوي ونسقه الحسّي جميعاً

والأمر ما احتفى القرآن الكريم بذكر ملازمتها له في الجنّة إذ قال سبحانه: ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة﴾ فهي ملازمة لا يغنيه عنها أنّه عليه السّلام في الجنّة.

وأمّا حكم الملازمة التي يعني القرآن بتقريرها بينهما في ضمير التثنية باضطراد إذ يناديهما الله سبحانه: ﴿وكُلا منها رغداً حيث شئتما...﴾ وإذ يناديهما: ﴿ألم أنهكما عن تلكما الشّجرة، وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدوٌّ مبين؟﴾، فإنّا لم نقرأ أنّ شيئاً من الأنباء توجه إليه الخطاب مع زوجه من الله سبحانه، إذ هي مكلّفة بما خوطب به، ولا ضرورة لإشراكها معه في الخطاب لأنّها ستتلقاه منه. وليس لتلك الملاحظة التي لاحظناها من توجيه إلّا الاحتفاء بالزوج، وتقرير مكانه من فطرة البشر الأول، ولزومه له في كل مراحل حياته..

«فالزوج في الإنسان ما هو إلّا شطر نسمة من نسم الله يجب أن يلتئم مع شطرها الآخر، ليكمل وجود المرء، ويسكن فيه المتلفت الحيران. وهذا المعنى الدقيق هو الذي يلمّ به قوله سبحانه: ﴿هو الّذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ [الأعراف: ١٨٩]..»(١).

فهي نفس واحدة في طبيعة تكوينها، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى. وإنّما هذا الاختلاف ليسكن الروح إلى زوجه ويستريح إليها.. وهذه هي نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان. ووظيفة الزوجية في تكوينه، وهي نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً. يوم أن كانت الديانات المحرفة تعدّ المرأة أصل البلاء الإنساني(٢)، وتعتبرها

---

(١) آدم ١٣٩ ـ ١٤١

(٢) إنّ بعض الروايات تذكر في تفسير قوله سبحانه في سورة الأعراف الآية: ١٨٨ ـ ١٩٠

لعنة ونجساً وفخاً للغواية تُحذر منه تحذيراً شديداً، ويوم أن كانت الوثنيات ولا تزال - تعدها من سقط المتاع أو على الأكثر خادماً أدنى مرتبة من الرجل ولا حساب له في ذاته على الإطلاق.

والأصل في التقاء الزوجين هو السكن والاطمئنان والأُنس والاستقرار، ليظل السكون والأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب، وينتج فيه المحصول البشري الثمين، ويؤهل فيه الجيل الناشىء لحمل تراث التمدن البشري والإضافة إليه.

وليس هذا السكن هو سكن العاطفة العارضة، أو الشهوة التي انقضت قضاء الوطر في هذا المهاد. وسنة الله لم تجعل هذا الالتقاء لمجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة. كما أنه لم يجعله شقاقاً ونزاعاً، وتعارضاً بين الاختصاصات والوظائف، أو تكراراً للاختصاصات والوظائف، كما تخبط الجاهليات في القديم والحديث سواء[1]!

«إنَّ هذا السكن هو قبل كل شيء سكن الحياة الملهمة في كيان الإنسان إلى سنة من سنن دورانها في هذا الوجود. فإذا لم تتوفر تلك السنة فهو كوكب يسير في غير فلك..

﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ إلى قوله: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عمَّا يشركون﴾ إن بعض الروايات في التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء، إذ كان أولادهما يولدون مشوهين فجاءهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمي ما في بطنها «عبد الحارث» - والحارث اسم لإبليس - ليولد صحيحاً ويعيش، ففعلت وأغرت آدم معها! وظاهر ما في هذه الرواية من طابع إسرائيلي، ذلك أن التصور الإسرائيلي المسيحي - كما حرفه أحبارهم - هو الذي يلقي عبء الغواية على حواء، فهي التي أغرت آدم بأكل الشجرة التي نهى الله عنها. وهذا مخالف تماماً للتصور الإسلامي الصحيح.

(١) تراجع فقرة «المرأة وعلاقات الجنسين» في فصل «التخبط والاضطراب» في كتاب: «الإسلام ومشكلات الحضارة»، كذلك يراجع فصل «حقيقة الإنسان» في كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الثاني.

ونجد في سيرة رسول الله ﷺ أنه كان إذا خرج إلى سفر أقرع بين زوجاته لتخرج معه إحداهنّ؛ وما نحسب أنّ شهوة الجنس - وهو يدرج إلى الستين - هي التي كانت تملي عليه هذا التصرّف، وإنّما هي نفسه الصافية المشرقة التي ما كانت ترى لها سكناً ولا قراراً إلّا في ظل سنة من سنن الله التي أعدت لها، و «الزوج» سنة من تلك السنن.. وسره مركوز في فطرة كل نفس؛ فإذا وجد ﷺ في نفسه حنيناً إلى «الزوج» في البيت، وإلى «الزوج» في السفر، وإلى «الزوج» حيثما كان فهو البشري المثالي الذي تجاوبت خصائص نفسه مع سنن الله في هذا الوجود تجاوب مسرة وإلف وركون إلى جمالها.. وإلى هذا المعنى الدقيق الكريم يشير قوله ﷺ: «حُبِّب إليّ النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصّلاة». فهو عليه السّلام لا يرمي إلى معايشة النساء، وإصابة ما لديهنّ من شهوة، إنّما يرمي إلى جمال ما يذوقه في ظلالهنّ الرقيقة من لذة الأنس سنة من سنن الله..

ولعلّ ممّا يشير إلى تلك الفجوة الموحشة التي لا يملؤها في كياننا إلّا «الزوج» وأنّها فطرة لنا، وسنة لازمة لا نستطيع الفكاك منها ولا التعالي عليها أنّ الله سبحانه جعل الحاجة إليها شارة من شارات الضعف لدى الرمه خلقه وتنزّه عنه سبحانه أن يكون كمثله، فقال جلّ شأنه ﴿وأنّه تعالى جدُّ ربنا ما اتّخذ صاحبة ولا ولداً﴾ [الجن: ٣]

فالله سبحانه - لا تحكمه السنن إنّما هو الذي يحكمها ويصرفها ويسيطر عليها، أمّا نحن بني آدم فعظاء سعادتنا وجمال حياتنا هو مسايرة تلك السنن والإتساق مع مقتضاها.

وليس لدينا من النصوص ما نعرف به نظام حياة هذين الزوجين الكريمين في تلك الجنة، ولا أي أنواع اللذة كانا يتساقيان، ولكن حسبنا أن نقطع بما قطع به القرآن الكريم من أنّ نعيم الجنّة كان مباحاً لهما، وأنّهما مارسا فطرة «الزوج» الهنيئة في أفق الأنس العاطفي وسكينة كل منهما إلى

صاحبه.(1) ويتجه الخطاب الإلهي إلى آدم وزوجه، ليعهد إليهما ربهما بأمره في حياتهما، ولتتم تربيتهما وإعدادهما لدورهما الأساسي، الذي خلق الله له هذا الكائن وهو دور الخلافة في الأرض: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، فكلا من حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة، فتكونا من الظالمين﴾ [الأعراف: ١٩] لقد أبيحت لهما كل ثمار الجنة.. إلا شجرة: ﴿وقلنا: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة. وكلا منها رغداً، ولا تقربا هذه الشجرة، فتكونا من الظالمين﴾ [البقرة: ٣٥].

ويسكت القرآن عن تحديد «هذه الشجرة». لأن تحديد جنسها لا يزيد شيئاً في حكمة حظرها. مما يرجح أن الحظر في ذاته هو المقصود. لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال. أبيحت لهما كل ثمار الجنة.. إلا شجرة.. شجرة واحدة. ربما كانت ترمز للمحظور الذي لا بد منه في حياة الأرض، ووصاهما بالامتناع عن المحظور. فلا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد، وأن يدرب المركوز في طبعه من الإرادة التي يضبط بها رغباته وشهواته؛ ويستعلي بها على هذه الرغبات والشهوات، فيظل حاكماً لها لا محكوماً بها كالحيوان. فهذه هي خاصية «الإنسان» التي يفترق بها عن الحيوان، ويحقق بها فيه معنى «الإنسان». فبغير محظور لا تثبت الإرادة، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد والتقيد بالشرط. فالإرادة هي مفرق الطريق. والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل الآدميين!

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل..﴾ وعهد الله إلى آدم هو الأكل من كل الثمر سوى شجرة واحدة، تمثل المحظور ـ كما قلنا ـ الذي لا بد منه لتربية الإرادة، وتأكيد الشخصية، والتحرر من رغبات النفس وشهواتها بالقدر

---

(1) آدم: ١٣٨ ـ ١٤٢.

الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد؛ فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها.

وهذا هو المقياس الذي لا يُخطىء في قيس الرقي البشري. فكلَّما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري. وكلَّما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأُولى. من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته، وتنبيه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان. وإرادته وعهده للرحمن.

دور إبليس والتجربة الأولى:

إنَّ الوظيفة الأُولى والأخيرة للشيطان بل وظيفته التي ليس له سواها وإلى يوم الوقت المعلوم هي أن يكون عدواً للإنسان، وأن يعد كل العدة لمحاربته، وهو على قدرة من الذكاء والخبث والمهارة، فهو يعرف كيف يلبس الباطل ثوب الحق، حتى قد يستدرج هذا المخلوق إلى المنكر، وهو يظن أنه يفعل الخير، وهو وذريته يتخذون أساليب ماكرة خادعة.

وكانت رعاية من الله وعناية أن يُنبه آدم إلى عدوه ويحذّره غدره، عقب نشوزه وعصيانه، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه: **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى. فقلنا: يَا آدم إنَّ هذا عدوٌ لك ولزوجك، فلا يخرجنَّكما من الجنَّة فتشقى، إنَّ لك ألاَّ تجوع فيها ولا تعرى، وأنَّك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾** [طه: ١١٦ ـ ١١٩].

لقد حذَّر الله آدم كيد إبليس: **﴿فلا يخرجنَّكما من الجنَّة فتشقى﴾** فالشقاء بالكد والعمل والشرود والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان كلها تنتظر هناك خارج الجنَّة، وأنت في حمى

منها كلها ما دمت في رحاب الفردوس. ﴿إنَّ لك ألّا تجوع فيها ولا تعرىٰ وأنَّك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾

فهذا كله مضمون لك ما دمت في رحابها. والجوع والعري، يتقابلان مع الظمأ والضحوة. وهي في مجموعها تمثل متاعب الإنسان الأولى في الحصول على الطعام والكساء، والشراب والظلال.

إنَّ هذا الكائن المتفرد، الذي كرَّمه الله كل هذا التكريم؛ والذي أعلن ميلاده في الملأ الأعلىٰ في ذلك الحفل المهيب، والذي أسجد له الملائكة فسجدوا، والذي أخرج بسببه إبليس من الجنّة وطرده من الملأ الأعلى.

إنَّ هذا الكائن مزدوج الطبيعة، مستعد للاتجاهين الخير والشر على السواء. وفيه نقط ضعف معينة يُنفذ منها ـ ما لم يلتزم بأمر الله فيها ـ ومن هذه النقط تمكن إصابته، ويمكن الدخول إليه. إنّ له شهوات معينة، ومن شهواته يمكن أن يُنفذ(١). ولكن آدم كان غفلاً من التجربة. وهو يحمل الضعف البشري تجاه الرغبة في البقاء والرغبة في السلطان. ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال: يا آدم هل أدلُّك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى؟﴾ [طه: ١٢٠]. لقد نفذ إليه إبليس من شهواته. وهنا يبدأ دوره. يؤدّي دوره الذي تمحّض له.. وراح إبليس يداعب هذه الشهوات: ﴿فوسوس لهما الشيطان ليُبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما؛ وقال: ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا ملَكين، أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إنِّي لكما لمن النّاصحين﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢١]

ووسوسة الشيطان لا ندري نحن كيف تتم؛ لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه.

---

(١) راجع قصة آدم في كتاب «منهج الفن الإسلامي» تأليف محمّد قطب

ولكننا نعلم - بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب - أن الإغواء على الشر يتم في صورة من الصور؛ وأن الإيحاء بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات. وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية في الإنسان. وأن هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر؛ حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر؛ وما يكون لكيده الضعيف حينئذ من تأثير..

وهكذا وسوس الشيطان لآدم وزوجه ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما. فهذا كان هدفه. ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما﴾. لقد كانت لهما سوآت، ولكنها كانت مواراة عنهما لا يريانها. وهي سوآت حسية جسدية تحتاج إلى تغطية مادية، فكأنها عوراتهما - ولكنه لم يكشف لهما هدفه بطبيعة الحال! إنما جاءهما من ناحية رغائبهما العميقة: ﴿وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾. بذلك داعب رغائب الإنسان الكامنة. إنه يحب أن يكون خالداً لا يموت أو معمراً أجلاً طويلاً كالخلود! ويحب أن يكون له ملك غير محدود بالعمر القصير المحدود.

وفي قراءة: «ملكين» بكسر اللام. وهذه القراءة يعضدها النص الآخر في قوله تعالى: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾. وعلى هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد وهما أقوى شهوتين في الإنسان بحيث يمكن أن يقال: إن الشهوة الجنسية ذاتها إن هي إلا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد في النسل جيلاً بعد جيل.. وعلى قراءة ﴿ملكين﴾ بفتح اللام يكون الإغراء بالخلاص من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود. ولكن القراءة الأولى - وإن لم تكن هي المشهورة - أكثر اتفاقاً مع النص القرآني الآخر، ومع اتجاه الكيد الشيطاني وفق شهوات الإنسان الأصيلة. ورغبة الإنسان في «الخلود» إلى «حب الخلود» اتجاه طبيعي دائم غير منقطع ولا موقوت إلا بأجله.

وقد ورد في البحوث الخاصة بالغرائز عبارات: «المحافظة على النفس» و«غريزة المقاتلة»، و«غريزة الخلاص أو الهرب»، و«غريزة الاستغاثة»، و«غريزة البحث عن الطعام»؛ ولا شك أنها كلها معان تهدف إلى التشبث بالحياة، ومدافعة كل خطر يتهدد بقاء الإنسان. أي أن ما ذهب إليه أصحاب البحوث يندرج تحت الميل الفطري إلى «الخلود» وهو الميل الذي استغلّه الشيطان في آدم وزوجه حين وقف يزين لهما الأكل من الشجرة التي نهى الله عنها. .

وقد يبدو للنظرة العابرة أنّ غريزة «حب الخلود» أصل في فطرة الإنسان من «غريزة الزوج» فهي أولى أن تقدم عليها في قائمة غرائز الإنسان؛ ولكن التأمُّل الدقيق لا يلبث أن يرينا غير هذا!

إذ ما جدوى حياة أو نعيم يشعر فيه المرء بالوحدة؟ أو يشعر كلّ جانب من كيانه بجلوه فراغ مقفر وجو موحش . . . فالزوج هو تمام الوجود المعنوي للمرء. أو هو السالب للموجب، والموجب للسالب في حياة الإنسان. . فتبقى الوجود أولاً، ثمّ العمل على «البقاء» والتمسك بأسبابه!

وثمّة غريزة ثالثة تعرضها علينا قصة آدم عليه السّلام، تلك هي «غريزة الملك» وهي القوة التي دعاها إبليس في آدم ونبهها في نفسه لأوّل مرة وهو يقول له ﴿هل أدلُّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾. (١)»

وهكذا فقد لمس الشيطان في نفس آدم وزوجه الموضع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة، من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك العريض، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدر وحكمة مخبوءة. .

ولمّا كان اللعين يعلم أنّ الله قد نهاهما عن هذه الشجرة؛ وأنّ هذا

---

(١) آدم للبهي الخولي ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

النهي له ثقله في نفوسهم وقوته؛ فقد استعان على زعزعته ـ إلى جانب مداعبة شهواتهما ـ بتأمينهما من هذه الناحية، فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح، وفي نصحه صادق ﴿وقاسمهما إنِّي لكما لمن النَّاصحين﴾ [الأعراف: ٢١].

لقد أقسم لهما بعد أن رأى أنَّ آذانهما صُمَّت عن سماع نصحه، والإصاخة إلى نصيحته، أقسم لهما إنه من الناصحين، لا يقصد إلى ضررهم، ولا يريد النكاية بهما؛ ليؤكد صحة قصده، وصواب رأيه؛ ولا شك أنه أكثر في الوسوسة وألحَّ، وتمادى في إغوائه والحلف.. ونسي آدم وزوجه تحت تأثير الشهوة الدافعة والقسم المحدد ـ أنَّه عدوهما الذي لا يمكن أن يدلهما على خير! وأنَّ الله مرهما أمراً عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفاها! وأنه لا يكون شيء إلاَّ بقدر من الله. فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذي لا يبلى فلن ينالاه!

نسيا هذا كله، واندفعا يستجيبان للإغراء! ﴿فدلاَّهما بغرور. فلمَّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما. فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة؛ وناداهما ربُّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة. وأقل لكما إنَّ الشيطان لكما عدوٌ مبين"﴾

لقد تمَّت الخدعة وآتت ثمرتها المُرَّة بعد أن أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة لله إلى معصيته، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا ﴿فدلاَّهما بغرور﴾..

ونتساءل. كيف يسمع آدم وزوجه لإغواء الشيطان، وهم يعلمان أنَّه رجيم، وأنَّ عليه اللعنة إلى يوم الدين؟

وكيف يتوقع منه النصح الصادق بعد أن وضحت عداوته؟

وكيف يغترا بقسمه إنَّه لهما لمن النَّاصحين؟

والرد على ذلك أنَّ آدم وزوجه خُلقا بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر

مقدور وحكمة مخبوءة، ومن ثمّ نسي العهد، وأقدم على المحظور: ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة.. وعصى آدم ربّه فغوى﴾..

﴿فلمّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما﴾.

لقد شعرا الآن أنّ لهما سوآت، تكشّفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما.. والظاهر أنّها السوءات الحسية تبدّت لهما وكانت عنهما مستورة، وأنّها موضع العفة في حسيهما. رجح ذلك أنّهما أخذا يسترانها بورق الجنّة يشبطانه ليستر هذه المواضع ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة﴾ فراحا يجمعان من ورق الجنة يشكّلانه بعضه في بعض ﴿يخصفان﴾ ويصعدان هذا الورق للمسك على سوآتهما.. ممّا يوحي بأنّها العورات الجسدية التي يخجل الإنسان فطرة من تعريها، ولا يتعرّى ويتكشّف إلّا بفساد هذه الفطرة من صنع الجاهلية!

وقد يكون ذلك إيذاناً باستيقاظ الدوافع الحسية في كيانهما فقبل يقظة هذه الدوافع لا يحسّ الإنسان بالخجل من كشف مواضع العفة ولا يتنبه إليها ولكنه يتنبه إلى العورات عند استيقاظ دوافع الجنس ويخجل من كشفها.

وربّما كان حظر هذه الشجرة عليهما، لأنّ ثمارها ممّا يوقظ هذه الدوافع في الجسم تأجيلاً لها فترة من الزمان كما يشاء الله. وربما كان نسيانهما عهد الله وعصيانهما له تبعه هبوط في عزيمتهما وانقطاع عن الصلة بخالقهما فسيطرت عليهما دوافع الجسد وتنبّهت فيهما دوافع الجنس. وربما كانت الرغبة في الخلود تجسّمت في استيقاظ الدوافع الجنسية للتناسل، فهذه هي الوسيلة الميسرة للإنسان للامتداد وراء العمر الفردي المحدود.

كل هذه فروض لتفسير مصاحبة ظهور سوآتهما لهما للأكل من الشجرة. فهو لم يقل: فبدت سوآتهما. إنّما قال: فبدت لهما سوآتهما. ممّا

يؤذن أنها كانت محجوبة عنهما فظهرت لهما بدافع داخلي من إحساسهما.

وقد جاء في موضع آخر عن إبليس: ﴿ليُبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما﴾ [الأعراف: ٢٠]، وجاء: ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ [الأعراف: ٢٧] وقد يكون اللباس الذي نزعه الشيطان ليس لباساً مادياً إنّما هو شعور ساتر، قد يكون هو شعور البراءة والطهارة والصلة بالله

وعلى أية حال فهي مجرد فروض كما أسلفنا لا نؤكدها ولا نرجح واحداً منها. إنّما هي تقرب صورة التجربة الأولى في حياة البشرية. ﴿فأزلّهما الشيطان عنها، فأخرجهما ممّا كانا فيه﴾ [البقرة: ٣٦].

ويا للتعبير المصور: «فأزلّهما» إنّه لفظ صورة الحركة التي يعبر عنها. وإنّك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنّة، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوي!

﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما: إنّ الشيطان لكما عدوٌ مبين؟﴾ [الأعراف: ٢٢]

وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وعلى إغفال النصيحة... أمّا كيف كان النداء وكيف سمعاه. فهو كما خاطبهما أول مرة وكما خاطب الملائكة، وكما خاطب إبليس. كلها غيب لا ندري عنه إلّا أنه وقع. وأنّ الله يفعل ما يشاء.

وأمام النداء العلوي يتكشّف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد.. إنّه ينسى ويخطىء، إنّ فيه ضعفاً يدخل منه الشيطان

إنّه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً[1].. ولكنّه يدرك خطأه، ويعرف

---

(1) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا خلق الله آدم نفخ فيه الروح وعطس، فقال: الحمد لله. فحمد الله بإذن الله، فقال له ربُّه: يرحمك ربُّك يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة ـ إلى ملأ منهم جلوس ـ فسلّم عليهم، فقال: السّلام

رلقه. وبعده ويصيب العبد من ربه ويستغفر. إنه يتوب ويتوب؛ ولا يتبع الشيطان في المعصية، ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية!

﴿قالا: ربّنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنّ من الخاسرين﴾ [الأعراف: ٢٣].

إنها خصيصة الإنسان التي تعلمه ربه، وتفتح له الأبواب إليه: الاعتراف، والندم، والاستغفار، والشعور بالضعف، والاستعانة به، وطلب رحمته مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته... وإلا كان من الخاسرين. ﴿فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه. إنّه هو التوّاب الرّحيم﴾ [البقرة: ٣٧].

ونهض آدم من عثرته بما رُكب في فطرته، وأدركته رحمة الله التي تدركه دائماً عندما يتوب إليها، ويلوذ بها ﴿ثمّ اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ [طه: ١٢٢] بعدما استغفر آدم وندم واعتذر.

لقد أدركت آدم وزوجه رحمة الله بعد العصيان، فكانت هذه هي المحنة الأولى. ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ [طه: ١١٥].

عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه، فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. وقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت. فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركة. ثم بسطها، فإذا فيها آدم وذريته، فقال: أي رب، ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم - أو من أضوئهم - ولم يكتب له إلا أربعين سنة، قال: يا رب، ما هذا؟ قال: هذا ابنك داود، وقد كتب له عمره أربعين سنة، قال: أي رب، زده في عمره، قال: ذاك الذي كتب له، قال: فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة، قال: أنت وذاك، اسكن الجنة، فسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها، وكان آدم يعدُّ لنفسه، فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت، قد كُتب لي ألف سنة، قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة، فجحد، فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته، فيومئذ أمر بالكتاب والشهود» [أخرجه ابن حبان وإسناده قوي على شرط مسلم، انظر الإحسان رقم (٦١٦٧)]

إنّ آدم نسي ما عهد الله به إليه، وضعف أمام الإغراء بالخلود، فاستمع لوسوسة الشيطان. وكان هذا ابتلاء من ربه له قبل أن يعهد إليه بخلافة الأرض؛ ونموذجا من فعل إبليس يتخذ أبناء آدم منه عبرة. فلمّا تمّ الابتلاء تداركت آدم رحمة الله فاجتباه وهداه..

يقول البهي الخولي في خصيصة «الإنسان» التي تصله بربه: «ومن الغرائز الأصلية في الإنسان «غريزة التدين». ومن مظاهرها الرجوع إلى الله والإنابة إليه، والفزوع إلى غوثه ورعايته سبحانه.

والفرق بين هذه الغريزة وسابقتها أنّ الأوليات(١) قوى بشرية تعمل في حقل حيوية المرء، أمّا هذه فذات مجال علوي لأنها من خصائص الروح الذي نفخه الله سبحانه في الإنسان. فالأوليات تنزع به إلى الأرض، وهذه تذهب به صاعدة إلى السماء. فإذا ما استحقت الخصائص ذات الاتجاه المادي الحيواني أن تسمّى «غرائز» فأوْلى ثمّ أوْلى أن تسمى فطرة التدين «غريزة»، لأنّ مدد الروح في الإنسان من أمر الله وهو أقوى وأدوم وآصل ممّا سواه.

ويظهر أثر تلك الغريزة بارزا قويا في حالتين مميزتين.

الأولى: حينما يقع أهل الغفلة والشرود عن الله في كرب لا تنفع الحيل والأسباب في دفعه، وتغدو به حياتهم مهدّدة بالمصير الذي يفزعون منه، وإلى مثل ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿حتى إذا كنتم في الفُلك وجرين بهم بريحٍ طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أُحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين﴾ [يونس: ٢٢].

فهم حينئذٍ يندفعون إلى الله بدافع الفطرة المخبوءة التي طالما

---

(١) قد تقدم ذكرها في القصة وهي: غريزة الروح، وغريزة حب الخلود، وغريزة الملك.

تجاهلوها، وأكثروا من إلقاء ركام الغفلة والشهوات عليها حتى خُيِّل إليهم أن ليس فيهم ما يرجع إلى السماء، فلمَّا جاءهم الموج من كل مكان، وظنّوا أنهم أحيط بهم، وعجزت الأسباب أن تمد لهم يداً بمعونة، تنحت الغفلة، وانحسر عن أذهانهم غرور الحياة الدنيا، فإذا بالفيض المحتبس ينبجس، وإذا بالقوة المطمورة تنبعث، وإذا هم بلسان الفطرة - لا بلسان الإرادة - يذكرون الله الذي نسوا، ويدعونه تضرعاً وخفية ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين﴾ وهذا الصنف من الناس لا خير فيهم غالباً؛ فإنهم لا يلبثون - إذا نجاهم الله - أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الإثم والغفلة ﴿فلمَّا نجَّاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾.

أما الحالة الثانية. فتقع لصنف من الناس ألطف حساً، وأرقى بصيرة، وأصفى نفساً . تقع بهم حين لا يستطيعون دفع غريزة، ولا مقاومة ميل إلى إثم، ولا تبين رشد وسط ما تثيره الشهوة المتسلطة من ضباب في أفق صوابه، فإذا قضت النفس وطرها سكن هائجه، وخمد ثائره، وانحسر ضباب الشهوة من ذهنه، وصفا أفقه فبدا به أمام صحوة ضمير، ويقظة روح، وإشراق نفس؛ فيبصر ضعفه أمام ما كان، ويدركه الأسف، ويثور به الندم، وتضيق عليه نفسه فلا يجد ملجأ من ضميره إلَّا أن يُقبل على الله تائباً مستغفراً؛ ولقد أثنى الله سبحانه على ذلك الصنف من عباده فقال: ﴿والَّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلَّا الله - ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين﴾ [آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦] وتلك الحال الأخيرة تماثل ما ذكرت القصة عن آدم عليه السلام، فإنَّه ما لبث بعد المعصية أن أشرقت فطرته؛ فتبيَّن شناعة ما أتى، فلم يتمالك أن ضرع إلى الله من ذلِّ معصيته: ﴿ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾. الغرائز: لون يمد له سبيل الفتنة والمعصية، وآخر يمهد له سبيل الإنابة والمغفرة،

وذلك هو مقتضى ما سُوي عليه من خصائص التراب وخصائص الروح، فهو متدرج بين هذين الطرفين المتطرفين: ظلمة ونور.. دنس وطهر.. معصية وتوبة.. وذلك شأن النمط الأوسط من الناس، والله يحب التوّابين ويحب المتطهّرين.

وليس من قصدنا أن نفصل أحوال الناس في التقلب بين هذين الطرفين، واختلاف حظوظهم من الاستجابة لهذا النوع أو ذاك، فذلك مبحث آخر، فلنسجل ما نص عليه القصة من أنّ الخطيئة بعض لوازمه. وأنَّ الإنابة إلى الله من أسمى خصائصنا، وألاّ ذنب مع إنابة، ولا خطيئة مع استغفار، ولا عقوبة إلاّ مع إصرار، وأنّه سبحانه أسرع ما يكون إلى عبده بالقبول حين ينكسر إليه ضارعاً من فرش الذلة والخطيئة والمعصية: ﴿فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنّه هو التوّاب الرّحيم﴾...[1].

والله سبحانه وتعالى لا يغلق في وجه الإنسان ـ هذا المخلوق الضعيف ـ باب التوبة، ولا يلقيه مسودّ حائراً في التيه! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب.. إنّه يطمعه في المغفرة، ويدله على الطريق، ويأخذ بيده المرتعشة، ويسند خطوته المتعثرة، وينير له الطريق، ليفيء إلى الحمى الآمن، ويثوب إلى الكنف الأمين.

شيء واحد يتطلبه: ألاّ يجف قلبه، وتظلم روحه، فينسى الله.. وما دام يذكر الله.. ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي.. ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي.. ما دام في قلبه ذلك الندى البليل.. فسيطلع النور في روحه من جديد، وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد، وستنبت البذرة الهامدة من جديد﴿قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾... وطمع آدم وزوجه بيد الرحمة الحانية، وتقبل الله عذرهما

---

(١) آدم، ص: ١٤٧ ـ ١٥٠.

حين استغفروا من الخطيئة، وعادا إلى الله في عبودية واستسلام. فهم في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله..

كلمة الله وقضاؤه :

لقد تمت التجربة الأولى وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى. وعرفها هو وذاقها. واستعدّ ـ بهذ التنبيه لخصائصه الكامنة ـ لمزاولة اختصاصه في الخلافة؛ وللدخول في المعركة التي لا تهدأ أبداً مع عدوه..

لقد تمت التجربة: نسي آدم عهده، وضعف آدم الغواية. وعندئذٍ حقّت كلمة الله، وصرح قضاؤه. ﴿وقلنا اهبطوا.. بعضكم لبعض عدو. ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين﴾ [البقرة ٣٦]

وكان هذا إيذاناً بانطلاق المعركة في مجالها المقدر لها. بين الشيطان والإنسان إلى آخر الزمان ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥]..

وهبطوا جميعاً.. هبطوا إلى هذه الأرض.. ولكن أين كانوا؟ أين هي الجنةُ؟ هذا من الغيب الذي ليس عندنا من نبأ عنه إلّا ما أخبرنا به مَنْ عنده مفاتح الغيب وحده. وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحي هي محاولة فاشلة. وكل تكذيب كذلك يعتمد على مألوفات البشر اليوم و « علمهم » الظنّي هو تبجح. فهذا « العلم » يتجاوز مجاله حين يحاول الخوض في هذا الغيب بغير أداة عنده ولا وسيلة. ويتبجح حين ينفي الغيب كله، والغيب محيط به في كل جانب، والمجهول في « المادة » التي هي مجاله أكثر كثيراً من المعلومات[1].

---

(١) يراجع في ظلال القرآن الجزء السابع ص ١١١١ ـ ١١٢١ في تفسير قوله تعالى. ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو﴾..

لقد هبطوا جميعاً إلى الأرض آدم وزوجه، وإبليس وقبيله. هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً، وليعادي بعضهم بعضاً. ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين. إحداهما ممحضة للشر، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر، وليتم الابتلاء، ويجري قدر الله بما شاء الله(١).

---

(١) روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «حجّ آدم وموسى. فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأغويت الناس، وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، تلومني على عمل عملته كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: فحجَّ آدم موسى» [رواه ابن حبان في صحيحه بإسناد صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير يحيى بن حبيب، فمن رجال مسلم. (انظر الإحسان ٦١٧٩)].

وعن أبي هريرة يبلُغ به النبي ﷺ، قال: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا خيّبتنا، وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: يا موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخطّ لك بيده، تلومني على أمر قد قُدِّر عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال: فحجَّ آدم موسى، فحجّ آدم موسى، فحجّ آدم موسى» [رواه ابن حبان وإسناده صحيح على شرط الشيخين. انظر الإحسان ٦١٨٠ و ٦٢١٠]

وفي سنن أبي داود ٢/٥٢٨٠ حيث قال موسى لآدم: «أنت الذي حملت على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: ومن أنت؟ قال: أنا موسى، قال: أنت نبي بني إسرائيل الذي كلّمك الله من وراء حجاب لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم، قال: أما وجدت ذلك في كتاب الله قبل أن أُخلق؟ قال: نعم، قال: فيم تلومني في شيء سبق من الله تعالى فيه القضاء قبلي؟ قال رسول الله عند ذلك: فحجَّ آدم موسى، فحجّ آدم وموسى عليهما السّلام».

قال الإمام الخطابي في «معالم السنن» ٤/ ٣٢٢ «قد يحسب كثير من النّاس أنّ معنى القدر من الله والقضاء منه معنى الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدّره، ويتوهم أنّ فَلْج آدم في الحجة على موسى إنّما كان من هذا الوجه، وليس الأمر في ذلك على ما يتوهّمونه، وإنّما معناه الإخبار عن تقدُّم علم الله سبحانه بما يكون من أفعال العباد وأكسابهم وصدورها عن تقدير منه، وخلق لها خيرها وشرها. والقدرُ اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر كما الهدم والقبض والنشر أسماء لما صدر عن فعل الهادم والقابض والناشر، يقال: قَدَرْتُ الشيء. وقدرت خفيفة وثقيلة بمعنى واحد.

والقضاء في هذا معناه الخلق، كقوله عزّ وجلّ ﴿فقضاهنَّ سبع سماواتٍ في =

= يومين﴾، أي حقيقين، وإذا كان الأمر كذلك، فقد نفى عنهم من وراء علم الله فيهم أفعالهم وأكسابهم، ومباشرتهم تلك الأمور، وملابستهم إياها عن قصد وتعمد وتقديم إرادة واختيار، فالحجة إنما تلزمهم بها، والملامة تلحقهم عليها.

وجماع القول في هذا الباب أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه، وإنما كان موضع الحجة لآدم على موسى صلوات الله عليهما أن الله سبحانه إذا كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة، ويأكل منها، فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه، وأن يبطله بعد ذلك؟

وبيان هذا في قوله سبحانه: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فأخبر قبل كون آدم أنه إنما خلقه للأرض، وأنه لا يتركه في الجنة حتى ينقله عنها إليها، وإنما كان تناوله الشجرة سبباً لوقوعه إلى الأرض التي خلق لها، وليكون فيها خليفة، ووالياً على من فيها، فإنما أدلى آدم عليه السلام بالحجة على هذا المعنى، ودفع لائمة موسى عن نفسه على هذا الوجه، ولذلك قال: أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني؟ فإن قيل: فعلى هذا يجب أن يسقط عنه اللوم أصلاً، قيل: اللوم ساقط من قبل موسى، إذ ليس لأحد أن يعير أحداً بذنب كان منه، لأن الخلق كلهم تحت العبودية أكفاء سواء، وقد روي: لا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا إليها كأنكم عبيد، ولكن اللوم لازم لآدم من قبل الله سبحانه إذ كان قد أمره ونهاه، فخرج إلى معصيته، وباشر المنهي عنه. ولله الحجة البالغة سبحانه لا شريك له.

وقول موسى ﷺ وإن كان منه في النفوس شبهة، وفي ظاهره متعلق لاحتجاجه بالسبب الذي قد جعل أمارة لخروجه من الجنة، فقول آدم في تعلقه بالسبب الذي هو بمنزلة الأصل أرجح وأقوى، والفلج قد يقع مع المعارضة بالترجيح كما يقع بالبرهان الذي لا معارض له، والله أعلم.

وقال ابن عبد البر: هذا عندي مخصوص بآدم، لأن المناظرة بينهما وقعت بعد أن تاب الله على آدم قطعاً كما قال تعالى: ﴿فتلقى آدمُ من ربه كلمات فتاب عليه﴾ فحسن منه أن ينكر على موسى لومه على الأكل من الشجرة، لأنه قد تيب عليه من ذلك، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب معصية، كما لو قتل أو زنى أو سرق: هذا سبق في علم الله وقدره علي قبل أن يخلقني، فليس لك أن تلومني عليه، فإن الأمة أجمعت على جواز لوم من وقع منه ذلك، بل على استحباب ذلك، كما أجمعوا على استحباب محمدة من واظب على الطاعة، وحكى ابن وهب في كتاب «القدر» عن مالك، عن يحيى بن سعيد أن ذلك كان من آدم بعد أن تيب عليه»..

وقال الإمام ابن أبي العز في «شرحه للعقيدة الطحاوية» ١/١٣٦ عن هذا الحديث: =

لقد صدر الأمر العلوي إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى: **﴿قلنا اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدو﴾** [طه: ١٢٣].

وتمّت كلمة الله الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذرّيته. عهد الاستخلاف في هذه الأرض، وشرط الفلاح فيها أو البوار. **﴿قلنا: اهبطوا منها جميعاً. فإمّا يأتينّكم مني هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾** [البقرة: ٣٨، ٣٩].

وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل. وانطلقت من عقالها ما تهدأ لحظة وما تفتر. وعرف الإنسان في فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار.

وبعد فلا بد من عودة إلى مطالع القصة. قصة البشرية الأولى.

لقد قال الله تعالى للملائكة. **﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾**.. وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى. ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة؟ وفيم إذن كان بلاء آدم؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى؟

لعلّنا نلمح أنّ هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً. كانت

= تتلقاه بالقبول والسمع والطاعة، لصحته عن رسول الله ﷺ، ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراويه، كما فعلت القدرية، ولا بالتأويلات الباردة، بل الصحيح أنّ آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر، فإنه باطل، وموسى عليه السّلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم عليه السّلام على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه، واجتباه وهداه، وإنّما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنّة، فاحتجّ آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإنّ القدر يحتج به عند المصائب، لا عند المعايب.

إيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه. كانت تدريباً له على تلقي الغواية، وتذوق العقبة، وتجرُّع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين.

وتبيِّن آيات القرآن الكريم أنَّ دور هذا الإنسان في الأرض هو عمارتها. فالخلافة عن الله فيها معناه الإنشاء والتعمير والتبديل والتغيير. وكلها من عمل الله، الذي أعطى قسطاً منه للخليفة الذي استخلفه فيها، وزوّده كذلك بالإمكانات. والإمكانة الكبرى هي المعرفة — هي نعمة **﴿وعلَّم آدم. . .﴾**.

وهي إحدى المزايا التي يتفرد بها الإنسان. يتفرد بها حتى على الملائكة. فهو يقوم بدوره في المعرفة والعلم يعجز عنه الملائكة، ويكون بمثابة « شهادة الاستحقاق » للخلافة التي يمنحها الله للإنسان فيقرّ بها الملائكة ويسجدون لله المبدع القدير.

ولكنَّ الطاقات الضخمة الممنوحة للإنسان. . ومن أبرزها طاقة المعرفة التي يسخر الله بها السماوات والأرض. لا تمنعه من نقطة ضعف أصيلة في كيانه هي حبه للشهوات: **﴿زُيِّن للنَّاس حبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا﴾** [آل عمران: ١٤].

إنَّ الشجرة التي نُهي عنها أصبحت شهوة بالنسبة إليه. . لقد كانت تجربة لإرادته الضابطة ـ وهي من بين الطاقات الممنوحة له ـ هل تستطيع أن تمتنع على « الشهوة » أم لا تستطيع. وفي هذه التجربة تبدو نقطة الضعف في كيان هذا الإنسان المتفرد! فهو لا يصمد في كل حالة، ولا تقوى إرادته الضابطة على المقاومة: **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾**. ولكنَّه ليس ضعفاً أبدياً. ولا هي زلة لا قيام منها.

فهو يملك أن يضيق من زلته بأن يرفع وجهه إلى خالقه ﴿فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتا عليه﴾.

وتلك قيمة رئيسة من قيم حياته فهو عرضة للضعف أمام الشهوات. ولكنه مزود بالقدرة على الإفاقة من هذا الضعف بالتوجّه إلى الله.

وفي صميم فطرته أن يفعل هذه وتلك ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾ [سورة الشّمس: ٧ - ١٠].

ثمَّ هو مزود بالقدرة على الصراع: ﴿قلنا: اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ وما دام هناك عداء، فهناك ولا شك صراع وقدرة على الصراع. والعداء مع الشيطان. مع قوى الشر المتمثلة في شتّى الصور والأشكال. وزوّده خالقه بالقدرة على الصراع وأنّها قيمة كذلك أساسية من قيم حياته، ضرورية له في أداء دوره على الأرض ﴿ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض. ولكنَّ الله ذو فضلٍ على العالمين﴾ [البقرة: ٢٥١]. ثمّ إنَّ له في الأرض قسطاً من الاستقرار والمتاع. ﴿ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين﴾..

فالاستقرار المؤقت والمتاع قيمتان رئيستان في حياة الإنسان مزود بهما كيانه. كما هو مزود من الجانب الآخر بالقدرة على الصراع وخلاصة الأمر فإنَّ الإنسان يقوم بدوره في الخلافة عن الله مزوداً من الله الذي أخلفه، بدستور من الهدى الرباني: ﴿فإمَّا يأتينَّكم منّي هدىً فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليه ولا هم يحزنون﴾. وفي فطرته أن يستطيع التوجّه إلى الله، والاستمداد من هداه. كما أنَّ في فطرته أن يستطيع الابتعاد عن الله والكفر بآياته: ﴿والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

إنَّ الإنسان مخلوق متفرّد. فكل تفسير يلحقه بغيره من الكائنات تفسير باطل من أساسه.

وهو مخلوق خطير الشأن في دورة الحياة. أولى آيات خطره أنَّ الله بنفسه سبحانه هو الذي يعلن نبأ مولده ـ كما تقدّم ـ ومن آيات هذا الخطر أن تسجد لخلقه الملائكة. وأن يسخر له ما في السَّماوات والأرض جميعاً. وأن يجعل الله إرادته العليا سبحانه مقضية عن طريق إرادة الإنسان ووجوده وأفعاله ﴿إنَّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتّى يغيِّروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١]. ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي النَّاس﴾ [الروم: ٤١] ﴿ولولا دفعُ الله النَّاسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ [البقرة: ٢٥١].

إنَّ قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشَّيطان باللذة ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة من بعد السكرة، والندم وطلب المغفرة.. إنّها هي هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة!

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته، مزوداً بهذه التجربة التي سيعرض لمثلها طويلاً، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً..

وبعد.. مرة أخرى.. فأين كان هذا الذي كان؟ وما اللحظة التي عاش فيها آدم وزوجه حيناً من الزمن؟ ومن هم الملائكة؟ ومن هو إبليس؟.. كيف قال الله تعالى لهم؟ وكيف أجابوه؟..

هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه؛ وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر في معرفة كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به، بالأداة التي وهبهم إياها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطّلع على هذا الغيب. وبقدر ما سخّر الله للإنسان من النواميس الكونية وعرَّفه بأسرارها، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب، فيما لا جدوى له في معرفته.

وما يزال الإنسان مثلاً على الرغم من كل ما فُتح له من الأسرار الكونية يجهل ما وراء اللحظة الحاضرة جهلاً مطلقاً، ولا يملك بأي أداة من أدوات

المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد لحظة. وهل النفس الذي خرج من فمه عائد أم هو آخر أنفاسه؟ وهذا مثل من الغيب المحجوب عن البشر. لأنه لا يدخل في مقتضيات الخلافة. بل ربما كان معوقاً لها لو كشف للإنسان عنه! وهنالك ألوان من مثل هذه الأسرار المحجوبة عن الإنسان في طيّ الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله. ومن ثمّ لم يعد للعقل البشري أن يخوض فيه، لأنّه لا يملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره. وكل جهد يبذل في هذه المحاولة هو جهد ضائع. ذاهب سدى. بلا ثمرة ولا جدوى

وإذا كان العقل البشري لم يوهب الوسيلة للاطّلاع على هذا الغيب المحجوب، فليس سبيله إذن أن يتبجح فينْكر. فالإنكار حكم يحتاج إلى المعرفة. والمعرفة هنا ليست من صنيعة العقل، وليست في طوق وسائله، ولا هي ضرورية له في وظيفته!

إنَّ الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر بالغ الخطورة. ولكن أضرّ منه وأخطر. التنكُّر للمجهول كله وإنكاره، واستبعاد الغيب لمجرد عدم القدرة على الإحاطة به. إنها تكون نكسة إلى عالم الحيوان الذي يعيش في المحسوس وحده، ولا ينفذ من أسواره إلى الوجود الطليق

فلندع هذا الغيب لصاحبه. وحسبنا ما يقص لنا عنه، بالقدر الذي يصلح لنا في حياتنا، ويصلح سرائرنا ومعاشنا. ولنأخذ من القصة ما تشير إليه من حقائق كونية وإنسانية، ومن تصور للوجود وارتباطاته، ومن إيحاء بطبيعة الإنسان وقيمه وموازينه.. فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى.

إنَّ أبرز إيحاءات قصة آدم هو القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان ولدوره في الأرض، ولمكانه في نظام الوجود، وللقيم التي يوزن بها. ثمَّ لحقيقة ارتباطه بعهد الله، وحقيقة هذا العهد الذي قامت خلافته على أساسه.

وتتبدَّى تلك القيمة الكبرى التي يعطيها التصوّر الإسلامي للإنسان

في الإعلان العلوي الجليل في الملأ الأعلى الكريم، إنّه مخلوق ليكون خليفة في الأرض، كما تتبدّى في أمر الملائكة بالسجود له. وفي طرد إبليس الذي استكبر وأبى. وفي رعاية الله أولاً وأخيراً..

ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة في عالم التصور وفي عالم الواقع على السواء. وأول اعتبار من هذه الاعتبارات هو أنّ الإنسان سيد هذه الأرض، ومن أجله خلق كل شيء فيها فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي. ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعاً. ولا يجوز إذن أن يُستعبد أو يُستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي. لا يجوز أن يعتدي على أي مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة، ولا أن تهدر أيّة قيمة من قيمه لقاء تحقيق أي كسب مادي، أو إنتاج أي شيء مادي، أو تكثير أي عنصر مادي.. فهذه الماديات كلها مخلوقة ـ أو مصنوعة ـ من أجله من أجل تحقيق إنسانيته. من أجل تقرير وجوده الإنساني. فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانية، أو نقص مقوم من مقومات كرامته.

والاعتبار الثاني هو أنّ دور الإنسان في الأرض هو الدور الأوّل. فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها، وهو الذي يقود اتجهاتها ورحلاتها. وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج، هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبياً كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر من دور الإنسان وتصغره، بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبرا!

إنّ النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان بخلافته في الأرض، عاملاً مهماً في نظام الكون، ملحوظاً في هذا النظام. فخلافته في الأرض تتعلق بارتباطات شتّى مع السموات ومع الرياح ومع الأمطار، ومع الشموس والكواكب.. وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة.. فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الذليل الصغير الذي تخصصه له المذاهب المادية، ولا

تسمح له أن يتعداه؟! ومن ثم نشك أن كلاً من نظرة الإسلام هذه ونظرة المادية للإنسان تؤثر في طبيعة النظام الذي تقيمه هذه وتلك للإنسان؛ وطبيعة احترام المقومات الإنسانية أو إهدارها؛ وطبيعة تكريم هذا الإنسان أو تحقيره.. وليس ما نراه في العالم المادي من إهدار كل حريات الإنسان وحرماته ومقوماته في سبيل توفير الإنتاج المادي وتكثيره، إلا أثراً من آثار تلك النظرة إلى حقيقة الإنسان، وحقيقة دوره في هذه الأرض!

كذلك ينشأ عن نظرة الإسلام الرفيعة إلى حقيقة الإنسان ووظيفته إعلاء القيم الأدبية في وزنه وتقديره، وإعلاء قيمة الفضائل الخلقية، وتكبير قيم الإيمان والصلاح والإخلاص في حياته. فهذه هي القيم التي يقوم عليها عهد استخلافه[1]: ﴿فإمَّا يأتينَّكم مني هدىً فمن تبع هدايَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون...﴾.

وهذه القيم أعلى وأكرم من جميع القيم المادية - هذا مع أن مفهوم الخلافة تحقيق هذه القيم المادية. ولكن بحيث لا تصبح هي الأصل ولا تطغى على تلك القيم العليا - ولهذا وزنه في توجيه القلب البشري إلى الطهارة والارتفاع والنظافة في حياته. بخلاف ما توحيه المذاهب المادية من

---

(١) عن زيد بن سلام، قال: سمعتُ أبا سلام، قال: سمعتُ أبا أُمامة قال: إن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبي كان آدم؟ قال: «نعم مُكلّم»، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون» أخرجه ابن حبان، والطبراني في الكبير (٧٥٤٥) وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٢١٠ و ١/ ١٩٦ وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح. وأخرجه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. انظر الإحسان رقم (٦١٩٠).

وأخرج الطبري في «تاريخ الأُمم والملوك» ١/ ١٥٠ من طريق محمد بن إسحاق، عن أبي ذرّ، قال: قلتُ: يا نبيَّ الله، أنبياً كان آدم؟ قال: «نعم، كان نبيّاً، كلمه الله قبلاً».

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - في حديث طويل، قال: قلتُ: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم». قلت: ونبي هو؟ قال: «نعم، نبي مكلَّم». أخرجه ابن حبان، وأحمد ٥/ ١٧٨ و ١٧٩، والبزار (١٦٠) وغيرهم. انظر تخريجه في هامش وتعليق الحديث رقم ٦١٩٠ في الإحسان.

استهزاء بكل القيم الروحية، وإهدار لكل القيم الأدبية، في سبيل الاهتمام المجرد بالإنتاج والسلع ومطالب البطون كالحيوان(1)!

وفي التصور الإسلامي إعلاء من شأن الإرادة في الإنسان فهي مناط العهد مع الله، وهي مناط التكليف والجزاء.. إنه يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم إرادته، وعدم الخضوع لشهواته، والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه. بينما يملك أن يشقي نفسه ويهبط من عليائه، بتغليب الشهوة على الإرادة، والغواية على الهداية. ونسيان العهد الذي يرفعه إلى مولاه.

وفي هذا مظهر من مظاهر التكريم لا شك فيه، يضاف إلى عناصر التكريم الأخرى. كما أن فيه تذكيرا دائما بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة، والرفعة والهبوط، ومقام الإنسان المريد ودرك الحيوان المسوق!

وفي أحداث المعركة التي تصورها القصة بين الإنسان والشيطان مذكر دائم بطبيعة المعركة. إنها معركة بين عهد الله وغواية الشيطان بين الإيمان والكفر بين الحق والباطل. بين الهدى والضلال.. والإنسان هو نفسه ميدان المعركة. وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها. وفي هذا إيحاء دائم له باليقظة، وتوجيه دائم له بأنه جندي في ميدان؛ وأنه هو صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان!

حقيقة الإنسان في ظلال القرآن:

لقد كُتب على آدم وذريته أن يستقروا في الأرض؛ ويُمكّنوا فيها، ويستمتعوا بما فيها إلى حين. وكُتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا؛ ثم يخرجوا منها فيُبعثوا.. ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره، في نهاية الرحلة الكبرى..

---

(1) يراجع بتوسع كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» لمحمد قطب.

وبعد.. فإنها ليست قصة آدم عليه السلام! إنما هو عرض لحقيقة الإنسان لتعريفه بحقيقة طبيعته ونشأته، والعوالم المحيطة به، والقدر الذي يصرف حياته، والمنهج الذي يرضاه الله له، والابتلاء الذي يصادفه، والمصير الذي ينتظره.. وكلها حقائق تشترك في تقرير «مقومات التصور الإسلامي».

إنّ الحقيقة الأولى التي نستلهمها من قصة النشأة الإنسانية ـ هي كما قلنا من قبل ـ التوافق بين طبيعة الكون ونشأة الكائن الإنساني. والتقدير الإلهي المحيط بالكون والإنسان؛ والذي يجعل هذه النشأة قدراً مرسوماً لا فلتة عارضة. كما يجعل التوافق بينهما هو القاعدة.

والذين لا يعرفون الله سبحانه، ولا يقدرونه حق قدره، يقيسون أقداره وأفعاله بمقاييسهم البشرية الصغيرة.

فإذ نظروا فوجدوا الكائن الإنساني مخلوقاً من مخلوقات هذه الأرض، ووجدوا هذه الأرض ذرة صغيرة كالهباءة في خضم الكون. قالوا: إنه ليس من المعقول إذاً أن يكون وراء نشأة هذا الإنسان قصد، فوق أن يكون لهذا الإنسان شأن في نظام الكون!

وزعم بعضهم أن وجوده كان فلتة، وأنّ الكون من حوله معاد لنشأته ونشأة الحياة جملة!.. وإن هي إلاّ تخرصات منشؤها قياس أقدار الله وأفعاله بمقاييس البشر الصغيرة!

وحقاً لو كان الإنسان هو الذي له هذا الملك الهائل ما عني بهذه الأرض، ولا بمثل هذا الكائن يدب عليها! لأنّ اهتمام الإنسان لا يتسع للعناية بكل شيء في مثل هذا الملك الهائل؛ ولا بتقدير كل شيء فيه وتدبيره، والتنسيق بين جميع الأشياء فيه.. غير أنّ الله ـ سبحانه ـ هو الله! هو الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. هو صاحب هذا الملك الكبير الذي لا يقوم شيء منه إلاّ برعايته؛ كما أنه لم يوجد منه

شيء إلّا بمشيئته.. إنّما آفة هذا الإنسان، حين ينحرف عن هدى الله - ويستقل بهواه - ولو كان يسميه علماً! - أن ينسى أنه الله - ويتصوره - سبحانه - على هواه! ويقيس قدرته وأفعاله بمقاييس الإنسان الصغيرة! ثمّ يتبجح فيملي هواه هذا على الحقيقة!

يقول سير جيمس جينز - كمثال على التصورات البشرية الضالة الكثيرة - في كتاب «الكون الغامض»: «ونحن إذ نقف على أرضنا - تلك الحُبَيْبَة الرملية المتناهية في الصغر - نحاول أن نكشف عن طبيعة الكون الذي يحيط بموطننا في الفضاء والزمن، وعن الغرض من وجوده، نحسّ في أول الأمر بما يشبه الذعر والهلع. وكيف لا يكون الكون مخيفاً مرعباً، وهذه أبعاده هائلة لا تستطيع عقولنا إدراك مداها؟ وقد مرّت عليه أحقاب طويلة لا يمكن تصورها؟ ويتضاءل إلى جانبها تاريخ الإنسان حتى يبدو وكأنه لمح البصر؟.. وهو مخيف مرعب لما نشعر به من وحدة مرهوبة، وما نعتقده من ضآلة موطننا في الفضاء. ذلك الموطن الذي لا يزيد على جزء من مليون جزء من إحدى حبيبات الرمال التي في بحار العالم!.. ولكن أخوف ما يُخاف العالم من أجله أنّه لا يُعنى - كما يلوح - بحياة مثل حياتنا. وكأنّ عواطفنا ومطامعنا وأعمالنا وفنوننا وأدياننا كلها غريبة عن نظامه وخطته. وقد يكون من الحق أن نقول: إنّه بينه وبين حياة كحياتنا عداءً قوياً. ذلك بأنّ الفضاء في أكثر أجزائه بارد إلى حد تتجمد فيه كل أنواع الحياة. كما أنّ أكثر المادة التي في الفضاء تبلغ من الحرارة حداً يجعل الحياة فيها مستحيلة؛ وأنّ الفضاء تذرعه إشعاعات مختلفة الأنواع، لا تنفك تصدم ما فيه من أجرام فلكية؛ وقد يكون كثير من هذه الإشعاعات معادياً للحياة أو مبيداً لها.

«وهذا هو الكون الذي ألقت بنا فيه الظروف. وإذا لم يكن حقاً أنّ ظهورنا حدث بسبب غلطة وقعت فيه، فلا أقل من أن يكون نتيجة لما يصح أن يوصف بحق أنّه مصادفة!».

وقد بيّنّ من قبل أنّ افتراض عداء الكون لنشأة الحياة مع افتراض عدم وجود تقدير وتدبير من قوة مهيمنة.. ثمّ وجود الحياة بعد ذلك فعلاً.. أمور لا يتصورها عقل عاقل! فضلاً على أن يكون عقل عالم! وإلّا فكيف أمكن ظهور الحياة في الكون المعادي لها مع افتراض عدم وجود مهيمنة مقدِّرة! هل الحياة أقوى من الكون بحيث تظهر رغم أنفه؟! ورغم عدائه لها بطبيعة تكوينه؟! هل هذا الكائن الإنساني مثلاً ـ قبل أن ينشأ ـ أقوى من هذا الكون الموجود فعلاً، ومن ثمّ طلع هكذا في الكون، وأنف الكون راغم؟!

إنّها تصورات لا تستحق عناء النظر! ولو أنّ هؤلاء «العلماء» يكتفون بأن يقولوا لنا فقط ما تصل إليه وسائلهم من وصف الموجودات، دون أن يدخلوا في أمثال هذه التخرصات الميتافيزيقية التي لا تستند على أساس، لأدّوا دورهم ـ ولو ناقصاً ـ في تعريف الناس بالكون من حولهم! ولكنّهم يتجاوزون دائرة المعرفة المأمونة إلى تيه الفروض والظنون، بلا دليل إلّا الهوى الإنساني الصغير! ونحن ـ بحمد الله وبهداه ـ ننظر إلى هذا الكون الهائل فلا نشعر بالذعر والهلع الذي يعبّر عنه سير جيمس جينز! إنّما نشعر بالرهبة والإجلال للباريء هذا الكون؛ ونشعر بالعظمة والجلال المتجليين في خلقه؛ ونشعر بالطمأنينة والأنس. بهذا الكون الصديق. الذي أنشأه الله وأنشأنا فيه على توافق وتنسيق.. وتروعنا ضخامته كما تروعنا دقته؛ ولكننا لا نفزع ولا نجزع، ولا نشعر بالضياع، ولا نتوقع الهلاك.. فإنّ ربنا وربه الله.. ونتعامل معه في يسر ومودة وأنس وثقة؛ ونتوقع أن نجد فيه أرزاقنا وأقواتنا ومعايشنا ومتاعنا.. ونرجو أن نكون من الشاكرين: ﴿**ولقد مكّناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش. قليلاً ما تشكرون**﴾ [الأعراف: ١٠]..

والحقيقة الثانية المستلهمة من قصة النشأة الإنسانية: هي كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحية، وضخامة دوره المنوط به؛ وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها؛ وتنوع العوالم التي يتعامل معها ـ في حدود

عبوديته لله وحده ـ ممّا يتناقض تماماً مع المذاهب الحسّية الوضعية المادية التي تهدر قيمته كعامل أساسي مؤثر في الكون، بحيث تسند الأهمية كلها للمادة وتأثيراتها الحتمية. ومع مذهب النشوء والارتقاء الذي يلحقه بعالم الحيوان ولا يكاد يجعل خصائصه الإنسانية المتميزة؛ أو مذهب التحليل النفسي الفرويدي الذي يصوره غارقاً في وحل الجنس حتى ما يتسامى إلاّ عن طريق هذا الوحل نفسه!... إلاّ أنّ هذه الكرامة لهذا الكائن الفريد، لا تجعل من الإنسان «إلهاً» كما تحاول فلسفات عهد التنوير أن تقول[1]، إنّما هو الحق والاعتدال في التصور الإسلامي السليم.

لقد أُعلن ميلاد هذا الكائن المتفرد، الذي نرجح من مجموعة النصوص القرآنية ـ ولا نجزم ـ أنّ نشأته كانت مستقلة ـ أعلن هذا الميلاد في حفل كوني كبير شهوده الملأ الأعلى. وأعلن ميلاده الجليل العظيم في هذا الملأ وفي الوجود كله... وفي الآية في سورة البقرة أنّه أعلن كذلك خلافته في الأرض منذ خلقه؛ وكان الابتلاء الأوّل له في الجنّة تمهيداً وإعداداً لهذه الخلافة. كما تعلن الآيات القرآنية في سور متعددة، أنّ الله جعل هذا الكون ـ لا الأرض وحدها ـ عوناً له في هذه الخلافة. وسخّر له ما في السّماوات وما في الأرض جميعاً منه... وكذلك تظهر ضخامة الدور الذي أعطاه بارئه له. فإنّ عمارة كوكب وسيادته بخلافة الله فيه ـ أيّاً كان حجم هذا الكوكب ـ إنّها لأمر عظيم!

والذي يتّضح من القصة ومن مجموعة النصوص القرآنية أنّه كذلك خلق متفرد لا في الأرض وحدها، ولكن في الكون كله. فالعوالم الأُخرى من ملائكة وجن ومن لا يعلمه إلاّ الله من الخلق، لها وظائف أُخرى، كما أنّها خلقت من طبائع أُخرى تناسب هذه الوظائف. وتفرد الإنسان وحده بخصائصه هذه ووظائفه. يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿إنّا عرضنا الأمانة

(١) يراجع فصل «حقيقة الكون» في المصدر السّابق.

على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان. إنّه كان ظلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] وبذلك فهو متفرد في الكون كله بخصائص. ومنها الظلم والجهل! إلى جانب الاختيار النسبي والاستعداد للمعرفة المترقية، والإرادة الذاتية. والمقدرة على العدل والعلم، بقدر المقدرة على الظلم والجهل!.. فهذا الازدواج ذاته هو ميزته التي تفرده.

كل أُولئك يلغي تلك النظرة للإنسان القائمة على صغر حجم الكوكب الذي يعيش عليه، بالقياس إلى أحجام الكون الهائلة. فالحجم ليس هو كل شيء، وخصيصته العقل القابل للمعرفة، والإرادة القابلة للاستقلال - في حدود العبودية لله - والاختيار والترجيح الذاتي.. كل أُولئك يفوق في قيمته، الحجم الذي يقيم عليه سير جيمس جينز وأمثاله نظرتهم إلى قيمة الإنسان ودوره. هذه الأهمية التي تحولها القصة ومجموع النصوص القرآنية على هذا الكائن الإنساني لا تقتصر على دوره في خلافة الأرض، بهذه الخصائص المتفردة؛ ولكن صورتها تكمل بشمول الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها، والعوالم التي يتعامل معها.

إنّه يتعامل تعاملاً مباشراً مع ربه الجليل سبحانه! هو الذي أنشأه بيده، وأعلن ميلاده في الملأ الأعلى وفي الوجود كله بعظمته، وحباه الجنّة يأكل منها حيث يشاء - إلّا الشجرة المحظورة - ثمّ خوله خلافة الأرض بعد ذلك بأمره؛ وعلّمه أساس المعرفة - كما في آية البقرة ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾ - وهو ما يرجح أنّه القدرة على الرمز باللفظ والاسم للمدلول والمسمّى، وهو القاعدة التي يقوم عليها إمكان تبادل المعرفة وتعميمها في الجنس كله، وأوصاه وصيته في الجنّة وبعدها. وأودعه الاستعدادات الخاصة التي تفرد جنسه بخصائصه، وأرسل له الرسل - منه - بهداه؛ وكتب على نفسه الرحمة أن يقيل عثرته ويقبل توبته.. إلى آخر نعمة الله على هذا الكائن المتفرد في الكون كله.

ثمَّ هو يتعامل مع الملأ الأعلى.. أسجد الله له الملائكة، وجعل منهم حفظة عليه، كما جعل منهم من يبلغ الرسل وحيه، وأنزلهم على الذين قالوا: ربُّنا الله ثمَّ استقاموا يثبتونهم ويبشرونهم، وعلى المجاهدين في سبيل الله ينصرونهم ويبشّرونهم كذلك، وسلطهم على الذين كفروا يقتلونهم ويستلون أرواحهم منهم في تأنيب وتعذيب.. إلى آخر ما بين الملائكة والإنسان من تعامل في الدنيا وفي الآخرة كذلك.

ويتعامل مع الجن: صالحيهم وشياطينهم.. وقد شهدنا تشخيص المعركة الأولى بينه وبين الشيطان، وهي معركة ممتدة إلى يوم الوقت المعلوم. كما أنَّ تعامله مع صالحي الجن مذكور في نصوص قرآنية. وتسخير الجن أحياناً له ثابت كما في قصة سليمان عليه السَّلام.

كما هو يتعامل مع هذا الكون المادي - وبخاصة الأرض والكواكب والنجوم القريبة منها - وهو الخليفة في هذه الأرض عن الله، المسخرة له قواها وطاقاتها وأرزاقها ومدخراتها، وعنده الاستعداد اللدني لفتح بعض مغاليق أسرارها، والتعرف إلى بعض نواميسها التي تعينه معرفتها على أداء دوره العظيم.. ومن ثمَّ يتعامل كذلك مع جميع الأحياء فيها.. وأخيراً فإنه بازدواج طبيعته واستعداداتها يتحرك في مجال بعيد الأمد من نفسه ذاتها! إنه يعرج إلى السماوات العلى ويتجاوز مراتب الملائكة، حين يخلص عبوديته لله ويترقى فيها إلى منتهاها. كما إنَّه يهبط إلى ما دون مستوى البهيمة حين يتَّخذ إلهه هواه ويتخلّى عن خصائص «إنسانيته» ويتمرّغ في الوحل الحيواني.. وبين هذين المجالين أبعاد أضخم ممَّا بين السَّماوات والأرض في عالم الحس وأبعد مدىً!

وليس هذا كله لغير الإنسان كما تلهمه هذه القصة وبقية النصوص القرآنية الأخرى..

والحقيقة الثالثة: أنَّ هذا الكائن - على كل تفرده هذا أو بسبب تفرده

هذا - ضعيف في بعض جوانب تكوينه، حتى ليمكن قيادته إلى الشر والارتكاس إلى الدرك الأسفل، من حطام شهواته.. وفي أولها ضعفه تجاه حب البقاء، وضعفه تجاه حب الملك.. وهو يكون في أشد حالات ضعفه وأدناها حين يبعد عن هدى الله، ويستسلم لهواه، أو يستسلم لعدوه العنيد الذي أخذ على عاتقه إغواءه، في جهد ناصب، لا يكل ولا يدع وسيلة من الوسائل!

وقد اقتضت رحمة الله به - من ثمَّ - ألَّا يتركه لفطرته وحدها، ولا لعقله وحده، وأن يرسل إليه الرسل للإنذار والتذكير.. وهذه هي صخرة النجاة بالنسبة له.. النجاة من شهوته بالتخلص من هواه والفرار إلى الله. والنجاة من عدوه الذي يخنس ويتوارى عند ذكره لربه، وتذكر رحمته وغضبه، وثوابه وعقابه.

وهذه كلها مقويات لإرادته، حتى يستعلي على ضعفه وشهواته.. وقد كان له أول تدريب له في الجنة هو فرض «المحظور» عليه، لتقوية هذه الإرادة، وإبرازها في مواجهة الإغراء والضعف.. إذ كان قد فشل في التجربة الأولى فيما ظهر، فقد كانت هذه التجربة رصيداً له فيما سيأتي!

ومن رحمة الله به كذلك أن جعل باب التوبة مفتوحاً له في كل لحظة، فإذا نسي ثم تذكر، وإذا عثر ثمَّ نهض، وإذا غوى ثمَّ تاب.. وجد الباب مفتوحاً له، وقبل الله توبته، وأقال عثرته.. فإذا استقام على طريقه بدّل الله سيئاته حسنات، وضاعف له ما شاء.. ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته.. فليست هناك خطيئة أبدية. وليست هناك خطيئة موروثة - ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وهذه الحقيقة في التصور الإسلامي تنقذ كاهل البشرية من أسطورة الخطيئة الموروثة التي تقوم عليها التصورات الكنسية في المسيحية، والتي يقوم عليها ركام هائل من الطقوس والتشكيلات فوق ما يقوم فوقها من

الأساطير والانحرافات. خطيئة آدم التي تلازم البشرية كاللعنة المصلتة على الرقاب! حتى يتمثل الإله في صورة ابن الإنسان (المسيح) ويُصلب ويحتمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة الموروثة؛ ومن ثمَّ يكتب (الغفران) لمن يتحد بالمسيح الذي كفَّر بدمه عن خطيئة آدم التي ورثتها البشرية!

إنَّ الأمر في التصور الإسلامي أيسر من هذا بكثير. لقد نسي آدم وأخطأ.. ولقد تاب واستغفر. ولقد قبل الله توبته وغفر له.. وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى، ولم يبق منها إلاَّ رصيد التجربة الذي يعين الجنس البشري في صراعه الطويل المدى.

أية بساطة! وأي وضوح! وأي يسر في هذه العقيدة!

والحقيقة الرَّابعة هي حدَّة المعركة مع الشيطان وأصالتها، واستمرارها وضراوتها..

لقد بدا من سياق القصة إصرار هذا العدو العنيد على ملاحقة الإنسان في كل حالة[1]، وعلى إتيانه من كل صوب وجهة، وعلى اتباعه في كل ساعة ولحظة:

﴿قال: فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم. ثمَّ لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾.

---

(١) عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، قال: «إذا أصبح إبليس، بثَّ جنوده، فيقول: من أضلَّ اليوم مسلماً، ألبسته التاج. قال: فيجيء هذا، فيقول: لم أزل به حتى طلَّق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج، ويجيء هذا، فيقول: لم أزل به حتى عقَّ والديه، فيقول: أوشك أن يبرَّه، ويجيء هذا، فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت، ويجيء فيقول: لم أزل به حتى زنى، فيقول: أنت أنت، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول: أنت أنت، ويلبسُهُ التاج» [أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح، وأخرجه الحاكم، وصحَّحه ووافقه الذهبي. انظر الإحسان رقم ٦١٨٩]

لقد اختار اللعين أن يزاول هذا الكيد، وأن ينظر لمزاولته على المدى الطويل. اختار هذا على أن يضرع إلى الله أن يغفر له خطيئته في معصيته عياناً وقد عصى أمره مواجهة! ثم بيّن أنه سيقعد لهم على طريق الله لا يمكنهم من سلوكه؛ وأنه سيأتيهم من كل جهة يصرفهم عن هداه.

وهو إنما يأتيهم من ناحية نقط الضعف فيهم ومداخل الشهوة. ولا عاصم لهم منه إلا بالتقوّي بالإيمان والذكر والتقوّي على دفع إغوائه ووسوسته[1]، والاستعلاء على الشهوات وإخضاع الهوى لهدى الله.

والمعركة مع الشيطان هي المعركة الرئيسية. إنها المعركة مع الهوى باتباع الهدى. والمعركة مع الشهوات باستعلاء الإرادة. والمعركة مع الشر والفساد في الأرض الذي يقود الشيطان أولياءه إليه باتباع شريعة الله المصلحة للأرض. والمعركة في الضمير والمعركة في الحياة الواقعية متصلتان لا منفصلتان. فالشيطان وراءهما جميعاً!

وأخيراً فإن القصة والتعقيبات عليها تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته. وهو الحياء من التعري وتكشف سوأته.

﴿فوسوس لهما الشيطان. ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما﴾.

﴿فدلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾.

(١) لا قوة ولا قدرة للشيطان على ابن آدم إلا على الوسوسة فقط. فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني لأجد في صدري الشيء، لأن أكون حممة أحب إليّ من أن أتكلم به، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة» [أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح على شرطهما، وأحمد وأبو داود، انظر الإحسان ١٤٧ و٦١٨٨]. والوسوسة حديث النفس، والصوت الخفي، ومنه سمي صوت الحلي وسواساً. قال تعالى: ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ [ق ١٦]

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم، وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير. ذلك من آيات الله﴾

﴿يا بني آدم لا يفتننَّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾..

وكلُّها توحي بأهمية هذه المسألة، وعمقها في الفطرة البشرية فاللباس، وستر العورة، زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية. كما أنّ التقوى لباس وستر لعوراته النفسية.

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية. وتحرص على سترها ومواراتها.. والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس، وتعرية النفس من التقوى، ومن الحياء من الله ومن الناس، والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتنفيذ هذه المحاولة ـ في شتّى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة ـ هم الذين يريدون سلب «الإنسان» خصائص فطرته، وخصائص «إنسانيته» التي بها صار إنساناً. وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته!

وهم الّذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة. وقد فقدت مقوماتها الإنسانية!

إنّ العري فطرة حيوانية. ولا يميل الإنسان إليه إلّا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان. وإنّ رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً. والمتخلّفون في أواسط إفريقيا عراة. والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة! فأمّا في الجاهلية الحديثة «التقدمية» فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها، وينقلهم إلى مستوى «الحضارة» بمفهومها الإسلامي الذي

يستهدف استنفاد خصائص الإنسان وتقويتها

والعري النفسي من الحياء والتقوى - وهو ما تجتهد فيه الأصوات والأقلام وجميع أجهزة التوجيه والإعلام - هو النكسة والردة إلى جاهلية. وليس هو التقدم والتحضر كما تريد هذه الأجهزة الشيطانية المدربة أن توسوس[1].

---

(١) حين تكون القيم «الإنسانية» والأخلاق «الإنسانية» - كما هي في ميزان الله - هي السائدة في مجتمع، يكون هذا المجتمع متحضراً متقدماً... أو بالاصطلاح الإسلامي... ربانياً مسلماً... والقيم «الإنسانية» والأخلاق «الإنسانية» ليست مسألة غامضة ولا مائعة، وليست كذلك قيماً وأخلاقاً متغيرة لا تستقر على حال - كما يزعم الذين يريدون أن يشيعوا الفوضى في الموازين، فلا يبقى هناك أصل ثابت يرجع إليه في وزن ولا تقييم. إنها القيم والأخلاق التي تنمي في الإنسان خصائص الإنسان التي يتفرد بها دون الحيوان، وتغلب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويجعل منه إنساناً، وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه الجوانب المشتركة بينه وبين الحيوان... وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم ثابت، لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها «التطوريون»!! عندئذ لا تكون هناك أخلاق زراعية وأخرى صناعية، ولا أخلاق رأسمالية وأخرى اشتراكية، ولا أخلاق صعلوكية وأخرى برجوازية! لا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومن مستوى المعيشة... على اعتبار أن هذه العوامل مستقلة في صنع القيم والأخلاق، والاصطلاح عليها، وحتمية في نشأتها وتقريرها... إنما تكون هناك فقط «قيم وأخلاق إنسانية» يصطلح عليها المسلمون في المجتمع المتحضر... و«قيم وأخلاق حيوانية» - إذا صح هذا التعبير - يصطلح عليها الناس في المجتمع المتخلف... أو بالاصطلاح الإسلامي تكون هناك قيم وأخلاق ربانية إسلامية، وقيم وأخلاق رجعية جاهلية!

إن المجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية، لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي! إن هذا المقياس لا يخطئ في قياس مدى التقدم في الإنسان ذاته.

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم الأخلاقي بحيث يتخلى عن كل ماله علاقة بالتميز الإنساني عن الحيوان. ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية - ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة - رذيلة أخلاقية! إن المفهوم «الأخلاقي» ينحصر في المعاملات الشخصية والاقتصادية والسياسية - أحياناً في حدود مصلحة الدولة! - والكتاب والصحفيون والروائيون وكل أجهزة التوجيه والإعلام في هذه -

وقصة النشأة الإنسانية في القرآن توحي بهذه القيم والموازين الأصيلة وتبينها خير بيان:

والحمد لله الذي هدانا إليه وأنقذنا من وسوسة الشيطان ووحل الجاهلية!!!

بني آدم وميثاق الفطرة والعقيدة :

يعرض القرآن الكريم قصة الميثاق الأكبر الذي أخذه الله على فطرة البشر في مشهد جليل رائع مهيب: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم - من ظهورهم - ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا! أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم. أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟ . . وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ [الأعراف. ١٧٢ - ١٧٤].

إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها السياق القرآني في صورة مشهد - على طريقة القرآن الغالبة[١] - وإنه لمشهد فريد . . مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق، المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود. تؤخذ في قبضة الخالق المربي، فيسألها: ﴿ألست بربكم؟﴾ فتعترف له - سبحانه - بالربوبية؛ وتقر له - سبحانه - بالعبودية؛ وتشهد له - سبحانه - بالوحدانية؛ وهي منثورة كالذر؛ مجموعة في قبضة الخالق العظيم!

= المجتمعات الجاهلية تقولها صريحة للفتيات والفتيان والزوجات والشبان: إن الاتصالات الجنسية الحرة ليست رذائل أخلاقية!

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة - من وجهة النظر «الإنسانية». وبمقياس خط التقدم الإنساني. وهي كذلك غير إسلامية.

يراجع معنى الحضارة في تفسير قوله تعالى: ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ في ظلال القرآن - الجزء الثامن - ص ١٢٥٩.

(١) يراجع بتوسع كتاب «التصوير الفني في القرآن».

إنه مشهد كوني رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوراتها المأثورة! وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته! وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا تُحصى، وهي تجمع وتقبض، وهي تخاطب خطاب العقلاء - بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التي أودعها إياها الخالق المبدع - وهي تستجيب استجابة العقلاء، فتعترف وتقرّ وتشهد؛ **ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب!**

وإنّ الكيان البشري ليرتعش من أعماقه وهو يتملّى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد. وهو يتمثّل الذر السابح. وفي كل خلية حياة. وفي كل خلية استعداد كامن. **وفي كل خلية كائن إنساني مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصورة المكنونة له في ضمير الوجود المجهول**، ويقطع على نفسه العهد والميثاق، قبل أن يبرز إلى حيِّز الوجود المعلوم!

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية وفي أعماق الوجود.. عرض القرآن هذا المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث لم يكن للناس علم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلّا الأوهام! ثمّ يهتدي البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة. فإذا «العلم» يقرر أنّ الناسلات، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل «الإنسان» وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب.. أنّ هذه الناسلات التي تحفظ سجل ما يزيد عن خمسة آلاف مليون من البشر، وتكمن فيها خصائصهم كلها، لا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب، أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة!.. كلمة لو قيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبل! وصدق الله العظيم: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحق﴾** . . .

أخرج ابن جرير وغيره - بإسناده - عن ابن عباس قال: «مسح ربك

ظهر آدم، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة.. فأخذ مواثيقهم، وأشهدهم على أنفسهم: ﴿ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى﴾. وروي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس. وقال ابن كثير: إن الموقوف أكثر وأثبت..

فأمَّا كيف كان هذا المشهد؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم؟ وكيف خاطبهم: ﴿ألست بربِّكم﴾ وكيف أجابوا: ﴿بلى شهدنا﴾؟. فالجواب عليه: أنَّ كيفيات فعل الله سبحانه - غيب كذاته. ولا يملك الإدراك البشري أن يدرك كيفيات أفعال الله ما دام أنَّه لا يملك أن يدرك ذات الله. إذ إنَّ تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية. وكل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذي يحكيه قوله هذا كقوله تعالى. ﴿ثمَّ استوى إلى السَّماء وهي دخان..﴾ ﴿ثمَّ استوى على العرش﴾.. ﴿يمحو الله ما يشاء ويُثبت﴾. ﴿والسَّماوات مطويَّات بيمينه﴾ ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفا﴾.. ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم﴾. إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله سبحانه، لا مناص من التسليم بوقوعه، دون محاولة إدراك كيفيته. إذ إنَّ تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية كما قلنا. والله ليس كمثله شيء. فلا سبيل إلى إدراك ذاته ولا إلى إدراك كيفيات أفعاله. إذ إنَّه لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أي شيء، ما دام أن ليس كمثله شيء. وكل محاولة لتصور كيفيات أفعاله على مثال كيفيات أفعال خلقه، هي محاولة مضللة، لاختلاف ماهيته - سبحانه - عن ماهيات خلقه. وما يترتب على هذا من اختلاف كيفيات أفعاله عن كيفيات أفعال خلقه.. وكذلك جهل وضلَّ كل من حاولوا - من الفلاسفة والمتكلّمين.. وصف كيفيات أفعال الله وخلطوا خلطاً شديداً![1]

على أنَّ هناك تفسيراً لهذا النص بأنَّ هذا العهد الذي أخذه الله على

---

(١) يراجع فصل: «ألوهية وعبودية» وفصل «حقيقة الإنسان» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

ذرية بني ادم هو عهد الفطرة. فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده. أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه. حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها، ويميل بها عن فطرتها.

قال ابن كثير في التفسير (قال قائلون من السلف والخلف: إنَّ المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد - كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع - وقد فسَّر الحسن الآية بذلك. قالوا: ولهذا قال: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم**﴾ ولم يقل: من ادم.. ﴿**من ظهورهم**﴾.. ولم يقل من ظهره.. ﴿**ذرياتهم**﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن. كقوله تعالى: ﴿**وهو الذي جعلكم خلفاء الأرض**﴾.. وقال: ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾.. وقال: ﴿**كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين**﴾.. ثمَّ قال: ﴿**وأشهدهم على أنفسهم: ألستُ بربكم؟ قالوا بلى!**﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له. حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿**قالوا: شهدنا على أنفسنا وغرَّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنَّهم كانوا كافرين**﴾ وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: ﴿**ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر**﴾. أي حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنَّهم قائلون ذلك.. وكذلك قوله تعالى: ﴿**وإنَّه على ذلك لشهيد**﴾ كما أنَّ السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال كقوله: ﴿**وآتاكم من كل ما سألتموه**﴾ قالوا: ومما يدل على أنَّ المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك. فلو كان قد وقع هذا، كما قال من قال، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده، فالجواب: أنَّ المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة عليهم. فدلَّ على أنَّه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد. ولهذا قال: ﴿**أن تقولوا**﴾.. أي لئلاَّ تقولوا ﴿**يوم القيامة إنَّا كنَّا عن هذا**﴾

أي التوحيد . ﴿غافلين﴾، أو تقولوا: ﴿إنما أشرك آباؤنا﴾ .. الآية)

أمّا الأحاديث التي أشار إليها في أول هذه الفقرة فهي:

في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية: على هذه الملة - فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجّسانه، كما تولد بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟!».

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم».

وقال أبو جعفر بن جرير - رحمه الله - حدّثنا يونس بن عبد الأعلى، حدّثنا ابن وهب، أخبرني السري بن يحيى، أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتدّ عليهم، ثمّ قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إنّ خياركم أبناء المشركين! ألا إنها ليست نسمة تولد إلّا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها». قال الحسن: لقد قال في كتابه: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ .. الآية.

ونحن لا نستبعد أن يكون قول الله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ..﴾ الآيات .. على وجهه لا على سبيل التمثيل. لأنه في تصورنا يقع كما أخبر عنه الله سبحانه. وليس هناك ما يمنع أن يقع حين يشاؤه .. ولكننا لا نستبعد هذا التأويل الذي اختاره ابن كثير، وذكره الحسن البصري واستشهد له بالآية. والله أعلم أي ذلك كان ...

وفي أي من الحالين يخلص لنا أنّ هناك عهداً من الله على فطرة البشر

أن توحده. وأنّ حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة؛ يخرج بها كل مولود إلى الوجود؛ فلا يميل عنها إلّا أن يفسد فطرته عامل خارجي عنها! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى والضلال. وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيِّز الوجود ملابسات وظروف[1].

إنّ هذا الدرس القرآني يعرض قضية التوحيد من زاوية أصيلة، وزاوية عميقة. تعرض قضية التوحيد من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر؛ وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم، وذات تكوينهم، وهم بعد في عالم الذر!.. إنّ الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري. فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة. أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى. فيحتاجون إلى التذكير والتحذير..

إنّ التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى. فلا حجة لهم في نقض الميثاق ـ حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم ـ ولكن رحمته وحدها اقتضت ألّا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف، وألّا يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل؛ وأن يبعث إليهم رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلّا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل!

إنّ حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة «الإنسان» وحدهُ؛ ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله. وما الفطرة البشرية إلّا قطاع من فطرة الوجود كله. موصولة به غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه ـ بينما هي تتلقّى كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبّرة عن تأثّره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبرى.. إنّ ناموس التوحيد الذي يحكم هذا

(1) يراجع فصل «حقيقة الإنسان» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته»

الوجود، واصبح الأمر في شكل الكون، وتنسيقه. وناموس جريانه، وانتظام حركته، واطراد قوانينه. وتصرفه المطرد وفق هذه القوانين.. وأخيراً ـ حسب العلم القليل الذي وصل إليه البشر ـ وحدة الجوهر الذي تتألف منه ذراته. وهو الإشعاع الذي تنتهي إليه المواد جميعاً عند تحطيم ذراتها وإطلاق شحناتها..

ويوماً بعد يوم يكشف البشر أطرافاً من ناموس الوحدة في صبغة هذا الكون، وطبيعة قوانينه التي تحكم تصرفاته ـ في غير آلية حتمية ولكن بقدر من الله مطرد متجدد وفق مشيئة الله المطلقة ـ ولكننا نحن لا نعتمد على هذا الذي يكشفه علم البشر القليل ـ الذي لا يمكن أن يكون يقينياً بحكم وسائله البشرية ـ في تقرير هذا الناموس. إنما نحن نستأنس به مجرد استئناس. واعتمادنا الأول في تقريره أنه حقيقة كونية مطلقة، على ما قرره لنا الخالق العليم بما خلق. والقرآن الكريم لا يدع مجالاً للشك في أن الناموس الذي يحكم هذا الكون هو ناموس الوحدة، الذي أنشأته المشيئة الواحدة للخالق الواحد سبحانه. كما أنه لا يدع مجالاً للشك في عبودية هذا الكون لربه، واعترافه بوحدانيته، وعبادته له بالكيفية التي يعلمها الله ولا نعرف عنها إلا ما يخبرنا به، وما نراه من آثارها في انتظامه وثباته واطراده[1].

هذا الناموس الذي يصرف الكون كله ـ بقدر الله المطرد المتجدد وفق مشيئة الله الطليقة ـ متمثل في كيان الإنسان ـ بوصفه من كائنات هذا الكون ـ مستقر في فطرته. لا يحتاج إلى وعي عقلي للإحساس به: فهو مدرك بالفطرة، مستقر في صميمها، تستشعره ذاتها، وتتصرف وفقه. ما لم يطرأ عليه الخلل والفساد، فتنحرف عن إدراكها الذاتي له، وتدع للأهواء العارضة أن تسيرها، بدلاً من أن تسير وفق قانونها الداخلي القويم.

هذا الناموس ـ بذاته ـ هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها. ميثاق

---

(١) يراجع فصل «حقيقة الكون» في المصدر السابق.

مودع في كيانها. مودع في كل خلية حية منذ نشأتها. وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات. وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد. ذي المشيئة الواحدة، المنشئة للناموس الواحد لدي يحكمها ويصرفها. فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها - سواء أكان بلسان الحال هذا أم بلسان المقال - كما في بعض الآثار - لا سبيل إلى أن يقول أحد: إنه غفل عن كتاب الله الهادي إلى التوحيد، وعن رسالات الله التي دعت إلى هذا التوحيد. أو يقول: إني خرجت إلى هذا الوجود، فوجدت آبائي قد أشركوا فلم يكن أمامي سبيل لمعرفة التوحيد. إنما ضل آبائي فضللت فهم المسؤولون وحدهم ولست بالمسؤول! ومن ثم جاء هذا التعقيب على تلك الشهادة: ﴿أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين. أو تقولوا: إنّما أشرك آباؤنا من قبل، وكنّا ذرية من بعدهم. أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟﴾.

ولكنّ الله - سبحانه - رحمة منه بعباده، لما يعلمه من أنّ في استعدادهم أن يضلوا إذا أضلوا، وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف - كما قال رسول الله ﷺ فعل شياطين الجن والإنس، الذين يعتمدون على ما في التكوين البشري من نقط الضعف! - رحمة من الله بعباده قدر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا؛ كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به، حتى يرسل إليهم الرسل، ويفصل لهم الآيات، لاستنقاذ فطرتهم من الركام ولتعطل والانحراف، واستنقاذ عقولهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات[1]. ولو كان الله يعلم أنّ الفطر والعقول تكفي وحدها للهدى دون رسل ولا رسالات؛ ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله عباده بها. ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هي الرسالة: ﴿وكذلك نفصّل الآيات ولعلّهم يرجعون﴾.. يرجعون إلى

(١) يرجع تفسير قوله تعالى: ﴿رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ في الجزء السادس من الظلال ص ٨٠٦ - ٨١٢.

فطرتهم وعهدها مع الله؛ وإلى ما أودعه الله كينونتهم من قوى البصيرة والإدراك. فالرجعة إلى هذه المكنونات كفيلة بانتفاض حقيقة التوحيد في القلوب، وردّها إلى بارئها الوحيد، الذي فطرها على عقيدة التوحيد. ثمّ رحمها فأرسل إليها الرسل بالآيات للتذكير والتحذير[1].

نداء رب السماء لبنَي آدم:

لقد هبط آدم إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها ـ وهي المهمة التي خلقه الله لها وزوّده بالكفايات والاستعدادات اللازمة لها ـ بعد أن علّمه ربه كيف يتوب من الزلّة التي زلّها، وتعلم كيف تلقّى من ربه كلمات فتاب عليه بها. وكيف أخذ عليه ربه العهد والميثاق ـ هو وزوجه وبنوه ـ أن «يتبع» ما يأتيه من هدى الله، ولا يتبع الشيطان وهو عدوه وعدو بنيه إلى يوم الدين ﴿قال اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدو﴾.

ومع إعلان الخصومة التي دوت به السماوات والأرضون، وشهده الملائكة أجمعون، شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهمُ رسله بالهدى. قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم، فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس، أنه آتيهم بهدى منه. فمحاز كلاً منهم بعد ذلك حسبما ضلَّ أو اهتدىٰ:

﴿فإمّا يأتينَّكم منّي هُدًى، فمَن اتَّبع هُداي فلا يضلُّ ولا يشقىٰ﴾ [طه: ١٢٣]

إنّه أمر قد قضي فيه منذ بعيد ولا رجعة فيه ولا تعديل.. فمن اتّبع هُدى الله فهو في أمان من الضلال والشقاء. وهما ينتظران خارج عتبات الجنّة. ولكنَّ الله يقي منهما من اتّبع هداه.

---

(١) يراجع فصل: «ألوهية وعبودية» وفصل «حقيقة الإنسان» في كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقاً في المتاع. فهذا المتاع ذاته شقوة. شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة. وما من متاع حرام، إلا وله غصّة تعقبه وعقابيل تتبعه

وما يضلُّ الإنسان عن هدى الله إلاّ ويتخبط في القلق والحيرة والتكفّؤ والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن في خطاه.

والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع الممرع! ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء. ومن اتّبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض، وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود، حتى يؤوب إليه في اليوم الموعود. ﴿ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكا﴾.

والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع. إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه. ضنك الحيرة والقلق والشك. ضنك الحرص والحذر: الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت. ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت.

وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلاّ في رحاب الله. وما يحس راحة الثقة إلاّ وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.. إنّ طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان.

﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ وانقطع عن الاتصال بي ﴿فإنَّ له معيشةً ضنكاً﴾.. ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.. وذلك ضلال من نوعه ضلاله في الدنيا. وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر في الأولىٰ. حتى إذا سأل: ﴿ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً؟﴾ كان الجواب: ﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربِّه. ولعذاب الآخرة أشد وأبقىٰ﴾!

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه. أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر. وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئاً. فلا جرم يعيش معيشة ضنكاً! ويحشر في يوم القيامة أعمى! هبوط من الجنة وشقاء وضلال، يقابله عودة إلى الجنة ونجوة من الشقاء والضلال. وفسحة في الحياة يقابلها الضنك. وهداية يقابلها العمى.

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعاً هداه. وما من شك أنه علّم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل، وأنّ الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض؛ حيث لم تكن معها عقيدة أخرى. فالجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعاً. وأنها انحرفت عن الإسلام بفعل الشيطان المسلّط على بني آدم، وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية. تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدى الله، واتباعه وحده، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة.

ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدراً من الاختيار ـ هو مناط الابتلاء ـ وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه، كما يملك أن ينحرف ـ ولو قيد شعرة ـ عن هدى الله إلى تعاليم غيره؛ فيجتاله الشيطان حتى يقذف به ـ بعد أشواط ـ إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم ـ النبي المسلم ـ في فترات التاريخ لتلك الأجيال التي لا يعلمها إلاّ الله.

إنّ قصة آدم عليه السّلام هي قصة البشرية.. تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض. وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون؛ ومن قدرة على التعرف إلى نواميسه واستخدامها؛ والانتفاع بطاقاته ومقدراته ومدخراته وأقواته: ﴿ولقد مكنّاكم

في الأرض، وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون﴾ [الأعراف: ١٠] إنها قصة النشأة الأولى، وتصوير نقطة الانطلاق التي بدأت منها البشرية رحلتها المرسومة. والقرآن الكريم يركز على هذه النقطة، ويعرض قصة النشأة، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير، لمستمدين ممّا في مشاهدها وأحداثها من عظات موحية ومؤثرات عميقة.

إنَّ مشهد نقطة الانطلاق في حياة البشرية قد حدَّد مصير الرحلة كلها، ومصائر المرتحلين جميعاً. في قصة آدم نلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال رحلة البشرية على الأرض، بين هذا العدو الجاهر بالعداوة، وبني آدم جميعاً. كما نلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة، ومنافذ الشيطان إليه منها.

ومن ثمَّ يتخذ القرآن من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل، بالإنذار والتحذير. تحذير بني آدم ممّا جرى لأبويهم من هذا العدو العنيد. وفي ظل هذا المشهد الذي يقف فيه الشيطان وجهاً لوجه مع آدم وزوجه أبوي البشر وفي ظل النتيجة التي انتهى إليها الشوط الأول في المعركة يتوجه الله سبحانه بالخطاب لبني آدم، يذكرهم وينذرهم، ويحذرهم مصير بهذا المصير:

﴿يـا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلَّهم يذَّكرون﴾ . .

﴿يَا بني آدم لا يفتننَّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنَّة، ينزعُ عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما، إنَّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنَّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ [الأعراف: ٢٦ ـ ٢٧].

﴿يَا بني آدم إمَّا يأتينَّكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتَّقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والَّذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولـئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [الأعراف: ٣٥ ـ ٣٦].

ولا بد أن نلحظ أن مشهد العري بعد ارتكاب المحظور، والخصف من ورق الجنة؛ ثم هذا التعقيب بالتذكير بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سوآتهم والريش الذي يتزينون به. وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزعه عن أبويهم..

لا بدّ أن نلحظ أنَّ ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على هذا النحو إنَّما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك. حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا، ويحرمون أنواعاً من الثياب، وأنواعاً من الطعام في فترة الحج. ويزعمون أنَّ هذا من شرع الله. وأنَّ الله قد حرم عليهم هذا الذي يحرمونه على أنفسهم..

ومن ثمَّ يجيء في استعراض قصة البشرية، وفي التعقيب عليها ما يناسب ويواجه هذه الحالة الواقعية في الجاهلية.. وهي في كل جاهلية في الحقيقة.. أليست سمة كل جاهلية هي العرّي والكشف وقلة الحياء من الله وقلّة التقوى؟ وهذا يدل على سمة من سمات المنهج القرآني جديرة بالتأمل. إنّه حتى القصص في القرآن لا يسرد إلاّ لمواجهة حالة واقعة بالفعل. ولأنّه يواجه ـ في كل مرة ـ حالة معينة، فإنَّ الحقيقة التي تذكر منه والحلقة التي تعرض في موضع من المواضع، تعرض بقدر الحالة الواقعة التي يواجهها النص حينذاك وفي جوها.

إنَّ المنهج القرآني لا يعرض شيئاً لا تستدعيه حالة واقعة.. إنّه لا يعرف اختزان المعلومات والأحكام ـ ولا حتى القصص ـ إلى أن يجيء وقت الحاجة الواقعة إليه.

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً. ولباس التّقوى، ذلك خير. ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون﴾.

هذه وقفة من وقفات التعقيب بعد المشهد الأول في قصة البشرية الكبرى. وهي وقفة في مواجهة المعركة التي بانت طلائعها بين الشيطان

والبشرية. وقفة للتحذير من أساليب الشيطان ومداخله؛ ولكشف خطته ما كان منها وما يكون متمثلاً في صور وأشكال شتّى..

والمنهج القرآني لا يعرض توجيهاً إلاّ لمواجهة حالة قائمة؛ ولا يقص قصصاً إلاّ لأنّ له موقعاً في واقع الحركة الإسلامية. إنّه كما قلنا لا يعرض قصصاً لمجرد المتاع الفني! ولا يقرر حقيقة لمجرد عرضها النظري..

إنّ واقعية الإسلام وجديته تجعلان توجيهاته وتقريراته، لمواجهة حالات واقعة بالفعل في مواجهة الحركة الإسلامية وقد كان واقع الجاهلية العربية هو الذي يواجهه التعقيب هنا عقب المرحلة الأولى من قصة البشرية الكبرى..

كانت قريش قد ابتدعت لنفسها حقوقاً على بقية مشركي العرب الذين يفدون لحج بيت الله - الذي جعلوه بيتاً للأصنام وسدنتها! - وأقامت هذه الحقوق على تصورات اعتقادية زعمت أنّها من دين الله؛ وصاغتها في شرائع. زعمت أنّها من شرع الله! وذلك لتخضع لها أعناق المشركين؛ كما يصنع السدنة والكهنة والرؤساء في كل جاهلية على وجه التقريب.. وكانت قريش سمت نفسها اسماً خاصاً وهو «الحُمس» وجعلوا لأنفسهم حقوقاً ليست لسائر العرب. ومن هذه الحقوق - فيما يختص بالطوف بالبيت - أنّهم هم وحدهم لهم حق الطواف في ثيابهم. فأمّا بقية العرب فلا تطوف في ثياب لبستها من قبل. فلا بد أن تستعير من ثياب الحمس للطوف أو تستجد ثياباً لم تلبسها من قبل وإلاّ طافوا عرايا وفيهم النساء!

إنّ هذا النداء يجيء في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة.. مشهد العري وتكشف السوآت والخصف من ورق الجنّة. لقد كان هذا ثمرة للخطيئة.. والخطيئة كانت في معصية أمر الله، وتناول المحظور الذي نهى عنه الله وليست هي الخطيئة التي تتحدث عنها أساطير (الكتاب المقدس!) والتي تعج بها التصورات الفنية الغربية المستقاة من تلك

الأساطير ومن إيحاءات «فرويد» المسمومة. لم تكن هي الأكل من «شجرة المعرفة» - كما تقول أساطير العهد القديم. وغيرة الله - سبحانه وتعالى - من «الإنسان» وخوفه - تعالى عن وصفهم علواً كبيراً - من أن يأكل من شجرة الحياة فيصبح كواحد من الآلهة! كما تزعم تلك الأساطير (١). ولم تكن كذلك هي المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن الأوربي دائما حول مستنقع الوحل الجنسي، لتفسير كل نشاط للحياة كما علمهم فرويد اليهودي!..

وفي مواجهة مشهد العري الذي أعقب الخطيئة ومواجهة العري الذي كان يزاوله المشركون في الجاهلية يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله على البشر وقد علمهم ويسر لهم. وشرع لهم كذلك. اللباس الذي يستر العورات المكشوفة، ثم يكون زينة - بهذا الستر - وجمالاً، بدل قبح العري وشناعته - وذلك يقول: ﴿أنزلنا﴾ أي: شرعنا لكم في التنزيل. واللباس قد يطلق على ما يواري السوأة وهو اللباس الداخلي. والريش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به. وهو ظاهر الثياب. كما قد يطلق الريش على العيش الرغد والنعمة والمال. وهي كلها معاني متداخلة ومتلازمة: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً﴾.

كذلك يذكر هنا: ﴿لباس التقوى﴾ ويصفه بأنه ﴿خير﴾.

﴿ولباس التقوى ذلك خير. ذلك من آيات الله﴾

قال عبد الرحمن بن أسلم: (يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى).

فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة، وبين التقوى. كلاهما لباس. هذا يستر عورات القلب ويزينه. وذاك يستر عورات الجسم ويزينه. وهما متلازمان. فمن شعور التقوى لله والحياء منه

---

(١) يراجع فصل «نبه وركام» في القسم الأول من كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه. ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري. العري من الحياء والتقوى، والعري من اللباس وكشف السوأة!

إنّ ستر الجسد حياءً ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي - كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون - إنّما هي فطرة خلقها الله في الإنسان، ثمّ هي شريعة أنزلها الله للبشر؛ وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق والله يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم! وفي تمكينهم منه بما يسّر لهم من الوسائل: ﴿لعلّهم يذّكرون﴾: [illegible]

ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم؛ والدعوة السافرة لهم إلى العري الجسدي - باسم الزينة والحضارة والمودة! - وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم، والتعجيل بانحلالهم، ليسهل تعبيدهم لملك صهيون! ثمّ يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين في صورة عواطف غامضة في أعماق النفوس! فحتى هذه توجه لها معاول السحق، بتلك الحملة الفاجرة الداعية إلى العري النفسي والبدني الذي تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في كل مكان! والزينة «الإنسانية» هي زينة الستر، بينما الزينة «الحيوانية» هي زينة العري. ولكن «الآدميين» في هذا الزمان يرتدُّون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة. فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها!!!.

﴿يا بني آدم لا يفتننّكم الشّيطان كما أخرج أبويكم، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما، إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنّا

جعلنا الشياطين أولياء للَّذين لا يؤمنون وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. قل: إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون؟ . . ﴾.

إنَّه النداء الثَّاني لبني آدم، في وقفة التعقيب على قصة أبويهم، وما جرى لهما مع الشيطان، وعلى مشهد العري الذي أوقعهما فيه عدوهما، بسبب سيانهما أمر ربهما والاستماع إلى وسوسة عدوهما.

لقد كان النداء الأوَّل تذكيراً لبني آدم بسلف المشهد الذي عاناه أبواهم، وبنعمة الله في إنزال اللباس الذي يستر العورة والرياش الذي يتجمل به. أمَّا هذا النداء الثَّاني فهو التحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة أن يستسلموا للشيطان، فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد، فيسلمهم إلى الفتنة - كما فعل مع أبويهم من قبل إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما - فالعري والتكشف الذي يزاولونه - والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً - هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية، وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم وبنيه؛ وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه. فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم؛ وأن ينتصر في هذه المعركة، وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف!

وزيادة في التحذير، واستثارة للحذر، ينبئهم ربهم أنَّ الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم. وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية؛ وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط، وإلى مضاعفة اليقظة، وإلى دوام الحذر، كي لا يأخذهم على غرة: ﴿إنَّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾. .

ثمَّ الإيقاع المؤثر الموحي بالتوقّي. . إنَّ الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون. . ويا ويل من كان عدوه وليه! إنَّه إذن يسيطر عليه

ويستهويه ويقوده حيث شاء، بلا عون ولا نصير، ولا ولاية من الله.

﴿إنَّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾

وإنَّها لحقيقة. أنَّ الشيطان ولي الذين لا يؤمنون؛ كما أنَّ الله هو ولي المؤمنين. وهي حقيقة رهيبة، وبها نتائجها الخطيرة.. وهي تذكر هكذا مطلقة؛ ثمَّ يواجه بها المشركون كحالة واقعة. فنرى كيف تكون ولاية الشيطان؛ وكيف تفعل في تصورات الناس وحياتهم. وهذا نموذج منه

﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا. وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾..

وذلك ما كان يفعله ويقول به مشركو العرب: وهم يزاولون فاحشة التعري في الطواف ببيت الله الحرام - وفيهم النساء! - ثمَّ يزعمون أنَّ الله أمرهم بها. فقد كان أمر آباءهم بها فتبعوهم. ثمَّ هم ورثوها عن آبائهم فعلوها! وهم؛ على شركهم - لم يكونوا يتبجحون تبجح الجاهليات الحديثة التي تقول: ما للدين وشؤون الحياة؟ وتزعم أنَّها هي صاحبة الحق في اتخاذ الأوضاع والشرائع والقيم والموازين والعادات والتقاليد من دون الله!

إنَّما كانوا يفترون الفرية، ويشرعون الشريعة، ثم يقولون. الله أمرنا بها! وقد تكون هذه خطة الأم وأخبث، لأنَّها تخدع الذين في قلوبهم بقية من عاطفة دينية؛ فتوهمهم أنَّ هذه الشريعة من عند الله. ولكنها على كل حال أقل تبجحاً ممَّن يزعم أنَّ له الحق في التشريع للناس بما يراه أصلح لأحوالهم من دون الله!

والله - سبحانه - يأمر نبيه ﷺ أن يواجههم بالتكذيب لهذا الافتراء على الله، وبتقرير طبيعة شرع الله وكراهته للفاحشة، فليس من شأنه سبحانه أن يأمر بها:

﴿قل: إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾..

إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء إطلاقاً - والفاحشة: كل ما يفحش أي يتجاوز

الحد ـ والعري من هذه الفاحشة، فالله لا يأمر به. وكيف يأمر الله بالاعتداء على حدوده؟ والمخالفة عن أمره بالستر والحياء والتقوى؟ ومن الذي أعلمهم بأمر الله ذاك؟ إنَّ أوامر الله وشرائعه ليست بالادّعاء. إنَّ أوامره وشرائعه واردة في كتبه على رسله. وليس هناك مصدر آخر يعلم منه قول الله وشرعه. وليس لإنسان أن يزعم عن أمر أنه من شريعة الله، إلَّا أن يستند إلى كتاب الله وإلى تبليغ رسول الله. فالعلم المستيقن بكلام الله هو الذي يستند إليه من يقول في دين الله. وإلَّا فأي فوضى يمكن أن تكون إذا قدم كل إنسان هواه، وهو يزعم أنَّه دين الله!!

وبعد أن ينكر عليهم دعواهم في أنَّ الله أمرهم بهذه الفاحشة، يبيِّن لهم أنَّ أمر الله يجري في اتجاه مضاد.

لقد أمر الله بالعدل والاعتدال في الأمور كلها لا بالفحش والتجاوز وأمر بالاستقامة على منهج الله في العبادة والشعائر، وبالاستمداد ممَّا جاء في كتابه على رسوله ﷺ ولم يجعل المسألة فوضى، يقول فيها كل إنسان بهواه، ثمَّ يزعم أنَّه من الله. وأمر بأن تكون الدينونة خالصة له، والعبودية كاملة، فلا يدين أحد لأحد لذاته ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته. ﴿قل أمر ربِّي بالقسط، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد. وادعوه مخلصين له الدين﴾

هذا ما أمر الله به، وهو يضاد ما هم عليه. يضاد اتباعهم لآبائهم وللشرائع التي وضعها لهم عباد مثلهم، مع دعواهم أنَّ الله أمرهم بها. ويضاد العري والتكشف. وقد امتنَّ الله على بني آدم بأنَّه أنزل عليهم لباساً يواري سوآتهم وريشاً يتجمّلون به كذلك.. ويضاد هذا الشرك الذي يزاولونه، بازدواج مصادر التشريع لحياتهم ولعاداتهم.

الآن بعد تلك الوقفة الطويلة للتعقيب على قصة النشأة الأولى؛ ومواجهة واقع الجاهلية العربية ـ وواقع الجاهلية البشرية كلها من ورائها ـ في شأن ستر الجسم باللباس وستر الروح بالتقوى، وعلاقة القضية كلها بقضية

العقيدة الكبرى.. الان يبدأ نداء جديد لبني آدم.. نداء بشأن القضية الكلية التي ربطت بها قضية اللباس في الوقفة السابقة.. قضية التلقي والاتباع في شعائر الدين وفي شرائعه، وفي أمر الحياة كلها وأوضاعها. وذلك لتحديد الجهة التي يتلقون منها.. إنها جهة الرسل المبلغين عن ربهم. وعلى أساس الاستجابة أو عدم الاستجابة للرسل يكون الحساب والجزاء، في نهاية الرحلة التي يعرضها السياق القرآني في هذه الجولة.

﴿يا بني آدم إمّا يأتينّكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي، وينذرونكم لقاء يومكم هذا: فمن اتّقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والّذين كذّبوا بإياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

هذا هو عهد الله لآدم وبنيه، وهذا هو شرطه في الخلافة عنه ـ سبحانه ـ في أرضه التي خلقها وقدّر فيها أقواتها. واستخلف فيها هذا الجنس، ومكّنه فيها، ليؤدّي دوره وفق هذا الشرط وذلك العهد؛ وإلّا فإنّ عمله ردٌّ في الدنيا لا يقبله ولا يمضيه مسلم لله، وهو في الآخرة وزر جزاؤه جهنّم لا يقبل الله من أصحابه صرفاً ولا عدلاً.

﴿فمن اتّقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. لأنّ التقوى تنأى بهم عن الآثام والفواحش ـ وأفحش الفواحش الشرك بالله واغتصاب سلطانه وادّعاء خصائص ألوهيته ـ وتقودهم إلى الطيّبات والطاعات، وتنتهي بهم إلى الأمن من الخوف والرضى عن المصير.

﴿والّذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها، أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾.. لأنّ التكذيب والاستكبار عن الاستسلام لعهد الله وشرطه يلحق المستكبرين بوليّهم إبليس في النار، حيث يحق وعد الله: ﴿لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنّم منكم أجمعين﴾..

على طول الطريق :

ومن ثنايا قصة آدم يتبين لنا أن حياته منذ خلقه الله هي صورة تتكرر بين الحين والحين من ذريته وستبقى إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، فالحديث عن آدم عليه السلام هو الحديث عن الخصائص والميزات التي خص الله بها هذا الإنسان وميزه بها عن غيره، كما أنه حديث عن تلك الاستعدادات والغرائز التي هيأها الله لهذا الإنسان قبضة الطين كانت أم نفخة الروح فقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض» وفي رواية: «خلق الله آدم من أديم الأرض كلها، فخرجت ذريته على حسب ذلك، فمنهم الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، ومنهم بين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب»(1)

لقد هبط آدم إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها.. هبط لتبدأ رحلة الحياة: آدم وزوجه. والشيطان وقبيله.. وينطلق الشيطان يغوي البشرية عن صراط الله المستقيم تحت ضغط الشهوات، ليقودها من خطامها، محاولاً أن يرضي حقده، وأن ينفذ وعيده، وأن يمضي ببني آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم.. وهذا موكب الرسل الكرام يوجه البشرية بالهدى، ويلوح لها بالنور، ويستروح بها ريح الجنة، ويحذرها نفحات السموم، ونزغات الشيطان الرجيم، عدوها القديم..

إنه مشهد مؤثر.. مشهد الصراع العميق، في خضم الحياة، على طول الطريق..

---

(1) حديث صحيح أخرجه أحمد ٤/ ٤٠٠ و٤٠٦، وأبو داود (٤٦٩٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، والترمذي (٢٩٥٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان: (٦١٦٠) و(٦١٨١).

إنَّ التاريخ البشري يمضي في تشابك معقد كل التعقيد.. إنَّ هذا الكائن المزدوج الطبيعة، المعقد التركيب، الذي يتألف كيانه من أبعد عنصرين تؤلف بينهما قدرة الله وقدره - عنصر الطين الذي شأنه، وعنصر النفخة من روح الله التي جعلت من هذا الطين إنساناً..

إنَّ هذا الكائن ليمضي في تاريخه مع عوامل متشابكة كل التشابك، ومعقدة كل التعقيد.. يمضي بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الآفاق والعوالم التي أسلفنا في قصة آدم الحديث عنها.. يتعامل مع الحقيقة الإلهية: مشيئتها وقدرها، وقدرتها وجبروتها، ورحمتها وفضلها.. إلخ.. ويتعامل مع الملأ الأعلى وملائكته.. ويتعامل مع إبليس وقبيله.. ويتعامل مع بعضه البعض.. يتعامل مع هذه الآفاق وهذه العوالم بطبيعته تلك، وباستعداداته المتنوعة والمتعارضة مع هذه الآفاق والعوالم.

وفي هذا الخضمّ المتشابك من العلاقات والروابط، يجري تاريخه. ومن القوة في كيانه والضعف. ومن التقوى والهدى. ومن الالتقاء بعالم الغيب وعالم الشهود. ومن التعامل مع العناصر المادية في الكون والقوى الروحية، ومن التعامل مع قدر الله في النهاية.. من هذا كله يتكون تاريخه.. وفي ضوء هذا التعقيد الشديد يفسر تاريخه.. والذين يفسرون التاريخ الإنساني تفسيراً «اقتصادياً» أو «سياسياً». والذين يفسرونه تفسيراً «بيولوجياً». والذين يفسرونه تفسيراً «روحياً» أو «نفسياً». والذين يفسرونه تفسيراً عقلياً.. كل أولئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب من جوانب العوامل المتشابكة، والعوالم المتباعدة، التي يتعامل معها الإنسان؛ ويتألف من تعامله معها تاريخه.. والتفسير الإسلامي للتاريخ هو وحده الذي يلم بهذا الخضم الواسع، ويحيط به، وينظر إلى التاريخ الإنساني من خلاله[1].. لقد شهدنا مشهد النشأة البشرية.. وشهدنا هذا الكائن

---

(١) يراجع فصل «حقيقة الإنسان» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الثاني.

باستعداداته الأساسية. فتبدأ تكريمه في الملأ الأعلى وسجود الملائكة له، وللبشرية، لعظيم يعني ميلاده. وسيبدو ضعفه بعد ذلك وكيف قاده منه عدوه. وسنشهد هبوطه إلى الأرض وانطلاقه في التعامل مع عناصرها ونواميسها الكونية. فهو مخلوق مزود بطاقات: من أبرزها طاقة المعرفة وطاقة الإرادة المستقلة. وطاقة القوة الدافعة المتمثلة في معنى الخلافة ومقتضياتها. وطاقة التصرف. والقدرة على الرجوع إلى الله وتلقي كلماته وتتبع هداه. والقدرة كذلك على الاستغفار والمتاب.

وهو مخلوق مشتمل على نقطة ضعف هي حب الشهوات. ونسيان العهد، ونسيان الهدى، والكفر بآيات الله.

وهو مخلوق ذو طبيعة مزدوجة. فيه القدرة على الارتفاع إلى أقصى المدى، والقدرة على الهبوط إلى الحضيض.

إن الحقيقة عن تكوين الإنسان ونشأته هي كلمة الله. والإقرار بها لا يمنع أن يأخذ البحث العلمي مجراه. بل إن البحث العلمي للكشف عن الحقيقة نهو الاستجابة لأمر الله للناس أن يبحثوا عن الآيات في كل شيء ﴿وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم. أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١] ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ [فصلت: ٥٣]. وفي النهاية تلتقي حقيقة الدين الكلية بحقائق العلم التفصيلية ويستقيم بذلك منهج الحياة.

أبرز ما في الكيان البشري أنه كيان مزدوج الطبيعة. وهذا الازدواج كائن متفرد في كل ما نعلم من مخلوقات هذا الكون التي تمثل طبيعة واحدة ذات وجهة واحدة. والإنسان وحده - فيما نعلم من الكائنات - هو الكائن المزدوج الطبيعة القادر على أكثر من اتجاه.

وهذا الازدواج هو طابع كيانه كله. وهو متغلغل في كل أعماقه. فلا يوجد عمل ولا شعور ولا فكر ولا تصرف لا تبدو فيه هذه الظاهرة الفذّة

المتميزة. الإنسان قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله.

قبضة من طين الأرض تتمثل في حقيقة الجسد. عضلاته ووشائجه وأعصابه وأجهزته، وتتمثل كذلك في مطالب الجسد وألوان نشاطه. و« الشهوات » كلها، أو الدوافع الفطرية، أو القوة الحيوية للإنسان، هي نشاط جثماني، أو نشاط قائم على قاعدة جسمية، بحيث تتعطل أو تزول لو أزيل العضو الذي يقوم بها أو الغدة التي تبعث نشاطها.

ونفخة من روح الله تتمثل في الجانب الروحي للإنسان. تتمثل في الوعي والإدراك والإرادة. تتمثل في كل « القيم » والمعنويات التي يمارسها الإنسان: الخير والبر والرحمة والتعاون والإخاء والمودة والحب والصدق والعدل والإيمان بالله والإيمان بالمثل العليا والعمل على تحقيقها في واقع الحياة. كل ذلك نشاط روحي، أو نشاط قائم على قاعدة روحية. وهو مثلها - أمر معنوي لا تدركه الحواس ولكن تُدرك آثاره الظاهرة في الواقع المحسوس. وهذان اللونان من النشاط البشري حقيقة واضحة مشهودة.

والحقيقة الجسدية لا تحتاج إلى توكيد. فهي ظاهرة أمامنا نراها ونلمسها، ولا نتعب في تحديد حدودها وقياس أبعادها وطاقاتها. وإن كانت العلوم التي تبحث فيها تقر بعجزها الكامل عن استكناه كنهها الحقيقي، وتكتفي بوصف مظاهرها ورسم أبعادها.

وإلاّ فأي سر يمنح الخلية الحياة بادئ ذي بدء، فتتحول من مادة ميتة إلى خلية حيّة؟

وأي سرّ يجعل تلك الحياة الممنوحة للخلية تتخذ نشاطاً معيناً منظماً منسقاً مضبوطاً؟

وأي سرّ يجعل مجموعة من الخلايا الحية تتخصص لتكوين الأنف، أو الفم، أو العين، أو القلب، أو المخ، أو الذراع أو الساق.. إلخ. وهي كلها في الأصل متشابهة ومتماثلة؟

وأي سر يجعل تلك المجموعة التي كونت الأنف أو الفم أو العين . تأخذ شكلاً معيناً ذا شبه معين قريب أو بعيد من الآباء والجدود؟

وأي سر يجعل العين ـ تلك المجموعة من الخلايا ـ ترى، والأنف يشم، والأذن تسمع والجلد يحس والعقل يفكر؟

ومئات من الأسرار والألوف . كلها معلقة بستار الغيب لا يصل « العلم » منها لغير المظاهر والسطوح!

أمّا الحقيقة الروحية فهي خفية نعم، ولكن أي شيء في الإنسان ليس بالخفي؟ إنها مجهولة الكنه، ولكن.. أيزيد جهلنا بها عن جهلنا بسرّ الحياة في الخلية الحية، وسر النمو، وسر التخصص، وسر التشكل، وسر قيام الأعضاء بوظائفها المعقدة الشديدة التعقيد؟

نعم إنها غير ظاهرة، لا نستطيع تحديد حدودها ولا قياس أبعادها. ولكنّا نرى آثارها وندركها .. نراها متمثلة أحياناً في وقائع ملموسة وأحيانا في رغبات وأشواق ومن ثمّ لا نستطيع أن نلغي من حسابنا وجود كيان معنوي للإنسان، نسميه « الروح » اصطلاحاً، أو نسميه بأي اسم آخر. ولكنّا نلتقي عند مفهوم معين واضح الحدود والسمات.

إنّ كل معنى من المعاني التي تعبر عن القيم العليا .. عن الحق والخير والجمال والحرية والإخاء والحب .. إلخ لهي دليل على هذا الكيان المعنوي للإنسان وليس من الضروري أن يمارس الناس كلهم هذه المعاني في كل وقت. فيكفي أن يمارسها بعضهم في أية لحظة لتكون واقعاً بشرياً موجوداً في عالم الحقيقة بل يكفي أن توجد في اللغة البشرية (واللغة ذاتها من المعنويات التي اختصّ بها الإنسان) لكي يثبت وجودها الواقعي. فحين توجد في اللغة البشرية كلمة « الحب » أو « العدل » أو « الجمال » فيستوي أن تكون هذه القيم وقائع محسوسة أو صلحاً يشتاق البشر إلى تحقيقه.. يستوي هذا وذاك في إثبات النشاط المعنوي للإنسان . فالرغبة في هذه

القيم هي ذاتها نشاط معنوي، سواء تحققت في عالم الحسّ أو لم تتحقق كما أنّ الرغبة في الطعام مثلاً دليل على وجود نشاط معين داخل الجسم، سواء أدّت إلى تناول الطعام فعلاً أم لم تؤدّ إليه»[1].

«إنّ هذا الكيان ـ مع ازدواجه ـ ليس مكوناً من عنصرين منفصلين يعمل كلٌ منهما في اتجاه.

إنه ليس جسماً وروحاً منفصلين: **﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾**.

إنّ هذه النفخة العلوية التي أعطت للإنسان روحه ـ وهي قَبس من روح الله ـ لم تظل عنصراً منفصلاً عن الكيان المسوّى من الطين، ولم تتحيز في حيّز معين منه. وإنما سرت فيه، فشملته كله من أوله إلى آخره. وشملت كل كيانه. فأصبح كيانه جسمياً روحياً في ذات الوقت. لا ينفصل فيه عنصر عن عنصر، ولا يستقل فيه كيان عن كيان.

إنه لم يعد طيناً بحتاً. ولا يمكن أن يعود كذلك

ولا هو أيضاً روح بحت. ولا يمكن أن يكون.

فالعنصران مختلطان ممتزجان لا ينفصلان. تتكون منهما كيان موحد مختلط الصفات، أو مزدوج الصفات.

وتلك حقيقة كبرى في الكيان البشري، تبنى عليها كل أعمال الإنسان ومشاعره وتصرفاته في الحياة»[2].

«يحسّ الإنسان بالشوق علياً، فتنطلق روحه ترفرف رفرفة خفيفة مشعة رائقة.

يحسّ الرغبة في الاتصال بالله، والتعبّد إليه، والتفاني في محبته سعياً إلى رضاه. وقد تستغرقه العبادة في لحظة فينسى نفسه. ينسى أنه على الأرض.

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية: ص ٤٢ ـ ٤٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٧.

وأنّه جسم ذو عضلات ووشائج وأعصاب، وذو مطالب لا يطول سكوتها عن الإلحاح، لأنّه لا يحسّ في تلك اللحظة بحدود هذا الجسم، ولا يحسّ بما يفصل بينه وبين الله.

ولكنّ الإنسان لا يصبر على هذه اللحظات أكثر من لحظات! ثمّ يعود إلى الواقع الأرضي المحدود المحسوس، بحكم الضرورات القاهرة التي تتوالى على حسّه من جوع وعطش وإفرازات ومطالب ورغبات

ومهما حاول الإنسان أن يتسامى بروحه على الضرورة، فإلى فترة محدودة من الوقت - تطول أو تقصر - ثمّ يعود. ولا محيص له من أن يعود..

وذلك أثر من آثار امتزاج الجسد بالروح، وعدم انفصاله عنها، فلا يمكن أن ينطلق انطلاقاً كاملاً وهي مرتبطة في الأرض بقبضة الطين

فالإنسان كيان موحّد، برغم ما في طبيعته هذه من ازدواج.. كيان موحّد.. كل ما ينبعث عنه من نشاط فإنما يصدر عن كيانه الموحد المتشابك المعقد التركيب! والإسلام كلمة الله إلى الأرض - هو وحده الذي يتمشى مع الفطرة البشرية كما خلقها الله.

الفطرة البشرية هي قبضة الطين ونفخة الروح العلوية في ذلك الطين، وامتزاجها به وتوحدها فيه.

والإسلام هو النظام الذي يربط بين كل ألوان النشاط البشري، ويوحّد بينهما في الاتجاه. يربط بين الروح والجسد ويوحّد بينهما في كل ما يصدر عنهما من مشاعر وأفكار وأعمال.

الطعام والشراب يبيحه.. ثمّ يجعله باسم الله.. أي يجعل له قيمة روحية مصاحبة. وبهذا يجعل الطعام والشراب مسألة إنسانية لا حيوانية. ويقضيهما الإنسان على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان. ويكون بذلك متمشياً مع الفطرة السوية التي أودعها الله في الإنسان. وحين يجعلهما

باسم الله، فهي ليست كلمة تقال.. وإنما هي حقائق كثيرة تجعل الارتباط كاملاً فيهما بين نشاط الجسم ونشاط الروح.

والطعام ينبغي أن يكون من حلال: **﴿يا أيُّها النَّاس كلوا ممَّا في الأرض حلالاً طيِّباً﴾** [البقرة: ١٦٨] **﴿وكلوا ممَّا رزقكم الله حلالاً طيِّباً﴾** [المائدة: ٨٨] وأن يذكّى هو ذاته في تناوله بقراءة اسم الله عليه، أي يربطه بالله في الوجدان: **﴿ولا تأكلوا ممَّا لم يُذكر اسم الله عليه. وإنَّه لفسق﴾** [الأنعام: ١٢١] وألّا يسرف الإنسان فيه بلا ضابط: **﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾** [الأعراف: ٣١].

وألَّا يستأثر به وحده: **﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾** [الحج: ٢٨][1].

وألَّا يجعله همَّه الشاغل، ولا هدفاً في ذاته، وإنما وسيلة لهدف: « **بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه**»[2].

وبهذا يصبح الطعام مسألة جسمية روحية في ذات الوقت، وبتعبير آخر يصبح نشاطاً إنسانياً صادراً عن الكيان الإنساني الموحد المجتمع المترابط الذي لا ينفصل فيه كيان عن كيان.

وهكذا سائر النشاط الإنساني يصدر عن الكيان المجتمع للإنسان[3].

« والإنسان - بطبيعته المزدوجة - قابل قبولا طبيعيا أن يتَّخذ هذا الوضع أو ذاك: وضع سيطرة الجسم على الكيان الممتزج، أو سيطرة الروح. أي إنه مشتمل - بصورة طبيعية على استعداد للخير واستعداد للشر: **﴿وهديناه النَّجدين﴾** [سورة البلد: ١٠]. **﴿إنَّا هديناه السَّبيل إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً﴾** [سورة الإنسان: ٣]. **﴿ونفس وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها.**

---

(١) انظر: المصدر السّابق، ص ٥٢، ٥٣، ٥٦، ٦٤.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

(٣) انظر: « دراسات في النفس الإنسانية» ص ٦٥ - ٧٠

قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دسّاها﴾ [سورة الشّمس: ٧ ـ ١٠]

بل إنه ـ حين يُترك وشأنه ـ أكثر ميلاً لأن يستجيب لثقله الطين ﴿وخُلق الإنسان ضعيفاً﴾ [النساء: ٢٨] ﴿ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثمّ رددناه أسفل سافلين﴾ [سورة التّين: ٤ ـ ٥].

ومن ذلك ينشأ الشرّ في حياة الإنسان ويملأ وجه الأرض ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ [سورة الرُّوم: ٤١].

«وليس هذا الشر ناشئاً من الاستجابة إلى دوافع الجسم. فهذا بذاته لا ينشىء شراً، بل ينشأ عنه الخير حين يكون في الصورة التي وصفناه قبل قليل.

إنَّ الجسم ليس شريراً بذاته، ولا منبوذاً ولا محتقراً ولا ساقطاً من الحساب. فهو لم يُخلق عبثاً ـ تعالى الله عن العبث وعن عدم القصد.. وإنما الجسم هو وعاء الطاقة الحيوية العاملة النشيطة التي تعمّر الأرض، وتستخرج كنوزها وتستغل طاقاتها، وتنشىء وتبني وتنتج، فتسمح للحياة الإنسانية بالوجود والبقاء، والامتداد والارتقاء

والاستجابة لدوافع الجسم هي التي ينشأ عنها الوجود والحركة والعمل والإنتاج.. وكل ذلك مطلوب ومقصود، لأنه الأداة التي تقوم عليها خلافة الإنسان عن الله في الأرض، والتي بغيرها لا يكون لهذه الخلافة معنى ولا وجود.

فليس الجسم ولا الاستجابة لدوافعه هما منبع الشر في حياة الإنسان. إنما الشر ينشأ من نزوع الجسم قيادة الكيان المجتمع المترابط الذي ينبغي أن تتولى قيادته الروح، بحكم النشأة الطبيعية التي جعلت الإنسان إنساناً، ورفعته عن الحيوان. وقد كان قميناً أن يكون حيواناً لولا تلك النفخة العلوية في قبضة الطين.

وحين يلغي الإنسان كيانه الروحي [وهو تعبير مجازي، لأنه لا يحدث

بغير خلل وظيفي ـ أن يصبح الإنسان جسداً خالصاً بغير روح] أي حين يجعل الجسم هو صاحب القياد، فتنطمس إشعاعة الروح المضيئة وتخبو في عتامة الطين. فحينئذ يتبدأ الشر، وحينئذ يهبط الإنسان إلى مستوى أسوأ من مستوى الحيوان ـ رغم أنه ما زال محتوياً على عنصر الروح!

يهبط.. لأنه لا يستخدم طاقات روحه:

﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها. ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل. أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والإشارة إلى القلوب والأعين والآذان ليس مقصوداً بها الحواس الظاهرة بطبيعة الحال، وإنما المقصود ما وراءها من وعي وفهم وإدراك، والاستفادة بما يُرى ويُسمع ويُحس، في اتخاذ المنهج السوي واتخاذ الطريق المستقيم.

عندئذ يصبح الإنسان كالأنعام [أي كالحيوان] بل أضل.

أضل لأن الحيوان من ناحية ليس مطالباً بالارتفاع ولا قادراً عليه. وإنما هو على فطرته الطبيعية حين يأتي ما يأتي من أعمال. وليس من شأنه أن يقدّر «قيماً» لأعماله. ومن ثم فهو لا يختلف عن طبيعته ولا عن الدور المقدّر له في الحياة.

والحيوان من ناحية أخرى له غريزة تضبط أعماله وتقف بها عند الحد الملائم لفطرته، فتمنع عنه الإسراف والشطط بالنسبة للمقاييس الحيوانية وبالنسبة للقصد الذي يُقصده الخالق منه، وإن كان الحيوان ذاته يأتيه بلا وعي ولا اختيار.

أمّا الإنسان الذي لا يستفيد بطاقات روحه ـ مع أنه ما زال محتوياً على عنصر الروح ـ فهو أضل لأنه يخالف فطرته السوية ويهبط عنها، وفي الوقت ذاته يسرف ويشتط. لأنه ـ وقد عطّل الضابط الإرادي الذي وهبه له الله

متمثلاً في نفحة الروح ـ لا يملك الضبط الغريزي الذي يضبط تصرفات الحيوان.

ويكون ذلك شراً لا شك فيه، وانحرافاً عمَّا ينبغي أن يكون عليه الإنسان.

ولكنَّه كما قلنا انحراف «طبيعي» إذا ترك الإنسان وشأنه. لأنَّه ـ وهو مشتمل على استعداد الخير واستعداد الشر ـ فمن في هذه الحالة أن ينقلب وينتكس إلى أسفل بسبب ثقلة الطين. وعندئذٍ تصدق عليه كل التفسيرات المنحرفة التي تصور الحياة البشرية في صورة حيوانية، كالتفسير المادي للتاريخ، والتفسير الجنسي للسلوك البشري.

ولكنَّ الله لا يترك الإنسان وشأنه! لقد خلقه وهو يحبه ويعطف عليه ويريد له الخير..

ولذلك يرسل الرسل يُعرِّفونه بالمنهج الصحيح ويردونه إليه

والرسالات إذن ذات مهمة رئيسية في حياة البشرية، وليست نافلة تستغني عنها حين نريد

والإنسان يمكن أن يهتدي بهذا الهدي الإلهي، فيجعل لروحه قياد كيانه الممتزج المترابط، ويكون في وضعه الصحيح بالنسبة للفطرة. ويمكن أن يرفض الهدى، ويجعل القياد لجسمه وشهواته، فهو كالأنعام بل هو أضل. وهو منتكس بروحه إلى أسفل، غارق بكيانه في الطين

وهذا هو التفسير «النفسي» للخير والشر في كيان الإنسان.. وهو تفسير واضح بسيط، لا يتخبط تخبط «الفلسفات» التي تشطح هنا وتشطح هناك، وتتجافى المنبع الأصيل الذي ينبغي أن نرجع إليه في قياس الخير والشر في كيان الإنسان.. وهو فطرة ذلك الإنسان!»[1]

---

(١) .. دراسات في النفس الإنسانية: ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١.

إنّ هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه، مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر. كما أنّه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء. وأنّ هذه القدرة كامنة في كيانه، يُعبّر عنه القرآن بالإلهام تارة ﴿ونفس ما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾.. ويعبِّر عنه بالهداية تارة: ﴿فهديناه النَّجدين﴾.. فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد.. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنّما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك. ولكنها لا تخلقها خلقاً لأنّها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً.

وهنا إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان. هي التي تناط بها التبعة. فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها، وتغليبه على استعداد الشر.. فقد أفلح. ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب: ﴿قد أفلح من زكَّاها وقد خاب من دسَّاها﴾

وهناك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القدرة على الاختيار والتوجيه. توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء. فهي حرية تقابلها تبعة، وقدرة يقابلها تكليف، ومنحة يقابلها واجب..

ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة، وتكشف له عن موجبات الإيمان، ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة. وبذلك يتّضح له الطريق وضوحاً كاشفاً لا غبش فيه ولا شبهة فتتصرف القوة الواعية حينئذٍ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه.

وهذه هي جملتها مشيئة الله بالإنسان وكلّ ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام.

هذه النظرة المحملة[1] تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في المنهج التربوي:

فهي أولاً ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني، حين تجعله أهلاً لاحتمال تبعة اتجاهه، وتمنحه حرية الاختيار (في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار) فالحرية والتبعية يضعان هذا الكائن في مقام كريم، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده، وفضلها على كثير من العالمين.

وهي ثانيا تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره، وتجعل أمره بين يديه (في إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا) فتثير في حسّه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى وهو يعلم أنّ قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه: ﴿إنّ الله لا يُغيّر ما بقوم حتّى يُغيّروا ما بأنفسهم﴾. وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو!

وهي ثالثاً تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة، ليظل على يقين أنَّ هواه لم يخدعه، ولم يضلله، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه. وبذلك يظل قريباً من الله، يهتدي بهديه، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق! ومن ثمَّ فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية نفسه وتطهيرها، وهو يغتسل في نور الله الفائض، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود.

---

(١) يراجع بتوسع في نظرية الإسلام لمسبة كتاب «الإنسان بين المادية والإسلامية» لمحمد قطب، وكذلك طبيعة مزدوجة، وبحير والشر في النفس الإنسانية في كتاب «دراسات في النفس الإنسانية» لمحمد قطب أيضاً.

وبعد.. لقد شهدنا الإنسان أول يهبط إلى هذه الأرض مؤمناً بربه، مستغفراً لذنبه، مأخوذاً عليه عهد الخلافة أن يتبع ما يأتيه من ربه ولا يتبع الشيطان ولا الهوى، مزوداً بتلك التجربة الأولى في حياته

ثمَّ مضى به الزمن، وتقاذفته الأمواج في الخضم، وتفاعلت تلك العوامل المعقدة المتشابكة في كيانه ذاته وفي الوجود من حوله. تفاعلت في واقعه وفي ضميره.. ثمَّ ها نحن أولاء نشهد كيف صارت به هذه العوامل المعقدة المتشابكة إلى الجاهلية في فترات من تاريخه!!! إنَّه ينسى.. وقد نسي. إنَّه يضعف.. وقد ضعف.. إنَّ الشيطان يغلبه.. وقد غلبه.. ولا بد من الإنقاذ مرة أخرى!!! لقد هبط إلى هذه الأرض مهتدياً تائباً موحِّداً ولكن ها نحن أولاء نلتقي به في أيام من رحلته ضالاً مفترياً مشركاً!!! لقد تقاذفته الأمواج في الخضم.. ولكن هنالك معلماً في طريقه.. هناك الرسالة ترده إلى ربِّه. فمن رحمة ربه أن لا يتركه وحده!

نموذج مُكرَّر وسنة الله لا تتغيَّر :

إنَّ قصص الأنبياء والرسل تصوِّر طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس البشر، وتعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان. وتعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للكفر أيضاً.. إنَّ الذين آمنوا بكل رسول لم يكن في قلوبهم استكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله. ولم يعجبوا أن يختار الله واحداً منهم لينذرهم ويبشرهم. وأمَّا الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحد منهم.. كانوا هم الملأ من الحكام والكبار والوجهاء وذوي السلطان في قومهم. ومن هنا نعرف عقدة هذا الدين.. إنها عقدة الحاكمية والسلطان.. إمَّا طاعة الرَّحمن وإمَّا الهوى وطاعة الشيطان..

ونمضي مع القرآن مع سنة الله ورحمته بالناس، فهو سبحانه يستجيب

لهم في موقف الشدة والضيق ويحيط بهم الضرّ والكرب. ثمَّ إذا هم يعرضون ويكفرون:

﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله. إنّه كان بكم رحيماً. وإذا مسَّكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلّا إياه. فلمّا نجاكم إلى البر أعرضتم. وكان الإنسان كفورا﴾ [الإسراء: ٦٦، ٦٧]

والسياق يعرض هذا المشهد، مشهد الفلك في البحر، نموذجاً للحظات الشدة والحرج؛ لأنّ الشعور بيد الله في الخضم أقوى وأشد حساسية، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم، تتقاذفها الأمواج والتيارات والناس متشبّثون بهذه النقطة على كف الرحمن.

إنّه مشهد يحسّ به من كابده، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك صغيراً كان أو كبيراً حتى عابرات المحيط الجبارة التي تبدو في بعض اللحظات كالريشة في مهب الرياح على ثبج الموج الجبار! والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أن يد الله تزجي لهم الفلك في البحر وتدفعه ليبتغوا من فضله ﴿إنّه كان بكم رحيماً﴾ فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان.

ثمَّ يتنقل بهم من الإزجاء الرخي للاضطراب العتي. حين ينسى الركب في الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلّا الله، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر لا يدعون أحداً سواه: ﴿ضلّ من تدعون إلّا إيّاه﴾.

ولكنّ الإنسان هو الإنسان، فما إن تنجلي الغمرة، وتحس قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة، فينسى الله، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات، وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر: ﴿فلمّا نجاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾ إلّا من تصل قلبه بالله فأشرق واستنار.

وهنا يستجيش السياق القرآني وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي

تركوه في البحر وهو يلاحقهم في البر وهم يعودون إليه في البحر، ليشعروا أنّ الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه، لا في البحر ولا في البر، لا في الموجة الرخية والريح المواتية ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح:

﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً، ثمَّ لا تجدوا لكم وكيلاً؟ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم. ثمّ لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً؟﴾ [الإسراء: ٦٨، ٦٩].

إنَّ البشر في قبضة الله في كل لحظة وفي كل بقعة. إنهم في قبضته في البر كما هم في قبضته في البحر. فكيف يأمنون؟ كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله؟ أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلاً يحميهم ويدفع عنهم؟.

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحاً قاصفة، تقصف الصواري وتحطم السفن، فتغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم؟

ألا إنّها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا ثمَّ يأمنوا أخذه وكيده وهم يتجهون إليه وحده في الشدة ثم ينسونه بعد النجاة. كأنّها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله!

ويرسم القرآن صورة لتقلب الأهواء البشرية التي يعبث بها الشيطان: ﴿وإذا مسَّ الناس ضُرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه، ثمَّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربِّهم يُشركون، ليكفروا بما آتيناهم، فتمتَّعوا فسوف تعلمون﴾ [الروم ٣٣، ٣٤] إنَّها صورة للنفس البشرية التي لا تستمد من قيمة ثابتة،

ولا تسير على نهج واضح، صورة لهم وهي تتأرجح بين الانفعالات الطارئة، والتصورات العارضة. والاندفاعات مع الأحداث والتيارات فعند مس الضرّ يذكر الناس ربهم، ويلجأون إلى القوة التي لا عاصم إلاّ إياها، ولا نجاة إلاّ بالإنابة إليها. حتى إذا انكشفت الغمة، وانفرجت الشدة، وأذاقهم الله رحمة منه: ﴿إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾.. وهو الفريق الذي لا يستند إلى عقيدة صحيحة تهديه إلى نهج مستقيم. ذلك أنّ الرخاء يرفع عنهم الاضطرار الذي ألجأهم إلى الله؛ ويُنسيهم الشدة التي ردّتهم إليه. فيقودهم هذا إلى الكفر بما آتاهم الله من الهدى وما آتاهم من الرحمة، بدلاً من الشكر والاستقامة على الإنابة.

وهنا يعاجل هذا الفريق بالتهديد ﴿فتمتّعوا فسوف تعلمون﴾ .

وهو تهديد ملفوف، هائل مخيف. وإنّ الإنسان ليخاف من تهديد حاكم أو رئيس فكيف وهذا التهديد من فاطر هذا الكون الهائل، الذي أنشأه كله بقوله كن! ﴿فتمتّعوا فسوف تعلمون﴾!

ونمضي مع القرآن لنشهد رحمة الله التي تمنح الناس الفرصة بعد الفرصة للتحرر من عبودية الهوى والشيطان. نمضي مع القرآن وهو يواجه مواقف إنسانية متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكرّ الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقوام. يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى:

﴿ولقد أرسلنا إلى أُمم من قبلك. فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلّهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا. ولكن قست قلوبهم، وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٣].

إنّها المواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه. نموذج من الواقع التاريخي. نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له. وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الفرصة، ويسوق

إليهم التنبيه بعد التنبيه؛ فإذا نسوا ما ذكروا به، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة، كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذي لا تصلح معه للبقاء. فحقت عليهم كلمة الله. ونزل ساحتهم الدمار الذي لا تنجو منه ديار.

ولقد عرف الواقع البشري كثيراً من هذه الأمم، التي قص القرآن الكريم على الإنسانية خبر الكثير منها، قبل أن يوجد «التاريخ» الذي صنعه الإنسان! فالتاريخ الذي سجله هو الإنسان حديث المولد، صغير السن، لا يكاد يعي إلا القليل من التاريخ الحقيقي للبشر على ظهر هذه الأرض!

وهذا التاريخ الذي صنعه البشر - حافل على قصره - بالأكاذيب والأغاليط؛ وبالعجز والقصور عن الإحاطة بجميع العوامل المنشئة والمحركة للتاريخ البشري؛ والتي يكمن بعضها في أغوار النفس، ويتوارى بعضها وراء ستر الغيب، ولا يبدو منها إلا بعضها. وهذا البعض يخطىء البشر في جمعه، ويخطئون في تفسيره، ويخطئون أيضاً في تمييز صحيحه من زائفه - إلا قليلاً - ودعوى أي بشر أنه أحاط بالتاريخ البشري علماً، وأنه يملك تفسيره تفسيراً «علمياً»، وأنه يجزم بحتمياته المقبلة أيضاً. هي أكبر أكذوبة يمكن أن يدعيها بشر! ومن عجب أن بعضهم يدعيها! والأشد إثارة للعجب أن بعضهم يصدقها! ولو قال ذلك المدعي. إنه يتحدث عن (توقعات) لا عن (حتميات) لكان ذلك مستساغاً. ولكن إذا وجد المفتري من المغفلين من يصدقه فلماذا لا يفتري؟!

والله يقول الحق؛ ويعلم ماذا كان، ولماذا كان. ويقص على عباده - رحمة منه وفضلاً - جانباً من أسرار سنته وقدره؛ ليأخذوا حذرهم ويتعظوا؛ وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيراً كاملاً صحيحاً. ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون، استناداً إلى سنة الله التي لا تتبدل.. هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها..

وفي هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر في أمم شتى. أمم جاءتهم رسلهم، فكذبوا، فأخذهم الله بالبأساء والضراء في أموالهم وفي أنفسهم. في أحوالهم وأوضاعهم.. البأساء والضراء التي لا تبلغ أن تكون «عذاب الله» الذي تتحدث عنه آيات القرآن، وهو عذاب التدمير والاستئصال.

لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم، وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم. لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله، ويتذللون له، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم. ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة، فيرفع الله عنهم البلاء، ويفتح لهم أبواب الرحمة.. ولكنهم لم يفعلوا ما كان حرياً أن يفعلوا. لم يلجأوا إلى الله، ولم يرجعوا عن عنادهم، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم، ولم تفتح بصيرتهم، ولم تلين قلوبهم. وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد:

﴿ولكن قست قلوبهم، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾.

والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجّر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة. والشدة ابتلاء من الله للعبد، فمن كان حياً أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردته إلى ربه، وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه.. ومن كان ميتاً حسبت عليه، ولم تفده شيئاً، وإنما أسقطت عذره وحجته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب!

وهذه الأمم التي يقص الله - سبحانه - من أنبائها على رسوله ﷺ ومن وراءه من أمته.. لم تفد من الشدة شيئاً. لم تتضرع إلى الله، ولم ترجع عمّا زيّنه لها الشيطان من الإعراض والعناد.. وهنا يملي لها الله - سبحانه - ويستدرجها بالرخاء:

﴿فلمّا نسوا ماذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء. حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بَغْتَةً، فإذا هم مُبلسون. فقُطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله ربِّ العالمين﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

إنَّ الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة. وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة. يبتلي الطائعين والعُصاة سواء. بهذه وبذاك سواء.

والمؤمن يُبتلى بالشدة فيصبر، ويُبتلى بالرخاء فيشكر. ويكون أمره كله خيراً.. وفي الحديث: «عجباً للمؤمن إنَّ أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (رواه مسلم).

فأمّا هذه الأُمم التي كذبت بالرسل، والتي يقص الله من أنبائها.. فإنّهم لما نسوا ما ذُكِّروا به؛ وعلم الله - سبحانه - أنّهم مهلكون، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا.. فأمّا هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء..

والتعبير القرآني: ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع، والسلطان.. متدفقة كالسيول؛ بلا حواجز ولا قيود! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة!

إنّه مشهد عجيب، يرسم حالة في حركة، على طريقة التصوير القرآني العجيب.

﴿حتّى إذا فرحوا بما أُوتوا﴾.

وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة؛ واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها - بلا شكر ولا ذكر - فخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه؛ وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين

في اللهو والمتاع. وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق؛ وجرّ هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها.. عندئذٍ جاء موعد السنة التي لا تتبدل:

﴿أخذناهم بغتة. فإذا هم مبلسون﴾.

فكان أخذهم على غرة؛ وهم في سهوة وسكرة. فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة عاجزون عن التفكير في أي اتجاه. وإذا هم مُهلَكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم.

﴿فقُطع دابر القوم الذين ظلموا﴾.

ودابر القوم هو آخر واحد منهم يدبرهم أي يجيء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى!

لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة؛ ووراء ازدهار حضارتهم ثمَّ تدميرها، ذلك السرّ المغيب من قدر الله؛ وهذا القدر الظاهر من سنته، وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف

ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة، وكان لها من التمكين في الأرض؛ وكان لها من الرخاء والمتاع؛ ما لا يقل - إن لم يزد في بعض نواحيه - عمَّا تتمتع به اليوم أمم، مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع، مخدوعة بما هي فيه، خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء..

هذه الأمم لا تُدرك أنَّ هناك سنة، ولا تشعر أنَّ الله يستدرجها وفق هذه السنة. والذين يدورون في فلكها يبهرهم اللألاء الخاطف، ويتعاظمهم الرخاء والسلطان، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم، وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه، وهي تتمرد على سلطانه، وهي تدعي لأنفسها خصائص الوهية، وهي تعيث في الأرض فساداً، وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله..

وإذا كان قد وقع عذاب الاستئصال[1] بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية في البشرية ـ وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء ـ تذوق منها الكثير. على الرغم من هذا المتاع الوفير، ومن هذا الرزق الغزير!

إنَّ العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي، الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم، يكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع؛ وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء[2]! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمَّة، في مقابل شهوة أو شذوذ. وهي طلائع لا تخطىء على نهاية المطاف!

وليس هذا كله إلَّا بداية الطريق. وصدق رسول الله ﷺ الذي قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ـ على معاصيه ـ ما يحب فإنما هو استدراج». ثمَّ تلا: ﴿فلمَّا نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتَّى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ [رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم].

ومن يتنكب طريق الله ورسله فقد استحوذ عليه الشيطان، فهو يزين له مخالفة شرع الله.

﴿تالله لقد أرسلنا إلى أُمم من قبلك فزيَّن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليُّهم اليومَ ولهم عذاب أليم﴾ [النحل: ٦٣].

---

(١) قال الله سبحانه عن الظالمين: ﴿فكلًّا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا. وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [العنكبوت: ٤٠].

(٢) يراجع بتوسع فصل: «تخبط واضطراب» في كتاب: «الإسلام ومشكلات الحضارة».

ويكشف القرآن عن سلطان الله في قلوب الناس، وهم بعد في الأرض، فكثيرون يستكبرون عن الإيمان بالله. فالله قد قيض لهم - بما اطلع على فساد قلوبهم - قرناء سوء من الجن ومن الإنس، يزينون لهم السوء، ويستهوون بهم إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران، وحقت عليهم كلمة العذاب.

﴿وقيضنا لهم قرناء فزيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وحقّ عليهم القول في أُمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، إنَّهم كانوا خاسرين﴾ [فصِّلت: ٢٥].

فلينظروا كيف هم في قبضة الله الذي يستكبرون عن عبادته. وكيف أنّ قلوبهم التي بين جنوبهم تقودهم إلى العذاب والحسرة وقد قيض الله وأحضر قرناء يوسوسون لهم، ويزينون لهم كل ما حولهم من السوء، ويحسنون لهم أعمالهم فلا يشعرون بما فيها من قبح. وأشد ما يصيب الإنسان أن يفقد حساسيته بقبح فعله وانحرافه، وأن يرى كل شيء من شخصه حسناً ومن فعله! فهذه هي المهلكة وهذا هو المنحدر الذي ينتهي دائماً بالبوار. وإذا هم في قطيع السوء، في الأمم التي حقّ عليها وعد الله من قبلهم من الجن والإنس قطيع خاسرين **﴿إنّهم كانوا خاسرين﴾**.

﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا﴾ . [سورة فاطر: ٧].

«إنَّه نموذج الضال الهالك البائر الصائر إلى شر مصير. ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين. هو هذا الغرور هو هذا الستار الذي يعمي قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق. ولا يحس عملاً لأنّه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء. ولا يصلح خطأ لأنّه واثق أنّه لا يخطىء! ولا يصلح فسداً لأنّه مستيقن أنّه لا يفسد! ولا يقف عند حد لأنّه يحسب أنّ كل خطوة من خطواته إصلاح! إنّه باب الشر. وبافته السوء. ومفتاح الضلال الأخير».

ويدع السؤال بلا جواب... **﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه**

حسناً؟﴾ .. ليشمل كل جواب يخطر بالبال. أفهذا يرجى له صلاح ومتاب؟ أفهذا كمن يحاسب نفسه ويراقب الله؟ أفهذا يستوي مع المتواضعين الأتقياء؟ .. إلى آخر صورة الإجابة على مثل هذا السؤال. وهو أسلوب كثير التردد في القرآن.

﴿أفمن كان على بيِّنة من ربِّه. كمن زُيِّن له سوء عمله واتَّبعوا أهواءهم؟﴾ ..

فهو فرق أصيل في الحالة التي عليها الفريقان، وفي المنهج والسلوك سواء. فالذين آمنوا على بيِّنة من ربِّهم .. رأوا الحق وعرفوه، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه، وهم على يقين ممَّا يتلقون. غير مخدوعين ولا مضللين. والذين كفروا زُيِّن لهم سوء عملهم، فرأوه حسناً وهو سيِّئ، ولم يروا ولم يستيقنوا، ﴿واتَّبعوا أهواءهم﴾. فلا ضابط يرجعون إليه، ولا أصل يقيسون عليه، ولا نور يكشف لهم الحق عن الباطل. أهؤلاء كهؤلاء؟ إنهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً. فلا يمكن أن يتَّفقوا ميزاناً ولا جزاءً ولا مصيراً!

﴿ومن يعش عن ذكر الرَّحمـن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين. وإنَّهم ليصدُّونهم عن السبيل ويحسبون أنَّهم مهتدون﴾ [الزخرف: ٣٥]

والعشى كلال البصر عن الرؤية. وغالباً ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع الذي لا تملك العين أن تحدق فيه. أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله. وقد يكون ذلك لمرض خاص. والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرَّحمن واستشعار وجوده ورقابته في الضمير.

وقد قضت مشيئة الله في خلقه الإنسان ذلك. واقتضت أنَّه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه، ويصبح له قرين سوء يوسوس له، ويزين له السوء. وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن

هذه المشيئة لكلية الثابتة، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب، كما قضاه الله في علمه

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون. وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين. أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة؛ ثمَّ لا يدعه يفيق، أو يتبين الضلال فيثوب، إنَّما يوهمه أنَّه سائر في الطريق القاصد القويم! حتى يصطدم بالمصير الأليم.

﴿حتَّىٰ إذا جاءنا قال: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين. فبئس القرين﴾!

وهكذا ننتقل في ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة. ويطوى شريط الحياة السادرة، ويصل العمي (الذين يعشون عن ذكر الرَّحمن) إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار. هنا يتبينون كما يفيق المخمور، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال؛ ويبصر الواحد منهم إلى قرين السوء الذي زين له الضلال، وأوهمه أنَّه الهدى! وقاده في طريق الهلاك، وهو يلوح له بالسلامة! ينظر إليه في حنق. ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾! يا ليته لم يكن بيننا لقاء. على هذا البعد السحيق! ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله: ﴿فبئس القرين﴾!

ونسمع كلمة التيئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع:

﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنَّكم في العذاب مشتركون﴾!

فالعذاب كامل لا تخففه الشركة، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون! ﴿ومن يكن الشَّيطان له قريناً فساء قريناً﴾ [النساء: ٣٧].

حقائق ولمسات:

لقد انطلقت البشرية من نقطة البدء، ممثلة في شخصين اثنين.. آدم

وزوجه.. أبوي البشر.. وانطلق معهما الشيطان مأذوناً من الله في غوايتهما وذراريهما ومأخوذاً عليهما عهد الله وعلى ذراريهما كذلك. ومبتلي كلاهما وذراريهما معهما بقدر من الاختبار: ليأخذوا عهد الله بقوة ولتركوا إلى الشيطان عدوهم وعدو أبويهم الذي أخرجهما من الجنة؛ وليسمعوا الآيات التي يحملها إليهم ذلك الرهط الكريم من الرسل على مدار التاريخ، أو يسمعوا غواية الشيطان الذي لا يني يجلب عليهم بخيله ورجله، ويأتيهم عن أيمانهم وشمائلهم!

لقد انطلقت القافلة في طريقها، وواجهها الرسل بالهدى، وتحركت العقيدة مع التاريخ البشري بعد آدم وزوجه وتجربتهما الأولى. هذا وقد كرّم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه. كرّمه بخلقته على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان!

وكرّمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته، والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشىء، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة.

وكرّمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك..

وكرّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جلّ شأنه تكريم هذا الإنسان!

وكرّمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض.. القرآن.. ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيّبات، وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٠].

والحمل في البر والبحر ثم تسخير النواميس وجعلها موافقة لطبيعة الحياة الإنسانية وما ركب فيها من استعدادات. ولو لم تكن هذه النواميس موافقة للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية. وهي ضعيفة ضئيلة بالقياس إلى العوامل الطبيعية في البر والبحر. ولكن الإنسان مزود بالقدرة على الحياة فيها. ومزود كذلك بالاستعدادات التي تمكنه من استخدامها وكله من فضل الله.

والإنسان ينسى ما رزقه الله من الطيبات بطول الألفة فلا يذكر الكثير من هذه الطيبات التي رزقها إلا حين يُحرمها فعندئذ يعرف قيمة ما يستمتع به، ولكنه سرعان ما يعود فينسى.. هذه الشمس. هذا الهواء. هذا الماء. هذه الصحة. هذه القدرة على الحركة. هذه الحواس. هذا العقل. هذه المطاعم والمشارب والمشاهد.. هذا الكون الطويل العريض الذي استخلف فيه. وفيه من الطيبات ما لا يحصيه ﴿وإن تعدُّوا نعمة الله لا تُحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤] فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر، أو كل البشر، وكلهم محدودون بين حدين من الزمان: بدء ونهاية. وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان. ونعم الله مطلقة - فوق كثرتها - فلا يحيط بها إدراك إنسان.

وحين يستيقظ ضمير الإنسان، ويتطلع إلى الكون من حوله، فإذا هو مسخر له، إمَّا مباشرة، وإمَّا بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم، ويتأمل فيما حوله فإذا هو معين له بقدرة الله، ذلول له بتسخير الله.. حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر.. لا بد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر، ويتطلع دائماً إلى ربَّه المنعم: حين يكون في الشدة ليبدله منها يُسراً، وحين يكون في الرخاء ليحفظ عليه النعماء.

ذلك فضل الله ﴿وفضَّلناهم على كثير ممَّن خلقنا تفضيلاً﴾.. فضَّلناهم بهذا الاستخلاف في ملك الأرض الطويل العريض. وبما ركب في

فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنساني فذاً بين الخلائق في مُلك الله..

ومن التكريم أن يكون الإنسان قيّماً على نفسه، محتملاً تبعة اتجاهه وعمله فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنساناً حرية الاتجاه وفردية التبعة وبها استخلف في دار العمل فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب.

لقد شهدنا انطلاقة البشرية من هناك.. من عند ربها سبحانه.. انطلقت إلى الأرض. تعمل وتسعى، وتكدّ وتشقى، وتصلح وتُفسد، وتعمر وتخرب، وتتنافس وتتقاتل، وتكدح لكدح لدي لا يجو منه شقي ولا سعيد ﴿يا أيُّها الإنسان إنَّك كادح إلى ربِّك كدحاً فملاقيه﴾ [الانشقاق. ٦].

إنَّه النداء العلوي للإنسان: ﴿يا أيُّها الإنسان﴾. الذي خلقه ربه بإحسان؛ والذي ميّزه بهذه «الإنسانية» التي تفرده في هذا الكون بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه، وأطوع لأمره من الأرض والسماء. وقد نفخ فيه من روحه، وأودعه القدرة على الاتصال به، وتلقي قبس من نوره، والفرح باستقبال فيوضاته، والتطهّر بها أو الارتفاع إلى غير حد، حتى يبلغ الكمال المقدّر لجنسه، وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة!

﴿يا أيُّها الإنسان إنَّك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾. يا أيُّها الإنسان إنَّك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحاً، تحمل عبئك، وتجهد جهدك، وتشق طريقك.. لتصل في النهاية إلى ربك. فإليه المرجع وإليه المآب. بعد الكدّ والكدح والجهد.. يا أيُّها الإنسان.. إنَّك كادح حتى في متاعك.. فأنت لا تبلغه في هذه الأرض إلاّ بجهد وكدّ. إن لم يكن جهد بدن وكدّ عمل، فهو جهد تفكير وكدّ مشاعر. الواجد والمحروم سواء. إنَّما يختلف نوع الكدح ولون العناء. وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة

الإنسان. ثمّ النهاية في آخر المطاف إلى الله سواء.

يا أيّها الإنسان... إنّك لا تجد الراحة في الأرض أبداً. إنّما الراحة هناك، لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام... التعب واحد في الأرض والكدح واحد - وإن اختلف لونه وطعمه - أمّا العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك... فواحد إلى عذاب دونه عناء الأرض. وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنّه لم يكن كدح ولا كد..

يا أيّها الإنسان الذي امتاز بخصائص الإنسان... ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذي خصّك به الله، اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه.

تلك هي الحقيقة الصحيحة البارزة والله يهتف بالناس ﴿يا أيّها الناس إنّ وعد الله حق فلا تغرّنّكم الحياة الدنيا. ولا يغرّنّكم بالله الغرور. إنّ الشّيطان لكم عدوٌّ فاتّخذوه عدوّاً إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ [فاطر: ٥، ٦] إنّ وعد الله حق... إنّه آت لا ريب فيه. إنّه واقع لا يتخلف. إنّه حق والحق لا بد أن يقع. والحق لا يضيع ولا يبطل ولا يتبدد ولا يحيد. ولكنّ الحياة الدنيا تغرّ وتخدع. ﴿فلا تغرّنّكم الحياة الدّنيا﴾. ولكنّ الشيطان يغرّ ويخدع فلا تمكّنوه من أنفسكم ﴿ولا يغرّنّكم بالله الغرور﴾... والشّيطان قد أعلن عداءه لكم وأصرّ على عدائكم ﴿فاتّخذوه عدوّاً﴾ لا تركنوا إليه، ولا تتّخذوه ناصحاً لكم، ولا تتّبعوا خطاه ﴿ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين﴾ [البقرة: ١٦٨]، فالعدو لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل! وهو لا يدعوكم إلى خير، ولا ينتهي بكم إلى نجاة. ﴿إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾! فهل من عاقل يجيب دعوة الداعي إلى عذاب السعير؟!

إنّها لمسة وجدانية صادقة. فحين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان، فإنّه يتحفز بكل قواه وبكل يقظته وبغريزة

الدوافع عن النفس وحمية الذات بتحفّز لدفع الغواية والإغراء؛ ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه، ويتحسس من كل هجسة، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذي أقامه له ليتبين، فلعلّها خدعة مستترة من عدوه القديم!

وهذه هي الحالة الوجدانية التي يريد القرآن أن ينشئها في الضمير. حالة التوحز والتحفز لدفع وسوسة الشيطان بالعداوة؛ كما يتوحز الإنسان ويتحفز لكل بادرة من عدوه وكل حركة خفية! حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه، وضد هواتفه المستترة في النفس، وأسبابه الظاهرة للعيان. حالة الاستعداد الدائم للمعركة التي لا تهدأ لحظة ولا تضع أوزارها في هذه الأرض أبداً.

ثمَّ يدعم هذه التعبئة وهذا الحذر وهذا التوفز ببيان عاقبة الكافرين الذين لبّوا دعوة الشيطان، وحالة المؤمنين الذين طاردوه ﴿الَّذين كفروا لهم عذاب شديد. والَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾.

إنَّ تتابع الأجيال في الأرض، وذهاب جيل ومجيء جيل، ووراثة هذ لذلك، وانتهاء دولة وقيام دولة، وانطفاء شعلة وتّقاد شعلة. وهذا الدثور والظهور المتواليان على مرّ الدهور... إنَّ التفكير في هذه الحركة الدائبة حليق أن يجد للقلب عبرة وعظة، وأن يشعر الحاضرين أنَّهم سيكونون بعد حين غابرين، يتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذاكرون أخبارهم، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذاكرون أخبارهم. وجدير بأن يوقظ الغافلين إلى اليد التي تدير الأعمار، وتقلب الصولجان. وتبدل الدول، وتورث الملك، وتجعل من الجيل خليفة لجيل... وكل شيء يمضي وينتهي ويزول، والله وحده هو الباقي الدائم الذي لا يزول ولا يحول.

ومن كان شأنه أن ينتهي ويمضي، فلا يخلد ولا يبقى. من كان شأنه أنَّه سائح في رحلة ذات أجل، وأن يعقبه من بعده ليرى ماذا ترك وماذا عمل، وأن يصير في النهاية إلى من يحاسبه على ما قال وما فعل ﴿وَقِفُوهم إنَّهم

مسؤولون﴾ [الصَّافات ٢٤] من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثواءه القليل، ويترك وراءه الذكر الجميل، ويقدم بين يديه ما ينفعه في مثواه الأخير. هذه بعض الخواطر التي تساور الخاطر، حين يوضع أمامه الدثور والظهور، والطلوع والأفول، والدول الدائلة، والحياة الزائلة، والوراثة الدائبة جيلاً بعد جيل: ﴿هو الَّذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ [فاطر: ٣٩]..

وفي ظل هذا المشهد المؤثر المتتابع للمنظر، يُذكِّر الله سبحانه بفردية التبعة، فلا يحمل أحد عن أحد شيئاً، ولا يدفع أحد عن أحد شيئاً؛ ويشير إلى ما هم فيه من إعراض وكفر وضلال، وعاقبته الحسرة في نهاية المطاف: ﴿فمن كفر فعليه كفره. ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلاَّ مقتاً. ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاَّ خساراً﴾.

والمقت أشد البغض. ومن يمقته ربه فأي خسران ينتظره؟ وهذا المقت في ذاته خسران يفوق كل خسران؟!

ويلمس القرآن على فردية التبعة لمسة وحدانية موحية ﴿ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى. وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يُحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ [فاطر: ١٨].

إنَّها حقيقة صادقة واقعة. والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر؛ لأنَّ الحقيقة حين تجلى أفعل في النفس؛ ولأنَّه هو الحق وبالحق نزل. فلا يتحدث إلَّا بالحق، ولايقنع إلَّا بالحق، ولا يعرض إلَّا الحق، ولا يشير بغير الحق..

إنَّ البشرية التي انطلقت من هناك.. من عند ربها سبحانه.. ها هي ذي تؤوب! ها هي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال.. ها هي ذي تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة.. من ورد وشوك. ومن غال ورخيص، ومن ثمين وزهيد، ومن خير وشر، ومن حسنات وسيئات، ها

هي دي تعود في أصبين لوم. فقد انطلقت في مصنعه!.

وحقيقة فردية التبعة ولجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي، وفي السلوك العملي سواء. فشعور كل فرد بأنه مجزيٌّ بعمله، لا يؤاخذ بكسب غيره، ولا يتخلص هو من كسبه، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تُحاسب! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر: ٣٨]

إنها الحقيقة المثيرة الخطيرة. يعلن القرآن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها؛ ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها؛ ويعلن أنها محسوبة بما تكسبه باختيارها، مرهونة بأعمالها وأوزارها. ﴿ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثمّ إلى ربّكم مرجعكم فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [الأنعام: ١٦٤].

فكل فرد يحمل همّ نفسه وتبعتها، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها، يتقدّم بها أو يتأخر، ويكرمها أو يهينها. فهي رهينة بما تكسب، مقيدة بما تفعل. وقد بيّن الله للنفوس طريقه لتسلك إليه على بصيرة ﴿ومن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الإسراء: ١٥].

فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه: إن اهتدى فلها، وإن ضلّ فعليها. وما من نفس تحمل وزر أخرى، وما من أحد يخفف حمل أحد. إنّما يُسأل كلٌّ عن عمله، ويجزى كلٌّ بعمله ولا يسأل حميم حميماً. ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربّك بظلّامٍ للعبيد﴾ [فصّلت: ٤٦]!

إنّه التأكيد على مبدأ التبعة الفردية. ولمن شاء أن يختار: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثمّ إلى ربّكم تُرجعون﴾ [الجاثية: ١٥] والأمر لله في النهاية، وإليه المرجع والمآب.

إنّ الله ـ سبحانه ـ غني عن خلقه أجمعين: ﴿إن تكفروا فإنّ الله غنيٌّ عنكم، ولا يرضى لعباده الكفر. وإن تشكروا يرضه لكم. ولا تزر وازرة وزر أخرى. ثمّ إلى ربّكم مرجعكم فينبّئكم بما كنتم تعملون. إنّه عليم بذاتِ الصدوَر﴾ [الزُّمر: ٧]

وأمام هذه الرؤية الواضحة، يقفهم أمام أنفسهم في مفرق الطريق بين الكفر والشكر، وأمام التبعة الفردية المباشرة في اختيار الطريق. ويلوّح لهم بنهاية الرحلة، وما ينتظرهم هنالك من حساب، يتولاه الذي يخلقهم. والذي يعلم ما تكنُّ صدورهم من خفايا الصدور. إنّ هذه المرحلة في بطون الأمّهات هي مرحلة في الطريق الطويل. تليها مرحلة الحياة خارج البطون. ثمّ تعقبها المرحلة الأخيرة في مرحلة الحساب والجزاء بتدبير المبدع العليم الخبير: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين. ثمّ خلقنا النطفة علقة. فخلقنا العلقة مضغة. فخلقنا المضغة عظاماً. فكسونا العظام لحماً. ثمّ أنشأناه خلقاً آخر. فتبارك الله أحسن الخالقين. ثمّ إنّكم بعد ذلك لميّتون. ثمّ إنّكم يوم القيامة تُبعثون﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦].

والله ـ سبحانه ـ غني عن العباد الضعاف المهازيل، إنّما هي رحمته وفضله أن يشملهم بعنايته ورعايته، وهم من هم من الضعف والهزل! فإيمان العباد لا يزيد في ملكه شيئاً. وكفرهم لا ينقص منه فتيلاً. ولكنّه لا يرضى عن كفر الكافرين ولا يحبه: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾.. ويعجبه ـ سبحانه ـ شكر العباد ـ ويحبه لهم، ويجزيهم عليه خيراً ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾. وكل فرد مأخوذ بعمله، محاسب على كسبه؛ ولا يحمل أحد عبء أحد. فلكل حمله وعبؤه[1]. والمرجع في النهاية إلى الله دون سواه؛ ولا

(١) يراجع فصل «فردية التبعة» في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن» ص ٣٢ ـ ٣٩

مهرب منه ولا ملجأ عند غيره. ولا يخفى عليه من أمر العبد شيء ﴿إنَّه عليم بذات الصدور﴾..

هذه هي العاقبة. وتلك هي دلائل الحق. وهذا هو مفرق الطريق.. ولكل أن يختار. عن بيِّنة. وعن تدبر. وبعد العلم والتفكير.. والتوجيهات المكررة في القرآن ترفع تصورات الناس وتوجههم إلى ثبات السنن الإلهية واطراد النواميس.. إنها توجيهات لإيقاظ القلوب من الغفلة التي تسدر فيها، فلا تقف. وإذا وقفت لا تحس. وإذا أحسَّت لا تعتبر.. هذا كله والشيطان متربص للإنسان..

إنَّ الإنسان بعد هذا البيان القرآني لجدير أن يرتعش فيعيش بعين مفتوحة وقلب يقظ. ويتأمل ما كان ممَّن سبقه في هذه الرحلة البشرية وما صاروا إليه.. كل أولئك خليق أن تستقر في القلب ظلال وإيحاءات ومشاعر وتقوى.. والله سبحانه قد أحاط علمه بكل شيء في السَّماوات والأرض؛ وتقوم قدرته إلى جانب علمه، فلا يند عن علمه شيء، ولا يقف لقدرته شيء. ومن ثمَّ لا يعجزه شيء في السَّماوات والأرض. ولا مهرب من قدرته ولا استخفاء من علمه. ولكنه حليم كريم: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة. ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمّى. فإذا جاء أجلهم فإنَّ الله كان بعباده بصيراً﴾ [فاطر: ٤٥].

ويكشف القرآن عن حلم الله ورحمته إلى جانب قوته وقدرته؛ ويؤكد أنَّ إمهال الناس عن حلم وعن رحمة، لا يؤثر في دقة الحساب وعدل الجزاء في النهاية..

إنَّ ما يرتكبه الناس من كفر لنعمة الله، ومن شر في الأرض وفساد، ومن ظلم في الأرض وطغيان. إنَّ هذا كله لفظيع شنيع ولو يؤاخذ الله الناس به، لتجاوزهم ـ لضخامته وشناعته وبشاعته ـ إلى كل حي على ظهر هذه الأرض. ولأصبحت الأرض كلها غير صالحة للحياة إطلاقاً. لا لحياة البشر

فحسب، ولكن لكل حياة أخرى!

والتعبير على هذا النحو يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته وأثره المفسد المدمر للحياة كلها لو أخذهم الله به مؤاخذة سريعة. غير أن الله حليم لا يعجل على الناس ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمًى﴾

يؤخرهم أفراداً إلى آجالهم الفردية حتى تنقضي أعمارهم في الدنيا. ويؤخرهم جماعات إلى آجالهم في الخلافة المقدرة لهم حتى يسلموها إلى جيل آخر. ويؤخرهم جنساً إلى أجلهم المحدد لعمر هذا العالم ومجيء الساعة الكبرى. ويفسح لهم في الفرصة لعلهم يحسنون صنعاً. فإذا جاء أجلهم.. وانتهى وقت العمل والكسب، وحان وقت الحساب والجزاء، فإن الله لن يظلمهم شيئاً: فإن الله كان بعباده بصيراً. وبصره بعباده كفيل بتوفيتهم حسابهم وفق عملهم وكسبهم، لا تفوت منهم ولا عليهم كبيرة ولا صغيرة.

ووعد الله لا يستقدم لاستعجال البشر، ولا يستأخر لرجائهم في تأخيره: ﴿إنَّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾ [نوح: ٤] فكل شيء عند الله بمقدار. وكل أمر مرهون بوقته المرسوم. ﴿هو الذي خلقكم من طين، ثمَّ قضى أجلاً. وأجلٌ مسمًى عنده، ثمَّ أنتم تمترون﴾ [الأنعام: ٢].

إنها لمسة الوجود الإنساني. لمسة الحياة الإنسانية.. وإلى جانبها لمسة أخرى متداخلة: لمسة الأجل الأول المقضي للموت، والأجل الثاني المسمّى للبعث. لمستان متقابلتان.. وبينهما مسافة هائلة في الكنه والزمن.. ومن شأن هذا كله أن ينقل إلى القلب البشري اليقين بتدبير الله، واليقين بلقائه.. فالأمور إنما تقع في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه، وكل حادث في إبانه، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدَّر المرسوم في إمام مبين. ويتساءل

أولئك المحجوبون عن إدراك حكمة الله في الحياة ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟﴾ [يس: ٤٨]..

أمَّا الرد على هذا السؤال المنكر فيجيء في مشهد من مشاهد القيامة يرون فيه كيف يكون، لا متى يكون.. ﴿ما ينظرون إلَّا صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يخصِّمون. فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون. ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربِّهم ينسلون. قالوا: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ هذا ما وعد الرَّحمن وصدق المرسلون. إن كانت إلَّا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ [يس: ٤٩ - ٥٣].

يسأل المكذِّبون: متى هذا الوعد.. فيكون الجواب مشهداً خاطفاً سريعاً.. صيحة تصعق كل حي، وتنتهي بها الحياة والأحياء.. فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة. لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حساباً.. فإذا هم منتهون. كلٌّ على حاله التي هو عليها لا يملك أن يوصي بمن بعده. ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة.. وأين هم؟ إنهم مثله في أماكنهم منتهون!

لقد انطلقت رحلة الحياة البشرية ممثلة في آدم وزوجه.. أبوي البشر.. وانطلق معهما الشيطان.. مأذوناً من الله في غوايتهما وغواية ذراريهما..

إنها رحلة الإنسان.. كل إنسان.. رحلة واحدة تبدأ من الميلاد، وتمر بالموت، وتنتهي بالبعث والحساب.. رحلة واحدة متصلة بلا توقف؛ ترسم للقلب البشري طريقه الوحيد الذي لا فكاك عنه ولا محيد؛ وهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الله لا يتملص ولا يتفلت، وتحت رقابته التي لا تفتر ولا تغفل.. وإنها لرحلة رهيبة تملأ الحسّ روعة ورهبة.. وكيف يأمن إنسان في قبضة الجبار، المطَّلع على ذات الصدور؟ وكيف يأمن غضبه هو الواحد الديَّان، الذي لا ينسى ولا يغفل ولا ينام!

إنها لمسة رهيبة محيطة ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير. له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ... وهو عليم بذات الصدور﴾ [الحديد: ٤ ـ ٦].

وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز. فالله سبحانه ـ مع كل أحد، ومع كل شيء، في كل وقت، وفي كل مكان، مطلع على ما يعمل بصير بالعباد. وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب. حقيقة مذهلة في جانب، ومؤنسة من جانب. مذهلة بروعة الجلال، ومؤنسة بظلال القربى. وهي كفيلة وحدها حين يحسها القلب البشري على حقيقتها أن ترفعه وتطهره. وتدعه مشغولاً بها عن كل أعراض الأرض؛ كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة، مع الحياء والتحرج من كل دنس ومن كل إسفاف.

إن رقابة الله لا تدع الإنسان لحظة واحدة من المولد، إلى الممات، إلى البعث، إلى الحشر، إلى الحساب. وهي رقابة شديدة رهيبة. تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً. فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبداً، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً، ولا تفارقه كثيراً ولا قليلاً. كل نفس معدود، وكل هاجسة معلومة. وكل لفظ مكتوب، وكل حركة محسوبة. والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب، كما هي مضروبة على حركة الجوارح. ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة، المطّلعة على السر والنجوى اطّلاعها على العمل والحركة، في كل وقت وفي كل حال.

لقد خلق الله الإنسان؛ فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره.

وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر. وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله، تمهيداً ليوم الحساب! وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لا بد أن يرتعش ويحاسب. ولو استحضر القلب مدلول

هذه الحقيقة ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها. ولا جرؤ على هجسة في الضمير لا تنال القبول. وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة. ورقابة الله مسلطة على الضمائر والأسرار. فكيف؟ كيف يهدأ الإنسان في هذه القبضة وتحت هذه الرقابة ينسى يوم الحساب؟!

تلك صفحة الحياة. صفحة البداية. ووراءها في كتاب الإنسان صفحة العودة إلى الله ﴿كما بدأكم تعودون﴾ ﴿ثمّ رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ [الأنعام: ٦٢].

الجزاء والحساب الختامي :

إنّ قضية الحساب والجزاء في الدار الآخرة قاعدة أساسية في العقيدة الإسلامية؛ قاعدة تقوم عليها العقيدة، ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة، قاعدة لا يقوم دين الله ـ عقيدة وتصوراً، وخلقاً وسلوكاً، وشريعة ونظاماً ـ إلاّ عليها وبها..

وكل جزئية في شريعة الله وتصميمه منظور فيها إلى حقيقة الحياة الآخرة، وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع، وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة، وما تنشئه في الحس من تحرج وتقوى، وما تنشئه في النشاط الإنساني من تسديد وثقة وتصميم.

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين في الآخرة. ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة. والاعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأنّ وراء الحياة حكمة، وأنّ الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة، ومن ثمّ لا بد أن يلقى جزاءه، فإن لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر، الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدّر لها. أمّا الذين يزيغون عن

منهج الله وحكمه في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب..

وفي هذا ضمان للفطرة السليمة ألا تنحرف. فإن غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادت تائبة. ولم تلج في العصيان. ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر، وتمضي الحياة على سنتها في طريق الخير. والاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقاً للثواب في الحياة الأخرى فحسب - كما يعتقد بعض الناس - إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا والحافز على إصلاحها وإنمائها على أن يراعى في هذا النماء أنه ليس هدفاً في ذاته. وإنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه، وكرّمه على كثير من خلقه، ورفعه عن درك الحيوان، لتكون أهداف الحياة أعلى من ضرورات الحيوان. ولتكون دوافعه ورغباته أرفع من دوافع الحيوان ورغباته وهكذا ترتبط الدنيا بالآخرة، والمبدأ بالمصير، والعمل بالجزاء، والتي تشعر الإنسان أنه ليس نفياً مهملاً، وأنه لم يُخلق عبثاً. ولن يترك سدى، وأنّ العدالة المطلقة في انتظاره، ليطمئن قلبه، ويفيء إلى العمل الصالح، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف»[1].

والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء، وبأنّ حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان. وبأنّ الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء

«وشعور الإنسان بأنّ خلاصه محسوبة في الآخرة يغير من تصوراته ومن حوافزه ومن أهدافه، ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بمصيره كله. فيزيدها قوة وفاعلية. لأنّ هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله. ومن ثمّ يتقوى الإنسان ويسيطر على تصرفات هذا الكائن، لأنّ الرقيب الحارس قد استيقظ ولأنّ الحساب الختامي ينتظره هناك. ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره في الحساب الختامي.

---

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن، ص ١٨، ١٩.

إنّها مسألة كبيرة هذه الإيمان: الإيمان بالآخرة. مسألة أساسية في حياة البشر. إنّها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء. وإنّها إمّا أن تكون فيكون الإنسان، وإمّا ألّا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان»[1].

وهنا في قصة آدم عليه السّلام نجد في التعقيب عليها في القرآن الكريم مشاهد طويلة من مشاهد القيامة[2]، كثيرة التفصيل، حافلة بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع.

والقرآن الكريم يبادر بتصوير مشهد النهاية، نهاية المرحلة الكبرى، وذلك على طريقة القرآن العامة في عرض الرحلة بشطريها في دار الابتلاء وفي دار الجزاء، كأنّما هي رحلة متصلة محدودة. نجد ذلك وموقعه في السور تعقيباً على قصة آدم وخروجه من الجنّة بغواية إبليس له ولزوجه؛ وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنّة؛ وإخبارهم أنّه سيرسل إليهم رسلاً يقصّون عليهم آياته. موقعه كذلك يجعله مصداق لما يجيء به أولئك الرسل. فإذا الذين أطاعوا الشيطان قد حُرموا العودة إلى الجنّة، ونُسوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها؛ وإذا الذين خالفوا الشيطان وأطاعوا الرحمن قد رُدّوا إلى الجنّة ونودوا ﴿أن تلكم الجنّة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ [الأعراف: ٤٣]. فعاد المغتربون إلى دار النعيم!!!

إنّ الإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الإيمان بالله وفق التصور الإسلامي، والذي يقوم على أساس أنّ الله خلق الإنسان ليستخلفه في الأرض بعهد منه وشرط، بتحول كل صغيرة وكبيرة من نشاطه في هذه الأرض، وأنّه خلقه واستخلفه ليبتليه في حياته الدنيا، ثمّ ينال جزاءه بعد نهاية الابتلاء.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢ ـ ٢٣

(٢) انظر: سورة الأعراف، الآية: ٢٥ ـ ٥٣. وسورة الحجر ٤٣ ـ ٤٨.

والموت نهاية كل حي، ولا يتفرد بالبقاء إلَّا الله ـ سبحانه ـ، وهو قدر الله، ومن ثمَّ لا يفلت منه أحد، وكل نفس معدودة الأنفاس، متروكة لأجل لا تعلمه ـ فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه ـ بينما هو مرسوم محدود في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر. وملك الموت يتوفى الأنفس حين ينتهي الأجل ﴿قل يتوفَّاكم ملكُ الموت الذي وُكِّل بكم﴾ [السجدة: ١١]. ﴿كلُّ نفس ذائقة الموت وإنَّما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فالموت حتم حين يأتي حتم في موعده المقدَّر. هذه هي السنة التي ليس لها استثناء، فهذه الحياة إلى انتهاء، والموت ليس نهاية المطاف إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة، التي ليس شيء منها عبثاً ولا سدىً.

إنَّ الموت هو نهاية الحياة الأرضية، وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ﴿ثمَّ إنَّكم بعد ذلك لميِّتون. ثمَّ إنَّكم يوم القيامة تُبعثون﴾ [المؤمنون: ١٥ ـ ١٦]، فالموت إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية وليس نهاية الأطوار. ثمَّ هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربِّهم ينسلون﴾.

ثمَّ ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور. ويمضون سراعاً، وهم في دهش وذعر يتساءلون: ﴿من بعثنا من مرقدنا؟﴾. ثمَّ تزول عنهم الدهشة قليلاً، فيدركون ويعرفون: ﴿هذا ما وعد الرَّحمن وصدق المرسلون﴾!

إنَّه مشهد مثير، تتراءى فيه صور تترك القلب وَجلاً. إنَّها حالة لا يثبت لها قلب، ولا يقوى على مواجهتها إلَّا وهو يرتعش ويهتز.

أمور القيامة هائلة رهيبة قلَّ أن يتلقاها الحسّ إلَّا بهزة عميقة. ومن ذا الذي لا يرتعش حسّه وهو يرى في المشهد الذي يرسمه القرآن حركة

الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض. ومن كل جيل وزمان وعصر، مبعوثين منشرين يختلطون ويضطربون في غير نظام وفي غير انتباه، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج.. ﴿وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض﴾ إنها صورة تزلزل الكيان البشري، وتهول الحس الإنساني. هناك الكل مجموعون إلى الله خاضعين طائعين ﴿إن كل من في السّماوات والأرض إلاّ آتي الرّحمن عبداً. لقد أحصاهم وعدّهم عداً. وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

إن كل من في السّماوات والأرض إلاّ عبدٌ يأتي معبوده خاضعاً طائعاً، فلا شريك لله إنّما خالق وعبيد.. وإنّ الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان ﴿لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً﴾ ولا مجال لهرب أحد، ولا نسيان لأحد، فعيْن الله على كل فرد. وكل فرد يقوم وحيداً لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد، فإذا هو وحيد فريد أمام الديّان..

ويمضي القرآن الكريم في تصوير مشهد بائس مخزي مهين للذين نسوا هذا اللقاء والعودة إلى رب السماء مشهد للنفوس التي أبت أن ترتفع إلى الأفق الإنساني الكريم، وأخلدت إلى الأرض، وأقمت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط الهزيل! مشهد لهذه الخلائق التي ارتكست حتى أهلّت نفسها لهذا البؤس الحزين: ﴿حتّى إذا جاءتهم السّاعة بغتة قالوا: يَاحسرتنا على ما فرّطنا فيها! وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم. ألا ساء ما يزرون!﴾ [الأنعام: ٣١].

مشهد يهزُّ القلوب هزاً. مشهد هائل رعيب لمصير مقيت كئيب.. مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾.. بل الدواب أحسن حالاً. فهي تحمل أوزاراً من الأثقال. ولكن هؤلاء يحملون وزاراً من الآثام! والدواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح. وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم. مشيعين بالتأثيم: ﴿ألا ساء ما يزرون!﴾..

ها هي دي البشرية تؤوب! ها هي ذي تعود إلى ربها بعد رحلة الحياة.. ها هي دي تحمل ما كسبت.. وها نحن أولاء نلمحها من خلال القرآن موقورة الظهور بالأحمال ـ أيّاً كانت هذه الأحمال ـ ها هي دي عائدة إلى ربها بما معها. تطلع في الطريق، وقد بلغ منها الجهد وأضناها المسير. حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان، ووقف يرتقب في خشية ووجل.. إنّ كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً.. **﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾**! وكل فرد على حدة يلاقي حسابه، ويلقى جزاءه..

إنّ كل نفس حاملة حملها، فلا تحمل نفس حمل أخرى. والتعبير القرآني يصور هذه الحقيقة على طريقة التصوير في القرآن، فتكون أعمق وأشد أثراً. يصور كل نفس مثقلة بأحمالها.. وحين تثقل نفس بما تحمل ثمّ تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئاً، فلن تجد من يلبي دعاءها ويرفع عنها شيئاً ممّا يثقلها!

إنّه مشهد القافلة كل من فيها يحمل أثقاله ويمضي في طريقه، حتى يقف أمام الميزان والوزّان! وهي في وقفتها يبدو على من فيها الجهد والإعياء.. واهتمام كلٍّ بحمله وثقله وانشغاله عن الأعداء والأقرباء!

والله سبحانه هو المحاسب، والمجازي. فلا يذهب عمل صالح، ولا يفلت عمل سيء **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾** [الزلزلة: ٧، ٨]، وهو سبحانه لا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممّن يميلون أو ينسون أو يهملون..

لقد عاد الناس بعد رحلة الحياة **﴿ليروا أعمالهم﴾**.. وهذه شديدة داهية.. إنّهم عائدون إلى ربهم إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها، ويواجهوا جزاءها. ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء. وإنّ من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه، ويشيح

بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثّل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير. فكيف به وهو يواجه عمله على رؤوس الأشهاد، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر؟!

وهنا و «الإنسان» مشدوه مأخوذ، وهو يلهث فزعاً ورعباً، وتفور نفسه دهشة وعجباً، واضطراباً ومورا.. إنها عقوبة هائلة رهيبة. مجرد أن يُروا أعمالهم، وأن يواجهوا بما كان منهم! ووراء الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها.. **﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾** [الأنبياء: ٤٧]. والحبة من خردل تصور أصغر ما تراه العيون وأخفه في الميزان، وهي لا تترك يوم الحساب ولا تضيع. والميزان الدقيق يشيل بها أو يميل! فلتنظر نفس ما قدمت لغد. وليصغ قلب إلى النذير. وليبادر الغافلون المعرضون قبل فوات الأوان. فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذي تعد موازينه، فلا تظلم نفس شيئاً، ولا يهمل مثقال حبة من خردل: **﴿وكفى بنا حاسبين﴾**..

عندئذٍ لا يحقر «الإنسان» شيئاً من عمله. خيراً كان أو شراً. ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن. إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق

إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض.. إلا في القلب المؤمن..

القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر.. وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائم.. ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال..

إنها قلوب عتت في الأرض، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب!!

ولن يستوي عند الله الإيمان والكفر، والخير والشر، والهدى

والضلال: كما لا يستوي الأعمى والبصير، والظلمة والنور، والظل والحرور، والحياة والموت. وهي مختلفة الطبائع من الأساس: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢].. ولكل طبيعته ولكل جزاءه في دار الحساب: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم. فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يُظلمون فتيلاً ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً﴾ [الإسراء: ٧١، ٧٢].

وهو مشهد يصور الخلائق محشورة. وكل جماعة تُنادى بعنوانها باسم المنهج الذي اتَّبعته، أو الرسول الذي اقتدت به، أو الإمام الذي ائتمَّت به في الحياة الدنيا. تُنادى ليُسلَّم لها كتاب عملها وجزائها في الدار الآخرة. فمن أُوتي كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاَّه، ويوفَّى أجره لا ينقص منه شيئاً ولو قدر الخيط الذي يتوسطُ النواة! ومن عمي في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير. وأشد ضلالاً وجزاؤه معروف. ولكنَّ السياق يرسمه في المشهد المزدحم الهائل، أعمىً ضالاً يتخبط، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به. ويدعه كذلك لا يقرر في شأنه أمراً، لأنَّ مشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب، يؤثر في القلوب!

ويرسم القرآن صورة الهول على صفحات القلوب، فكأنَّما الصورة حاضرة للحظة. نرى فيها الخزي والغيظ الخائف، والذل في الملامح:

﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممَّا فيه﴾.. فهذا سجل أعمالهم يوضع أمامهم، وهم يتملَّونه ويراجعونه، فإذا هو شامل دقيق. وهم خائفون من العاقبة ضيقوا الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة: ﴿ويقولون: يا ويلتنا. مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إلاَّ أحصاها؟!﴾ وهي قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب. وقد ضبط مكشوفاً لا يملك تفلتاً

ولا هرباً، ولا مغالطة ولا مداورة: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ ولاقوا جزاءً عادلاً: ﴿ولا يظلم ربُّك أحداً﴾.

هؤلاء المجرمون الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أنَّ الشيطان عدوٌ لهم، ولكنهم تولّوه فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب. فما أعجب أن يتولوا إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان آدم وإبليس.

لقد حدد القرآن الكريم مصير رحلة البشرية في ذلك المشهد العلوي الجليل في نقطة الانطلاق:

﴿ولقد خلقناكم ثمَّ صوَّرناكم، ثمَّ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم، فسجدوا إلَّا إبليس لم يكن من السَّاجدين. قال: ما منعك ألَّا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال: فاهبط منها، فما يكون لك أن تتكبَّر فيها، فاخرج إنَّك من الصَّاغرين. قال: أنظرني إلى يوم يُبعثون. قال: إنَّك من المنظرين قال: فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم. ثمَّ لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين قال: اخرج منها مذؤوماً مدحوراً، لمن تبعك منهم لأملأنَّ جهنَّم منكم أجمعين. ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنَّة، فكلا من حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظَّالمين. فوسوس لهما الشَّيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما، وقال: ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلَّا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما: إنِّي لكما لمن النَّاصحين. فدلَّاهما بغرور، فلمَّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة، وناداهما ربُّهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما: إنَّ الشَّيطان لكما عدوٌّ مبين؟ قالا: ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين. قال: اهبطوا بعضكم لبعض عدو؛ ولكم في الأرض مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين. قال: فيها تحيون، وفيها تموتون، ومنها تُخرجون﴾ [الأعراف: ١١ ـ ٢٥].

وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق قد تحدد مصير الرحلة كلها، ومصائر المرتحلين جميعاً. وتلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة، بين هذا العدو الجاهر بالعداوة، وبني آدم جميعاً.

ويجيء التذكير والإنذار فقد امتنَّ الله على بني آدم بأنه أرسل رسله بالهدى ودين الحق. فما من أمَّة إلا سبق فيها رسول **﴿وإن من أمةٍ إلا خلا فيها نذير﴾** [فاطر: ٢٤]، ويلوِّح لهم بالمعاد إلى الله بعد انتهاء ما هم فيه من أجل مرسوم للابتلاء؛ وبمشهدهم في العودة وهم فريقان. الفريق الذي اتبع أمْر الله، والفريق الذي اتبع أمْر الشيطان:

﴿كما بدأكم تعودون: فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة. إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ [الأعراف: ٢٩، ٣٠].

لقد بدأوا الرحلة فريقين: آدم وزوجه. والشيطان وقبيله.. ها هم أولاء يعودون. الطائعون يعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأمهم حواء المسلمين المؤمنين بالله المتَّبعين لأمر الله. والعصاة يعودون مع إبليس وقبيله، يملأ الله منهم جهنم، بولائهم لإبليس وولايته لهم وهم يحسبون أنهم مهتدون.

لقد هدى الله من جعل ولايته لله. وأضلَّ من جعل ولايته للشيطان. وها هم أولاء عائدين فريقين **﴿فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضَّلالة﴾**.. ها هم أولاء عائدين. في لمحة تضم طرفي الرحلة! على طريقة القرآن. التي يتعذر أن تتحقق في غير أسلوب القرآن!

وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكراراً في القرآن هو الإنذار بيوم الجمع. يوم الحشر. يوم يجمع الله ما تفرَّق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة، ليفرقهم من جديد فريقان: **﴿فريق في الجنَّة وفريق في السعير﴾** [الشورى: ٧].. فلو شاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحد

سلوكهم، فتوحد مصيرهم، إمَّا إلي جنة وإمَّا إلى نار ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمَّةً واحدة﴾ [الشورى: ٨]. ولكنه ـ سبحانه ـ خَلَق هذا الإنسان لوظيفة. خلقه للخلافة في هذه الأرض. وجعل من مقتضيات هذه الخلافة، على النحو الذي أرادها، أن تكون للإنسان استعدادات خاصة بجنسه، تفرقه عن الملائكة والشياطين، وعن غيرهم من خلق الله ذوي الطبيعة المفردة الموحدة الاتجاه. استعدادات يجنح بها ومعها فريق إلى الهدى والنور والعمل الصالح؛ ويجنح بها ومعها فريق إلى الضلال والظلام والعمل السيِّىء كل منهما يسلك وفق أحد الاحتمالات الممكنة في طبيعة تكوين هذا المخلوق البشري، وينتهي إلى النهاية المقررة لهذا السلوك: ﴿فريق في الجنَّة وفريق في السَّعير﴾. إنَّها رحلة الحياة يقطعها «الإنسان» في كدُّ وجهد حتى يصل في نهاية المطاف إلى الله ﴿يا أيُّها الإنسان إنَّك كادحٌ إلى ربِّك كدحاً فملاقيه﴾. فهو يلقى ربه بعد الكدح والعناء ﴿فأمَّا من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً. وينقلب إلى أهله مسروراً﴾..

هذا: فريق الجنَّة. والذي يؤتى كتابه بيمينه هو المرضي السعيد، الذي آمن وأحسن، فرضي الله عنه وكتب له النجاة. وهو يحاسب حساباً يسيراً. فلا يُناقش ولا يدقق معه الحساب. والذي يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول ﷺ وفيه غناء..

عن عائشة رضي الله عنها قالت. قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عُذِّب» قالت: قلتُ: أفليس قال الله تعالى: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾. قال: «ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب»(١).

وعنها كذلك قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

«اللهمَّ حاسبني حساباً يسيراً» فلمَّا انصرف قلت: يا رسول الله. ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، من نوقش الحساب يا عائشة يومئذٍ هلك»[1].

فهذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يُؤتىٰ كتابه بيمينه.. ثمَّ ينجو ﴿وينقلب إلى أهله مسروراً﴾.. من الناجين الذين سبقوه إلى الجنَّة.. وهو تعبير يفيد تجمع المتوافقين على الإيمان والصلاح من أهل الجنَّة. كل ومن أحبَّ من أهله وصحبه. ويصور رجعة الناجي من الحساب إلى مجموعته المتآلفة بعد الموقف العصيب. رجعته متهللاً فرحاً مسروراً بالنجاة واللقاء في الجنان!

وهو وضع يقابل فريق السعير. وضع المعذَّب الهالك المأخوذ بعمله السيِّء، الذي يؤتىٰ كتابه وهو كاره ﴿وأمّا من أُوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً. ويصلىٰ سعيراً﴾..

والذي ألفناه في تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال. فهذه صورة جديدة: صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر. وليس يمتنع أن يكون الذي يعطى كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره. فهو هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة!

ونحن لا ندري حقيقة الكتاب ولا كيفية إيتائه باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر. إنَّما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول؛ وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثاني. وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما. وما وراء ذلك من الأشكال إنَّما يُحيي المشهد ويعمق أثره في الحس، والله أعلم بحقيقة ما يكون كيف تكون!

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن الزبير عن عائشة. وهو صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.

فهذا التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحاً، وقطع طريقه إلى ربِّه كدحاً ـ ولكن في المعصية والإثم والضلال ـ يعرف نهايته، ويواجه مصيره، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف في هذه المرة ولا انتهاء. فيدعو ثبوراً، وينادي الهلاك لينقذه ممَّا هو مقدم عليه من الشقاء والعذاب، وحين يدعو الإنسان بالهلاك ليجو به، يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه. حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه. وهذا هو المعنى الذي أراده المتنبي وهو يقول:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا

فإنَّما هي التعاسة التي ليس بعدها تعاسة والشقاء الذي ليس بعده شقاء!.. ﴿ويصلى سعيراً﴾.. وهذا هو الذي يدعو الهلاك لينقذه منه. وهيهات هيهات!

وأمام هذا المشهد التعيس يكرّ السياق راجعاً إلى ماضي هذا الشقي الذي انتهى به إلى هذا الشقاء ﴿إنَّه كان في أهله مسروراً. إنَّه ظنَّ أن لن يحور﴾..

وذلك كان في الدنيا. نعم كان.. فنحن الآن ـ مع هذا القرآن ـ في يوم الحساب وقد خلفنا الأرض وراءنا بعيداً في الزمان والمكان!

﴿إنَّه كان في أهله مسروراً﴾.. غافلاً عمَّا وراء اللحظة الحاضرة؛ لاهياً عمَّا ينتظره في الدار الآخرة. لا يحسب لها حساباً ولا يقدم لها زاداً.. ﴿إنَّه ظنَّ أن لن يحور﴾ إلى ربِّه، ولن يرجع إلى بارئه، ولو ظنَّ الرجعة في نهاية المطاف لاحتقب بعض الزاد ولادخر شيئاً للحساب!

إنَّه ظنَّ أن لن يحور ﴿بلى إنَّ ربه كان به بصيراً﴾.. فالحقيقة أنَّ ربه كان مطّلعاً على أمره، محيطاً بحقيقته، عالماً بحركاته وخطواته، عارف أنَّه صائر إليه، وأنَّه مجازيه بما كان منه.. وكذلك كان، حين انتهى به المطاف

إلى هذا المقدور في علم الله والذي لم يكن بد أن يكون!

وصورة هذا النعيم وهو مسرور بين أهله في حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح - في صورة من صور الكدح - تقابلها صورة ذلك السعيد، وهو ينقلب إلى أهله مسروراً في حياة الآخرة المديدة، الطليقة، الجميلة، السعيدة، الهنيئة، الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء.

ويظل القرآن يتابع أفواج البشرية، فوجاً فوجاً إلى جنة أو إلى نار. حتى تغلق الأبواب التي فتحت لاستقبال المغتربين العائدين. فقد كانوا هناك في هذه الأرض مغتربين ﴿كما بدأكم تعودون. فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليه الضَّلالة، إنَّهم اتَّخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنَّهم مهتدون﴾.

ويمضي القرآن في بيانه، ويعرض المجرمين في موقف مهين يبرز فيه التبكيت والتنكيل: ﴿وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون. ألم أعهد إليكم - يا بني آدم - ألَّا تعبدوا الشَّيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم. ولقد أضلَّ منكم جبلاً كثيراً. أفلم تكونوا تعقلون؟ هذه جهنَّم التي كنتم توعدون. اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ [يس: ٥٩ - ٦٤].

إنَّهم يتلقون التحقير والترذيل. وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون. اعتزلوا هكذا بعيداً عن المؤمنين!

ونداؤهم هنا ﴿يا بني آدم﴾.. فيه من التبكيت ما فيه. وقد أخرج الشيطان أباهم من الجنَّة ثمَّ هم يعبدونه، وهو لهم عدوٌّ مبين.. ﴿وأن اعبدوني﴾.. ﴿هذا صراط مستقيم﴾..

واصل إليَّ مؤدٍّ إلى رضاي.

فلم تحذروا عدوكم الذي أضلَّ منكم أجيالاً كثيرة. أفلم تكونوا تعقلون؟

وفي نهاية هذا الموقف العصيب المهين يعلن الجزاء الأليم، في تهكم وتأنيب ﴿هذه جهنّم التي كنتم توعدون. اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾!

ولا يقف المشهد عند هذا الموقف المؤذي ويطويه. بل يستطرد العرض فإذا مشهد جديد عجيب ﴿اليوم نختم على أفواههم، وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾

وهكذا يخذل بعضهم بعضاً، وتشهد عليهم جوارحهم، وتتفكك شخصيتهم مزقاً واحداً يكذب بعضها بعضاً. وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة، ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلماً.

إنّه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب

وتمضي القصة في هذا التناسق البديع والتعقيبات عليها، ومشاهد القيامة من مبدئها إلى منتهاها. فهي قصة بدأت في الملأ الأعلى، على مشهد من الملائكة ـ يوم أن خلق الله آدم وزوجه وأسكنهما الجنّة. فدلّاهما الشيطان عن مرتبة الطاعة والعبودية لكلمة الخالصة. وأخرجهما من الجنّة ـ وتنتهي كذلك في الملأ الأعلى على مشهد من الملائكة. فيتصل البدء بالنهاية. ويضمّان بينهما فترة الحياة الدنيا ومشهد الاحتضار في نهايتها

والآن نأخذ في استعراض هذه المشاهد العجيبة:

الإنسان بين المأوى الأليم والعذاب المقيم وبين المثوىٰ الكريم والفضل العظيم:

وأخيراً يجيء ختام هذه القصة. قصة آدم عليه السّلام.. قصة هذه البشرية.. قصة الإنسان.. كل إنسان في كل مكان وزمان.. يجيء الختام قوياً حازماً، حاسماً.. يجيء ليقرر نهاية الرشد والإيمان ونهاية الفسوق والعصيان. إنّ هذه النهاية لا مهرب من مواجهتها. ﴿فأمّا من طغىٰ، وآثر

الحياة الدُّنيا، فإنَّ الجحيم هي المأوى﴾ [النّزعات: ٣٧ - ٣٩] . . هناك تختلف المصائر والعواقب؛ وتتجلى غاية التدبير والتقدير في النشأة الأولى.

فأمّا من طغى . . والطغيان هنا أشمل من معناه القريب. فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى. ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت. حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة. فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حساباً. فاستحباب الحياة الدنيا على الآخرة يصطدم بتكاليف الإيمان، ويتعارض مع الاستقامة على الصراط. وليس الأمر كذلك حين تُستحب الآخرة، لأنه عندئذٍ تصلح الدنيا، ويصبح المتاع بها معتدلاً، ويراعى فيه وجه الله. فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة.

إنَّ الذين يوجهون قلوبهم للآخرة. لا يخسرون متاع الحياة الدنيا - كما يقوم في الأخيلة المنحرفة - فصلاح الآخرة في دين الله يقتضي صلاح هذه الدنيا. والإيمان بالله يقتضي حسن الخلافة في الأرض. وحسن الخلافة في الأرض هو استعمارها والتمتع بطيباتها. إنه لا تعطيل للحياة في الإسلام انتظاراً للآخرة، ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله، وتمهيد للآخرة . . هذا هو الإسلام.

فأمّا الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، فلا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض، ومن الكسب الحرام، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم . . لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله، وفي ظل الاستقامة على هداه. ومن ثمّ يصدون عن سبيل الله. يصدون أنفسهم ويصدون الناس، ويبغونها عوجاً لا استقامة فيها ولا عدالة. وحين يفلحون في صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها، فعندئذٍ فقط يملكون أن يظلموا وأن يطغوا وأن يغشوا وأن يخدعوا وأن يغروا الناس بالفساد. فيتم لهم

الحصول على ما يعوبه من الاستئثار بخيرات الأرض، والكسب الحرام، والمتاع المرذول، والكبرياء في الأرض، وتعبيد الناس بلا مقومة ولا استنكار.

إنَّ منهج الإيمان ضمانة للحياة وصمامة للأحياء من أثرة الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، واستئثارهم بخيرات هذه الحياة. واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره. فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعُدَّ طاغياً وباغياً ومتجاوزاً للمدى.

فأمّا هذا.. ﴿فإنَّ الجحيم هي المأوى﴾ الجحيم المكشوفة المبرزة القريبة الحاضرة. يوم الطامّة الكبرى.. ﴿وسيق الَّذين كفروا إلى جهنَّم زمراً. حتّى إذا جاؤوها فتحت أبوابها﴾ [الزُّمر: ٧١].. واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها: ﴿وقال لهم خزنتها: ألم يأتكم رُسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾؟.. ﴿قالوا: بلى. ولكن حقَّت كلمة العذاب على الكافرين﴾.

فالموقف موقف إذعان وتسليم. لا موقف مخاصمة ومجادلة. وهم مقرون مستسلمون! ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنَّم خالدين فيها. فبئس مثوى المتكبِّرين﴾!

فإذا انتهى المشهد الأول، فنحن أمام المشهد التالي: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجنِّ والإنس، كلَّما دخلت أمة لعنت أختها، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم: ربَّنا هؤلاء أضلُّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال: لكل ضعف ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل، فذوقوا العذاب بما

كنتم تكسبون﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩]. ﴿ادخلوا في أُمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾ . انضموا إلى زملائكم وأوليائكم في الجن والإنس.. هنا في النار.. أليس إبليس هو الذي عصى ربه؟ وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه؟ وهو الذي أغوى من أغوى من أبنائه؟ وهو الذي أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار؟.. فادخلوا إذن جميعاً.. ادخلوا سابقين ولاحقين.. فكلكم أولياء.. وكلكم سواء!

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها؛ ويملي متبوعها لتابعها.. فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد، وكيف يكون التنابز فيها: ﴿كلما دخلت أُمّة لعنت أُختها﴾!

فما أبأسه نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه، ويتنكّر فيها الولي لمولاه!

﴿حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً﴾ وتلاحق آخرهم وأولهم، واجتمع قاصيهم بدانيهم، بدأ الخصام والجدال: ﴿قالت أُخراهم لأولاهم: ربّنا هنؤلاء أضلّونا، فآتهم عذاباً ضعفاً من النّار﴾ .

وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم! ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء، وهم متناكرون أعداء؛ يتهم بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، ويطلب له من « ربنا » شر الجزاء.. من « ربنا » الذين كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته؛ وهم الذين ينيبون إليه وحده ويتوجهون إليه بالدعاء! فيكون الجواب استجابة للدعاء. ولكن أيّة استجابة؟!

﴿قال: لكل ضعف، ولكن لا تعلمون﴾ لكم ولهم جميعاً ما طلبتم من مضاعفة العذاب!

وكأنّما شمتَ المدعو عليهم بالداعين، حين سمعوا جواب الدعاء، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة.. كلنا سواء.. في هذا الجزاء: ﴿وقالت

أولاهم لأخراهم: فما كان لكم علينا من فضل. فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾!

وبهذا ينتهي ذلك المشهد الساخر الأليم.

ومشهد آخر في هذا المأوى الأليم. مشهد بائس من أعجب مشاهد القيامة وأحفلها بالحركة والانفعال والحوار بين الضعفاء والمستكبرين. وبين الشيطان والجميع: ﴿وبرزوا لله جميعاً ـ فقال الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعاً. فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء؟ قالوا. لو هدانا الله لهديناكم. سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص. وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم؛ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي. فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي. إني كفرت بما أشركتمون من قبل. إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ [إبراهيم: ٢١، ٢٢].

وبرزوا لله جميعاً. الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين. ومعهم الشيطان. برزوا جميعاً مكشوفين. وهم مكشوفون لله دائماً. ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب، ولا يسترهم ساتر؛ ولا يقيهم واق.. برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار. وبدأ الحوار: ﴿فقال الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعاً. فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء؟﴾..

والضعفاء هم الضعفاء هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه؛ وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة. ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله. والضعف ليس عذراً، بل هو الجريمة؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً. وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله. وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه في الحرية ـ التي

هي ميزته ومناط تكريمه - أو أن ينزل كرهاً والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية. فقصارى ما تملكه القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أمّا الضمير. أمّا الروح أمّا العقل ولا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلّا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال!

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد لا أحد إلّا أنفسهم الضعيفة. فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً كلا، إنَّ هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء إنما هم ضعفاء لأنَّ الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان!

إنَّ المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ وما الذي يخضعها؟ إنّما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمّة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان!

إنَّ الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلّا برغبة هذه الجماهير. فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت. فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!

إنَّ الذل لا ينشأ إلّا عن قابلية للذل في نفوس الأذلّاء.. وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة!!

والقرآن الكريم يلتقط هذا المشهد لهذا الموقف الذليل البائس: ﴿وإذ يتحاجُّون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا: إنَّا كنَّا لكم تبعاً. فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟﴾ [غافر: ٤٧].

إنَّ الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا. لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمّعات! ولم يخفف عنهم أنهم كانو غنماً تُساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار.

لقد منحهم الله الكرامة. كرامة الإنسانية. وكرامة التبعة الفردية. وكرامة الاختيار والحرية. ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعاً. تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء ولطّغاة والملأ والحاشية. لم يقولوا لهم: لا. بل لم يفكروا أن يقولوها. بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال.. ﴿إنَّا كنا لكم تَبَعاً﴾.. وما كان تنازلهم عمَّا وهبهم الله واتباعهم الكبراء شفيعٌ لهم عند الله. فهم في النار. ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة. سوق الشياه!

والأذلّاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للّذين استكبروا يسألونهم ﴿إنّا كنّا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾؟..

ها هم أولاء في بؤس وضيق وحسرة وألم يسألون كبراءهم: ﴿فهل أنتم مغنون عنّا نصيباً من النار؟﴾. كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد، وأنهم يحمونهم من الفساد، وأنهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء!

أم لعلّهم وقد رأوا العذاب وقد مسّهم الألم الشديد يهمّون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة، وتعريضهم إيّاهم للعذاب؟

إنَّ القرآن يحكي قولهم وعليهم طابع الذلة على كل حال.

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال: ﴿قالوا: لو هدانا الله لهديناكم! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص!﴾.

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق: لو هدانا الله لهديناكم.. فعلام تلوموننا ونحن وإيّاكم في مصير واحد؟ إنّنا لم نهتد ونضللكم. ولو هدانا الله لقدناكم

إلى الهدى معنا، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال! وهم يسمون هداهم وضلالهم إلى الله. فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها، ويستطيلون على الضعف، استطالة من لا يحسب حساباً لقدرة القاهر الجبار. وهم إنَّما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجوع الأمر لله.. والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه ﴿إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء﴾.. ثمَّ هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي، فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنَّه لا فائدة من الصبر. فقد حقَّ العذاب، ولا رادَّ له من صبر أو جزع، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه يجدي فيرد الضالين إلى الهدى؛ وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله. لقد انتهى كل شيء، ولم يعد هنا مفر ولا محيص! ها هم أولاء الذين استكبروا وقد ضاقوا صدراً بالذين استضعفوا، يجبونهم في ضيق وبرم وملالة، وفي إقرار بعد الاستكبار: ﴿قال الَّذين استكبروا: إنَّا كل فيها إنَّ الله قد حكم بين العباد﴾ [غافر: ٤٨].

إنَّا كلٌّ في النار.. إنَّا كلٌّ ضعاف لا نجد ناصراً ولا معيناً. إنَّا كلٌّ في هذا الكرب والضيق سواء. فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء؟ لقد حكم الله بين العباد.. فلا مجال لمراجعة في الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل. وقد قضي الأمر، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً من حكم الله. وبعد أن أيس أهل النار، وهم في عذاب الله الأليم، وقد قضي الأمر، وحكم الله بين العباد، يتوجهون إلى رب العالمين: ﴿ربَّنا أرِنَا الذين أضلانا من الجن والإنس، نجعلهما تحت أقدامنا، ليكونا من الأسفلين﴾ [فصِّلت: ٢٩].

ونشهد في هذا السؤال حنق المخدوعين، الذين زين لهم قرناؤهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وأغروهم بهذه المهلكة التي انتهى إليها مطافهم.. إنَّه الحنق العنيف، والتحرق على الانتقام: ﴿نجعلهما تحت أقدامنا﴾. ﴿ليكونا من الأسفلين﴾. وذلك بعد الموادة والمخادنة والوسوسة والتزيين!

وفي ظل هذه المشاهد الحزينة الكئيبة من الحسرة. وقد قضي الأمر، وانتهى الجدل، وسكت الحوار.. وهنا نرى على المسرح عجبا. نرى الشيطان.. هاتف الغواية، وحادي الغواة.. نراه الساعة يلبس مسوح الكهان، أو مسوح الشيطان! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب.

﴿وقال الشيطان - لمّا قضي الأمر - إنَّ الله وعدكم وَعْد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم. وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي..﴾..

الله! الله! أمّا إنَّ الشيطان حقاً لشيطان! وإنَّ شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في الحوار المتقدم.

إنَّه الشيطان الذي وسوس في الصدور، وأغرى بالعصيان، وزيَّن الكفر، وصدَّهم عن استماع الحق.. هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة، حيث لا يملكون أن يردوها عليه - وقد قضي الأمر - هو الذي يقول الآن، وبعد فوات الأوان: **﴿إنَّ الله وعدكم وَعْد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾**!

ثمَّ يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له، وليس له عليهم من سلطان، سوى أنَّهم تخلوا عن شخصياتهم، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله **﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾**! ثمَّ يؤنِّبهم، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم. يؤنبهم على أن أطاعوه! **﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾**!

ثمَّ يخلي بهم، وينفض يده منهم، وهو الذي وَعَدَهم من قبل ومنَّاهم، ووسوس لهم فزيَّن لهم أعمالهم؛ فأمَّا الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا، كما أنَّهم لن يجدوه إذا صرخ **﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيَّ﴾**.. وما بيننا من صلة ولا ولاء!

ثمَّ يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك **﴿إنِّي كفرت بما أشركتمون من قبل﴾**!

ثمَّ ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه: **﴿إنَّ الظالمين لهم عذاب أليم﴾**.

فيا للشيطان! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه!

إنَّه مشهد حزين أليم قدر ما فيه من السخرية والاستهزاء. وتكاد نلمح أولئك الذين حقَّ عليهم العذاب ألسنتهم معقودة ممَّا سمعوا من الشيطان. فقد عرفوا الحقيقة بعد أن فات الأوان. عرفوا أنَّهم كانوا عبيداً مطموسين كالدمى واللُّعب يعبث بهم الشيطان. **﴿وقالوا: لو كنَّا نسمع أو نعقل ما كنَّا في أصحاب السعير﴾** [الملك: ١٠].

وفي هذا القول: ذلة وانكسار والاعتراف بالحمق والغفلة. فالذي يسمع أو يعقل، لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء. ولا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد **﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾**

والسحق البعد. وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ويصدقوا بوقوعه. والدعاء من الله قضاء. فهم مبعدون من رحمته. لا رجاء لهم في مغفرة، ولا إقالة لهم من عذاب. وهم أصحاب السعير الملازمون له، ويا لها من صحبة! ويا له من مصير!

وهذا العذاب، عذاب السعير، في جهنم التي تشهق بأنفاسها وتفور، عذاب شديد مروع حقاً. والله لا يظلم أحداً. ونحسب ـ والله أعلم ـ أنَّ النفس التي تكفر بربها ـ وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله ـ هي نفس فرغت من كل خير. كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتباراً في الوجود، فهي كالحجر الذي توقد به جهنم. وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار، إلى غير نجاة منها ولا فرار!

انتكاس وارتكاس :

إن النفس التي لا تدين لله في الأرض تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة، صورة منكرة جهنمية نكيرة. صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسخها وشناعتها فكل شيء روحه مؤمنة، وكل شيء يسبح بحمد ربه، وكل شيء فيه هذا الخير، وفيه هذه الوشيجة التي تشده إلى محور الوجود.. ما عدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود، الآسنة الشريرة، الخاسية الممسوخة النفور. فأي مكان في الوجود كله تنتهي إليه، وهي مبتوتة الصلة بكل شيء في الوجود؟! إنها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتلمظة، الحارقة، المهدرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة، بعد أن لم يكن لتلك النفوس معنىً ولا حق ولا كرامة!

إنَّ حصب جهنم وأهلها هم من يبغون الضلال لأنفسهم ويعرضون عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان، ويغلقون قلوبهم وسمعهم وبصرهم دونها ﴿ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنس. لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يُبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها.. أولـئك كالأنعام، بل هم أضل.. أولـئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إنَّ هؤلاء الكثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم! وهم مهيَّأون لها! فما بالهم كذلك؟

هناك اعتباران:

الاعتبار الأول: أنَّه مكشوف لعلم الله الأزلي أنَّ هؤلاء الخلق صائرون إلى جهنم.. وهذا لا يحتاج إلى بروز العمل الذي يستحقون به جهنم إلى عالم الواقع الفعلي لهم. فعلم الله سبحانه شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل في عالم العباد الحادث.

والاعتبار الثَّاني: أنَّ هذا العلم الأزلي ـ الذي لا يتعلق بزمان ولا

حركة في عالم العباد الحدث ـ ليس هو الذي يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذي تستحق به جهنم. إنما هم كما تنص الآية ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يُبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا ـ ودلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسالات تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة ـ وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية. ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة.. لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وُهبوها ولم يستخدموها..

إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في هذا الكائن الإنساني، هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال.. وذلك مع إيداع فطرته حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها. ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى، ومع إرسال الرسل بالبينات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل.. ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره.

كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى. وأن يجري قدر الله كذلك بإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل وما أعطاه من أجهزة الرؤية والسمع في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون، وفي رسالات الرسل، الموحية بالهدى.

وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها، ويقع ما يقع بقدر الله لا بقوة سواه. وما كان الأمر ليكون هكذا إلا أن شاء الله هكذا. وما كان شيء ليقع إلا أن يوقعه قدر الله. فليس في هذا الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور، كما أنه ليس هناك قوة مع قدر الله ينشىء الأحداث.. وفي إطار هذه الحقيقة الكبيرة يتحرك الإنسان بنفسه، ويقع له ما يقع من الهدى. والضلال أيضاً.. ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩].

ولعلهم هم الذين استحبوا العمى على الهدى ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها﴾.. إنَّ القلب الغافل عن طاعة الله وهديه قلبٌ انتكس وارتكس فلا يرى ولا يتجه إلَّا إلى ذاته، وإلى ماله، وإلى أبنائه، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته، فلم يعد فيه متسع لله. والقلب الذي يشتغل بهذه الشواغل، ويجعلها غاية حياته لا جرم يغفل عن آيات الله، فيزداد غفلة. ويُملي له الشيطان فيما هو فيه، ويُزين له سوء عمله، حتى تنبت لأيام من بين يديه. ويلقىٰ ما أعدَّ الله لأمثاله من خَلْق جهنم..

لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون ﴿أُولٰئك كالأنعام، بل هم أضل، أُولٰئك هم الغافلون﴾..

والذين يغفلون عمَّا حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة، والذين يغفلون عمَّا يمرّ بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يد الله.. أُولٰئك كالأنعام بل هم أضلّ.. فللأنعام استعدادات فطرية تهديها. أمَّا الجن والإنس فقد زُوِّدوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأُذن الملتقطة فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا. إذ مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها، ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها. فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادئة.. ثمَّ هم يكونون من ذرء جهنَّم! يجري بهم قدر الله إليها وفق مشيئته حين فطرهم باستعداداتهم تلك، وجعل قانون جزائهم هذا. فكانوا - كما هم في علم الله القديم - حصب جهنَّم منذ كانوا!

هؤلاء الغافلون لم يروا في وجودهم على الأرض من غاية سوىٰ متاع وأكل: ﴿يتمتَّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنَّار مثوىً لهم﴾ [محمَّد: ١٢].

وهو تصوير زري، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه، ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره، والمتاع لحيواني الغليظ. بلا تذوق، وبلا تعفف عن

حسن أو قبيح.. إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة، ولا من اختيار، ولا حارس عليه من تقوى، ولا رادع عنه من ضمير. والحيوانية تتحقق في المتاع والأكل، ولو كان هناك ذوق مرهف للطعوم، وحس مدرب في اختيار صنوف المتاع، كما يتفق هذا لكثير من الناشئين في بيوت النعمة والثراء. وليس هذا هو المقصود. إنما المقصود هو حساسية الإنسان الذي يملك نفسه وإرادته، والذي له قيم خاصة للحياة؛ فهو يختار الطيب عند الله عن إرادة لا يخضعها ضغط الشهوة، ولا يضمنها هدف اللذة. ولا تحسب الحياة كلها مائدة طعام، وفرصة متاع؛ بلا هدف بعد ذلك ولا تقوى فيما يباح وما لا يباح!

إن الفارق الرئيسي بين الإنسان والحيوان: أن للإنسان إرادة وهدفا وتصورا خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة، المستمدة من الله خالق الحياة. فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه، وأهم الثمرات التي من أجلها كرمه الله.. ثم هو يكون من ذرء جهنم ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون. ويل يومئذ للمكذبين﴾ [المرسلات: ٤٦ - ٤٧]. كلوا وتمتعوا قليلاً في هذه الدار الدنيا، لتحرموا وتعذبوا طويلاً في تلك الدار الآخرة..

هناك الشقاء والتعاسة والمصير البائس لذلك الإنسان الغافل المطموس.. هناك الويل المدخر لهذا الشقي المتعوس!

ويمضي القرآن في تقرير وتوكيد لهذا المصير الذي لن يتبدل: ﴿إنَّ الَّذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة حتَّى يلج الجمل في سم الخياط، وكذلك نجزي المجرمين. لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش، وكذلك نجزي الظالمين﴾ [الأعراف: ٤٠ - ٤١].

ودونك فقف بتصور ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب.. مشهد

الجمل تجاه ثقب الإبرة. فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير، فانتظر حينئذٍ ـ وحينئذٍ فقط ـ أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين، فتقبل دعاءهم أو توبتهم ـ وقد فات الأوان ـ وأن يدخلوا إلى جنات النعيم! أمَّا الآن، وإلى أن يلج الجمل في سمِّ الخياط، فهم هنا في النار، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا، وتلاوموا فيها وتلاعنوا، وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء. ونالوا جميعاً ما طلبه الأولياء للأولياء! ﴿**وكذلك نجزي المجرمين**﴾.. ثمَّ إليك هيئتهم في النار: ﴿**لهم من جهنم مهاد، ومن فوقهم غواش**﴾.. فلهم من نار جهنم من تحتهم فراش، يدعوه ـ لسخرية ـ مهاداً، وما هو بمهد ولا لين ولا مريح! ولهم من نار جهنم أغطية تغشاهم من فوقهم! ﴿**وكذلك نجزي الظالمين**﴾. والظالمون هم الغاوون. والظالمون هم المجرمون والظالمون هم الغافلون.. والظالمون هم الضالون. والظالمون هم المشركون المكذبون بآيات الله، المفترون الكذب على الله.. كلها أوصاف مترادفة في تعبير القرآن.

هذه جهنم! ففيها الكفاية! جهنم التي وقودها الناس والحجارة.. جهنم التي يكبكب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون. جهنم الحطمة التي تطَّلع على الأفئدة. جهنم التي لا تبقي ولا تذر. جهنم التي تكاد تميَّز من الغيظ.. جهنم عذاب الله القوي العزيز. فأهون العذاب في جهنم، ما يرى من داقه ـ والعياذ بالله ـ أنَّ أحداً أشدُّ منه عذاباً. فقد روى البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ أهون أهل النار عذاباً رجلٌ في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل بالقمقم».

وفي رواية: «إنَّ أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أنَّ أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً»(١).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ.

يصور رسول الله ﷺ مشهداً مكروباً من مشاهد جهنم. وهو مشهد رهيب حقاً، ها هو ذا المشهد حاضر مشهود.. ها هو ذا أهون أهل النار عذاباً من له نعلان من نار! يغلي دماغه من شدتها.. يغلي دماغه كما يغلي المرجل.. نار حامية! فماذا بعد هذا.. رحمتك يا رب!!!

النار تصل إلى كل ذرة في جسد هذا المكروب، النار تلتهم لحمه وعظامه وأعصابه.. إنه عذاب مروع مخيف شنيع.. إنه أهون أهل النار عذاباً.. وهو يتألم ويصل في حسه أقصى درجات الألم. ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً.

يا مغيث! فكيف حال من وصف هيئتهم القرآن. ﴿إنَّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إنَّ الله كان عزيزاً حكيماً﴾ [النساء: ٥٦].

إنَّ القرآن يرسم مشهداً عنيفاً مفزعاً.. السعير اللاهب.. الجلود الناضجة المشوية المعذبة. كلما نضجت بدلت.. ليعود لاحتراق من جديد.. ويعود الألم من جديد.

كيف حال من ﴿قُطِّعت لهم ثياب من نار، يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم. يُصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، كلَّما أرادوا أن يخرجوا منها ـ من غم ـ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ [الحج: ١٩].

مشهد مريع مخيف. مشهد أولئك المعذَّبون حين تكون النار ثيابهم، وتسيل جلودهم ولحومهم.. إنَّه مشهد عنيف صاخب، هذه ثياب من النَّار تقطع وتفصل! وهذا حميم ساخن يُصَبُّ من فوق الرؤوس، يُصهر به ما في البطون والجلود عند صَبِّه على الرؤوس. وهذه سياط من حديد أحمته النار، وهذا هو العذاب يشتد، ويتجاوز الطاقة، فيهبُّ المجرمون من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمُّون بالخروج من الغم. وها هم أولاء يردُّون

بعنف ويسمعون التأنيب، وذوقوا عذاب الحريق. ها هي ذي جهنّم محيطة بالكافرين ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول: ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ [العنكبوت: ٥٥]. إنه مشهد مفزع في ذاته، يصاحبه التقريع لمخزي والتأنيب المرير.

فأنّى يستعجل من تحيط به جهنّم وتهمّ أن تطبق عليه وهو غافل مخدوع، يصيرون إليها ويأوون. وبئس سوءها من مأوى جيء منه التشريد ﴿أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنّم﴾ [الرعد: ١٨]. ﴿ومأواهم جهنّم كلّما خبت زدناهم سعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧].

إنها حصلت عندئذ رهبة لاهثة مكروبة، فإذا انتهت الحلقة بدأ الظالمون يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً وهكذا. فالذي يعيش الدنيا قنعاً منكباً على ما في الأرض كادحاً لهذا الشأن الصغير فهو ذلك الأشقى ﴿الذي يصلى النّار الكبرى، ثمّ لا يموت فيها ولا يحيا﴾ [الأعلى: ١٢]

وتكاد المشاهد في جهنّم تنطق بالألم وترى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار على حال ﴿والّذين كفروا لهم نار جهنّم، لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ [فاطر: ٣٦].

فلا هذه ولا تلك حتّى الرحمة بالموت لا تنال ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾..

نار جهنّم الكبرى بشدتها، والكبرى بحدتها، والكبرى بضخامتها حيث يمتد بقاء الظالم الشقي الكفور فيها يطول. فلا هو يموت فيجد طعم الراحة، ولا هو يحيا في أمن وراحة إنما هو العذاب الخالد، الذي يتطلّع صاحبه إلى الموت كما يتطلّع إلى الأمنية الكبرى عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال. قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنّة إلى الجنّة، وأهل النّار إلى النّار. جيء بالموت، حتى يجعل بين الجنّة والنّار،

فيُذبح، ثمَّ ينادي منادٍ: يا أهل الجنَّة لا موت، يا أهل النَّار لا موت، فيزداد أهل الجنَّة فرحاً وأهل النَّار حزناً إلى حزنهم»[1].

إنَّ حديث القيامة هو حديث القرآن المتكرر[2]، يذكِّر به وينذر ويبشِّر، وليستجيش به في الضمائر الحساسية والخشية والتقوى والتوجس، كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع. ومن ثمَّ يستحيي هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل.

ومن ثمَّ كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في القرآن.. الإيقاعات التي يعلم الله أنَّ فطرة الإنسان تهتز لها وترتجف، فتتفتح نوافذها وتستيقظ أجهزة الاستقبال فيها، وتتحرك وتحيا، وتتأهب للتلقي والاستجابة.. ذلك كله فضلاً على أنها تمثل الحقيقة ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأيِّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [الجاثية: ٦].

هذه هي الحقيقة ﴿فأمَّا من طغى وآثر الحياة الدُّنيا فإنَّ الجحيم هي المأوى﴾..

إنَّه القرآن بآياته الحكيمة يلمس القلوب، ويوقظ العقول، ويخاطب الفطر بلغتها المباشرة. فمن لم يؤمن بهذه الآيات فلا رجاء في أن يؤمن بسواها؛ ومن لم توقظه هذه الإشارات الموحية فلن توقظه إلَّا زبانية جهنم ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر﴾ [القمر: ٤٨].

إنَّ أي كلام لن يبلغ كلام الله في القرآن. وإنَّ أية حقيقة لن تبلغ حقيقة الله في الثبوت والوضوح واليقين ﴿فبأيِّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟﴾..

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) انظر الفصول الثانية في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن»: «صفة جهنَّم»، «أهل النار»، «أحوال الناس في جهنَّم»، «هيئة أهل النار»، «طعام أهل النار»، «شراب أهل النار»، «بعده وقعره وعدده»، «حسرة وندم»، وبحث في سبب الخمس «عذاب النار» ص ٢٥٣ ـ ٣٠٠

وهنا لا يبقى بمن لا يؤمن إلا التهديد والتنكيل: ﴿ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها. فبشره بعذاب أليم﴾.

والويل الهلاك. والأفاك: الكذاب المرد على الكذب. والأثيم الكثير المقارفة للإثم. والتهديد شامل لكل من هذه صفته. وهو تهديد صادر من الله القوي القاهر الجبار، القادر على الهلاك والدمار. الصادق الوعد والوعيد والإنذار. فهو تهديد رعيب مفزع مرهوب. هذا الأفاك الأثيم. آية إفكه وعلامة إثمه، إنه يصر على الباطل ويستكبر على الحق ويتعالى على الخضوع لأوامر الله وشرعه، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله ﴿يسمع آيات الله تتلى عليه، ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها﴾.

وهذه الصورة البغيضة ولو أنها صورة فريق من المشركين في مكة، إلا أنها تتكرر في كل جاهلية، وتتكرر اليوم وغداً. فكم في الأرض وبين من يقال إنهم مسلمون، من يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها؛ لأنها لا توافق هواه، ولا تسير مع مألوفه، ولا تعاونه على باطله، ولا تقره على شره، ولا تتمشى معه في اتجاهه! ﴿فبشره بعذاب أليم﴾. والبشارة للخير فهي هنا للسخرية. فإذا كان لا يسمع النذير، فليأته الويل المغطور، في صوت البشير! زيادة في السخرية والتحقير!

﴿وإذا علم شيئاً من آياتنا اتخذها هزواً﴾.. بعد أن يعلمها ويعرف مصدرها. وهذه أشد وأنكى. وهي صورة كذلك مكرورة في الجاهليات الأولى والأخيرة. وكم ممن الناس وبين من يقال إنهم مسلمون. من يستهزىء بآيات الله التي يعلمها، ويتخذها مادة للسخرية منها وممن يؤمنون بها؛ وممن يريدون أن يرجعوا أمر الناس والحياة إليها.

﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾.. فالمهانة هي الجزاء المناسب لمن يستهزىء بآيات الله وهو يعلمها.

وهو عذاب حاضر قريب؛ وإن كان موعده آتياً بعد حين. ولكنه في حقيقته قائم موجود ﴿من ورائهم جهنَّم﴾.. ولفظ «من ورائهم» مقصودة ظلاله فوق معناه. وظلاله.. أنهم لا يرونه لأنه من ورائهم ولا يتقونهالأنهم في غفلة عنه، ولا يفوتهم فهم سيقعون فيه..

وليس شيء ممَّا عملوا أو ملكوا بنافعهم شيئاً ﴿ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتَّخذوا من دون الله أولياء﴾، فعملهم - ولو صلح - هباء لا يقدرون على شيء منه. وهو قائم على غير أساس من إيمان. وملكهم زائل لا يصاحبهم من شيء فيه غناء. وأولياؤهم من دون الله - آلهة أو أعواناً وجنداً أو حلفاء - لا يملكون لهم نصراً ولا شفاعة ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ فوق أنه مهين. فجرمهم في الاستهزاء بآيات الله قبيح يقتضي المهانة. جسيم يقتضي جسامة التعذيب..

لقد تقرَّر أمر هؤلاء العاصين فاستحقوا جهنم على يقين، وانتهى إلى أن يكونوا حطباً لجهنَّم. تتلظى بهم وتتردد شتعالاً، كما تتلظى النار بالحطب ﴿وأمَّا القاسطون فكانوا لجهنَّم حطباً﴾ [الجن: ١٥].

هؤلاء الجائرون. المفسدون. الظالمون. الغافلون اتبعوا خطوات الشيطان. اتبعوا طريقه المشؤوم ﴿ومن يتَّبع خطوات الشيطان فإنَّه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ [النور: ٢١]. اتَّبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم. ها هو ذا يقودهم الشيطان إلى جهنَّم إلى هذا الشر المستطير. فهم يتقلَّبون في العذاب الكبير. العذاب الأليم. المهين. العظيم ﴿ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتَّبعوه﴾ [سبأ: ٢٠]. صدَّق عليهم ظنَّه في قدرته على غوايتهم فأغواهم، وقادهم إلى شر مصير.

فيا للشيطان! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية والضلال والجحود والكفران فأطاعوه.

ويمضي القرآن الكريم يوقظ هؤلاء الغافلين السادرين ﴿إنَّ هذه

تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً﴾ [الدهر: ٢٩] ولم يزل الإنسان في الطريق والفرصة متاحة، والله سبحانه كتب على نفسه الرحمة ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾ [المائدة: ٧٤].

ها هو ذا باب التوبة مفتوحاً، فهو سبحانه يطمع الناس الشاردين في مغفرته ورحمته، قبل فوات الأوان ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإنّ الله يتوب عليه﴾ [المائدة: ٣٩]. ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه، ثمّ يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ١١٠] إنّ التوبة التي يقبلها الله، والتي تفضّل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس، فتدل على أنّ هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى، قد هزّها الندم من الأعماق، ورجّها رجاً شديداً حتى استفاقت وأنابت، وهي في فسحة من العمر، وبحبوحة من الأمل، واستحدثت رغبة حقيقية في التطهر، ونية حقيقية في سلوك صراط الله المستقيم..

فمن شاء أن يتّخذ إلى ربه مآباً قبل أن تكون جهنم مرصاداً ومآباً. والعذاب ليس بالبعيد، فجهنّم تنتظر وتترصد على النحو الذي رأينا. والدنيا كلها رحلة قصيرة، وعمر قريب! ﴿إنّا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنتُ تراباً﴾ [النبأ: ٤٠]

وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾ وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب!

الحياة بين مصير ومصير:

إنّ حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة على منهج الله. وقلب المؤمن يستشعر يد الله عليه، ويحسّ آلاءه في كل نفس وكل نبضة، ومن ثمّ يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته، إلى جنب آلاء الله ونعمائه. كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته، ويرقب بكل مشاعره

يد الله في كل شيء من حوله، ومن ثمَّ يستشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً، وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات.

وهم الذين يسقون لها فيسلوبها في الضيعة، بهذه اليقظة وبهذا التطلع، وبهذا العمل، وبهذه الطاعة. لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة، مرادون بالخير. كالصيد الغافل يُستدرج إلى مصرعه بالطعم المغري. ومثل هذا الطير في الناس كثير، يغمرهم الرخاء، وتشغلهم النعمة، ويطغيهم الغنى، ويلهيهم الغرور، حتى يلاقوا المصير!

تلك اليقظة التي يغرسها الإسلام في قلب المسلم. والتي يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره في القلوب، ليست أمراً فوق الطاقة، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة. إنما هي الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به. ومراقبته في السر والعلن. وهي في حدود الطاقة الإنسانية، حين يشرق فيها ذلك النور الوضيء ﴿ولا نكلِّف نفساً إلَّا وسعها ولدينا كتابٌ ينطق بالحقّ وهم لا يُظلمون﴾ [المؤمنون ٦٢].

لقد شرّع الله التكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس، وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطاقة، لا يُظلمون بتحميلهم ما لا يطيقون، ولا يبخسهم شيئاً مما يعملون، وكل ما يعملونه محسوب في سجل ﴿ينطق بالحق﴾ ويبرزه ظاهراً غير منقوص والله خير الحاسبين.

والمؤمن يستشعر رقابة الله عليه فلا يشهد إلَّا الله، ولا يحس إلَّا إيَّاه، ولا يتذوق إلَّا معناه، ويتطهر وجدانه من كل دنس. وتجد روحه طريقها إلى بارئها، ويعرف لقب مثواه. وعندئذ تتضاءل القيم والأشياء والأشخاص إلَّا ما يتصل منها بالله ﴿وأمَّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإنَّ الجنَّة هي المأوى﴾ [النازعات. ٤٠ - ٤١].

والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار. فظلّ في دائرة الطاعة.

ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة. فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان، وكل تجاوز، وكل معصية. وهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقلّ أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى. فالجهل سهل علاجه. ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهد شاق طويل الأمد لعلاجها.

ويحذر القرآن الكريم من الهوى المتقلب. الهوى الذي يجعل منه بعضهم إلـهاً يتعبّده. فيضل ضلالاً لا اهتداء بعده. والعياذ بالله. ﴿أفرأيت من اتّخذ إلـهه هواه﴾ [الجاثية: ٢٣].

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب، وحين تتعبد هواها وتخضع له، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها. وتقيمه إلـهاً قاهراً لها، مستولياً عليها، تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول. يرسم هذه الصورة ويعجّب منها في استنكار شديد. أفرأيته؟ إنّه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب! وهو يستحق الضلال، فلا يتداركه الله برحمته سبحانه. فما أبقى في قلبه مكاناً للهدى وهو يتعبّد هواه المريض!

لقد انطمست فيه المنافذ التي يدخل منها النور، والمدارك التي يتسرب منها الهدى. وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم.

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة. وقلّ أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى. ومن ثمّ يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة. فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم

بدائها، لخبير بدروبها وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها. وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها!

ولم يكلّف الله الإنسان ألّا يشتجر في نفسه الهوى. فهو - سبحانه - يعلم أنّ هذا خارج عن طاقته. ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها. وأن يستعين في هذا بالخوف. الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب. وكتب له بهذا الجهاد الشاق، الجنّة مثوى ومأوى: ﴿فإنّ الجنّة هي المأوى﴾. ذلك أنّ الله يعلم ضخامة هذا الجهاد، وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى. ﴿ولمن خاف مقام ربّه جنّتان﴾ [الرّحمٰن: ٤٦].

ويذكر القرآن هذا المقام والتكريم لفريق ذي مرتبة عالية. ذلك كمن جرى من خوف مقام ربه، وعبده كأنه يراه، شعوراً أن ربه يراه؛ فبلغ بذلك مرتبة الإحسان كما وصفها رسول الله ﷺ فنال جزاء الإحسان من عطاء الرّحمن ﴿هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان﴾ [الرّحمن: ٦٠].

وفي ظل هذا الأنس الإلهي، وفي طمأنينة هذا القرب الذي يهدهد القلب ثواخف بالمسات الرحمة الندية.. يأتي الإعلان القرآني: ﴿ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الّذين آمنوا وكانوا يتّقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. لا تبديل لكلمات الله. ذلك هو الفوز العظيم﴾ [يونس: ٦٢].

وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم هكذا في كل شيء وفي كل عمل وفي كل حركة أو سكون؟ وهم أولياء الله، المؤمنون به الأتقياء المراقبون له في السر والعلن: ﴿الّذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾.

كيف يخافون وكيف يحزنون. وهم على اتصال بالله لأنّهم أولياؤه؟ وعلام يحزنون وممّ يخافون، والبشرى لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة؟ إنه

الوعد الحق الذي لا يتبدل - لا تبديل لكلمات الله - ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾.

إنَّ أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان المتقون حق التقوى. والإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل. والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه.. هكذا يجب أن نفهم معنى الولاية لله..

لقد كان المسلمون يعيشون مع القرآن فعلاً وواقعاً. عاشوا مع الله يخافون مقامه. عاشوا مع الآخرة واقعاً محسوساً. خافوا من عذاب جهنم وكانوا يشعرون بالقرآن يتمثل لهم صوت النار وهي تسري وتحرق. وإنه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر. لقد كانوا يحسون الآخرة ويعيشون فيها فعلاً بمشاعرهم كأنهم فيها، لا كأنها آتية لا ريب فيها فحسب! ومن ثمَّ كانت رجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد. وخوفهم من هول هذا اليوم المزلزل الرعيب.

ها هم أولاء ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾. إنهم يتوجهون إلى الله في خشية وفي طمع يتنازعهم الخوف والرجاء. الخوف من عذاب الله والرجاء في رحمته. والخوف من غضبه والطمع في رضاه. والخوف من معصيته والطمع في توفيقه.. ﴿وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النّفس عن الهوى. فإنَّ الجنّة هي المأوى﴾.

إنَّ الإنسان إنسان بهذا النهي، وبهذا الجهاد، وبهذا الارتفاع. وليس إنساناً بترك نفسه لهواها، وإطاعة جواذبه إلى دركها، بحجة أنَّ هذا مركب في طبيعته. فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى، هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه، ونهي النفس عنه، ورفعها عن جاذبيته؛ وجعل لها الجنّة جزاء ومأوى حين تنتصر وترتفع وترتقي. وهناك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان. تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق

من أسر الشهوة، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنساني. وهناك حرية حيوانية، هي هزيمة الإنسان أمام هواه، وعبوديته لشهوته، وانفلات الزمام من إرادته. وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداءً زائفاً من الحرية!

إنَّ الأوَّل هو الذي ارتفع وارتقى وتهيَّأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنَّة المأوى. أمَّا الآخر فهو الذي ارتكس وتكس وتهيَّأ للحياة في درك الجحيم حيث تهدر إنسانية، ويرتد شيئاً توقد به النَّار التي وقودها النَّاس ـ من هذا الصنف ـ والحجارة! وهذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة الأشياء.. ﴿لا يستوي أصحاب النَّار وأصحاب الجنَّة. أصحاب الجنَّة هم الفائزون﴾ [الحشر: ٢٠].

أصحاب الجنَّة هم عباد الله الأبرار الأتقياء، الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التكاليف، الخائفين من التقصير والقصور، مهما قدموا من القرب والطاعات فهم ﴿يخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾ [الإنسان: ٧].. فهم يدركون صفة هذا اليوم الذي يتفشَّى شرّه ويصيب الكثيرين من المقصرين والمسيئين. فيخافون أن ينالهم من شره..

أصحاب الجنَّة هم أصحاب القلوب الرحيمة الرقيقة الرفيقة، أصحاب القلوب التي تتَّجه في أعمالها ونيَّاتها وأنفاسها إلى الله تطلب رضاه. تتَّقي بإخلاصها يوماً عبوساً شديد العبوس، تتوقعه وتخشاه ﴿إنَّا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾.. وجزاء ذلك الشعور الكريم والعبودية لرب العالمين ﴿فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾.. ها هم أولاء قد تلقوا من الله نضرة وسروراً، لا يوماً عبوساً قمطريراً جزاءً وفقاً على خشيتهم وخوفهم، وعلى نداوة قلوبهم ونضرة نفوسهم. ها هم أولاء نلمحهم في الجنَّة في جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافىء في غير حرّ، نديّ في غير برد ﴿متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا

زمهريراً﴾. فلا شمس تلهب النسائم، ولا زمهرير وهو البرد القارس! ولنا أن نقول: إنّه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شموس أخرى من نظائرها.. وكفى!

﴿ودانيةً عليهم ظلالها. وذُلّلت قطوفها تذليلاً﴾.. وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الحبّ.. فهم في متاعهم متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائق.. يطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة، وفي أكواب من فضة كذلك، وهي بأحجام وأشكال مقدرة تقديراً يحقق المتاع والجمال ﴿ويُطاف عليهم بآنية من فضة، وأكواب كانت قوارير. قوارير من فضة قدّروها تقديراً﴾...

هذه هي هيئة من متاع أصحاب الجنّة، ثمَّ يرسم القرآن خطوطاً لمنظر بديع لهؤلاء الكرام عند الرّحمن. ويلقي عليه نظرة كاملة تلخص وقعه في القلب والنظر: ﴿وإذا رأيت ـ ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾..

نعيماً وملكاً كبيراً هو الذي يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء، على وجه الإجمال والعموم!

ثمّ يخصص مظهراً من مظاهر النعيم والملك الكبير، كأنّه تعليل لهذا الوصف وتفسير: ﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق. وحُلّوا أساور من فضة وسقاهمربهم شراباً طهوراً﴾..

والسندس الحرير الرقيق، والإستبرق الحرير السميك المبطن.. وهم في هذه الزينة وهذا المتاع، يتلقونه كله من (ربهم) فهو عطاء كريم من معط كريم. وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم!

﴿لا يستوي أصحاب النّار وأصحاب الجنّة. أصحاب الجنّة هم الفائزون﴾.. إنّها الرحمة أن يجد الشر جزاءه وألاّ يتساوى مع الخير في مصيره. وإذا كانت جهنّم مرصداً ومآباً للطاغين، لا يفلتون منها ولا

يتحاورونها، فإنَّ لمتَّقين ينتهون إلى مفازة ومنحاة ﴿إنَّ للمتَّقين مفازاً. حدائق وأعناباً. وكواعب أتراباً. وكأساً دهاقاً. لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذَّاباً. جزاء من ربك عطاءً حساباً﴾..

مشهد التُّقاة في نعيم، فقد انتهوا إلى مفازة، تتمثل ﴿حدائق وأعناباً﴾ ويخص الأعناب بالذكر والتعيين لأنَّها ممَّا يعرفه المخاطبون.. ﴿وكواعب﴾ وهنَّ الفتيات الناهدات اللواتي استدارت ثديهنَّ ﴿أتراباً﴾ متوافيات السن والجمال. ﴿وكأساً دهاقاً﴾ مترعة بالشراب. وهي مناعم ظاهرها حسي، لتقريبها للتصور البشري. أمَّا حقيقة مذاقها والمتاع بها فلا يدركها أهل الأرض وهم مقيدون بمدارك الأرض وتصوراتها. وإلى جوارها حالة يتذوقها الضمير ويدركها الشعور: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذَّاباً﴾.. فهي حياة مصونة من اللغو ومن التكذيب الذي يصاحبه الجدل؛ فالحقيقة مكشوفة لا مجال فيها لجدل ولا تكذيب؛ كما أنَّه لا مجال للغو الذي لا خير فيه.. وهي حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود.

وتمضي الآيات القرآنية تصور النعيم الذي يتقلب في أعطافه أصحاب الجنة. هؤلاء العباد المخلصين ﴿أولـئك لهم رزق معلوم. فواكه وهم مكرمون. في جنَّات النعيم. على سرر متقابلين. يُطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون. وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنَّهنَّ بيض مكنون﴾ [الصافات: ٤١ - ٤٩].

وهو نعيم مضاعف يجمع كل مظاهر النعيم. نعيم تستمتع به النفس ويستمتع به الحس. وتجد فيه كل نفس ما تشتهيه من ألوان النعيم.

فهم ﴿مكرمون﴾ في الملأ الأعلى، ويا له من تكريم! ثمَّ إنَّ لهم ﴿فواكه﴾ وهم على ﴿سرر متقابلين﴾. وهم يُخدمون فلا يتكلفون شيئاً من الجهد في دار الراحة والرضوان والنعيم: ﴿يُطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾.. وتلك أجمل

أوصاف الشراب، التي تحقق لذة الشراب، وتنفي عقابيله. فلا خمار يصدع الرؤوس، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع! ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾ حور حييات لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياء وعفة، مع أنهن ﴿عين﴾ واسعات جميلات العيون! وهن كذلك مصونات مع رقة ولطف ونعومة: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾.. لا تبتذله الأيدي ولا العيون! وهذا ﴿جزاءً من ربك عطاءً حساباً﴾ [النبأ: ٣٦]

ثم يتلقون الود والتكريم وهم في ذلك النعيم المقيم ﴿إنّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً﴾ [الإنسان: ٢٢]

يتلقون هذا النطق من الملأ الأعلى. وهو يعدل المناعم كلها، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها.

ويشترك الملائكة في التأهيل والتكريم في هذا التجمع الكريم. الملائكة في حركة رائحة غادية: ﴿يدخلون عليهم من كل باب﴾.

ويدعنا السياق القرآني نرى المشهد حاضرا وكأنما نشهده ونسمع الملائكة أطوافاً أطوافاً: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار﴾.

فهو تجمع مهيب رائع حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام

﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾ والصبر ألوان والصبر مقتضيات. صبر على تكاليف الميثاق من عمل وجهد ودعوة واجتهاد.. إلخ. وصبر على النعماء والبأساء. وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر. وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم وهي تضيق الصدور.. وصبر وصبر وصبر.. كله ابتغاء وجه ربهم ﴿والّذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم﴾. لا تحرجاً من أن يقول الناس: جزعوا. ولا تجملاً ليقول الناس: صبروا. ولا رجاء في نفع من وراء الصبر. ولا دفعاً لضر يأتي به الجزع.. ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله، والصبر على نعمته وبلوه. صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والاقتناع.. فأخرجوا هذا عبد الله ﴿وجزاهم بما صبروا

جنّةً وحريراً﴾، وقد رحمهم فنجّاهم من جهنّم واستثناهم من تذوق العذاب الأليم الذي أعدّه للضّالين الذين اتبعوا الشّيطان. ﴿إنّكم لذائقو العذاب الأليم. وما تجزون إلّا ما كنتم تعملون. إلّا عباد الله المخلصين﴾

هؤلاء: عباد الله المخلصين هم الذين صبروا على إغواء الشيطان وفرّوا من كيده إلى عون الرّحمن. إنّهم خلّق الجنّة خلقهم الله لها فلا سبيل للشيطان عليهم كما ذكرت الآية الكريمة في مطلع القصة على لسان إبليس: ﴿قال ربّ بما أغويتني لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين. إلّا عبادك منهم المخلصين﴾.

ثمّ يمضي القرآن في الحكاية المصوّرة، فإذا عباد الله المخلصون هؤلاء ـ بعدما يسّرت لهم كل ألوان المتاع ـ يعقدون سمر هادئ، يتذاكرون فيه الماضي والحاضر ـ وذلك في مقابل التخاصم والتلاحي الذي يقع بين المجرمين في جهنّم ـ وإذا أحدهم يستعيد ماضيه، ويقص على إخوانه طرفاً ممّا وقع له.

﴿قال قائل منهم: إنّي كان لي قرين. يقول: أإنّك لمن المصدّقين. أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أإنّا لمدينون؟﴾

لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر، ويسائله في دهشة: أهو من المصدّقين بأنّهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام؟!

وبينما هو ماضٍ في قصته يعرضه في سمره مع إخوانه، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره، وهو يعرف بطبيعة الحال أنّه قد صار إلى الجحيم. فيتطلع ويدعو إخوانه إلى التطلع معه:

قال: ﴿هل أنتم مطّلعون؟ فاطّلع فرآه في سواء الجحيم﴾.

عندئذٍ يتوجه إلى قرينه الذي وجده في وسط الجحيم. يتوجه إليه ليقول له: يا هذا. لقد كدت توردني موارد الردى بوسوستك. لولا أنّ الله قد أنعم عليّ، فعصمني من الاستماع إليك: ﴿قال: تالله إن كدت لتردين.

ولولا نعمة ربِّي لكنت من المحضـرين﴾.. أي لكنت من المساقين إلى الموقف وهم كارهون.

وتثير رؤيته لقرينه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين. فيحب أن يؤكدها ويستعرضها، ويطمئن إلى دوامها، تلذذاً بها وزيادة في لتمتع بها فيقول: ﴿أفما نحن بميتين إلاَّ موتتنا الأولى؟ وما نحن بمعذَّبين؟ إنَّ هذا لهو الفوز العظيم﴾

وهنا يرد تعليق يوقظ القلوب ويوجهها إلى العمل والتسابق لمثل هذا المصير: ﴿لمثل هـذا﴾ النعيم الذي لا يدركه فوت، ولا يخشى عليه من نفاد، ولا يعقبه موت، ولا يتهدده العذاب. ﴿لمثل هـذا فليعمل العاملون﴾ [لصافات: ٦١].. فهذا هو الذي يستحق الاحتفال. وما عداه ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود. ولكي يتضح الفارق الهائل بين هذا النعيم الخالد لآمن الدائم الراضي؛ والمصير الآخر الذي سيق إليه الفريق الآخر أصحاب النار فإنَّ القرآن يستطرد بعد ذلك ﴿أذلك خير نزلاً. أم شجرة الزقُّوم! إنَّا جعلناها فتنةً للظَّالمين. إنَّها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنَّه رؤوس الشَّياطين. فإنَّهم لآكلون منها فمالئون منها البطون. ثمَّ إنَّ لهم عليها لشوباً من حميم. ثمَّ إنَّ مرجعهم لإلى الجحيم﴾ [لصافات: ٦٢ ـ ٦٨].

أذلك النعيم المقيم خيرٌ منزلاً ومقاماً أم شجرة الزقُّوم؟

وما شجرة الزقُّوم؟.. ﴿إنَّها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنَّه رؤوس الشَّياطين﴾..

والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون! ولكنها مفزعة ولا شك. ومجرد تصورها يثير الفزع والرعب. فكيف إذا كانت طلعاً يأكلونه ويملأون منه البطون؟!

لقد جعل الله هذه الشجرة فتنة للظَّالمين فحين سمعوا باسمها سخروا

وقالوا كيف تنبت شجرة في الجحيم ولا تحترق. ولكن شجرة الزقّوم هذه شيء آخر غير الذي كانوا يعرفون!

﴿فإنَّهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾.. فإذا شاكت حلوقهم وهي كرؤوس الشياطين ـ وحرقت بطونهم ـ وهي تنبت في أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الجحيم ـ وتطلّعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفىء اللهيب فإنهم لشاربون عليها ماءً ساخناً مشوباً غير خالص: ﴿ثمَّ إنَّ لهم عليها لشوباً من حميم﴾..

وبعد هذه الوجبة المفزعة المحرقة المؤلمة يغدرون المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم. ويا له من نزل! ويا له من معاد! ﴿ثمَّ إنَّ مرجعهم لإلى الجحيم﴾.. إلى حلقات عذاب جديدة رهيبة ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ [النحل: ٨٨].

•

صور.. وصور:

إنَّ عذاب جهنَّم شديد مروِّع حقاً والله لا يظلم أحداً.. إنَّهم أصحاب النار الذين ينتهون إلى ذلك السعير المهين. فقد استولى عليهم الشيطان كلية فأنساهم طاعة ربهم فانتهى بهم إلى هذا الخسران المبين..

أمَّا اصحاب الجنَّة فهم الذين وصلوا قلوبهم بالله في السر والخفية ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشَ الله ويتَّقه فأولئك هم الفائزون﴾ [النور: ٥٢]، الناجون. وعد الله ولن يخلف الله وعده. وهم للفوز أهل، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم. فالطاعة لله ورسوله تقتضي السير على النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة، وهو بطبيعته يؤدِّي إلى الفوز في الدنيا والآخرة. وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج، وغض المغريات التي تهتف بهم على جانبيه، فلا ينحرفون ولا يلتفتون. إنهم في خشية لله وتقواه، وهذا هو طريق الفائزين: إشراق القلب بنور الله،

واتصاله به، وشعوره بهيبته. ﴿لا يستوي أصحاب النّار وأصحاب الجنّة. أصحاب الجنّة هُمُ الفائزون﴾..

وطريق أصحاب الجنّة غير طريق أصحاب النار.. لا يستويان طبيعة وحالاً. ولا طريقاً ولا سلوكاً. ولا وجهة ولا مصيراً. فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبداً في طريق. ولا يلتقيان أبداً في سمة. ولا يلتقيان أبداً في خطة. ولا يلتقيان أبداً في سياسة. ولا يلتقيان أبداً في صف واحد في دنيا ولا آخرة..

﴿أصحاب الجنّة هم الفائزون﴾.. يثبت مصيرهم. فهم الفائزون بولايته ورضاه وحبّه ﴿وسيق الّذين اتّقوا ربهم إلى الجنّة زمراً. حتّى إذا جاءوها وفتحت أبوابها. وقال لهم خزنتها. سلام عليكم. طبتم. فادخلوها خالدين﴾ [الزُّمر: ٧٣].

فهو الاستقبال الطيب والثناء المستحب وبيان السبب. ﴿طبتم﴾ وتطهرتم. كنتم طيبين. وجئتم طيبين. فما يكون فيها إلاّ الطيب. وما يدخلها إلاّ الطيّبون. وهو خلود في دنيا النعيم ﴿والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ـ لا نكلّف نفساً إلاّ وسعها ـ أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غلّ. تجري من تحتهم الأنهار. وقالوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا ـ وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ـ لقد جاءت رُسل ربنا بالحق. ونودوا أن تلكُمُ الجنّة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ [الأعراف: ٤٢ ـ ٤٣].

هؤلاء الفائزون هم الذين آمنوا وعملوا الصّالحات قدر استطاعتهم، لا يُكلّفون إلاّ طاقتهم.. هؤلاء هم يعودون إلى جنّتهم! إنّهم أصحابها ـ بإذن الله وفضله ـ ورثُها لهم ـ برحمته ـ بعملهم الصالح مع الإيمان. جزاء ما اتّبعوا رسل الله وعصوا الشيطان. وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم، وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم! ولولا رحمة الله ما كفى

عملهم ـ في حدود طاقتهم ـ وقد قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحداً منكم الجنّة عمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل»(١).

وليس هناك تناقض ولا اختلاف بين الله سبحانه في هذا الشأن، وقول رسول الله ﷺ ـ وهو لا ينطق عن الهوىٰ. . وكل ما ثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرق الإسلامية لم يقم على الفهم الصحيح لهذا الدين، إنّما ثار عن الهوى! فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفي أعمالهم بحق الجنّة. ولا بحق نعمة واحدة عليهم في الدنيا. فكتب على نفسه الرحمة، وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف؛ وكتب لهم به الجنة، فضلاً منه ورحمة، فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة. .

وبعد، فإن أولئك المفترون المكذّبون المجرمون الظالمون الغافلون المعتدون الكافرون المشركون يتلاعنون في النّار ويتخاصمون ـ كما تقدم في الفصل السابق ـ، وتغلي صدورهم بالسخائم والأحقاد، بعد أن كانوا أصفياء، أولياء. . فإنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنّة إخوان متحابّون متصافون متوادون، يرف عليهم السلام والولاء ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾. .

فهم بشر وهم عاشوا بشراً. وقد يثور بينهم في الحياة الدنيا غيظ يكظمونه، وغل يعالجونه ويغلبونه. ولكن تبقى في القلب منه آثار. قال القرطبي في تفسيره المسمّى أحكام القرآن: (قال رسول الله ﷺ: «الغل على أبواب الجنّة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين». . وروي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزّبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾. .).

---

(١) أخرجه مسلم.

وإذا كان أهل النار يصطرخون انار من تحتهم ومن فوقهم ـ كما تقدم ـ فأهل الجنة تجري من تحتهم الأنهار، فترف على الجو كله نسمة ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ . .

وإذا كان أهل النار في ضيق وخنق وظل من يحموم يشوي ويحرق فأهل الجنة مشغولون بما هم فيه من النعيم، متلذون متفكهون وإنهم لفي ظلال مستطابة يستروحون نسيمها ﴿إنَّ أصحاب الجنَّة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متَّكئون. لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يدَّعون. سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم﴾ [يس: ٥٥ ـ ٥٨].

إنَّه النعيم المقيم، فهم على أرائك متكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم. لهم فيها فاكهة ولهم كل ما يشاؤون؛ وهم ملاك محقق لهم فيها كل ما يدَّعون.

وإذا كان أهل النار قد اسودَّت وجوههم. تعلوها غبرة الحزن، ويغشاها سواد الذل والانقباض والحريق في النار. فأهل الجنَّة قد ابيضَّت وجوههم. وهي وجوه مستنيرة منيرة ضاحكة مستبشرة ﴿وجوه يومئذٍ ناعمة. لسعيها راضية: في جنَّةٍ عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابيُّ مبثوثة﴾ [الغاشية: ٨ ـ ١٦]. . هنا وجوه يبدو فيها النعيم. ويفيض منها الرضى. وجوه تنعم بما تجد. وتحمد ما عملت. فوجدت عقباه خيراً، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع. شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها. وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته، ثمَّ يراها ممثلة في رضى الله الكريم. وفي النعيم. ومن ثمَّ يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما في الجنَّة من رخاء ومتاع، ثمَّ يصف الجنَّة المتاحة لهؤلاء السعداء:

﴿في جنَّةٍ عالية﴾ . . عالية في ذاتها رفيعة مجيدة. ثمَّ هي عالية

الدرجات. وعالية المقامات. وللعلو في الحس إيقاع خاص.

﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ . ويطلق هذا التعبير جواً من السكون والهدوء والسلام والاطمئنان والود والرضى والسمر بين الأحباء والأوداء، والتنزه والارتفاع عن كل كلمة لاغية، لا خير فيها ولا عافية.. وهذه وحدها نعيم. وهذه وحدها سعادة. سعادة تتبين حين يستحضر الحسّ هذه الحياة الدنيا، وما فيها من لغو وجدل وصراع وزحام ولجاج وخصام وقرقعة وفرقعة. وضجة وصخب. وهرج ومرج. ثمّ يستسلم بعد ذلك لتصور الهدوء الآمن والسلام الساكن والود الرضي والظل الندي في العبارة الموحية: ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ ولفظها ذاتها تنسم الروح والندى وتنزلق في نعومة ويسر، وفي إيقاع موسيقي ندي رضي! وتوحي هذه اللمسة بأنّ حياة المؤمنين في الأرض وهم ينأون عن الجدل واللغو، هي طرف من حياة الجنّة، يتهيأون بها لذلك النعيم الكريم.. ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

والمؤمن الذي سيرث الفردوس وقد وصف القرآن ذلك النعيم الذي أعدّه الله له: مُعرض عن لغو القول، ولغو الفعل، ولغو الاهتمام والشعور. إنّ لقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر.. له ما يشغله من ذكر الله، وتصور جلاله وتدبر آياته في الأنفس والآفاق. وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب، ويشغل الفكر، ويحرك الوجدان.. وله ما يشغله من تكاليف العقيدة: تكاليفها في تطهير القلب، وتزكية النفس وتنقية الضمير. وتكاليفها في السلوك، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلّبه الإيمان. وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف. وتكاليفها في الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزّتها، والسهر عليها من كيد الأعداء.. وهي تكاليف لا تنتهي، ولا يغفل عنها المؤمن، ولا يعفي نفسه منها، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض

كفاية. وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري والعمر البشري. والطاقة البشرية محدودة. وهي إما أن تنفق في هذا الذي يصلح للحياة وينميها ويرقيها، وإما أن تنفق في الهذر واللغو واللهو. والمؤمن محكوم بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح.

ولا ينفي هذا أن يروح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين. ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو والفراغ..

وهكذا يتقدم الله من صفة الجنة صفة المؤمن في الأرض. يقدم الله هذا المعنى الرفيع الكريم الوضيء ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾.. ثمّ تجيء المناعم التي تشبع الحس والحواس تجيء في الصورة التي يملك البشر تصورها. وهي في الجنّة مكيفة وفق ما ترتقي إليه نفوس أهل الجنّة. ممّا لا يعرفه إلّا من يذوقه!

﴿فيها عين جارية﴾.. والعين الجارية الينبوع المتدفق. وهو يجمع إلى الري الجمال. جمال الحركة والتدفق والجريان. والماء الجاري يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التي تتنفس وتنبض! وهي متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الخفي، الذي يتسرب إلى أعماق الحس. ﴿فيها سرر مرفوعة﴾. والارتفاع يوحي بالنظافة كما يوحي بالطهارة. ﴿وأكواب موضوعة﴾ مصفوفة مهيّأة للشراب لا تحتاج إلى طلب ولا إعداد!

﴿ونمارق مصفوفة﴾.. والنمارق الوسائد والحشايا للاتكاء في ارتياح!

﴿وزرابيُّ مبثوثة﴾.. والزرابي البسط ذات الخمل، السجاجيد، مبثوثة هنا وهناك للزينة وللراحة سواء!

وبعد، فإذا كان أهل النار يشتغلون بالتنابز والخصام، فهؤلاء أهل النعيم يشتغلون بالحمد والاعتراف ﴿وقالوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما

كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف: ٤٣].

وإذا كان أولئك يبدون بالتحقير والتأنيب. ﴿ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس في النار﴾. فإنّ هؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم: ﴿ونودوا أن تلكُمْ الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾..

وإذا كان أهل النار قد حُرموا الحُسنى وحُجبوا عن ربهم: ﴿كلاَّ! إنَّهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجـوبـون﴾ [المطففين: ١٥] حجبت قلوبهم المعاصي والآثام، حجبتها عن الإحساس بربها في الدنيا. وطمستها حتى أظلمت وعميت في الحياة.. فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يُحرموا النظر إلى وجه الله الكريم، وأن يحال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى، التي لا تُتاح إلاَّ لمن شفت روحه ورقَّت وصفت واستحقَّت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها. وهذا الحجاب عن ربهم، عذاب فوق كل عذاب، وحرمان فوق كل حرمان. ونهاية بائسة لإنسان يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم. فإذا حجب عن هذا المصدر فَقَدَ خصائصه كإنسان كريم؛ وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم.. وإذا كان أهل النار قد حُجبوا عن ربهم. فإنَّ أهل الجنَّة يغمرهم ربهم بفيض ونعمة ينسون ما هم فيه من النَّعيم. ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربِّها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

إنَّ هذا النص ليشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها؛ كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها. ذلك حين يعد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لا تشبهها حالة. حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنَّة بكل ما فيها من ألوان النعيم!

هذه الوجوه الناضرة.. نضرها أنَّها إلى ربها ناظرة.

إلى ربها..؟! فأي مستوىً من الرفعة هذا؟ أي مستوى من السعادة؟

إنّ روح الإنسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس، تراها في الليلة القمراء. أو الليل الساجي. أو الفجر الوليد. أو الظل المديد. أو البحر العبب. أو الصحراء المنسابة. أو الروض البهيج. أو الطلعة البهية. أو القلب النبيل. أو الإيمان الواثق. أو الصبر الجميل. . إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود. . فتغمرها النشوة، وتفيض بالسعادة، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة. وتتوارى عنها أشواك الحياة، وما فيها من ألم وقبح، وثقلة طين وعرامة لحم ودم، وصراع شهوات وأهواء. .

فكيف؟ كيف بها وهي تنظر - لا إلى جمال صنع الله - ولكن إلى جمال ذات الله؟

ألا إنّه مقام يحتاج أولاً إلى مَدَد من الله. ويحتاج ثانياً إلى تثبيت من الله. ليملك الإنسان نفسه، فيثبت، ويستمتع بالسعادة، التي لا يحيط بها وصف، ولا يتصور حقيقتها إدراك! ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربّها ناظرة﴾ . . وما لها لا تنضر وهي إلى جمال ربها تنظر؟

إنّ الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض - من طلعة بهية، أو زهرة ندية، أو جناح رفف، أو روح نبيل، أو فعل جميل. فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه، فيبدو فيها الوضاءة والنضارة. فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال. مطلقاً من كل ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام، إلاّ وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقىٰ الذي يعزّ على الخيال! كل شائبة لا فيما حولها فقط، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ما سوىٰ النظر إلى الله . .

فأمّا كيف تنظر؟ وبأي جارحة تنظر؟ وبأي وسيلة تنظر؟ . . فذلك حديث لا يخطر على قلب، يمسّه طائف من الفرح الذي يطلقه النص

القرآني، في القلب المؤمن، والسعادة التي يفيضها على الروح، والتشوف والتطلع والانطلاق! فما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة؟ ويشغلونها بالجدل حول مطلق، لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته؟!

إنَّ ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة، هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك. وقبل هذا الانطلاق سيعسر عليها أن تتصور - مجرد تصور - كيف يكون ذلك اللقاء. وإذن فقد كان جدلاً ضائعاً ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السنة والمتكلّمين حول حقيقة النظر والرؤية من مثل ذلك المقام.

لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض؛ ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض، ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال.

إنَّ مدلول الكلمات ذاته مقيد بما ندركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة. فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تتغير طبيعة الكلمات. فالكلمات ليست سوى رموز يختلف ما ترمز إليه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الإنسان. فإذا تغيرت طاقته تغيَّر معها رصيده من التصورات، وتغيرت معه طبيعة مدلول الكلمات. ونحن نتعامل في هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا! فما لنا نخوض في أمر لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات؟!

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادىء، وفيض الفرح المقدس الطهور، الذي ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك. ولنشغل أرواحنا بالتطلّع إلى هذا الفيض؛ فهذا التطلع ذاته نعمة. لا تفوقها إلاَّ نعمة النظر إلى وجهه الكريم..

« فما ظنك بوجوه نظرت إلى الله عزَّ وجلَّ وسمعت كلامه كيف

ضاعف حسنها وجمالها، وزاد ذلك في إشراقها ونورها.. فلو رأيت وجوههم وقد أشرقت بسرور كلام مولاهم. فأعظم به من مجلس وأعظم به من جمع. فكن إلى ربك مشتاقاً وإليه متحبباً..»[1].

إنه التقابل التام بين أصحاب الجنة وأصحاب النار..

ثم يمضي القرآن الكريم في عرض مشهد مؤثر ملؤه الجد الصارم.. لقد اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم، و ستيقن أصحاب النار من مصيرهم. وإذا الأولون ينادون الآخرين، يسألونهم عمّا وجدوه من وعد الله القديم: ﴿ونادى أصحاب الجنّة أصحاب النّار: أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا نعم! فأذّن مؤذّنٌ بينهم: أن لعنة الله على الظّالمين. الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾ [الأعراف: ٤٤ - ٤٥]..

وفي هذا السؤال من السخرية المُرّة ما فيه. إنّ المؤمنين على ثقة من تحقق وعيد الله كثقتهم من تحقق وعده. ولكنّهم يسألون!

ويجيء الجواب في كلمة واحدة.. نعم..!

وعندئذٍ ينتهي الحوار، وينقطع الحوار: ﴿فأذّن مؤذّن بينهم: أن لعنة الله على الظّالمين. الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾..

فيتحدد معنى «الظّالمين» المقصود. وهو مرادف لمعنى «الكافرين». فهم الذين يصدّون عن سبيل الله، ويريدون لطريق عوجاً لا استقامة فيه، وهم بالآخرة كافرون.

وفي هذا الوصف: ﴿ويبغونها عوجاً﴾. يحاء بحقيقة ما يريده الذين يصدّون عن سبيل الله. إنهم يريدون لطريق العوجاء؛ ولا يريدون

(١) «التوهم» للإمام المحاسبي، ص ٦٣

الطريق المستقيم. يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة. فالاستقامة لها صورة واحدة: صورة المضي على طريق الله وبهجه وشرعه. وكل ما عداه فهو أعوج؛ وهو إرادة للعوج. وهذه الإرادة تلتقي مع الكفر بالآخرة. فما يؤمن بالآخرة أحد، ويستيقن أنه راجع إلى ربه؛ ثم يصد عن سبيل الله، ويحيد عن نهجه وشرعه.. وهذا هو التصور الحقيقي لطبيعة النفوس التي تتبع شرعاً غير شرع الله. التصوير الذي يجلو حقيقة هذه النفوس ويصفها الوصف الداخلي الصحيح.

ثم!! ها نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من قبل النار، ملؤه الرجاء والاستجداء ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة: أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾!.

وها نحن أولاء نلتفت إلى الجانب الآخر نسمع الجواب ملؤه التذكير الأليم المرير. ﴿قالوا: إن الله حرمهما على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا﴾

وهكذا تتجمع الإيقاعات المتنوعة في قصة آدم على هدف واحد، هو استجاشة القلب البشري لإدراك الحق الأصيل في نشأته الذي حق الله العباد له، ومنحهم وجودهم ليؤدوها ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ .

إن هذا القرآن حق وجد. كما أن هذا الكون حق وجد. فلا مجال للهو في استقبال رسالة القرآن لأداء المهمة والوظيفة. والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد. الذي يلفت النفوس إلى الخطر القريب المحدق، وهي عنه غافلة لاهية: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون. ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون﴾ [الأنبياء: ٢-١]..

تقرير قوي يهز الغافلين هزاً. والحساب يقترب وهم في غفلة. والحقيقة تعرض وهم معرضون عن الهدى. والموقف جد وهم لا يشعرون

بالموقف وخطورته. وكلما جاءهم لحق بأمر قابلوه باللهو والاستهتار، واستمعوه وهم هازلون يلعبون.. ﴿لاهية قلوبهم﴾.. والقلوب هي موضع التأمل والتدبر والتفكير.

إنها صورة للنفوس الفارغة التي لا تعرف الجد، فتلهو في أخطر المواقف، وتهزل في مواطن الجد. وتستهتر في مواطن القداسة. فالذكر الذي يأتيهم من «ربهم» فيستقبلونه لاعبين، بلا وقار ولا تقديس

والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال والقداسة تنتهي إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال، فلا تصلح للنهوض بعبء، ولا الاضطلاع بواجب، ولا القيام بتكليف. وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة!

إنَّ روح الاستهتار التي تلهو بالمقدسات روح مريضة. والاستهتار غير الاحتمال. فالاحتمال قوة جادة شاعرة. والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء.

وهؤلاء الذين يصفهم القرآن الكريم كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستوراً للحياة، ومنهجاً للعمل، وقانوناً للتعامل.. باللعب. ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة. وأمثال هؤلاء موجودون في كل زمان. فحيثما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائهة التي يرسمها القرآن. والتي تحيل الحياة كلها إلى هزل فارغ، لا هدف له ولا قوام! ثمَّ لا يتوقعون لقاء الله، ولا يدركون أن تكون هناك آخرة، ويقفون عند حدود الدنيا وارتضائها. هؤلاء يخفضون رؤوسهم وأبصارهم إلى هذه الأرض وما عليها! غافلين عن حكمة الله في خلقه. غافلين عن آيات الله التي توقظ القلب، وترفع الحس، وتحفز إلى التطلع والكمال.

﴿أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ [يونس: ٨] وبئس المأوى وبئس المصير! هؤلاء غرَّتهم الأماني الباطلة.. وغرَّهم بالله الشيطان الذي

كان يطمعهم ويمنّيهم.. ها هم أولاء في مأواهم.. في جهنَّم.. في السعير المتأجج.. ها هي ذي جهنَّم محيطة بهم. ينفذ العذاب الأليم إلى المسام ويشوي الأجسام.. هـا هم أولاء في هذا الشظف والحرمـان ينادون في استجداء مهين حزين ﴿ونادى أصحاب النَّار أصحابَ الجنَّة: أن أفيضوا علينا من الماء أو ممَّـا رزقكم الله﴾!.. ﴿قـالـوا: إنَّ الله حـرَّمهمـا على الكافرين. الذين اتَّخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرَّتهم الحياة الدُّنيا﴾..

ثُمَّ إذا صوت البشر عامة يتوارى، لينطق رب العزة والجلالة، وصاحب المُلك والحكم: ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يـومهم هـذا. وما كـانوا بآياتنا يجحدون. ولقد جئناهم بكتاب فصَّلناه على علم، هدىً ورحمةً لقوم يؤمنون. هل ينظرون تأويله؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل. قد جاءت رسل ربِّنا بالحق، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا، أو نردُّ فنعمل غير الـذي كنَّا نعمـل. قد خسـروا أنفسهم، وضلَّ عنهم مـا كانـوا يفترون﴾ [الأعراف: ٥١ - ٥٣].

وهكذا تـتوالى إلى صفحات المشهد جيئة وذهوباً.. لمحة في الآخرة ولمحة في الدنيا. لمحة مع المعذَّبين في النَّار، المنسيين كما نسوا لقاء يومهم هذا وكما جحدوا بآيات الله، وقد جاءهم بها كتاب مفصـل مبين. فَصَّله الله - سبحانه - على علم - فتركوه واتَّبعوا الأهواء والأوهام والظنون.. ولمحة معهم - وهم بعد في الدنيا - ينتظرون مآل هذا الكتاب وعـاقبة مـا جاءهم من النذير، وهم يُحذَّرُون أن يجيئهم هذا المآل. فالمآل هو ما يرون في هذا المشهد من واقع الحال!

وهكذا ينتهي ذلك الاستعراض الكبير لمشاهد قصة البشرية؛ ويجيء التعقيب عليها متناسقاً مع الابتداء. تذكيراً بهذا اليوم ومشاهده؛ وتحذيراً من التكذيب بآيات الله ورسله، ومن انتظار تأويل هذا الكتاب فهذا هو تأويله، حيث لا فسحة لتوبة، ولا شفاعة في الشدة، ولا رجعة للعمل مرة أُخرىٰ.

نعم.. هكذا ينتهي الاستعراض. فنبقى معه كما نبقى من مشهد أخاذ كما نراه.

ونعود منه إلى هذه الدنيا التي فيها نحن! وقد قطعنا رحلة طويلة في الذهاب والمجيء!

قصصها قصة آدم.. قصة الإنسان. قصة البشرية.. إنها رحلة الحياة كلها.. رحلة البشرية في نشأتها الأولى، وفي هبوطها إلى الأرض وسيرها فيها، ورحلة الموت والحشر والحساب والجزاء بعدها! الرحلة الواسعة الآماد، من المنشأ إلى المعاد..

تدبُّر وتأمُّل:

إنَّ قصة آدم - عليه السَّلام - في القرآن الكريم هي زاد الطريق للإنسان في رحلته على الأرض.. وهي عدة الموكب البشري في هذا الطريق..

وبعد، نتلفت الآن - وقد انتهى سياق القصة - على المدى المتطاول من المنشأ إلى المعاد، نتلفت، والمساحة الشاسعة، والأغوار البعيدة.. تلك التي تتراءى فيها أبعاد القصة، فإذا هو شيء هائل هائل..

ألا إنَّها رحلة شاسعة الآماد، عميقة الأغوار، هائلة الأبعاد هذه التي قطعناها مع القصة.. رحلة مع ميلاد آدم ونشأة الإنسان.. ثمَّ هبوطه إلى الأرض للعمل والابتلاء.. ثمَّ عودته للحساب والجزاء.. ثمَّ مصيره الخالد إلى الجنَّة والنعيم أو إلى الجحيم والعذاب الأليم..

رحلة البشرية ترسم حقيقة النفس الإنسانية، بأغوارها وأعماقها، ودروبها ومنحنياتها، وظاهرها وخافيها، وأهوائها وشهواتها، وهداها وضلالها، وما يوسوس لها من شياطين الإنس والجن. وما يقود من خطواتها من هدى أو ضلال..

هذه القصة تحتشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد، والإيقاعات واللمسات، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه.. تحتشدها بقوة، في أسلوب القرآن، بطريقة دقيقة واضحة

من أهم الحقائق الكبيرة التي تحتشدها هذه القصة في مواجهة القلب البشري، وتضرب بها عليه حصاراً لا مهرب منه: هي أن رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء، وأنه في قبضة الله. ﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سُدى﴾ [القيامة: ٣٦]

إنّ هذا البيان القرآني يشتمل على لفتة عميقة إلى الحقيقة الكبيرة تلك اللفتة إلى التقدير والتدبير في حياة الإنسان. فلقد كانت الحياة في نظر أهل الجاهلية، قديماً وحديثاً، حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية. أرحام تدفع وقبور تبلع وبين هاتين لهو ولعب، وزينة وتفاخر، ومتاع قريب من متاع الحيوان. فأما أن يكون هناك ناموس، وراءه هدف، ووراء الهدف حكمة. وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجري إلى غاية مقدرة، وأن ينتهي إلى حساب وجزاء، وأن تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء.. أمّا هذا التصور الدقيق المتناسق، والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة، تفعل كل شيء بقدر، وتنهي كل شيء إلى نهاية أمّا هذا فهو أبعد شيء عن تصور الناس ومداركهم في الجاهليات القديمة والحديثة..

والذي يميز الإنسان عن الحيوان، هو شعوره باتصال الزمن والأحداث والغايات. وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني، ومن الوجود كله من حوله. وارتقاؤه في سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هذا وسعته، ودقة تصوره لوجود الناموس، وارتباط الأحداث والأشياء بهذا الناموس، فلا يعيش عمره لحظة لحظة، ولا حادثة حادثة، بل يرتبط في تصوره الزمن والمكان والماضي والحاضر والمستقبل. ثمّ يرتبط هذا كله

بالوجود الكبير ونواميسه. ثمّ يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثاً ولا تتركهم سدى ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً، وأنّكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥]. . فالله سبحانه يبصر الناس بحكمة البعث المكنونة منذ أول الخلق.

وحكمة البعث من حكمة الحق. محسوب حسابها، ومقدر وقوعها، ومدبر غايتها. وما البعث إلاّ حلقة في سلسلة النشأة، تبلغ بها كمالها، ويتم فيه تمامها. ولا يغفل عن ذلك إلاّ المحجوبون المطموسون، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى في خلق الإنسان، وهي متجلية في صفحات الكون، مبثوثة في أطواء الوجود. .

لقد اقتضت حكمة الله أن يخلق كل موجود لوظيفة، ومنحه وجوده ليؤديها ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]. .

إنّ هذا النص الصغير ليحتوي الحقيقة الضخمة الهائلة، حيث لا تستقيم حياة البشر بدون إدراكها واستيقانها. سواء كانت حياة فرد أم جماعة. أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها.

وإنّه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة، التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة.

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أنّ هناك غاية معينة لوجود الجن والإنس تتمثل في وظيفة من قام بها وأدّاها فقد حقق غاية وجوده؛ ومن قصَّر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده؛ وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل، الذي تستمد منه قيمتها الأولى. وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود، وانتهى إلى الضياع المطلق، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء.

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود، هي العبادة لله. أو هي العبودية لله.. أن يكون هناك عبد ورب. عبد يعبد، ورب يُعبد. وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار.

ومن ثمَ يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة. ويتبين أنّ مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر. فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر. والله لا يكلفهم هذا. وهو يكلفهم ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم. وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن. ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان. نعرفها من القرآن من قول الله تعالى: ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة﴾.. فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني. وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها. كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام.

ومن ثمَ يتجلى أنَّ معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني، التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأنَّ وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً. وأنَّ حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس. أي استقرار الشعور على أنّ هناك عبداً ورباً. عبداً يعبد، ورباً يُعبد. وأن ليس وراء ذلك شيء؛ وأن ليس هناك إلاّ هذا الوضع وهذا الاعتبار. ليس في هذا الوجود إلاّ عابد ومعبود؛ وإلاّ رب واحد والكل له عبيد.

والثّاني: هو التوجُّه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في

الجوارح، وكل حركة في الحياة، المتوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله. كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى، جاء لينهض بها فترة. طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها، ولا غاية له من ورائها، إلا الطاعة، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله، ومن أنس برضى الله عنه، ورعايته له. ثم يجده في الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً.

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقاً. يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومطامعها الصغيرة. ويكون قد تحرر بهذا الفرار. تحرر حقيقته من الأوهاق والأثقال والقيود، [illegible] في الموضع الكريم اللائق [illegible] الأصيل عند الله خليفة له [illegible] وإنه لمن حقه أن يحقق غاية وجوده. فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض، وينهض بتكاليفها، ويحقق أقصى ثمراتها، وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها، خالص النفس من جواذبها ومعوقاتها. ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو، ولا لذاتها، ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها، ثم الفرار إلى الله منها. ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها. فلتكن النتائج ما تكون. فالإنسان غير معلق بهذه النتائج. إنما هو معلق بأداء العبادة في أدائه لهذه الأعمال، ولأن جزاءه ليس في نتائجها، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها.

ومن ثمَّ يتغير موقف الإنسان تغيراً كاملاً تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال. فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامن فيها. ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته. ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك. فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في حسابه، وليست من شأنه. إنَّما هو قدر الله ومشيئته. وهو جهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيئته. ومتى نفض الإنسان نفسه من نتائج العمل والجهد، وشعر أنَّه أخذ نصيبه، وضمن جزاءه، بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد، فلن تبقى في قلبه حينئذٍ بقية من الأطماع التي تدعو إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة. فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف. ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض، وثمرات هذا النشاط. فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته.

وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الثمرة والنتيجة لأي عمل كان. بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة، الذي يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة. ومن ثمَّ يصبح قلب الإنسان معلقاً بتحقيق معنى العبادة في الجهد، طليقاً من التعلق بنتائج الجهد. وهي مشاعر كريمة لا تنشأ إلاَّ في ظل هذا التصور الكريم.

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقها، فذلك لأنَّها لم تعش ـ كما عاش جيل المسلمين الأول ـ في ظلال هذا القرآن. ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم.

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأُفق. أُفق العبادة. أو أُفق العبودية. ويستقر عليه. فإنَّ نفسه تأنف حتماً من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة. ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا. فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم. ومن جهة

أخرى فهو لا يعني نفسه بلوغ الغايات. إنما يعني نفسه بأداء الواجبات، تحقيقاً لمعنى العبادة في الأداء. أما الغايات فموكولة لله. يأتي بها وفق قدره الذي يريده. ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله، وليست داخلة في حساب المؤمن العابد لله.

ثمَّ يستمتع العبد براحة الضمير، وطمأنينة النفس، وصلاح البال، في جميع الأحوال. سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها. تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها. فهو قد أنهى عمله. وضمن جزاءه، عند تحقق معنى العبادة واستراح. وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته. وقد علم هو أنه عبد، فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد. وعلم أنَّ له رب، فلم يعد يتقحم فيما هو من شؤون الرب. واستقرت مشاعره عند هذا الحد، ورضي الله عنه، ورضي هو عن الله.

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة.. وهي حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلها عندما تستقر في الضمير.

* * *

حقيقة دقيقة:

ولا بد من التأكيد على (حقيقة دقيقة) في القصة هي خليقة الشر والعصيان التي تبدت في عدوة آدم وذريته. إبليس الذي صمم على الانتقام من آدم وذريته ﴿قال: ربِّ فأنظرني إلى يوم يبعثون. قال: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾. ﴿قال: فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم﴾ لقد جعل الله سبحانه - لإبليس وقبيله فرصة الإغواء وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقاً للابتلاء، الذي قضت مشيئته أن تأخذ به هذا الكائن.

إنَّ هذه الحقيقة تطوف بالقلب البشري في جولات مستمرة متعاقبة، وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة؛ وتهزه هزاً عميقاً متواصلاً لتطبع فيه

جدّية هذه الحقيقة في حياة الإنسان. ﴿إنّه لكم عدوٌّ مبين﴾..

وعداوة الشيطان لها صور شتّى وضروب كثيرة من الإغواء والتزيين والوسوسة، فمنذ مطلع القصة تبرز هذه الحقيقة نصاً لآدم - عليه السّلام - وزوجه: ﴿فقلنا يا آدم إنّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك﴾ [طه: ١١٧].

ونصاً مميزاً للإنسان في كل زمان ومكان وللبشرية على مدى الأيام: ﴿إنّ الشّيطان للإنسان عدو مبين﴾ [يوسف: ٥].

﴿إنّ الشّيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ [الإسراء: ٥٣]. ﴿ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢].. ﴿إنّ الشّيطان لكم عدوٌّ فاتّخذوه عدوّاً﴾ [فاطر: ٦] ﴿ولا يصدّنّكم الشيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين﴾ [الزّخرف: ٦٢]. إنّ هذه الحقيقة يريد أن يطبعها القرآن في وجدان الإنسان لإيقاظ القلب واستجاشته وإثارة حساسيته، وإرهافه للمراقبة الواعية للوسوسة الخافية.

ولا بد من لفتة هنا إلى طوق النجاة من هذا العدو المبين الخبيث: ﴿قال فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين﴾.. إنّ عباد الله لا يملك الشيطان أن يزيّن لهم لأنّهم من الله في حِمى. ولأنّ مداخل الشّيطان إلى قلوبهم موصدة ﴿وهذا صراط عليّ مستقيم. إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان. إلاّ من اتّبعك من الغاوين﴾.

ثمّ لمسة نفسية أخرى، لاستنهاض الهمم، واستجاشة العزائم، وإنارة الطريق، وتحديد لقوى: ﴿إنّ كيد الشّيطان كان ضعيفاً﴾. والعبد لله يطمئن بإحساسه بالصلة بربه، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه. يطمئن بالشعور بالحماية من كيد الشيطان ووسوسته.

إنّ نور الله في قلب المؤمن تتجلى تحت أشعته حقائق الأشياء التي يبثها الشيطان في النفس وفي الحياة، ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محدداً.. في داخل النفس وفي واقع الحياة سواء.. حيث تجد النفس من

هذا النور ما ينير جوانبها أوّلاً، فترى كل شيء فيها.. ترى نفخات الشيطان وهمزاته ونفثاته.. ترى هذا واضحاً. حيث يتلاشى الغبش وينكشف. وحيث تبدو الحقيقة ويخنس الشيطان وتذهب ريح وسوسته ﴿إنَّ كيد الشَّيطان كان ضعيفاً﴾.

وما أجدر الإنسان، أن يلتجيء إلى حمى الرَّحمن من كيد الشَّيطان. ما أجدر الإنسان أن يأخذ على الشيطان طريقه ﴿وإمَّا ينزغنَّك من الشَّيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنَّه سميع عليم﴾.. وذكر الله عند وسوسة الشَّيطان يأخذ الطريق عليه وعلى نزغه اللئيم. والعبودية لله والاعتصام به ـ سبحانه ـ، وهي ثمرة ملازمة للإيمان والتقوى ﴿إنَّ الَّذين اتقَوْا إذا مسَّهم طائفٌ من الشَّيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف: ٢٠١]

وتكشف هذه الآية العظيمة عن إيحاءات عجيبة، وحقائق عميقة، يتضمنها التعبير القرآني المعجز الجميل. إنَّ اختتام الآية بقوله ﴿فإذا هم مبصرون﴾ ليضيف معاني كثيرة إلى صدر الآية ليس لها ألفاظ تقابلها هناك. إنَّه يفيد أنَّ مسَّ الشيطان يعمي ويطمس ويغلق البصيرة. فلا نور الحق يوصوص ولا هدى. إنها ضلالة مظلمة يرسمها الشيطان على الإنسان تغشية على القلوب والأسماع والعيون والأبصار ولكن تقوى الله ومراقبته وخشية غضبه وعقابه. تلك الوشيجة التي تصل القلوب بالله وتوقظها من الغفلة عن هداه.. تذكر المتقين فإذا تذكروا تفتحت بصائرهم؛ وتكشفت الغشاوة عن عيونهم: ﴿فإذا هم مبصرون﴾.. إنَّ مسَّ الشيطان عمى، وإنَّ تذكُّر الله إبصار. إنَّ مسَّ الشيطان ظلمة، وإنَّ الاتجاه إلى الله نور. إنَّ مسَّ الشَّيطان تجلوه التُّقوى، فما للشيطان على المتَّقين من سلطان..

إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً حين يكون الاعتصام بالله. إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً متى صحَّ الإيمان، ومتى عرفت النفس حقيقة الله

وعرفت حقيقة عبودية الكل له. فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده. وهو صاحب السلطان على الشيطان وعلى كل الخلائق في سائر الأكوان. وهو صاحب السلطان والقدرة وحده. وهؤلاء الذين اعتصموا به سبحانه يدُ الله تنقل خطاهم في الطريق إليه في رحلة الحياة؛ وتقربهم إليه خطوة خطوة.. وتمسح عن قلوبهم نزغات الشيطان ﴿فإذا هم مبصرون﴾، فالتقوى في القلب نور تتحول مسّ الشيطان ووسوسته.

إنَّ قلب المؤمن هو القلب التقي النقي، الخائف الحساس، المعتصم بالله.. ورد أنَّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سأل أُبيَّ بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال بلى! قال: فما عملت؟ قال: شمّرت واجتهدت. قال: فذلك التقوى.

فذلك التقوى.. حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم. وتوقٍّ لأشواك الطريق.. طريق الحياة.. الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات. وأشواك المطامع والمطامح وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممَّن لا يملك نفعاً ولا ضراً. وعشرات غيرها من الأشواك!

إنَّ الذين اتقوا في رحمة من الله وفضل.. الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس. الذين دافعوا نزغات الشيطان ووسوسته بالاعتصام بالله.. الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا في سيرهم في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب.. أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم، ولن ينسى جهادهم. إنه سيأخذ بأيديهم ﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾.. وكلمة «إليه».. تخلع على التعبير حركة مصورة. إذ ترسم المؤمنين وعناية الله ورحمته تكلؤهم في كل خطوة في طريق الحياة، وتقربهم إليه.. وهي عبارة يجد مدلولها في نفسه من يؤمن بالله على بصيرة، فيعتصم به على ثقة.. حيث يحس في كل لحظة أنه يهتدي؛ وتتضح أمامه الطريق؛

ويقترب فعلاً من الله كأنما هو يخطو إليه في طريق مستقيم.

إنه مدلول يذاق.. ولا يُعرف حتى يُذاق!

إنَّ الشيطان هو العقبة الكبرى، وربما كان العقبة الشاملة التي تصدّ الإنسان عن صراط الله المستقيم. فقد أصرَّ الإصرار المطلق على الشر **﴿قال: فبما أغويتني لأقعُدَنَّ لهم صراطك المستقيم. ثمَّ لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾**..

إنَّها إرادة الشر. إرادة العامد القاصد العنيد. إرادة العدو الخبيث الماكر لصد الإنسان عن صراط الله المستقيم. فهي وظيفته في هذه الرحلة إلى يوم يبعث الله خلقه في الوقت المعلوم. وهو يجري في ابن آدم مجرى الدم. ويتكىء جاثماً على قلب الإنسان، يوسوس إليه ليصدّه عن سبيل الله، وينفخ فيه الإثم والشرود عن الحق المبين. يُخرج هذا المخلوق من النور إلى الظلام! فلا يرى إلَّا ما يوسوس إليه ويقوده إلى الطغيان البعيد. وفي الظلام يقوى الشيطان ويُوحي إلى الإنسان زخرف القول والعمل غروراً، فيجور على الحق، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله، ومن الشريعة التي يسنّها الله، فهو في ضلال وتيه وظلمات شتَّى منوعة.. ظلمة الهوى والشهوة. وظلمة الشرود والانحراف. وظلمة الكبر والطغيان. وظلمة الضعف والذلّة. وظلمة الرياء والنفاق. وظلمة الطمع والسعر. وظلمة الشك والقلق.. وظلمات شتّى لا يأخذها الحصر تتجمع كلها عند الشرود عن طريق الله. واتباع الشيطان.. وما يترك الإنسان نور الله الواحد الذي لا يتعدد. نور الحق الواحد الذي لا يتلبس. حتى يُدخله الشيطان في ظلمات من شتّى الأنواع وشتّى الأصناف.. وكلها ظلمات...!

والعاقبة التي يرجوها الشيطان من جراء هذا الكيد المتين للإنسان أن

ينسلخ من فطرته التي فطره الله عليها فيترك الرشد إلى الغي، ويدع الهدى إلى الضلال، ويؤثر التخبط والهبوط والضآلة على الطمأنينة والسلام والرفعة والاستعلاء!

إنَّ الإيمان والاعتصام بالله نور يشرق به كيان الإنسان أول ما ينبثق في ضميره. تشرق به روحه وتصفو، وتشع من حولها نوراً ووضاءة ووضوحاً يمحي كل ظلام نسجه الشيطان بإذن الله وإحكامه. فيكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات، فيراها قلب المؤمن واضحة بغير غبش، بينة بغير لبس ولا تلبيس، مستقرة في مواضعها بغير أرجحة؛ فيأخذ منها ما يأخذ ويدع منها ما يدع في طمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه. يمضي في طريقه إلى الله هيّناً ليّناً، ولا يخبط هنا وهناك، فالطريق في فطرته مكشوف معروف.

من تأمَّل القرآن الكريم والسنَّة النبوية وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته، فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس[1]. وهذا هو الذي لا ينبغي غيره، فإنَّ شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبته وموضع شره، ومحل طاعته. ومن الهدي النبوي الشريف في بيان حقيقة الشيطان نقتطف شيئاً يبين هذه الحقيقة:

- عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلَّا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن» قالوا: وإيَّاك

---

(1) ذكرت النفس المذمومة في القرآن في قوله تعالى: ﴿إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء﴾ [يوسف 53]، واللوّامة في قوله: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾ [القيامة 2] وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ [النازعات: 40].
وجاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله ﷺ: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا».

يا رسول الله؟ قال: «وإيَّاي، إلاّ أنَّ الله قد أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلاّ بخير»(١).

- عن شريك بن طارق، قال. قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاّ وله شيطان» قالوا: ولك يا رسول الله؟ قال: «ولي، إلاّ أنَّ الله أعانني عليه فأسلم»(٢).

قال أبو حاتم: في هذا الخبر دليل على أنَّ شيطان المصطفى ﷺ حتى لم يأمره إلاّ بخير، لا أنه كان يسلمُ منه وإن كان كافراً.

وقال الإمام النووي في «شرح مسلم» ١٧/١٥٧: «فأسلم» برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه: أسلمُ أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إنَّ القرين أسلم من الإسلام، وصار مؤمناً، ورجَّح الخطابي الرفع، ورجَّح القاضي عياض الفتح. ونقل البغوي عن سفيان بن عُيينة قوله: «فأسلم» معناه: أسلمُ أنا منه، والشيطان لا يسلم(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٤) وابن حبان بإسناد صحيح على شرط مسلم، انظر تخريجه في الإحسان برقم ٦٤١٧.

(٢) أخرجه ابن حبان بسند قوي، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/٢٢٥، وقال: رواه الطبراني والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح. انظر تخريجه في الإحسان برقم (٦٤١٦).

وروى مسلم وأحمد وغيرهما من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت: فغرت عليه، قالت: فجاء فرأى ما أصنع، فقال: مالك يا عائشة أغرت؟ فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: أفأخذك شيطانك؟ فقلت: يا رسول الله أومعي شيطان؟ قال: نعم، ومع كل إنسان. قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: نعم، ولكن ربي عزَّ وجلَّ أعانني عليه حتى أسلم، وفي لفظ آخر: أعانني عليه فأسلم.

(٣) قال أبو سليمان الخطابي: عامة الرواة يقولون: «فأسلم» على مذهب الفعل الماضي، يريدون أن الشيطان قد أسلم، إلا سفيان بن عيينة فإنه يقول: فأسلم من شره، وكان يقول: الشيطان لا يسلم.

قال أبو الفرج بن الجوزي: وقول ابن عُيينة حسن، وهو يظهر أثر المجاهدة لمخالفة الشيطان -

ـ عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للشيطان لَمةً بابن آدم، وللمَلَك لمة، فأمَّا لمة الشيطان، فإيعاذ بالشر، وتكذيب بالحق، وأمَّا لَمةُ الملك، فإيعاذ بالخير، وتصديق الحق، فمن وَجدَ ذلك، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى، فليتعوَّذ من الشيطان، ثمَّ قرأ: ﴿الشَّيطان

إلا أنَّ حديث ابن مسعود كأنه يرد قول ابن عُيينة وهو ما رواه أحمد بن حنبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاّ وقد وُكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: وإيَّاي ولكن الله تعالى أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير».

قال ابن الجوزي: وهذه بمثابة الشيطان ويحتمل القول الآخر.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلتُ على آدم بخصلتين: كان شيطاني كافراً فأعانني الله عليه حتى أسلم، وكُنَّ أزواجي عوناً لي. وكان شيطان آدم كافراً وزوجته عوناً على خطيئته» [كما للمرجان، ص ٢٧] فهذا صريح في إسلام قرين النبي ﷺ، وأن هذا خاص بقرين النبي ﷺ، فيكون ﷺ مختصاً بإسلام قرينه لقوله: «فُضِّلت على آدم بخصلتين» وعدَّ منهما إسلام قرينه.

قال أبو جعفر الطحاوي في «مشكل الآثار» في أثناء كلام ساقه في القرين: وكان فيما روينا عن رسول الله ﷺ في هذين الحديثين ما قد يحتمل أن يكون رسول الله ﷺ قد كان في ذلك كمن سواه من الناس، ويحتمل أن يكون كان فيه بخلافهم فتأملنا ما روي في هذا الباب من سوى هذين الحديثين هل فيه ما يدل على شيء من ذلك فوجدنا فهد قد حدثنا قال: حدثنا عبد الله بن رجاء ثم ساق بسنده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلاّ وقد وُكل به قرينه من الجن» الحديث. ثم ساق بسنده عن جابر قال: قال لنا النبي ﷺ: «لا تدخلوا على المغيبات فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» قلنا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «ومني ولكنَّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم». ثم ساق بسنده عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة وكان معي على رأسي فوجدت رسول الله ﷺ ساجداً راصاً عقبيه مستقبلاً بأطراف أصابعه القبلة فسمعته يقول: «أعوذ بالله من سخطك وبعفوك من عقوبتك وبك منك لا أبلغ كل ما فيك» فلما انصرف قال: «يا عائشة أخذك شيطانك» فقالت: أما لك شيطان؟ فقال: «ما من آدمي إلاّ له شيطان» فقلت: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا ولكني دعوت الله تعالى فأعانني عليه فأسلم». قال أبو جعفر: فعرفنا أنَّ رسول الله ﷺ قد كان في هذا المعنى كسائر الناس سواء، وأنَّ الله تعالى أعانه عليه بإسلامه الذي هداه له حتى صار ﷺ في السلامة منه بخلاف غيره من الناس فيمن هو معه من جنسه

يعدكم الفقر﴾[1] الآية [البقرة: ٢٦٨].

واللَّمة: المَسّ.

وقد أمر الله سبحانه ـ بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذه الشدة لحاجة إلى التعوذ.

وقد جمع النبيّ ﷺ ـ بين الاستعاذة من النفس والشيطان في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «أنَّ أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله، علِّمني شيئاً أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ، قال: «قل: اللهمَّ عالِم الغيب والشهادة، فاطر السَّماوات والأرض، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي وشرِّ الشيطان وشِرْكه[2]، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجرُّه إلى مسلم، قُلْهُ إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك». فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته، فإنَّ الشر كله إمَّا أن يصدر من النفس، أو من الشيطان، وغايته: إمَّا أن تعود على العامل، أو على أخيه المسلم. فتضمَّن الحديث مصدري الشر اللذي يصدر عنهما وغايتيه اللتين يصل إليهما.

وفي القرآن توجيه من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ﷺ ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعاً، للعياذ بكنفه، والليذ بحماه، من كل مخوف: خاف وظاهر، مجهول ومعلوم، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل. وكأنَّما

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨) في التفسير: باب ومن سورة البقرة، والطبري في التفسير ٣/٨٨ و٨٩، والنسائي في التفسير من الكبرى كما في «التحفة» ٧/١٣٩، وابن حبان في صحيحه (انظر تخريجه في الإحسان برقم ٩٩٧)

(٢) رويت بكسر الشين وسكون الراء، ورويت بفتحتين، أي من شَرَكه التي يتصيَّدها حزبه. وللشيطان له ركض وهمز ونفث ونفخ ووخز. قال الجوهري: الركض تحريك الرجل ومنه قوله تعالى: ﴿اركض برجلك﴾ والهمز شبه بالنخس وهو أشد من الغمز. وقد نفث الراقي ينفث وينفث. والوخز الطعن بالرمح وغيره [آكام المرجان ١١٦]

يفتح الله - سبحانه - لهم حماه، ويبسط لهم كنفه، ويقول لهم، في مودة وعطف: تعالوا إلى هنا. تعالوا إلى الحمى. تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه. تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعف وأنّ لكم أعداء وأنّ حولكم مخاوف وهنا. . هنا الأمن والطمأنينة والسلام

ومن ثمَّ كان هذا التوجيه الإلهي: **﴿قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب[1] ومن شرِّ النفاثات في العقد[2] ومن شرِّ حاسد إذا حسد﴾.**

﴿قل أعوذ بربِّ الناس ملك الناس إلـه النَّاس من شر الوسـواس الخنَّاس الذي يوسوس في صدور النَّاس من الجِنَّة والناس﴾.

وهذا التوجيه القرآني يشتمل على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها في الدنيا والآخرة. «فسورة الفلق تضمَّنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد وهو شر من خارج. وسورة الناس تضمنت الاستعادة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه فهو شر من داخل.

فالشر الأوَّل لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب منه الكف عنه لأنَّه ليس من كسبه.

---

(١) والغاسق في اللغة الدافق، والوقب النقرة في الجبل يسيل منها الماء. والمقصود هنا - غالباً - هو الليل وما فيه. الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة. والليل حينئذ مخوف بذاته. فضلاً على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء: من وحش مفترس ومتلصص فاتك يقتحم. وعدو مخادع يتمكن. وحشرة سامة تزحف. ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل، وتخنق المشاعر والوجدان، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء. ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام. ومن ظاهر وخاف يدب ويثب، في الغاسق إذا وقب!

(٢) والنفاثات في العقد: السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس، وخداع الأعصاب، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر. وهنَّ يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء!

والشر الذي يدخل تحت التكليف ويتعلق به[1]، والاستعاذة هنا برب الناس، ملك الناس، إله الناس. والمستعاذ منه هو: شر الوسواس الخنّاس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنّة والناس.

والاستعاذة بالرب، الملك، الإله، تستحضر من صفات الله ـ سبحانه ـ ما به يدفع الشر عامة، وشر الوسواس الخنّاس خاصة.

فالرب هو المربي والموجه والراعي والحامي.

والملك هو المالك الحاكم المتصرف.

والإله هو المستعلي المستولي المتسلط.. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور.. وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنّه مستور.

والله رب كل شيء، وملك كل شيء، وإله كل شيء. ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء. والله برحمة منه ـ يوجه رسوله ﷺ وأُمّته إلى العياذ به والالتجاء إليه، مع استحضار معاني صفاته هذه، من شرٍّ خفي المدبيب، لا قبل لهم بدفعه إلَّا بعون من الرب الملك الإله. فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون، ويأتيهم من حيث لا يحتسبون.

والوسواس فعلال من وسوس. وأصل الوسوسة: الحركة والصوت الخفي الذي لا يُحسّ فيُحترز منه. فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس. ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس ويؤكده عند من يلقيه إليه كرر لفظها بإزاء تكرير معناها.

وأمَّا الخناس ففعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى ومنه قول أبي هريرة: فانخنست منه. وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور فليست لمجرد

---

(١) انظر آكام المرجان.

للاختفاء ولهذا وصف بها الكواكب(١)، فالخنوس: الاختباء والرجوع.

وقد أطلق النص الصفة أولاً: ﴿الوسواس الخناس﴾. وحدد عمله: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾. ثم حدد ماهيته: ﴿من الجنة والناس﴾. وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس، بعد إطلاق صفته في أول الكلام، ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره، تأهباً لدفعه أو مراقبته!

والنفس حين تعرف - بعد هذا الإيقاظ - أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية وسراً، وأنه هو الجنة الخافية، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنة، ويوسوسون وسوسة الشياطين.. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع. وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق!

ووسوسة الجنة نحن لا ندري كيف تتم ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة. ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة؛ وأن الشيطان قد أعلنها حرباً تنبثق من خليقة الشر فيه، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان! وأنه قد استصدر بها من الله إذناً، فأذن فيها - سبحانه - لحكمة يراها! ولم يترك الإنسان فيها مجرداً من العدة. فقد جعل له من الإيمان جنة. وجعل له من الذكر عدة. وجعل له من الاستعاذة سلاحاً. فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس»(٢).

---

(١) قال تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ [التكوير: ١٥] هي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي. انظر أحكام القرآن.
(٢) أخرجه البخاري معلقاً.

وأمّا الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير. ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين!

رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس، لأنه الرفيق المأمون!

وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جباراً مفسداً في الأرض، مهلكاً للحرث والنسل!

والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه، حتى يبدو كأنّه الحق الصراح الذي لا مرية فيه.

وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلاّ يقظة القلب وعون الله.

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها.. وهم شر من الجنّة وأخفى منهم دبيباً!

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية. ومن ثمّ يدله الله على عدته وجنته وسلاحه في المعركة الرهيبة!

وهناك لفتة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنّه «الخناس».. فهذه الصفة تدل من جهته على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس. ولكنها من جهة أخرى توحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره، ويحمي مداخل صدره. فهو ـ سواء كان من الجنّة أم كان من الناس ـ إذا ووجه خنس، وعاد من حيث أتى، وقبع واختفى. أو كما قال الرسول الكريم في تمثيله المصور الدقيق: «فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس».

وهذه اللفتة تقوي القلب على مواجهة الوسواس. فهو خناس. ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة.

ولكنها من ناحية أخرى ـ معركة طويلة لا تنتهي أبداً. فهو أبداً قابع

خانس. مترقب لغفلة والنقطة مرة لا تعي عن اليقظات. والحرب سجال إلى يوم القيامة، كما صورها القرآن الكريم في مواضع شتى في القصة.

وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها - سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر - من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوباً على أمره فيها، فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله. وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب، فهو آخذ بناصيته. وهو لم نسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم. فأما من يذكرونه فهم في نجاة من الشر ودواعيه الخفية. فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها. يستند إلى الرب الملك الإله. والشر يستند إلى وسواس خناس، يضعف عن المواجهة، ويخنس عند اللقاء، وينهزم أمام العياذ بالله.

﴿وإمّا ينزغنّك من الشّيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنّه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وتأمّل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنّه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه. فإنّ قوله: ﴿من شر الوسواس﴾ يعمّ كل شرّه، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً وأقواها تأثيراً وأعمّها فساداً.

والصدر هو ساحة القلب وبيته فمنه تدخل الواردات عليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز؛ ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ثم تتفرق على الجنود. ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى

القلب فهو يوسوس في الصدر ووسوسته واصلة إلى القلب ولهذا قال تعالى في قصة آدم: ﴿فوسوس إليه الشيطان﴾ [طه: ١٢٠]. ولم يقل فيه. والله أعلم.

وقال القاضي أبو يعلى: الوسوسة يحتمل أن يفعل كلاماً خفياً يدركه القلب. ويمكن أن يكون هو الذي يقع عند الفكر ويكون منه حسّ وسلوك وذهول في أجزاء الإنسان.

قال ابن عقيل: فإن قال قائل: كيف الوسوسة من إبليس وكيف وصوله إلى القلب. قيل: هو كلام على ما قيل تميل إليه النفوس والطبع[1]. وقد قيل

---

(١) والشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه، وقد علم عدو الله أن من اعتصم بالله عزّ وجلّ، وأخلص له، وتوكّل عليه، لا يقدر على إغوائه وإضلاله، فيدخل الشيطان على ابن آدم من باب كيده الأعظم، وإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه، ويسأله عما يحبه ويؤثره، فإذا عرفه استعان به على العبد، ودخل عليه من هذا الباب. وكذلك علمه إخوانه وأولياءه من شياطين الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه. ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود.

ذكر أبو الفرج بن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٤٣ قال القرشي: سمعتُ سعد بن سليمان يحدث عن المبارك بن فضالة عن الحسن قال: كانت شجرة تعبد من دون الله فجاء إليها رجل، فقال: لأقطعنّ هذه الشجرة فجاء ليقطعها غضباً لله، فلقيه إبليس في صورة إنسان، فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله، قال: إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها؟ قال: لأقطعنّها. فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك لا تقطعها ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وسادتك. قال: فمن أين لي ذلك؟ قال: أنا لك. فرجع فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئاً، فقام غضباً ليقطعها فتمثّل له الشيطان في صورته، وقال: ما تريد؟ قال: أريد قطع هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله تعالى. قال: كذبت مالك إلى ذلك من سبيل، فذهب ليقطعها فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله، قال: أتدري من أنا؟ أنا الشيطان جئتَ أول مرة غضباً لله فلم يكن لي عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلمّا جئت غضباً للدينارين سُلِّطت عليك.

يدخل في جسد ابن آدم لأنه جسم لطيف ويوسوس وهو أن يحدث النفس بالأفكار الردية.

قال الزمخشري: كانت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تقول: إنَّ الشياطين ليجتمعون على القلب كما يجتمع الذبان فإن لم يُذَبَّ وقع الفساد. ﴿وإمَّا ينزغنَّك من الشَّيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنَّه هو السميع العليم﴾ [فصِّلت: ٣٦].

إنَّ مكائد الشَّيطان تبدأ على صورة وسواس.. خاطر يتسرب إلى النفس(١) رويداً رويداً حاملاً سموم الإثم والشر. فالاستعاذة بالله من

[illegible] ﴿يعدهم ويُمنِّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ [illegible]

[illegible] على أمرك [illegible]

[illegible]

[illegible] ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ [illegible] ص ٣٦ [illegible]

(١) إن [illegible]

[illegible]

في كل خطرة، وراقب الله في كل نفس».

الشيطان الرجيم حينئذٍ وقاية، تدفع محاولاته..

إنَّ خالق هذا القلب البشري، الذي يعرف مداخله ومساربه، ويعرف طاقته واستعداده. ويعرف من أين يدخل الشَّيطان إليه، يحوط قلب المؤمن من نزغات الشَّيطان: ﴿فاستعذ بالله﴾ ﴿قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق﴾.. ﴿قل أعوذ برب النَّاس . من شر الوسواس الخنَّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنَّة والنَّاس﴾.

وللشيخ العلامة ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ كلامٌ في الخطرة والفكرة وما إليهما في غاية الدقة والنفاسة، ما أصدقه وما أحقه! قال رحمه الله في كتابه «الفوائد» (ص ٣١ و ١٧٣ ـ ١٧٤) من الطبعة المنيرية المطبوعة بمصر سنة ١٣٤٤ هـ: «دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها!!

واعلم أنَّ مبدأ كل علم اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها. فصلاحُ الخواطر بأن تكون مراقبةً لوليِّها وإلهها، صاعدة إليه، دائرة على مرضاته ومحابه، فإنه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن تولِّي العبد وإعراضه عنه كلُّ ضلال وشقاء. واعلم أنَّ الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة. فردُّها من مبادئها أسهلُ من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومعلوم أنَّ الإنسان لم يُعْط إماتة الخواطر، ولا القوة على قطعها، فإنها تَهْجُمُ عليه هجوم النَّفَس، إلاَّ أنَّ قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى دفع أقبحها وكراهيته له ونفرته منه. وقد خلق الله سبحانه النَّفس شبيهة بالرَّحى الدائرة التي لا تسكنُ ولا بد لها من شيء تطحنه، فإن وضع فيها حبٌّ طحنتهُ، وإن وضع فيها ترابٌ أو حصىً طحنته!

فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحبِّ الذي يوضعُ في الرَّحى، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضعُ فيها، فمن النَّاس من تطحنُ رحاه حبَّاً يخرج دقيقاً ينفعُ به نفسَهُ وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصىً وتبناً ونحوَ ذلك، فإذا جاء وقتُ العجن والخبز، تبيَّنَ له حقيقة طحينه!!».

ومعنى «استعذ بالله» امتنع به واعتصم به والجأ إليه. فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان..

وبعد، فإنَّ ذكر الله ـ كما يوجه لله بالاستعاذة بجلاله وعظمته ـ ليس مجرد الذكر والاستعاذة بالشفة واللسان. ولكنه الاستعاذة بالقلب والجنان. فالاستعاذة باسم الله إن لم يرتعش لها الوجدان، وإن لم يخفق لها القلب، وإن لم تعش به النفس.. إن لم يكن مصحوباً بالتضرع والتذلل والخشية والخوف.. لن يكون ذكراً يطرد الشيطان، واستعاذة واعتصام بالرَّحمن.. بل قد يكون سوء أدب في حق الله سبحانه. إنَّما هو التوجه إلى الله بالتذلل والضراعة، وبالخشية والتقوى، إنَّما هو استحضار جلال الله وعظمته، واستحضار المخافة لغضبه وعقابه، واستحضار الرجاء فيه والالتجاء إليه. حتى يصعد الجوهر الروحي في الإنسان، ويتصل بمصدره العلوي الشفيف المنير.. هنا يخنس الشَّيطان وهذا معنى حديث الرسول ﷺ: «الشَّيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس».

فالاستعاذة وذكر الله هو تحرك اللسان مع القلب، فتلبس الشفاه مع الروح، ويتصل القلب بربه. إنَّه التذكر الدائم والاستحضار الدائم لجلال الله ـ سبحانه ـ ومراقبته في السر والعلن، وفي الصغيرة والكبيرة، وفي الحركة والسكنة، وفي العمل والنية..

وينهى الله ـ سبحانه ـ الإنسان عن الغفلة حتى لا يقع في مصيدة الشيطان[1] ﴿ولا تكن من الغافلين﴾.. الغافلين عن ذكر الله.. لا بالشفة

---

(١) عقد الشيخ أبو الفرج عبد الرَّحمن بن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس» باباً في «التحذير من فتن إبليس ومكايده» قال الشيخ أبو الفرج ـ رحمه الله ـ: «وينبغي أن تعلم أنَّ إبليس الذي شغله التلبيس أول ما التبس عليه الأمر فأعرض عن النص الصريح على السجود، فأخذ يفاضل بين الأصول فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، ثمَّ أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم، فقال: ﴿أرأيتك هذا الذي كرَّمت﴾ [الإسراء: ٦٢]. والمعنى أخبرني لم كرمته عليَّ؟ غور ذلك الاعتراض أنَّ الذي فعله ليس بحكمة. ثمَّ أتبع =

ذلك بالكبر بقوله: ﴿أنا خير منه﴾، ثم امتنع عن السجود فأهلك نفسه التي أراد تعظيمها باللعنة والعقاب.

ومن مكائده للإنسان أمراً ينبغي أن يحذر منه أشد الحذر، ويقال له حين أمره إياه بالسوء: إنك تريد بما تأمر به نصحي بنزوعي شهوتي، وكيف تنصح صواباً لنصح لغيرك من لا ينصح نفسه؟ ثم كيف أثق بنصيحة عدو، فانصرف عني فلن أقبل منك، فلا شيء إلا أنه يستعين بالنفس لأنه يحث على هواها، فليستحضر العقل في بيت الفكر في عواقب الذنب لعل مدد توفيق يبعث جند عزيمته فيهزم عسكر الهوى والنفس.

ومن كيده للإنسان أنه يورده الموارد التي يخيل إليه أن فيها منفعته، ثم يصدره المصادر التي فيها عطبه، ويتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت به ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والقتل ويدل عليه ويفضحه كما فعل في الحديث التالي:

وقد روى ابن الجوزي حديثاً بسنده عن وهب بن منبه ـ رضي الله عنه ـ: أن عابداً كان في بني إسرائيل، وكان من أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت، وكانت بكراً ليس لهم أخت غيرها. فخرج البعث على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون أختهم، ولا من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها. قال: فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقة في أنفسهم. فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فيكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم، فأبى ذلك عليهم وتعوذ بالله منهم ومن أختهم. قال: فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال: أنزلوها في بيت حذاء صومعتي. قال: فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة، ثم يغلق بابه ويصعد إلى صومعته، ثمَّ يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام. قال: فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها، فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم لأجرك. قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها. قال: فلبث على هذه الحالة زماناً، ثمَّ جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه، وقال: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك. قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثمَّ وضعه في بيتها، فلبث على ذلك زماناً، ثمَّ جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه، فقال: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة. قال: فلم يزل به حتى حدثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته، قال: ثمَّ أتاه إبليس بعد ذلك، فقال: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها. فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها. قال: فلبثا زماناً يتحدثان، ثمَّ جاءه إبليس ـ

ترغبه في الخير وانك لن تعدم ينتفع بها. وقال: لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريباً من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها، فلم يزل به حتى فعل. قال: فلبثا حولاً. ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وفيما له عند الله سبحانه وتعالى من حسن الثواب فيما يصنع بها. وقال له: لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها فليفعل، فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فحدثها فلبث على ذلك حيناً. ثمّ جاءه إبليس فقال: لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تُبرز وجهها لأحد كان أحسن بك. فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته. قال: ثمّ أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يُزيّن له حتى ضرب العابد على فخذها وقبّلها. فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسوّل له حتى وقع عليها. فأحبلها، فولدت له غلاماً. فجاءه إبليس فقال: أرأيت إن جاء إخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك. فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطّلعوا على ما صنعت بها. ففعل. فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها؟ خذها فاذبحها وادفنها مع ابنها. فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها، وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوّى عليهما، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها. فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث حتى قفل إخوتها من الغزو، فجاءوا إليه، فأتى إخوتها فبكوا أختهم وترحّموا عليها، وأقاموا على قبرها أياماً، ثمّ انصرفوا إلى أهاليهم. فلما جنّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أخته فأخبره بقول العابد وموتها وترحّمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها فكذّبه الشيطان وقال: لم يصدقكم أمر أختكم إنّه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم وألقاهما في حفرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله. فانطلقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونهما كما أخبرتكم هناك جميعاً

وأتى الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك، ثمّ أتى أصغرهم، فقال له مثل ذلك، فلمّا استيقظ القوم أصبحوا متعجبين ممّا رأى كل واحد منهم. فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم: لقد رأيتُ الليلة عجباً، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى. فقال كبيرهم: هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم. قال أصغرهم: والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه. قال: فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب، وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفرة، كما قيل لهم، فسألوا عنها العابد فصدّق قول إبليس فيما صنع بهما، فاستعدَوا عليه ملكهم، فأُنزل من صومعته، وقُدّم ليُصلب، فلمّا أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له: قد علمتَ أنّي أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة حتى أحبلتها

واللسان، ولكن بالقلب والجنان.. لذكر الذي يخفق به القلب، فلا يسلك صاحبه طريقاً يخجل أن يطلع عليه الله فيه، ويتحرك حركة يخجل أن يراه الله عليها؛ ولا يأتي صغيرة أو كبيرة إلّا وحساب الله فيها. فذلك هو الذكر الذي يعنيه قول الرسول ﷺ: «فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس».. وإلّا فما هو ذكر لله ولا الاستعاذة به سبحانه إذا كان لا يصل القلب بربه، وإذا كان لا يؤدّي لطاعة والعمل والسلوك والتقوى.

واذكر ربك ولا تغفل عن ذكره؛ ولا يغفل قلبك عن مراقبته، فالإنسان أحوج إلى أن يظل على اتصال بربه، ليتقوّى على نزغات الشيطان: ﴿وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله، إنّه سميع عليم﴾..

والإنسان أحوج المخلوقات إلى الذكر والعبادة والالتجاء إلى الله،

وذبحتها وابنها، فإن أنت أطعتني اليوم وكفرت بالله الذي خلقك وصوّرك خلّصتك ممّا أنت فيه. قال: فكفر العابد، فلمّا كفر بالله تعالى خلّى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه. قال: ففيه نزلت هذه الآية ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنّي بريءٌ منك إنّي أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنّهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظّالمين﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

وروى ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٤٠ ﴿كمثل الشيطان﴾ إذ سوّل للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر، فإذا دخل فيما سوّله تبرّأ منه وتنصّل وقال ﴿إنّي أخاف الله رب العالمين﴾. وقد ذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عبّاد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل لا أنّها المرادة وحدها بالمثل بل هي مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره نقلاً عن ابن جرير عن علي ـ رضي الله عنه ـ قصة مشابهة في معناها لما رواه ابن الجوزي، وكذلك ذكر قصة أخرى بذات المعنى عن عبد الله بن مسعود، وكذا روي عن ابن عباس وطاووس ومقاتل بن حيان نحو ذلك، واشتهر عند كثير من الناس أنّ هذا العابد هو برصيصا فالله أعلم.

وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر والضلال وعصيان الله، لينصره ويقضي حاجته فإنّه يتبرّأ منه كما يتبرّأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿إنّي كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ فأوردهم شر الموارد، وتبرّأ منهم كل البراءة..

فطريقه شاق! وطبيعته قابلة لنزغ الشيطان! وقابلة للغفلة المردية فتستبد به نزوة أو تغلبه شهوة! وجهده محدود، وعدوه متربص كنود في الطريق الكؤود.. إن ذكر الله عنصر أساسي في رحلة هذا المخلوق على الأرض. إنه حركة واقعية في الواقع البشري. وإن مواجهة الشيطان مسألة شاقة عسيرة، ولا قبل للإنسان بمواجهة هذه المشقة دون عون ربه السميع العليم. فهو سبحانه السند، وهو العون في الطريق من كيد الشيطان الرجيم..

وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون حلاوة ذكر الله والاتصال به.. ليس أشقى ممن ينطلق في رحلة حياته على الأرض يواجه عدوه بذاته الضعيفة.. ليس أشقى ممن يعيش وهو يتتبع خطوات الشيطان. ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً فلاة يتخطفه الشيطان ويصرعه.. لا يقوم ولا يتحرك إلا حركة المصروع المضطرب القلق المتخبط الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنينة ولا راحة ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ [النساء: ٦٠]..

والشيطان مسلط على قلوب بني آدم - إلا من عتصم بالله فهو في نجاة منه - وإنما من يركن إليه فهو لا يدفعه. فهو له عدو. إنما يرهقه ويؤذيه. فهو في الضلال والقلق والحيرة التي تسوش قلب من يركن إلى عدوه، ولا يعتصم بالله منه ويستعيذ! كما هو مأمور منذ أبيه آدم وما كان بينه وبين إبليس من العداء القديم!

إن الالتجاء إلى الله ومراقبته والاستعانة به سبحانه لدفع عداوة الشيطان ووسوسته لتبدو آثاره في الإنسان في التصورات والمشاعر كما تبدو في السلوك والتصرفات. وترسم هذه الحقيقة في كيان الإنسان خطاً واضحاً متميزاً. ولا تعود عداوة الشيطان للإنسان كلمة تقال باللسان.. ومن ثم تلك العناية الطويلة بتقرير هذه الحقيقة.. فهي معنى ضخم شامل يحتاج إلى تدبر وتقوى وفهم وإدراك ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق. فلا تغرنكم

الحياة الدُّنيا ولا يغُرَّنَّكم بالله الغرور. إنَّ الشيطان لكم عدوٌ فاتَّخذوه عدوّاً إنَّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السَّعير﴾ [فاطر: ٥، ٦].

والواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم وقد بذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم وقد أمر الله بالحذر منه واتخاذه عدواً.

وإنَّ الإنسان لينحرف عن الفطرة التي فطره الله عليها حين ينسى تلك الحقيقة ويدع الرقابة ويمشي بغير رؤية فيتتبع خطى الشيطان. روى الإمام أحمد من حديث عياض بن حمار أنَّ النبيَّ ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: إنَّ ربِّي عزَّ وجلَّ أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم ممَّا علمني في يومي هذا كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزِّل به سلطاناً.

والشيطان ﴿إنَّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السَّعير﴾. إنَّه تعبير عجيب موحي، يقسر الإنسان فيه قسراً على الالتفات قلبه إلى تلك الحقيقة. فهو يصور حقيقة ملحوظة يراها القلب مقصودة حتماً. فاتباع خطوات الشيطان هي الضلال. ثم النهاية سوء المصير. إنَّ هذه اللمسة تشد القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء هذه الحقيقة ﴿ولا يصدَّنكم الشَّيطان إنَّه لكم عدوٌّ مبين﴾ [الزُّخرف: ٦٢]..

وهكذا فالقرآن لا يفتأ يُذكِّر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم. ومنذ المعركة الأولى في الجنة. وأغفل الغافلين من يعلم أنَّ له عدواً يقف له بالمرصاد، عن عمد وقصد، وسابق إنذار وإصرار، ثمَّ لا يأخذ حذره؛ ثمَّ يريد فيصبح تابعاً لهذا العدو الصريح! ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ [النساء: ٣٨].

ولقد أقام الإسلام الإنسان في هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان

طوال حياته على هذه الأرض؛ ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر ما لا يخطر كذلك على قلب بشر. وبذلك حوّل طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة؛ التي تجعل من الإنسان إنساناً، وتجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطبائع والطباع! والتي تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان؛ فينتصر على الشر والخبث والرجس، ويثبت في الأرض قوائم الخير والنصح والطهر.

وكلّما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر. وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبْرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «إنّ الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذرُ دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ فعصاه فأسلم، ثمّ قعَدَ له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذرُ أرضك وسماءك؟ وإنّما مثَلُ المهاجر كالفرس في الطِّوَل، فعصاه فهاجر، ثمّ قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال فقال: تقاتل فتُقتَلُ، فتُنكح المرأة ويُقْسم المال؟ قال: فعصاه فجاهده. وفي رواية ابن حبان في صحيحه: «فقال رسول الله ﷺ: «فمن فَعَلَ ذلك، فمات، كان حقاً على الله أن يُدخله الجنة. وإن غرق كان حقاً على الله أن يُدخله الجنة، أو وقصتْه دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»[1].

فالشيطان راصد للإنسان على طريق كل خير، فما من طريق إلّا وإبليس قاعد عليه يقطعه على السالك.. فمن مكايده أنّه يسحر العقل دائماً حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلّا من اعتصم بالله، فيزين له فعل الخير الذي يضره حتى يُخيل إليه أنّه من أنفع الأشياء، ويُنفّر من الفعل الذي هو من أنفع الأشياء له، حتى يُخيل إليه أنّه يضره، فلا إله إلّا الله. كم فتَن بهذا

---

(١) انظر تخريج الحديث في الإحسان (رقم ٤٥٩٣).

السحر من إنسان. وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان؟..

فمن يتنكّب طريق الله ورسوله فقد استحوذ عليه الشيطان، أيظن الإنسان بجهله أنَّ الشيطان ناصح له، فالشيطان لا يدعو إلى هدى، ولا يهدي إلى خير، فهو يزين مخالفة شرع الله، والرغبة عن طاعة الله ورسوله.

فكل داعية إلى معصية الله ورسوله فهو شيطان، وكل متكلم بغير طاعة الله فذلك صوت شيطان.. وكل ساع في معصية الله على قدميه هو من رجل الشيطان، وكل راكب في معصية الله فهو من خيالة الشيطان.

وكل من يمشي في طريق الغواية ومخالفة شرع الله وأمْره فقد استولى عليه الشيطان كُلِّيةً فأنساه ذكر الله.. والقلب الذي ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر ﴿أولـئك حزب الشيطان﴾.. الخلص للشيطان الذي يقف تحت لوائه، ويعمل باسمه، وينفذ غاياته. وهو الشر الخالص الذي ينتهي إلى الخسران الخالص: ﴿ألا إنَّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ [المجادلة: ١٩].

أقدم الوصايا:

إنَّ أهم إيحاءات قصة آدم هو القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للمنهج الرباني الذي يرسمه الله للإنسان حتى يسير على هداه في رحلة الأرض: ﴿فإمَّا يأتينَّكم مني هدىً فمن تبع هدايَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولـئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]..

كانت هذه وصية الله تعالىٰ لآدم وزوجه حين أخرجهما من الجنة وأهبطهما إلى الأرض: ﴿قال: اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدوٌّ﴾.. لقد أعلنت الخصومة في الملأ الأعلىٰ بين آدم وذريته وبين إبليس وقبيله.

وشاءت رحمة الله بعبده أن يُرسل إليهم رسله بالهدى. قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم. فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس، أنّه آتيهم بهدىً منه، فمجاز كلاً منهم بعد ذلك حسبما ضلّ أو اهتدى.

﴿فإمّا يأتينّكم منّي هدىً، فمن اتّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى. قال. ربِّ لِم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً؟ قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى. وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧]..

كانت هذه وصية الله لأبوي البشر حين أهبطهما إلى الأرض فهي من أقدم الوصايا لذلك كانت خليقة بأن تكون سنة كونية - لا يتخلف مدلولها عن أحد من خلقه تعالى في أي حال من الأحوال - والقرآن مليء بالسنن الكونية: أي القواعد من مثل واحد وواحد يساوي اثنين وخمسة في ستة يساوي ثلاثين، أشياء ثابتة لا تتغير ولا تتبدل. وهذه السنن الكونية - والله أعلم - وضعت لإرشاد الحمق إلى الحق؛ لأنّ الإنسان قد يجد لنفسه عقلاً يفكر ويدبر، فيذهب به الشطط إلى الظن بأنّه قادر على كل شيء بتفكيره وتدبيره، وأنّه يستطيع أن يمضي في هذه الحياة بما يوحي إليه عقله من خير يحسبه شراً وشر يحسبه خيراً؛ لذلك وللحد من سلطان هذا العقل وضع الله تعالى تلك السنن الكونية للإنسان العاقل ليهتدي بها ويسير على رشدها، كما وضع لسائر مخلوقاته من النواميس ما هو ثابت دائم كالشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوان وما في السّماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثّرى. كل ذلك لو تتأمله لوجدناه يسير على سنن لا تتخلف أبداً. فكذلك الإنسان وضعت له السنن الكونية فإن ائتمر بما أمَر الله وانتهى عمّا نهى كان له جزاءُ الحسنى في الدنيا والآخرة.

تأمّل الآية الكريمة: **﴿فإمّا يأتينّكم منّي هدىً فمن اتّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى﴾**..

وهدى الله تعالى ما جاءت به الرسل والأنبياء، من تبعه فقد نجا من الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة. هذا وعد الله حق، لو اطمأنت نفوسنا إليه، ورضينا به. وآمنا، وعملنا بما جاء به الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام القائل: «ما تركت من خير إلاَّ وأمرتكم به. وما تركت من شر إلاَّ ونهيتكم عنه»، لكان لنا عند الله ما وعَد به المطيعين ولحق لنا، أن نكون له من السائلين»[1].

هذا الإنسان السائر عبر الأيام في طريق الزمان، يمضي أمسه لا يملك أن يردّه، ويحيط به يومه لا يملك أن يمسكه، ويتربّص به غده لا يدري ما يضمره.. أية قوة قوته، وأي سلطان سلطانه؟!

هذا الإنسان الموزع بين أمسه ويومه وغده، من أين جاء هو يوم جاء؟.. وليختر اليوم الذي يشاء يوم ألقي نطفة أو يوم وُلد، وإلى أين يذهب يوم ينتهي.. يوم يموت؟ وهو يوم سيأتيه وإن أبى، وسيجعله تحت التراب مهما شمخ، ولا رأي له يوم جاء ولا يوم ينتهي!

إنَّ لهذا الإنسان عمراً. يأتي ثم يذهب. لقد قضى الله خالق الإنسان أن تكون للإنسان سُنة، هي قدرته أن يفعل وألاَّ يفعل، وأن يستقيم وألاَّ يستقيم، وجعل له من وراء ذلك إرادة يتنازعها الخير والشر، ومن بين يديه دنيا مليئة تُبتلى فيها إرادته، ويصرفها هو على ما يشاء من خير أو شر، وشاءت رحمة الله أن تمسك بخطى الإنسان فأرسل رُسله تحمل الهدى ما يكفي للاهتداء. أمَّا الرسل فهم مبشرون ومنذرون **﴿وما نرسل المرسلين إلاَّ مبشرين ومنذرين﴾** [الكهف ـ ٥٦]، فهذه وظيفة الرسل، فالرسول بشر، يرسله الله ليبشِّر وينذر، وهنا تنتهي وظيفته، وتبدأ استجابة البشر، ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة، وينتهي الأمر بالجزاء الإلـهي وفق

---

(١) الإمام الهضيبي ـ رحمه الله ـ مجلة المسلمون ـ مجلد ١، العدد ٩، ص ١

هذه الاستجابة: ﴿وما نرسل المرسلين إلاَّ مبشِّرين ومنذرين. فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذَّبوا بآياتنا يمسُّهُمُ العذاب بما كانوا يفسقون﴾ [الأنعام. ٤٨، ٤٩].

هذا الإنسان تُسائر عبر الأيام أنذره خالقه أنَّه مدعوٌّ بعد موته إلى حساب ما قدَّم. وغيَّب عنه الموت حتى ترتبط فكرة الحساب بكل يوم من أيامه، وحتى يحذر أن يفجأه الموت وهو على غير ما يحب الله، ويدع القلب مجتهداً مستيقظاً لا ينام. فلا يدري إنسان متى يدركه أجلُه!

والسنة الكونية للبشرية في طريق الحياة هو ضبط النفس والامتثال للشريعة الإلهية التي أنزلها على رُسله: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إنَّ الله شديد العقاب﴾ [الحشر. ٧].

والمنهج الإلهي موضوع لهذا الإنسان. موضوع ليعمل في كل بيئة، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، وفي كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة. وهو موضوع لهذا المخلوق الذي يعيش في هذه الأرض، آخذ في الاعتبار فطرة هذا الإنسان وطاقاته واستعداداته، وقوته وضعفه، وحالاته المتغيرة التي تعتريه. إن ظنه لا يسوء بهذا الكائن فيحتقر دوره في الأرض، أو يهدر قيمته في صورة من صور حياته، سواء وهو فرد أو وهو عضو في جماعة. كذلك هو لا يهيم مع الخيال فيرفع هذا الكائن فوق قدره وفوق طاقته وفوق مهمته التي أنشأه الله لها يوم أنشأه.. ولا يفترض في كلتا الحالتين أنَّ مقومات فطرته سطحية تنشأ بقانون أو تكشط بجرة قلم!..

الإنسان هو هذا الكائن بعينه. بفطرته وميوله واستعداداته، يأخذ المنهج الإلهي بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته، ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته، وهو يقوده في طريق الكمال الصاعد إلى الله.. ومن ثمَّ فإنَّ المنهج الإلهي موضوع للمدى الطويل ـ الذي يعلمه خالق هذا الإنسان ومنزل هذا القرآن ـ ومن ثَمَّ لم يكن معتسفاً ولا عجولاً في تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج.

إنَّ المدى أمامه ممتد فسيح، لا يحده عمر فرد، ولا تستحثه رغبة فان، يخشى أن يعجله الموت عن تحقيق غايته البعيدة؛ كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يعتسفون الأمر كله في جيل واحد، ويتخطّون الفطرة المتّزنة الخطى لأنهم لا يصبرون على الخطو المتزن! وفي الطريق العسوف التي يسلكونها تقوم المجازر وتسيل الدماء، وتتحطم القيم، وتضطرب الأمور. ثم يتحطمون هم في النهاية، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التي لا تصمد لها المذاهب المعتسفة! فأما المنهج الإلهي فيسير هيناً ليناً مع الفطرة، يدفعها من هنا، ويردعها من هناك، ويقومها حين تميل، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها. إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة.. والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المئة أو الألف.. فالزمن ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل، وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك.. كذلك ينبت الإسلام ويمتد في بطء وعلى هينة وفي طمأنينة.. ثُمَّ يكون دائماً ما يريده الله أن يكون.. والزرعة قد تسفي عليها الرمال، وقد يأكل بعضها الدود، وقد يحرقها الظمأ، وقد يغرقها الري.. ولكن الزارع البصير يعلم أنها زرعة للبقاء والنماء، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل؛ فلا يعتسف ولا يقلق، ولا يحاول إنضاجها بغير وسائل الفطرة الهادئة المتزنة، السمحة الودود.. إنه المنهج الإلهي في الوجود كله.. ﴿ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً﴾..

إنَّ الإقرار بالرسالة السماوية هو الذي يجعل هناك ضابطاً لما يريده الله من البشر، كي يتلقى البشر في كل ما يتعلق بالدينونة لله من مصدر واحد، هو هذا المصدر، وكي لا يقوم كل يوم طاغوت مفتر يقول للناس قولاً، ويشرع للناس شرعاً، ثُمَّ يزعم أنَّه شرع الله وأمره! بينما هو يفتريه من عند نفسه!

ولقد شاءت الإرادة لعيب، أن تبعث بالرسل بين الحين والحين، لتصل البشرية بالحقيقة المطلقة، التي ما كانت ملاحظتهم وتجربتهم لتبلغ إلى طرف منها إلا بعد مئات القرون. وما كانت لتبلغ إليها كلها على مدار القرون. وقيمة هذا الاتصال هي استقامة خطاهم مع خطى الكون. واستقامة حركاتهم مع حركة الكون. واستقامة فطرتهم مع فطرة الكون.

ومن ثمَّ كان هناك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني. ومن هذا التصور يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم، الذي يتطابق مع حقيقة الكون وحقيقة حركته وحقيقة اتجاهه. ويدخل به الإنسان والناس في السلم كافة. السلم مع الكون، السلم مع فطرتهم وهي من فطرة هذا الكون. والسلم مع بعضهم لبعض في سعيهم ونشاطهم ونموهم ورقيهم المهيّأ لهم في هذه الحياة الدنيا.

مصدر واحد هو مصدر الرسالات، وما عداه ضلال وباطل، لأنّه لا يتلقّى عن ذلك المصدر الوحيد الموصل للموصول. إن وسائل المعرفة الأخرى المتاحة للإنسان، معطاة له بقدر. ليكشف بها عن بعض ظواهر الكون وبعض قوانينه وبعض طاقاته. بالقدر اللازم له في النهوض بعبء الخلافة في الأرض، وتنمية الحياة وتطويرها. وقد يصل في هذا المجال إلى آماد بعيدة جداً. ولكن هذه الآماد لا تبلغ به أبداً إلى محيط الحقيقة المطلقة التي هو في حاجة إليها ليكيف حياته - لا وفق الأحوال والظروف الطارئة المتجددة فحسب، ولكن وفق القوانين الثابتة المطردة التي قام عليها الوجود، ووفق الغاية الكبرى للوجود الإنساني كله.

هذه الغاية التي يراها خالق الإنسان المتعالي عن ملابسات الزمان والمكان. ولا يراها الإنسان المحدود المتأثر بملابسات الزمان والمكان. إنّ الذي يضع خطة الرحلة للطريق كله. هو الذي يدرك الطريق كله. والإنسان

محجوب عن رؤية هذا الطريق. بل هو محجوب عن رؤية بعض هذا الطريق. بل هو محجوب عن اللحظة التالية. ودونه ودونها ستر مسدل لا يُتاح لبشر أن يطلع وراءه! فأنّى للإنسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول؟!

إنه إمّا الخبط والضلال والشرود، وإمّا العودة إلى المنهج المستمد من خالق الوجود. منهج الرسالات ومنهج الرسل، ومنهج الفطرة الموصولة بالوجود وخالق الوجود ﴿كانَ النّاسُ أمّةً واحدة. فبعث الله النَّبيين مبشرين ومنذرين. وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ [البقرة: ٢١٣]..

هذه هي القصة.. كان الناس أمة واحدة، على نهج واحد، وتصور واحد. وقد تكون هذه إشارة إلى حال المجموعة البشرية الأولى الصغيرة من أسرة آدم وحواء وذراريهم، قبل اختلاف التصورات والعقائد. فالقرآن يقرر أن الناس من أصل واحد. وهم أبناء الأسرة الأولى أسرة آدم وحواء. وقد شاء الله أن يجعل البشر جميعاً نتاج أسرة واحدة صغيرة، ليقرر مبدأ الأسرة في حياتهم، وليجعلها هي اللبنة الأولى. وقد مر عليهم عهد كانوا فيه في مستوى واحد وتصور واحد واتجاه واحد في نطاق الأسرة الأولى، حتى نمت وتعددت وكثر أفرادها، وتفرقوا في المكان، وتطورت معايشهم، وبرزت فيهم الاستعدادات المكنونة المختلفة، التي فطرهم الله عليها لحكمة يعلمها، ويعلم ما وراءها من خير للحياة في التنوع في الاستعدادات والطاقات والاتجاهات.

عندئذ اختلفت التصورات وتباينت وجهات النظر، وتعددت المناهج، وتنوعت المعتقدات.. وعندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.. وهنا تتبين تلك الحقيقة الكبرى.. إنّ من طبيعة الناس أن يختلفوا، لأن هذا الاختلاف أصل من أصول خلقتهم، يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض.

إنَّ هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوعة، واستعدادات شتّى من ألوان متعددة، كي تتكامل جميعها وتتناسق، وتؤدّي دورها الكلي في الخلافة والعمارة، وفق التصميم الكلي المقدر في علم الله. فلا بد إذن من تنوع في المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف، ولا بد من اختلاف في الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف في الحاجات. ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين ـ إلّا من رحم ربك ـ ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد، وباستعداد واحد نسخاً مكرورة لا تفاوت بينها، ولا تنويع فيها. وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على هذه الأرض. وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في الأرض.

ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته. وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه. وأن يختار هو طريقه. ويحمل تبعة الاختيار. ويُجزى على اختياره للهدى أو للضلال.. هكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته في أن يكون لهذا المخلوق أن يختار، وأن يلقى جزاء منهجه الذي اختار.

شاء الله ألّا يكون الناس أمة واحدة. فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين. وأن يبلغ هذا الاختلاف أن يكون في أصول العقيدة ـ إلّا الذين أدركتهم رحمة الله ـ الذين اهتدوا إلى الحق ـ والحق لا يتعدد ـ فاتفقوا عليه. وهذا لا يعني أنهم مختلفون مع أهل الضلال. وبعد، فالاختلاف في الاستعدادات والوظائف ينشىء بدوره اختلافاً في التصورات والاهتمامات والمناهج والطرائق.. ولكن الله يحب أن تبقى هذه الاختلافات المطلوبة الواقعة داخل إطار واسع عريض يسعها جميعاً حين تصلح وتستقيم. هذا الإطار هو إطار التصور الإيماني الصحيح. الذي ينفسح حتى يضم جوانحه

على شتى الاستعدادات وشتى المواهب وشتى الطاقات؛ فلا يقتلها ولا يكبتها؛ ولكن ينظمها وينسقها ويدفعها في طريق الصلاح

ومن ثم لم يكن بد أن يكون هنالك ميزان ثابت يفيء إليه المختلفون، وحكم عدل يرجع إليه المختصمون، وقول فصل ينتهي عنده الجدل، ويثوب الجميع منه إلى اليقين: **﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾**..

ولا بد أن نقف عند قوله تعالى: «بالحق».. فهو القول الفصل: أن الحق هو ما جاء به الكتاب؛ وأن هذا الحق قد نزل ليكون هو الحكم العدل، والقول الفصل، فيما عداه من أقوال الناس وتصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وموازينهم.. لا حق غيره، ولا حكم معه، ولا قول بعده. وبغير هذا الحق الواحد الذي لا يتعدد، وبغير تحكيمه في كل ما يختلف فيه الناس، وبغير الانتهاء إلى حكمه بلا مماحكة ولا اعتراض.. بغير هذا كله لا يستقيم أمر هذه الحياة، ولا ينتهي الناس من الخلاف والفرقة، ولا يقوم على الأرض السلام؛ ولا يدخل الناس في السلم بحال.

ولهذه الحقيقة قيمتها الكبرى في تحديد الجهة التي يتلقى منها الناس تصوراتهم وشرائعهم؛ والتي ينتهون إليها في كل ما يشجر بينهم من خلاف في شتى صور الخلاف.. إنها جهة واحدة لا تتعدد هي التي أنزلت هذا الكتاب بالحق؛ وهو مصدر واحد لا يتعدد هو هذا الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. **﴿فإما يأتينكم مني هدى. فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾**.

وهو كتاب واحد في حقيقته فيه الهدى، جاءت به الرسل جميعاً. فهو كتاب واحد في أصله، وهي ملة واحدة في عمومها، وهو تصور واحد في

قاعدتها: إله واحد، وربٌ واحد، ومعبود واحد، ومشرِّع واحد لبني الإنسان..

والبشرية لم تسعد قط، ولم ترتفع إنسانيتها قط، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض إلا في ظلال المنهج الربي في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم.

ومن هذا الهدى في منهج الله تحقق بتحقيقه لإنسان المعرفة والطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجري حوله، ولما يقع له.. فهو يعرف من أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب؟ وماذا واجد هناك؟.. وقد علم أنه هذا الأمر، وأن كل ما يقع له مقدر بتقدير هذا الأمر. وعلم أن مزرعته الآخرة، وأنه مجزي على الصغيرة والكبيرة، وأنه لم يخلق عبثاً، ولن يترك سدى، ولن يمضي مفرداً..

وبهدى الله يرتبط المؤمن بقلب مطمئن، وضمير مستريح، وروح مستبشرة أنه يلبس ثوب العمر بيد الله الذي يصرف الوجود كله تصريف الحكيم الخبير. وأنَّ اليد التي ألبسته إياه أحكم منه وأرحم به، فلا ضرورة لاستشارته لأنه لم يكن ليشير كما يشير صاحب هذه اليد العليم البصير.

وأنّه يلبسه لأداء دور معين في هذا الكون، يتأثر بكل ما فيه، ويؤثر في كل ما فيه.. وأنَّ هذا الدور يتناسق مع جميع الأدوار التي يقوم بها كل كائن من الأشياء والأحياء منذ البدء حتى المصير.

وهو يعلم إذن لماذا جاء، كما يعرف أين المقر، ولا يُحار بين شتّى الفكر، بل يقطع الرحلة ويؤدي الدور في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين. وقد يرتقي في المعرفة الإيمانية. فيقطع الرحلة ويؤدي الدور في فرح وانطلاق واستبشار. شاعراً بجمال الهبة وجلال العطية. ـ هبة العمر ـ الممنوح له من يد الكريم المنّان، الجميل اللطيف، الودود الرحيم.. وهبة الدور الذي يؤديه ـ كائناً ما كان من المشقة ـ لينتهي به إلى ربه في اشتياق حبيب.

﴿فإمّا يأتينّكم منّي هدىً﴾ . إنّها رسالة السماء. شريعة للناس. أنزلها الله سبحانه على رسوله لتقيم منهج الله للحياة البشرية. المنهج الذي تقوم عليه الحياة في شتى شعبها ونشاطها. والشريعة التي تعيش الحياة في إطارها وتدور حول محورها. وتستمد منه تصورها الاعتقادي، وبطامها الاجتماعي، وآداب سلوكها الفردي والجماعي. وقد جاءت كذلك ليُحكم بها، لا لتعرف وتدرس، وتتحول إلى ثقافة في الكتب والدفاتر! وقد جاءت لتُتبّع بكل دقة ولا يُترك شيء منها ويُستبدل به حكم آخر في صغيرة من شؤون الحياة أو كبيرة . فإمّا هذا وإمّا الضلال والهوى.. ﴿فمن اتّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى..﴾ .

هذه هي أقدم النصوص في نص قرآني صريح، فيتعين بذلك طريق الهدى والنجاة. ﴿قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾، فهُدى الله هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه، ويحرص عليه. والكفر هو الغي والضلال، والشرود في تيه الشيطان الذي ينبغي للإنسان أن يفر منه ويتقي أن يوصم به.

إنّ هدى الله هو الحق، والحق واحد لا يتعدد. ومن أعرض عنه فهو في ظلمات شتى وفي ضلال بعيد. والنار هي العاقبة اللائقة بأصحاب الظلمات وأهل الضلال وحزب الشيطان ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ . وإذا لم يتّبعوا هدى الله ونوره، فليخلدوا إذن في النار .

ألا إنها الحقيقة بسيطة واضحة. فالجميع يقفون سواء أمام الله وكلهم مخاطب ﴿فمن اتّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً﴾ . ﴿متاع في الدنيا ثمّ إلينا مرجعهم ثمّ نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾..

متاع الدنيا قصير الأمد، وهو متاع مقطوع لأنه لا يتصل بالمتاع اللائق بالبشرية في الدار الآخرة. إنّما يعقبه ﴿العذاب الشديد﴾ ثمرة للإعراض عن

هدى الله والانحراف عن سنن الله الكونية المؤدية إلى المتاع العالي اللائق ببني الإنسان..

اللمسة الأخيرة :

واللمسة الأخيرة في هذا التعقيب بيان رحمة الله بضعف الإنسان ﴿وخُلق الإنسان ضعيفاً﴾ [النساء ٢٨]..

إنَّ هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو سورة الحيوان في حمى الشهوة، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع، يدرك ضعف هذا المخلوق فلا يقسو عليه، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه. ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثمّ يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء ١١٠].

إنَّ القرآن الكريم يفتح باب التوبة على مصراعيه، وباب المغفرة على سعته، ويُطمع كل مذنب تائب في العفو والقبول. إنه ـ سبحانه ـ موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب. والذي يعمل السوء يظلم غيره ويظلم نفسه، وقد يظلم نفسه وحدها إذا عمل السيئة التي لا تتعدى شخصه. وعلى أيّة حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين في كل حين؛ ويغفر لهم ويرحمهم متى جاؤوا تائبين. هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بوّاب! حيثما جاؤوا تائبين مستغفرين وجدوا الله غفوراً رحيماً.. وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتّى تطلع الشمس من مغربها»[1]

(١) وهي من أشراط الساعة وعلاماته وآياتها ﴿يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو =

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»[1] قال القرطبي: هذا الحديث أجري مجرى المثل الذي يُفهم منه قرب التوبة واستدامة اللطف والرحمة، وهي تنزل عن مقتضى الغني القوي القاهر إلى مقتضى اللطيف الرؤوف الغافر.

وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يُغرْغر»[2].

وحين تستقر هذه الحقيقة ـ رحمة الله بالإنسان ـ في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعاً.

إنها تصله بالله، تفتح أمامه باب الله. وتغلق في وجهه كل طريق من سُبل الشيطان. لا ضيق مع رحمة الله فهي أعطاف نعيم ومراتع الرخاء والسعادة. وسُبل الشيطان تدبُّ عليها عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة!

ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله حين يُزحزحك الشيطان عن الصراط المستقيم! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتفيض عليك. ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة. ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة. وثقتك

= كسبت في إيمانها خيراً﴾ [الأنعام: ١٥٧]. انظر فصل «طلوع الشمس من مغربها» في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن».

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٠٣).

(٢) أي ما لم تبلغ روحه الحلقوم، فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به المريض. قال الله تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ والحديث رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وأخرجه أحمد، وابن ماجه، وصححه ابن حبان، والحاكم.

به وتوقعه هو الرحمة. والعذاب هو العذاب في احتجابك عنه أو يأسك منها أو شكك فيها. ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر: ٥٣]..

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية. كائنة ما كانت. وإنها الدعوة للأوبة. دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال. دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إن الله رحيم بعباده. وهو يعلم ضعفهم وعجزهم. ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه. ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد. ويأخذ عليهم كل طريق. ويجلب عليهم بخيله ورجله. وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث! ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه. وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلتت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده. وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك، ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم..

يعلم الله - سبحانه - عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون؛ ويوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيىء له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط. وبعد أن يلج في المعصية، ويسرف في الذنب، ويحسب أنه قد طُرد وانتهى أمره، ولم يعد يُقبل ولا يُستقبل. في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط التي يوسعها الشيطان في صدره، يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم﴾.

وليس بينه - وقد أسرف في المعصية، ولجّ في الذنب، وأبق عن الحمى، وشرد عن الطريق - ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخية، وظلالها

السمحة المحببة. ليس بينه وبين هذا كله إلّا التوبة. التوبة وحدها. الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون...﴾.. الإنابة. والإسلام. والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام. هذا هو كل شيء. بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء! إنّه حساب مباشر بين العبد والرب. وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق. من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب. ومن أراد الإنابة من الضالين، فلينب. ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم. وليأت ﴿يجد الله غفوراً رحيماً﴾ .. ليأت وليدخل فالباب مفتوح. والفيء والظل والندى والرخاء: كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب!

ولا بد مع هذه اللمسة الأخيرة من التذكير بفكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة.. إنّ الخطيئة فردية والتوبة فردية. في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض.. ﴿ومن يكسب إثماً فإنّما يكسبه على نفسه.. وكان الله عليماً حكيماً﴾ [النساء: ١١١]..

وهذه الآية تؤكد على تقرير فردية التبعة. وهي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي في الجزاء، والتي تثير في كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة. الخوف من عمله وكسبه. والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة غيره.. ليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده. ليست هناك خطيئة موروثة في الإسلام، كالتي تتحدث عنها نظرية الكنيسة وتصورات الكنيسة. وليس هناك تكفير لاهوتي، كالذي تقول الكنيسة إنّ عيسى - عليه السّلام - (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه. تخليصاً لبني آدم من خطيئة آدم!..

كلا! خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة ﴿قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا

وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾ . ﴿فتلقّى آدم كلمات من ربه فتاب عليه، إنّه هو التوّاب الرحيم﴾ . . وخطيئة كل ولد من أولاد ادم خطيئته كذلك شخصية، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة. تصور مريح صريح يحمل كل إنسان وزره، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط. . ﴿إنَّ الله توّاب رحيم﴾ . .

عندئذٍ تنطلق كل نفس في رحلتها على الأرض حذرة ممّا تكسب. مطمئنة إلى أنّها لا تحاسب إلاّ على ما تكسب. . توازن عجيب، في هذا التصور الفريد هو إحدى خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، التي تضمن الفطرة، وتحقق العدل الإلهي المطلق، لمطلوب أن يحاكيه بنو الإنسان.

إنّ القرآن الكريم لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة، ولا ينفيه منبوذاً حائراً في تيه الشيطان! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب . إنّه يطمعه في المغفرة، ويدله على الطريق ﴿ألم يعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة عن عباده؟ . ﴾ . ﴿وأنَّ الله هو التوّاب الرَّحيم﴾ .

ألم يعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة عن عباده؟ . .

وهو استفهام تقريري يفيد: فليعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة، والله هو يتوب ويرحم عباده . .

وأخيراً لا بد من بيان طبيعة التوبة وحقيقتها:

إنَّ التوبة التي يقبلها الله، والتي تفضل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس، فتدل على أن هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى فتابَتْ وأنابت، وهي في فسحة من العمر، وعزمت بنية صادقة في سلوك طريق جديد. . ﴿إنّما التوبة على الله للّذين يعملون السوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم. وكان الله عليماً حكيماً﴾ [النساء: ١٧] . .

والذين يعملون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب.. وهناك ما يشبه الإجماع على أن الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدى ـ طال أمدها أم قصر ـ ما دامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم.. والذين يتوبون من قريب: هم الذين يتوبون إلى الله قبل أن يتبين لهم الموت، ويدخلوا في سكراته، ويحسوا أنهم على عتبته. فهذه التوبة حينئذٍ هي توبة الندم، والانخلاع عن الخطيئة، والنية على العمل الصالح والتكفير. وهي إذن نشأة جديدة للنفس، ويقظة جديدة للضمير. ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾.. ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾. يتصرف عن علم وعن حكمة. ويمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر، ولا يطردهم أبداً وراء الأسوار، وهم راغبون حنيئة في الحمى الآمن والكنف الرحيم.

إنَّ الله ـ سبحانه ـ لا يطارد عباده الضعاف، ولا يطردهم متى تابوا إليه وأنابوا. وهو ـ سبحانه ـ غني عنهم، وما تنفعه توبتهم. ولكن تنفعهم هم أنفسهم، وتصلح حياتهم وحياة المجتمع الذي يعيشون فيه. ومن ثمَّ يفسح لهم في العودة إلى الصف تائبين متطهرين. وأمَّا من أحاطت به خطيئته وقد لجَّ في الضلال يتتبع خطوات الشيطان: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال: إنِّي تبت الآن﴾.

فهذه التوبة هي توبة المضطر، لجت به الغواية. توبة الذي يتوب لأنَّه لم يعد لديه متّسعاً لارتكاب الآثام والخطيئة. وهذه لا يقبلها الله. لأنَّها لا تنشىء صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه.

والتوبة إنَّما تقبل لأنها الباب المفتوح الذي يلجه الشاردون إلى الحمى الآمن، فيستردون أنفسهم من الضلال، وتستردهم البشرية من القطيع الضال تحت راية الشيطان، ليعملوا عملاً صالحاً ـ إن قدر الله لهم امتداد العمر بعد المتاب.

﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾.. وهؤلاء قد قطعوا كل ما بينهم، وبين التوبة من وشيجة، وضيعوا كل ما بينهم وبين المغفرة من فرصة.. ﴿أولـئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾

وهيَّا أيها الناس. هيا قبل فوات الأوان. هيا ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت...﴾ فيترك كل شيء وراءه؛ وينظر فلا يجد أنه قدم شيئاً لنفسه، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران، ثمَّ يرجو حينئذٍ ويتمنى أن لو كان قد أُمهل ليكون من الصَّالحين! ﴿فيقول: ربِّ لولا أخَّرتني إلى أجلٍ قريب فأصَّدَّق وأكن من الصَّالحين﴾..

وأنَّى له هذا؟ ﴿ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجلها، والله خبير بما تعملون﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]..

إنها لحظات الحسرة والندامة حين يواجه الإنسان الحقيقة التي يفرّ منها، فالموت حتم لا مهرب منه، وما بعده من رجعة إلى الله، وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه.. ﴿حتَّى إذا جاء أحدهم الموت قال: ربِّ ارجعون، لعلِّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾.. [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]..

إنَّه مشهد الاحتضار، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة، لتدارك ما فات، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال. وكأنَّما المشهد معروض للحظة للأنظار، مشهود كالعيان! فإذا الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء، إنَّما يُعلن على رؤوس الأشهاد: ﴿كلا، إنَّها كلمة هو قائلها..﴾ كلمة لا معنىً لها، ولا مدلول وراءها، ولا تنفي العناية بقائلها. إنها كلمة الموقف الرهيب، لا كلمة الإخلاص المنيب. كلمة تقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب من رصيد!

وهيا. هيا قبل فوات الأوان. هيا ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب ثمَّ لا تُنصرون﴾. فما هنالك من نصير. هيا فالوقت غير مضمون. وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار. هيا

﴿واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم﴾.. وهو هذا القرآن بين أيديكم.. ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون﴾..

هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة، وعلى التفريط في حق الله، وعلى السخرية بوعد الله: ﴿أن تقول نفس: يا حسرتا على ما فرّطتُ في جنب الله، وإن كنت لمن السّاخرين﴾.

أو تقول إنَّ الله كتب عليَّ الضلال ولو كتب عليَّ الهدى لاهتديت واتُّقيت: ﴿أو تقول لو أنَّ الله هداني لكنت من المتُّقين﴾.

وهي علالة لا أصل لها. فالفرصة ها هي ذي سانحة، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة. وباب التوبة ها هو ذا مفتوح. ﴿أو تقول حين ترى العذاب: لو أنَّ لي كرة فأكون من المحسنين﴾.

وهي أُمنية لا تنال. فإذا انتهت الحياة فلا كرة ولا رجوع. وها أنتم أولاء في دار العمل. وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود. وستسألون عنها مع التبكيت والترذيل: ﴿بلى. قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ [الزُّمر: ٥٩]..

هيا قبل أن تطوى صفحات حياتكم. تندمون وتستغيثون؟ وفي الوقت أمامكم فسحة، قبل أن تندموا وتستغيثوا، ولات حين مناص. ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص! ﴿والذين كفروا لهم نار جهنّم، لا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها. كذلك نجزي كل كفور﴾..

ها نحن أُولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء، متناوح من شتّى الأرجاء. إنّه صوت المنبوذين في جهنّم: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾. وجرس اللفظ يلقي في الحس هذه المعاني جميعاً. فلنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول. إنّه يقول: ﴿ربّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾.

إنه الإنابة والاعتراف والندم. ولكن بعد فوات الأوان. فها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسي. ﴿أوَلَم نعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكر؟﴾. فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر وهي كافية للتذكر لمن أراد أن يتذكر. ﴿وجاءكم النذير﴾.. زيادة في التنبيه والتحذير. فلم تتذكروا ولم تحذروا ﴿فذوقوا فما للظَّالمين من نصير﴾.

هيا قبل أن تلفح وجوهكم النار حتى تكلح، وتُشوه هيئتها، ويكدر لونها.. هيا قبل أن تلقوا هذا المشهد المخزي المؤذ المهين الأليم. ﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنَّم خالدون. تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾..

هيا قبل فوات الأوان. هيا قبل أن يوجه إليكم التأنيب والخزي مع العذاب الفظيع ﴿ألم تكن آياتي تُتلى عليكم فكنتم بها تكذِّبون!﴾ وكأنما يخيل إليهم - وقد سمعوا هذا السؤال - أنهم مأذونون في الكلام، مسموح لهم بالرجاء، وأنّ الاعتراف بالذنب قد يجدي في قبول الرجاء. ﴿قالوا. ربَّنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. ربَّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنَّا ظالمون﴾. وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة.. ولكن كأنما هم قد تجاوزوا حدهم وأساؤوا أدبهم، فلم يكن مأذوناً لهم في غير الإجابة على قدر السؤال. بل لعله كان سؤالاً للتبكيت لا يطلب عليه منهم جواب. فهم يُزجرون زجراً عنيفاً قاسياً: ﴿قال: اخسأوا فيها ولا تُكلِّمون﴾. اخرسوا واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين، فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب والشقاء المهين..

هذا هو المصير الأخير في رحلة الإنسان على الأرض. مصير المتكبِّرين. مصير الذين صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه!

هيا قبل فوات الأوان ﴿واتَّقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله. ثمَّ تُوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون﴾ [البقرة: ٢٨١].. ومن شاء بعد هذا

فليلبِّ النداء إلى الرحمة الندية الظليلة وراء الباب المفتوح. ومن شاء فليلق في إسرافه وفي فساده وشروره حتى يأخذهم العذاب وهم لا يشعرون!

مفرق الطريق

هذه قِيَم ثرَّة من إيحاءات قصة آدم - عليه السَّلام - وهي ثروة من الحقائق والتصورات القويمة، وثروة من الإيحاءات والتوجيهات الكريمة. وثروة من الأُسس التي يقوم عليها تصور إنساني واجتماعي، وأوضاع إنسانية واجتماعية، يحكمها المنهج الإلـهي للخُلق والخير والفضيلة.

ومن هذه القيم نستطيع أن ندرك أهمية القصص القرآني في تركيز وترسيخ قواعد التصور الإسلامي؛ وإيضاح القيم التي يرتكز عليها. وهي القيم التي تليق بعالم صادر عن الله، متَّجه إلى الله، صائر إلى الله في نهاية المطاف. عقد الاستخلاف فيه قائم على تلقِّي الهدى من الله، والتقيد بمنهجه في الحياة. ومفرق الطريق فيه أن يسمع الإنسان ويطيع لما يتلقَّاه من الله، أو أن يسمع الإنسان ويطيع لما يمليه عليه الشيطان. وليس هناك طريق ثالث. إمَّا الله وإمَّا الشيطان. إمَّا الهدى وإمَّا الضلال. إمَّا الحق وإمَّا الباطل. إمَّا النور وإمَّا الظلمات. إمَّا اليقين والاطمئنان وإمَّا الحيرة والارتياب. إمَّا الفلاح وإمَّا الخسران.

وهذه الحقيقة التي يعبر عنها القرآن كله، بوصفها الحقيقة الأُولى، التي تقوم عليها سائر التصورات، وسائر الأوضاع في عالم الإنسان.. **﴿ومن يُطع الله ورسوله ويخشى الله ويتَّقه فأولـئك هم الفائزون﴾** [النور: ٥٢]..

إنَّ السمع والطاعة لهدىٰ الله بلا تردد ولا جدال ولا انحراف. السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أنَّ هدى الله هو الهدى والنور وما عداه الهوى والظلام؛ النابعان من التسليم المطلق لله، واهب الحياة، المتصرف فيها كيف يشاء؛ ومن الاطمئنان إلى أن ما يشاؤه الله للناس خير

ممّا يشاءونه لأنفسهم. فالله الذي خلق أعلم بمن خلق..

وهدى الله منهج حياة كامل، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها. ومن ثمّ يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة؛ وينسّق بينها جميعاً، ويتجه بها إلى الله في النهاية.. ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ [الأحزاب ٧١]

والطاعة بذاتها فوز عظيم. فهي استقامة على نهج الله. والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة. والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح الواصل سعادة بذاته. ولو لم يكن وراءه جزاء سواه. وليس الذي يسير في الطريق الممهود المنير وكل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه ويتعاون كالذي يسير في الطريق المقلقل المظلم وكل ما حوله من خلق الله يعاديه ويصادمه ويؤذيه! فطاعة الله وحسبنه طريق النجاة في الدنيا والآخرة. وعد الله لن يخلف الله وعده.

وبعد، توكيد بعد توكيد للقاعدة الأساسية في حياة الإنسان. قاعدة التلقّي من الله وحده. ﴿فإمّا يأتينَّكم منّي هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولـئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾..

التلقي من الله وحده، وإلاّ فهو الكفر والفسوق والعصيان ﴿أولـئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾.

إنّ طاعة الله هي الاتّباع لهديه ومنهجه وحده بلا شريك.. فالله وحده هو الذي يختار للناس منهج حياتهم. والله وحده هو الذي يسنّ للناس شرائعهم. والله وحده هو الذي يضع للناس موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم. وطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها في ذاتها؛ وهي الفوز العظيم، قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم. أمّا نعيم الآخرة

فهو فضل زائد على جزاء الطاعة. فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل.

ويترتب على طاعة الله ورسوله فيها الجنّة والخلود والفوز العظيم. كما يترتب على تعديها وعصيان الله ورسوله فيها النار والخلود والعذاب المهين. ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك الفوز العظيم. ومن يَعصِ الله ورسوله ويتعدَّ حدوده يُدخله ناراً خالداً فيها، وله عذاب مهين﴾ [النساء: ١٣، ١٤]..

هذا هو الأمر في حياة الإنسان في جملته وفي حقيقته.. هذه هي الحقيقة الكبيرة، التي تؤكد عقيب قصة آدم والتعقيب عليها. تعرضها عرضاً صريحاً حسماً، لا يقبل المماحكة، ولا يقبل التأويل.

وهذه هي الحقيقة التي ينبغي أن يتبينها كل إنسان في هذه الأرض في كل زمان ومكان ليرى أين هو من طاعة الله باتباع هديه ومنهجه، وأين حياته من هذا المنهج والهدي الإلـهي..

وبعد هذا العرض تبيَّن «أنَّ شخصية آدم في القصة نموذج «للإنسان» بكل مقوماته وخصائصه. ومن أظهر تلك المقومات والخصائص ذلك الضعف البشري الأكبر الذي يجمع كل نواحي الضعف الأخرى: الضعف أمام الرغبة في الخلود. وقد لمس إبليس موضع الضعف هذا فاستجاب له آدم واستجابت له حواء: ﴿قال: هل أدلُّكما على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى﴾. فالإنسان الفاني حريص على الخلود أبداً، فممّا لم يمده كما منّاه الشيطان، ظل وسيظل يحاوله بمختلف الطرق. بالنسل وبالذكر وبالخيال فإن لم ينفعه هذا كله نفعه الدين الذي يضمن له البعث مرة أُخرى نوعاً من الخلود أيضاً!

أمّا شخصية إبليس فهي شخصية الشيطان وكفى...»[1].

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ١٧١.

وفي النهاية نرى أن ختام القصة ينعطف على افتتاحها، فيبين طبيعة التصور الإيماني، مع السمع والطاعة:

﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾..

﴿وقال الشيطان لمَّا قضي الأمر: إنَّ الله وعدكم وَعْد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم؛ وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي. فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾

﴿ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلاَّ فريقاً من المؤمنين. وما كان له عليهم من سلطان إلاَّ لنعلم من يؤمن بالآخرة ممَّن هو منها في شك. وربك على كل شيء حفيظ﴾..

ومن ثمَّ تتسق البدء والختام، وتتجمع إيحاءات القصة بين صفحتين: صفحة الله واتباع هداه، وعصيانه واتباع الهوى والشيطان.. وليس فريقان. الفريق الذي اتبع أمر الله والفريق الذي اتبع أمر الشيطان: ﴿كما بدأكم تعودون﴾..

وقد بدأها الرحمة فريقين: آدم وزوجه، والشيطان وقبيله. وكذلك سيعودون: الطائعون سيعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأمهم حواء المسلمين المؤمنين المتبعين لأمر الله. والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله، يملأ الله منهم جهنم، بولائهم لإبليس وولايته لهم. وهم يحسبون أنَّهم مهتدون.

لقد هدى الله من جعل ولايته لله.. وأضلَّ من جعل ولايته للشيطان. وها هم أولاء عائدين فريقين: ﴿فريقاً هدىٰ وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة إنَّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنَّهم مهتدون﴾.

ها هم أولاء عائدين، في لمحة تضم طرفي الرحلة! على طريقة القرآن، التي يتعذر أن تتحقق في غير أسلوب القرآن! وبين الغدو

والرواح يعرض القرآن الكريم. معارك الهدى والضلال. معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين، مع الملأ المستكبرين والأتباع المستخفين. ويعرض الصراع المتكرر؛ والمصير المتشابه. وتتجلى صحائف الإيمان في إشراقها ووضاءتها؛ وصحائف الضلال في انطماسها وعتامتها. وتعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين حيث تقف الآيات القرآنية عليها للتذكير والتحذير. وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ في سياق سور القرآن ... فبعد كل مرحلة يتوقف عندها القرآن ليقول كلمة! كلمة تعقيب للإنذار والتذكير. ثم يمضي.

إنها قصة البشرية بجملتها في رحلتها ذهاباً وإياباً. تتمثل فيها حركة هذه العقيدة في تاريخ البشرية، وتتبع هذه الحركة في مدها المتطاول. حتى تنتهي إلى غايتها الأخيرة في نقطة المنطلق الأولى.. وهي وجهة قرآنية رائعة مؤثرة في عرض موضوع العقيدة

قصة ابني آدم

قصة ابني آدم

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق: إذ قرَّبا قرباناً، فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر قال: لأقتلنك. قال: إنما يتقبل الله من المتقين. لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين. فطوّعت له نفسه قتل أخيه، فقتله، فأصبح من الخاسرين. فبعث الله غراباً يبحث في الأرض، ليريه كيف يواري سوأة أخيه. قال: يا ويلتا! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب، فأواري سوأة أخي؟ فأصبح من النادمين. . . ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١]. .

هذه القصة تقدم نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان؛ ونموذجاً كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له. كما تقدم نموذجاً لطبيعة الخير والسماحة، ونموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة. وتقفهما وجهاً لوجه، كل منهما يتصرف وفق طبيعته. . وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشر، والعدوان الصارخ الذي يثير الضمير؛ ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل، تكف النموذج الشرير المعتدي عن الاعتداء؛ وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة؛ فإذا ارتكبها ـ على الرغم من ذلك ـ وجد الجزاء العادل، المكافىء للفعلة المنكرة. كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه. فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش، وأن

نُصان، وأن تأمن؛ في ظل شريعة عدلة رادعة. ولا يحدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة.. وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن: «قابيل وهابيل» وأنّهما هما ابنا آدم في هذه القصة؛ وورد تفصيلات عن القضية بينهما، والنزاع على أُختين لهما.. فإنّنا نؤثر أن نستبقي القصة ـ كما وردت في القرآن ـ مجملة بدون تحديد. لأنّ هذه الروايات كلها موضع شك في أنّها مأخوذة عن أهل الكتاب ـ والقصة واردة في العهد القديم محددة فيها الأسماء والزمن والمكان على النحو الذي تذكره هذه الروايات ـ والحديث الوحيد الصحيح الوارد عن هذا النبأ لم يرد فيه تفصيل. وهو من رواية ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنّه كان أول من سنَّ القتل».

رواه الإمام أحمد في مسنده: حدّثنا أبو معوية ووكيع قالا: حدّثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود.. وأخرجه الجماعة ـ سوى أبو داود ـ من طرق عن الأعمش.

وكل ما نستطيع أن نقوله هو أنّ الحادث وقع في فترة طفولة الإنسان، وأنّه كان أول حادث قتل عدواني متعمد، وأنّ القاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث..

وبقاء القصة مجملة ـ كما وردت في سياقها القرآن ـ يؤدي الغرض من عرضها؛ ويؤدي الإيحاءات كاملة؛ ولا تضيف التفصيلات شيئاً إلى هذه الأهداف الأساسية.. لذلك نقف نحن عند النص العام لا نخصصه ولا نفصله..

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً، فتقبل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر. قال: لأقتلنّك. قال: إنّما يتقبَّل الله من المتّقين﴾..

واتل عليهم نبأ هذين النموذجين من نماذج البشرية. اتله عليهم

بالحق. فهو حق وصدق في روايته، وهو ينبىء عن حق في الفطرة البشرية، وهو يحمل الحق في ضرورة الشريعة العادلة الرادعة

إنّ ابني آدم هذين في موقف لا يثور فيه خاطر لاعتداء في نفس طيبة. فهما في موقف طاعة بين يدي الله موقف تقديم قربان، يتقربان به إلى الله.. ﴿فتقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر﴾..

والفعل مبني للمجهول، ليشير بناؤه هكذا إلى أنَّ أمر القبول أو عدمه موكول إلى قوة غيبية؛ وإلى كيفية غيبية.. وهذه الصياغة تفيدنا أمرين:

الأول: ألّا نبحث نحن عن كيفية هذا التقبل ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير في روايات نرجح أنّها مأخوذة عن أساطير «العهد القديم»..

والثاني: الإيحاء بأنّ الذي قبل قربانه لا جريرة له توجب الحفيظة عليه وتبييت قتله، فالأمر لم يكن له يد فيه؛ وإنّما تولته قوة غيبية بكيفية غيبية؛ تعلو على إدراك كليهما وعلى مشيئته. فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه، وليجيش خاطر القتل في نفسه! فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة في هذا المجال.. مجال العبادة والتقرب، ومجال القدرة الغيبية الخفية التي لا دخل لإرادة أخيه في مجالها..

﴿قال: لأقتلنّك﴾..

وهكذا يبدو هذا القول ـ بهذا التأكيد المنبىء عن الإصرار ـ نابياً مثيراً للاستنكار لأنّه ينبعث من غير موجب، اللهمّ إلّا ذلك الشعور الخبيث المنكر. شعور الحسد الأعمى؛ الذي لايعمر نفساً طيبة..

وهكذا نجدنا منذ اللحظة الأولى ضد الاعتداء: بإيحاء الآية التي لم تكمل من السياق.

ولكن السياق يمضي يزيد هذا الاعتداء نكارة وبشاعة؛ بتصوير استجابة النموذج الآخر؛ ووداعته وطيبة قلبه: ﴿قال: إنّما يتقبل الله من المتّقين﴾.

هكذا في براءة ترد الأمر إلى وضعه وأصله؛ وفي إيمان يدرك أسباب القبول؛ وفي توجيه رفيق للمعتدي أن يتّقي الله؛ وهداية له إلى الطريق الذي يؤدّي إلى القبول؛ وتعريض لطيف به لا يصرح بما يخدشه أو يستثيره. . .

ثمَّ يمضي الأخ المؤمن التقي الوديع المسالم يكسر من شرة الشر الهائج في نفس أخيه الشرير:

﴿لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إنِّي أخاف الله رب العالمين﴾. .

وهكذا يرتسم نموذج من الوداعة والسلام والتقوى؛ في أشد المواقف استجاشة للضمير الإنساني؛ وحماسة للمعتدى عليه ضد المعتدي؛ وإعجاباً بهدوئه واطمئنانه أمام نذر الاعتداء، وتقوى قلبه وخوفه من رب العالمين.

ولقد كان في هذا القول اللين ما يفثأ الحقد؛ ويهدىء الحسد، ويسكن الشر، ويمسح على الأعصاب المهتاجة؛ ويرد صاحبه إلى حنان الأخوة، وبشاشة الإيمان، وحساسية التقوى.

أجل. لقد كان في ذلك كفاية. . ولكن الأخ الصالح يضيف إليه النذير والتحذير:

﴿إنِّي أُريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النَّار. وذلك جزاء الظَّالمين﴾. .

إذا أنت مددت يدك إليَّ لتقتلني، فليس من شأني ولا من طبعي أن أفعل هذه الفعلة بالنسبة لك. فهذا الخاطر - خاطر القتل - لا يدور بنفسي أصلاً، ولا يتّجه إليه فكري إطلاقاً. . خوفاً من الله رب العالمين. . لا عجزاً عن إتيانه. . وأنا تاركك تحمل إثم قتلي وتضيفه إلى إثمك الذي جعل الله لا يتقبل منك قربانك؛ فيكون إثمك مضاعفاً، وعذابك مضاعفاً . . ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾. .

وبذلك صور له إشفاقه هو من جريمة القتل، ليثنيه عمَّا تراوده به

نفسه، وليخحله من هذا الذي تحدثه به نفسه تجاه أخ مسلم وديع تقي.

وعرض له وزر جريمة القتل لينفره منه، ويزين له الخلاص من الإثم المضاعف، بالخوف من الله رب العالمين. وبلغ من هذا وذلك أقصى ما يبلغه إنسان في صرف الشر ودو فعه عن قلب إنسان. ولكن النموذج الشرير لا تكمل صورته، حتى نعلم كيف كانت استجابته.

﴿فطوَّعت له نفسه قتل أخيه، فقتله، فأصبح من الخاسرين﴾.

بعد هذا كله. بعد التذكير والعظة والمسالمة والتحذير. بعد هذا كله اندفعت النفس الشريرة، فوقعت الجريمة. وقعت وقد ذللت له نفسه كل عقبة، وطوّعت له كل مانع.. طوّعت له نفسه القتل.. وقتل من؟ قتل أخيه.. وحقّ عليه النذير: ﴿فأصبح من الخاسرين﴾.

خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك. وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق. وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة. وخسر آخرته فباء بإثمه الأوّل وإثمه الأخير.

ومثلت له سوأة الجريمة في صورتها الحسية. صورة الجثة التي فارقتها الحياة وباتت لحماً يسري فيه العفن، فهي سوأة لا تطيقها النفوس..

وشاءت حكمة الله أن تقفه أمام عجزه ـ وهو الباطش القاتل لقاتله ـ عن أن يواري سوأة أخيه. عجزه عن أن يكون كالغراب في أمة الطير

﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه. قال: يا ويلتا! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي؟ فأصبح من النادمين﴾..

وتقول بعض الروايات: إنَّ الغراب قتل غراباً آخر، أو وجد جثة غراب أو جاء ومعه جثة غراب، فجعل يحفر في الأرض، ثمَّ واراه وأهال عليه التراب.. فقال القاتل قولته. وفعل مثلما رأى الغراب يفعل.

وظاهر أنَّ القاتل لم يكن قد رأى من قبل ميتاً يدفن ـ وإلاَّ لفعل ـ وقد يكون ذلك لأنَّ هذا كان أول ميت في الأرض من أبناء آدم. أو لأنَّ القاتل كان حدثاً ولم ير من يدفن ميتاً. . والاحتمالان قائمان. وظاهر كذلك أنَّ ندمه لم يكن ندم التوبة ـ وإلاَّ لقبل الله توبته ـ وإنَّما كان الندم الناشىء من عدم جدوى فعلته، وما أعقبته له من تعب وعناء وقلق.

كما أنَّ دفن الغراب لأخيه الغراب، قد يكون من عادات الغربان كما يقول بعض الناس. وقد يكون حدثاً خارقاً أجراه الله. وهذه كتلك سواء. . فالذي يودع الأحياء غرائزهم هو الذي يجري أي حدث على يد أي حي. . هذا من قدرته، وهذا من قدرته على السواء.

وهنا يلتقط السياق الآثار العميقة التي تتركها في النفس رواية النبأ بهذا التسلسل، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذي فرض لتلافي الجريمة في نفس المحرم؛ أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التي تنتظره.

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل: أنَّه من قتل نفساً ـ بغير نفس أو فساد في الأرض ـ فكأنَّما قَتَلَ الناس جميعاً؛ ومن أحياها فكأنَّما أحيا النَّاسَ جميعاً. ولقد جاءتهم رسلنا بالبيِّنات؛ ثمَّ إنَّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ [المائدة: ٣٢]. .

من أجل ذلك. . من أجل وجود هذه النماذج في البشرية. . من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً. . ومن أجل أنَّ الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر، وأنَّ المسالمة والموادعة لا تكفَّان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس. . من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً؛ وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً. . وكتبنا ذلك على بني إسرائيل فيما شرعنا لهم من الشريعة.

إنّ قتل نفس واحدة ـ في غير قصاص، وفي غير دفع فساد في الأرض ـ يعدل قتل الناس جميعاً. لأنّ كل نفس ككل نفس؛ وحق الحياة واحد ثابت لكل نفس. فقتل نفس واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته؛ الحق الذي تشترك فيه كل النفوس. كذلك دفع القتل عن نفس، واستحياؤها بهذا الدفع ـ سواء كان بالدفاع عنها في حالة حياتها أو بالقصاص لها في حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل على نفس أخرى ـ هو استحياء للنفوس جميعاً، لأنه صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعاً.

ويكثر في القرآن النهي عن هذه الجريمة المنكرة. ﴿ولا تقتلوا النَّفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق﴾ [الأنعام: ١٥١] فالاعتداء إنما يقع على حق الحياة ذاتها، وعلى النفس البشرية في عمومها، وعلى هذه القاعدة كتب الله حرمة النفس ابتداء. وهناك طمأنينة الجماعة المسلمة في دار الإسلام وأمنها، وانطلاق كل فرد فيها ليعمل وينتج آمناً على حياته. لا يؤذى فيها إلَّا بالحق. والحق الذي تؤخذ به النفس بيَّنه الله في شريعته، ولم يتركه للتقدير والتأويل.

وفي ظلال هذه القصة لا بد من بيان في علاقات المسلمين بعضهم ببعض، مهما اختلفت الديار، فلا قتل ولا قتال.. لا قتل **إلَّا في حدٍّ أو قصاص**.. فإنّه لا يوجد سبب يبلغ من ضخامته أن يفرق ما بين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة. ومن ثمَّ لا يقتل المسلم المسلم أبداً. وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة. اللَّهمَّ إلَّا أن يكون ذلك خطأً.. وللقتل الخطأ وضعت التشريعات والأحكام[1]. فأمَّا القتل العمد فلا كفارة له. لأنَّه وراء الحسبان! ووراء حدود الإسلام!

---

(١) ﴿ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلَّمة إلى أهله ـ إلَّا أن يصَّدَّقوا ـ فإن كان من قوم عدو لكم ـ وهو مؤمن ـ فتحرير رقبة مؤمنة. وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية =

لهذا يستبعد القرآن حالة القتل العمد ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأً﴾ [النساء: ٩٢]، فالقرآن يستبعد وقوعها، ابتداء فليس من شأنه أن تقع. إذ ليس في هذه الحياة الدنيا كلها ما يساوي دم مسلم يريقه مسلم عمداً. وليس في ملابسات هذه الحياة الدنيا كلها ما من شأنه أن يوهن من علاقة المسلم بالمسلم إلى حد أن يقتله عمداً. وهذه العلاقة التي أنشأها الإسلام بين المسلم والمسلم من المتانة والعمق والضخامة والغلاوة والإعزاز بحيث لا يفترض الإسلام أن تخدش هذا الخدش الخطير أبداً.

إنَّ وجود مسلم إلى جوار مسلم مسألة كبيرة كبيرة جداً. ونعمة عظيمة. عظيمة جداً. ومن العسير تصور أن يقدم مسلم على إزالة هذه النعمة عن نفسه؛ والإقدام على هذه الكبيرة عن عمد وقصد.

إنَّ هذا العنصر - المسلم - عنصر عزيز في الأرض.. وأشد الناس شعوراً بإعزاز هذا العنصر هو المسلم نفسه.. فمن العسير أن يقدم على إعدامه بقتله.. وهذا أمر يعرفه أصحابه. يعرفونه في نفوسهم ومشاعرهم. وقد علَّمهم الله إيَّاه بهذه العقيدة. وبهذه الوشيجة. وبهذه القربة التي تجمعهم في رسول الله ﷺ ثمَّ ترتقي فتجمعهم في الله سبحانه الذي ألَّف بين قلوبهم. ذلك التأليف الرباني العجيب.

إنَّ القتل العمد هو الكبيرة التي لا ترتكب مع إيمان؛ والتي لا تكفَّر عنها دية ولا عتق رقبة، وإنَّما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله:

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنَّم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه. وأعدَّ له عذاباً عظيماً﴾ [النساء: ٩٣]..

إنَّها جريمة قتل لا للنفس فحسب - بغير حق - ولكنها كذلك جريمة

= مسلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله. وكان الله عليماً حكيماً﴾ [النساء: ٩٢] انظر في ظلال القرآن ٧٣٥، وتفسير القرطبي وابن كثير وغير ذلك.

قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة، التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم. إنه تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها.

إن أهل الكتاب في دار الإسلام أهل الذمة معاهدين، فإن عهدهم مع المؤمنين يجعل دماءهم مصونة كدماء المسلمين. والإسلام دين الحياة ودين السلام، فقتل النفس عنده كبيرة(1) تلي الشرك بالله، فالله واهب

---

(1) قال النبي ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

وقال النبي ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه». رواه أحمد والشيخان.

قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله: هذا إنما يكون كذلك إذا لم يكونا يقتتلان على تأويل، إنما يقتتلان على عداوة بينهما وعصبية أو طلب دنيا أو رئاسة أو علو، فأما من قاتل أهل البغي على الصفة التي يجب قتالهم بها، أو دفع عن نفسه أو حريمه فإنه لا يدخل في هذا، لأنه مأمور بالقتال للذب عن نفسه غير قاصد به قتل صاحبه، إلا إن كان حريصاً على قتل صاحبه، ومن قاتل باغياً أو قاطع طريق من المسلمين فإنه لا يحرص على قتله، إنما يدفعه عن نفسه، فإن انتهى صاحبه كف عنه ولم يتبعه، فإن الحديث لم يرد في أهل هذه الصفة، فأما من خالف هذا النعت فهو الذي يدخل في هذا الحديث الذي ذكرنا. والله أعلم.

وقال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» متفق عليه وهو من حديث «خطبة الوداع».

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»

قال ابن عمر رضي الله عنهما: من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله. رواه البخاري والحاكم وقال صحيح على شرطهما. والورطات جمع ورطة: وهي الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه (الترغيب).

وقال ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا» رواه النسائي والبيهقي من حديث بريدة وشاهده عند مسلم والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً وموقوفاً. قاله المنذري ورواه البيهقي والأصبهاني وابن ماجه بإسناد حسن عن البراء بن عازب رفعه. أهـ.

=

الحياة، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلّا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها: ﴿ولا تقتلوا النَّفس التي حرَّم الله إلّا بالحق﴾ [الإسراء: ٣٣]. وكل نفس هي حرم لا يمس، وحرام إلّا بالحق. وهذا الحق الذي يبيح قتل نفس محدد لا غموض فيه، وليس متروكاً للرأي ولا متأثراً بالهوى. وقد جاء في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله إلّا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

فأمَّا الأولى فهي القصاص العدل الذي إن قتل نفساً فقد ضمن الحياة للنفوس ﴿ولكم في القصاص حياة﴾. حياة بكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأنفس والقصاص ينتظرهم فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء. وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم فيثأروا ولا يقفوا عند القاتل، بل يمضوا في الثأر، ويتبادلوا القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتى تسيل

وذكر الذهبي في الكبائر: «الإشراك بالله وقتل النفس واليمين الغموس» رواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو. وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار.

وقال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً» أخرجه البخاري والنسائي عن ابن عمرو رفعه كما ذكر الذهبي. والمنذري في الترغيب والترهيب.

فإذا كان هذا في قتل المعاهد، وهو الذي أعطي عهداً من اليهود والنصارى في دار الإسلام، فكيف بقتل المسلم.

وقال ﷺ: «ألا من قتل نفساً معاهدة لها ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر ذمة الله ولا يرح رائحة الجنة وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفاً» أخرجه الترمذي وصححه.

وقال ﷺ: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة لقي الله مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالى» رواه الإمام أحمد.

وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلّا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» أخرجه النسائي والحاكم، وقال صحيح الإسناد، ورواه أبو داود وابن حبان وصححه عن أبي الدرداء رفعه [بتصرف من كتاب الإمام الذهبي: الكبيرة الثانية].

دماء ودماء. وحياة يأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص، فينطلق آمنا يعمل وينتج فإذا الأمة كلها في حياة.

وأما الثانية فهي دفع للفساد القاتل في نشر الفاحشة. وهي لون من ألوان القتل[1].

أمّا الثّالثة فهي دفع للفساد الروحي الذي يشيع الفوضى في الجماعة، ويهدد أمنها ونظامها الذي اختاره الله لها ويسلمها إلى الفرقة القاتلة. والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يُقتل لأنّه اختار الإسلام لم يجبر عليه، ودخل في جسم الجماعة، واطلع على أسرارها، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها. ولو بقي خارجها ما أكرهه أحد على الإسلام. بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين. وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين في العقيدة.

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ [الإسراء: ٣٢] انظر التفسير في ظلال القرآن: ٢٢٢٤.

قصة نوح عليه السلام

المحتوى	ص
ـ تقديم	٦١٩
ـ فحوى رسالة نوح	٦٢٤
ـ المواجهة القبيحة والردّ المنحرف	٦٣٤
ـ تلطف وسماحة ومودّة	٦٤٣
ـ التحدّي الأخير	٦٤٧
ـ التوجه إلى العلي الكبير وتقديم الحساب الأخير	٦٥٠
ـ تدبير وتقدير	٦٥٨
ـ المشهد الهائل المرهوب	٦٦٤
ـ صورة من صور البشرية المستكبرة عن الحق	٦٧٠
ـ الحقيقة الواضحة الحاسمة	٦٧٦
ـ الحقيقة الكبيرة والقاعدة الأصلية	٦٨٢
ـ الوقفة الأخيرة	٦٨٧

نوح ـ عليه السَّلام

تقديم

وردت قصة نوح في مواضع متعددة من القرآن الكريم، كقصة موسى وقصة إبراهيم. وقد عُرضت بأشكال مختلفة في البسط والإيجاز وفي طريقة العرض. ومن أوجز ما وردت به هذه القصة قوله تعالى: ﴿إنَّا لمَّا طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أُذُنٌ واعية﴾ [الحاقة: ١٢]..

وقد ذكرت القصة في بضع عشرة سورة جاء بعضها في أثناء الحديث عن الأقوام المكذِّبين، أو عن الأنبياء المؤيَّدين بنصر الله مجملاً دون تفصيل، بينما جاء بعضها الآخر قصصاً مستقلاً فُصِّلت فيه بعض الأحداث والمشاهد.

فمن القسم الأول ما جاء في سورة النجم و(ص) والفرقان والذَّاريات والأنبياء والحاقة.

أمَّا السور التي تحدثت عن قصة نوح ـ عليه السَّلام ـ حديثاً مستقلاً فهي: سورة القمر والأعراف والشعراء ويونس وهود والصافَّات ونوح والمؤمنون والعنكبوت[1].

---

(١) انظر: آل عمران: ٣٣، النساء: ١٦٣، الأنعام: ٨٤، الأعراف: ٥٩ ـ ٦٣، يونس: ٧١ ـ ٧٣، الأنبياء: ٧٦ ـ ٧٧، الفرقان: ٣٧، الشعراء: ١٠٥ ـ ١٢٢، العنكبوت: ١٤ ـ =

وقصة نوح متوسطة التفصيل ـ تذكر منها تفصيلات رسالته ودعوته لقومه واستكبارهم عنها، وحلقة صنع السفينة وحلقة الطوفان، وغرق ابنه، ودعائه الله أن يُنجيه، وعدم استجابته له، لأنه ليس من أهله، ولو كان ابنه: **لأنه عمل غير صالح!**

ونوح هو الأب الثاني للبشر، وكان بينه وبين آدم عشرة قرون، فعن زيد بن سلام قال: سمعت أبا أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبي كان آدم؟ قال: «نعم مُكلَّم». قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون»[1].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ في حديث طويل، قال: قلتُ: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أوّل؟ قال: «آدم». قلت: ونبي هو؟ قال: «نعم مُكلَّم»[2]. وذكر الهيثمي حديث أبي ذر هذا. وفيه: قلتُ: ثُمَّ من؟ قال: «نوح، وبينهما عشرة آباء»[3]. وأخرج ابن سعد: أخبرنا قبيصة بن عقبة السوائي، أخبرنا سفيان بن سعيد الثوري، عن أبيه، عن عكرمة، قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»[4].

ونوح هو أول الأنبياء والرسل الذين تحملوا الأذى من أقوامهم، فكان ما جرى بينه وبين قومه درساً نافعاً لمن بعده، ومعلماً على الطريق طريق

ـ ١٥، الصافات ٧٥ ـ ٨٢، نوح ١ ـ ٢٩، القمر ٩ ـ ١٦، المؤمنون ٢٣ ـ ٣١، المؤمن ٥ ـ ٦. مع القصص القرآني للأستاذ الدكتور فضل عباس ٦٦ ـ ٩٠.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٥٤٥)، وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/ ٢١٠، و ١٩٦ وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن حبان في صحيحه. انظر الإحسان (رقم ٦١٩٠).

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٨ و ١٧٩، والبزار (١٦٠)، والطبراني في «الأوسط»، والطيالسي (٤٧٨)، وابن سعد ١/ ٣٢، من طرق عن المسعودي، عن أبي عمر الدمشقي، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر.

(٣) المجمع: ١/ ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٤) الطبقات ١/ ٤٢.

الدعوة إلى الله: ﴿إنَّا أرسلنا نوحاً إلى قومه...﴾ [نوح: ١]..

إنَّ القرآن يقرر مصدر الرسالة والعقيدة ﴿إنَّا أرسلنا...﴾ فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف، كما يتلقون حقيقة العقيدة. وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله، وصدرت منه الحياة. وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم[1] الاستعداد لأن تعرفه وتعبده، فلمَّا انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسله، يردونهم إليه.

ونوح - عليه السَّلام - كان أول هذه الرسل - بعد آدم - عليه السَّلام - وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض، وممارسته لهذه الحياة؛ وقد تقدم في الحديث الشريف أنَّه كان نبياً مُكلَّماً، فكان يحمل هدى الله، مُعلِّماً لأبنائه وحفدته، حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلُّوا عن عبادة الله الواحد، واتخذوا لهم أصناماً آلهة. اتخذوها في أول الأمر أنصاباً ترمز إلى قوى قدَّسوها. قوى غيبية أو مشهودة. ثمَّ نسوا الرمز وعبدوا الأصنام! وأشهرها تلك الخمسة التي ذكرها القرآن في سورة نوح.

---

(١) عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه» رواه البخاري ومسلم. وفي رواية: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه» [انظر الإحسان رقم ١٢٩ - ١٣٣] قال أبو حاتم: قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» أراد به: على الفطرة التي فطره الله عليها جلَّ وعلا يوم أخرجهم من صلب آدم. بقوله جلَّ وعلا: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾.

قال الحافظ في الفتح ٣/٢٤٨: «وأشهر الأقوال أنَّ المراد بالفطرة الإسلام. قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ الإسلام. واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب: اقرؤوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾، وبحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» الحديث. وقد رواه غيره، فزاد فيه: «حنفاء مسلمين» ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى: ﴿فطرة الله﴾ لأنها إضافة مدح، وقد أمر نبيه بلزومها، فعلم أنَّها الإسلام.

فأرسل الله إليهم نوحاً يردُّهم إلى التوحيد، ويُصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة وعن الوجود.

يقول ابن قيِّم الجوزية ـ رحمه الله ـ(١): «ومن أعظم مكايد الشيطان التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلَّا من لم يُرد الله فتنته. ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور. حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبِدَ أربابها من دون الله، وعُبِدت قبورهم، واتخذت أوثاناً، وبُنيت عليها الهياكل، وصُوِّرت صور أربابها فيها، ثم جُعلت تلك الصور أجساداً لها ظل، ثم جعلت أصناماً. وعُبدت مع الله تعالى.

وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿قال نوحٌ ربِّ إنَّهم عصوني واتَّبعوا من لم يزده مالُه وولده إلَّا خساراً. ومكروا مكراً كُبَّاراً. وقالوا: لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وَدّاً ولا سواعاً ولا يغوثَ ويعوقَ ونسراً. وقد أضلُّوا كثيراً﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٤]. قال ابن جرير: وكان من خبر هؤلاء فيما بلغنا عن محمَّد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم. وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلمَّا ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذ ذكرناهم. فصوَّروهم. فلمَّا ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنَّما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقون المطر، فعبدوهم.

وقال البخاري عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد. أمَّا وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل. وأمَّا سواع فكانت لهذيل. وأمَّا يغوث فكانت لمراد، ثمَّ لبني غطيف بالجرف عند سبأ. وأمَّا يعوق فكانت لهمدان. وأمَّا نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من بني آدم. فلمَّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا

---

(١) إغاثة اللهفان: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموا بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم عُبدت

قال الشيخ ابن تيمية: «وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إمّا في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك. فإنّ النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، فإنّ الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر»(١).

---

(١) يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «بارك الله في ذرية آدم فكان منهم رجال كثير ونساء، وانتشرت ذرية آدم وكثرت، وكان الناس على دين أبيهم آدم، يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً!

وكان الناس أمة واحدة أبوهم آدم، إلههم الله، ولكن كيف يرضى إبليس وذريته بهذا؟

وأبى الشيطان إلّا أن يدعو الناس إلى عبادة الأصنام فيدخلوا النار، ولا يدخلوا الجنة أبداً. ولكن الشيطان يعرف أن الله لا يغفر الشرك، ويغفر كل شيء إذا أراد.

فأراد الشيطان أن يدعوهم إلى الشرك، فلا يدخلوا الجنة أبداً. ولكن كيف الطريق إلى ذلك، والناس يعبدون الله؟ إنه لو ذهب إلى الناس وقال لهم: اعبدوا الأصنام ولا تعبدوا الله، لشتمه الناس وضربوه.

قالوا: نعبد الله. أنشرك بربنا؟ أنعبد الأصنام؟ إنك الشيطان الرجيم! إنك الشيطان الخبيث!

ولكنّ الشيطان وجد باباً يدخل منه إلى رؤوس الناس.

كان رجال يخافون الله، ويعبدونه ليلاً ونهاراً، ويذكرونه ذكراً كثيراً. وكانوا يحبون الله، وكان الله يحبهم ويستجيب لهم. وكان الناس يحبونهم ويعظمونهم. وكان الشيطان يعرف ذلك جيداً. وقد مات هؤلاء وانتقلوا إلى رحمة الله!

ذهب الشيطان إلى الناس وذكر هؤلاء الرجال، وقال: كيف كان فيكم فلان وفلان وفلان؟

قالوا: سبحان الله! رجال الله وأولياؤه! وكانوا إذا دعوا أجابهم، وإذا سألوا أعطاهم.

قال الشيطان: فكيف حزنكم عليهم؟ قالوا: شديد. قال: وكيف اشتياقكم إليهم؟ قالوا: عظيم!

قال: ولماذا لا تنظرون إليهم كل يوم؟ قالوا: وكيف السبيل إلى ذلك وقد ماتوا؟ قال: اعملوا لهم صوراً وانظروا إليها كل صباح.

وأعجب الناس برأي إبليس وصوّروا الصالحين وكانوا ينظرون إلى هذه الصور كل يوم، وإذا رأوها ذكروا أولئك الصالحين.

فحوى رسالة نوح :

الكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس - عليه السَّلام - سابقاً لنوح. ولكن ما ورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة المسلم، لشبهة التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب.

والذي يتَّجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء في القرآن، أنَّ نوحاً كان في فجر البشرية، وأن طول عمره الذي قضى منه ألف سنة إلّا خمسين عاماً في دعوته لقومه، ولا بد أنَّهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة.. أنَّ طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحي بأنَّ البشر كانوا ما يزالون قلة لم تتكاثر بعد كما تكاثرت في الأجيال التالية. وذلك قياساً على ما نراه من سنة الله في الأحياء من طول العمر إذا قلَّ العدد، كأنَّ ذلك للتعويض والتعادل. والله أعلم بذلك.. إنَّما هي نظرة في سنة الله وقياس!

وبعد تقرير مصدر الرسالة وتوكيده يذكر القرآن فحوى رسالة نوح في اختصار وهي الإنذار:

﴿أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾ [نوح: ١].

والحالة التي كان قوم نوح قد انتهوا إليها، من إعراض واستكبار وعناد

= وانتقلوا من الصور إلى التماثيل، وعملوا للصالحين تماثيل كثيرة، ووضعوها في بيوتهم ومساجدهم. وكانوا يعبدون الله لا يشركون به شيئاً. وكانوا يعرفون أنَّ هذه تماثيل للصالحين. وأنَّ هذه حجارة لا تنفعهم ولا تضرهم ولكنهم كانوا يتبرّكون بها ويعظمونها، لأنها تماثيل الصالحين.

وكثرت هذه التماثيل فيهم، وكثر تعظيمهم. وإذا مات فيهم رجل صالح عملوا له تمثالاً وسمُّوه باسمه.

ومضى هؤلاء، ورأى الأولاد آباءهم يتبرّكون بها ويعظّمونها تعظيماً شديداً. وكانوا يرونهم يُقبِّلون هذه التماثيل، ويلمسونها، ويدعون عندها، فزاد الأبناء على الآباء، وصاروا يسجدون لها. وصاروا يسألونها، ويذبحون لها. وهكذا صارت هذه الأصنام آلهة، وصار الناس يعبدونها كما كانوا يعبدون الله من قبل..»

وضلال ـ كما تبرز من خلال الحساب الذي قدمه نوح في النهاية لربه ـ تجعل الإنذار هو أنسب ما تمخض به رسالته. وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه، الإنذار بعذاب أليم في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً.

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق القرآني إلى مشهد التبليغ، الدور فيه هو الإنذار، مع الإطماع في المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب؛ وتأجيل الحساب إلى الأجل المضروب في الآخرة للحساب؛ ومع ذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التي يدعوهم إليها:

﴿قال: يا قوم إنّي لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله، واتّقوه، وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمّى. إنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾ [نوح: ٢ ـ ٤].

﴿يا قوم إنّي لكم نذير مبين﴾.. مفصح عن نذارته، مبين عن حجته، لا يتمتم ولا يجمجم، ولا يتعثر في دعوته، ولا يدع لبساً ولا غموضاً في حقيقة ما يدعو إليه، وفي حقيقة ما ينتظر المكذبين بدعوته ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذير مبين. أن لا تعبدوا إلاّ الله.. إنّي أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ [هود: ٢٥، ٢٦].

إنها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أرسل بها محمد ﷺ والتي تضمنها الكتاب الذي أحكمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيم خبير. وهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصودة في القرآن لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة، حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها. وذلك مع تقدير أنّ المحكي هنا هو معنى ما قاله نوح ـ عليه السّلام ـ لا ألفاظه. وهو الأرجح. فنحن لا ندري بأية لغة كان نوح يُعبِّر.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه: إنّي لكم نذير مبين﴾.. والتعبير القرآني يُحيي المشهد فكأنّه هو واقعة حاضرة لا حكاية ماضية. وكأنما يقول لهم الآن ونحن نشهد ونسمع. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنّه

يلخص وظيفة الرسالة كلها ويترجمها إلى حقيقة واحدة: ﴿إني لكم نذير مبين﴾. وهو أقوى في تحديد هدف الرسالة وإبرازه في وجدان السامعين.

و ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ على سنة الله في إرسال كل رسول من قومه، وبلسانهم، تأليفاً لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم، وتيسيراً على البشر في التفاهم والتعارف. وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة، ولا يستجيبون، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة! وإن هي إلا تعلة. وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى مهما جاءهم من أي طريق! ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فخاطبهم بتلك الكلمة التي جاء بها كل رسول: ﴿فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾. كلمة الحق التي لا تتبدل، يقوم عليها الوجود، ويشهد بها كل ما في الوجود ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. أفلا تتقون؟﴾ [المؤمنون: ٢٣].

﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.. فهي الكلمة التي لا تتغير، وهي قاعدة هذه العقيدة التي لا توجد إلا بها. وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره. وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط. وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى، والعبودية لأمثالهم من العبيد. وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد.

وما يدعو إليه نوح بسيط واضح مستقيم. ﴿أن اعبدوا الله، واتّقوه وأطيعون﴾ [نوح: ٣] عبادة لله وحده بلا شريك. وتقوى لله تهيمن على الشعور والسلوك. وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذي يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك.

وفي هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق. ثمّ تفترق بعد ذلك في التفصيل والتفريع. وفي مدى التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله، وللوجود الإنساني في التفصيل والتفريع.

وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية؛ ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق، ولحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة الناس. ومن ثم ينشئ نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور، فيقوم منهج للحياة خاص. منهج رباني مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية، وإلى القيم التي يقررها الله للأحياء والأشياء.

وتقوى الله.. هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج، وعدم التفلت منه هنا أو هناك. وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه كما أنها هي منبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة.

وطاعة الرسول.. هي الوسيلة للاستقامة على الطريق، وتلقي الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية، وبقاء الاتصال بالسماء عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة!

فهذه الخطوط العريضة التي دعا نوح إليها قومه في فجر البشرية هي خلاصة دعوة الله في كل جيل بعده.

والقرآن الكريم يبلور مضمون الرسالة في حقيقة واضحة ناصعة ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾..

فهذا هو قوام الرسالة وقوام الإنذار. ولماذا؟

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ [هود: ٢٦]..

فيتم الإبلاغ ويتم الإنذار، في هذه الكلمات القصار.

واليوم ليس أليماً. إنما هو مؤلم. والأليم - اسم مفعول أصله: مألوم - إنما هم المألومون في ذلك اليوم. ولكن التعبير يختار هذه الصيغة هنا، لتصوير اليوم ذاته بأنه محمل بالألم، شاعر به، فما بال من فيه؟ لقد قال نوح لقومه هذه القولة الواضحة، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ

الناصح لإخوانه، وفي صدق الرائد الناصح لأهله: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ [الأعراف: ٥٩]..

وهنا نرى أن ديانة نوح - أقدم الديانات - كانت فيها عقيدة الآخرة. عقيدة الحساب والجزاء في يوم عظيم. يخاف نوح على قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب. وهكذا تتبين مفارقة منهج الله وتقريره في شأن العقيدة. ومنهج الخابطين في الظلام من علماء الأديان، وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن.

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلـهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة، وثبات أصولها، وتأصيل جذورها. كما يتجلى ارتباطها بالكون، بإرادة الله وقدره، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله. وذلك من خلال دعوة نوح لقومه: ﴿قال: يا قوم إني لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، لو كنتم تعلمون﴾ [نوح: ٢ - ٤]..

وفي حكاية قوله لهم: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً؟ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً؟ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً. والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ [نوح: ١٣ - ٢٠]..

ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس المسلمين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم، وحقيقة نسبهم العريق، وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة والقيام عليها. وهي نهج الله القويم القديم. وقد وعد نوح قومه إذا استجابوا إلى دعوة الله رب العالمين، ما وعد به التائبين المنيبين: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾.

وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادته - سبحانه - وتقواه وطاعة رسوله

هي المغفرة والتخليص من الذنوب التي سلفت.. وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له في علم الله. وهو اليوم الآخر. وعدم الأخذ في عذاب الدنيا بعذاب الاستئصال. ثم بيّن لهم أنَّ ذلك الأجل المضروب حتمي يجيء في موعده، ولا يؤخر كما يُؤخَّر عذاب الدنيا.. وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى: ﴿إنَّ أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾..

كما أنَّ النص يحتمل أن يكون هذا تقريراً لكل أجل يضربه الله، ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم ـ لو أطاعوا وآمنوا ـ إلى يوم الحساب.

وراح نوح ـ عليه السّلام ـ يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه، بلا مصلحة له، ولا منفعة ويحتمل في سبيل هذه الغاية ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء، ألف سنة إلاّ خمسين عاماً.

ونمضي مع نوح في جهده النبيل الطويل فنجده يتجه بقومه إلى آيات الله في أنفسهم وفي الكون من حولهم، وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله، وينكر عليهم ذلك الاستهتار.

﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً؟ وقد خلقكم أطواراً؟﴾..

والأطوار التي يخاطب بها قوم نوح في ذلك الزمان لا بد أن تكون أمراً يدركونه، أو أن يكون أحد مدلولاتها ممّا يملك أُولئك القوم في ذلك الزمان أن يدركوه، ليرجوا من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وقع مؤثر، يقودهم إلى الاستجابة. والذي عليه أكثر المفسرين أنّها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل.. وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم. لأنَّ الأجنّة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار. وهذا أحد مدلولات هذه الآية. ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنّة. من أنَّ الجنين في أول أمره

يشبه حيوان الخلية الواحدة؛ ثمَّ بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا. ثمَّ يأخذ شكل حيوان مائي. ثمَّ شكل حيوان ثديي. ثمَّ شكل المخلوق الإنساني. وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح. فقد كشف هذا حديث جداً. وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالى في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين: ﴿ثمَّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون: ١٤]..

كما أن هذا النص وذاك قد تكون لهما مدلولات أخرى ثمَّ تتكشف للعلم بعد.. ولا نقيدهما..

وعلى أية حال فقد وجّه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم. وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطواراً، ثمَّ هم بعد ذلك لا يستشعرون في أنفسهم توقيراً للجليل الذي خلقهم. وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق!

كذلك وجههم إلى كتاب الكون المفتوح.

﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً؟ وجعل القمر فيهنَّ نوراً وجعل الشمس سراجاً؟﴾..

والسّماوات السبع لا يمكن حصرها في مدلول ممّا تقول به الفروض العلمية في التعريف بالكون. فهي كلها مجرد فروض. إنّما وجّه نوح قومه إلى السماء وأخبرهم ـ كما علّمه الله ـ أنّها سبع طباق. فيهنَّ القمر نور وفيهنَّ الشمس سراج. وهم يرون القمر ويرون الشمس، ويرون ما يطلق عليه اسم السماء. وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق. أما ما هو؟ فلم يكن ذلك مطلوباً منهم ولم يجزم أحد إلى اليوم بشيء في هذا الشأن..

وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة.. وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه.

ثمَّ عاد نوح فوجّه قومه إلى النظر في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث: ﴿والله أنبتكم من الأرض

نباتاً، ثمَّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾ والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح. وهو يكرر في القرآن في صور شتى. كقوله تعالى: ﴿والبلد الطيِّب يخرج نباته بإذن ربِّه والذي خبث لا يخرج إلَّا نكداً﴾ [الأعراف: ٥٨].

وهو يشير في هذا إلى نشأة الناس كنشأة النبات. كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبت في مواضع متفرقة: ففي سورة الحج يجمع بينهما في آية واحدة في صدد البرهنة على حقيقة البعث فيقول:

﴿يا أيُّها النَّاس إن كنتم في ريب من البعث فإنَّا خلقناكم من تراب ثمَّ من نطفة ثمَّ من علقة ثمَّ من مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة. لنبيِّن لكم. ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمَّى ثمَّ نخرجكم طفلاً، ثمَّ لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفَّى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً. وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾..

وفي سورة «المؤمنون» يذكر أطوار النشأة الجنينية قريباً ممَّا ذكرت في سورة الحج ويجيء بعدها:

﴿فأنشأنا لكم به جنَّات من نخيل وأعناب﴾.. وهكذا.

وهي ظاهرة تستدعي النظر ولا ريب. فهي توحي بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض، وأنَّ نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات. من عناصرها الأولية يتكون. ومن عناصرها الأولية يتغذَّى وينمو، فهو نبات من نباتها. وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة. وكلاهما من نتاج الأرض، وكلاهما يرضع من هذه الأم!

وكذلك ينشىء الإيمان في المؤمن تصوراً حقيقياً حياً لعلاقته بالأرض وبالأحياء. تصوراً فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور. لأنَّه قائم على الحقيقة الحية في الضمير. وهذه ميزة المعرفة القرآنية الفريدة.

والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى. يعيدهم الله إليها كما أنبتهم منها. فيختلط رفاتهم بتربتها، وتندمج ذراتهم في ذراتها، كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها! ثمَّ يخرجهم الذي خلقهم أول مرة؛ وينبتهم كما أنبتهم أول مرة.. مسألة سهلة يسيرة لا تستدعي التوقف عندها لحظة، حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التي يعرضها القرآن منها!

ونوح ـ عليه السلام ـ وجّه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهي تنبتهم من هذه الأرض نباتاً. وهي تعيدهم فيها مرة أخرى. ثمَّ تتوقع النشأة الأخرى وتحسب حسابها، وهي كائنة بهذا اليسر وبهذه البساطة. بساطة البداهة التي لا تقبل جدلاً!

وأخيرا وجّه نوح قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم. ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً. لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾

وهذه الحقيقة القريبة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجههم مواجهة كاملة، ولا يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره. فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسوطة ممهدة ـ حتى جبالها قد جعل لهم فيها دروباً وفجاجاً. كما جعل في سهولها من باب أولى. وفي سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون؛ ويبتغون من فضل الله، ويتعايشون في يسر وتبادل للمنافع والأرزاق.

وهم كانوا يدركون هذه الحقيقة بالمشاهدة لهم بدون حاجة إلى دراسات علمية عويصة، يدرسون بها النواميس التي تحكم وجودهم على هذه الأرض، وتيسر لهم الحياة فيها. وكلما زاد الإنسان علماً أدرك من هذه الحقيقة جوانب جديدة وآفاقاً بعيدة(1).

---

(١) تراجع سورة الملك عند قوله تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ في الظلال، مجلد ٦، ٣٦٣٧.

وهكذا يمضي نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه في بيان حقيقة الألوهية لتستقر في القلوب في جولة في ملكوت المالك. تظهر فيه لكل أحد مظاهر الهيمنة المتصرفة في الملك، والقدرة التي لا يقيدها قيد. يوجههم إلى خلق الله، في السماوات والأرض..

والذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه ـ كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها ـ يدركه الدهش والذهول. ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم. فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل، فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقياً مباشراً حين يتفتح ويستشرف. ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي، قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب.

ومن ثم يكل الله الناس إلى النظر في هذا الكون، وإلى تملي مشاهده وعجائبه. ذلك أن رسل الله تخاطب الناس جميعاً. وفي كل عصر تخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء. كما تخاطب ساكن المدينة ورائد البحار. تخاطب الأمي الذي لم يقرأ ولم يخط حرفاً، كما تخاطب العالم الفلكي والعالم الطبيعي والعالم النظري سواء. وكل واحد من هؤلاء يجد ما يصله بهذا الكون، وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة والمتاع

لقد عرض نوح حقيقة الألوهية ممثلة في خلق السماوات والأرض.. وخلق الإنسان أطواراً. وخلق سبع سماوات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً، ونشأة الإنسان من الأرض وعودته إليها، وإنشاء الجنات من نخيل وأعناب..

إن قوم نوح المخاطبين بهذه البيانات الواضحة، لم يكن لديهم من المعرفة العلمية بما في السموات والأرض إلا القليل. ولكن الحقيقة الواقعة التي أشرنا إليها، هي أن بين الفطرة البشرية وبين هذا الكون الذي نعيش فيه

لغة خفية عجيبة! وأنَّ هذه الفطرة تتسع لهذا الكون - حين تتفتح وتستيقظ - وتسمع منه الكثير!

المواجهة القبيحة والرد المنحرف:

لقد دعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وإفراده بالشكر والضراعة. وترك ما هم عليه من عبادة الموروثات الباطلة. لكنَّ روح الضلال والتقليد المتسلطة على المعاندين المستكبرين من قومه أبت عليهم أن يعرفوا طريق الهداية. وتحجرت قلوبهم. فلم تصغ لدعوته. ولم تنقد لرجائه. ﴿كذبت قوم نوح المرسلين. إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتَّقون؟﴾[الشعراء: ١٠٥ - ١٠٦].

هذه هي دعوة نوح التي كذبه فيها قومه - وهو أخوهم - وكان الأليق بالأخوة أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق. ولكن قومه لم يأبهوا لهذه الصلة، ولم تلن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم: ﴿ألا تتَّقون؟﴾ وتحذرون عاقبة ما أنتم فيه؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته؟

﴿أفلا تتَّقون﴾ [المؤمنون: ٢٣] وتخافون عاقبة الإنكار للحقيقة الأولى - حقيقة الألوهية - التي تقوم عليها الحقائق جميعاً؟ وتستشعرون ما في إنكارها من تجنٍّ على الحق الباهر، وما يعقب التجنِّي من استحقاق للعذاب الأليم؟

وهذا التوجيه إلى التقوى مطَّرد في القرآن. فهكذا قال الله عن فرعون وقومه لموسى وهو يكلفه التوجه إليهم. وهكذا قال نوح لقومه. وهكذا قال كل رسول لقومه من بعد نوح: ﴿إني لكم رسول أمين﴾ [الشعراء: ١٠٧] لا يخون ولا يخدع ولا يغش، ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً ممَّا كلفه من التبليغ.

ويعود نوح إلى تذكيرهم بتقوى الله ﴿فاتَّقوا الله وأطيعون﴾ [الشعراء:

١٠٨] ويحددها في هذه المرة، وينسبها إلى الله تعالى. ويستجيش بها قلوبهم إلى الطاعة والتسليم.

ثمّ يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها، فما له فيها من أرب بدعوتهم إلى الله. وما يطلب منهم أجراً جزاء هدايتهم إليه. فهو يطلب أجره من رب الناس الذي كلفه دعوة الناس: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على رب العالمين. فاتّقوا الله وأطيعون﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١١٠]..

وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر يبدو أنه كان دائماً ضرورياً للدعوة الصحيحة، تمييزاً لها مما عهده الناس في الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد.. ولقد كان الكهنة ورجال الدين المحترفون دائماً مصدر ابتزاز للأموال بشتّى الأساليب. فأمّا دعوة الله الحقة فكان دعاتها دائماً متجردين، لا يطلبون أجراً على الهدى. فأجرهم على ربّ العالمين.

وهنا يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة، بعد اطمئنانهم من ناحية الأجر والاستغلال: ﴿فاتّقوا الله وأطيعون﴾ فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين من قوم نوح لهذه الدعوة الخالصة الواضحة المستقيمة؟

﴿قال الملأ من قومه: إنّا لنراك في ضلال مبين﴾! [الأعراف: ٦٠]

كما قال مشركو العرب لمحمّد ﷺ إنّه صبأ، ورجع عن دين إبراهيم!

وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال! بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعدما يبلغ المسخ في الفطر!.. هكذا تنقلب الموازين، وتبطل الضوابط، ويحكم الهوى؛ ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل.

وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدى الله؟ إنّها تسميهم الضالّين، من يهتدي منهم ويرجع بالرضى والقبول!.. أجل من يهتدي إلى المستنقع الكريه، وإلى الوحل الذي تتمرغ الجاهلية فيه!

وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف عن لحمها؟ وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص؟ إنها تسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما «رجعية» وتخلفاً وجموداً وريفية! وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذي تتمرغ فيه في المستنقع الكريه! وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة، وجنون الأفلام والسينما والتليفزيون وما إليه؛ وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهي؟ إنها تقول عنه. «إنه جامد». ومغلق على نفسه، وتنقصه المرونة والثقافة! وتحاول أن تجره إلى التفاهة التي ينفق فيها حياته..

إن الجاهلية هي الجاهلية.. فلا تتغير إلا الأشكال والظروف.

لقد عطل القوم عقولهم عن التدبر والتفكر في دعوة الرسول، وغشيهم الدنس الروحي، فاستغلقت قلوبهم، وتجمدت عقولهم. وتعطلت أجهزة الاستقبال والتلقي في الفطرة فهم في عمى الضلال يعمهون..

وينفي نوح عن نفسه الضلال. ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه. إنما هو رسول من رب العالمين يحمل لهم الرسالة. ومعها النصح والأمانة ويعلم من الله ما لا يعلمون. فهو يجده في نفسه، وهو موصول به. وهم عنه محجوبون

﴿قال. يَا قوم ليس بي ضلالة، ولكني رسول من ربِّ العالمين. أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢]..

فكأنما عجبوا أن يختار الله رسولاً من البشر من بينهم، يحمله رسالة إلى قومه، وأن يجد هذا الرسول في نفسه علماً عن ربه لا يجده الآخرون، الذين لم يختاروا هذا الاختيار:

﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم،

ولتتقوا، ولعلّكم ترحمون؟﴾ [الأعراف: ٦٣].

ومن عجب في هذا الاختيار فهذا الكائن الإنساني شأنه كله عجب.. إنه يتعامل مع العوالم كلها، ويتصل بربه بما ركب في طبيعته من نفخة الله فيه من روحه. فإذا اختار الله من بينهم رسوله ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ فإنما يتلقى هذا المختار عنه، بما أودع في كيانه من إمكانية الاتصال به والتلقي عنه. بذلك السر اللطيف الذي به معنى الإنسان. والذي هو مناط التكريم العلوي لهذا الكائن العجيب التكوين.

ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة:

﴿لينذركم، ولتتقوا، ولعلّكم ترحمون﴾

فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى، ليظفروا في النهاية برحمة الله.. ولا شيء وراء ذلك لنوح، ولا مصلحة، ولا هدف، إلا هذا الهدف السامي النبيل.

ولكن كبراء قومه من الكفار لا يناقشون دعوة الرسول، ولا يتدبرون شواهدها ولا يستطيعون التخلص من النظرة الضيقة المتعلقة بأشخاصهم وبشخص الرجل الذي يدعوهم، لا يرتفعون إلى الأفق الطليق الذي ينظرون منه إلى تلك الحقيقة الضخمة مجردة عن الأشخاص والذوات.. فإذا هم يتركون الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الوجود، ويشهد بها كل ما في الوجود، ليتحدثوا عن شخص نوح:

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما هذا إلّا بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم﴾ [المؤمنون: ٢٤].

من هذه الزاوية الضيقة الصغيرة نظر القوم إلى تلك الدعوة الكبيرة، فما كانوا إذن ليدركوا طبيعتها ولا ليروا حقيقتها؛ وذواتهم الصغيرة الضئيلة تحجب عنهم جوهرها، وتعمي عليهم عنصرها، وتقف حائلاً بين قلوبهم وبينها؛ فإذا القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق في شيء

عنهم، يريد أن يتفضل عليهم، وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم!

وهم في اندفاعهم الصغير لرد نوح عن المنزلة التي يتوهمون أنه يعمل لها، ويتوسل إليها بدعوى الرسالة.. في اندفاعهم هذا الصغير لا يردون فضل نوح وحده، بل يردون فضل الإنسانية التي هم منها؛ ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس؛ ويستكثرون أن يرسل الله رسولاً من البشر، إن يكن لا بد مرسلاً:

﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾..

ذلك أنهم لا يجدون في أرواحهم تلك النفحة العلوية التي تصل البشر بالملأ الأعلى، وتجعل المختارين من البشرية يتلقون ذلك الفيض العلوي ويطيقونه، ويحملونه إلى إخوانهم من البشر، فيهدونهم إلى مصدره الوضيء.

وهم يحيلون الأمر إلى السوابق المألوفة لا إلى العقل المتدبر

﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ [المؤمنون: ٢٤].

ومثل هذا يقع دائماً عندما يطمس التقليد على حركة الفكر وحرية القلب. فلا يتدبر الناس ما هو بين أيديهم من القضايا، ليهتدوا على ضوء الواقع إلى حكم مباشر عليها. إنما هم يبحثون في ركام الماضي عن «سابقة» يستندون إليها، فإن لم يجدوا هذه السابقة رفضوا القضية وطرحوها!

وعند هذه الجماعات الجاحدة الجامدة أن ما كان مرة يمكن أن يكون ثانية. فأما الذي لم يكن فإنه لا يمكن أن يكون! وهكذا تجمد الحياة، وتقف حركتها، وتتسمر خطاها، عند جيل معين من ﴿آبائنا الأولين﴾!

ويا ليتهم يدركون أنهم جامدون متحجرون، إنما هم يتهمون دعاة التحرر والانطلاق بالجنون. وهم يدعونهم إلى التدبر والتفكر، والتخلية بين قلوبهم

ودلائل الإيمان الناطقة في الوجود. فإذا هم يتلقون هذه الدعـوة بالتبجح والاتهام:

﴿إن هـو إلاّ رجل بـه جنة. فتربصوا بـه حتى حين﴾ [المؤمنون: ٢٥].

أي إلى أن يأخذه الموت، ويريحكم منه، ومن دعوته، ومن إلحاحه عليكم بالقول الجديد!

ويمضي قوم نوح في الضلال البعيد، وأوغلوا في الجحود، وتمالؤا على رسول رب العالمين، وظاهر بعضهم بعضاً على الاستهزاء به وتسفيه رأيه:

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما نراك إلاّ بشراً مثلنا، وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي، وما نرى لكم علينا من فضل. بل نظنّكم كاذبين﴾ [هود: ٢٧].

الشبهات ذاتها، والاتهامات ذاتها. والكبرياء ذاتها. والاستقبال الغبي الجاهل المتعافي!

إنها الشبهة التي وقرت في نفوس جهال البشر. أنّ الجنس البشري أصغر من حمل رسالة الله، فإن تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق آخر. وهي شبهة جاهلة، مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في أرضه، وهي وظيفة خطيرة ضخمة، لا بد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيّأون لحمل الرسالة، باختيار الله لهم، وهو أعلم بما أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومه.

وشبهة أخرى جاهلة كذلك. هي أنّه إذا كان الله يختار رسولاً، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملأ الكبـراء في قومهم، المتسلطين العـالين؟ وهم جهل بالقيم الحقيقيـة لهذا المخلوق الإنسـاني، والتي من أجلها استحقّ

لخلافة في الأرض بعمومه، واستحقَّ حمل رسالة الله بخصوصيته في المختارين في صفوفه. وهذه لقيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة في الأرض، إنما هي في صميم النفس، و ستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى، بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقي، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها.. إلى آخر صفات النبوة الكريمة. وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء!

ولكن الملأ من قوم نوح، كالملأ من قوم كل نبي تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية، ولا يدركون مبرراً لاختصاص الرسل بالرسالة. وهي في زعمهم لا تكون لبشر. فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض!

﴿وما نراك إلَّا بشراً مثلنا﴾.

هذه واحدة.. أمَّا الأُخرىٰ فأدهىٰ:

﴿وما نراك اتَّبعك إلَّا الَّذين هم أراذلنا، بادي الرأي﴾!!

وهم يسمون الفقراء من الناس «أراذل» كما ينظر الكبراء دائماً إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان! وأولئك هم أتباع الرسل السابقين غالباً؛ لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرر الناس من العبودية للكبراء، وتصل القلوب بإله واحد قاهر عال على الأعلياء. ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة؛ ولأنهم لا يخافون من العقيدة في الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية في شتى صورها

وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة بدلاً من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك. فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل أرض. ومن ثمَّ كان يقاومها الطغاة دائماً، ويصدون عنها الجماهير؛ ويحاولون تشويهها واتهام الدعاة إليها بشرّ التهم للتشويش والتنفير

وهكذا اطلع القوم على نوح باعتراض عجيب. وهو اعتراض مكرور في البشرية مع كل رسول: ﴿قالوا: أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون﴾؟ [الشعراء: ١١١].

وهم يعنون بالأرذلين الفقراء - كما تقدم - وهم السابقون إلى الرسل والرسالات، وإلى الإيمان والاستسلام. لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة. ومن ثمّ فهم المستون السابقون. فأمّا الملأ من الكبراء، فتقعد بهم كبرياؤهم، وتقعد بهم مصالحهم، القائمة على الأوضاع المزيفة، المستمدة من الأوهام والأساطير، التي تلبس ثوب الدين. ثمّ هم في النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس، حيث تسقط القيم الزائفة كلها، وترتفع قيمة واحدة. قيمة الإيمان والعمل الصالح. قيمة واحدة ترفع قوماً وتخفض آخرين.. بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم.

لقد تظاهر القوم على نوح في الاستهزاء به وتسفيه رأيه. وادّعوا أنّ دعوته باطلة وليس أدل على ذلك من أنّ الذين اتبعوه هم الأرذل من طغام الناس الذين ليس عندهم فكر ناضج، ولا عقل راجح. استمعوا لك فأعجبهم بدي الرأي - أي لأول وهلة - فأسرعوا وآمنوا بك دون أن يفكروا وينظروا في الحقيقة. ولو كان حقاً ما تقول لكنا نحن - صفة الأشراف وفئة الأكابر - أول من آمن بك. واتبعناك فيه، لأننا أصحاب عقل راجح ورأي سديد. نأخذ الأمر بعد التأمل في حقيقته. لا بالنظر في ظاهره.

وبعد فقد لجّ القوم في الجدل، وأمعنوا في المراوغة. وقالوا:

﴿وما نراك اتّبعك إلّا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾..

أي دون تروٍّ ولا تفكير.. وهذه تهمة كذلك توجه دائماً من الملأ العالين لجموع المؤمنين. إنّها لا تتروى ولا تتفكر في اتباع الدعوات. ومن ثمّ فهي متهمة في اتباعها واندفاعها، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها، ولا

أن يسلكوا طريقها. فإذا كان الأراذل يؤمنون، فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل، ولا أن يدعو الأراذل يؤمنون!

﴿وما نرىٰ لكم علينا من فضل﴾.

يلمزون الداعي بمن تبعوه من الأراذل! ما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدى، أو أعرف بالصواب. فلو كان ما معكم خيراً وصواباً لاهتدينا إليه، ولم تسبقونا أنتم إليه! وهم يقيسون الأمور بذلك القياس الخاطىء الذي تحدثنا عنه. قياس الفضل بالمال، والفهم بالجاه، والمعرفة بالسلطان. فذو المال أفضل. وذو الجاه أفهم. وذو السلطان أعرف!!

هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائماً حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع، أو تضعف آثارها. فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية، وإلى تقاليد الوثنية في صورة من صورها الكثيرة. وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية قشيب(1). وهي انتكاسة للبشرية من غير شك، لأنها تصغر من القيم التي بها صار الإنسان إنساناً، واستحق الخلافة في الأرض، وتلقى الرسالة من السماء؛ وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية العضلية الفيزيقية!

﴿بل نظنُّكم كاذبين﴾.

وهي التهمة الأخيرة يقذفون بها في وجه الرسول وأتباعه. ولكنهم على طريقة طبقتهم.. «الأرستقراطية».. يلقونها في أسلوب التحفظ اللائق «بالأرستقراط»! ﴿بل نظنُّكم!﴾ لأن اليقين الجازم في القول والاتجاه من طبيعة الجماهير المندفعة - بادي الرأي - التي يترفع عنها السادة المفكرون المتحفظون!

---

(1) في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم يقاس الرجل بدخله، ويوزن برصيده في البنك!!! وموجة الجاهلية الوثنية تطغى من أمريكا على العالم حتى في الشرق الذي يزعم أنه مسلم!!!

إنه النموذج المتكرر من عهد نوح، لهذه الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب، المتعاظمة المدعية المنتفخة الأوداج والأفخاخ!!

تلطف وسماحة ومودة:

ويتلقى نوح - عليه السلام - الاتهام والإعراض والاستكبار، في سماحة النبي وفي استعلائه وفي ثقته بالحق الذي جاء به، وطمأنينته إلى ربه الذي أرسله؛ وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره. فلا يشتم كما شتموا، ولا يتهم كما اتهموا، ولا يدعي كما ادعوا، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهراً غير حقيقته ولا على رسالته شيئاً غير طبيعتها

﴿قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنة من ربي، وآتاني رحمة من عنده فعُمِّيت عليكم. أنُلزمكموها وأنتم لها كارهون؟﴾ [هود: ٢٨].

﴿يا قوم﴾.. في سماحة ومودة بندائهم ونسبتهم إليه، ونسبة نفسه إليهم. إنكم تعترضون فتقولون: ﴿ما نراك إلاّ بشرا مثلنا﴾. فما يكون رأيكم إن كنت على اتصال بربي، بيِّن في نفسي مستيقن في شعوري. وهي خصيصة لم توهبوها. وإن كان الله آتاني رحمة من عنده باختياري للرسالة، أو آتاني من الخصائص ما أستحق به حمل الرسالة - وهذه رحمة ولا شك عظيمة - ما رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عمية، لأنكم غير متهيئين لإدراكها، وغير مفتوحي البصائر لرؤيتها. ﴿أنلزمكموها؟﴾[1] إنه ما كان لي وما أنا بمستطيع أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها ﴿وأنتم لها كارهون﴾!

وهكذا يتلطف نوح في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة

---

(١) جاء في كتاب «التصوير الفني في القرآن» في فصل «التناسق الفني»: أن اللفظ في القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة. ومن أمثلته أنك تستمع حكاية قول نوح: «... أنلزمكموها» فتحس أن هذه الكلمة تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق وشد بعضها إلى بعض. كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدون إليه وهم نافرون! وهكذا يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأرفع من الفصاحة اللفظية

حساسيتهم لإدراك القيم الحقيقية عبيهم، ولخصائص التي يعقلون عنها في أمر الرسالة والاختيار لها: ويبصرهم بأن الأمر ليس موكولاً إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها. وفي الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ العظيم القويم. مبدأ الاختيار في العقيدة، والاقتناع بالنظر والتدبر، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء!

﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً. إن أجري إلا على الله، وما أنا بطارد الذين آمنوا، إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ [هود. ٢٩]. .

يا قوم إن الذين تدعونهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا، وليس لي عند الناس إلا أن يؤمنوا إني لا أطلب مالاً على الدعوة، حتى أكون حفياً بالأثرياء غير حفي بالفقراء، فالناس كلهم عندي سواء. ومن يستغن عن مال الناس يتساوى عنده الفقراء والأغنياء.

﴿إن أجري إلا على الله﴾ . .

عليه وحده دون سواه.

﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ . .

ويفهم من هذا الرد أنهم طلبوا أو لوحوا له بطردهم من حوله، حتى يفكروا هم في الإيمان به، لأنهم يستنكفون أن يلتقوا عنده بالأراذل، أو أن يكونوا وإياهم على طريق واحد ـ لست بطاردهم، فهذا لا يكون مني. لقد آمنوا وأمرهم بعد ذلك إلى الله لا لي:

﴿إنهم ملاقو ربهم﴾ . . ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾.

تجهلون القيم الحقيقية التي يقدر بها الناس في ميزان الله . . وتجهلون أن مرد الناس كلهم إلى الله.

﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم. أفلا تذكرون؟﴾ [هود: ٣٠].

فهناك الله. رب الفقراء والأغنياء. رب الضعفاء والأقوياء. هناك الله

يقوّم الناس بقيم أخرى. ويزنهم بميزان واحد. هو الإيمان. فهؤلاء المؤمنون في حماية الله ورعايته.

ومن يعصمني من الله إن أنا أخذت بموازينه، وبعثت على المؤمنين من عباده - وهم أكرم عليه - وأقررت القيم الأرضية الزائفة التي أرسلني الله لأعدّلها لا لأتبعها؟

﴿أفلا تذكّرون؟﴾ . .

وقد أنساكم ما أنتم فيه ميزان الفطرة السليمة القويمة؟

ثمّ يجيبهم جواب الذي يقرر القيم الثابتة؛ ويحدد اختصاص الرسول، ويدع أمر الناس وحسابهم لله على ما يعملون: ﴿قال: وما علمي بما كانوا يعملون؟ إن حسابهم إلّا على ربّي لو تشعرون. وما أنا بطارد المؤمنين. إن أنا إلّا نذير مبين﴾ [الشعراء: ١١٢ - ١١٥] والكبراء يقولون دائماً عن الفقراء: إن عاداتهم وأخلاقهم لا ترضي العلية. ولا تطاق في وسط الطبقة الراقية ذات الحس المرهف والذوق اللطيف! فنوح يقول لهم: إنّه لا يطلب إلى الناس شيئاً سوى الإيمان. وقد آمنوا. فأمّا عملهم قبله فموكول إلى الله، وهو الذي يزنه ويقدره. ويجزيهم على الحسنات والسيئات. وتقدير الله هو الصحيح ﴿لو تشعرون﴾ بالقيم الحقة التي ترجح في ميزان الله. وما وظيفتي إلّا الإنذار والإفصاح:

﴿إن أنا إلّا نذير مبين﴾.

ثمّ يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة. يقدمها لهم في معرض التذكير، ليقرر لهم القيم الحقيقية، ويزدري أمامهم القيم الظاهرية، بتخليه عنها، وتجرده منها. فمن شاء الرسالة كما هي، بقيمها، بدون زخرف، بدون ادّعاء، فليتقدم إليها مجردة خالصة لله:

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ [هود: ٣٠].

فأدعي الثراء أو القدرة على الإثراء..

﴿ولا أعلم الغيب﴾..

فأدعي قدرة ليست للبشر أو صلة بالله غير صلة الرسالة

﴿ولا أقول: إنّي ملك﴾..

فأدّعي صفة أعلى من صفة الإنسانية في تصوركم فأرتفع في أعينكم، وأفضل نفسي بذاتي عليكم..

﴿ولا أقول للّذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً﴾

إرضاء لكبريائكم، أو مسايرة لتقديركم الأرضي وقيمكم العرضية

﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾

فليس لي إلّا ظاهرهم، وظاهرهم يدعو إلى التكريم، وإلى الرجاء في أن يؤتيهم الله خيراً..

﴿إنّي إذن لمن الظّالمين﴾ [هود: ٣١].

إن ادّعيت أية دعوى من هذه الدعاوى. الظالمين للحق وقد جئت أبلغه، والظالمين لنفسي فأعرضها لغضب الله، والظالمين للناس فأنزلهم غير ما أنزلهم الله.

وهكذا ينفي نوح - عليه السّلام - عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه في الرسول والرسالة. ويتقدم إليهم بها مجردة إلّا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية. ويردهم في نصاعة الحق وقوته. مع سماحة القول ووده إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها، ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها. بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة. فيعطي أصحاب الدعوة في أجيالها جميعاً، نموذجاً للداعية، ودرساً في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد. دون استرضاء لتصوراتهم، ودون ممالأة لهم، مع المودة التي لا تنحني معها الرؤوس!

التحدي الأخير:

وعند هذا تجد كبار الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مغالبة الحجة بالحجة، وإذا هم ـ على عادة طغاتهم ـ قد أخذتهم العزة بالإثم. واستكبروا أن تغلبهم الحجة، وأن يذعنوا للبرهان العقلي والفطري. وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدي:

﴿قالوا: يا نوح قد جادلتنا، فأكثرت جدالنا. فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ [هود: ٣٢].

إنه العجز يلبس ثوب القدرة، والضعف يرتدي رداء القوة، والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدي: **﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**.

وأتنا بالعذاب الأليم الذي أنذرتنا به فما نصدقك. ولسنا نبالي وعيدك.

أما نوح فلا يخرجه هذا التكذيب والتحدي عن سمت النبي الكريم. ولا يقعده عن بيان الحق لهم، وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجهلوها في ظنهم منه أن يأتيهم بما أوعدهم. ويردهم إلى هذه الحقيقة وهي أنه ليس سوى رسول، وليس عليه إلا البلاغ، أما العذاب فمن أمر الله. وهو الذي يدبر الأمر كله، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله. وسنته هي التي تنفذ.. وما يملك هو أن يردها أو يحولها.. إنه رسول. وعليه أن يكشف عن الحق حتى اللحظة الأخيرة، فلا يقعده عن إبلاغه وبيانه أن القوم يكذبونه ويتحدونه: **﴿قال: إنما يأتيكم به الله إن شاء، وما أنتم بمعجزين. ولا ينفعكم نصحي ـ إن أردت أن أنصح لكم ـ إن كان الله يريد أن يغويكم، هو ربكم وإليه ترجعون﴾** [هود: ٣٣، ٣٤]..

فإذا كانت سنة الله تقتضي أن تهلكوا بغوايتكم، فإن هذه السنة ستمضي فيكم، مهما بذلت لكم من النصح. لا لأن الله سيصدكم عن

الانتفاع بهذا النصح، ولكن لأنَّ تصرفكم بأنفسكم يجعل سنة الله تقتضي أن تضلوا، وما أنتم بمعجزين لله عن أن ينالكم ما يقدر لكم. فأنتم دائماً في قبضته. وهو المسير والمقدر لأمركم كله ولا مفر لكم من نفاذه وحسابه وجزائه.

﴿هو ربكُم وإليه ترجعون﴾.

فلمّا أن واجههم نوح - عليه السلام - بحجته الواضحة ومنطقه المستقيم؛ وعجزوا عن المضي في الجدل بالحجة والبرهان، لجأوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان، عندما تعوزهم الحجة، ويعجزهم البرهان:

﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونَنَّ من المرجومين﴾ [الشعراء: ١١٦].

وأسفر الطغيان عن وجهه الكالح، وكشف الضلال عن وسيلته الغليظة، وعرف نوح أنَّ القلوب الجاسية لن تلين. لقد أسرفوا في الجهل، وتوغلوا في الحماقة والضلال. هنا توجّه النبيّ الصبر المؤمن والثقة تملأ قلبه بخالقه ومرسله. توجّه إلى القوم المتعالين يتحداهم، ويعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه، ولم يحفل بكيدهم ومكرهم وتهديدهم. قام يردّ الأمر إلى الله سبحانه - ويتوكل عليه وحده، وهو صاحب الأمر والتدبير، لقد تحداهم في ثقة وفي طمأنينة وفي يقين:

﴿واتلُ عليهم نبأ نوح، إذ قال لقومه: يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكّلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم. ثمَّ لا يكن أمركم عليكم غمة، ثمَّ اقضوا إليَّ ولا تنظرون. فإن تولّيتم فما سألتكم من أجر، إن أجري إلاّ على الله، وأمرت أن أكون من المسلمين. فكذّبوه فنجّيناه ومن معه في الفلك، وجعلناهم خلائف، وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ [يونس: ٧١ - ٧٣].

إنها الحلقة الأخيرة من دعوة نوح. حلقة التحدي الأخير، بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل والتكذيب الطويل. والهدف من تلك الحلقة هو إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده. ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة.

ويقول نوح: إن كان الأمر قد بلغ منكم مبلغ الضيق، فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم ودعوتي لكم، وتذكيري لكم بآيات الله. فأنتم وما تريدون. وأنا ماض في طريقي لا أعتمد إلا على الله. عليه وحده فهو حسبي دون النصراء والأولياء.

﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾.

وتدبروا مصادر أمركم وموارده، وخذوا أهبتكم متضامنين.

﴿ولا يكن أمركم عليكم غمّة﴾..

بل ليكن الموقف واضحاً في نفوسكم، وما تعتزمونه مقرراً لا لبس فيه ولا غموض، ولا تردد فيه ولا رجعة.

﴿ثمّ اقضوا إليّ﴾..

فنفذوا ما اعتزمتم بشأني وما دبرتم، بعد الروية ووزن الأمور كلها والتصميم الذي لا تردد فيه..

﴿ولا تُنظرون﴾..

ولا تمهلوني للأهبة والاستعداد، فكل استعدادي، هو اعتمادي على الله وحده دون سواه.

إنّه التحدي الصريح المثير، الذي لا يقوله القائل إلّا وهو مالىء يديه من قوته، وواثق كل الوثوق من عدته، حتى ليغري خصومه بنفسه، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهجموه! فما كان وراء نوح من القوة والعدة؟

وماذا كان معه من قوىٰ الأرض جميعاً؟

كان معه الإيمان. القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير. وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان!

إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه فليس هذا التحدي غروراً، وليس كذلك تهوراً. وليس انتحاراً. إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان.

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله. وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض. وإن لهم أن يتوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أياً كان!

والله سبحانه يقص قصة عبده نوح وهو يتحدى قوى الطاغوت في زمانه هذا التحدي الواضح الصريح.

﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾

فإن أعرضتم عني وابتعدتم، فأنا لم أسألكم، فما كنت أسألكم أجرا على الهداية، فتنقص أجري بتوليكم ﴿إن أجري إلا على الله﴾

ولن يخرجني هذا عن عقيدتي، فقد أمرت أن أسلم نفسي كلها لله

﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾

وأنا عندما أمرت به.. من المسلمين..

التوجه إلى العلي الكبير وتقديم الحساب الأخير :

كان نوح ـ عليه السلام ـ من أولي العزم من الرسل، رزقه الله الصبر وطول الأناة ووسّع له في حلمه. فقد مكث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثابتاً صامداً أمام سخريتهم، صابراً على إساءاتهم، تتوق

نفسه كل حين إلى بارقة أمل فيهم، ويرجو أن تنوح منهم بوادر الإيمان. ولكن الشقوة غلبت عليهم، فما ازدادوا على الأيام إلّا طغياناً وكفراً. وأصبحوا في عمىً عمّا يبصرون، وفي صَمَمٍ عمّا يسمعون

لقد وجدت دعوة نوح قلوباً أشد قسوة من الحجارة.. ها هم أولاء يتوعّدونه إن لم ينته عن دعوة رب العالمين ﴿قالوا: لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين﴾ [الشعراء: ١١٦].. هنا توجه نوح إلى الولي الحميد، والناصر الفريد، الذي لا ملجأ سواه للمؤمنين ﴿قال: ربِّ إنّ قومي كذّبون. فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجّني ومن معي من المؤمنين﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].. وهكذا حين لم يجد نوح ـ عليه السلام ـ منفذاً إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة ولم يجد موئلاً من السخرية والأذى، توجّه إلى ربه وحده. يشكو إليه ما لقيه من تكذيب ويطلب منه النصر بسبب هذا التكذيب.. وربّه يعلم أنّ قومه كذّبوه. ولكنّه البث والشكوى إلى الناصر المعين، وطلب النصفة، ورد الأمر إلى صاحب الأمر ليصنع الحد الأخير للبغي والتكذيب.. ﴿قال: ربِّ انصرني بما كذّبون﴾

وراح نوح يقدم حسابه لربه. يشكو ما تحمل من إعراض واستكبار واستهزاء.. ألف سنة إلّا خمسين عاماً.. وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد، ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد!

لقد عاد في نهاية المطاف يقدم حسابه لربه الذي كلّفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل! عاد يصف ما صنع وما لاقى.. وربُّه يعلم. وهو يعرف أنّ ربه يعلم.. ولكنها شكوى القلب المتعب في نهاية المطاف، إلى الجهة الوحيدة التي يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان.. إلى الله..

﴿قال: ربِّ إنّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً، وإنّي كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا

ثيابهم. وأصرّوا، واستكبروا استكباراً ثمّ إنّي دعوتهم جهاراً، ثمّ إنّي أعلنتُ لهم وأسررتُ لهم إسراراً﴾ [نوح: ٥ ـ ٩].

هذا ما صنع نوح وهذا ما قال، عند يعرض على ربه وهو يقدم حسابه الأخير في نهاية الأمد الطويل[1]. وهو يصور الجهد الدائب الذي لا ينقطع: ﴿إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾..

ولا يمل ولا يفتر ولا ييأس أمام الإعراض والإصرار ﴿فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً﴾.. فراراً من الداعي إلى الله مصدر الوجود والحياة، ومصدر النعم والآلاء، ومصدر الهدى والنور. وهو لا يطلب أجراً على السماع ولا ضريبة على الاهتداء! الفرار ممّن يدعوهم إلى الله ليغفر لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال!

فإذا لم يستطيعوا الفرار، لأنّ الداعي واجههم مواجهة، وتحيّن الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم وكرهوا أن تقع أبصارهم، وأصرّوا على الضلال، واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى: ﴿وإنّي كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً﴾. وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحيّن كل فرصة ليبلغهم إياها، وإصرارهم هم على الضلال. تبرز من خلالها ملامح الطفولة البشرية العنيدة. تبرز في وضع

---

(١) عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته» قال ﷺ: «فيشهدون أنه قد بلّغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣].
والوسط: العدل.
[رواه ابن حبان وإسناده صحيح على شرط الشيخين. انظر تخريجه في الإحسان (برقم ٧٢١٦)].

الأصابع في الآذان، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب. والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل، وهو يقول. إنهم ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ والآذان لا تسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع. ولكنهم يسدونها في عنف بالغ. كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضماناً لعدم تسرب الصوت إليها بتاتاً! وهي صورة غليظة للإصرار والعناد. وكما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار!

ومع الدأب على الدعوة، وتحيُّن كل فرصة، والإصرار على المواجهة. اتبع نوح ـ عليه السلام ـ كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة، ثمَّ زاوج بين الإعلان والإسرار تارة ﴿ثمَّ إنِّي دعوتهم جهاراً. ثمَّ إنِّي أعلنتُ لهم وأسررت لهم إسراراً﴾ وفي أثناء ذلك كله أطمعهم في خير الدنيا والآخرة أطمعهم في الغفران إذا استغفروا ربهم فهو ـ سبحانه ـ غفار للذنوب ﴿فقلت: استغفروا ربكم إنَّه كان غفَّاراً﴾.

وأطمعهم في الرزق الوفير الميسور من أسبابه التي يعرفونها ويرجونها وهي المطر الغزير. الذي تنبت به الزروع، وتسيل به الأنهار، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها ـ وهي البنين ـ والأموال التي يطلبونها ويعزونها:

﴿يرسل السَّماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنَّات ويجعل لكم أنهاراً﴾ [نوح: ١١ ـ ١٢].

وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله، وبين تيسير الأرزاق، وعموم الرخاء. جاء في سورة الأعراف.

﴿ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾.

وجاء في المائدة: ﴿ولو أنَّ أهل الكتاب آمنوا واتَّقوا لكفَّرنا عنهم

سيئاتهم ولأدخلناهم جنّات النعيم. ولو أنّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربِّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم..﴾..

وجاء في سورة هود: ﴿ألَّا تعبدوا إلَّا الله إنّني لكم منه نذير وبشير، وأن استغفروا ربكم ثمّ توبوا إليه يمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمًّى ويؤت كل ذي فضل فضله..﴾..

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة. قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله. ومن سنة الحياة. كما أنَّ الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون. والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد. وما من أُمّة قام فيها شرع الله. واتجهت اتجاهاً حقيقياً لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبىء عن خشية الله.. ما من أُمَّة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً، إلَّا فاضت فيها الخيرات، ومكَّن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء.

ولقد نشهد في بعض الفترات أُمماً لا تتقي الله ولا تقيم شريعته؛ وهي مع هذا ـ موسع عليها في الرزق، ممكن لها في الأرض.. ولكن هذا إنما هو الابتلاء ﴿ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة﴾ [الأنبياء: ٣٥] ثمّ هو بعد ذلك رخاء موقوت، تأكله آفات الاختلال الاجتماعي والانحدار الأخلاقي، أو الظلم والبغي وإهدار كرامة الإنسان. يهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل فيقوم كله على الدولار!

وبعد الإنذار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء.. بعد هذا كله كان العصيان ﴿قال نوح: ربِّ إنَّهم عصوني واتَّبعوا من لم يزده ماله وولده إلَّا خساراً﴾.. [نوح: ٢١] وكان السير وراء القيادات الضالة المضللة، التي تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد، ومظاهر الجاه والسلطان. ممَّن ﴿لم يزده ماله وولده إلَّا خساراً﴾ فقد أغراهم المال والولد بالضلال

والإضلال، فلم يكن وراءهما إلا الشقاء والخسران. هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال. ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ [نوح: ٢٢] مكراً متناهياً في الكبر. مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس. ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخبط فيها القوم. وكان من مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التي يسمونها آلهة ﴿وقالوا: لا تذرن آلهتكم﴾. بهذه الإضافة. ﴿آلهتكم﴾ لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة في قلوبهم. وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأناً فخصُّوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز. ﴿ولا تذرنّ وداً، ولا سواعاً، ولا يغوث، ويعوق، ونسراً﴾ [نوح: ٢٣] وهي أكبر آلهتهم التي ظلّت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية.

وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناماً، تختلف أسماؤها وأشكالها، وفق العقيدة السائدة في كل جاهلية؛ وتجمع حواليها الأتباع، وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام، كي توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء، وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد ﴿وقد أضلُّوا كثيراً﴾ ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام.. أصنام الأحجار. وأصنام الأشخاص. وأصنام الأفكار.. سواء!! للصدّ عن دعوة الله، وتوجيه القلوب بعيداً عن الدُّعاة، بالمكر الكُبّار، والكيد والإصرار!

هنا انبعث من قلب النبيّ الكريم نوح ـ عليه السَّلام ـ ذلك الدعاء على الظالمين الضالين المضلين، الماكرين الكائدين:

﴿ولا تزد الظَّالمين إلاَّ ضلالاً﴾ [نوح: ٢٤]

ذلك الدعاء المنبعث من قلب جاهد طويلاً، وعانى كثيراً، وانتهى ـ بعد كل وسيلة ـ إلى اقتناع بأن لا خير في القلوب الظالمة الباغية العاتية؛ وعلم أنها لا تستحق الهدى ولا تستأهل النجاة.

هكذا سلك نوح ـ أو حاول أن يسلك ـ إلى آذان قومه وقلوبهم

وعقولهم شتّى الأساليب، ومتنوع الوسائل في دأب طويل، وفي صبر جميل، وفي جهد نبيل، ألف سنة إلاّ خمسين عاماً ثمّ عاد إلى ربه الذي أرسله إليهم، يقدم حسابه، ويبث شكواه، في هذا البيان المفصل، وفي هذه اللهجة المؤثرة. ومن هذا البيان الدقيق نطّلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة، وهي حلقة واحدة في سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضالّة العصية! فماذا كان بعد كل هذا البيان؟

﴿قال نوح: ربِّ إنّهم عصوني. واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خساراً. ومكروا مكراً كباراً. وقالوا: لا تذرنَّ آلهتكم، ولا تذرنَّ ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً. وقد أضلّوا كثيراً. ولا تزد الظّالمين إلاّ ضلالاً﴾ [نوح: ٢١ - ٢٤]..

ربِّ إنّهم عصوني! بعد كل هذا الجهد، وبعد كل هذا العناء. وبعد كل هذا التوجيه. وبعد كل هذا التنوير..

ثمّ يكمل القرآن دعاء نوح الأخير؛ وابتهاله إلى ربه في نهاية المطاف:

﴿وقال نوح: ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنّك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً. ربِّ اغفر لي ولوالديّ، ولمن دخل بيتي مؤمناً، وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلاّ تباراً﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٨]..

فقد ألهم قلب نوح أنّ الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشرّ العارم الخالص الذي انتهى إليه القوم في زمانه. وأحياناً لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين، لأنّ وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائياً، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين. وهي الحقيقة التي عبّر عنها نوح، وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين إجهازاً كاملاً لا يبقى منهم دياراً - أي صاحب ديار - فقال: **﴿إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك﴾**..

ولفظة ﴿عبادك﴾ توحي بأنهم المؤمنون. فهي تجيء في السياق القرآني في مثل هذا الموضع بهذا المعنى. ودلت بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله في عافية! ثم إنهم يوجدون بيئة وجواً يولد فيها الكفار. وتوحي بالكفر من الناشئة الصغار، بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور، من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها. وهي الحقيقة التي أشار إليها قول النبي الكريم نوح - عليه السلام -، وحكاها عنه القرآن: ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾. فهم يطلقون في جو الجماعة أباطيل وأضاليل. ويشيئون عادات وأوضاعاً ونظماً وتقاليد، ينشأ معها المواليد فجاراً كفاراً، كما قال نوح..

من أجل هذا دعا نوح - عليه السلام - دعوته الماحقة الساحقة. ومن أجل هذا استجاب الله دعوته. فغسل وجه الأرض من ذلك الشر، وجرف العواثير التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير.

وإلى جانب الدعوة الساحقة الماحقة التي جعلها خاتمة دعائه وهو يقول: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ - أي هلاكاً ودماراً - إلى جانب هذا كان الابتهال الخاشع الودود:

﴿رب اغفر لي ولوالدي، ولمن دخل بيتي مؤمناً، وللمؤمنين والمؤمنات..﴾..

ودعاء نوح النبي لربه أن يغفر له.. هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العلي العظيم.. أدب العبد في حضرة الرب. العبد الذي لا ينسى أنه بشر، وأنه يخطىء، وأنه يقصر، مهما يطع ويعبد، وأنه لا يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضله، كما قال أخوه النبي الكريم محمد ﷺ وهذا هو الاستغفار الذي دعا قومه العصاة الخاطئين إليه، فاستكبروا عليه.. وهذا هو النبي يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء. يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب!

ودعوته لوالديه.. هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين - كما نفهم من هذا الدعاء - ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق مع المغرقين (كما سيأتي).

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمناً.. هو بر المؤمن بالمؤمن، وحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه. وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمناً، لأن هذه كانت علامة النجاة، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة

ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات.. هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان. وشعوره بآصرة القربى على مدار الزمان واختلاف المكان. وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها برباط الحب الوثيق، والشوق العميق، على تباعد الزمان والمكان. السر الذي أودعه الله هذه العقيدة، وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة..

وفي مقابل هذا الحب للمؤمنين، كان الكره للظالمين.
﴿ولا تزد الظالمين إلاَّ تباراً﴾..

تدبير وتقدير :

لقد عرضت قصة نوح تلك الصورة الوضيئة لجهد هذا النبي الكريم - عليه السَّلام - وتلك الصورة المطموسة لإصرار المعاندين الظالمين. وقد تركت هذه وتلك في القلب حباً لهذا الروح الكريم وإعجاباً بهذا الجهد النبيل، وإرادة للسير في هذا الطريق. أياً كانت المشاق والمتاعب. وأياً كانت التضحيات والآلام. فهو الطريق الوحيد الذي ينتهي بالبشرية إلى أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض. حين ينتهي بها إلى الله. العلي الأعلى. الجليل العظيم.. ﴿كذَّبت قبلهم قوم نوح، فكذَّبوا عبدنا وقالوا: مجنون وازدجر. فدعا ربه أنِّي مغلوب فانتصر﴾ [القمر ٩، ١٠] لقد كذَّبوا بالرسل وبالآيات. كذبوا نوحاً وقالوا مجنون. كما قالت قريش ضالة عن محمد ﷺ وهددوه بالرجم، وآذوه بالسخرية، وطالبوه أن يكف عنهم

ويزجرونه بعنف: ﴿وازدجر﴾ بدلاً من أن يزدجروا هم ويرعووا!

عندئذ عاد نوح إلى ربه الذي أرسله - كما تقدم -، عاد إلى ربه الذي كلّفه مهمة التبليغ. عاد ليبثّ إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه، وما انتهى إليه جهده وعمله، وما انتهت إليه طاقته ووسعه. ويدع له الأمر بعد أن لم يعد لديه طاقة لم يبذلها، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول:

﴿فدعا ربه: أنّي مغلوب فانتصر﴾..

انتهت طاقتي. انتهى جهدي. انتهت قوتي، وغُلبتُ على أمري. انتصر أنت يا ربي. انتصر لدعوتك. انتصر لحقك. انتصر لمنهجك. انتصر أنت فالأمر أمرك، والدعوة دعوتك. وقد انتهى دوري!

وسمع الله لنبيه دعاءه الحزين. ومن ثمّ يعرض القرآن مشهد نوح يتلقى وحي ربه وأمره. **﴿وأُوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن﴾** [هود: ٣٦]..

فقد انتهى الإنذار، وانتهت الدعوة، وانتهى الجدل!

فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت، أمّا البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه. هكذا أوحى الله إلى نوح، وهو أعلم بعباده، وأعلم بالممكن والممتنع، فلم يبق مجال للمضي في دعوة لا تفيد. ولا عليك ممّا كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحدٍّ واستهزاء: **﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾**.

أي لا تحسّ بالبؤس والقنوط، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذي كان منهم، لا على نفسك فما هم بضاريك بشيء، ولا عليهم فإنّهم لا خير فيهم.

دع أمرهم فقد انتهى.

وعندما يتجمد الأحياء على هذا النحو، وتهم الحياة بالحركة إلى الأمام، في طريق الكمال المرسوم، فتجدهم عقبة في الطريق.. عندئذ إمّا أن تتحطم هذه المتحجرات، وإمّا أن تدعها الحياة في مكانها وتمضي..

والأمر الأول هو الذي حدث لقوم نوح. وذلك أنهم كانوا في فجر البشرية وفي أول الطريق؛ فشاءت إرادة الله أن تطيح بهم من الطريق.

وقد مضت سنة الله في تطهير الطريق من العقبات المتحجرة لتمضي الحياة في طريقها المرسوم. ولما كانت البشرية قد أسنت على عهد نوح، وجمدت كالشجرة الناشئة تعوقها الآفة عن النمو فتيبس وتعجز وهي رقيقة العود.. كان العلاج هو الطوفان، الذي يجتثُ كل شيء، ويجرف كل شيء. ويغسل التربة، لتعود بذرة الحياة السليمة من جديد، فتنشأ على نظافة، فتمتد وتكبر حتى حين:

﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ [المؤمنون: ٢٧]
والفلك وسيلة للنجاة من الطوفان. ولحفظ بذور الحياة السليمة كما يعد بذرها من جديد. وقد شاء الله أن يصنع نوح الفلك بيده، لأنه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل، وبذل آخر ما في طوقه، ليستحق المدد من ربه. فالمدد لا يأتي للقاعدين المستريحين المسترخين، الذين يقعدون ولا يزيدون شيئاً على الانتظار!

﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ [هود: ٣٧]
برعايتنا وتعليمنا
ونوح قدر الله له أن يكون أب البشر الثاني؛ فدفع به إلى الأخذ بالأسباب؛ مع رعاية الله له، وتعليمه صنعة الفلك، ليتم أمر الله، وتتحقق مشيئته عن هذا الطريق.

وجعل الله له علامة للبدء بعملية التطهير الشاملة لوجه الأرض المؤوف: ﴿حتّى إذا جاء أمرنا وفار التنُّور﴾ [هود: ٤٠]، وانبجس منه الماء، فتلك هي العلامة ليسارع نوح، فيحمل في السفينة بذور الحياة:

﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾.. من أنواع الحيوان والطيور والنبات المعروفة لنوح في ذلك الزمان، الميسرة كذلك لبني الإنسان

﴿وأهلك إلّا من سبق القول منهم﴾ وهم الذين كفروا وكذّبوا، فاستحقّوا كلمة الله السابقة، وسنته النافذة، وهي الهلاك للمكذبين بآيات الله

وصدر الأمر الأخير لنوح ألّا يجادل في أمر واحد، ولا يحاول إنقاذ أحد ـ ولو كان أقرب الأقربين إليه ـ ممّن سبق عليهم القول.

﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنّهم مغرقون﴾ [هود ٣٧]

فسنة الله لا تحابي. ولا تنحرف عن طريقها الواحد المستقيم، من أجل خاطر ولي ولا قريب!

﴿ولا تخاطبني في الّذين ظلموا، إنّهم مغرقون﴾ [المؤمنون ٢٧].

فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم. فلا تخاطبني فيهم. لا دعاء بهدايتهم. ولا دعاء عليهم ـ وقد ورد في موضع آخر أنّه حين يئس منهم دعا عليهم. والمفهوم أنّ ذلك كان بعد هذا الوحي ـ فمتى انتهى القضاء امتنع الدعاء..

ثمّ يعرض مشهد نوح يصنع الفلك، وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم:

﴿ويصنع الفلك وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه. قال: إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم﴾ [هود. ٣٨. ٣٩].

والتعبير بالمضارع فعل الحاضر.. هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدّته. فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير. يصنع الفلك. ونرى الجماعات من قومه المنكّرين يمرون به فيسخرون. يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم: إنّه رسول ويدعوهم، ويجادلهم فيطيل جدالهم، ثمّ إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً.. إنهم يسخرون لأنّهم لا يرون إلّا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر. شأنهم دائماً في إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير. فأمّا نوح فهو واثق عارف وهو

يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية

نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير:

﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلُّ عليه عذاب مقيم﴾

أنحن أم أنتم يوم يكشف المستور عن المحذور!

ثمَّ مشهد التعبئة عندما حلَّت اللحظة المرتقبة

﴿حتّى إذا جاء أمرنا وفار التنُّور، قلنا: احمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهلك ـ إلَّا من سبق عليه القول ـ ومن آمن، وما آمن معه إلَّا قليل..﴾ [هود: ٤٠]..

ونتعرض للأقوال حول فوران التنور(١)، ويذهب الخيال ببعضهم بعيد، وتبدو رائحة الإسرائيليات فيها وفي قصة الطوفان كلها واضحة. أمَّا نحن فلا نضرب في متاهة بغير دليل، في هذا الغيب الذي لا نعلم منه إلَّا ما يقدمه لنا النص القرآني، وفي حدود مدلوله بلا زيادة.

وأقصى ما نملك أن نقوله: إنَّ فوران التنور ـ والتنور الموقد ـ قد يكون بعين فارت فيه، أو بفوارة بركانية. وأن هذا الفوران، ربما كان علامة من الله لنوح، أو كان مصاحباً مجرد مصاحبة لمجيء الأمر. وبدأ تنفيذ هذا الأمر بفوران الأرض بالماء وسح الوابل من السماء

لما حدث هذا ﴿قلنا. احمل فيها من كل زوجين اثنين..﴾ كأنَّ نظام العملية كان يقتضي أن يؤمر نوح بمراحلها واحدة واحدة في حينها. فقد أمر أولاً بصنع الفلك فصنعه، ولم يذكر السياق أنه أطلع نوحاً على الغرض من صنعه. ﴿حتّى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ أمر بالمرحلة التالية.

---

(١) التنُّور: الموقد أو الفرن.

﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن﴾..

ومرة أخرى تتفرق الأقوال حول ﴿من كل زوجين اثنين﴾ وتشيع في الجو رائحة الإسرائيليات قوية.

أما نحن فلا ندع الخيال يلعب بنا ويشتط حول النص. ﴿احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ مما يمكن نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء. وما وراء ذلك خبط عشواء..

﴿وأهلك - إلاّ من سبق عليه القول -﴾.

أي من استحقّ عذاب الله حسب سنته.

﴿ومن آمن﴾.

من غير أهلك.

﴿وما آمن معه إلاّ قليل﴾.

﴿وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها﴾ [هود: ٤١]..

وهذا تعبير عن تسليمها للمشيئة في جريانها ورسوها، فهي في رعاية الله وحماه.. وهذا يمثل لنا شيئاً من أمر الفلك في اللجة الطاغية بالطوفان؟!

وقد نفذ نوح الأمر وحشر من حشر وما حشر.

ويمضي القرآن في تعليم نوح - عليه السَّلام - كيف يشكر نعمة ربه، وكيف يحمد فضله، وكيف يستهديه طريقه ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك، فقل: الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين. وقل: ربّ أنزلني منزلاً مباركاً، وأنت خير المنزلين﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩]..

فهكذا يحمد الله، وهكذا يتوجه إليه، وهكذا يوصف - سبحانه - بصفاته، ويعترف له بآلائه. وهكذا يتأدب في حقه العبد، وفي طليعتهم النبيون، ليكونوا أُسوة للآخرين.

المشهد الهائل المرهوب :

وهكذا دعا نوح ربه ﴿أني مغلوب فانتصر﴾ [القمر: ١٠]. انتصر فأنت ربّ العالمين، والأمر أمرك وأنا عبدك وكل شيء بيدك.. انتصر فالدعوة دعوتك وأنا رسولك. وقد انتهى دوري!

وما تكاد هذه الكلمة تُقال، وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار، حتى تشير اليد القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة.. فتدور دورتها المدوية المجلجلة. ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ [القمر: ١١، ١٢].

وهي حركة كونية ضخمة عامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة. تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة: ﴿ففتحنا﴾ ويحسّ القارئ يد الجبار تفتح ﴿أبواب السماء﴾.. بهذا اللفظ وبهذا الجمع ﴿بماء منهمر﴾... غزير متوال.

وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها: ﴿وفجّرنا الأرض عيوناً﴾.. وهو تعبير يرسم مشهد التفجر وكأنّه ينبثق من الأرض كلها، وكأنّما الأرض كلها قد استحالت عيوناً.

والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض.. ﴿على أمر قد قدر﴾ التقيا على أمر مقدر. فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر. طائعان محققان للقدر.

ثمَّ يأتي المشهد الهائل المرهوب. حتى إذا صار طوفاناً يطم ويعم، ويغمر وجه الأرض، ويطوي الدنس الذي يغشى هذا الوجه. وقد يئس الرسول من تطهيره، وغُلب على أمره في علاجه. امتدت اليد القوية الرحيمة إلى الرسول الذي دعا دعوته، فتحرك لها الكون كله. امتدت به هذه اليد بالنجاة وبالتكريم: ﴿وحملناه على ذات ألواح ودُسر. تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾ [القمر: ١٣، ١٤]..

وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها. فهي ذات ألواح ودسر(١). توصف ولا تذكر لفخامتها وقيمتها. وهي تجري في رعاية الله بملاحظة أعينه ﴿جزاء لمن كان كفر﴾. وجحد وزدجر. وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء، وبالتكريم على الاستهزاء. ويصور مدى القوة التي يستمد رصيدها من يُغلب في سبيل الله ومن يبذل طاقته، ثمْ يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر!

إنّ قوى الكون الهائلة كلها في خدمته وفي نصرته والله من ورائها بجبروته وقدرته. ويرسم القرآن مشهد الطوفان والسفينة الجارية، مشيراً بهذا إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا، وممتناً على البشر بنجاة أصولهم التي نشأوا منها، ثمّ لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرى. ﴿إنّا لمّا طغى الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذُنٌ واعية﴾ [الحاقة: ١٢]..

ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغي يلمس القلوب الخامدة والآذان البليدة، التي تكذب بعد كل ما سبق من النذر وكل ما سبق من المصائر، وكل ما سبق من العظات. وكل ما سبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين!

وفي مشهد الطوفان المروّع المرعب المرهوب، يعرض القرآن الكريم لوحة مصورة شاخصة تعبّر عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، كل ذلك في المشهد المنظور، يرسم الطبيعة البشرية فيمنحها الحياة الشاخصة. فإذا المعنى الذهني حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة معبّرة مجسّمة مرئية. ها هي ذي السفينة التي تحمل الناجين ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال. ونادى نوح ابنه ـ وكان في معزل ـ يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾.. [هود: ٤٢]..

---

(١) الدسر: المسامير

إنّ الهول هنا هولان: هول في الطبيعة الصامتة. وهول في النفس البشرية يلتقيان:

وفي هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح، فإذا أحد أبنائه في معزل عنهم وليس معهم. وتستيقظ في كيانه الأبوة الملهوفة. فهذا الابن لم يؤمن. وإنه ليعلم أنه مغرق مع المغرقين. ولكن ها هو ذا الموج يطغى، فيغلب الإنسان في نفس نوح المؤمنة الركينة، فيروح في لهفة وضراعة ينادي ابنه جاهراً: ﴿يا بنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾..

راح نوح يهتف بالولد الشارد.. ولكن البنوة العاقة لا تحفل بالأبوة الملهوفة. وهذه الضراعة اللاهفة ـ والفتوة المغرورة لا تقدر مدى الهول الشامل.

﴿قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ [هود: ٤٣].

إنّها الفتوة العاتية، فهي لا ترى الخلاص إلَّا في فتوتها الخاصة

ثمّ ها هي ذي الأبوّة الملهوفة ترسل النداء الأخير. ﴿قال: **لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم**﴾.

ها هي ذي الأبوّة المدركة لحقيقة الهول وحقيقة الأمر تبعث بكلمات الرشيدة: لا جبال ولا مخابىء، ولا حام ولا واق، إلّا من رحم الله..

وفي لحظة تتغير صفحة المشهد. فها هو ذا الموج الغامر يبتلع كل شيء: ﴿**وحال بينهما الموج فكان من المغرقين**﴾ [هود: ٤٣] وفي ومضة تتغير لوحة الموقف؛ فها هي ذي الموجة العاتية تنهي كل شيء..

وإنّنا بعد آلاف السنين، لنمسك أنفاسنا ونحن نتابع السياق ـ والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد. وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء، وابنه الفتى المغرور، يأبى إجابة الدعاء، والموجة القوية العاتية تلقى رهبتها في القلوب، فهي الموجة

الغامرة التي تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة وينتهي كل شيء، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب!

وإنّ الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية - بين الوالد والمولود - كما يقاس بمداه في الطبيعة، والموج يطغى على الذرى بعد الوديان. وإنهما لمتكافئان. في الطبيعة الصامتة. وفي نفس الإنسان. وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن. وهول الطوفان يصور في الطبيعة، وإلى جانبه يصور الوالد وولده: ذلك ناج في السفينة ملهوف على فلذة كبده. وهذا يجرفه الطوفان حيث ﴿لا عاصم من أمر الله إلا من رحم﴾ وإنّ الهول هنا ليكاد يكون أعظم من الهول في الطبيعة ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ فما كان الموج في المشهد إلا إطاراً للهول النفسي الذي يفرق بين الابن وأبيه، ويفصم الصلة التي لا تفصمها الأهوال.

ويهدأ العاصفة، ويخيم السكون، ويقضى الأمر، ويتمشّى الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النص والأذن: ﴿وقيل. يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ [هود ٤٤]..

ويوجه الخطاب إلى الأرض وإلى السماء بصيغة العاقل. فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل فتبلع الأرض، وتكف السماء

﴿وغيض الماء﴾.

ابتلعته الأرض في جوفها وغار من سطحها.

﴿وقضي الأمر واستوت على الجودي﴾..

ونفذ القضاء، ورست رسو استقرار على جبل الجودي..

﴿وقيل: بُعداً للقوم الظالمين﴾..

وهي جملة مختصرة حاسمة معبرة عن جوها أعمق تعبير.. ﴿قيل﴾ على صيغة المجهول فلا يذكر من قال، من قبيل لف موضوعهم ومواراته

بُعداً لهم من الحياة فقد دمروا، وبُعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبُعداً لهم من الذاكرة فقد نسيوا.. وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى!

والآن وقد هدأت العاصفة، وسكن الهول، واستوت على الجودي. الآن تستيقظ في نفس نوح لهفة الوالد المفجوع ﴿ونادى نوح ربَّه، فقال: ربِّ إنَّ ابني من أهلي، وإنَّ وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين﴾ [هود: ٤٥].

ربِّ إنَّ ابني من أهلي، وقد وعدتني بنجاة أهلي، وإنَّ وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين فلا تقضي إلاَّ عن حكمة وتدبير. قالها يستنجز ربه وعده في نجاة أهله، ويستنجز حكمته في الوعد والقضاء.

وجاءه الرد بالحقيقة التي غفل عنها. فالأهل ـ عند الله وفي دينه وميزانه ـ ليسوا قرابة الدم، إنَّما هم قرابة العقيدة. وهذا الولد لم يكن مؤمناً، فليس إذن من أهله وهو النَّبي المؤمن.. جاءه الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد؛ وفيما يشبه التقريع والتأنيب والتهديد:

﴿قال: يَا نوح إنَّه ليس من أهلك. إنَّه عمل غير صالح. فلا تسألني ما ليس لك به علم إنِّي أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [هود: ٤٦].

إنَّها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين. حقيقة العروة التي ترجع إليها الخيوط جميعاً. عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة:

﴿إنَّه ليس من أهلك. إنَّه عمل غير صالح﴾..

فهو مُنبتٌّ منك وأنت منبت منه، ولو كان ابنك من صلبك، فالعروة الأولى مقطوعة، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة. ولأنَّ نوحاً دعا دعاء من يستنجز وعداً لا يراه قد تحقق.. كان الرد عليه يحمل رائحة التأنيب والتهديد.. إنِّي أعظك أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط، أو

حقيقة وعد الله وتأويله، فوعد الله قد أُوِّل وتحقق، ومحا أهلك لديس هم أهلك على التحقيق.

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زلَّ في حق ربه، فيلجأ إليه، يعوذ به، ويطلب غفرانه ورحمته: ﴿قال: ربِّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلَّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ [هود: ٤٧]. .

وأدركت رحمة الله نوحاً، تُطمئن قلبه، وتباركه هو والصالح من نسله، فأمَّا الآخرون فيمسهم عذاب أليم: ﴿قيل: يا نوح اهبط بسلام منَّا، وبركات عليك وعلى أمم ممَّن معك. وأمم سنمتعهم ثم يمسُّهم منَّا عذاب أليم﴾ [هود ٤٨] وكانت خاتمة المطاف: النجاة والبشرى له ولمن يؤمن من ذريته، والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسّهم العذاب الأليم.

لقد بلغت فطرة قوم نوح حداً معيناً من الفساد، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير: ﴿فكذَّبوه، فأنجيناه والذين معه في الفلك، وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا، إنَّهم كانوا قوماً عمين﴾ [الأعراف: ٦٤]. . ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير. فبعماهم هذا كذبوا. . وبعماهم لاقوا هذا المصير! وقد استجاب الله لنبيه الذي يتهدده الطغيان بالرجم، لأنه يدعو الناس إلى تقوى الله وطاعة رسوله، لا يطلب على ذلك أجراً ولا يبتغي جاهاً ولا مالاً: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون. ثمَّ أغرقنا بعد الباقين﴾.

هكذا في إجمال سريع. يصور النهاية الأخيرة للمعركة بين الإيمان والطغيان في فجر البشرية. . هكذا في إشارة سريعة: ﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له، فنجَّيناه وأهله من الكرب العظيم. ونصرناه من القوم الذين كذَّبوا بآياتنا إنَّهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾ [الأنبياء: ٧٦]. .

وهي إشارة لا تفصيل فيها. لإثبات استجابة الله لنوح - عليه السُّلام - حين ناداه ﴿من قبل﴾. ولقد أنجاه الله وأهله كذلك. إلَّا امرأته وأهلك قومه بالطوفان وهو ﴿الكرب العظيم﴾.

وفي قصة نوح يبيِّن الله العاقبة، ويقرر عنايته - سبحانه - بعباده المخلصين: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجَّيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على نوح في العالمين. إنَّا كذلك نجزي المحسنين. إنَّه من عبادنا المؤمنين. ثمَّ أغرقنا الآخرين﴾ [الصافات: ٧٥]

ويتضمَّن هذا لبيان توجُّه نوح بالنداء إلى ربه، وإجابة دعوته إجابة كاملة وافية. إجابتها من خير مجيب الله سبحانه ﴿فلنعم المجيبون﴾.. ويتضمن نجاته هو وأهله من الكرب العظيم كرب الطوفان الذي لم ينج منه إلَّا من أراد له الله النجاة وقدر له الحياة. ويتضمن قدر الله بأن يجعل من ذرية نوح عُمَّاراً لهذه الأرض وخلفاء. وأن يبقى ذكره في الأجيال الآتية إلى آخر الزمان. ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾.. وتعلن في الخافقين سلام الله على نوح جزاء إحسانه: ﴿سلام على نوح في العالمين. إنَّا كذلك نجزي المحسنين﴾. وأي جزاء بعد سلام الله. والذكر الباقي مدى الحياة!

أمَّا مظهر الإحسان وسبب الجزاء فهو الإيمان ﴿إنَّه من عبادنا المؤمنين﴾.. وهذه هي عاقبة المؤمنين.. فأمَّا غير المؤمنين من قوم نوح فقد كتب الله عليهم الهلاك والفناء: ﴿ثمَّ أغرقنا الآخرين﴾..

ومضت سنة الله منذ فجر البشرية البعيد: ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذِرين. فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين. إلَّا عباد الله المخلَصين﴾ [الصافَّات: ٧٤]..

صورة من صور البشرية المستكبرة عن الحق:

إنَّ قصة نوح - عليه السُّلام - مع قومه؛ تصف تجربة من تجارب

الدعوة في الأرض، وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم لثانت المتكرر للبشرية، وشوطاً من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر والهدى والضلال، والحق والباطل.

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة، الضالة، الذاهبة وراء القيادات المضللة، المستكبرة عن الحق، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان، المعروضة أمامها في الأنفس والآفاق، المرقومة في كتاب الكون المفتوح، وكتاب النفس المكنون.

وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني، وعنايته بأن يهتدي. تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل تترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى.

ثمّ هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب الرسل - صلوات الله عليهم - لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة. وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية. ولا مكافأة ولا جُعل يحصلونه على حصول الإيمان! كالمكافأة أو النفقة التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون، في زماننا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم!

هذه الصورة التي يعرضها نوح - عليه السّلام - على ربه؛ وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلّا خمسين عاماً قضاها في هذا الجهد المضني، والعناء المرهق، مع قومه المعاندين، الذاهبين وراء قيادة ضالة مضللة ذات سلطان ومال وعزوة.

وهي حصيلة مريرة. ولكن الرسالة هي الرسالة!

هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله ﷺ وهو الذي انتهت إليه

أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان، واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول. . يرى فيه صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل، لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض. ويطلع منها على عند البشرية أمام دعوة الحق؛ وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة. ثمَّ إرادة الله في إرسال الرسل تترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدها نوح - عليه السَّلام -.

وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة، وعلى الأُمَّة المسلمة بعامة، وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض، وللمنهج الإلهي المنبثق من هذه الدعوة، القائمة عليه في وسط الجاهلية المشركة يومذاك. وفي وسط كل جاهلية تالية. . ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبي البشرية الثاني. كما ترى فيها عناية الله بالقلة المؤمنة، وإنجاءها من الهلاك الشامل في ذلك الحين.

وتعرض على المشركين ليروا فيها مصير أسلافهم المكذبين؛ ويدركوا نعمة الله عليهم في إرساله إليهم رسولاً رحيماً بهم، لا يدعو عليهم بالهلاك الشامل؛ وذلك لما قدره الله من الرحمة بهم وإمهالهم إلى حين. فلم يصبهم من نبيهم دعوة كدعوة نوح، بعدما استنفد كل الوسائل. وألهم الدعاء على القوم بما ألهم:

﴿ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً﴾ . .

﴿وقال نوح. ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنَّك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]. .

فماذا كان؟

﴿فكذَّبوه. فنجَّيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف. وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ [يونس: ٧٣]. .

هكذا باختصار. نجاته هو ومن معه في الفلك - وهم المؤمنون

واستخلافهم في الأرض على قلتهم وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم:

﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾..

لينظر من ينظر ﴿عاقبة المنذرين﴾ المكذبين وليتعظ من يتعظ بعاقبة المؤمنين الناجين.

ويذكر السياق القرآني ويعرض نجاة نوح ومن معه، لأن نوحاً والقلة المؤمنة كانوا يواجهون خطر التحدي للكثرة الكافرة. فلم تكن النتيجة مجرد هلاك الكثرة، بل كان قبلها نجاة القلة من جميع الأخطار، واستخلافها في الأرض، تعيد تعميرها وتجديد الحياة فيها. وتأدية الدور الرئيسي فترة من الزمان.

هذه سنة الله في الأرض. وهذا وعد الله لأوليائه فيها. فإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة مرة، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق، وأن تستيقن أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين. وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء وهي ماضية في الطريق. والله لا يخدع أولياءه - سبحانه - ولا يعجز عن نصرهم بقوته، ولا يسلمهم كذلك لأعدائه. ولكنه يعلمهم ويدربهم ويزودهم - في الابتلاء - بزاد الطريق(١).

وهذه سنة الله في الأرض. والقرآن يقرر مصير كل معركة تالية في تاريخ البشرية الطويل: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثمَّ أغرقنا بعد الباقين﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢٠] ﴿فكيف كان عذابي ونذر؟﴾ [القمر: ١٤]..

ولقد كان كما صوره القرآن. كان عذاباً مدمراً جباراً. وكان نذيراً صادقاً بهذا العذاب..

---

(١) يراجع فصل «هذا هو الطريق» في كتاب «معالم في الطريق».

وهذا هو القرآن حاضر، سهل التناول، ميسر الإدراك. فيه جاذبية ليقرأ ويتدبر. فيه جاذبية الصدق والبساطة، وموافقة الفطرة، واستجاشة الطبع، لا تنفد عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد. وكلما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد. وكلما صحبته النفس زادت له ألفة وبه أنسا:

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر، فهل من مدكر؟﴾ [القمر: ١٧]..

يقف القرآن عند القلب البشري يدعوه دعوة هادئة إلى التذكر والتدبر، بعد أن يعرض عليه حلقة من العذاب الأليم الذي حل بالمكذبين.

ونمضي مع القرآن وهو يعرض ما صار إليه الظالمون الخاطئون في الدنيا والآخرة جميعا!

فأمر الآخرة كأمر الدنيا حاضر بالقياس إلى علم الله، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذي لا تغيير فيه: **﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا. فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾** [نوح: ٢٥]..

فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصيتهم أغرقوا فأدخلوا نارا. والتعقيب بالفاء مقصود هنا، لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم، والفاصل الزمني القصير كأنه غير موجود، لأنه في موازين الله لا يحسب شيئا. والترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم في الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة. وقد يكون هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة. **﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾**..

لا بنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدعاة!

وهكذا ينتهي أمر هؤلاء العصاة العتاة، ويطوى ذكرهم من الحياة..

إنه الإجهاز السريع على الفساد والكفر. حتى ليعبر السياق القرآني المسافة بين الإغراق والإحراق في حرف الفاء! على طريقة القرآن في إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة.

تلك هي نهاية القصة: **﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾** [الشعراء: ١٠٥]..

وقوم نوح لم يكذبوا إلاّ نوحاً. ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين فالرسالة في أصلها واحدة، وهي دعوة إلى توحيد الله، وإخلاص العبودية له. فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين، فهذه دعوتهم أجمعين والقرآن يؤكد هذا المعنى ويقرره في مواضع كثيرة، بصيغ متعددة، لأنه كلية من كليات العقيدة الإسلامية، تختص بها الدعوات جميعاً. وتقسم بها البشرية كلها إلى صفين: صف المؤمنين وصف الكافرين. على مدار الرسالات ومدار القرون. وينظر المسلم فإذا الأمة المؤمنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هي أمته، منذ فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام دين التوحيد الأخير. وإذا الصف الآخر هم الكفار في كل ملة وفي كل دين. وإذ المؤمن يؤمن بالرسل جميعاً، ويحترم الرسل جميعاً، لأنهم جميعاً حملة رسالة واحدة هي رسالة التوحيد.

إنّ البشرية لا تنقسم في تقدير المسلم إلى أجناس وألوان وأوطان. إنما تنقسم إلى أهل الحق وأهل الباطل. وهو مع أهل الحق ضد أهل الباطل. في كل زمان وفي كل مكان. وهكذا يتوحد الميزان في يد المسلم على مدار التاريخ كله، وترتفع القيم في شعوره عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن. والقرابات الحاضرة أو الموغلة في بطن التاريخ. ترتفع فتصبح قيمة واحدة. هي قيمة الإيمان يحسب بها الجميع، ويقوّم بها الجميع.

إنّ القرآن الكريم يعرض في صفحاته مشاهد التنكيل والتعذيب الذي أصاب بالفعل أجيال المكذبين، ويعرض مصارع القوم التي سلكت طريق الغواية والشيطان ليكون هذا دعوة للتفكر والتدبر: **﴿كذَّبت قبلهم قوم نوح، فكذَّبوا عبدنا، وقالوا: مجنون وازدجر: فدعا ربه أنّي مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجَّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾** [القمر: ٩ - ١٢]..

﴿وقوم نوح من قبل إنّهم كانوا قوماً فاسقين﴾ [الذاريات: ٤٦] وهي

إشارة سريعة تلمس القصة لمسة واحدة بدون إيضاح. كأنما لتقال. واذكر قوم نوح. وقد وردت « قومَ » منصوبة وبدون نقط « في » تقدير كلمة « اذكر » قبلها. وهي آية تاريخية معروفة.

ثمَّ يعقب القرآن على القصة كلها، وما تتضمنه حضوانها من دلائل القدرة والحكمة ﴿إنَّ في ذلك لآيات، وإن كنَّا لمبتلين﴾ [المؤمنون: ٣٠].

والابتلاء ألوان. ابتلاء للصبر وابتلاء للشكر. وابتلاء للأجر. وابتلاء للتوجيه. وابتلاء للتأديب. وابتلاء للتمحيص وابتلاء للتقويم.. وفي قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين.

الحقيقة الواضحة الحاسمة :

ومن ثمَّ يجيء التعقيب:

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هـذا، فاصبر إنَّ العاقبة للمتقين﴾ [هود: ٤٩]

فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآني:

- حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون. فهذا القصص غيب من الغيب، ما كان يعلمه النبي، وما كان معلوماً لقومه، ولا متداولاً في محيطه. إنَّما هو الوحي من لدن حكيم خبير.
- وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبي البشر الثاني. فهي هي. والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير.
- وحقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبيِّنات التي لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة في جيل.

ـ وحقيقة تحقق البشرى والوعيد، كما بشر النبي وأنذر، وهذا شاهد من التاريخ.

ـ وحقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد ﴿والعاقبة للمتقين﴾ فهم الناجون وهم المستخلفون.

ـ وحقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل. إنها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم في إله واحد ورب واحد يلتقون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك.

وبعد.. أكان الطوفان عاماً في الأرض؟ أم إنه كان في تخوم الأرض التي بعث فيها نوح؟ وأين كانت هذه الأرض؟ وأين تخومها في العالم القديم وفي العالم الحديث؟ أسئلة لا جواب عليها إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً. وإلا الإسرائيليات التي لا تستند إلى دليل صحيح. وليس لها بعد ذلك قيمة في تحقيق أهداف القصص القرآني في كثير ولا قليل.

ولكن هذا لا يمنع من القول بأن ظاهر النصوص القرآنية يلهم أن قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية في ذلك الزمان. وأن الأرض التي يسكنونها كانت هي الأرض المعمورة في ذلك الحين. وأن الطوفان قد عمَّ هذه الرقعة، وقضى على جميع الخلائق التي تقطنها ـ فيما عدا ركب السفينة الناجين.

وهذا حسبنا في إدراك طبيعة ذلك الحادث الكوني الذي جاءنا خبره من المصدر الوحيد الوثيق عن ذلك العهد السحيق، الذي لا يعرف « التاريخ » عنه شيئاً. وإلا فيومهم أين كان « التاريخ »؟!

إنَّ التاريخ مولود حدثٌ لم يسجل من أحداث البشرية إلَّا القليل! وكل ما سجله قابل للخطأ والصواب، والصدق والكذب، والتجريح والتعديل! وما ينبغي قط أن يستفتىٰ ذات يوم في شأن جاءنا به الخبر الصادق. ومجرد

استقبالة في مثل هذا الشأن قبل الأوضاع، والنكسة لا تصيب عقلاً قد استقرت فيه حقيقة هذا الدين!

ولقد حفظت أساطير شتّى الشعوب وذكرياتها الغامضة بذكر طوفان أصاب أرضها في تاريخ قديم مجهول، بسبب معصية ذلك الجيل الذي شهد ذلك الحادث الكبير.. وأساطير بني إسرائيل المدونة فيما يسمونه «العهد القديم» تحوي كذلك ذكرى طوفان نوح.. ولكن هذا كله شيء لا ينبغي أن يذكر في معرض الحديث القرآني عن الطوفان، ولا ينبغي أن يخلط الخبر الصادق الوثيق بمثل هذه الروايات الغامضة وهذه الأساطير المجهولة المصدر والأسانيد.. وإن كان لوجود هذه الأخبار الغامضة عن الطوفان عند شعوب شتّى دلالته في أنّ الطوفان قد كان في أرض هذه الأقوام، أو على الأقل قد رحلت ذكرياته مع ذراري الناجين حين تفرقوا في الأرض بعد ذلك وعمروا الأرض من جديد..

وينبغي أن نذكر أنّ ما يسمى «بالكتاب المقدس» ـ سواء في ذلك «العهد القديم» المحتوي على كتب اليهود أو «العهد الجديد» المحتوي على الأناجيل النصرانية ـ ليس هو الذي نزل من عند الله.. فالتوراة التي أنزلها الله على موسى قد حرقت نسختها الأصلية على يد البابليين عند سبي اليهود ولم تعد كتابتها إلاّ بعد قرون عديدة ـ قبيل ميلاد المسيح بنحو خمسة قرون ـ وقد كتبها عزرا ـ وقد يكون هو عزير ـ وجمع فيها بقايا من التوراة. أمّا سائرها فهو مجرد تأليف! وكذلك الأناجيل فهي جميعاً لا تحوي إلاّ ما حفظته ذاكرة تلامذة المسيح وتلامذتهم بعد نحو قرن من وفاة المسيح ـ عليه السّلام ـ ثم خلطت به حكايات كثيرة وأساطير!.. ومن ثمّ لا يجوز أن يطلب عند تلك الكتب جميعها يقين في أمر من الأمور!

ونخلص من هذه القضية العرضية إلى عبرة هذا الحدث الكوني العظيم.. وهي ـ في الحقيقة ـ عبر شتّى، لا عبرة واحدة.. وسنحاول أن نلم بشيء منها:

إن قوم نوح - وهم ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله - قد صاروا إلى هذه الجاهلية. ولنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بتزيينه وأساطيره وخرافاته وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعاً. وإنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بني آدم؛ وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية. تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدى الله، واتباعه وحده، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة.

وهذه الحقيقة.. حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده.. تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم «علماء الأديان المقارنة» وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة، سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة. ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشموس والكواكب.. إلى آخر ما تخبط فيه هذه «البحوث» التي تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة؛ يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله، وإثبات أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان!

وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام - مدافعين! - فيتبعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان - وفق ذلك المنهج الموجه! - من حيث لا يشعرون! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم. حين يقرر أن آدم - عليه السلام - هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام. وأن نوحاً - عليه السلام - واجه ذراري آدم الذين اجتالهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه.. القائم على التوحيد المطلق.. وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى

الجاهلية؛ وأن الرسل جميعاً أرسلوا بعد ذلك بالإسلام.. القائم على التوحيد المطلق - وأنه لم يكن قط تطور في العقيدة السماوية في أصل الاعتقاد - إنما كان الترقي والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة لعقيدة الوحدة - وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة. إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب في الأجيال التالية. حتى بعد انحراف الأجيال عنها - ترقى عقائدهم الجاهلية ذاتها: حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني.

إن عقيدة التوحيد في أصلها هي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعاً وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت. لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم المترقية؛ إنما هي آتية لهم من عند الله سبحانه. فهي حق منذ اللحظة الأولى، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى.

هذا ما يقرره القرآن الكريم، ويقوم عليه التصور الإسلامي. فلا مجال - إذن - لباحث مسلم - وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام! - أن يعدل عن هذا الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم إلى شيء مما تخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة. تلك النظريات النابعة من منهج موجه كما أسلفنا!

والذي لا شك فيه أن الله - سبحانه - يقرر في كتابه الكريم تقريراً واضحاً جازماً أن آدم وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتشبيه، وعرف الدينونة لله وحده. وأنه عرّف بنيه بهذه العقيدة، فكانت هناك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام ديناً، وإلا التوحيد عقيدة. وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد.. ربما إلى التشبيه وربما إلى التعدد. ودانت لشتى الأرباب الزائفة.. حتى جاءها نوح -

عليه السلام ـ بالتوحيد من جديد. وإنَّ الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعاً؛ ولم ينج إلاَّ المسلمون الموحدون الذين يعرفون «نزاهة التوحيد» وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبدات الجاهلية!

ولنا أن نجزم أنَّ أجيالاً من دراري هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق. قبل أن يطول عليهم الأمد، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد... وأنه هكذا كان شأن كل رسول.

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنَّه لا إله إلاَّ أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥]..

والذي لا شك فيه أنَّ هذا شيء، والذي يقرره علماء الأديان المقارنة شيء آخر. وبينهم تفاوت تام في منهج النظر وفي النتائج التي ينتهي إليها. وآراء الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضاً، فهي ليست الكلمة النهائية حتى في مباحث البشر الفانين!

وما من شك أنَّه حين يقرر الله ـ سبحانه ـ أمراً يبينه في كتابه الكريم هذا البيان القاطع. ويقرر غيره أمراً آخر معارضاً له تمام المغايرة، فإنَّ قول الله يكون أولى بالاتباع. وبخاصة ممَّن يدافعون عن الإسلام؛ ويكتبون ما يكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة.. وأنَّ هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية في أنَّ الدين جاء وحياً من عند الله، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم، وأنَّه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يجيء بغير التوحيد في أيَّة فترة من فترات التاريخ، ولا في أية رسالة. كما أنَّه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أنَّ هؤلاء إنَّما يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية للدين الله كله؛ وهي أنَّه وحي من الله، وليس من وحي الفكر البشري المترقي المتطور! وليس وقفاً على ترقي العقل البشري في العلم المادي والخبرة التجريبية!

إنَّ هذا البيان المختصر يكشف لنا عن مدى الخطورة في تلقي مفهوماتنا الإسلامية ـ في أي جانب من جوانبها ـ عن مصدر غير إسلامي. كما يكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها في أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها. حتى وهم يتصدون لرد الافتراءات عن الإسلام من أعدائه.. ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: ٩]..

الحقيقة الكبيرة والقاعدة الأصلية في العقيدة:

ونقف وقفة أخرى مع قصة نوح.. نقف مع نوح وابنه الذي ليس من أهله!

إنها وقفة على معلم واضح بارز في صبغة هذه العقيدة وفي خطها الحركي أيضاً.. وقفة على مفرق الطريق يكشف معالم الطريق.

إنَّ الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم.

إنَّ هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب؛ وليست وشيجة الأرض والوطن. وليست وشيجة القوم والعشيرة. وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر. وليست وشيجة الحرفة والطبقة..

إنَّ هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد؛ كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعبده نوح ـ عليه السلام ـ وهو يقول: ﴿رب إنَّ ابني من أهلي﴾.. ﴿يا نوح إنَّه ليس من أهلك﴾ ثمَّ بين له لماذا يكون ابنه.. ليس من أهله.. ﴿إنَّه عمل غير صالح﴾.. إنَّ وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح: ﴿فلا تسألني ما ليس لك به علم﴾ فأنت تحسب أنَّه من أهلك. ولكن هذا الحساب خاطئ. أمَّا المعلوم المستيقن فهو أنَّه ليس من أهلك، ولو كان هو ابنك من صلبك!

وهذا هو المَعْلَم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة... إن الجاهلية تجعل الرابطة آناً هي الدم والنسب؛ وآناً هي الأرض والوطن، وآناً هي القوم والعشيرة، وآناً هي اللون واللغة، وآناً هي الجنس والعنصر، وآناً هي الحرفة والطبقة! تجعلها آناً هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشترك.. وكلها تصورات جاهلية ـ على تفرقها أو تجمعها ـ تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي!

والمنهج الرباني القويم ـ ممثلاً في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول ﷺ وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه ـ قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير... والمَعْلَم الواضح البارز في مفرق الطريق.

وهذا المثل الذي يضربه من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد، ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى، ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها.

ـ ضرب لها المثل فيما يكون بين الولد والوالد وذلك فيما كان بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأبيه وقومه كذلك:

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم، إنه كان صدّيقاً نبياً. إذ قال لأبيه: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً. يا أبت لا تعبد الشيطان، إن الشيطان كان للرحمن عصياً. يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً.. قال: أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنك! واهجرني ملياً. قال: سلام عليك سأستغفر لك ربي، إنه كان بي حفياً، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي، عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً. فلما اعتزلهم وما يعبدون من

دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً؛ ووهبنا لهم من رحمتنا، وجعلنا لهم لسان صدق عليّاً﴾ [مريم: ٤١ - ٥٠].

- وضرب لها المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما عدمه الله سبحانه ولقّنه، وهو يعطيه عهده وميثاقه ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة في عقبه:

﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات، فأتمَّهنَّ قال: إنِّي جاعلك للناس إماماً، قال: ومن ذرِّيَّتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين.. ﴾.

﴿وإذ قال إبراهيم: ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات - من آمن منهم بالله واليوم الآخر. قال: ومن كفر فأمتِّعه قليلاً ثم أضطرُّه إلى عذاب النَّار وبئس المصير﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٦].

- وضرب لها المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه، وذلك فيما كان بين نوح وامرأته، ولوط وامرأته وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون:

﴿ضرب الله مثلاً للَّذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين، فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل: ادخلا النَّار مع الدَّاخلين﴾..

﴿وضرب الله مثلاً للَّذين آمنوا امرأة فرعون. إذ قالت: ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنَّة، ونجني من فرعون وعمله، ونجِّني من القوم الظالمين﴾.. [التحريم: ١٠ - ١١]..

- وضرب لها المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم وأموالهم، ومصالحهم ومناصبهم ومصيرهم وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم. وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم...

﴿قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والَّذين معه، إذ قالوا

لقومهم. إنَّا برآء منكم وممَّا تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف والرَّقيم كانوا من آياتنا عجباً؟ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيِّىء لنا من أمرنا رشداً، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ثمَّ بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق، إنَّهم فتيةٌ آمنوا بربِّهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السَّماوات والأرض لن ندعو من دونه إلـهاً لقد قلنا إذن شططاً. هـؤلاء قومنا اتَّخذوا من دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن! فمن أظلم ممَّن افترى على الله كذباً؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون ـ إلَّا الله ـ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، ويهيِّىء لكم من أمركم مرفقا﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٦]

وهذه الأمثلة التي ضربها للأمَّة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين، الذين سبقوها في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان، وضحت معالم الطريق لهذه الأمَّة، وقام هذا المعْلم النازل أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم، ولا يقوم على سواها. وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق في حسم ووضوح يتمثلان في مواقف كثيرة، وفي توجيهات من القرآن كثيرة.. هذه نماذج منها.

ـ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ـ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ـ أولـئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه، ويدخلهم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولـئك حزب الله، ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون﴾ [المجادلة: ٢٢].

- ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تتَّخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق، يخرجون الرسول وإيَّاكم أن تؤمنوا بالله ربكم. إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي. تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم. ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾ [الممتحنة: ١]..

- ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم، يوم القيامة يفصل بينكم، والله بما تعملون بصير قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والذين معه . إلخ﴾ [الممتحنة: ٣. ٤]

- ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تتَّخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبُّوا الكفر على الإيمان. ومن يتولَّهم منكم فأولئك هم الظَّالمون﴾ [التَّوبة: ٢٣]..

- ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنَّصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولَّهم منكم فإنَّه منهم، إنَّ الله لا يهدي القوم الظَّالمين﴾ [المائدة: ٥١]..

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي؛ وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوي الذي يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً إلى آخر الزمان. ولم يعد هناك مجال للجمع بين: «الإسلام» وبين إقامة المجتمع على أيَّة قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله للأُمَّة المختارة. والذين يدعون صفة الإسلام، ثمَّ يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحلَّ الإسلام محلها قاعدة العقيدة، إمَّا أنَّهم لا يعرفون الإسلام، وإمَّا أنَّهم يرفضونه والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة التي يدَّعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها، بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلاً!

لقد قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشري. أمة المسلمين من أتباع الرسل ـ كل في زمانه حتى النبي الرسول الأخير إلى الناس كافة ـ وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون.

وعندما أراد الله أن يعرف المسلمين بأمتهم التي تجمعهم على مدار القرون، عرفها لهم في صورة أتباع الرسل ـ كل في زمانه ـ وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ . ولم يقل للعرب إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء! ولا قال لليهود إن أمتكم هي بنو إسرائيل والعبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء! ولا قال لسلمان الفارسي: إن أمتك هي فارس! ولا لصهيب الرومي: إن أمتك هي الروم! ولا لبلال الحبشي: إن أمتك هي الحبشة! إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش: إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقا على أيام موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذي النون، وزكريا ويحيى، ومريم ... كما جاء في سورة الأنبياء (آيات: ٤٨ ـ ٩١).

هذه هي أمة «المسلمين» في تعريف الله ـ سبحانه ـ. فمن شاء له طريقا غير طريق الله فليسلكه. ولكن ليقل[2] إنه ليس من المسلمين! أما نحن الذين أسلمنا لله، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التي عرفها لنا الله. والله يقضي الحق وهو خير الفاصلين..

الوقفة الأخيرة :

ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المسلمة في ميزان الله سبحانه:

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح ـ عليه السلام ـ تذكر بعض

الروايات أنهم اثنا عشر، هم كانوا حصيلة دعوة نوح في ألف سنة إلا خمسين عاماً كما يقرر المصدر الوحيد المستيقن الصحيح في هذا الشأن.

إن هذه الحفنة - وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - قد استحقت أن يُغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون، وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وكل حي في المعمور وقتها من الأرض! وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك، وبذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد[1]..

.. وهذا أمر خطير.

إن طلائع البعث الإسلامي التي تواجه الجاهلية الشاملة في الأرض كلها؛ والتي تعاني الغربة في هذه الجاهلية والوحشة؛ كما تعاني الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل.. إن هذه الطلائع ينبغي أن تقف طويلاً أمام هذا الأمر الخطير، وأمام دلالته التي تستحق التدبر والتفكير!

إن وجود البذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله تعالى.. شيء يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وأرضها وعمرانها ومنشآتها وقواها ومدّخراتها جميعاً؛ كما يستحق منه سبحانه أن يكلأ هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض وتعمرها من جديد!

لقد كان نوح - عليه السلام - يصنع الفلك بأعين الله ووحيه، كما قال تعالى: **﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾** [هود: ٣٧]..

وعندما لجأ نوح إلى ربه والقوم يطاردونه ويزجرونه ويفترون عليه كما قال تعالى في سورة القمر:

---

(١) يراجع فصل «نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» من كتاب «معالم في الطريق».

﴿كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أنّي مغلوب فانتصر﴾. . .

عندما لجأ نوح إلى ربه يعلن أنّه ﴿مغلوب﴾ ويدعو ربه أن « ينتصر » هو وقد غُلب رسوله.. عندئذٍ أطلق الله القوى الكونية الهائلة في خدمة عبده المغلوب:

﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾.

وبينما كانت تلك القوى الهائلة تزاول عملها على هذا المستوى الكوني الرائع المرهوب. كان الله - سبحانه - بذاته العلية - مع عبده المغلوب:

﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كفر..﴾.

هذه هي الصورة الهائلة التي يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامي في كل زمن وفي كل مكان أمامها حين تطاردها الجاهلية، وحين « تغلبها » الجاهلية!

إنها تستحق أن يُسخر الله لها القوى الكونية الهائلة. وليس من الضروري أن تكون هي الطوفان فما الطوفان إلّا صورة من صور تلك القوى! ﴿وما يعلم جنود ربك إلّا هو﴾..

هذه حال صاحب الحق حين ينكره الناس ويمكرون دعوته ويجاهرونه بالخصومة الباطلة. فليس له حينئذٍ إلّا «أعين الله»: تضع له أسباب نجاته ونجاة أصحابه، وتجري هذه الأسباب بأمر الله إلى المذخور من واسع رحمته وفضله، وتفيض عليه من السكينة والرضا ما يصبر به على الأذى والجحود.

ثلاث آيات في سفينة نوح: ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ [هود: ٣٧].. ﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ [المؤمنون: ٢٧]..

﴿تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر﴾ [القمر: ١٤]..

وتعلن هذه الآيات أن السفينة صنعت بأعين الله، ثم جرت بأعين الله ﴿جزاءً لمن كان كُفِر﴾!

فأية سلوى لكل من كُفر أروح من هذه السلوى، وأي مدد من الأمل والقوة لكل حجة حقّت أعز من هذا المدد؟!

هذه لفتة قرآنية إلى دعاة الحق: هذه عدتكم أن تستقبلوا كل يوم من أيامكم مُسبّحين، وأن تراكم أعين الله الراعية في جوف الليل قائمين ساجدين، وأن يشتعل في سرائركم ذكر الآخرة، حتى يغلب فيها صائح الحق فلا تميزوا الناس في دنياكم إلا بما يميزهم في آخرتهم. يوم لا تظلم نفس شيئاً!

هذه هي الصورة الوضيئة التي يجب أن تقف عليها العصبة المسلمة، حين تستعلي الجاهلية، وتعنتها وتطاردها. حينئذ من الأيام. وإنه ليس عليها إلا أن تثبت وتستمر في طريقها؛ وإلا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه، وإلا أن تصبر حتى يأتي الله بأمره. وإلا أن تثق أن وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وأنه لن يترك أولياءه إلى أعدائه، إلا فترة الإعداد والابتلاء؛ وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض ما يشاء.

. وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم..

إنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالربوبية.. كما أنه لا ينبغي له أن يقيس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى وهو عبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه: ﴿أني مغلوب فانتصر﴾.

إن القوى في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة. إن الجاهلية تملك قواها.. ولكن الداعي إلى الله يستند إلى قوة الله. والله يملك أن يسخر له

بعض القوى الكونية ـ حيثما يشاء وكيفما يشاء ـ وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب!

وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله .. ولقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً؛ قبل أن يأتي الأجل الذي قدّره الله. ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا اثني عشر مسلماً .. ولكن هذه الحفنة من البشر كانت في ميزان الله تساوي تسخير القوى الهائلة، والتدمير على البشرية الضالة جميعاً، وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة تعمرها من جديد، وتستخلف فيها..

إنَّ عصر الخوارق لم يمض! فالخوارق تتم في كل لحظة ـ وفق مشيئة الله الطليقة ـ ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أخرى، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها. وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها؛ ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً، ويلامسون آثارها المبدعة.

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلاّ أن يؤدوا واجبهم كاملاً، بكل ما في طاقتهم من جهد؛ ثمَّ يدعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة. وعندما يُغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح: ﴿فدعا ربه أنّي مغلوب، فانتصر﴾ . ثمَّ ينتظروا فرج الله القريب. وانتظار الفرج من الله عبادة: فهم على هذا الانتظار مأجورون.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ [العنكبوت: ١٤]..

والراجح أنَّ فترة رسالته التي دعا فيها قومه كانت ألف سنة إلاّ خمسين عاماً. وقد سبقتها فترة قبل الرسالة غير محددة، وأعقبتها فترة كذلك بعد

النجاة من الطوفان غير محددة. وهو عمر طويل مديد، يبدو لنا غير طبيعي ولا مألوف في أعمار الأفراد. ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر في هذا الوجود. وهذا وحده برهان صدقه. فإذ أردنا له تفسيرا فإننا نستطيع أن نقول. إن عدد البشرية يومذاك كان قليلاً ومحدوداً، فليس ببعيد أن يعوض الله هذه الأجيال عن كثرة العدد طول العمر، لعمارة الأرض وامتداد الحياة. حتى إذا تكاثر الناس وعمرت الأرض لم يعد هناك داع لطول الأعمار. وهذه الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير من الأحياء. فكلما قل العدد وقل النسل طالت الأعمار، كما في النسور وبعض الزواحف كالسلحفاة. حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الأعوام. بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه أكثر من أسبوعين. والشاعر يعبر عن هذه الظاهرة بقوله

بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاة نزور[1]

ومن ثم يطول عمر الصقر. وتقل أعمار بغاث الطير. ولله الحكمة البالغة. وكل شيء عنده بمقدار.

ولم تثمر ألف سنة - إلا خمسين عاماً - غير العدد القليل الذين آمنوا لنوح. وجرف الطوفان الكثرة العظمى وهم ظالمون بكفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الدعوة المديدة، ونجا العدد القليل من المؤمنين. وهم أصحاب السفينة. ومضت قصة الطوفان والسفينة «آية للعالمين» تحدثهم عن عاقبة الكفر والظلم على مدار القرون.

(١) بغاث الطير: ضعافه. ومقلاة نزور، أي مقلة في الافراخ.

قصة هود عليه السلام

المحتوى	ص

هود عليه السَّلام

تقديم

مضى قوم نوح في التاريخ، الأكثرون المكذبون طواهم الطوفان وطواهم التاريخ، واستبعدوا من الحياة ومن رحمة الله سواء، والناجون مستخلفون في الأرض تحقيقاً لسنة الله ووعده: ﴿والعاقبة للمتقين﴾

ولقد كان وعد الله لنوح: ﴿يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممَّن معك وأمم سنمتعهم ثمَّ يمسهم منا عذاب أليم﴾ [هود: ٤٨]..

فلمَّا دارت عجلة الزمن ومضت خطوات التاريخ جاء وعد الله، وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا في البلاد ممَّن حقت عليهم كلمة الله: ﴿وأمم سنمتعهم ثمَّ يمسهم منا عذاب أليم﴾..

لقد عادت الجاهلية مرة أخرى كما عادت من قبل بعد أجيال لا يعلمها إلَّا الله من المسلمين من ذرية آدم.. فلا بد أنَّ أجيالاً من ذرية آدم بعد استخلافه في الأرض قد ولدت مسلمة وعاشت بالإسلام الذي كان عليه أبواهم حتى اجتالتهم الشياطين عن دينهم، وانحرفت بهم الجاهلية التي واجهها نوح - عليه السَّلام - ثمَّ جاء نوح فنجا معه من نجا من المسلمين، وأهلك الباقون ولم يعد على الأرض من الكافرين دياراً - كما دعا نوح ربه - ولا بد أنَّ أجيالاً كثيرة من ذرية نوح عاشت بالإسلام بعده حتى اجتالتهم

الشياطين مرة أخرى فانحرفوا كذلك إلى الجاهلية. وكانت عاد وكانت ثمود بعدها من أمم الجاهلية..

فأمّا عاد فكانت قبيلة تسكن الأحقاف(١)، وهي جبال رملية في جنوب الجزيرة العربية قرب حضرموت من ناحية اليمن. وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة..

وقد جاؤوا بعد قوم نوح، وكانوا ممّن زاغت قلوبهم بعد فترة من الطوفان الذي طهّر وجه الأرض من العصاة. وبلغت القبيلة في زمنها أقصى القوة والمنعة والرزق والمتاع. ولكن هؤلاء كانوا ممّن حقّت عليهم كلمة الله، بما عتوا عن أمر الله، واختاروا الوثنية على التوحيد، والعبودية للعبيد على العبودية لله، وكذبوا الرسل شرّ تكذيب ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلاّ مفترون﴾ [هود: ٥٠]..

وكان هود من عاد. فهو أخوهم. واحد منهم، تجمعه بهم آصرة القربى العامة بين أفراد القبيلة الواحدة. وتبرز هذه الآصرة في السياق القرآني، لأنّ من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصح بين الأخ وإخوته. ليبدو موقف القوم من أخيهم ونبيهم شاذاً ومستقبحاً! ثمّ تقوم المفاصلة في النهاية بين القوم وأخيهم على أساس افتراق العقيدة. ويبرز بذلك معنى انقطاع الوشائج كلها حين تنقطع وشيجة العقيدة. لتتفرد هذه الوشيجة وتبرز في علاقات المجتمع الإسلامي، ثمّ لكي تتبين طبيعة هذا الدين وخطه الحركي. فالدعوة به تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصر القربى والدم والنسب والعشيرة والأرض.. ثمّ تنتهي بالافتراق وتكوين أُمّتين مختلفتين من القوم الواحد.. أُمّة مسلمة وأُمّة مشركة.. وبينهما فُرقة ومفاصلة. وعلى أساس هذه المفاصلة يتم وعد الله بنصر

(١) الأحقاف: جمع حقف، وهو الكثيب المرتفع من الرمال.

المؤمنين وإهلاك المشركين. ولا يجيء وعد الله بهذا ولا يتحقق إلا بعد أن تتم المفاصلة، وتتم المفرقة، وتتميز الصفوف، وينخلع النبي والمؤمنون معه من قومهم، ومن سابق روابطهم ووشائجهم معهم، ويخلعوا ولاءهم لقومهم، ويعطوا ولاءهم كله لله ربهم ولقيادتهم المسلمة التي دعتهم إلى الله وإلى الدينونة له وحده وخلع الدينونة للعباد.. وعندئذ فقط ـ لا قبله ـ يتنزل عليهم نصر الله.

والله ـ سبحانه ـ يوجه نبيه ﷺ أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف. يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقي مثل ما يلقى من إعراض قومه وهو أخوهم. ويذكره ليذكر المشركين في مكة بمصير الغابرين من أمثالهم وأمثالهم، على مقربة منهم ومن حولهم: ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ـ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ـ ألاَّ تعبدوا إلاَّ الله. إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ [الأحقاف: ٢١]..

وأخو عاد هو هود ـ عليه السلام ـ يذكره القرآن هنا بصفته. صفة الأخوة لقومه. ليصور صلة الود بينه وبينهم، وصلة القرابة التي كانت كفيلة بأن تعطفهم إلى دعوته، وتحسن ظنهم بها وبه. وهي ذات الصلة بين محمد ﷺ وقومه الذين يقفون منه موقف الملاحاة والخصومة.

وقد أنذر أخو عاد قومه، ولم يكن أول نذير لقومه. فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم.. ﴿وقد خلت النُّذُر من بين يديه ومن خلفه﴾..

قريباً منه وبعيداً عنه في الزمان وفي المكان. فالنذارة متصلة، وسلسلة الرسالة ممتدة. والأمر ليس بدعاً ولا غريباً. فهو معهود مألوف.

وقد وردت هذه القصة في سور عدّة في القرآن الكريم[1]، ووردت

---

(١) سورة الحجر: ٦ ـ ٩، سورة القمر: ١٨ ـ ٢٢، سورة الأعراف: ٦٥ ـ ٧٢، سورة الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣٥، سورة هود: ٤٩ ـ ٦٠، سورة فصلت: ١٢ ـ ١٦، الأحقاف: ٢١ ـ ٢٦، الذاريات: ٤٠ ـ ٤٤، المؤمنون: ٣١ ـ ٤١، الحاقة: ٣ ـ ٨، سورة النجم: ٥٠، سورة (ق): آية/١٣، سورة الفرقان: ٣٨، سورة العنكبوت: ٣٨.

الإشارة مكررة في بعض السور الأخرى كما جاءت في سورة النجم و (ق) والفرقان والعنكبوت. ففي سورة النجم ﴿وأنّه أهلك عاداً الأُولى وثمودا فما أبقى﴾ وسورة (ق) ﴿وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾. وفي سورة الفرقان ﴿وعاداً وثمود وأصحاب الرَّسِّ وقرونا بين ذلك كثيرا﴾. وفي سورة العنكبوت: ﴿وعاداً وثمود وقد تبيّن لكم من مساكنهم وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السَّبيل وكانوا مستبصرين﴾

وأول سورة أشارت إلى هذه القصة سورة الفجر حيث جاء فيها قول الله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ إرمَ ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد﴾.

ثمَّ وردت هذه القصة مفصلة في الأعراف وفي هود كما وردت في سورة « المؤمنون » بدون ذكر اسم هود وعاد. وفي تفصيل خاص في سورة « الأحقاف »، وعرضت في سورة « الشعراء » مختصرة من طرفيها: طرف دعوة هود لقومه، وطرف العاقبة التي انتهى إليها المكذبون منهم.

رسالة واحدة وحوار:

وقبيلة عاد من القبائل العربية الذين بادوا وانقرضوا. ومن أجل ذلك كان الأساس الأول والأخير في معرفة أحوالهم هو القرآن، وهو الكتاب الوحيد الذي تعرض لأخبارهم دون سائر الكتب السماوية. لقد أرسل الله هوداً إلى عاد كما أرسل نوحاً إلى قومه في القصة السابقة.

﴿قال يا قوم﴾.. بهذا التودد، والتذكير بالأواصر التي تجمعهم، لعلَّ ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول. فالرائد لا يكذب أهله، والناصح لا يغشّ قومه.

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً، قال: يَا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره، أفلا تتقون؟...﴾ [الأعراف: ٦٥]..

إنها نفس الرسالة، ونفس الحوار، ونفس العاقبة.. إنها السنة الماضية، والناموس الجاري، والقانون الواحد..

إن قوم عاد هؤلاء من ذراري نوح والذين نجوا معه في السفينة، وقيل كان عددهم اثني عشر.. وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين في السفينة كانوا على دين نوح - عليه السلام - وهو الإسلام - كانوا يعبدون الله وحده، ما لهم من إله غيره، وكانوا يعتقدون أنه رب العالمين، فهكذا قال لهم نوح: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾.. فلما طال عليهم الأمد، وتفرقوا في الأرض، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية، وقادهم من شهواتهم - وفي أولها شهوة الملك وشهوات المتاع - وفق الهوى لا وفق شريعة الله، عاد قوم هود يستنكرون أن يدعوهم نبيهم إلى عبادة الله وحده من جديد: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون؟﴾

القولة التي قالها نوح من قبله، والتي كذب بها قومه، فأصابهم ما أصابهم. واستخلف الله عاداً من بعدهم. وكانوا يسكنون بالأحقاف، وهي الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت - وقد ساروا في الطريق الذي سار فيه من قبل قوم نوح، فلم يتذكروا ولم يتدبروا ما حلَّ بمن ساروا في هذا الطريق، لذلك يصف هود في حكايته لهم قوله: ﴿أفلا تتقون؟﴾ مستنكراً قلة خوفهم من الله ومن ذلك المصير المرهوب.

ها هو ذا هود - عليه السلام - يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده:

﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.

القولة الواحدة التي جاء بها كل رسول وكانوا قد انحرفوا - كما أسلفنا - عن عبادة الله الواحد التي هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة. ولعلَّ أول خطوة في هذا الانحراف كانت هي تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التي حُملت في السفينة مع نوح! ثمَّ تطور هذا التعظيم جيلاً بعد جيل فإذا أرواحهم المقدسة تتمثل في أشجار وأحجار نافعة؛ ثمَّ تتطور هذه الأشياء،

فإذا هي معبودات. وإذا وراءها كهنة وسدنة يعبدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدّعاة ـ في صورة من صور الجاهلية الكثيرة.

ذلك أنّ الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق الذي لا يتجه بشعور التقديس لغير الله وحده ولا يدين بالعبودية إلّا لله وحده.. الانحراف خطوة واحدة لا بدّ أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلّا الله.

على أية حال لقد كان قوم هود مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية، فإذا هو يدعوهم تلك الدعوة التي جاء بها كل رسول: ﴿إنْ أنتم إلَّا مفترون﴾..

مفترون فيما تعبدونه من دون الله، وفيما تدعونه من شركاء لله.

ـ نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة.. دعوة توحيد العبادة والعبودية لله، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: ﴿قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.

ولقد أوضحنا «العبادة» لله وحده بأنّها «الدينونة الشاملة» لله وحده، في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة. ذلك إنّ هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي.. فإنَّ «عَبد» معناها: ذلّ وخضع ودان. وطريق معبد مذلل ممهد. وعبّده جعله عبداً أي خاضعاً مذللاً.

ولم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية. بل إنّه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنّما كان يفهم منه عندما يخاطب به أنّ المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله؛ وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره.

ولقد فسَّر رسول الله ﷺ «العبادة» نصاً بأنّها هي «الاتّباع» وليست

هي الشعائر التعبدية. وهو يقول لعدي بن حاتم عن اليهود والنصارى واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً:

«بلى. إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال. فاتبعوهم. فذلك عبادتهم إياهم»..

وقد أطلقت لفظة «العبادة» على «الشعائر التعبدية» باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون. صورة لا تستغرق مدلول «العبادة» بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة! فلما بهت مدلول «الدين» ومدلول «العبادة» في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلاً! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح مسلماً

وهذا وهم باطل، وانحسار وانكماش، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ «العبادة» التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه - وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن. وهو المدلول الذي تفيده اللفظة في أصل اللغة؛ والذي نصَّ عليه رسول الله ﷺ نصاً وهو يفسر قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ [التوبة: ٣١]..

وليس بعد تفسير رسول الله ﷺ لمصطلح من المصطلحات قول لقائل(١).

ونجد في قصة هود كما يعرضها القرآن لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التي كانت بين هود وقومه؛ وبين الإسلام الذي جاء به

---

(١) يراجع البحث القيم الذي كتبه الأستاذ: أبو الأعلى المودودي بعنوان «المصطلحات الأربعة في القرآن.. الإله. الرب. الدين. العبادة».

والجاهلية التي كانو عليها، وتحدد ما الذي كان يعنيه وهو يقول لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾. إنه لم يكن يعني: يا قوم لا تتقدموا بالشعائر التعبدية لغير الله! كما يتصور الذين انحسر مدلول «العبادة» في مفهوماتهم، وانزوى داخل إطار الشعائر التعبدية! إنما كان يعني الدينونة لله وحده في منهج الحياة كلها؛ ونبذ الدينونة والطاعة لأحد من الطواغيت في شؤون الحياة كلها.

والفعلة التي من أجلها استحق قوم هود الهلاك والعنة في الدنيا والآخرة لم تكن هي مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير الله. فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التي جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة الله وحده - أي الدينونة له وحده - إنما كانت الفعلة النكراء التي استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هي: جحودهم بآيات ربهم، وعصيان رسله، واتباع أمر الجبارين من عبيده. ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم، وعصوا رسله، واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ [هود: ٥٩]. كما يقول عنهم أصدق القائلين الله رب العالمين..

لقد دعا هود قومه إلى السبيل الرشيد والفكر السليم في حجة واضحة تبدد ظلمات الشك والحيرة..

﴿كذبت عاد المرسلين. إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتَّقون؟ إنِّي لكم رسول أمين. فاتَّقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر. إن أجري إلاَّ على ربِّ العالمين﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٢٧].

فهي الكلمة الواحدة يقولها كل رسول: دعوة إلى تقوى الله وطاعة رسوله. وإعلان للزهد فيما لدى القوم من عرض الحياة، ويرجع عن قيم الأرض الزائلة، وتطلع إلى ما عند الله من أجر كريم.

ثمَّ يزيد ما هو خاص بحال القوم وتصرفاتهم، فينكر عليهم الترف في البنيان لمجرد التباهي بالمقدرة، والإعلان عن الثراء، والتكاثر والاستطالة

في البناء، كما يبكر غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا، وما يسخرونه فيها من القوى، وغفلتهم عن تقوى الله ورقابته.

﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون؟﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩]..

والريع المرتفع من الأرض. والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بناءً يبدو للناظر من بعد كأنه علامة. وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة. ومن ثمَّ سماه عبثاً. ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: ﴿تعبثون﴾. فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة.

ويبدو كذلك من قوله: ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ أن عاداً كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغاً يذكر، حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور، وتشييد العلامات على المرتفعات؛ وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشئونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت، ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء.

ويمضي هود في استنكار ما عليه قومه:

﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ [الشعراء: ١٣٠]..

فهم عتاة غلاظ، يتجبرون حين يبطشون؛ ولا يتحرجون من القسوة في البطش. شأن المتجبرين المعتزين بالقوة المادية التي يملكون.

وهنا يردهم إلى تقوى الله وطاعة رسوله، ليَنْهَه من هذه الغلظة الباطشة المتجبرة:

﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ [الشعراء: ١٣١]..

ويذكرهم نعمة الله عليهم بما يستمتعون به ويتطاولون ويتجبرون. وكان الأجدر بهم أن يتذكروا فيشكروا، ويخشوا أن يسلبهم ما أعطاهم، وأن

بعقبهم على ما أسرفوا في العبث والبطش وبطر الذميم!

﴿واتَّقوا الذي أمدَّكم بما تعلمون. أمدَّكم بأنعام وبنين. وجنَّاتٍ وعيون. إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٥]..

وهكذا يذكرهم بالمنعم والنعمة على وجه الإجمال أولاً: ﴿أمدَّكم بما تعلمون﴾. وهو حاضر بين أيديهم، يعلمونه ويعرفونه ويعيشون فيه، ثم يفصل بعض التفصيل: ﴿أمدكم بأنعام وبنين، وجنَّات وعيون﴾ وهي النعم المعهودة في ذلك العهد؛ وهي نعمة في كل عهد.. ثمَّ يخوفهم عذاب يوم عظيم. في صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب. فهو أخوهم، وهو واحد منهم، وهو حريص ألَّا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذي لا شك فيه.

أنذرهم - ما أنذر به كل رسول قومه - ﴿ألَّا تعبدوا إلَّا الله. إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ [الأحقاف: ٢١]. وعبادة الله وحده عقيدة في الضمير ومنهج في الحياة؛ والمخالفة عنه تنتهي إلى العذاب العظيم في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما على السواء. والإشارة إلى اليوم ﴿عذاب يوم عظيم﴾.. تعني حين تطلق يوم القيامة وهو أشد وأعظم.

سُنَّة الله ومشيئته الطليقة:

ويبادر هود ليوضح لقومه أنها دعوة خالصة ونصيحة ممحضة، فليس له من ورائها هدف. وما يطلب على النصح والهداية أجراً. إنَّما أجره على الله الذي خلقه فهو به كفيل:

﴿ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً. إن أجري إلاَّ على الله الذي فطرني أفلا تعقلون؟﴾ [هود: ٥١]..

ممَّا يشعر أنَّ قوله: ﴿لا أسألكم عليه أجراً﴾ كان بناءً على اتهام له أو تلميح بأنَّه يبتغي أجراً أو كسب مال من وراء الدعوة التي يدعوهم. وكان التعقيب: ﴿أفلا تعقلون؟﴾ للتعجيب من أمرهم وهم يتصورون أنَّ رسولاً

من عند الله يطلب رزقاً من البشر، والله الذي أرسله هو الرزاق الذي يقوّت هؤلاء الفقراء!

ثمَّ يوجههم إلى الاستغفار والتوبة. ويعدهم هود ويحذرهم ما وعد محمَّد وحذَّر بعد ذلك بآلاف السنين:

﴿ويَا قوم استغفروا ربَّكم ثمَّ توبوا إليه. يرسل السماء عليكم مدراراً، ويزدكم قوة إلى قوتكم. ولا تتولوا مجرمين﴾ [هود. ٥٢].. استغفروا ربكم ممَّا أنتم فيه، وتوبوا إليه فابدأوا طريقاً جديداً يحقق النية ويترجمها إلى عمل يصدق النية..

﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾..

وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوابهم في الصحراء، ويحتفظون به بالخصب الناشىء من هطول الأمطار في تلك البقاع.

﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾.

هذه القوة التي عُرفتم بها..

﴿ولا تتولوا مجرمين﴾..

مرتكبين لجريمة التولي والتكذيب.

وننظر في هذا الوعد. وهو يتعلق بإدرار المطر ومضاعفة القوة. وهي أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال. فما علاقة الاستغفار بها وما علاقة التوبة؟

فأمَّا زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور، بل واقع مشهود، فإنَّ نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة. يزيدانهم صحة في الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيِّبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن؛ ويزيدانهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحراراً كراماً لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم أمام قهار واحد تعنو

له الحياه . كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة في الأرض، غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية وإطلاق البخور حولها ودق الطبول . والنفخ فيها ليل نهار لتملأ فراغ الإله الحق في فطرة البشر!

ولقد تتوافر القوة لمن لا يحكّمون شريعة الله في قلوبهم ولا في مجتمعهم، ولكنها قوة إلى حين . حتى تنتهي الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله، وتتحطم هذه القوة التي لم تستند إلى أساس ركين . إنما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية كالعمل والنظام ووفرة الإنتاج . وهذه وحدها لا تدوم . لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضي عليها بعد حين .

فأما إرسال المطر . مدراراً . فالظاهر للبشر أنه يجري وفق سنن طبيعية ثابتة في النظام الكوني . ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محيياً في كل مكان وزمان . ومدمراً في مكان وزمان؛ وأن يكون من قدر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم، وأن يكون الدمار معه لقوم، وأن ينفذ الله تبشيره بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية؛ فهو خالق هذه العوامل، وجاعل الأسباب لتحقيق سنته على كل حال . ثم تبقى وراء ذلك مشيئة الله الطليقة التي تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس وذلك لتحقيق قدر الله كيفما شاء . حيث شاء . بالحق الذي يحكم كل شيء في السماوات والأرض غير مقيد بما عهده الناس في الغالب .

ـ ونقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم:
﴿ويَا قوم استغفروا ربَّكم ثُمَّ توبوا إليه يرسل السَّماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم، ولا تتولَّواهمجرمين﴾ . . وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مطلع سورة هود بصدد دعوة رسول الله ﷺ لقومه وذلك في قوله تعالىٰ:

﴿وأن استغفروا ربَّكم ثمَّ توبوا إليه يمتِّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمًّى، ويؤت كل ذي فضل فضله، وإن تولَّوا فإنِّي أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ [هود: ٣] .

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين.. وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت، وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا؛ والذين لم تتصل أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها!

إن الحق الذي نزل به هذا الدين غير منفصل عن الحق المتمثل في ألوهية الله - سبحانه - وفي الحق الذي خلقت به السماوات والأرض، المتجلي في طبيعة هذا الكون ونواميسه الأزلية..

والقرآن الكريم كثيراً ما يربط بين الحق المتمثل في ألوهيته - سبحانه - والحق الذي قامت به السماوات والأرض، والحق المتمثل في الدينونة لله وحده.. والحق المتمثل في دعوة الناس لهذه الدينونة ومحاسبتهم عليها خاصة. والحق في الجزاء على الخير والشر في الدنيا والآخرة.. وذلك في مثل هذه النصوص:

﴿وما خلقنا السَّماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتَّخذناه من لدنَّا.. إن كنَّا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل ممَّا تصفون، وله من في السَّماوات والأرض. ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون. أم اتَّخذوا آلهة من الأرض هم يُنشرون؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا. فسبحان الله رب العرش عما يصفون. لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. أم اتخذوا من دونه آلهة؟ قل: هاتوا برهانكم. هذا ذكر من معي وذكر من قبلي، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون. وما أرسلنا

من قبلك من رسول إلّا نوحي أنّه لا إلـه إلّا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ٢٥]..

﴿يا أيّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب، ثمّ من نطفة، ثمّ من علقة، ثمّ من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة. لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثمّ نخرجكم طفلاً، ثمّ لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفّى، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم ـ من بعد علم ـ شيئاً، وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأنّ الله هو الحق، وأنّه يحيي الموتى، وأنّه على كل شيء قدير. وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور﴾ [الحج: ٥ ـ ٧]..

﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنّه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإنّ الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم. ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتّى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم الملك يومئذٍ لله يحكم بينهم. فالذين آمنوا وعملوا الصّالحات في جنات النعيم. والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا فأولـئك لهم عذاب مهين والذين هاجروا في سبيـل الله ثمّ قتلوا أو ماتـوا ليرزقنّهم الله رزقـاً حسناً، وإنّ الله لهـو خير الرّازقين. ليدخلنّهم مدخلاً يرضونه. وإنّ الله لعليم حليم. ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثمّ بغي عليه لينصرنّه الله. إنّ الله لعفوٌ غفور. ذلك بأنّ الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. وأنّ الله سميع بصير. ذلك بأنّ الله هو الحق، وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل، وأنّ الله هو العلي الكبير. ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة؟ إنّ الله لطيف خبير. لـه ما في السّماوات وما في الأرض، وإنّ الله لهـو الغني الحميد. ألم تر أنّ الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم. وهو الذي أحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم، إنّ الإنسان لكفور. لكل

أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه، فلا ينازعنك في الأمر، وادع إلى ربك، إنك لعلى هدىً مستقيم..﴾ [الحج: ٥٤ - ٦٧]..

وهكذا نجد في هذه النصوص وأمثالها في القرآن الكريم العلاقة الواضحة بين كون الله سبحانه هو الحق، وبين خلقه لهذا الكون وتدبيره بنواميسه ومشيئته بالحق، وبين الظواهر الكونية التي تتم بالحق. وبين تنزيل هذا الكتاب بالحق، وبين الحكم بين الناس في الدنيا والآخرة بالحق..

فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر الله بما يشاء، وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشاء، وفق ما يكون من الناس من الخير والشر في دار الابتلاء. ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة، وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدراراً.. فكل أولئك موصول بمصدر واحد هو الحق المتمثل في ذات الله سبحانه وفي قضائه وقدره، وفي تدبيره وتصريفه، وفي حسابه وجزائه.. في الخير وفي الشر سواء.

ومن هذا الارتباط يتجلى أن القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس. فكلتاهما تؤثر في هذه الحياة. سواء عن طريق قدر الله الغيبي المتعلق بعالم الأسباب من وراء علم البشر وسعيهم. أو عن طريق الآثار العملية المشهودة التي يمكن للبشر رؤيتها وضبطها كذلك. وهي الآثار التي ينشئها في حياتهم الإيمان أو عدم الإيمان، من النتائج المحسوسة المدركة.

الشُبهة المتكررة والرد القبيح:

فماذا كان جواب قوم هود على رسولهم وعلى التوجيه إلى الله والإنذار بعذابه؟

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ [الشعراء: ١٣٥، الأحقاف: ٢١]. وقد ﴿جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألّا تعبدوا إلّا الله.

قالوا: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة. فإنّا بما أُرسلتم به كافرون﴾ [فصّلت ١٤].

﴿قالوا: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة. فإنّا بما أُرسلتم به كافرون﴾..

وهي الشبهة المتكررة التي وُوجه بها كل رسول. وما كان للرسول يخاطب البشر أن يكون إلّا من البشر يعرفهم ويعرفونه. ويجدون فيه قدوة واقعية، ويعاني هو ما يعانونه. ولكن عاداً وثموداً أعلنوا كفرهم برسلهم، لأنهم بشر لا ملائكة كما كانوا يقترحون!

لقد كبر على الملأ الكبراء من قوم هود أن يدعوهم واحد من قومهم إلى الهدى، وأن يستنكر منهم قلة التقوى [illegible] فيه بالسفاهة [illegible] والتحذير [illegible] وبالكذب جميعا من غير تحرج ولا حياء:

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنّا لنراك في سفاهة، وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ [الأعراف: ٦٦]..

هكذا جزافاً بلا تروٍّ ولا تدبُّر ولا دليل!

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة، ولكني رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ [الأعراف: ٦٧ - ٦٨]

[illegible]

﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم [illegible]﴾ [الأعراف: ٦٩]..

ثمّ يزيد عليه ما يمسهم وينفعهم.. موقع استخلافهم في الأرض من بعد قوم نوح، وإعطائهم قوة في الأجسام وضخامة بحكم نشأتهم الجبلية. وإعطائهم كذلك السلطان والسيطرة:

﴿واذكروا إذ جعلكم من بعد قوم نوح، وزادكم في الخلق بسطة. فاذكروا آلاء الله لعلّكم تفلحون﴾ [الأعراف: ٦٩] .

ولقد كان من حق هذا الاستخلاف، وهذه القوة والبسطة، أن تستوجب شكر النعمة، والحذر من البطر، واتقاء مصير الغابرين. وهم لم يأخذوا على الله عهداً أن تتوقف سنته التي لا تتبدل. ولكن تجري وفق ناموسها المرسوم. وتذكر النعمة وذكر النعم يوحي بشكرها. وشكر النعمة تتبعه المحافظة على أسبابها. ومن ثمّ يكون الفلاح في الدنيا والآخرة. ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر. وهكذا أخذت الملأ العزة بالإثم. واختصروا الجدل، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح، ويهزأ بالإنذار:

﴿قالوا: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا؟ ﴾ [الأعراف: ٧٠]..

لكنما كان يدعوهم إلى أمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه، ولا يصبرون على النظر فيه..

إنه مشهد بائس لاستعباد موقع المألوف للقلوب والعقول. هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصيلة: حرية التدبر والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد. ويدعه عبداً للعادة والتقليد، وعبداً للعرف والمألوف، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور.

﴿قالوا: أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا؟ فأتنا بما تعدنا إن كنتَ من الصّادقين﴾ [الأحقاف: ٢٢]..

سوء الظن وعدم الفهم، والتحدي للنذير، واستعجال العذاب الذي ينذرهم به، والاستهزاء والتكذيب والإصرار على الباطل والاغترار!

فأمّا هود النبي فيتجلى هذا كله في أدب النبي، وفي تجرده من كل ادّعاء، وفي الوقوف عند حده لا يتعداه:

﴿قال: إنّما العلم عند الله وأُبلغكم ما أُرسلت به ولكنّي أراكم قوماً تجهلون﴾ [الأحقاف: ٢٣].

إنّما أُنذركم بالعذاب كما كُلّفت أن أُنذركم ولست أعلم متى يحين موعده، ولا كيف يكون شكله. فعلم ذلك عند الله. وإنّما أنا مبلغ عن الله. لا أدّعي علماً ولا قدرة مع الله ﴿ولكنّي أراكم قوماً تجهلون﴾ وتحمقون. وأيّة حماقة وأي جهل أشد من استقبال النذير الناصح والأخ القريب بمثل هذا التحدي والتكذيب؟

ولكنّ هذه التذكرة وهذا التخويف، لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الغليظة. فإذا الإصرار والعناد والاستهتار:

﴿قالوا: سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ [الشعراء: ١٣٦]..

فما يعنينا أن تعظ أو لا تكون أصلاً من الواعظين! وهو تعبير فيه استهانة واستهتار وجفوة. يتبعه ما يشي بالجمود والتحجر والاعتماد على التقليد!

﴿إن هذا إلّا خلق الأوّلين.. وما نحن بمعذبين﴾ [الشعراء: ١٣٧، ١٣٨]..

فحجتهم فيما هم عليه، وفيما يستنكره عليهم هود، أنّه خُلق الأولين ونهجهم. وهم يسيرون على نهج الأولين! ثمّ إنّهم لينفون احتمال العذاب على خُلق الأولين! ﴿وما نحن بمعذبين﴾.

تلك دعوة هود ـ ويبدو أنّها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة. ربما لأن

الطوفان كان قريباً منهم، وكان في ذاكرة القوم وعلى ألسنتهم، وقد ذكرهم به - كما تقدم - فأما قومه فظنوا به الظنون.

﴿قالوا يَـا هود ما جئتنا ببيِّنة، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلاَّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ [هود: ٥٣، ٥٤]..

إلى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم، إلى حد أن يظنوا أنَّ هوداً يهذي، لأنَّ أحد آلهتهم المفتراة قد مسَّه بسوء، فأُصيب بالهذيان!

﴿يَـا هود ما جئتنا ببينة﴾..

والتوحيد لا يحتاج إلى بيِّنة، إنَّما يحتاج إلى التوجيه والتذكير، وإلى استجاشة منطق الفطرة، واستنباء الضمير.

﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾.

أي لمجرد أنَّك تقول بلا بينة ولا دليل!

﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾..

أي مستجيبين لك ومصدِّقين. وما نعلل دعوتك إلاَّ بأنَّك تهذي وقد أصابك أحد آلهتنا بسوء!

التبرُّؤ والتحدِّي والمفاصلة:

وهنا لم يبق لهود إلاَّ التحدي. وإلاَّ التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه. وإلاَّ الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين. وإلاَّ المفاصلة بينه وبين قومه ونفض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب.

﴿قال إنِّي أُشهد الله، واشهدوا أنِّي بريءٌ ممَّـا تشركـون من دونه، فكيـدوني جميعاً ثمَّ لا تُنظرون. إنِّي تـوكَّلت على الله ربِّي وربكم..﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]..

إنَّها انتفاضة التبرُّؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم - وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً. وانتفاضة المفاصلة

بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد بُتّت بينهما وشيجة العقيدة.

وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم. ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم، كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم!

وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه. ومع ثقة الإيمان واطمئنانه!

وإنّ الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى. يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أنّ هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي؛ ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الموثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم، ثمّ يهيج ضراوتهم بالتحدي. لا يطلب مهلة ليستعدّ استعدادهم، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم.

إنّ الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد. ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب. إنه الإيمان والثقة والاطمئنان. الإيمان بالله، والثقة بوعده، والاطمئنان إلى نصره. الإيمان الذي يخالط القلب فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة لأنها ملء يديه، وملء قلبه الذي بين جنبيه؛ وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب. إنما هي حاضر واقع تتملاه العين والقلب.

﴿قال: إنّي أُشهد الله واشهدوا أنّي بريءٌ ممّا تشركون من دونه﴾.

إنّي أُشهد الله على براءتي ممّا تشركون من دونه. واشهدوا أنتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم: أنّني عالنتكم بالبراءة ممّا تشركون من دون الله. ثمّ تجمعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أنّ أحدها مسّني بسوء. تجمعوا أنتم وهي ـ جميعاً ـ ثمّ كيدوني بلا ريث ولا تمهل. فما أباليكم جميعاً، ولا أخشاكم شيئاً:

﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ [هود: ٥٦].

ومهما أنكرتم وكذبتم فهذه الحقيقة قائمة حقيقة ربوبية الله لي ولكم فالله الواحد هو ربي وربكم، لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة.

﴿ما من دابة إلّا هو آخذٌ بناصيتها﴾.

وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض، بما فيها الدواب من الناس. والناصية أعلى الجبهة. فهو القهر والغلبة والهيمنة، في صورة حسية تناسب الموقف، وتناسب غلظة القوم وشدتهم، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم وإلى جانبها تقرير مستقيمة السنة الإلهية في اتجاهها الذي لا يحيد:

﴿إنّ ربّي على صراط مستقيم﴾..

فهي القوة والاستقامة والتصميم.

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سرّ ذلك الاستعلاء وسرّ ذلك التحدي. إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود - عليه السلام - في نفسه من ربه. إنه يجد هذه الحقيقة واضحة. إنّ ربه ورب الخلائق قوي قاهر ﴿ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها﴾. وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلّا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهراً. فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها؛ وهي لا تسلط عليه - إن سلطت - إلّا بإذن ربه؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه؟

إنّ هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه، لا تدع في قلبه مجالاً للشك في عاقبة أمره؛ ولا مجالاً للتردد عن المضي في طريقه.

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبداً..

وعند هذا الحد من التحدي بقوة الله، وإبراز هذه القوة في صورتها

الظاهرة الحاسمة، يأخذ هود في الإنذار والتوعيد

﴿فإن تولَّوا فقد أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم﴾ [هود: ٥٧]..

فأدّيت واجبي لله، ونفضت يدي من أمركم لتواجهوا قوة الله سبحانه.

﴿ويستخلف ربِّي قوماً غيركم﴾..

يليقون بتلقي دعوته ويستقيمون على هدايته بعد إهلاككم ببغيكم وظلمكم وانحرافكم.

﴿ولا تضرُّونه شيئاً﴾..

فما لكم به من قوة، وذهابكم لا يترك في كونه فراغاً ولا نقصاً..

﴿إنَّ ربِّي على كل شيء حفيظ﴾ [هود: ٥٧].

يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هرباً!

وكانت هي الكلمة الفاصلة. وانتهى الجدل والكلام. ليحق الوعيد والإنذار..

- ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه، وأمام تلك المفاصلة التي قذف بها في وجوههم في حسم كامل، وفي تحدٍّ سافر، وفي استعلاء بالحق الذي معه، وثقة في ربه الذي يجد حقيقته في نفسه بينة

﴿قال: إنِّي أُشهد الله، واشهدوا أنِّي بريءٌ ممَّا تشركون من دونه. فكيدوني جميعاً ثمَّ لا تنظرون. إنِّي توكَّلت على الله ربِّي وربكم، ما من دابة إلَّا هو آخذ بناصيتها، إنَّ ربِّي على صراط مستقيم. فإن تولَّوا فقد أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم، ويستخلف ربِّي قوماً غيركم ولا تضرُّونه شيئاً، إنَّ ربِّي على كل شيء حفيظ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٧].

إنَّ أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلاً أمام هذا المشهد الباهر. رجل واحد، لم يؤمن معه إلَّا قليل، يواجه أعتى أهل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة

مدنية في زمنهم، كما جاء عنهم في قول الله تعالى فيهم حكاية عمّا واجههم به أخوهم هود في سورة الشعراء:

﴿كذبت عاد المرسلين. إذ قال لهم أخوهم هود: ألا تتّقون؟﴾..

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة؛ والذين أبطرتهم النعمة؛ والذين يقيمون المصانع يرجون من ورائها الامتداد والخلود!.. هؤلاء هم الذين واجههم هود - عليه السّلام - هذه المواجهة في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه؛ وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة - وهم قومه - وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال. وأن يفعلوا ما في وسعهم فلا يباليهم بحال!

لقد وقف هود - عليه السّلام - هذه الوقفة الباهرة، بعدما بذل لقومه من النصح ما يملك؛ وبعد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد.. ثم تبيّن له عنادهم وإصرارهم على محادّة الله وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على الله..

لقد وقف هود - عليه السّلام - هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطرين إنما هم من الدواب! وهو مستيقن أنه ما من دابة إلّا وربه آخذ بناصيتها؛ فعيم يحفل إذن هؤلاء الدواب؟! وأنّ ربه هو الذي استخلفهم في الأرض، وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقدرة على التصنيع والتعمير! للابتلاء لا لمطلق العطاء. وأنّ ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء، ولا يضرونه شيئاً، ولا يردون له قضاء.. فعيم إذن يهوله شيء ممّا هم فيه، وربه هو الذي يعطي ويسلب حيث شاء كيف شاء؟.

إنّ أصحاب الدعوة إلى الله لا بد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم.. أمام القوة المادية. وقوة الصناعة. وقوة

المال. وقوة العلم البشري. وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات.. وهم مستيقنون أن ربهم آخذ بناصية كل دابة؛ وأن الناس - كل الناس - إن هم إلا دواب من الدواب!

وذات يوم لا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة؛ فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان.. أمة تدين لله وحده وترفض الدينونة لسواه. وأمة تتخذ من دون الله أرباباً، وتحادّ الله!

ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه، والتدمير على أعدائه - في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال - ففي تاريخ الرسل والدعوة إلى الله على مدار التاريخ! لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصل أولياؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختاروا الله وحده.. وكانوا هم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصراً سواه.

واستعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحق، بل فراراً من تدبر تفاهة الباطل الذي هم له عبيد، وقالوا لنبيهم الناصح الأمين

﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ [الأعراف: ٧٠]..

ومن ثم كان الجواب حاسماً وسريعاً في رد الرسول:

﴿قال: قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب.﴾ [الأعراف: ٧١﴾..

لقد أبلغهم العاقبة التي أنبأه بها ربه، والتي قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص. إنه العذاب الذي لا دافع له، وغضب الله المصاحب له.. ثم جعل بعد هذا التعجيل لهم بالعذاب الذي استعجلوه؛ يكشف لهم عن سخافة معتقداتهم وتصوراتهم:

﴿أتجادلونني في أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان؟﴾ [الأعراف: ٧١]..

إنَّ ما تعبدون مع الله ليس شيئاً ذا حقيقة! إنها مجرد أسماء أطلقتموها أنتم وآباؤكم، من عند أنفسكم. لم يشرّعها الله ولم يأذن بها، فما لها إذن من سلطان ولا لكم عليها من برهان.

والتعبير المتكرر في القرآن: ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ .. هو تعبير موحٍ عن حقيقة أصيلة. إنَّ كل كلمة أو شرع أو عرف أو تصور لم ينزله الله، خفيف الوزن، قليل الأثر، سريع الزوال. إنَّ الفطرة تتلقى هذا كله في استخفاف. فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق، بما فيها من سلطان الله الذي يودعها إياه.

وكم من كلمات برّاقة، وكم من مذاهب ونظريات، وكم من تصورات مزوقة. وكم من أوضاع حشدت لها كل قوى التزيين والتمكين .. ولكنها تتهاوى أمام كلمة من الله، فيها من سلطانه ـ سبحانه ـ سلطان!

وفي ثقة المطمئن، وقوة المستمسك، يواجه هود قومه بالتحدي:

﴿فانتظروا، إنّي معكم من المنتظرين﴾ [الأعراف: ٧١].

إنَّ هذه الثقة هي مناط القوة التي يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله. إنه على يقين من هزال الباطل وضعفه، وخفة وزنه مهما انتفش واستطال. كما أنه على يقين من سلطان الحق الذي معه وقوته بما فيه من سلطان الله.

وبعد هذا الجدل الطويل بين هود وقومه، يمضي القرآن إلى النهاية المقصودة رداً على التحدي والاستعجال.

﴿فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا: هذا عارض ممطرنا. بل هو ما استعجلتم به: ريح فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء بأمر ربها، فأصبحوا لا يرى إلاَّ مساكنهم. كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥].

وتقول الروايات: إنّه أصاب القوم حرّ شديد، واحتبس عنهم المطر، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف. ثمّ ساق الله إليهم سحابة، ففرحوا بها فرحاً شديداً، وخرجوا يستقبلونها في الأودية، وهم يحسبون فيه الماء:

﴿قالوا: هذا عارض ممطرنا﴾. لقد توقعوا الري والحياة، فإذا بها تحمل الهلاك والدمار والعذاب الذي ستعجلوه به وطلبوه. وجاءهم الرد بلسان الواقع: ﴿بل هو ما استعجلتم به: ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها﴾. وهي الريح الصرصر العاتية كما جاء في صفتها: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلّا جعلته كالرميم﴾ [الذّاريات: ٤٢].

لقد أذن الله للظلم أن يتداعى ركنه ويزول فكان الانتقام العادل من الله القوي القادر وتلك سنة الله في خلقه:

﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة. فأمّا ثمود فأُهلكوا بالطاغية. وأمّا عاد فأُهلكوا بريح صرصر عاتية. سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية؟﴾ [الحاقّة: ٤ - ٨].

ويفصل القرآن في أمر نكبة عاد ويطيل، فقد استمرّت وقعتها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. والريح كانت شديدة قاسية باردة والنعت ذاته فيه صرصرة الريح. وزاد شدتها بوصفها «عاتية». لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكيّ في القرآن، وقد كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت. وكانوا أشداء بطّاشين جبارين.

هذه الريح الصرصر العاتية ﴿سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ [الحاقّة: ٧].

والحسوم: القاطعة المستمرة في القطع. والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزمجرة المدمرة المستمرة في هذه الفترة الطويلة.

ونمضي مع القرآن الكريم في خوف وهلع وهو يصف العذاب

الوصف الخاطف الرعيب: ﴿إِنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

والريح الصرصر. الباردة العنيفة. وجرس اللفظ يصور نوع الريح

والنحس: الشؤم وأي نحس يصيب قوماً أشد مما أصاب عاد. والريح تنزعهم وتجذبهم وتحطمهم فتدعهم كأنهم أعجاز نخل مهشمة مقلوعة من قعورها؟!

والمشهد مفزع مخيف، وعاصف عنيف. والريح التي أرسلت على عاد «هي من جند الله» وهي قوة من قوى هذا الكون، من خلق الله، تسير وفق الناموس الكوني الذي اختاره؛ وهو يسلطها على من يشاء، بينما هي ماضية في طريقها مع ذلك الناموس، فلا تعارض بين خط سيرها الكوني، وأدائها لما تؤمر به وفق مشيئة الله صاحب الأمر وصاحب الناموس.

الحقيقة الكونية:

والريح كغيرها من القوى الكونية مسخرة بأمر ربها، ماضية تؤدي ما قدره لها في نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله. ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريده الله بها. المسخر لها من قوى الكون ما أراد الله تسخيره لها. وحين يتحرك البشر فإنما يؤدون دورهم في هذا الوجود، ليتم ما أراده الله بهم وفق ما يريد. وحرية إرادتهم في الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلي ينتهي إلى التناسق الكوني العام. وكل شيء مقدر تقديراً لا يناله نقص ولا اضطراب.

والريح قوة دائبة العمل، وفق النظم الكوني الذي قدره الله، وهو يسلطها حين يسلطها للتدمير وهي ماضية في طريقها الكوني، تعمل وفق الناموس المرسوم فلا حاجة لخرق النواميس الكونية ـ كما يعترض المعترضون واهمين ـ فصاحب الناموس المرسوم هو صاحب القدر المعلوم.

وكل حادث وكل حركة، وكل اتجاه، وكل شخص، وكل شيء محسوب حسابه، داخل في تصميم الناموس.

ونمضي في معرض الآيات في تاريخ المرسلين

﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلاَّ جعلته كالرميم﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

وسمِّيت الريح التي أرسلت على عاد عقيماً لأنها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا. إنَّما تحمل الموت والدمار. وتترك كل شيء تأتي عليه كالميت الذي رمَّ وتحول إلى فتات!

والريح قوة من قوى هذا الكون. وجند من جند الله(1). وما يعلم جنود ربك إلَّا هو. يرسلها - في إطار مشيئته وناموسه - في صورة ما من صورها، في الوقت المقدر، على من يريد، بالهلاك والدمار، أو بالخير والحياة - ولا مكان في مثل هذه المواضع للاعتراض السطحي الساذج، بالقول بأن الريح تجري وفق نظام كوني؛ وتهب هنا أو هناك تبعاً لعوامل طبيعية. فالذي يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه العوامل هو الذي يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تدبيره وتقديره. وهو قادر على أن يسلطها كما يريد في إطار النظام الذي قدره والعوامل التي جعلها. ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض ﴿إنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنَّهم أعجاز نخل منقعر﴾ [القمر: ١٩، ٢٠]..

والنص القرآني يصور الريح حيَّة مدركة مأمورة بالتدمير.. وهي

---

(١) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلكت عادٌ بالدَّبور» أخرجه البخاري (٤١٠٥) وابن حبان في صحيحه بعد تخريجه في الإحسان رقم (٦٤٢١).
الصَّبا: هي الريح الشرقية، والدَّبور: الريح الغربية. قال الحافظ في الفتح ٢/٥٢١: الصَّبا يقال لها القَبول بفتح القاف لأنها تقابل باب الكعبة، إذ مهبها من مشرق الشمس، وضدها الدَّبور، وهي التي أهلكت بها قوم عاد، ومن لطيف المناسبة كون القبول نصرت أهل القبول، وكون الدبور أهلكت أهل الإدبار، وأن الدبور أشد من الصبا

حقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس. فهذا الوجود حي. وكل قوة من قواه واعية وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه. والإنسان أحد هذه القوى. وحين يؤمن حق الإيمان، ويتفتح قلبه للمعرفة الواصلة، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله، وأن يتحاور معها، وأن تتجاوب معه، تجاوب الأحياء المدركة، بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك(١). ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق. والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار.

وقد أدّت الريح ما أُمرت به، فدمرت كل شيء ﴿**فأصبحوا لا يُرى إلاّ مساكنهم**﴾ [الأحقاف: ٢٥]..

ويعرض القرآن المشهد المفجع الموجع بعد الريح العاصفة المهلكة القاضية. يعرض المشهد بعدها شاخصاً ﴿**فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية**﴾ [الحاقّة: ٧]..

---

(١) عن أبي حميد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «... وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه» رواه مسلم (١٣٩٢). وفي رواية عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه» رواه مسلم (١٣٩٣) وفي رواية عن أنس قال: نظر رسول الله ﷺ إلى أحد فقال: «إن أحد جبل يحبنا ونحبه».

وعن سهل بن سعد أن أحداً ارتجّ وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقال النبي ﷺ: «اثبت أحد، فما عليك إلا نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان».

إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله رجال الصحيح غير علي ابن المديني، فمن رجال البخاري. وعلقه البخاري في «التاريخ الكبير» ٧٨/٤، وأخرجه أحمد في «المسند» ٣٣١/٥، وفي «فضائل الصحابة» (٢٤٧)، وأبو يعلى ١/٣٥١، والبيهقي في «دلائل النبوة» ٣٥١/٦، والبغوي (٣٩٠٢)، وذكره الحافظ في «الفتح» من رواية أبي يعلى وصححه، وأورده الهيثمي في «المجمع» ٩/٥٥، وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، وابن حبان، انظر الإحسان (رقم ٦٤٩٢).

فترى.. فالمطر معروض تراه، والتعبير يلح عليه على نحو حتى يتملاه!.. ﴿صرعى﴾.. مصروعين مجدلين متناثرين ﴿كأنهم أعجاز نخل﴾ بأصولها وجذوعها ﴿خاوية﴾ فرعه تآكلت جوانبها وارتمت ساقطة على الأرض هامدة!

إنه مشهد حاضر شاخص. مشهد ساكن كئيب بعد العاصفة المزمجرة المدمرة ﴿فهل ترى لهم من باقية؟﴾.. لا! فليس لهم من باقية!!! فقد تناثرت أشلاؤهم، ثم طواها الفناء، وابتلعها الهلاك ﴿فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم﴾..

أمّا هم وأمّا أنعامهم وأمّا أشياؤهم وأمّا متاعهم فلم يعد شيء منه يُرى. إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة، لا ديار فيها ولا نافخ نار. ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾. سنة جارية وقدر مُطّرد ﴿فكذّبوه فأهلكناهم﴾.. وفي كلمتين اثنتين ينتهي الأمر؛ ويطوى قوم عاد الجبارون؛ وتطوى مصانعهم التي يتخذون، ويطوى ما كانوا فيه من نعيم من أنعام وبنين وجنات وعيون!

أمّا هود ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا، وقطعنا دابر الذين كذّبوا بآياتنا، وما كانوا مؤمنين﴾ [الأعراف: ٧٢]. وهكذا لما جاء أمر الله لتحقيق الوعيد، وإهلاك قوم هود، نجّى هوداً والذين آمنوا معه: ﴿ولمّا جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجّيناهم من عذاب غليظ﴾ [هود: ٥٨]..

نجّينا هوداً ومن معه برحمة مباشرة منا، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم، واستثنتهم من أن يصيبهم سوء. وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حلّ بالمكذبين. فهو المحق الكامل الذي لا يتخلف منه أحد، وهو ما عبر عنه بقطع الدابر ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ [الأعراف: ٧٢]. والدابر هو آخر واحد في الركب يتبع أدبار القوم!

ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم، يتسق مع الجو، ومع القوم الغلاظ العتاة.

العُجب المرذول :

وبعد فالقرآن الكريم يعرض مصرع عاد، عندما كذبوا بالنذير: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد. فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب؟ إنَّ ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ٦، ١٤]..

وصيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات. والخطاب للنبيّ ﷺ ابتداء ثمّ هو لكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر في مصارع أولئك الأقوام، وكلها ممّا كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه، وممّا تشهد به الآثار والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة، وإضافة الفعل إلى «ربك» فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة. وبخاصة أولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة، وعسف الجبارين من المشركين، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد.

وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم مصرع «عاد إرم» وهي عاد الأولى وقيل: إنها من العرب العاربة أو البائدة وكان مسكنهم الأحقاف وهي كثبان الرمال. في جنوبي الجزيرة بين حضرموت واليمن.

وكانوا بدواً ذوي خيام تقوم على عمد. وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها وأميزها: ﴿التي لم يُخلق مثلها في البلاد﴾ في ذلك الأوان..

﴿فأمّا عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق. وقالوا: من أشدّ منا قوة؟﴾ [فصِّلت: ١٥]..

إن الحق أن يخضع العبد لله، وألا يستكبروا في الأرض، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله. فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق. استكبروا واغتروا: «وقالوا: من أشد منا قوة؟»

وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة. الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم. وينسون: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟﴾..

إنها بديهية أولية.. إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة. لأنه هو الذي مكّن لهم في هذا القدر المحدود من القوة. ولكن الطغاة لا يذكرون:

﴿وكانوا بآياتنا يجحدون﴾..

وبينما هم في هذا المشهد يعرضون عضلاتهم! ويتباهون بقوتهم إذ المشهد التالي في الآية التالية هو المصرع المناسب لهذا التبجح المرذول:

﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات، لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ [فصّلت: ١٦]

إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحس عليهم. وإنه الخزي في الحياة الدنيا. الخزي اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد..

ذلك في الدنيا.. وليسوا بمتروكين في الآخرة:

﴿ولعذاب الآخرة أخزى. وهم لا ينصرون﴾ [فصّلت: ١٦]..

لقد أخبر القرآن عن تكذيب عاد ﴿كذّبت عاد، فكيف كان عذابي ونُذر؟..﴾ [القمر: ١٨]..

ويسأل سؤال التعجيب والتهويل: ﴿فكيف كان عذابي ونُذر؟﴾..

كيف كان بعد تكذيب عاد؟ والمشهد هو الجواب. مشهد التعذيب العنيف، والمصرع الرهيب المخيف. وهكذا طويت صفحة أُخرى من

صحائف المكذبين. وتحقق التدمير مرة أُخرى بعد إذ لم ينفع التذكير ﴿فكذَّبوه فأهلكناهم﴾ ... ﴿إنَّ في ذلك لآية﴾ [الشعراء: ١٣٩]

وكم من أُمَّة بعد عاد ظلَّت تفكر على هذا النحو، وتغتر هذا الغرور، وتبعد عن الله كلَّما تقدمت في الحضارة. تحسب أنَّ الإنسان قد أصبح في غنية عن الله، متى أُوتوا المال والقوة. وراحوا يشعرون أنَّ المال والقوة هما القيمة العليا في الحياة، القيمة التي تهون أمامها جميع القيم والأقدار: أقدار البشر، وأقدار المعاني، وأقدار الحقائق. وأنَّهم وقد ملكوا هذه القيمة فقد ملكوا كل شيء وقالوا: ﴿من أشد منَّا قوة﴾؟!

كما راحوا يحسبون أنَّ هذه القيمة التي ملكوها إله قادر على كل شيء، لا يعجز عن فعل شيء، حتى دفع الموت وتخليد الحياة. ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك في نظرهم حساب وجزاء!

ومن ثمَّ انطلقوا في هوس هذه القوة يستعرضون شكائمهم، وتنطلق في كبرهم نفخة فاجرة، تدفعهم إلى الاستهانة بكل شيء فيما ينتحلون من أسباب الدمار لغيرهم، والتوقية لأنفسهم، ما يحسبون واقياً لهم من أعدائهم.. ثمَّ يصبحون ويمسون وإذا العذاب يصبُّ عليهم من فوقهم ومن تحتهم عن أي طريق.. ﴿إنَّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإنَّ ربَّك لهو العزيز الرَّحيم﴾ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠]..

لعنة وطرد وهلاك:

والآن وقد هلكت عاد. يُشار إلى مصرعها إشارة البعد، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب، وتُشيَّع باللعنة والطرد، في تقرير وتكرار وتوكيد.

﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد. واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إنَّ عاداً كفروا ربهم. ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ [هود: ٥٩، ٦٠]..

﴿وتلك عاد﴾.. بهذا البعد. وكان قد ذكرهم منذ لحظة في السياق، وكان مصرعهم معروضاً على الأنظار. ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار..

﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾..

وهم عصوا رسولاً واحداً. ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعاً؟ فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصى الرسل جميعاً. ولا ننسى أنَّ هذا الجمع في الآيات وفي الرسل مقصود من ناحية أسلوبية أخرى لتضخيم جريمتهم وإبراز شناعتها. فهم جحدوا الآيات، وهم عصوا رسلاً. فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة!

﴿واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد﴾..

أمر كل متسلط عليهم، معاند لا يسلم بحق. وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين، ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم، ولا يكونوا ذيولاً فيهدروا آدميتهم.

وهكذا يتبين أنَّ القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد. كانت هي قضية الحاكمية والاتباع. كانت هي قضية: من الرب الذي يدينون له ويتبعون أمره؟ يتجلى هذا في قول الله تعالىٰ:

﴿تلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله، واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد﴾..

فهي المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين! والإسلام هو طاعة أمر الرسل ـ لأنَّه أمر الله ـ ومعصية أمر الجبارين. وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان.. في كل رسالة وعلى يد كل رسول.

وهكذا يتبين أنَّ دعوة التوحيد تصر أول ما تصر على التحرر من

الدينونة لغير الله؛ والتمرد على سلطان الأرباب الطغة؛ وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية، واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة..

لقد خلق الله النّاس ليكونوا أحراراً لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه، ولا ينزلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا جبار. فهذا مناط تكريمهم. فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة.

وما يمكن لجماعة من البشر أن تدّعي الكرامة، وتدّعي الإنسانية، وهي تدين لغير الله من عباده. والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد وحاكميتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين فهم كثرة والمتجبرون قلة. ولو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل في النفس والعرض والمال

لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد.. هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة:

﴿وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة﴾..

ثمّ لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم في إعلان عام وتنبيه عال:

﴿ألا إنّ عاداً كفروا ربهم﴾..

ثمّ يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد:

﴿ألا بُعداً لعاد قوم هود﴾..

بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد. كأنّما يحدد عنوانهم للعنة المرسلة عليهم حتى تقصدهم قصداً.

ونقف وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه.

إنّ استعراض خط سير دعوة الرسل إنّما يجيء في القرآن الكريم لرسم معالم الطريق في خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون.. ليس

فقط في ماضيها التاريخي، ولكن في مستقبلها إلى آخر الزمان. وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التي تلقت هذا القرآن أول مرة. وتحركت به في وجه الجاهلية يومذاك؛ ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان.. وهذا ما يجعل هذا القرآن كتاب الدعوة الإسلامية الخالد، ودليلها في الحركة في كل حين.

لقد وقف قوم عاد من رسولهم وأخيهم - عليه السلام - موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمد ﷺ واعترضوا اعتراضاتهم، وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة في حدود بشريته وحدود وظيفته. ثم أخذهم ما أخذهم من العذاب المدمر، حين لم يسمعوا النذير. فلم تغن عنهم قوتهم - وكانوا أقوى - ولم يغن عنهم ثراؤهم وكانوا - أغنى - ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم - وكانوا أذكياء - ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوهم تقرباً - بزعمهم - إلى الله. ﴿فترى القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾. ﴿فهل ترى لهم من باقية؟﴾

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين، يلمس قلوبهم بما يرتعش منه القلوب:

﴿ولقد مكنّاهم فيما إن مكنّاكم فيه. وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة. فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء. إذ كانوا يجحدون بآيات الله. وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [الأحقاف: ٢٦]..

هؤلاء الذين دمرتهم الريح المأمورة بالتدمير. مكناهم فيما لم نمككم فيه.. إجمالاً.. من القوة والمال والعلم والمتاع. وآتيناهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة - والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل. وكلها تعني الإدراك في صورة من صوره - ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء. إذ إنهم عطلوها وحجبوها ﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾..

والجحود تأتي لله يطمس الحواس والقلوب، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.. من العذاب والبلاء..

والعبرة التي يفيدها كل ذي سمع وبصر وقلب، ألا يغتر ذو قوة بقوته، ولا ذو مال بماله، ولا ذو علم بعلمه. فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع، فتدمر كل شيء، وتتركهم ﴿لا يُرى إلا مساكنهم﴾ حين يأخذهم الله بسنته التي يأخذ بها المجرمين.

﴿إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق: ٣٧]..

ففي مصارع الغابرين ذكرى. ذكرى لمن كان له قلب. فمن لا تذكره هذه المصارع فهو الذي مات قلبه أو لم يرزق قلبًا على الإطلاق! لا. بل إنه يكفي للتذكر والاعتبار أن يكون هناك سمع يلقى إلى القصة بإنصات ووعي. فتفعل القصة فعلها في النفوس. وإنه لنحو النفس البشرية شديد الحساسية بمصارع الغابرين، وأقل يقظة فيها وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات والتصورات الموحية في مثل هذه المواقف المؤثرة المثيرة.

لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة إلى الله، ويشهدها في الوقت ذاته، وكان هو السلاح الماضي الذي يدمر كيد الكائدين، ويزلزل قلوب الأعداء، ويثبت أرواح المؤمنين. [illegible] في حمية لله - سبحانه - [illegible] على المكذبين المشركين [illegible] عليهم بعد العناد والتبجح [illegible] يكذبون كذبتهم﴾ [الشعراء: [illegible]]

[illegible]

المؤمنين و ستعلائهم على كيد الجاحدين وظلم المفسدين وعتو المتكبرين

هذا هو حديث مرجحس في قصص القرآن عن عاد الذين غرتهم قوتهم، والقوة قد تغرّ كثيراً من الناس فتعميهم وتصمهم عن الحق وسنة الله التي جرت واستقرت في هذه الحياة أن يقصم كل أولئك الخارجين عن الحقّ أيًا كانت قوتهم وهويتهم ﴿سُنَّةَ الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢]..

فهو أمر يمضي وفق سنة الله التي لا تتبدل . وأمر الله قدراً مقدوراً. فهو نافذ مفعول، لا يقف في وجهه شيء ولا أحد. وهو مقدر بحكمة وخبرة ووزن..

وفي هذه القصة اية أخرى في عاد في معرض الآيات في تاريخ المرسلين.. فقد عتوا واستكبروا وعتوا وتبجحوا بشدتهم وقوة سطوتهم. فأصبح البطش طبيعتهم، وانتحر دينهم فلم تزداد قلوبهم من إنذار الرسول إلاّ قسوة وغلظة.. فهم أبعد ما يكونون عن أن يتأثروا بنصح ناصح، أو برقة واعظ. لقد أعمتهم القوة وزادتهم غطرسة وقسوة . ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾..

فماذا كان؟

إنّها سنة الله ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [فاطر: ٤٣]..

وهؤلاء المتكبرون في كل زمان ومكان ماذا ينتظرون؟! إنّهم لا ينتظرون إلاّ أن يحل بهم ما حلّ بالمكذبين من قبلهم، وهو معروف لهم، وإلاّ أن تمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد.. فالأمور لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول، والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة، محصورين في فترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود بالمكان

فليطمئن المؤمنون فالله سبحانه ـ معهم يسمع ويرى .. يسمع تكذيب المتكبرين .. ويرى بطش المتجبرين .. إنه يرى كل شيء وبيده كل شيء.. يرى.. والرؤية ما بعدها! ﴿ألم يعلم بأنَّ الله يرى﴾ [العلق: ١٤]..

ولا بد من وَقْفَة مُطْمئِنة أمام شخصية هود ـ عليه السَّلام ـ هذا النبيّ الكريم الذي كان يواجه قوماً وصفهم القرآن في سورة الفجر ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرَم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ . كان هود يواجه قوماً قد ملأت الغطرسة قلوبهم بما وُهبوا من القوة والشدة حتى قالوا: ﴿من أشدُّ منا قوة؟﴾.. كان هود يواجه قوماً متعالين متجاحرين لا يردعهم رادع فأصبح البطش طبيعتهم، والتجبر ديدنهم فلا تزداد قلوبهم إلَّا كبرياءً وقسوة.

كانت شخصية هود نموذج الرجل القوي الحازم الحكيم، فقد أنذر وبشَّر وسلك مع قومه سبيل الرشد. وسُبل الحكمة لتشذيب هذه القسوة المتغطرسة المتعجرفة فهو هو ذا يقول لهم ﴿استغفروا ربكم ثُمَّ توبوا إليه يُرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوةً إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾، فهو كما نرى قد لامَسَ كبرياءهم بلطف ورحمة فهم الأقوياء الأشداء.. آمِنوا بربكم ﴿يزدكم قوة إلى قوتكم﴾..

ثمَّ سلك هود طريقاً قصداً إلى قلوبهم، فضرب لهم المثل بما أصاب من قبلهم، فذكَّرهم بقوم نوح وما وقع منهم من عناد ومكابرة، وإصرار على الزيغ والضلال، وكيف دمَّر عليهم حياتهم وأغرقهم وطهَّر الأرض من بغيهم وتجبرهمواستكبارهم..

ولكنَّ العتاة المغرورين بالقوة المستبدين، المتجبرين، قابلوا الحكمة والتلطف بالسخرية والاستهزاء والتعالي فقالوا: ﴿إنَّا لنراك في سفاهة﴾. وبرى الحكمة الحازمة في قوله ببساطة: ﴿ينا قوم ليس بي سفاهة، ولكنِّي

رسول من رب العالمين﴾ . .

ولكنَّ القوم قد ركبوا متن الشطط، وجاوزوا كل حد معقول فهم يتعجلون نقمة الله وعذابه ﴿فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصَّادقين﴾، وهو تحدٍّ يكشف عمّا تنطوي عليه نفوسهم من جهل واستهتار وعنت وطغيان.

هنا نرى هود يتحداهم .. يتحداهم بالقوة والخشونة، تدفعه ثقته بربه .. ها هو ذا فرد يقابل القوم الغلاظ الشداد .. ها هو ذا يقتحم عليهم قوتهم التي تحصنوا بها .. فما يتريث ولا يني. وإنما يمضي منفعلاً بالحق الذي يركن إليه ﴿فكيدوني جميعاً ولا تنظرون﴾ .

لا تمهلوني. فلا أبالي بقوتكم وجمعكم، ولا أخاف بطشكم. فكيدوني كيداً، أو اجمعوا بي بطشاً .. ها هو ذا يسمعهم بربه: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ .. وربي قوي قاهر اسمه في قبضته ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ ..

إن قصة هود وقفة مُطْمئنة ومعلم شامخ يعلو في الوجدان الإنساني فوق موجات الظلم والبطش الذي يمارسه الطغاة على العصبة المسلمة في كل زمان ومكان .. إنه معلم يلامس [illegible] المؤمنة فتمتلئ بالإيمان والثقة بالرحمن وهي تواجه الطغيان المتجبر والقوى الغاشمة بشدتها وبطشها. ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه. إن الله بالغ أمره﴾

فالتوكل على الله توكل على قدرة القادر وقوة القاهر الفعال لما يريد. [illegible] والنص عام والمقصود به هو إنشاء التصور الإيماني الصحيح في النفس. بالنسبة لإرادة الله وقدره ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ فكل شيء مقدر بمقداره، وزمانه، ومكانه، وملابساته، ونتائجه وأسبابه. وليس شيء مصادفة، وليس شيء جزافاً. في هذا الكون [illegible] الإنسان وحياته [illegible] حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب [illegible] من التصور الإيماني.

قصة صالح ـ عليه السَّلام

المحتوى	ص
ـ تقديم	٧٣٦
ـ صَفحة أخرى ورواية واحدة	١٤٣
ـ الكبرياء الجوفاء	٧٤٧
ـ القُلوب الجاسية والمعجزة الخارقة	١٥٢
ـ فساد عريض وعذاب قريب	٧٥٧
ـ تدبير وتدمير	١٦٣

صالح عليه السَّلام

تقديم

ورثت ثمودُ عاداً كما ورثت عادٌ أمَّة نوح. وكانت ثمودُ على أثر عاد..

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعـد عاد وبـوّأكم في الأرض تـتّخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسـدين﴾ [الأعراف: ٧٣، ٧٤]..

وثمود كانت القبيلة التي خلفت عاداً في القوة والتمكين في جـزيرة العرب. كانت عاد في الجنوب. وكانت ثمود في الشمال. وكذبت ثمود بالنذر كما كذبت عاد، غير معتبرة بمصرعها المشهور المعلوم في أنحاء الجزيرة: ﴿كذّبت ثمود بالنذر. فقالوا: أبشراً منا واحداً نتبعهُ؟ إنّا إذاً لفي ضلال وسُعُر. أأُلقي الذكر عليه من بيننا؟ بل هو كذاب أشِر. سيعلمون غداً من الكـذاب الأشِر. إنّـا مرسلو النـاقة فتنـة لهم فارتقبهم واصـطبر..﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٢٧]..

وكانت ثمود تسكن مدائن الحِجْر في شمالي الجزيرة العربية بين تبوك والمدينة. وبلغت في زمانها أقصى القـوة والمنعة والـرزق والمتاع، وقـد قطعت الصخر وشيدته قصوراً، كما نحتت في الجبال ملاجىء ومغارات.. واشتهر قوم صالح ـ ثمود ـ أنّهم أصحاب الحِجْر، والحِجر معروفة معروضة

بين الحجاز والشام إلى وادي القرى(١) وهي ظاهرة إلى اليوم. فقد نحتوها في الصخر في ذلك الزمان البعيد، ممَّا يدل على القوة والأيد والحضارة. وقد خلفوا عاداً في الشدة والقوة والتمكين في الأرض، فخلفوهم فيها، وعمروها أكثر ممّا عمروها، ونحتوا من الجبال بيوتاً، ليأمنوا مصائب الدهر، ونوائب الحدثان. وكانوا يتقلبون في ترف من العيش، وبحبوحة من الرزق والنعمة، وفاقوا الأقدمين في العقل والصناعة. وقد فتح الله على ثمودَ بركات من السماء والأرض، فقد فتح عليهم أبواب كل شيء.

ولكن كل ذلك لم يحمل ثمود على الشكر وعبادة الله. وكان هؤلاء ممَّن حقت عليهم كلمة الله، بما عتوا عن أمر الله، واختاروا الوثنية على التوحيد، والدينونة للعبيد على الدينونة لله.

وبعث الله إليهم رسولاً منهم ينذرهم ويردهم إلى سواء الصراط المستقيم، ولكنهم كذبوا رسول رب العالمين شرَّ تكذيب ﴿**ولقد كذَّب أصحاب الحجْر المرسلين**﴾ [الحجر: ٨٠].

وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح، ولكن صالحاً ليس إلَّا ممثلاً للرسل أجمعين؛ فلمَّا كذبه قومه قيل: إنهم كذبوا المرسلين، توحيداً للرسالة والرسل والمكذبين في كل أعصار التاريخ، وفي كل جوانب الأرض، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام... ﴿**كذّبت**

---

(١) لم يعين القرآن الكريم موضع منازل ثمود، وإنما يفهم من آية ﴿**وثمود الذين جابوا الصخر بالواد**﴾ أن مواضعهم كانت في مناطق جبلية أو في هضاب ذات صخور.
وقد ذكر بعض المفسرين كالزمخشري في الكشاف، والطبري في تفسيره، في تفسير هذه الآية أنهم كانوا يقطعون صخور الجبال وينحتون منها بيوتاً، وأن [الواد] هو وادي القرى، فتكون مواضع ثمود في هذه الأماكن.
وقد عين أكثر الرواة [الحجر] على أنها ديار ثمود وهي قرية بوادي القرى. وقد زارها بعض الحجاج والمسلمين وعلماء البلدان والسياح وذكروا أن بها بئراً تسمى بئر ثمود.
(انظر تاريخ الطبري ج ١ ص ١١٨، وتاريخ الأنبياء ص ٨٧ ـ ٨٨)

ثمود المرسلين، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتَّقون؟ إنِّي لكم رسول أمين، فاتَّقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلَّا على ربِّ العالمين. أتتركون في ما ههنا آمنين. في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين فاتَّقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يُصلحون﴾ [ثمود: ١٤١ - ١٥٢] .

إنَّها ذات الدعوة بألفاظها يدعوها كل رسول. ويوحد القرآن عن قصد حكاية العبارة التي يلقيها كل رسول على قومه للدلالة على وحدة الرسالة جوهراً ومنهجاً، في أصلها الواحد الذي تقوم عليه. وهو الإيمان بالله وتقواه، وطاعة الرسول الآتي من عند الله.

ويذكرهم أخوهم صالح بما هم فيه من نعمة ويخوفهم سلب هذه النعمة، كما يخوفهم ما بعد المتاع من حساب على ما كان من تصرفهم فيه:

﴿أتتركون فيما ههنا آمنين في جنَّات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين؟﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩]

وإنَّهم ليعيشون بين هذا المتاع الذي يصوره لهم أخوهم صالح. ولكنهم يعيشون في غفلة عنه لا يفكرون فيمن وهبهم إياه، ولا يتدبرون منشأه ومأتاه، ولا يشكرون المنعم الذي أعطاهم هذا النعيم. فيأخذ رسولهم في تصوير هذا المتاع لهم ليتدبروه ويعرفوا قيمته، ويخافوا زواله

وفيما قاله لهم لمسات توقظ القلوب الغافية، وتنبه فيها الحرص والخوف: ﴿أتتركون فيما ههنا آمنين؟﴾..

أتظنون أنكم متركون لهذا الذي أنتم فيه من دعة ورخاء ومتعة ونعمة.. وسائر ما يتضمَّنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم.. أتتركون في هذا كله آمنين لا يروعكم فوت، ولا يزعجكم سلب، ولا يفزعكم تغيير؟

أتتركون في هذا كله من جنات وعيون، وزروع متنوعات، ونخل

حيدة الطبع، سهلة الهضم حتى كأنَّ جناها مهضوم لا يحتاج إلى جهد في البطون! وتتركون في البيوت تنحتونها في الصخور بمهرة وبراعة، وفي أناقة وفراهة؟

وبعد أن يلمس قلوبهم هذه اللمسات الموقظة يناديهم إلى التقوى، وإلى الطاعة، وإلى مخالفة الملأ الجائرين عن الحق والقصد، الميالين إلى الفساد والشر.

﴿فاتّقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

ولكن هؤلاء كانوا من الذين طغوا في البلاد... وليس وراء الطغيان إلاّ الفساد. فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة. ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنَّه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنَّه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون... ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادّعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد.

ثمَّ هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، معهالسخط الدفين والحقد الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية.

والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة. وميداناً للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك. وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد..

ثمّ هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة. لأنها خطر على الطغاة والطغيان. فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة.. وهو فساد أي فساد..

وهكذا مضى رسول الله إلى ثمود ـ صالح عليه السلام ـ مبشراً ومنذراً، ومرغباً ومحذراً. ولكنهم تمادوا في الضلال وعتوا عن أمر ربهم وبيّتوا الشر لصالح، وأضمروا له ولأهله القتل. ولكن الله أحبط مكرهم. وردّ إليهم كيدهم، وأنزل بالكافرين عقابه، فأخذتهم الصاعقة بصلفهم، فأصبحوا في ديارهم جاثمين.. لم يمنعهم من الله مانع.. لم يمنعهم ما شادوا من قصور شامخة، وما جمعوا من أموال وفيرة، وغرسوا من جنات واسعة، ونحتوا من بيوت آمنة. وأتاهم العذاب فإذا هم صرعى، جثثهم هامدة، وديارهم خاوية.

وقد أشارت الآيات القرآنية مبكرة إلى ثمود، وذلك كما ذكرناه في قصة هود من قبل، لذلك نجد أكثر السور التي حدثتنا عن عاد تحدثت عن ثمود ومن هنا نجد أنّ أول سورة ذكرت فيها ثمود هي سورة الفجر التي ذكرت فيها عاد ـ كما قلنا من قبل ـ، ومن هنا كانت الإشارة إلى ثمود كالإشارة إلى عاد تتحدث عن جوانب القوة ومواطن الشدة وشدة البأس **﴿ألم تر كيف فعل ربُّك بعاد إرَمَ ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾** [الفجر: ٦ ـ ٩]..

ثمّ نجد إشارات في بعض الآيات كما جاء في سورة النجم و (صٓ) والفرقان، فآية النجم: **﴿وأنّه أهلك عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى﴾** وآية (صٓ): **﴿كذّبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب، إن كُلٌّ إلّا كذّب الرسل فحقّ عقاب﴾** وآية الفرقان: **﴿وعاداً وثمودَ وأصحاب الرسّ وقروناً بين ذلك كثيراً﴾** وفي سورة فصّلت بعد أن تحدثت عن عاد وما حلّ بهم، حدّثتنا عن ثمود. **﴿وأمّا**

ثمود فهديناهم فاستحبُّوا العمى على الهدىٰ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجَّينا الذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾

وأمّا في سورة الذّاريات بعد الحديث عن عاد حدّثتنا عن ثمود: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتّى حين، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين﴾

وأمّا سورة الحاقّة فلقد جاء فيها: ﴿كذَّبت ثمود وعاد بالقارعة فأمّا ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾..

ولعلَّ السورة الوحيدة التي انفردت فيها الإشارة إلى ثمود دون عاد هي سورة الإسراء جاءت تتحدث حسب موضوعها وهو أنَّ الآيات التي يؤيد الله بها الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ لا تجدي الذين جاءت من أجلهم، لأنهم يكذبون بها فيحل عليهم العذاب، وما هم أهل مكة ما زادتهم آية الإسراء إلاّ إعراضاً، ولا عجب فمن قبلهم ثمود كذلك قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نُرسل بالآيات إلاَّ أن كذَّب بالأوَّلون وآتينا ثمود الناقة مُبصرة فظلموا بها وما نُرسل بالآيات إلاَّ تخويفاً﴾ [الإسراء: ٥٩]..

أمَّا السور التي تتحدث بشيء من التفصيل عن قصة صالح ـ عليه السَّلام ـ فهي: الشمس والقمر والأعراف والشعراء والنمل وهود والحجر وكثير من السور التي تحدثت عن هود كما سبق بيانه.

أمَّا الشمس: فلقد خصَّت بالحديث عن ثمود دون عاد. وهذه أول سورة أشارت إلى ثمود وحدها وبشيء من التفصيل، ثمَّ جاءت سورة القمر وبعد أن حدَّثتنا عن عاد حدَّثتنا عن ثمود، ثمَّ جاءت سورة الأعراف، وهي أول سورة يذكر فيها اسم صالح ـ عليه السَّلام ـ وقد أضافت إلى موضوع القصة قضايا عقيدية واجتماعية. ثمَّ جاءت سورة الشعراء وبعدها سورة النمل، ثمَّ جاءت سورة هود وسورة الحجر وسورة العنكبوت[1].

---

(١) انظر: سورة الفجر ٦ ـ ٩، النجم: ٥٠، سورة (صۤ) ١٢ ـ ١٤، الفرقان: ٣٨، فصِّلت. =

صفحة أخرى ورواية واحدة :

وهذه صفحة أخرى من صحائف قصة البشرية، وهي تمضي في خضم التاريخ. وهي ذات نكسة أخرى إلى الجاهلية، ومشهد من مشاهد اللقاء بين الحق والباطل، ومصرع جديد من مصارع المكذبين.

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا. قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ [هود: ٦١]..

ذات الكلمة الواحدة التي بها بدأ هذا الدين وإليها يعود. وذات المنهج الواحد في الاعتقاد والاتجاه والمواجهة والتبليغ. ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ إنها الكلمة التي لا تتغير: ﴿قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.

إن صالحاً يناديهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.. هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ [هود: ٦١]. فهو يناديهم بما في نشأتهم ووجودهم في الأرض من دليل فطري منطقي لا يملكون له رداً. فهم ما كانوا يزعمون أنهم هم أنشأوا أنفسهم، ولا أنهم هم كفلوا لأنفسهم البقاء، ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التي يستمتعون بها في الأرض.

والظاهر أنهم لم يكونوا يجحدون أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي أنشأهم من الأرض، وهو الذي أقدرهم على عمارتها. ولكنهم ما كانوا يتبعون هذا الاعتراف بألوهية الله ـ سبحانه ـ وإنشائه لهم واستخلافهم في الأرض، بما ينبغي أن يتبعه من الدينونة لله وحده بلا شريك، واتباع أمره وحده بلا

= ١٧ ـ ١٨، الذاريات: ٤٣ ـ ٤٥، الحاقة: ٤، ٥، الإسراء: ٥٩، الشمس: ١١ ـ ١٥، القمر: ٢٣ ـ ٣٢، الأعراف: ٧٣ ـ ٧٩، الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٩، النمل: ٤٥ ـ ٥٣، سورة هود: ٦١ ـ ٦٨، سورة الحجر: ٨٠ ـ ٨٤، سورة العنكبوت: ٣٨، راجع القصص القرآني ص ١٠٨ ـ ١٢١.

منازع.. وهو ما يدعوهم إليه صالح بقوله: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾..

لقد كانت القضية هي ذاتها.. قضية الربوبية لا قضية الألوهية. قضية الدينونة والحاكمية قضية الاتباع والطاعة.. إنها القضية الدائمة التي تدور عليها معركة الإسلام مع الجاهلية!

﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله، فإذا هم فريقان يختصمون﴾ [النمل: ٤٥]..

يتلخص رسالة صالح ـ عليه السلام ـ في حقيقة واحدة: ﴿أن اعبدوا الله﴾.. فهذه هي القاعدة التي تقوم عليها رسالة السماء إلى الأرض في كل حين، ومع كل رسول. ومع أن كل ما حول البشر في هذا الكون، وكل ما يكمن فيهم نفسهم يهتف بهم إلى الإيمان بهذه الحقيقة، فقد أمضت البشرية أجيالاً وأزماناً لا يعلمها إلا الله، وهي تقف أمام هذه الحقيقة البسيطة وقفة الإنكار والجحود، أو وقفة الهزء والتكذيب. وما تزال إلى اليوم تروغ عن هذه الحقيقة الخالدة، وتجنح إلى شتى السبل التي تتفرق بها عن سبيل الله الواحد المستقيم.

إنها الكلمة التي لا تتغير. ﴿قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾

وإنه كذلك المنهج الذي لا يتبدل. ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾ [هود: ٦١]..

ثم هو التعريف بحقيقة الألوهية كما يجدها في نفسه الرسول: ﴿إن ربي قريب مجيب﴾.

وقد ذكرهم صالح بنشأتهم من الأرض. نشأة جنسهم، ونشأة أفرادهم من غذاء الأرض أو من عناصرها التي تتألف منها عناصر تكوينهم الجسدي. ومع أنهم من هذه الأرض. من عناصرها. فقد استخلفهم الله

فيها لتعمروها، يستخلفهم بعضهم ويستخلفهم بعضهم بعد الذاهبين من قبلهم.

ثمَّ هم بعد ذلك يعركون معه آلهة أُخرى.

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها. فاستغفروه ثمَّ توبوا إليه﴾.

واطمئنوا إلى استجابته وقبوله:

﴿إنَّ ربِّي قريب مجيب﴾..

والإضافة في «ربي» ولفظ «قريب» ولفظ «مجيب» واجتماعها وتجاورها.. ترسم صورة لحقيقة الألوهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة، وتخلع على الجو أنساً واتصالاً ومودة. تنتقل من قلب النبيّ الصالح إلى قلوب مستمعيه لو كانت لهم قلوب!

ومرة أُخرى نجد حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة. قلوب الرسل الكرام. نجدها في قول صالح التي يحكيها عنه القرآن:

﴿قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنة من ربِّي، وآتاني منه رحمة، فمن ينصرني من الله إن عصيته؟ فما تزيدونني غير تخسير﴾ [هود: ٦٣]

وذلك بعد أن يصف لهم ربه كما يجده في قلبه: ﴿إنَّ ربي قريب مجيب﴾..

وما تتجلَّى حقيقة الألوهية قط في كمالها وجلالها وروائها وجمالها كما تتجلَّى في قلوب تلك الصفوة المختارة من عباده. فهذه القلوب هي المعرض الصافي الرائق الذي تتجلى فيه هذه الحقيقة على هذا النحو الفريد العجيب(١)!

---

(١) يراجع فصل «حقيقة الألوهية» في كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الثاني.

ثمَّ نقف من القصة أمام الجاهلية التي ترى في الرشد ضلالاً؛ وفي الحق عجيبة لا تكاد تتصورها! فصالح الذي كان مرجواً في قومه، لصلاحه ولرجاحة عقله وحسنه، يقف منه قومه موقف اليائس منه، المفجوع فيه! لماذا؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده. على غير ما ورثوا عن آبائهم من الدينونة لغيره!

إنَّ القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة، لا يقف عند حد في ضلاله وشروده. حتى إنَّ الحق البسيط الفطري المنطقي ليبدو عنده عجيبة العجائب التي يعجز عن تصورها. بينما هو يستسيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق فطري أو منطق عقلي على الإطلاق!

ولكن قلوب القوم كانت قد بلغت من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر معها جمال تلك الصورة ولا جلالها، ولا تحس بشاشة هذا القول الرفيق، ولا وضاءة هذا النحو الطليق.. وإذا بهم يفاجأون، حتى ليظنون بأخيهم صالح الظنون!

﴿قالوا: يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا! أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ وإننا لفي شكٍّ ممَّا تدعونا إليه مريب﴾. [هود: ٦٢] لقد كان لنا رجاء فيك.. كنت مرجواً فينا لعلمك أو لعقلك أو لصدقك أو لحسن تدبيرك، أو لهذا جميعه. ولكن هذا الرجاء قد خاب.

﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾..

إنَّها للقاصمة! فكل شيء يا صالح إلا هذا! وما كنا نتوقع أن تقولها! فيا لخيبة الرجاء فيك! ثم إنَّنا لفي شك ممَّا تدعونا إليه. شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول..

وهكذا يعجب القوم ممَّا لا عجب فيه؛ بل يستنكرون ما هو واجب وحق، ويدهشون لأن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده. لماذا؟ لا لحجة ولا لبرهان ولا لتفكير. ولكن لأنَّ آباءهم يعبدون هذه الآلهة!

وهكذا يبلغ التحجر بالنس أن يعجبوا من الحق المبين . وأن يعللوا العقائد بفعل الآباء!

وهكذا يتبين مرة وثانية وثالثة أنَّ عقيدة التوحيد في صميمها دعوة للتحرر الشامل الكامل الصحيح . ودعوة إلى إطلاق العقل البشري من عقال التقليد، ومن أوهاق الوهم والخرافة التي لا تستند إلى دليل. وتذكرنا قولة ثمود لصالح :

﴿قد كنتَ فينا مرجواً قبل هـٰذا﴾ .

تذكرنا بما كان لقريش من ثقة بصدق محمَّد ﷺ وأمانته . فلمَّا أن دعاهم إلى ربوبية الله وحده تنكروا له كما تنكر قوم صالح . وقالوا سحر . وقالوا : مفتر ونسوا شهادتهم له وثقتهم فيه! إنَّها صيغة واحدة، ورواية واحدة تتكرر على مدى العصور والدهور . .

الكبرياء الجوفاء :

ثمَّ ردُّ قوم صالح بكبرياء متعالية ﴿فقالوا : أبشراً منا واحداً نتبعه؟ إنَّا إذاً لفي ضلال وسُعُر﴾ [القمر : ٢٤] .

وهي الشبهة المكرورة التي تحيك في صدور المكذبين جيلاً بعد جيل . كما أنَّها هي الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة، إنَّما تنظر إلى شخص الداعية : ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه؟﴾!

وماذا في أن يختار الله واحداً من عباده . والله أعلم حيث يجعل رسالته . فيلقي عليه الذكر ـ أي الوحي وما يحمله من توجيهات للتذكر والتدبر ـ ماذا في هذا الاختيار لعبد من عباده يعلم منه تهيؤه واستعداده . وهو خالق الخلق . وهو منزل الذكر؟

﴿قالوا : إنَّما أنت من المسحرين . ما أنت إلَّا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصَّادقين﴾ [الشعراء : ١٥٣، ١٥٤] .

إنما أنت ممن سُحرت عقولهم فهم يهرفون بما لا يعرفون! كأنما **الدعوة إلى الله لا يدعوها إلاَّ مجنون!**

﴿ما أنت إلاَّ بشر مثلنا﴾.

وتلك هي الشبهة التي ظلت تحايل البشرية كلما جاءها رسول. فقد كان تصور البشرية القاصر للرسول عجيباً دائماً. وما كانت تدرك حكمة الله في أن يكون الرسول بشراً. وما كانت تدرك كذلك تكريم هذا الجنس البشري باختيار الرسل منه ليكونوا رواد البشرية المتصلين بمصدر الهدى والنور.

وكانت البشرية تتصور الرسول خلقاً آخر غير البشر. أو هكذا ينبغي أن يكون: ما دام يأتي إليها بخبر السماء، وخبر الغيب، وخبر العالم المحجوب عن البشر. ذلك أنها ما كانت تدرك سر هذا الإنسان الذي كرمه الله به، وهو أنه موهوب القدرة على الاتصال بالملأ الأعلى وهو على هذه الأرض مقيم. يأكل ويشرب ويتزوج ويمشي في الأسواق ويعالج ما يعالجه سائر البشر من المشاعر والنوازع، وهو متصل بذلك السر العظيم.

إنها شبهة واهية لا تقوم إلاَّ في النفوس المنحرفة. النفوس التي لا تريد أن تنظر في الدعوى لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق، ولكن إلى الداعية وتستكبر عن اتباع فرد من البشر، مخافة أن يكون في اتباعه إيثار له وتعظيم، وهي تستكبر عن الإذعان والتسليم.

ومن ثمَّ يتقولون لأنفسهم. ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه؟ إنَّا إذن لفي ضلال وسُعر﴾.. أي لو وقع منا هذا الأمر المستنكر! وأعجب شيء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى! وأن يحسبوا أنفسهم في سُعر - لا في سعير واحد - **إذا هم فاؤوا إلى ظلال الإيمان!**

ومن ثمَّ يتهمون رسولهم الذي اختاره الله ليقودهم في طريق الحق والقصد، يتهمونه بالكذب والطمع ﴿بل هو كذاب أشر﴾.. كذاب لم يُلق

عليه الذكر أشر شديد الطمع في اختصاص نفسه بالمكانة! وهو الاتهام الذي يوجه به كل داعية. اتهامه أنه يتخذ الدعوة ستاراً لتحقيق مآرب ومصالح. وهي دعوة المطموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس ومحركات القلوب.

وبينما يجري السياق على أسلوب الحكاية لقصة غبرت في التاريخ. يلتفت فجأة وكأنما الأمر حاضر والأحداث جارية. فيتحدث عما سيكون. ويهدد بهذا الذي سيكون:

﴿سيعلمون غداً من الكذّاب الأشر﴾ [القمر: ٢٦].

وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصص، وهي طريقة تنفخ روح الحياة الواقعية في القصة، وتحيلها من حكاية تحكى، إلى واقع يعرض على الأنظار، يترقب مصيره حدثها الآن، ويرتقبونه في نفس الزمان!

سيكشف لهم الغد عن الحقيقة. ولن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة فستكشف عن البلاء المدمر للكذاب الأشر!

ويقول صالح كما قال جده نوح:

﴿قال: يا قوم أرأيتم إن كنت على بيِّنة من ربِّي وآتاني منه رحمة. فمن ينصرني من الله إن عصيته؟ فما تزيدونني غير تخسير﴾ [هود: ٦٣]

يا قوم ماذا ترون إن كنت أجد في نفسي حقيقة ربي وأجده بينة. تجعلني على يقين من أن هذا هو الطريق؟ وآتاني منه رحمة فاختارني لرسالته وأمدني بالخصائص التي تؤهلني لها. فمن ينصرني من الله إن أنا عصيته فقصّرت في إبلاغكم دعوته، احتفاظاً برجائكم فيّ؟ أينفعني هذا الرجاء وناصري من الله؟ كلا:

﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته؟ فما تريدونني غير تخسير﴾

ما تزيدونني إلا خسارة على خسارة. غضب الله وحرماني شرف

الرسالة وخزي الدنيا وعذاب الآخرة. وهي خسارة بعد خسارة، ولا شيء إلا التخسير! والتثقيل والتشديد!

ويحكي القرآن خلاصة موقف قوم صالح ـ ثمود ـ بعد دعوته إياهم، وجهده معهم بأنهم أصبحوا فريقين يختصمون: فريقاً يستجيب له، وفريقاً يخالف عنه. وكان الفريق المعرض هو الكثرة. ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾ [النمل: ٤٥].

وقد استعجل المكذبون المعرضون عذاب الله الذي أنذرهم به صالح. بدلاً من أن يطلبوا هدى الله ورحمته ـ شأنهم في هذا شأن مشركي قريش مع الرسول الكريم ـ فأنكر عليهم صالح أن يستعجلوا بالعذاب ولا يطلبوا الهداية، وحاول أن يوجههم إلى الاستغفار لعل الله يدركهم برحمته:

﴿قال: يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؟ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون﴾ [النمل: ٤٦]..

ولقد كان يبلغ من فساد القلوب أن يقول المكذبون: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: ٣٢]. بدلاً من أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إلى الإيمان به والتصديق!

وكذلك كان قوم صالح يقولون. ولا يستجيبون لتوجيه رسولهم إلى طريق الرحمة والتوبة والاستغفار. ويعتذرون عن ضيقهم به وبالذين آمنوا معه بأنهم يرونهم شؤماً عليهم، ويتوقعون الشر من ورائهم

﴿قالوا: اطيرنا بك وبمن معك﴾ [النمل: ٤٧]..

والتطير: التشاؤم مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلة التي تجري وراء الخرافات والأوهام، لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان. فقد كان الواحد منهم إذا همَّ بأمر لجأ إلى طير فزجره أي أشار إليه مطرداً. فإن مرَّ

سانحاً عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر، وإن مرّ بارحاً عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضرّ!

وما تدري الطير الغيب، وما تنبئ حركاتها المتفلتة عن شيء من المجهول. ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لا تعرفه وما لا تقدر عليه. فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات التي لا تقف عند حد، ولا تخضع لعقل، ولا تنتهي إلى اطمئنان ويقين.

وحتى هذه اللحظة ترى الذين يهربون من الإيمان بالله، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه، لأنهم - بزعمهم - قد انتهوا إلى حد من العلم لا يليق معه أن يركنوا إلى خرافة الدين! - هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا بدينه ولا بغيبه - تراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم ١٣، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم، وعلى إشعال أكثر من لفافتين بعود ثقاب واحد .. إلى آخر هذه الخرافات الساذجة. ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة وهي جوعتها إلى الإيمان، وعدم استغنائها عنه، وركونها إليه تفسير كثير من حقائق هذا الكون التي لم يصل إليها علم الإنسان، وبعضها لن يصل إليه في يوم من الأيام، لأنه أكبر من الطاقة البشرية، ولأنه خارج عن اختصاص الإنسان. زائد على مطالب خلافته في هذه الأرض، التي زود على قدرها بالمواهب والطاقات!

فلمّا قال قوم صالح قولتهم الجاهلة الساذجة، الضالة في تيه الوهم والخرافة، ردهم صالح إلى نور اليقين، وإلى حقيقته الواضحة، البعيدة عن الضباب والظلام:

﴿قال: طائركم عند الله﴾..

حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله. والله قد سنّ سنناً وأمر الناس بأمور، وبيّن لهم الطريق المستنير. فمن اتبع سنة الله، وسار على هداه،

فهناك الخير، بدون حاجة إلى زجر الطير. ومن انحرف عن السنة، وحاد عن السواء، فهناك الشر، بدون حاجة إلى التشاؤم والتطير.

﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ [النمل: ٤٧]

تفتنون بنعمة الله، وتختبرون بما يقع لكم من خير ومن شر. فاليقظة وتدبر السنن، وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وابتلاء هو الكفيل بتحقيق الخير في النهاية. لا التشاؤم والتطير بعض خلق الله من الطير ومن الناس سواء.

وهكذا ترد العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح والاستقامة في تدبر الأمور. وترد قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم. وتشعرهم أن يد الله وراء هذا كله، وأن ليس شيء مما يقع عبثاً أو مصادفة.

وبذلك ترتفع قيمة الحياة وقيمة الناس. وبذلك يقضي الإنسان رحلته على هذا الكوكب غير مقطوع الصلة بالكون كله من حوله، وبخالق الكون ومدبره، وبالنواميس التي تدبر هذا الكون وتحكمه بأمر الخالق المدبر الحكيم.

القلوب الجاسية والمعجزة الخارقة

ولكن هذا المنطق المستقيم إنما تستجيب له القلوب التي لم تفسد، ولم تنحرف الانحراف الذي لا رجعة منه. وهذه اللمسات وهذه النداءات لا تصل إلى تلك القلوب الجاسية الجافية، التي لا تصغي ولا تعي.

وكانت البشرية جيلاً بعد جيل تطلب خارقة معجزة من الرسول تدل على أنه حقاً مرسل من الله: ﴿فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وهكذا طلبت ثمود تلك الخارقة، فاستجاب الله لعبده صالح. وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة؛ لا نخوض في وصفها كما خاض المفسرون

اعتمادي، لأنه ليس لدينا سند صحيح نعتمد عليه في هذا الوصف. ولكنني أعتقد بأنها كانت خارقة كما طلبت ثمود. وكانت تلك المعجزة التي صاحبت دعوة صالح، حين طلبها قومه للتصديق. فها هو ذا يقول لهم ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم، هذه ناقة الله لكم آية﴾ [الأعراف: ٧٣].

ولا يذكر القرآن صفة لهذه الناقة التي أشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة. ولكن في إضافتها لله ﴿هذه ناقة الله﴾ وفي تخصيصها لهم ﴿لكم آية﴾ ما يشير إلى أنها كانت ذات صفات خاصة مميزة، يعلمون بها أنها آية لهم من الله ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية، فذروها تأكل في أرض الله، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾ [هود: ٦٤]. إنها ناقة الله وإنها آية منه. وهكذا نستنتج من السياق القرآني أنها كانت غير عادية، أو أنها أخرجت لهم إخراجاً غير عادي مما يجعلها آية من ربهم، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى، ويجعلها آية على صدق نبوته. ولا نريد على هذا شيئاً مما لم يرد ذكره من أمرها في هذا المصدر المستيقن. وفيما جاء في هذه الإشارة كفاية عن كل تفصيل آخر. ونكتفي بهذا دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التي تعج بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح فيما مضى وفيما سيجيء.

لقد كانت آية صالح الناقة. ولكن الآيات في هذا الكون كثير ﴿وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾ [الحجر: ٨١] والآيات في هذه الأنفس كثير، وكلها معروضة للأنظار والأفكار. وليست الخارقة التي جاءهم بها صالح هي وحدها الآية التي آتاهم الله. وقد أعرضوا عن آيات الله كلها، ولم يتفتح لها عقل ولا قلب، ولم يستشعرها فيهم عقل ولا ضمير. ولنمض مع نصوص القرآن حول ناقة صالح الذي ﴿قال هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم. ولا تمسوها بسوء، فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦].

لقد جاءهم بالناقة، على شرط أن يكون الماء الذي يستقون منه يوماً

للناقة ويوماً لهم، لا يجورون عليها في يومها، ولا تجور عليهم في يومهم، ولا يختلط شرابها بشرابهم، كما لا يختلط يومها بيومهم. ولقد حذرهم أن ينالوها بسوء على الإطلاق. وإلاّ أخذهم عذاب يوم عظيم.

وكانت الناقة امتحاناً وفتنة للقوم ﴿**إنّا مرسلو الناقة فتنة لهم. فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أنّ الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر**﴾ [القمر: ٢٧ - ٢٨]..

ويقف القارىء يترقب ما سيقع. عندما يرسل الله الناقة فتنة لهم، وامتحاناً مميزاً لحقيقتهم. ويقف الرسول - رسولهم عليه السّلام - مرتقباً ما سيقع، مؤتمراً بأمر ربه في الاصطبار عليهم حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان. ومعه التعليمات.. أنّ الماء في القرية قسمة بينهم وبين الناقة - ولا بد أنّها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة - فيوم لها ويوم لهم - تحضر يومها ويحضرون يومهم. وتنال شربها وينالون شربهم.

إنّها ناقة الله، فذروها تأكل في أرض الله، وإلاّ فهو النذير بسوء المصير..

وبعد عرض الآية والإنذار بالعاقبة، يأخذ صالح في النصح لقومه بالتدبر والتذكر، والنظر في مصائر الغابرين، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين

﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد، وبوّأكم في الأرض، تتّخذون من سهولها قصوراً، وتنحتون الجبال بيوتاً. فاذكروا آلاء الله، ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ [الأعراف: ٧٤]..

ونلمح من تذكير صالح لهم. أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود، كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه. فهو سهل وجبل، وقد كانوا يتخذون في السهل القصور، وينحتون في الجبال البيوت. فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير. وصالح يذكرهم

استخلاف الله لهم من بعد عاد، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد، وأنَّ سلطانهم امتدَّ خارج الحجر. وبذلك صاروا خلفاء ممكنين في الأرض، محكمين فيها. وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد، اغتراراً بالقوة والتمكين، وأمامهم العبرة ماثلة في عاد لعابرين!

وقد آمنت طائفة من قوم صالح، واستكبرت طائفة. والملأ هم آخر من يؤمن بدعوة تُجردهم من السلطان في الأرض، وترده إلى إله واحد هو رب العالمين! ولا بد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد!

وهكذا نرى الملأ المستكبرين من قوم صالح يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد:

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ـ لمن آمن منهم ـ أتعلمون أنَّ صالحاً مرسل من ربه؟﴾ [الأعراف: ٧٥]

وواضح أنَّه سؤال للتهديد والتخويف، ولاستنكار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه. ولكنَّ الضعاف لم يعودوا ضعافاً! لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، والاطمئنان في منطقهم. إنَّهم على يقين من أمرهم، فماذا يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار.. من الملأ المستكبرين؟

﴿قالوا: إنَّا بما أُرسل به مؤمنون﴾..

ومن ثمَّ يعلن الملأ من موقفهم في صراحة تحمل طابع التهديد:
﴿قالوا: إنَّا بالَّذي آمنتم به كافرون﴾ [الأعراف: ٧٦]..

على الرغم من البيِّنة التي جاءهم بها صالح. والتي لا تدَعُ ريبة لمستريب. إنَّه ليست البيِّنة هي التي تنقص الملأ للتصديق. إنَّه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد.. إنَّها عقدة الحاكمية والسلطان، إنَّها شهوة

لحنك لعميقه في الإنسان! إنه الشيطان الذي يقود الضالين من هذا الخطام!

وبعد.. فماذا فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعنتين؟

إنها لم تسكب الإيمان في القلوب الجاحدة؛ ولم تطلع النور في الأرواح المظلمة. على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها.. وكان من قوم صالح، من كبرائهم، تسعة نفر لم يبق في قلوبهم موضع للصلاح والإصلاح. فراحوا يتآمرون به، ويدبرون له ولأهله في الظلام..

﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يُصلحون. قالوا: تقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله، ثمّ لنقولنّ لوليه: ما شهدنا مهلك أهله. وإنّا لصادقون﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]..

هؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد والإفساد، لم يعد فيها متسع للصلاح والإصلاح. فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته، وبيتوا فيما بينهم أمراً.

ومن العجب أن يتداعوا إلى القسم بالله مع هذا الشر المنكر الذي يبيتونه، وهو قتل صالح وأهله بياتاً، وهم لا يحلفون إلا بعهد الله!

وإنه لمن العجب كذلك أن يقولوا: «تقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله ثم لنقولنّ لوليه: ما شهدنا مهلك أهله» ولا حضرنا مقتله. ﴿وإنّا لصادقون﴾.. فقد تسترهم في الظلام فلم يشهدوا هلاكهم أي لم يروه بسبب الظلام!

وهو حنث مفضوح وحيلة ساذجة.. ولكنهم يطمئنون أنفسهم بها، ويبررون كذبهم، الذي اعتزموه ليتخلصوا من أولياء دم صالح وأهله.

نعم من العجب أن يحرص مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين! ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والالتواءات، وبخاصة حين لا تهتدي

بنور الإيمان، الذي يرسم لها الطريق المستقيم.

وهكذا تحالف هؤلاء النفر المفسدون المحرفون أن يتسللوا إلى نبيهم صالح في جنح الظلام، ويباغتوه وأهله نيام، فيوقعوا به في غفلة من الناس، كما أجمعوا أمرهم بينهم على أن يكون التخلص من صالح سراً لا يذيعونه، ظناً منهم أن قتل صالح وأهله سيريحهم من عنائه لهم وسيعصمهم من العذاب الذي كان يتهددهم به. لكن الله القوي العزيز حمى صالحاً من كيد أعدائه، فأحبط مكرهم ورد إليهم كيدهم، وعكس عليهم أمرهم **﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾** [النمل: ٥٠].

فساد عريض وعذاب قريب :

وبلغ الفساد في القوم شوطاً بعيداً، وتمادوا في طغيانهم، وتعالوا على سنن رب العالمين، ولم يحفظوا عهدهم في شأن ناقة الله التي أرسلها لهم آية. وحذرهم صالح أن تمتد إليها يد بسوء **﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾**. ها هم أولاء لم يوفوا بشرطهم في آية الله وأتبعوا القول بالعمل، فاعتدوا على ناقة الله التي جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه في دعواه؛ والتي حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم.

لقد حذرهم صالح عذاباً عاجلاً. يدل على هذه المعاجلة فاء الترتيب في العبارة. ولفظ قريب. **﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾** [هود: ٦٤] يأخذكم أخذاً. وهي حركة أشد من المس أو الوقوع.

﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ [القمر: ٢٩]..

وصاحبهم هو أحد الرهط المفسدين في المدينة الذين تقدم ذكرهم: **﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾**. وهو الذي قال الله عنه **﴿إذ انبعث أشقاها﴾** [الشمس: ١٢].

وقيل: إنه تعرض لخمر فسكر ليصير جريئاً عليها لفعلته التي هو مقدم عليها. وهي عقر الناقة التي أرسلها الله آية لهم: وحذرهم رسولهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم العذاب. ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾. وتمت الفتنة ووقع البلاء. وهكذا يعرض القرآن الكريم نموذجاً من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يدسي نفسه فيحجبها عن الهدى ويدنسها ممثلاً هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك:

﴿كذبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسول الله: ناقة الله وسُقياها. فكذبوه فعقروها فدمْدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ولا يخاف عُقباها﴾ [الشمس: ١١ - ١٥]..

ويذكر القرآن أن ثمود بسبب من طغيانها كذبت نبيها. فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب. وتمثل هذا الطغيان في انبعاث أشقاها. وهو الذي عقر الناقة. وهو أشدها شقاء، وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على هذه الفعلة فقال لهم: احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا الماء الذي جعل لها يوماً، ولهم يوم كما اشترط عليهم عندما طلبوا منه آية فجعل الله هذه الناقة آية. فكذبوا النذير فعقروا الناقة.

والذي عقر الناقة هو هذا الأشقى. ولكنهم جميعاً حملوا التبعة، وعُدوا أنهم عقروها **﴿فعقروها﴾**.

والعقر: النحر. ودلّ عقرهم للناقة، أي ضربهم لها بالسيف في قوائمها وقتلها على هذا النحو، دلّ على فساد قلوبهم واستهتارهم. والذين عقروها منهم هم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. ولقد حذّرهم صالح وأنذرهم فلم يخشوا النذير. والذي تولى القيام بهذه الجريمة ذلك الشقي التعيس **﴿إذ انبعث أشقاها﴾**. وعُدُّوا أنهم عقروها، لأنهم لم يضربوا على يده، بل استحسنوا فعلته. ومن ثمّ كتب خطيئته على الجميع. وكان الجميع مؤاخذين بهذا الإثم العظيم. وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام

الرئيسية في التكافل في التبعة الاجتماعية في الحياة الدنيا، لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي حيث لا تزر وازرة وزر أخرى. على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والتحضيض على البر والأخذ على يد الساعي بالشر.

ولقد ندم القوم على فعلتهم. ولكن بعد فوات الأوان وتصديق النذير.. ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ [الشعراء: ١٥٧].. أمّا الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فقد علوا وعتوا وتحدوا واستهتروا بالنذير ﴿فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنتَ من المرسلين﴾ [الأعراف: ٧٧]..

إنّ التبجح الذي يصاحب المعصية ويعبر عن عتيّهم بقوله ﴿عتوا﴾ إبراز سمة التبجح فيهم، وليصور الشعور النفسي المصاحب لها والذي يعبّر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير.

ثمّ يتابع السياق القرآني عجلة العذاب فيبرز هذا التعقيب في كل الخطوات ﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾(١) [هود: ٦٥].

---

(١) [illegible] الذي وجهه إليهم صالح ـ عليه السلام ـ [illegible] ثلاثة أيام حتى حلّ بهم الهلاك والدمار.

يقول ابن كثير: فأصبحت ثمود في اليوم الأول وهو يوم الخميس ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح ـ عليه السلام ـ فلمّا أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم الأجل، ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة. فلمّا أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل ثم أصبحوا في اليوم الثالث وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلمّا أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل

فلمّا كان صبيحة يوم الأحد تأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة. فلمّا أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة من أسفل منهم. ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها. وفي ذلك يقول الله

فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة ﴿وذلك وعد غير مكذوب﴾ فهو وعد صادق لن يحيد

﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتّى حين. فعتوا عن أمر ربهم، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين﴾ [الذاريات: ٤٣ ـ ٤٥]..

والإشارة في قوله: ﴿إذ قيل لهم تمتعوا حتّى حين﴾ قد تعني مهلتهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة. وقد تعني ما قدر لهم من الفسح منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، فحقّ عليهم الهلاك. ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين. فأخذهم العذاب﴾. فالعذاب لم يتأخر فقد تحركت يد القدرة تبطش البطشة الكبرى ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها﴾ [الشمس: ١٤]..

والدمدمة الغضب وما يتبعه من تنكيل، واللفظ ذاته ﴿دمدم﴾ يوحي بما وراءه، ويصور معناه بجرسه. ويكاد يرسم مشهداً مروعاً مخيفاً. وقد سوّى الله أرضهم عاليها سافلها، وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد.

﴿فكيف كان عذابي ونذر؟﴾ [القمر: ٣٠] وهو سؤال للتعجيب والتهويل. ﴿إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ [القمر: ٣١]..

ولا يفصل القرآن هذه الصيحة. وإن كانت في موضع آخر توصف بأنها صاعقة: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [فصّلت: ١٣] وقد تكون كلمة صاعقة وصفاً للصيحة. فهي صيحة

سبحانه: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنّ في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾..

صاعقة وقد تكون تعبيراً عن حقيقتها. فتكون الصيحة والصاعقة شيئاً واحداً وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة. أو تكون الصاعقة أثراً من آثار الصيحة التي لا ندري من صاحبها. ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم مثل صاعقة عاد وثمود﴾.. ﴿وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ [فصّلت: ١٧]..

ويظهر أن هذه إشارة إلى اهتدائهم بعد آية الناقة. ثم ردتهم وكفرهم بعد ذلك. وإيثارهم العمى على الهدى. والضلال بعد الهدى عمى أشد العمى!

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة، فتعلت بهم ما فعلت. فإذا جعلتهم ﴿كهشيم المحتظر﴾. والمحتظر صانع الحظيرة، وهو يستعمل من أعواد جافة. فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيماً. أو أن المحتظر يجمع لماشيته هشيماً تأكله من الأعواد الجافة والعشب اليابس. وقد صار القوم كذلك.. ليشيم بعد الصيحة الواحدة!

﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾ [فصّلت: ١٧]..

والهون لمسة خاصة. فليس هو العذاب فحسب. وليس هو الهلاك فحسب. ولكنه كذلك الهوان جزاء على العمى بعد الإيمان.

إنه الإنذار بهذا المصرع المخيف. وينكشف لهم سلطان الله الذي لا ترده قوة ولا يعصم منه حصن، ولا يبقي على مستكبر مريد.. ﴿فلمّا جاء أمرنا نجّينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منّا ومن خزي يومئذٍ..﴾ [هود: ٦٦]

وهكذا.. فلما جاء موعد تحقيق الأمر، وهو الإنذار أو الإهلاك.. نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا.. خاصة ومباشرة.. ونجيناه من الموت ومن خزي ذلك اليوم. فلقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية، وكان

مشهدهم جاثمين في دورهم بعد الصاعقة المدوية التي تركتهم موتى على هيئتهم مشهداً مخزياً ﴿إنَّ ربَّك هو القوي العزيز﴾ .

ونتنظر كيف كان عاقبة التكذيب . ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأمَّا ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ [الحاقة: ٤ ، ٥] . وقد وصف الصيحة دون لفظها . ﴿بالطاغية﴾ لأنَّ هذا الوصف يفيض بالهول.

وفي آية واحدة تطوي ثمود طياً، وتغمرهم غمراً، وتعصف بهم عصفاً. وتطغى عليهم فلا تبقي لهم ظلاً!

لقد كانت وقعة ثمود خاطفة صيحة واحدة . صعقة . طاغية . ﴿فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ [الأعراف ٧٨] .

والرجفة والجثوم، جزاء مقابل للعتوّ والسخر. فالرجفة يصاحبها الفزع، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك. وما أجدر العاتي أن يرتجف، وما أجدر المعتدي أن يعجز. جزاءً وفاقاً في المصير وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير. ويدعهم السياق على هيئتهم. ﴿جاثمين﴾ . ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبوه وتحدوه:

﴿فتولّى عنهم، وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم، ولكن لا تحبُّون الناصحين﴾ [الأعراف: ٧٩] .

إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح، والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتوّ والتكذيب فصاروا ﴿كهشيم المحتظر﴾.

وهو مشهد مفجع مفزع. يُعرض رداً على التعالي والتكبر فإذا المتعالون المتكبرون هشيم. وهشيم مهين. كهشيم المحتظر!

وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين. ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين.. فلمَّا أكثروا في الأرض الفساد، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد ﴿فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب إنَّ ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٣ ، ١٤]. فربُّك راصد لهم ومسجل لأعمالهم. فلمَّا

أن كثر الفساد وزاد صبَّ عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصبّ. حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد.

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وفي أي مكان. ومن قوله تعالى: ﴿إنَّ ربَّكَ لبالمرصاد﴾ تفيض طمأنينة خاصة. فربُّك هناك راصد لا يفوته شيء. مراقب لا يندُّ عنه شيء، فليطمئن بال المؤمن، ولينم ملء جفونه. فإنَّ ربك هناك!.. بالمرصاد.. للطغيان والشر والفساد!

فهو - سبحانه - القادر القوي العزيز ﴿إنَّ ربك هو القوي العزيز﴾ ﴿فدمدم عليهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها﴾.

﴿ولا يخاف عقباها﴾.. سبحانه وتعالى. ومن ذا يخاف؟ وماذا يخاف؟ وأنَّى يخاف؟ إنَّما يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه. فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل، يبلغ غاية البطش حين يبطش. وكذلك بطش الله كان: ﴿إنَّ بطش ربك لشديد﴾. فهو إيقاع يُراد إيحاؤه وظله في النفوس.. فالله يأخذ العتاة أخذاً ولا يعز عليه أمر، ولا يهون من يتولاه ويرعاه.

تدبير وتدمير:

لقد طغى قوم صالح - ثمود - وتكبَّروا وغلوا ومكروا بنبيهم وبالمؤمنين، ودبروا للفساد والإفساد.

كذلك دبروا. وكذلك مكروا.. ولكن الله كان بالمرصاد يراهم ولا يرونه، ويعلم تدبيرهم ويطلع على مكرهم وهم لا يشعرون: ﴿ومكروا مكراً، ومكرنا مكراً. وهم لا يشعرون﴾ [النمل: ٥٠]..

وأي مكر من مكر؟ وأين تدبير من تدبير؟ وأين قوة من قوة؟

وكذا يخطىء الجبارون ويخدعون بما يمكرون من قوة ومن حيلة. ويغفلون عن العين التي ترى ولا تعمى، والقوة التي تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لا يشعرون:

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم. أنَّا دمَّرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ [النمل: ٥١، ٥٢] .. ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك. وإذا الدور الخاوية والبيوت الخالية. وقد كانوا يدبرون ويمكرون، ويحسبون أنَّهم قادرون على تحقيق ما يمكرون.

وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق لتظهر المباغتة الحاسمة القاضية. مباغتة القدرة التي لا تُغلب للمخدوعين بقوتهم؛ ومباغتة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المغترين بمكرهم.

﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين. فأخذتهم الصيحة مصبحين، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ [الحجر: ٨٢، ٨٤] وهذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال، إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقي لهم ممَّا جمعوا وممَّا كسبوا وممَّا بنوا وممَّا نحتوا شيئاً يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف..

هذه اللمحة تلمس القلب البشري لمسة عنيفة. فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر ممَّا يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور. وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع.. وها هم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم في ديارهم الحصينة آمنون. فإذا كل شيء ذاهب، وإذا كل وقاية ضائعة، وإذا كل حصين موهون.. فما شيء من هذا كله بواقيهم من الصيحة. وهي فرقعة ريح أو صاعقة، تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين.

إنَّها سنة الله محققة في أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم.

وأمام هذا المشهد العنيف المخيف، يرد الله سبحانه القلوب إلى

القرآن ليتذكروا ويتدبروا. وهو ميسر للتذكر والتدبر: ﴿ولقد يسَّرنا القرآن للذكر. فهل من مدّكر؟﴾ [القمر: ٣٢]. .

ويسدل الستار على الهشيم المهين. وفي العين منه مشهد. وفي القلب منه أثر. والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر: ﴿إنَّ في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ [النمل: ٥٢].

ثمَّ يجيء التعقيب. ﴿إنَّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإنَّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [الشعراء: ١٥٨، ١٥٩].

ثمَّ يعرض السياق مشهدهم. ممتحناً منهم، ومن سرعة زوالهم: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ [هود: ٦٨]. .

كأن لم يقيموا ويتمتعوا. . وإنَّه لمشهد مؤثر، وإنَّها لمسة مثيرة، والمشهد معروض. ومن بين الحياة والموت ـ بعد أن يكون ـ إلاَّ لمحة كومضة العين، وإذا الحياة كلها شريط سريع. كأن لم يغنوا فيها. .

ثمَّ الخاتمة التي يعلنها القرآن: تسجيل الذنب، وتشييع اللعنة، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى:

﴿ألا إنَّ ثمود كفروا ربهم. ألا بُعداً لثمود!﴾ [هود: ٦٨]

ومرة أخرى نجدنا أمام حلقة من حلقات الرسالة على مدار التاريخ. الدعوة هي الدعوة. وحقيقة الإسلام فيها هي حقيقته. . عبادة الله وحده بلا شريك، والدينونة لله وحده بلا منازع. . ومرة أخرى نجد الجاهلية التي تعقب الإسلام، ونجد الشرك الذي يعقب التوحيد ـ فثمود كعاد هم من ذراري المسلمين الذين نجوا في السفينة مع نوح ـ ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية، حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد.

ثمَّ نجد أنَّ القوم يواجهون الآية الخارقة التي طلبوها، لا بالإيمان والتصديق، ولكن بالجحود وعقر الناقة!

ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله ﷺ خارقة كخوارق

الناقة كي يؤمنوا. فها هم أولاء قوم صالح قد جاءتهم خارقة الخوارق فما أغنت معهم شيئاً!

إنّ الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق. إنه دعوة بسيطة تتدبرها القلوب والعقول. ولكن الجاهلية هي التي تطمس على القلوب والعقول!!!

وكم لله سبحانه من آيات تملأ الآفاق، وتنطق بعظيم قدرته ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنَّ في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٢].

إنّها جولة في مصارع الغابرين.. جولة تهزّ القلوب المستكبرة برؤية مصارع المستكبرين ﴿فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود[1]. إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألاّ تعبدوا إلاّ الله.﴾ [فصّلت: ١٣ ـ ١٤]..

وقد مرّ النّبيّ ﷺ بدور ثمود المدمَّرة مع صحابته في غزوة تبوك، فقد قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: مررنا مع رسول الله ﷺ بالحِجْر، فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلاّ أن تكونوا

---

(١) انظر قصة هذا الإنذار في تفسير ابن كثير (سورة فصّلت، الآية: ١٣)، وتفسير القرطبي وفي ظلال القرآن ٥/٣١١٦ وبقية كتب التفسير.
وقد روى البغوي في تفسيره حديثاً بسنده عن محمّد بن فضيل بن الأجلح ـ وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي (قال ابن كثير: وقد ضعف بعض الشيء) عن الذيال بن حرملة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه حين سمع عتبة بن ربيعة سورة فصّلت من رسول الله ﷺ حين تلاها عليه النّبيّ إلى قوله ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم.. الخ..

باكين، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم». ثمّ زجر فأسرع حتى خلّفها»[1].

قال الإمام الخطابي فيما نقله عنه الإمام البغوي في «شرح السنة»[2]: «معناه أنّ الداخل في دار قوم أهلكوا بخسف وعذاب إذا لم يكن باكياً، إمّا شفقة عليهم، وإمّا خوفاً من حلول مثلها به، كان قاسي القلب، قليل الخشوع، فلا يأمن إذا كان هكذا أن يصيبه ما أصابهم».

إنّ بأس الله لشديد.. ﴿أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون﴾ [الأعراف: ٩٩].

إنّ القرآن الكريم ليلمس الوجدان الإنساني بقوة، ويثير حذره وانتباهه.. ﴿أفأمنوا مكر الله؟﴾ وتدبيره الخفي المغيب على البشر.. ليتقوه ويحذروه، قبل أن تفجأهم غارة الله التي لا تملك لها البشرية دفعاً أو منعاً فالعذاب واقع حتماً، لا يملك دفعه أحد أبداً، وأمر الله ـ سبحانه ـ حاسم قاطع، داهم قاصم، ليس منه واق ولا عاصم، فالموقف جدّ، والحساب يقترب، والمعرضون عن آيات الله في غفلة عن الهدى، لاهية قلوبهم، يغدون في حياة عاطلة هينة رخيصة!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٠) (٣٩)، والبخاري (٣٣٨٠) (٣٣٨١) (٤٤١٩)، وأحمد ٩٦/٢، وابن حبان [انظر الإحسان ٦١٩٩].

وفي رواية: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذّبين إلّا أن تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» [انظر الإحسان رقم ٦٢٠٠]..

وعن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ نزل عام تبوك بالحِجْر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فنصبوا القدور، وعجنوا الدقيق، فقال رسول الله ﷺ «اكفؤوا القدور، واعلفوا العجين الإبل». ثمّ ارتحل، حتى نزل في الموضع الذي كانت تشرب منه الناقة، وقال: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم الذين عُذّبوا، فيصيبكم مثلُ ما أصابهم». [أخرجه أحمد ١١٧/٢، وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ١٠/٥، من رواية أحمد، وصححه على شرط الشيخين، وابن حبان. انظر الإحسان رقم ٦٢٠٣].

(٢) شرح السنة ٣٦٢/١٤.

فهرس الموضوعات

(قصة نوح - عليه السلام)

(قصة هود – عليه السلام)

(قصة صالح – عليه السلام)